

فوستيل دى كولانج

ميراث الترجمة

المدينة العتيقة

ترجمة: عباس بيومى بك
مراجعة: عبد الحميد الداوخل
تقديم: منيرة كروان



المدينة العتيقة

المشروع القومي للترجمة

إشراف جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المحرر: طلعت الشايب

- العدد : ١٠٧٨

- المدينة العتيقة (دراسة لعبادة الإغريق والرومان وشرعهم وأنظمتهم)

- فوستيل دي كولانج

- عباس بيومي بك

- عبد الحميد الداوخلي

- منيرة كروان

- ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

LA CITÉ ANTIQUE

FUustel de Coülanges

المجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

المشروع القومي للترجمة

المدنية العتيقة

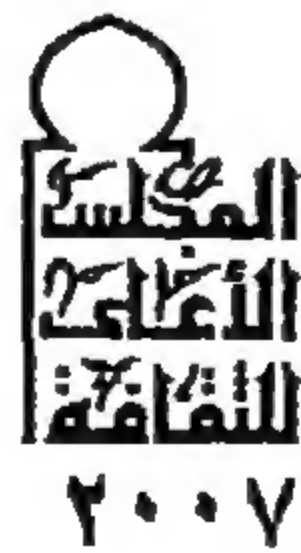
دراسة لعبادة الإغريق والرومان وشرعهم وأنظمتهم

تأليف : فوستيل دي كولانج

ترجمة : عباس بيومي بك

مراجعة : عبد الحميد الداواخلي

تقديم : منيرة كروان



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الضمنية

كولانج ، فوستيل دى
المدينة العتيقة : دراسة لعبادة الإغريق والرومان وشرعهم وأنظمتهم /
فوستيل دى كولانج ؛ مراجعة : عبد الحميد الداوخلى ؛ تقديم : منيرة
كروان - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧
٥٦٤ ص : ٢٤ سم .
١ - الحضارة الإغريقية .
٢ - الحضارة الرومانية .
(أ) الداوخلى ، عبد الحميد (مراجع) .
(ب) كروان ، منيرة (مقدمة)
(ج) العنوان .

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٥٠٨٣
الترقيم الدولى 8 - 232 - 437 - I.S.B.N 977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب
الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها
فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

تقديم

ليس من قبيل المبالغة أن نؤكد أن هذا الكتاب يجب ألا تخلو منه مكتبة من مكتباتنا، وأن المرء ، مهما كان تخصصه ومهما تنوعت اهتماماته ، سوف يهفو إلى قراءته بين الحين والآخر ، سواء كان دافعه محاولة فهم كيف نمت الحضارات القديمة حتى وصلت إلى مرحلة ظهور الديانات السماوية ، أو كان من المتخصصين ويرغب في التأكد من جزئية محددة أو نقطة بعينها في سياق تطور الحضارتين الإغريقية والرومانية .

لقد أصدر العالم فوستيل دي كولانج كتابه هذا عام ١٨٦٤ ، وتُرجم إلى العربية بتكليف من إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية (التربية والتعليم) عام ١٩٥٠ . ورغم مرور ما يقرب من قرن ونصف على تأليف هذا الكتاب وما يزيد على نصف قرن على صدوره مترجماً ، فإن أهميته للقارئ العام والمتخصص لم تتضاءل ، بل لقد أصبح من العلامات الفارقة التي تحتاج إلى إعادة طبعها والحفاظ عليها من الاندثار .

إن اهتمام وزارة المعارف العمومية بالكتب الأجنبية وبما كان يصدر آنذاك في أنحاء العالم المختلفة من كتب في شتى المجالات وتزايد هذا الاهتمام إلى حد إنشاء إدارة خاصة للترجمة تابعة لإدارة الثقافة العامة بالوزارة ، ليؤكد أن الصحوه التي تشهدها مصر حالياً في مجال الانفتاح على الثقافات الأجنبية وإقامة الجسور للتقارب بيننا وبين العالم من خلال الترجمة إلى العربية ومنها ، لم تنشأ من فراغ ، وليست وليدة اللحظة ، بل إنها تضرب بجذورها في الماضي البعيد حينما نهضت الحضارة العربية الإسلامية عندما اتجهت إلى تراث الأقدمين لترجمته وتنقيحه وتحقيقه .

تتزايد أهمية الكتاب للقارئ الباحث عن الحقيقة ؛ لأن مؤلفه رغم أنه فرنسي ، أى ينتمى للحضارة الغربية القائمة على التراث الكلاسيكي ، لا يؤمن بفكرة "الحضارة المعجزة" التى روج لها بعض المؤرخين والباحثين المتخصصين فى الحضارات القديمة ، خاصة الحضارة الإغريقية ؛ فقد غضوا الطرف عن الجوانب السلبية أو المظلمة فى تلك الحضارات وأثروا أن يقدموها فى صورة وردية مشرقة ، مثالية متأقّة ، فأغفلوا ذكر كل ما يتناسب مع هذه الصورة .

ولكن مؤلف هذا الكتاب أختار أن ينهج نهجاً مختلفاً ، فقدّم صورة لتطور الحضارتين الإغريقية والرومانية تجمع بين الألوان الزاهية والألوان القاتمة والظلال . ورغم أنه يغالى فى قيمة الدور الذى لعبه الدين فى تطور هاتين الحضارتين ، فإن ما نشهده على الساحة العربية والدولية يجعلنا نعيد التفكير ، ليس فى أهمية الدين فى حياة البشر ، فهى أهمية لا ينكرها حتى الجهلاء ، ولكن فى دوره الحافز الدافع لكل تقدم ورقى يشهده المجتمع البشرى بعكس ادعاءات البعض ومحاولاتهم الربط بين الدين - أى دين - والتخلف .

ومن اللافت للنظر أن المؤلف يبدأ استعراضه الطويل لتاريخ الحضارتين الإغريقية والرومانية من تأمله للفكرة التى كونها الإنسان عن مصيره بعد الموت ؛ فهذه الفكرة من وجهة نظره هى التى أنتجت الأنظمة والقوانين التى سادت فى هذين المجتمعين .

يتكون مؤلف فوستيل دى كولانج من خمسة أجزاء أو كتب إلى جانب المقدمة التى يؤكد فيها ضرورة دراسة عقائد القدماء إذا ما أردنا فهم أنظمتهم وتشريعاتهم وتطور مجتمعاتهم .

يستعرض المؤلف فى الكتاب الأول الذى خصصه لدراسة " العقائد العتيقة " تصور الإغريق والرومان للموت ، ومصير الروح ، وعبادة الأسلاف ، وارتباط ذلك بالديانة المنزلية . ويؤكد أن انتقال الديانة المنزلية من الأب إلى الابن ، أى من ذكر إلى ذكر ، أسفر عن نتائج جد خطيرة سواء فى القانون الخاص أو فى تكوين الأسرة . وفى الكتاب الثانى يستعرض المؤلف ، مستعيناً بمصادر تاريخية متنوعة ، تكوين

الأسرة فى العالم القديم ، وكيف كانت رابطة دينية أكثر منها رابطة طبيعية . فكثيراً ما أصبح الابن المتبنى ابناً حقيقياً فى الأسرة بسبب مشاركته فى عبادة الآلهة وعبادة الأسلاف . ورغم أن الديانة لم تكن السبب فى خلق هذا النظام الاجتماعى (الأسرة) ، ولكنها هى التى منحته قواعده ، فقد ارتبط الحق فى الإرث ، على سبيل المثال ، بالمساهمة فى عبادة آلهة الأسرة ، وبالتالي كان الزواج من وجهة نظر الإغريق والرومان ، مجرد رابطة بين كائنين فى نفس الديانة المنزلية لكى يولد منها ثالث جدير باستمرار هذه العبادة على يديه . وهو ما أضفى بظلاله على مفهومهم لكثير من المصطلحات والمفاهيم مثل : العصب ، صلة القربى ، حق الإرث ، سلطة الرجل (الوصى) وسلطة الأب (Pater) على جميع أفراد الأسرة سواء الإغريقية أو الرومانية ، وارتباط ذلك كله بتصورهم للأخلاق .

يخصص المؤلف الموسوعى الكتاب الثالث لتكوين المدينة ، متتبّعاً تحول آلهة العبادات المنزلية إلى معبودات عامة تُقام لها المعابد التى يؤمّها جميع سكان المدينة ، وفى مقابل القرابين التى يقدمونها كان سكان المدينة يتوقعون من الآلهة أن تحميهم من الأعداء وتغدق عليهم النعم، ومن هنا ظهرت الإعياد الدينية العامة . ويوضح من خلال المصادر كيف تدخلت الديانة فى كل أوجه الحياة فى الحضارات القديمة فى زمن السلم أو الحرب . فقد كان كل شىء تحت سيطرة ديانة المدينة ، ومنها استمد الملك سلطته الدينية ، وبالتالي سلطته السياسية. أما بالنسبة للقوانين فقد كان لها أصل مقدس ولم يرَ القدماء فيها عملاً بشرياً صرفاً. ولذلك لم يكن من اللغو أن يقول أفلاطون إن إطاعة القوانين هى إطاعة للآلهة، وكذلك لم يكن من الغريب أن يرتبط مفهوم المواطنة بالديانة؛ فالمواطن هو من له نصيب فى عبادة المدينة ، ومن هذه المساهمة كان يستمد كل حقوقه المدنية والسياسية. فلم يكن فى استطاعة الأجنبى ، سواء فى أثينا أو روما، أن يتزوج ، أو على الأقل لم يكن معترفاً بزواجه ، وكان الأطفال المولودون من قران مواطن بأجنبية أطفالاً غير شرعيين. وفى الوقت نفسه كانت المشاركة فى الشعائر الدينية محرمة عليه؛ فقد كانت الحقوق السياسية والدينية والمدنية مجموعة واحدة يتضمنها لقب مواطن وتفقده وكما كان للديانات سلطانها الكبير على حياة المدينة الداخلية ، فقد كانت

تتدخل بنفس القدر فى العلاقات بين المدن سواء زمن السلم أو الحرب ، وقد بقى القانون الدولى عند القدماء زمناً طويلاً مؤسساً على هذا المبدأ.

وفى الكتاب الرابع يتعرض المؤلف لمرحلة زمنية فارقة فى تاريخ الشعوب والحضارات قديماً وحديثاً ، فترة الحراك الاجتماعى التى تؤدى إلى ظهور طبقة وتزايد نفوذها السياسى والاقتصادى والاجتماعى على حساب طبقة أو طبقات أخرى داخل المجتمع حتى أصبح الأمر حرباً علنية فى كل مدينة بين طبقتين : طبقة تريد الحفاظ على كيان المدينة الدينى وعلى بقاء السلطة والكهنوت فى يدها ، بينما تريد أخرى أن تحطم الحواجز القديمة التى كانت تضعها خارج الشرع والدين والسلطة السياسية . وتمخض ذلك ضمن ما تمخض عن ظهور نمط من الحكام (Tyrants) لم تكن سلطتهم مشتقة من العبادة أو قائمة على الديانة . وللمرة الأولى يظهر مبدأ طاعة الإنسان للإنسان على أساس سلطة بشرية محضة فى أصلها وطبيعتها . ويتزايد حصول طبقة "السوقة" فى المجتمع على الامتيازات تزايدت أهميتها السياسية ، وأخيراً نجحت الطبقة الدنيا فى المجتمع فى أن يكون لها أيضاً ديانتها . وقد تلقت هذه الطبقة بحماس شديد العبادات الشرقية التى تدفقت على بلاد الإغريق وإيطاليا ابتداء من القرن السادس ق.م. لأنها عبادات لا تستثنى شعباً ولا تفرق بين الطبقات . ولم يعد فى مقدور المبادئ القديمة التى حكمت طويلاً أن تصمد فى وجه التغيير وتقاوم القواعد الجديدة التى صارت تحكم المجتمعات البشرية ، وما كان فى المرتبة الثانية انتقل إلى المرتبة الأولى ، وتقدمت السياسة على الديانة ، وأصبحت حكومة البشر شيئاً إنسانياً محضاً.

ينهى المؤلف كتابة برصد ظاهرة اختفاء نظام البلديات ؛ فقد انهار النظام السياسى الذى خلقته بلاد الإغريق وإيطاليا ، والسبب فى ذلك مجموعة من العوامل : بعضها فكرى وبعضها مادى . فالعامل الأول يتمثل فى تغير العقائد ، بينما يمثل الفتح الرومانى العامل المادى . وقد تزامن هذان السببان (الفكرى والمادى) وتطورا معاً عبر قرون خمسة سبقت ظهور المسيحية ، التى كان انتصارها دليلاً على انتهاء المجتمع القديم .

لقد قام المجتمع العتيق على عقيدة ، عندما تبدلت مرّ المجتمع بسلسلة من الانقلابات . وعندما اختفت تغير وجه المجتمع . كان ذلك قانون الأزمنة العتيقة التي بهرنا المؤلف وهو يأخذنا في جولة خلالها من مكان إلى مكان آخر ، ومن فترة إلى أخرى ، معتمداً في كل ذلك على وفرة من المصادر القديمة تجمع بين الأدب والفلسفة والخطب ومؤلفات المؤرخين وأشعار تجمع بين الشعر الدرامي (كوميدياً وتراجيدياً) والشعر الملحمي بل وحتى شعر الهجاء ، في محاولة منه لمزج المادة التاريخية ، التي قد يراها البعض جافة ، بما يضيف عليها مزيداً من العمق والمتعة ، وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد.

وإن الإنصاف يقتضى منا الإشارة إلى الجهد الكبير ، واللغة الرائعة السامية التي نقل بها السيد المترجم الكتاب الفرنسي إلى العربية ، وإن كان عدم تخصصه في الدراسات الكلاسيكية قد تسبب في بعض الأخطاء ، وخاصة ما يتعلق ببعض المصطلحات اليونانية واللاتينية وبعض الأسماء . إن هذه الملحوظة ، وإن كانت تشير إلى وجوب إسهام المتخصصين في الترجمة ، لا تقلل مطلقاً من أهمية الكتاب ومن الجهد الجدير بالاحترام الذي بذل في الترجمة .

د. منيرة كروان

فوستيل دي كولانج
Fustel de Coulanges

المدينة العتيقة LA CITÉ ANTIQUE

دراسة لعبادة الإله غريب، والرومان وشرعهم وأنظمتهم

راجعته للوزارة

عبد الحميد الداخلى
الأستاذ المساعد للأدب العربى
بجامعة فؤاد الأول

ترجمته

عباس بن يرمى بك
رئيس أمناء
المتحف المصرى

كلمة للمترجم

ولد المؤلف نوما-دينى فوستيل دى كولانج Fustel de Coulanges (Numa - Denis) فى باريس سنة ١٨٣٠ وتوفى فى ماسى سنة ١٨٨٩ . وبعد أن اشتغل مدرسا فى عدة مدارس ثانوية فى فرنسا نال شهادة الدكتوراه فى سنة ١٨٥٨ وعين استاذا فى جامعة استراسبورج ثم فى جامعة باريس ثم مديرا لمدرسة النورمال وقد انتخب عضوا بالأكاديمية سنة ١٨٧٥ . وقد ألف هذا الكتاب فى سنة ١٨٦٤ بعنوان :

La Cité Antique, Étude sur le culte, le droit, les institutions de la Grèce et de Rome.

وقد أرجع المؤلف كل أنظمة العنصر الآرى القديمة سواء لدى الهنود أو الإغريق أو الرومان إلى الدين . ولا شك أن كل مذهب من هذا القبيل لا يخلو من شىء من المغالاة فى بعض التفاصيل إلا أن نظرية فوستيل دى كولانج كانت ولا زالت صحيحة فى جوهرها بل إن الدراسات الحديثة قد عادت من جديد إلى الآراء التى عرضها المؤلف واعتنقتها بشغف كبير . وقد زاد فى قيمة هذا الكتاب ما امتاز به المؤلف من قوة فى التعبير مع سلاسة الأسلوب .

ولعل الصعوبة الكبرى التى صادفتنا فى هذه الترجمة هى نقل أسماء الأعلام من أشخاص ومؤلفات إذ أن اللغات الحديثة تختلف فى تحريفها للأسماء الإغريقية واللاتينية ولهذا قد عملنا جهد الطاقة على إعادة هذه الأسماء إلى صورتها فى لغتها الأصلية عدا ما اشتهر منها كسقراط وأفلاطون وهيرودوت . وقد ترددنا فى ترجمة أسماء المراجع القديمة لكننا آثرنا هذه الترجمة لأن المؤلف كان يورد أسماء هذه المؤلفات تارة باللغة اللاتينية وتارة

باللغة الفرنسية ، وجمهور المثقفين في مصر أكثر معرفة بالإنجليزية منه بالفرنسية ؛ وفي تعريب هذه الأسماء توحيد لها فضلا عما فيه من سهولة في الطباعة . وربما وجد البعض أن ترجمة كلمة *Fastes* ، مثلا ، بأعياد لا تؤدي كل معاني الكلمة اللاتينية وعذرنا أننا لو حاولنا : نحيط بكل معانيها لاستعملنا جملة طويلة في حين أن الإيجاز واجب في ذكر أسماء المراجع كما فضلنا أن نترك بعض الأسماء كما هي مثل الإنبيد وساتورناليا و *odes* لخفتها في النطق وجريها على ألسنة المشتغلين بالدراسات القديمة وعدم وجود فائدة كبيرة في محاولة تعريبها . وفي هذه الحالات كنا نذكر الاسم بالإنجليزية في المرات الأولى التي يرد فيها ذلك الاسم حتى لا يضل القارئ . وإنا نعتذر لحضرات القراء عن نقطة ضعف لإحيلة للمترجم فيها وهي عدم استعمال حروف الباء والجيم والفاء ذات النقط الثلاث في الحواشي لمقابلة الحروف الإنجليزية *V. J. P.* لعدم وجودها بالمطبعة في « البنت الصغير » مع ضرورتها لضبط أسماء الأعلام ولقد حاولنا ، فيما عدا الأسماء المألوفة ، أن نسد هذا النقص بذكر الاسم بالحروف الإنجليزية بجوار الكتابة العربية مرة على الأقل .

القاهرة في ٢٥ مارس سنة ١٩٥٠

عباس يومي

مقدمة

ضرورة دراسة أقدم عقائد القدماء

لمعرفة أنظمتهم

نعزم أن نبين هنا وفقاً لأى المبادئ وطبقاً لأى القواعد كان يحكم المجتمع الإغريق والمجتمع الرومانى . وإنا لنجمع الرومان والإغريق فى نفس الدراسة لأن هذين الشعبين ، وهما فرعان لجنس واحد ، كانا يتكلمان لهجتين مشتقتين من لغة واحدة ، ولهما أيضاً ذخيرة من الأنظمة المشتركة ومرا بسلسلة من الانقلابات المنشابهة .

وسنلتزم على الأخص أن نبين الفروق الأساسية والجوهرية التى تميز الشعوب القديمة عن الشعوب الحديثة تمييزاً كلياً ، لأن طريقتنا فى التربية التى نجعلنا نعيش منذ الطفولة بين الإغريق والرومان تعودنا أن نقارنهم بنا بدون انقطاع وأن نحكم على تاريخهم طبقاً لتاريخنا وأن نفسر ثوراتنا بثوراتهم . فإن ما تلقيناه عنهم وما خلفوه لنا يجعلنا نعتقد أنهم كانوا يشبهوننا ، ويصعب علينا أن نعتبرهم شعوباً غريبة عنا ؛ ونكاد دائماً نرى أنفسنا فيهم . ومن هنا وقعت أخطاء عدة . ولا نكاد نخلو من ضلال بشأن هذه الشعوب القديمة عند ما نرمقهم خلال آراء زماننا ووقائعه .

هذا والأغلاط فى هذه المادة لا تخلو من خطر . فإن الفكرة التى كونها الناس عن بلاد الإغريق وروما كثيراً ما بلبت أفكار أجيالنا . لقد أساء البعض ملاحظة أنظمة المدينة العتيقة فتوهموا أن يحيوها عندنا . خدعوا أنفسهم فى فهم الحرية عند الأقدمين وبهذا وحده تعرضت الحرية للخطر عند المحدثين . وقد

أظهرت الثمانون عاماً الأخيرة من عصرنا في وضوح (١) أن إحدى الصعوبات الكبيرة التي تعترض سير المجتمع الحديث هي ما اعتاده هذا المجتمع من وضع الآثار القديمة الإغريقية والرومانية نصب عينيه .

ولمعرفة حقيقة هذه الشعوب الماضية تقضى الحكمة بدراستها دون أن تفكر في أنفسنا، كما لو كانت غريبة عنا تماماً وبنفس عدم التحيز وحرية الفكر كما لو كنا ندرس الهند القديمة أو بلاد العرب .

فإذا لاحظنا الإغريق وروما على هذا النحو ظهرا لنا في صورة لا يمكن تقليدها على الإطلاق ، إذ ما من شيء يشبههما في العصر الحديث وما من شيء يمكن أن يشبههما في المستقبل . وسنحاول أن نرى على أية قواعد كانت تحكم هذه المجتمعات وسنتبين بسهولة أنه لم يعد في قدرة هذه القواعد نفسها أن تسيطر على الإنسانية .

أنى أتى هذا ؟ ولماذا لم تعد ظروف حكومة البشر كما كانت عليه في الماضي ؟ إن التغيرات الكبيرة التي تلوح من وقت لآخر في بناء المجتمعات لا يمكن أن تكون أثراً للمصادفة أو للقوة وحدها ، لا بد أن يكون السبب الذي يحدثها قوياً ، وهذا السبب لا بد أن يكون مقيماً في الإنسان . فإذا كانت قوانين الاجتماع البشرى لم تعد هي بذاتها كما كانت في الماضي فرجع ذلك أن شيئاً ما قد تغير في الإنسان . والواقع أن جزءاً من كياننا يتغير من قرن إلى قرن ، ذلك هو إدراكنا . فهو دائماً في حركة ، ويكاد يكون دائماً في تقدم ، وبسببه كانت أنظمتنا وقوانيننا عرضة للتبديل . فإن الإنسان لم يعد يفكر اليوم كما كان يفكر منذ خمسة وعشرين قرناً ؛ ولهذا السبب لم يعد يحكم نفسه اليوم كما كان يحكم وقتذاك .

وتاريخ الإغريق وروما دليل ومثل من أمثلة العلاقة الوثيقة القائمة دائماً بين آراء التصور الإنساني والحالة الاجتماعية لشعب من الشعوب . تأمل أنظمة الأقدمين دون أن تفكر في معتقداتهم تجدها غامضة ، شاذة ، غريبة ، لا تفسر .

(١) وضع المؤلف هذا الكتاب في سنة ١٨٦٤ — العرب

لماذا وجد البطارقة (patriciens) والسوقة (plébéiens) ، الأولياء (patrons) والموالي (clients) ، النساب (Eupatrides) والوضعاء (Thètes) ، ومن أين أتت هذه الفوارق التي تولد مع الناس ولا تمحى ، تلك التي نجدها بين هذه الطبقات ؟ ماذا تعنى هذه الأنظمة اللاتيديمونية التي تبدو لنا منافية للطبيعة كل هذه المنافاة ؟ كيف تفسر هذه الغرائب المحجفة في القانون الخاص القديم : لم حرم على الإنسان بيع أرضه في قورنته وثيبه (Thèbes) ؟ ولم فرق في الميراث بين الأخ وأخته في أثينا ورومه ؟ وماذا كان يعنى الفقهاء بكلمتي *gens* و *agnatio* ؟ لماذا هذه الانقلابات في الشرع وهذه الانقلابات في السياسة ؟ ما هذه الوطنية الغريبة التي كانت تقضى في بعض الأحيان على كل العواطف الطبيعية ؟ وماذا كان يراد بهذه الحرية التي كانوا يتكلمون عنها دائماً ؟ وكيف حدث أن أنظمة تبعد كل البعد عن كل ما نفهمه اليوم استطاعت أن تظل قائمة وأن تسيطر زمناً طويلاً ؟ وما هو المبدأ الأعلى الذي جعلها تسيطر على نفوس الناس ؟

ولكن لنضع المعتقدات قبالة هذه الأنظمة وهذه القوانين فسرعان ما تصبح الوقائع أكثر جلاء ويعرض تفسيرها من تلقاء نفسه. إنا إذا ما ارتقين إلى العصور الأولى لهذا الجنس أى إلى الزمن الذي أسس فيه أنظمته ولاحظنا الفكرة التي كونها لنفسه عن الكائن البشرى ، عن الحياة ، وعن الموت ، وعن الحياة الأخرى ، وعن الجوهر الإلهي فإننا نلاحظ صلة وثيقة بين هذه الآراء وبين قواعد القانون الخاص العتيقة ، بين الشعائر المشتقة من هذه العقائد وبين الأنظمة السياسية .

وترينا مقارنة العقائد بالقوانين أن ديناً قديماً كون الأسرة الإغريقية والرومانية وأقام الزواج والسلطة الأبوية وحدد درجات القرابة وقدس حق الملكية وحق الإرث ، وهذا الدين ذاته بعد أن وسع الأسرة ومدّها كون جماعة أكبر منها هي المدينة وسيطر عليها كما سيطر على الأسرة... ومن الدين جاءت كل الأنظمة عند الأقدمين كما جاء القانون الخاص . ومنه تلتفت المدينة مبادئها وقواعدها وعاداتها ومناصب الدولة فيها . لكن العقائد القديمة

قد تبدلت مع الزمن أو زالت ، وتبدل معها القانون الخاص والأنظمة السياسية .
وعندئذ تتابع سلسلة الانقلابات وأخذت التحولات الاجتماعية تتبع
تحولات الإدراك العقلي بانتظام .

لذا يجدر قبل كل شيء أن ندرس عقائد هذه الشعوب . وأقدم هذه العقائد هي
التي نهمنا معرفتها أكثر من سواها . إذ أن الأنظمة والعقائد التي نجدتها في الحقبات
الزاهرة من تاريخ الإغريق وروما ما هي إلا تطور للعقائد والأنظمة السالفة
ويجب البحث عن أصولها في الماضي السحيق ، فإن الشعوب الإغريقية والإيطالية
أقدم من رومولوس وهوميروس قدماً لا حد له ، وإن العقائد قد تكونت
والأنظمة أقيمت أو أعدت في عصر أقدم منهما ، في عصر عتيق لا تاريخ له .

ولكن أى أمل لدينا في الوصول إلى معرفة هذا الماضي السحيق ؟ منذا
الذي نخبرنا بما كان يفكر فيه الناس قبل الميلاد المسيحي بعشرة قرون أو بخمسة عشر
قرناً ؟ أمن المستطاع العثور على شيء بالغ هذا الحد من الشroud عن الإدراك ،
والهروب منه ، كالعقائد والآراء ؟ إنا لنعرف ما كان يفكر فيه آريو الشرق منذ
خمسة وثلاثين قرناً ؛ نعرفه عن طريق أناشيد الفيدا (Védas) ، ومن المؤكد أنها
عتيقة جداً ، وعن طريق قوانين مانو وهي أقبل قدما لكن يمكن أن نميز
فيها فقرات من عصر يبعد عنها للغاية . ولكن أين هي أناشيد الإغريق
القديمة ؟ لقد كانت لهم كما كانت للإيطاليين أغان عتيقة وكتب مقدسة قديمة
ولكن لم يصل إلينا أى شيء من ذلك كله ؛ وأية ذكرى يمكن أن تبقى
لنا عن تلك الأجيال التي لم تخلف لنا نصاً واحداً مكتوباً ؟ .

من حسن الحظ أن الماضي لا يموت إطلاقاً موتاً تاماً بالنسبة للإنسان . فقد
يستطيع الإنسان أن ينسأه لكنه يحتفظ به دائماً في نفسه . إذ أنه ، مثله هو ذاته
في كل عصر ، ما هو إلا حاصل الحقبات السالفة وملخص لها . فإذا ما هبط
إلى قرارة روحه فإنه يستطيع أن يعثر فيها على هذه الحقبات المختلفة وأن يميزها
بما خلفته فيه كل واحدة منها .

فلنلاحظ الإغريق في عصر بريكليس والرومان في عصر سيسرون ؛ إنهم يحملون في أنفسهم السمات الصحيحة والآثار المؤكدة لأبعد العصور . فإن معاصر سيسرون (أتكلم خاصة عن رجل العامة) له خيال مليء بالأساطير ؛ وهذه الأساطير تنحدر إليه من عصر عتيق جداً وفيها الشهادة على طريقة تفكير ذلك العهد . ويستخدم معاصر سيسرون لغة قديمة الأصول إلى أبعد الحدود وقد تشكلت هذه اللغة ، بحكم تعبيرها عن أفكار العصور القديمة ، بأشكال هذه الأفكار واحتفظت بطابعها تنقله من قرن إلى قرن . فإن المعنى الملازم لأحد هذه الأصول يستطيع أن يكشف أحيانا عن رأى قديم أو عادة قديمة ؛ تغيرت الأفكار وتبخرت الذكريات لكن الألفاظ ظلت باقية شواهد لاتزعزع على العقائد التي بادت . فمعاصر سيسرون يزاول شعائر في الأضاحي وفي الجنازات وفي حفلة الزواج : هذه الشعائر أقدم منه ، والدليل على ذلك أنها لم تعد تستجيب لعقائده . ولكن لتأمل عن قرب الشعائر التي لا يزال يؤديها أو الصيغ التي لا يزال يتلوها فإننا سنجد فيها عندئذ أثر ما كان يعتقد الناس قبله بخمسة عشر أو عشرين قرناً .

الكتاب الأول

العقائد العتيقة

الفصل الأول

عقائد عن الروح وعن الموت

لا زلنا نبصر لدى العامة حتى الأزمنة الأخيرة من تاريخ الإغريق وروما بقاء مجموعة من الأفكار والعادات ترجع بكل تأكيد إلى عصر سحيق جداً، ومنها نستطيع أن نعلم ما هي الآراء التي كونها الإنسان في البدء عن طبيعة ذاته وعن روحه : عن سر الموت .

مهما ارتقينا في تاريخ الجنس الهندو أوروبي (١) الذي من فروع الشعوب الأغريقية والإيطالية فإننا نرى أن هذا الجنس لم يفكر مطلقاً في أن كل شيء قد ينتهي بالنسبة للإنسان بعد هذه الحياة القصيرة. فإن أقدم الأجيال قد اعتقدت، قبل أن يوجد الفلاسفة بزمان بعيد ، في حياة أخرى بعد هذه الحياة ولم تواجه الموت باعتباره انحلالاً للكائن بل باعتباره تبديلاً يسيراً للحياة .

ولكن في أي مكان وعلى أية حال كان يسير ذلك الوجود الثاني ؟ أكانوا يعتقدون أن الروح الخالد كان يذهب بمجرد خلاصه من جسد ليحيى جسداً آخر ؟ كلا ؛ فإن الاعتقاد في تناسخ الأرواح لم يستطع قط أن يتأصل في أذهان

(١) لاحظ علماء اللغات اتفاقاً في الألفاظ والقواعد بين اللغات الأوربية الحديثة المشتقة من اللغة اللاتينية وبين الإغريقية والجرمانية والسلافية وبين لغة المنود القديمة المسماة بالسنسكريتية ولغات أخرى كاللغة الفارسية ، لا تفتقر إحداها عن الأخرى إلا بفروق يسيرة فأجمعوا على أنها كانت في الأصل لهجات لقبائل كانت تنتمي إلى جنس واحد . وقد أطلق العلماء الألمان على هذا الجنس اسم الجنس الهندو جرمانى . فلما اتسعت المقارنة بين اللغات أطلق العلماء عليه اسم الجنس الهندو أوروبي ثم أخيراً الجنس الآري . العرب .

الشعوب الإغريقية والإيطالية . كما أنه ليس أقدم رأى عندأريا الشرق (١) إذ أن أناشيد الفيدا (٢) تتعارض معه . أتراهم كانوا يعتقدون أن الروح كان يصعد نحو السماء ، نحو منطقة الضياء ؟ كذلك كلا ؟ فإن الاعتقاد بأن الأرواح كانت تدخل في مقر سماوى يرجع في الغرب إلى عصر حديث نسبياً ولم يكن المقر السماوى ليعد إلا ثواباً لبعض عظماء الرجال وذوى الفضل على البشر . لم تكن الروح في أقدم عقائد الإيطاليين والإغريق لتذهب إلى عالم غريب عن هذا العالم لكي تمضي فيه وجودها الثاني بل كانت تبقى قريباً من الناس وتستمر تعيش تحت الأرض (٣) . بل اعتقدوا دهرأ طويلاً أن الروح كانت تبقى مرتبطة بالجسم في ذلك الوجود الثاني : ولدت معه فلا يفصلها الموت عنه ، بل كانت تحبس نفسها في القبر معه .

مهما بلغت هذه الآراء من القدم فقد بقيت لنا منها شواهد صحيحة . هذه الشواهد هي شعائر الدفن التي عاشت زمناً طويلاً بعد هذه العقائد البدائية لكن من المؤكد أنها ولدت معها وتستطيع أن تفهمنا إياها .

(١) أريا إقليم تذكر الكتب الدينية الهندية أن أجداد الهنود وفدوا منه وتشير إلى أن موقعه في الشمال الغربي من الهند أى في مكان ما من هضبة إيران الحالية أو المنطقة المجاورة لبحر قزوين . وقد اعتبره بعض العلماء الوطن الأصلي للجنس الذي أطلقوا عليه اسم آرى اشتقاقاً من اسم هذا المكان ولو أن بعضاً آخر من العلماء يجعل موطنهم الأصلي على ضفاف بحر البلطيق . وقد انقسم العنصر منذ القرن الثلاثين أو العشرين قبل المسيح إلى شعبتين رئيسيتين الشعبة الشرقية (الهند وإيران) والشعبة الغربية (أوريا) - العرب .

(٢) كتاب مقدس من كتب الهنود وهو من أقدم الكتب الدينية التي خلفها العنصر الهندوأوربي وقد جمع فصوله راهب هندي يدعى فيازا *Vya'sa* . ويعتبر مرجعاً هاماً لأقدم حضارة الهنود والجنس الهندوأوربي - العرب

(٣) سيسرون : الأسئلة التسكالية ١ : ١٦

Sub terra consevant reliquam vitam agi mortuorum

ويضيف سيسرون أن هذه العقيدة كانت من القوة بحيث أنه حتى عندما استقرت عادة إحراق الأجساد استمروا يعتقدون أن الموتي يعيشون تحت الثرى - انظر أوربيديس : الكيستيس ١٦٣ وهيكا به في مواضع متفرقة .

ترينا شعائر الدفن بوضوح أنهم عندما كانوا يضعون جسماً في القبر كانوا يعتقدون في نفس الوقت أنهم يضعون فيه شيئاً حياً. فإن فرجيليوس الذي يصف دائماً الاحتفالات الدينية بمنتهى الدقة والأمانة ختم روايته عن جنازة پوليدوروس بهذه الكلمات : «إنا نحبس الروح في القبر». ونفس هذه العبارة موجودة، في أوفيدوس وبلينيوس الأصغر : ولم يكن السبب في ذلك أنها كانت تعبر عن آراء هؤلاء الكتاب عن الروح ، بل إنها خلدت في اللغة منذ عهد متناه في القدم شاهدة على عقائد عنيقة وعامية (١) .

كانت العادة عند نهاية الاحتفال الجنائزي أن تدعى روح الميت ثلاث مرات بالاسم الذي كان يحمله . وكانوا يتمنون لها أن تعيش سعيدة تحت الثرى . ثلاث مرات يقولون لها : «كوني بعافية» وبضيفون قائلين «ليكن الثرى خفيفاً عليك» (٢) إلى هذا الحد كانوا يعتقدون أن الكائن سيستمر يعيش تحت هذه الأرض وأنه سيحتفظ بشعور الرضا والألم وكانوا يكتبون على القبر إن الإنسان يستريح هناك : وقد بقي التعبير بعد هذه العقائد وظل ينتقل من قرن إلى قرن حتى وصل إلينا . ولا زلنا نستعمله . بيد أنه ما من أحد يفكر اليوم أن كائناً خالداً يستريح في قبر . لكنهم في الزمن القديم كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن إنساناً

Virgile, *En.*, III, 67 : *Animaque sepulcro condimus* — Ovide, *Fast.*, (١)

V, 451: *Tumulo fraternas condidit umbras* — Plin. *Ep.*, VII, 27: *Manes rita conditi*.

يشير وصف فرجيليوس إلى عادة استعمال الأضرحة الرمزية ؛ فقد كان من المقبول أنه في حالة عدم إمكان العثور على جسم قريب أن يعمل له احتفال تحاكي فيه بالضبط جميع شعائر الدفن ؛ وكانوا يعتقدون بذلك أنهم عند انعدام الجسد يحبسون الروح في القبر : أوربيديس : هيلينه ١٠٦١ ، ١٢٤٠ ؛ شارح بنداروس : البيثيات ٤ : ٢٣٤ ؛ فرجيليوس ٦ : ٥٠٥ ؛ ١٢ : ٢١٤ .

(٢) *Iliade* XXIII, 221. Euripide, *Alceste*, 479: *Κούφα σοι γυθὼν ἐπ'άνωθεν πέσοι*. Pausanias, II, 7, 2, *Ave atque vale*, Catulle C. 10. Servius, *ad Aeneid.*; II, 640, ' III, 68; XI, 97. Ovide, *Fast.* IV, 852. *Métam.*, X, 62 — *Sit tibi terra levis; tenuem et sine pondere terram*; Juvénal, VII, 207, Martial, I, 89; V, 35; IX, 30,

يعيش هناك ولم يفهم قط أن يدفنوا معه الأشياء التي كانوا يفترضون أنه يحتاج إليها من ملابس وأوان وأسلحة (١). كانوا يريقون على قبره خمرًا ليرווه من عطش ويضعون فيه أغذية ليشبعوه من جوع (٢) وكانوا يذبحون خيلاً وعبيداً اعتقاداً منهم بأن هذه الكائنات إذا ما حبست مع الميت قامت بخدمته في القبر كما كانت تخدمه في حياته (٣) : بعد أن استولى الإغريق على طروادة هموا بالعودة إلى بلادهم واستصحب كل منهم سبيته الجميلة لكن أخيليا (أشيل) وهو تحت الثرى يطالب أيضاً بسبيته فأعطوه «بوليكسن» . polyxène (٤)

وقد احتفظ لنا بيت من شعر بنداروس بأثر غريب من أفكار هذه الأجيال القديمة فقد اضطر فريكسس Phryxos أن يهجر بلاد الإغريق ويفر إلى بلاد خلشيس Cholchide (٥) ومات في تلك البلاد . لكنه بالرغم من موته كان يريد العودة إلى بلاد الإغريق فترأى ليلياس Pélías وأوصاه أن يذهب إلى خلشيس ليجلب روحه منها . ولا ريب أن هذه الروح كانت تأسى على أرض الوطن

(١) أوربيديس : الكستيس ٦٣٧ ؛ ٦٣٨ ؛ أورستيس ١٤١٦ - ١٤١٨ . فرجيليوس : الإنييد ٦ : ١١١، ٢٢١ : ١٩١ - ١٩٦ . والعادة القديمة في إحضار الهدايا للموتى يشهد بها توقيديديس ٢ : ٣٤ . εἰσφέρει τῷ ἑαυτοῦ ἑκατοσ . وقد حرم قانون صولون أن يدفن مع الميت أكثر من ثلاثة أثواب (بلوتارخوس : صولون ٢١) . ولا يزال لوقيانوس (Lucien) يتكلم عن هذه العادة «كم من الملابس والزينة أحرق أودفن مع الموتى كما لو كانوا سيستعملونها تحت الأرض !» - وقد روعيت العادة العتيقة في جنازة قيصر في عصر تسود فيه الخرافة : حملوا إلى الخطب المتقد ال munera الملابس والأسلحة والمصاغ (سويتونيوس : قيصر ٣٤) أنظر أيضاً تاسيتوس : حوليات ٣ : ٣ .

(٢) أوربيديس : إفيغينه في التوريد ١٦٣ . فرجيليوس : الإنييد ٥ : ٧٦ - ٨٠ . ٢٢٥ : ٦

(٣) الالياذه ، ٢١ : ٢٧ - ٢٨ ؛ ٢٣ : ١٦٥ - ١٧٦ . فرجيليوس : الإنييد ١٠ : ٥١٩ - ٥٢٠ ؛ ١١ : ٨٠ - ٨٤ ؛ ١٩٧ - نفس العادة في بلاد الغال (قيصر : حرب الغال ٥ : ١٧) .

(٤) أوربيديس : هيكابيه ٤٠ - ٤١ ؛ ١٠٧ - ١١٣ ؛ ٦٣٧ - ٦٣٨ .

(٥) بلاد خولشيس منطقة بجوار البحر الأسود من الشرق - المغرب

وعلى قبر الأسرة . لكنها وهى مرتبطة ببقايا الجثة لم يكن فى استطاعتها أن تغادر خلشيس بدونها . (١)

من هذه العقيدة القديمة تفرعت الحاجة إلى الدفن . فلكى تستقر الروح فى هذا المسكن السفلى الذى يوافقها فى حياتها الأخرى ، كان لابد أن يكون الجسم الذى بقيت مرتبطة به مغطى بالترى . والروح التى لا قبر لها لا مقر لها ، فهى روح هائمة وعبثاً كانت تتطلع للراحة التى لا بد أنها كانت تهواها بعد اضطرابات هذه الحياة ونصبها . فكان حتماً عليها أن تهيم دائماً فى صورة شبح *Larva* دون أن تتوقف قط ودون أن تتلقى إطلاقاً القربان والأغذية التى تحتاج إليها . وبما أنها كانت تعسة فسرعان ما تصبح شريرة تعذب الأحياء وترسل عليهم الأمراض وتتلغ محاصيلهم وتثير الذعر فيهم بظهورها بمظاهر مقبضة منكرة إياهم أن يمنحوا الدفن لجسدها ولها هى ذاتها . ومن هنا جاء الاعتقاد فى الأشباح . (٢) . فقد اقتنع جميع أهل الأزمنة القديمة أنه بدون الدفن تكون الروح بائسة ، وبالدفن تصبح سعيدة إلى الأبد . فلم يكن قيامهم بالاحتفال الجنائزى لإعلان الألم بل لراحة الميت وإسعاده (٣) .

ولنلاحظ جيداً أنه لم يكن يكفى أن يوضع الجسد فى الأرض . بل كان لا بد من مراعاة شعائر تقليدية والنطق بصيغ معروفة . وتوجد فى بلاوتوس (Plaute) قصة شبح (٤) ؛ إنها روح مجبرة على التجول لأن جسدها دفن دون مراعاة للشعائر . ويروى سويتونيوس (Suetone) أنه لما دفن كاليغولا دون القيام بالاحتفال الجنائزى نتج عن ذلك أن روحه بقيت هائمة وأنها ظلت تظهر

(١) بنداروس : البيثيات ٦ : ٢٨٤ (طبعة Heyne) ؛ أنظر شارح بنداروس .

(٢) سيسرون : الموضوعات التسكولانية ١ : ١٦ . أوريبيدس : الطرواديات

١٠٨٥ . هيرودوت ٥ : ٩٢ . فرجيليوس ٦ : ٣٧١ ٣٧٩ . هوراسيوس : Odes, 1,23

أوفيدوس Fast. V,483 : بلينيوس ؛ الرسائل ٧ : ٢٧ . سويتونيوس : كاليغولا

٥٩ . سرفيوس ad Aen. III, 63

(٣) الإلياذة : ٢٢ : ٣٥٨ ؛ الاوديسة ١١ : ٧٣٠

(٤) بلاوتوس : الأشباح *Mostellaria* ٣ : ٢

للأحياء إلى اليوم الذى تقرر فيه أن يخرج الجسد وأن يدفن طبقاً للقواعد (١) . ويرى هذان المثالان بجلاء أى أثر كانوا ينسبون لشعائر الاحتفال الدينى ولصيفه . وحيث إنه بدون هذه الشعائر كانت الأرواح تبقى هائمة وتترامى للأحياء ، فهى إذن التى كانت تقرها فى قبورها وتحبسها فيها ، وكما أنه كانت هناك صيغ لها هذه الخاصية فقد كانت لدى الأقدمين صيغ أخرى لها الخاصية المضادة ، خاصة استحضر الأرواح وإخراجها مؤقتاً من مدفنها .

ويمكن أن نرى لدى الكتاب الأقدمين إلى أى مدى كان خوف الإنسان من عدم مراعاة الشعائر نحوه بعد موته مصدر عذاب له . لقد كان ذلك مصدر قلق مضمّن له (٢) فقد كانت خشية الموت أقل من خشية الحرمان من الدفن الذى كان يعد فقداناً للراحة والسعادة الأبدية ؛ فلا تغلبنا الدهشة إذن عندما نرى الأثينيين يعدمون القواد الذين أهملوا دفن موتاهم بعد انتصار بحرى . ومن المحتمل أن هؤلاء القواد ، وهم من تلاميذ الفلاسفة ، كانوا يفرقون بين الروح والجسد ؛ وبما أنهم لا يؤمنون بأن مصير أحدهما مرتبط بمصير الآخر فقد بدا لهم أنه لا يهم الجثة كثيراً أن تتحلل فى الأرض أو فى الماء . فلم يعرضوا أنفسهم للعاصفة من أجل إجراء لا جدوى فيه كالتقاط الموتى ودفنهم . لكن

(١) Suétone, *Caligula*, 59: *Salis constat, priusquam id fieret, hor-*
torum custodes umbris inquietatos. . . . nullam noctem sine ali-
quo terrore transactam.

(٢) أنظر فى الإلياذة (٢٢ : ٣٣٨-٣٤٤) هكتور يلتمس من قاهره ألا يحرمه من الدفن : أتوسل إليك بركبتك ، بحياتك ، بوالديك ، ألا تترك جسمى للكلاب بجوار سفن الإغريق . تقبل الذهب الذى سيمنحه لك والذى بسعة ورد إليه جسدى لى يؤدى إلى الطرواديين والطرواديات نصيبى من تكريم حرق الجثة . - وكذلك فى صوفوكليس Sophocles تواجه أنتيغونه الموت كى لا يبقى أخوها بلا دفن « (صوفوكليس : أنتيغونه ٤٦٧) . - ونفس العاطفة فى فرجيليوس ٩ : ٢١٣ هوراسيوس Odes, I, 18, v. 24-35 أوفيديوس : نشيد الأبطال ١٠ : ١١٩ - ١٢٣ ؛ الحزينات ٣ : ٤٥ . وكذلك فى اللعنات أظفح ما يتمناه المرء لعدوه هو أن يموت بدون دفن (فرجيليوس : الإنبيد ٤ : ٦٢٠) .

الجمهور الذى بقى متمسكاً بالاعتقادات القديمة حتى فى أثينا اتهم قواده بالكفر وأعدمهم . لقد أنقذوا أثينا بانتصارهم لكنهم أضاعوا آلافاً من الأرواح بإهمالهم ، فجاء أقارب الموتى إلى المحكمة فى ملابس الحداد وهم يفكرون فى العذاب الطويل الذى سيجيق بهذه الأرواح وطالبوا بالانتقام من هؤلاء القواد (١) .

كان القانون فى المدن القديمة ينزل بكبار المذنبين عقاباً اشتهر بفظاعته ، وهو الحرمان من الدفن (٢) . فقد كانوا بذلك يعاقبون الروح ذاتها ويصبون عليها عذاباً يكاد يكون سرمدياً .

يجب أن نلاحظ أنه قد استقر عند القدماء رأى آخر عن إقامة الموتى فقد توهموا إقليماً سفلياً أيضاً ، لكنه أوسع بكثير من القبر ، نعيش فيه الأرواح مجتمعة بعيدة عن أجسامها وفيه يوزع العقاب والثواب طبقاً للسيرة التى سار عليها الإنسان أثناء حياته . لكن شعائر الدفن كما وصفناها الآن تتعارض مع هذه العقائد معارضة واضحة وهذا دليل قاطع على أنه فى العصر الذى أقيمت فيه هذه الشعائر لم يكونوا يعتقدون بعد لا فى الهاوية (الترتار Tartare) ولا فى حقول النعيم (الجنة) Champs Élysées وقد كان الرأى الأول لدى هذه الأجيال القديمة أن الكائن البشرى يعيش فى القبر وأن الروح لا تنفصل عن الجسد بل تبقى ثابتة فى ذلك الجزء من الثرى الذى كانت العظام مدفونة فيه . هذا ولم يكن على الإنسان حساب يؤديه عن حياته السالفة . ومادام قد وضع فى القبر فلم يكن عليه أن ينتظر ثواباً ولا عذاباً . فكرة جافية بلا ريب لكنها طفولة فكرة الحياة الأخرى .

لم يكن الكائن الذى يعيش تحت الثرى قد تخلص من بشريته بالقدر الذى يجعله

(١) اكسينوفون : الهلينييات ١ : ٧

(٢) ايسخيلوس : السبعة ضد ثيبه ١٠١٣ . صوفوكليس : أنتيغونه ١٩٨ ؛ أوريبديدس ، الفينيقيات ١٦٢٧ - ١٦٣٢ - أنظر ليسياس ٩ - ٧ Lysias, Epitaph. كل المدن القديمة كانت تضيف إلى تعذيب كبار المجرمين الحرمان من الدفن .

في غير حاجة للغذاء . ولذلك كانوا يحملون وجبة من الطعام لكل قبر في أيام معينة من العام (١) .

وقد أعطانا أوفيدوس وثرجيليوس وصفاً لهذه الحفلة التي بقيت عاداتها محتفظاً بها كما هي حتى عصرهما وإن كانت العقائد قد تغيرت . فيريانا أنهم كانوا يحيطون القبر بأكاليل هائلة من الأعشاب والزهور وأنهم كانوا يضعون فيه كعكاً وفاكهة وملحاً وأنهم كانوا يريقون عليه لبناً وخبثاً وفي بعض الأحيان دم ضحية (٢) .

وإن الإنسان ليضل كثيراً إذا اعتقد أن هذه الوجبة الجنائزية لم تكن إلا نوعاً من الذكرى ، فإن الغذاء الذي تحضره الأسرة كان للميت حقيقة ، وله وحده

(١) وهذا هو ما كان يسمى باللاتينية *inferias ferre, parentare, ferre solemnia* Cicéron, *De legibus*, II, 21: *Majores nostri mortuis parentari voluerunt.* Lucrèce, III, 52: *Parentant et nigras maclant pecudes et Manibus divis inferias mittunt.* Virgile, *En.*, VI, 380: *Tumulo solemnia mittent;* IX, 214: *Absenti ferat inferias decoretque sepulcro.* Ovide, *Amor*, I, 13,3: *Annua solemni caede parentat avis.*—

هذه القرابين التي كان للأموات حق فيها كانت تسمى *Manium jura* ، انظر سيسرون : القوانين ٢ : ٢١ ويلمح إليها سيسرون في دفاعه عن فلاكوس ٣٨ وفي خطبته القليبية الأولى . وكانت هذه العادات لا تزال مرعية في عصر تاسيتوس (تاريخ ٢ : ٩٥) ويهاجمها ترتيليانوس (Tertullien) باعتبارها لا تزال على عهده في كامل قونها .

Defunctis parentant, quos escam desiderare praesumant (De resurr. carnis, I); Defunctos vocas securos, si quando extra portam cum obsoniis et matteis parentans ad busta recedis (De testim. animae 4).

Solemnes tum forte dapes et tristia dona (٢)
libabat cineri Andromache manesque vocabat
Hectoreum ad tumulum

(Virgile, *En.*, III, 301-303)

— Hic duo rite mero libans carchesia Baccho
Fundit humi, duo lacte novo, duo sanguine sacro
Purpureisque jacet flores ac talia fatur:
Salve, sancte parens, animaeque umbraeque paternae
(Virgile, *En.*, V, 77-81)

Est honor et tumulis; animas placate paternas.

.... Et sparsae fruges parcaque mica salis

Inque mero mollita ceres violaeque solutae

(Ovide, *Fast.*, II, 535-542).

دون سواه. والدليل على ذلك أن اللبن والخمر كانا يراقان على ثرى القبر وأن شقاً كان يحفر لإيصال الأغذية الصلبة حتى مضجع الميت وأنهم إذا ضحوا بضحية فإن جميع لحمها كان يحرق حتى لا يحصل أى حى على نصيب منها، وأنهم كانوا يتلون صيغاً مقدسة معينة لدعوة الميت للطعام والشراب ، وأنه إذا حضرت الأسرة بكاملها هذه الأكلة فإنها لم تكن تمس هذه الأغذية إطلاقاً ؛ وأخيراً عند العودة كانوا يعنون عناية كبرى بترك قليل من اللبن وبعض الكعك فى أوان ؛ ولقد كانت من الكبائر أن يمس أحد الأحياء هذه المؤونة الضئيلة المخصصة لحاجات الميت .

دامت هذه العقائد زمناً طويلاً ولا زلنا نعثر على التعبير الذى يدل عليها باقياً لدى كبار كتاب الإغريق فتقول إفيغينيا (Iphigénie) فى أوريبيديس «أسكب على ثرى القبر اللبن والعسل والخمر إذ أنه بهذا يدخل السرور على الموتى» (١) . ويقول نيوبتوليموس Néoptolème «يا بن بيلوس Pélée تلق هذا المشروب الذى يلد للموتى ، تعال واشرب هذا الدم» (٢). وتسكب إليكترا السوائل وتقول «لقد نفذ الشراب فى الأرض فتلقاه والدى» (٣). تأملوا صلاة أورستيس لأبيه المتوفى : «أى أبى ، إذا أنا عشت فإنك ستحصل على مآدب حافلة لكن إذا مت فإنك لن تنال نصيبك من الأغذية المتصاعد دخانها التى يتغذى منها الموتى» (٤). وتشهد تهكمات لوقيانوس بأن هذه العادات كانت لا تزال باقية فى عهده : «يتوهم الناس أن الأرواح تأتى من أسفل نحو الأغذية التى يحضرونها

(١) أوريبيديس : إفيغينيا فى التطريد ١٥٧ - ١٦٣ .

(٢) أوريبيديس ؛ هيكابه ٥٣٦ ؛ إليكترا ٥٠٥ وما بعدها .

(٣) ايسخيلوس : حاملات السوائل (Choéphores) ١٦٢ .

(٤) ايسخيلوس : حاملات السوائل ٤٣٢ - ٤٨٤ - يعزو ايسخيلوس لأتوسا Atossa فى الفرس آراء الإغريق : «أحضر لزوجى هذه الأطعمة التى تدخل السرور على الموتى : اللبن والعسل العسجدي وثمره الكرم ؛ فلندع روح داراً ولنسكب هذه المشروبات التى ستشربها الأرض التى ستنفذ عند الآلهة السفليين» (الفرس ٦١٠ - ٦٢٠) . - عندما كانت الضحايا تقدم لآلهة السماء كان الناس يأكلون لحمها لكن عندما كانت تقدم للموتى فإن اللحم كان يحرق بأكمله (بوسانياس ٢ : ١٠) .

لهم وأنهم يتمتعون بقتار اللحوم وأنهم يشربون الخمر المراق على القبور» (١) وكان يوجد عند الإغريق أمام كل قبر موضع مخصص لتضحية الضحايا وطهي لحماها (٢). وكذلك كان للقبر الروماني ما يسمى *culina* وهو يشبه مطبخاً من طراز خاص ومقصوراً فقط على استعمال المتوفى (٣). ويروى بلوتارخوس أنه بعد معركة بلاتيا لما دفن المحاربون المتوفون في مكان القتال تعهد البلاتيون أن يقدموا لهم الوجبة الخنازية كل عام ، وعلى هذا فقد كانوا يتوجهون يوم الذكرى في موكب كبير يقودهم رجال الدولة نحو الكتيب الذي يرقد تحته الموتى ، فيقدمون لهم لبناً وخبزاً وزيتاً وعطوراً ويضحون بضحية . وعندما كانت توضع الأغذية على القبر كان يرتل البلاتيون صيغة يدعون بها الموتى لتناول هذا الغذاء . وما برح هذا الاحتفال يقام في عصر بلوتارخوس الذي استطاع أن يشهد إحياء ذكراه للمرة ختام السبائة (٤). وقد بين لنا لوقيانوس الفكرة التي أنتجت كل هذه العادات فقد كتب «يتغذى الموتى من الأطعمة التي نضعها على قبورهم ويشربون الخمر الذي نسكه فيها ؛ فاليت الذي لا يقدم له شيء ما محكوم عليه بالجوع الأبدى» (٥).

تلك عقائد بالغة في القدم وتبدوا لنا على درجة كبيرة من الخطأ ومثيرة للسخرية . ومع ذلك فقد كان لها سلطان على الإنسان خلال عدد كبير من الأجيال ، فسيطرت على النفوس ، بل سرى قريباً أنها سيطرت على الجماعات . وأن معظم أنظمة القدماء العائلية والاجتماعية إنما أتت من هذا المنبع

(١) لوقيانوس، خارون ٢٢ - *Posito pascitur umbra cibo* - Ovide, *Fastes*, 11, 566

(٢) لوقيانوس : خارون ٢٢ «يحفرون حفراً بجوار القبر وينضحون فيها أطعمة للموتى» .

(٣) Festus, *V^o Culina: Culina vocatur locus in quo epulae in funere comburuntur.*

(٤) Plutarque, *Aristide*, 21: *Παρακαλεῖ τοὺς ἀποθανόντας ἐπὶ τὸ δεῖπνον καὶ τὴν αἰμοκονίαν*

(٥) لوقيانوس: الحداد (*De Luctu*) ٩

الفصل الثانى

عبادة الموتى

لم تلبث هذه العقائد أن أنتجت فى وقت مبكر قواعد للسلوك ، فقد أدركوا أنه ما دام الميت فى حاجة لغذاء وشراب فإن الواجب يفرض على الأحياء قضاء هذه الحاجة ؛ فلم تترك العناية بتقديم أغذية الموتى لهوى الناس وعواطفهم المتقلبة ، بل أصبحت فرضاً لازماً . وبذلك نشأت حول الموت ديانة كاملة من الجائز أن قواعدها قد زالت فى زمن مبكر لكن شعائرها استمرت إلى أن انتصرت المسيحية .

كانت الموتى فى اعتقادهم كائنات مقدسة (١) . وقد خلع القدماء عليهم ما كانوا يجدونه أكثر الألقاب احتراماً ؛ فكانوا يسمونهم الطيبين والقديسين والسعداء (٢) وكانوا يكونون لهم كل التبجيل الذى يستطيع الإنسان أن يكتفه للمعبود الذى يحبه ويخشاه . كان كل ميت فى فكرهم إله (٣) .

Plutarque, *Solon*, 21: "Ὅσιον τοὺς μεθεστῶτας ἱεροὺς νομίζειν" (٣)

• (٤) Χρηστοί, μάκαρες أرسطو اقتبسه بلوتارخوس فى المسائل الرومانية ٥٢ والمسائل الإغريقية • — Μάκαρες χθόνιοι ، ايسخيلوس ، حاملات السوائل . ٤٧٠ Choérh.

Euripide, *Phénic.*, 1321: Τοῖς θανούσι χρητὸν οὐ τεθνηκότα (٥)
τιμὰς δίδοντα χθόνιον εὖ σέβειν θεόν — Odyssée X, 526: Εὐχῆσ
λίση κλυτὰ ἔθνεα νεκρῶν,

ايسخيلوس ، حاملات السوائل ٤٧٠ : « أيها السعداء القاطنون تحت الثرى اسمعوا دعائى ؛ هلموا إلى نجدة أبنائكم وامنحوهم النصر » — واستناداً إلى هذه الفكرة يدعو إينياس Enée أباه المتوفى Sancte parens, divinus parens فرجيليوس الإنييد ٥ :

• ٨٠ : ٥٧ •

Plutarque, *Quest, rom.* 14: Θεὸν γεγονέναι τὸν τεθνηκότα λέγουσι .
Cornelius Nepos, *Fragm.*, XII: Parentabis mihi et invocabis deum parentem.

هذا النوع من التألية لم يكن امتيازاً مقصوراً على عظماء الرجال ؛ إذ أنه لم يكن هناك تمييز بين الأموات . يقول سيسرون : «أراد أسلافنا أن يحسب الناس الذين غادروا هذه الحياة في عداد الآلهة (١) » . بل لم يكن من الضروري أن يكون المرء من ذوى الفضيلة ؛ فكان الخبيث يصبح إلهاً على قدم المساواة مع أهل الخير وإنما يحتفظ في ذلك الوجود الآخر بكل ميول الشر التي كانت نصيبه في الحياة الأولى (٢) .

• وكان يطيب للإغريق أن يطلقوا على الموتى اسم الآلهة السفليين . في إحدى روايات ايسخيلوس يدعو ابن أباه المتوفى هكذا «أنت الذى هو إله تحت الأرض ويقول أوربيديس عند الكلام على الكستيس (Alceste) : «بالقرب من قبرها يقف المار ويقول : هذه هى الآن معبودة سعيدة .» (٣) وكان الرومان يطلقون على الموتى اسم الآلهة مانيس (Mânes) فيقول سيسرون : «أعطوا الآلهة مانيس ما هو لهم ؛ إنهم أناس هجروا الحياة ؛ اعتبروهم كائنات إلهية .» (٤) كانت القبور معابد هذه المعبودات . ولهذا كانت تكتب عليها هذه الكتابة المقدسة «إلى الآلهة مانيس» *Dis Manibus* وبالإغريقية «إلى الآلهة السفليين *θεοῖς χθονίοις* . هناك كان يعيش الإله مدفوناً *Manesque sepulti* كما يقول فرجيليوس (٥) . وكان أمام القبر مذبح للضحايا كما هى الحال أمام معابد الآلهة (٦) .

(١) سيسرون ؛ القوانين ٢ : ٢٢

(٢) القديس اغسطينوس : مدينة الله ٨ : ٢٦ ؛ ٩ : ١١ .

(٣) Euripide, *Alceste*, 1015: *Nūn δ' ἐστὶ μάκαιρα δαίμων'χαῖρ', ὦ πότνι', εὖ δὲ δοίης*

(٤) سيسرون القوانين ٢ : ٩ . فارون Varron في القديس اغسطينوس مدينة الله ٨ : ٢٦ .

(٥) فرجيليوس ، الإنييد ٤ : ٣٤١ .

(٦) Euripide, *Troyennes*, 96: *Τύμβους θ' ἱερὰ τῶν κεκμηκότων*, (٦) *Electre*, 505-510—Virgile, *En.*, VI, 177: *Aramque sepulcri*; III, 63:

وإننا لنجد عبادة الموتى هذه عند الإغريق وعند اللاتينيين (١) والأتروسك كما نجدها أيضاً عند الأريا القاطنين في الهند إذ ورد ذكرها في أناشيد الريح فيدا Rig-Véda. ويتحدث كتاب قوانين مانو عن هذه العبادة باعتبارها من أقدم العبادات لدى الناس. وإننا لنرى في هذا الكتاب أن فكرة تناسخ الأرواح قد سرت منذ ذلك الوقت فوق هذه العقيدة القديمة، بل نرى أن عبادة براهما قد استقرت قبل ذلك التاريخ، ومع هذا فإن ديانة أرواح الأسلاف لا تزال باقية حية تحت عبادة براهما وتحت مذهب التناسخ لا يقوى عليها البلى وقد فرضت على محرر قوانين مانو أن يحسب لها حساباً وأن يقبل فرائضها في الكتاب المقدس. وليس أقل ما ينفرد به هذا الكتاب البالغ حد الغرابة أنه حافظ على القواعد الخاصة بهذه العقائد العتيقة بينما يبدو واضحاً أنه حرر في عصر تغلبت فيه عقائد مناقضة لها كل التناقض. وفي هذا دليل على أنه إذا كان تبدل العقائد الإنسانية في حاجة لوقت طويل فإن تغيير الشعائر الخارجية والقوانين يحتاج لوقت أطول. وحتى في يومنا هذا، بعد هذا القدر من القرون والانتقالات، ما فتىء الهنود يقدمون قرايئهم للأسلاف. فهذه الآراء وهذه الشعائر هي أقدم ما في الجنس الهندو أوروبي وهي أيضاً أثبت ما فيه.

*Stant Manibus arae; III, 305: Et germinas, causam lacrimis, sacra-
verat aras; V, 48: Divini ossa parentis condidimus terra moestasque
sacravimus aras.*

يقول النحوي نونيوس مارسيلوس Nonius Marcellus إن القبر كان يسمى عند الأقدمين معبداً. والواقع أن فرجيليوس يستعمل كلمة *Templum* ليدل على القبر أو الضريح الرمزي الذي أقامته ديدولزوجها (الإنييد ٤ : ٤٥٧) -

Plutarque, *Quest., rom., 14*: 'Επὶ τῶν τάφων ἐπιστρέφονται, καθάπερ θεῶν ἱερὰ τιμῶντες τὰ τῶν πατέρων μνήματα

وقد استمروا يسمون *ara* الحجر المنسوب على القبر (سويتونيوس: نيرون. ٥). وهذه الكلمة مستعملة في الكتابات الجنازية Orelli, nos. 4521, 4522, 4826

كانت هذه العبادة في الهند كما كانت هي بذاتها في بلاد الإغريق وفي إيطاليا. فكان على الهندي أن يحصل لأرواح الأسلاف على الغذاء الذي يسمونه سرادذا *Sraddha* : «ليعمل رب المنزل السرادذا بأرز ولبن وجذور وفواكه لكي يجلب على نفسه عطف أرواح الأسلاف». وكان الهندي يعتقد أنه في اللحظة التي يقدم فيها هذا الغذاء الجنازي تأتي أرواح الأسلاف لتجلس حوله وتتناول الغذاء الذي يقدم لها. وكان يعتقد أيضاً أن هذا الغذاء كان يجلب للموتى متعة كبيرة : «عندما يحضر السرادذا طبقاً للشعائر يشعر أسلاف من يقدم الغذاء برضى لا مبدل له». (١).

وهكذا في البدء كانت أفكار أريا الشرق عن سر المصير بعد الموت كأفكار أريا الغرب. فقبل اعتقادهم في التناسخ، وهو مذهب يفترض التفريق المطلق بين الروح والجسد، اعتقدوا بأن للكائن الإنساني وجوداً مبهماً غير واضح لا يرى لكنه ليس مجرداً من المادة، ويتطلب من الناس غذاء وشراباً.

وكان الهندي، كالإغريقي، يعتبر الموتى كائنات إلهية تتمتع بوجود سعيد؛ بيد أنه كان هناك شرط لسعادتهم وهو أن يحمل الأحياء القرابين لهم بانتظام فإذا ما انقطع حمل السرادذا لميت ما فإن روح هذا الميت تخرج من مسكنها الهاديء وتصبح روحاً هائمة على وجهها تعذب الأحياء. فإنه إذا كانت أرواح الأسلاف آلهة فإنما يكون ذلك على قدر ما يكرمها به الأحياء من عبادة (٢).

كانت للإغريق والرومان نفس العقائد بالضبط. فإذا انقطع تقديم الغذاء الجنازي للموتى فإن الموتى يخرجون فوراً من قبورهم أشباحاً هائمة يسمعونها الناس

(١) قوانين مانو ١ : ٩٥ : ٣ : ٨٢ : ١٢٢ : ١٢٧ : ١٤٦ : ١٨٩ : ٢٧٤ .
(٢) هذه العبادة التي تؤدي للموتى يعبر عنها في الإغريقية بالألفاظ *ἐναγίζω, ἐναγισμός* بوليدوكيس (Pollux) ٨ : ٩١ : هيرودوت ١ : ١٦٧ : بلوتارخوس : أريستيديس ٢١ : كاتون ١٥ : بوسانياس ٩ : ١٣ : ٣ . تطلق كلمة *ἐναγίζω* على الأضاحي المقدمة للموتى و *θύω* على التي تقدم لآلهة السماء، وهذا الفرق موضح جداً في بوسانياس ٢ : ١٠ : ١ وفي شارح أوريبيدس : الفينيقيات ٢٨١ . أنظر أيضاً بلوتارخوس، المسائل الرومانية ٣٤ : *Χοὰς καὶ ἐναγισμοὺς τοῖς τεθνηκόσι... Χοὰς καὶ ἐναγισμὸν φέρουσιν ἐπὶ τὸν τάφον*

متأوهة في الليل الساكن . وهي تلوم الأحياء على إهمالهم الآثم وتحاول أن تعاقبهم فترسل عليهم الأمراض أو تصيب الأرض بالجدب . وفي الختام لا تترك للأحياء أية دعة إلى اليوم الذي تعود فيه الأغذية الجتنازية من جديد (١). فالضحية وقربان الغذاء وإراقة السوائل تدخلها القبر من جديد وترد لها الراحة والصفات الإلهية . وعندئذ يصبح الإنسان في سلم معها (٢).

إذا كان الميت الذي يهملونه كائناً شريراً فإن الميت الذي يكرمونه إله واق يحب الذين يحضرون له الغذاء . وفي سبيل حمايتهم يستمر على المشاركة في شؤون الإنسان وكثيراً ما يقوم فيها بدور خاص، ومع أنه ميت فإنه يعرف كيف يكون قوياً ونشطاً . فكانوا يرجونه ويلتمسون تأييده وعطفه . وعند ما يجد أحدهم في طريقه قبراً كان يقف ويقول « أنت الذي هو إله تحت الأرض كن عطوفاً على (٣) » .

ويمكن أن نحكم على السلطان الذي كان يعزوه الأقدمون للموتى من هذا الدعاء الذي وجهته إليـكـترا إلى روح والدها « كن رحماً بي وبأخي أوريسـتـيس

(١) أنظر هيرودوت قصة أرواح الفوكيين Phocéens ، التي أثارت الاضطراب في إقليم بكامله إلى أن خصص لهم يوم للذكرى، وعدة قصص شبيهة بهذه في هيرودوت وفي بوسانياس ٦: ٦: ٧. وكذلك في ايسخيلوس عندما أُنذرت كليتمنسترا Clytemnestre أن روح أغاممنون حانقة عليها أسرعت بإرسال أطعمة إلى قبره . انظر أيضاً الأسطورة الرومانية التي يرويها أوفيد في *Fastes, II, 549-556* : « نسوا في أحد الأيام واجب البارانتاليا Parentalia وعندئذ خرجت الأرواح من القبور . وسمعت وهي تجرى صاخبة في شوارع المدينة وحقول لاتيوم Latium إلى أن عادوا يضحون على قبورها » أنظر كذلك القصة التي يرويها بلينيوس الأصغر ٧ : ٢٧ .

(٢) Ovide, *Fast.*, II, 518: *Animas placate paternas.*—Virgile, *En.*, VI, 379: *Ossa piabunt et statuent tumulum et tumulo solemniamittent.*

قارن الإغريقية *ελάσσομαι* بوسانياس ٦ : ٦ : ٨ .

Tite-Live, I, 20: *Justa funebria placandosque manes.*

(٣) أوربيديس: الكستيس ١٠٠٤ (١٠١٦). — « يعتقد الناس أننا إذا لم نعر الموتى أي التفات وإذا أهملنا عبادتهم فانهم يلحقون بنا الأذى ، وبالعكس يؤدون لنا خيراً إذا استعطفناهم بقرايبتنا » بورفيروس : العفة (*De abstin.*) ٢ : ٣٧ . انظر هوراسيوس *Odes*, II, 23 وأفلاطون : القوانين ٩ ص ٩٢٦ ، ٩٢٧ .

دعه بعد إلى هذه البلاد ؛ اسمع دعائى يا أبى ؛ تقبل رجائى وأنت تتلقى ما أقدمه من السوائل المهرقة . ولا تقتصر هذه الآلهة القوية على منح المنافع المادية إذ أن إلكترا تضيف : «هبلى قلباً أعف من قلب أوى ويدين أظهر من يديها» (١) . وكذلك يطلب الهندي من الأرواح «أن يزداد عدد الصالحين فى أسرته وأن يكثر لديه ما يعطيه» .

هذه الأرواح البشرية التى ألهها الموت هى مايسميه الإغريق بالجن (démons) أو الأبطال (héros) (٢) وما يطلق عليه اللاتينيون اسم لاريس ، مانيس ، جينى Lares, Mânes, génies فىقول أبوليوس Apulée (٣) «اعتقد أسلافنا أن المانيس إذا كانت شريرة يجب أن تسمى لارفى larvae ، ويسمونها لاريس (مفردها لار) إذا كانت خيرة وعطوفة» (٤) . ونقرأ فى مكان آخر «الجنى

(١) ايسخيلوس : حاملات السوائل ١٢٢ - ١٤٥ .

(٢) من الجائز أن يكون المعنى الأصلي لكلمة ἥρως هو متوفى . فى بعض الأحيان كانت لغة النقوش ، وهى لغة العامة ، كما أنها هى التى يبقى فيها المعنى القديم للكلمات أكثر مما يبقى فى سواها ، تستعمل كلمة ἥρως بالمعنى الساذج الذى نعطيه لكلمة متوفى :

ἥρως χοῆρε, χαῖρε, Boeckh, Corp. inscr. nos 1629, 1723, 1781, 1782, 1784, 1786, 1789, 3398; Ph. Lelas, Morum. de Morée, p. 205

ثيوغنيس طبعه ولكر البيت ٥١٣ وبوسانياس ٦: ٦ : ٩ . وكان لدى الشيبين مصطلح قديم معناه يموت (Aristote, fragments, ed. Heitz, t. IV, ἥρῶα γένεσθαι) P. 260; Cf. Plutarque, Proverb. quibus Alex. usi sunt, C. 47 الإغريق على روح الميت اسم δαίμων أيضاً (أوريبيدس: الكستيس. ١١٤ وشارحه δαίμονα δαεῖον (ايسخيلوس الفرس. ٦٢) δαίμων ἀνθρώπου (بوسانياس ٦: ٦)

(٣) Manes Virginiae (تيتوس ليفيوس ٣ : ٥٨) Manes conjugis (فريجيليوس ٦ : ١١٩) . و Patris Anchisae Manes (شرحه ١٠ : ٥٣٤) و Dis Manibus Martialis, Dis (شرحه ٣ : ٣٠٣) و Manibus Acutiae (أورلى : الأرقام ٤٤٤٠ ، ٤٤٤١ ، ٤٤٤٧ ، ٤٤٥٩ الخ .) و Valerii deos manes (تيتوس ليفيوس ٣ : ١٩) .

Apulée, De deo Socratis. Servius, ad Aeneid., III., 63 (٤)

واللار ما هما إلا كائن واحد ، هكذا كان يعتقد أسلافنا « (١) ؛ وفي سيسرون
« إن هؤلاء الذين يسميهم الإغريق دايمون نسميهم نحن لاريس. » (٢) .
ويبدو أن ديانة الموتى هذه هي أقدم ديانة . فقد عبد الإنسان الموتى قبل أن
يتصور إندرا (Indra) أوزوس (Zeus) ويعبدهما ، وخاف منهم ووجه إليهم
صلواته ، ويلوح أن العاطفة الدينية بدأت من هنا . ومن الجائز أنه عندما رأى
الموت شعراً لأول مرة بفكرة ما فوق الطبيعة وأراد أن يأمل وراء ما يراه . لقد كان
الموت أول الأسرار ، وهو الذى وضع الإنسان فى طريق الأسرار الأخرى ورفع
فكره من المرنى إلى الخفى ، ومن الطارئ إلى الخالد ، ومن البشرى إلى الإلهى .

Censorinus, *De die natali*, 3

(١)

(٢) Cicero, *Timée*, 11. - ترجم ديونيسيوس الهاليكارناسى *Lar familiaris*
بعبارة *κατ' οὐκίαν ἥρας* (تاريخ الرومان العتيق *Antiq. rom.* ٤ : ٢) .

الفصل الثالث

النار المقدسة

يحوى بيت الإغريق أو الرومانى مذبحاً ؛ وكان لا بد أن يوجد على هذا المذبح قليل من الرماد وفحم متقد (١) . ولقد كان التزاماً مقدساً على رب كل منزل أن يعنى بالنار ليل نهار ، والويل للمنزل الذى تخمد ناره . ففى كل مساء كانوا يغطون النار بالرماد لئلا يحولوا دون احتراقها احتراقاً كاملاً ؛ وعند القيام من النوم كان أول ما يعنون به هو إحياء هذه النار وتغذيتها ببعض الغصون . ولاتنقطع النار عن التوهج على المذبح إلا عند ما تفتى الأسرة بأكملها . فكانت عبارة نار خابية وأسرة فانية مصطلحين مترادفين عند الأقدمين (٢) .

ومن الجلى أن هذا التعود على الاحتفاظ دائماً بنار على مذبح يرجع إلى عقيدة عتيقة . وتبين القواعد والشعائر التى كانوا يراعونها فى هذا الشأن أنها لم تكن عادة تافهة فلم يكن مسموحاً بتغذية هذه النار بأى نوع من الخشب بل كانت الديانة تميز من بين الأشجار الأنواع التى يمكن أن تستعمل فى هذا الأمر .

(١) وكان الإغريق يسمون هذا المذبح بأسماء مختلفة *βῶμος, ἑσγάρη, ἑστία* وهذا الأخير (إستيا) هو الذى ساد استعماله فى النهاية وأصبح اللفظ الذى أطلق فيما بعد على الإلهة وستا *Vesta* ، وكان اللاتينيون يسمون نفس المذبح *Vesta, ara, focus* *In primis ingressibus domorum vestae, id est arae et foci, solent haberi* (Nonius Marcellus, éd. Quicherat, p. 53)

(٢) الأناشيد الهوميرية ٢٩ ، الأناشيد الأورفية ٨٤ . ديوان هسيودوس ٦٧٩
ايسخيلوس : أغاممنون ١٠٥٦ . أوربيديس : هراكليس الهائج ٥٠٣ ، ٥٩٩ .
ثوقيديديس ١ : ١٣٦ . ارستوفانيس : بلوتوس ٧٩٥ . كاتون : الفلاحة ١٤٣ .
سيرون : 40 *pro domo* . تيبولوس ١ : ١ ، ٤ . هوراسيوس *Epod., II, 43*
أوفيدوس : فن الغرام A.A. ١ : ٦٣٧ . فرجيليوس : الإنييد ٢ : ٥١٢ .

وتلك التي كان استعمالها يعد رجساً (١) . وتقول الديانة كذلك إنه لا بد أن تبقى هذه النار طاهرة على الدوام (٢) . والمقصود بذلك طبقاً للمعنى الحرفي أنه يجب ألا يلقى في النار بأى شيء قدر ، وطبقاً للمعنى المجازي أنه يجب ألا يرتكب أى إثم في حضرتها . وكان في السنة يوم ، هو عند الرومان أول مارس ، يجب فيه على كل أسرة أن تطفىء ناراها المقدسة وأن توقد أخرى فوراً (٣) . لكن للحصول على النار الجديدة كانت هناك شعائر لا بد من مراعاتها بتخرج . فيجب على الأخص الاحتراز من استعمال حصاة وقدها بالحديد . وكانت الوسائل الوحيدة المسموح بها هي تركيز حرارة أشعة الشمس على نقطة ما أوحك قطعتين من الخشب من نوع معين حكاً سريعاً لتخرج منهما الشرارة (٤) . وتدل هذه القواعد المختلفة دلالة كافية على أنه في رأى الأقدمين لم يكن الأمر متعلقاً بإحداث عنصر نافع ومقبول أو المحافظة عليه فحسب بل إن هؤلاء القوم كانوا يرون شيئاً آخر في النار التي كانت تشتعل فوق مذابحهم .

لقد كانت هذه النار شيئاً إلهياً ، فكانوا يعبدونها ويؤدون لها شعائر حقة وكانوا يتقربون إليها بكل ما كانوا يعتقدون أنه يمكن أن يكون مقبولا عند إله من الآلهة : زهور وفواكه وبخور وخمر (٥) . وكانوا يلتمسون حمايتها ، ويعتقدون أنها قوية ، ويوجهون لها أدعية حماسية لكي يحصلوا منها على تلك الأغراض الأبدية للرغبات البشرية : الصحة ، الثروة ، السعادة . وإحدى هذه

(١) فرجيليوس ٧ : ٧١ *Castis taedis* . فستوس : تحت لفظ *Felicitas* !
الموتارخوس : نوما ٩ .

(٢) أوربيدس : هراكليس الهائج ٧١٥ . كاتون : الفلاحة ١٤٣ . أوفيدوس
Faste., III, 698

(٣) *Marcobe, Saturn.*, I, 12

(٤) بلوتارخوس : نوما ٩ ؛ فستوس طبعة ميلر ص ١٠٦ .

(٥) *Ovide, A.A.*, I, 637: *Dentur in antiquos thura merumque focos.*

بلاوتوس : الأسرى ٢ : ٣٩ - ٤٠ ؛ مركاتور ٥ : ١ ، ٥ . تيبولوس ١ : ٣ ، ٣٤
هوراسيوس *Odes* ٢ : ٢٣ ، ١ - ٤ . كاتون : الفلاحة ١٤٣ . بلاوتوس *Aululaire*
المدخل .

الدعوات التي احتفظت لنا بها مجموعة الأناشيد الأورفية تجري على هذا النحو «اجعلنا دائماً في حالة يسر ، دائماً سعداء ، أيها الموقد ، أنت يا من هو خالد وجميل وفتي على الدوام ؛ أنت الذي تغذي ؛ أنت الغني ، تقبل بقلب راض قرابيننا وهب لنا بدلا منها السعادة والصحة التي ما أحلاها» ، (١) وهكذا كانوا يرون في الموقد إلهاً خيئراً يقوم على حياة الإنسان ، إلهاً ثرياً يغذيه بهباته ، إلهاً قوياً يحمي المنزل والأسرة . وعند ما يواجههم خطر كانوا يبحثون عن ملاذ بالقرب منه . ولما اقتحم العدو قصر برياموس جذبت هيكا به الملك الشيخ إلى جوار الموقد وقالت له : « إن أسلحتك لن تستطيع عنك دفاعاً ؛ ولكن هذا الموقد يحمينا جميعاً » . (٢) .

أنظر إلى الكستيس وهي توشك أن تموت مضحية بحياتها لتنقذ زوجها . إنها تقترب من الموقد وتدعوه بهذه العبارات : « أيتها المعبودة ، ربة هذا البيت هذه آخر مرة أنحنى فيها أمامك وأوجه لك دعواتي إذ أنني سأهبط إلى حيث يوجد الموتى . اسهرى على أطفال الذين لن تكون لهم أم ، وامنحى ابني زوجة رقيقة وابنتي زوجاً نبيلاً واجعليهما لايموتان مثلي قبل الأوان بل يقضيان حياة طويلة بين أحضان السعادة » . (٣) إن الموقد هو الذي يمد الأسرة بالثراء ويمثله بـ لاوتوس في إحدى ملاحيه وهو يمنح هباته بقدر العبادة التي تؤدي له (٤) . يسميه الإغريق إله الثراء *κτήσιος* (٥) . فكان الوالد يدعو أولاده ويطلب

(١) الأناشيد الأورفية ٨٤ .

(٢) فرجيليوس : الإنييد ٢ : ٥٢٣ . هوراسيوس : الرسائل ١ : ٥ . أوفيد يوس : الحزينات ٤ : ٢٢ ، ٨ .

(٣) أوريبيدس : الكستيس ١٦٢ - ١٦٨ .

(٤) بلاوتوس *Aululaire* المدخل .

(٥) *Eustathe, in Odyss., p. 175 & 1814* *Θεός κτήσιος* : والإله

Zeús κτήσιος الذي كثيراً ما يذكر هو إله منزلي : إنه الموقد

منه أن «يذهبهم الصحة والوفرة في الثراء» (١) وإذا نزل بالمرء مسكروه
لام موقده ووجه له العتاب وإذا أصابه خير قدم له الحمد والثناء . فالجندی
الذى عاد من الحرب يشكره لأنه أنقذه من المهالك . يمثل لنا أيسخيلوس أغاممنون
عائداً من طروادة سعيداً مجللاً بالمجد لكنه لا يقدم الشكر لچوپیتز ولا يظهر
اغتيباطه واعتراؤه بالجميل في معبد بل يقدم أضحية الشكر للموقد الذى فى منزله (٢) .
ولا يخرج المرء من منزله قط دون أن يصلى لموقده ، وعند عودته ، قبل أن
يرى زوجته ويقبل أولاده ، لا بد من أن ينحن أمام الموقد ويدعوه (٣) .

فإن الموقد إذن هى العناية الإلهية للأسرة . وكانت عبادتها جد بسيطة .
فالقاعدة الأولى هى أن تكون على المذبح كمية من الفحم المتوهج على الدوام
فإذا خمدت النار فمعناه أن إلهها لم يعد له وجود . وفى بعض ساعات من النهار
كانوا يضعون على الموقد أعشاباً جافة وخشباً ؛ وعندئذ يتجلى الإله فى شكل
لهيب وهاج (٤) ، وكانوا يقدمون لها الأضاحى ؛ وجوهر كل تضحية هو
الإبقاء على هذه النار المقدسة وإحيائها ، أى تغذية جسد الإله وتنميته . ولهذا
السبب كانوا يعطونها الخشب قبل كل شئ . ولهذا أيضاً كانوا
بعد ذلك يسكبون على المذبح خمر بلاد الإغريق الحارق والزيت والبخور
ودهن الضحايا . وكان الإله يتلقى هذه الأشياء ويلتهمها ويقوم على المذبح

(١) Isée, *De Cironis hered.*, 16: *Hūχετο ἡμῖν υὔγειαν διδόναι καὶ*
κτῆσιν ἀγαθήν.

(٢) أيسخيلوس : أغاممنون ٨٥١ - ٨٥٣ .

(٣) كاتون : الفلاحة ٢ . أوربيديس : هراكليس الهائج ٥٢٣ .

(٤) Virgile, *En.*, I, 704: *flammis adolere Penates.*

Virgile, *Georg.*, IV, 383-385:

راضياً متهللاً ويلقى ضوء أشعته على عابده (١). تلك كانت اللحظة التي يدعى فيها فيخرج نشيد الدعاء من قلب الإنسان .

كان الغذاء هو العمل الديني الذي يفوق ما عداه . وكان يرأسه الإله فهو الذي أنضج الخبز وأعد الأغذية (٢) . لذا كان عليهم أن يصلوا له في بدء الأكلة وفي نهايتها ، وقبل الأكل كانوا يضعون على المذبح باكورة الغذاء وقبل الشرب كانوا يريقون الخمر . ذلك هو نصيب الإله . مامن أحد يشك في أنه حاضر وأنه يأكل ويشرب ؛ وفي الواقع ، ألم يكونوا يرون اللهيـب يكبر كما لو كان يتغذى من الأطعمة المقدمة ؟ وبذلك كان الغذاء قسمة بين الإنسان والإله : كان احتفالاً مقدساً بواسطته يتصل كل منهما . بالآخر (٣) . عقائد عتيقة اختفت من الأذهان مع طول الزمن لكنها خلفت عادات وشعائر وصيغاً لغوية عاشت زمناً طويلاً ولم يستطع حتى غير المؤمنين بها أن يتخلصوا منها

Ter liquido ardentem perfudit nectare vestam (١)

Ter flamma ad summum tecti subjecta reluxit.

وهكذا يفسر سرفيوس هذين البيتين .

Id est, in ignem vinum purissimum fudit, post quod quia magis flamma convaluit bonum omen ostendit.

Ovide, *Fast.*, VI, 315. (٢)

Plutarque, *Quest. rom.*, 64: 'Ιερὸν τι ἡ τράπεζα. Id. *Symposiaca*, (٣)

VII, 4,7: Τράπεζα ἐπ' ἐνίων ἐστία καλεῖται. Id., *ibid.*, VII, 4,4:

Ἀπαρχὰς τῷ πύρρι ἀποδίδοντας. — Ovide, *Fastes*, VI, 300:

Et mensae credere adesse deos, VI, 630. *In ornatum fundere / vina focum*; II, 634: *Nutriet incinctos mixta patella Lares.*

أنظر بلاتوس : (Aulularia) : ٢ : ١٦ ، ٧ : ٢ : هوراسيوس Odes : ٣ : ٢٣ ؛

ساتورناليا : ٢ : ١٦٦ ؛ ٣ : ١٦٦ ؛ جوفينال ١٢ : ٨٧-٩٠ ؛ بلوتارخوس De Fort. Rom., 10

قارن النشيد الموميرى ٢٩ : ٦ ؛ بلوتارخوس : قطع : التعليق على هسيودوس ٤٤ .

Servius, in *Aeneida*, I, 730: *Apud Romanos, cena edita, silentium fieri solebat quoad ea quae de cena libata fuerant ad focum ferrentur et igni darentur ac puer deos propitios nuntiasset.*

فما زال هوراسيوس وأوفيديوس وچوئينال يتعشون أمام مواقدهم ويريقون السوائل ويصلون (١) .

لم تكن عبادة النار المقدسة هذه مقصورة على أهالى بلاد الإغريق وإيطاليا فإننا نعث عليها فى الشرق إذ ترينا قوانين مانو ، فى الصورة التى وصلت إلينا منها ، ديانة براهما مستقرة تمام الاستقرار بل وتميل إلى الهبوط . لكن هذه القوانين احتفظت بآثار وبقايا من ديانة أقدم منها هى ديانة الموقد التى آخرتها عبادة براهما إلى المرتبة الثانية لكنها لم تستطع أن تقضى عليها . وعند البرهمانى موقده الذى تجب عليه رعايته ليلاً ونهاراً ؛ فى كل صباح وكل مساء يعطيه غذاءه من الخشب ، ولكن ، كما هو الأمر عند الإغريق ، لا يمكن أن يكون الخشب إلا من أنواع من الأشجار يعينها الدين . وكما أن الإغريق والإيطاليين يقدمون له الخمر فإن الهنـدى يسكب له الشراب الخمر الذى يقال له سوما soma . والأكل أيضاً عمل دينى وشعائره موصوفة بدقة وتخرج فى قوانين مانو . فيوجهون للموقد أدعية كما كانوا يفعلون فى بلاد الإغريق ويقدمون له بواكير الأكلة : الأرز والزبد والعسل . وفيها «أنه يجب على البرهمانى ألا يأكل أرزاً من المحصول الجديد قبل تقديم البواكير للموقد إذ أن النار المقدسة بها نهم للحبوب وإذا لم تكـرم فإنها تأتى على وجود البرهمانى المهمل» . وكان الهنود كالإغريق والرومان يتوهمون الآلهة نهمة لا للتبجيل والاحترام فحسب بل للشراب والغذاء كذلك . فكان يعتقد الإنسان أنه ملزم بإشباع جوعهم وعطشهم إذا ما أراد أن يتجنب غضبهم .

ومعبود النار هذا كثيراً ما كان يسمى عند الهنود Agni أغنى . ونحوى الرينغ فيدا (Rig-Véda) عدداً كبيراً من الأناشيد الموجهة إليه . يقولون فى إحداها «يا أغنى ! أنت الحياة . أنت حامى الإنسان هب رب الأسرة الذى يدعوك المجد والثراء ثمنا لمدائننا أغنى ، أنت

(١) *Ante larem proprium vescor vernasque procaces Pasco libatis dapibus* (Horace, Sat., II, 6,66). — Ovide, *Fastes*, II, 631-633.—Juvénal, XII, 83-90.—Pétrone, *Satir.*, c. 60.

مدافع كيس وأب ؛ لك ندين بالحياة . نحن أسرتك » . وبذلك تكون نار الموقد كما في بلاد الإغريق قوة حامية يطلب إليها الإنسان السعة : « اجعل الأرض كريمة دائماً نحونا. » ويطلب منها الصحة : « واجعلني أتمتع بالضوء زمناً طويلاً وأصل إلى الشيخوخة كما تصل الشمس إلى مغربها . » بل يلتمس منها الحكمة « أى أغنى ؛ إنك تهدي إلى الصراط السوى من كان في طريق الضلال ... اغفر لنا إن أخطأنا أو كنا قد سرنا بعيداً عنك » . كانت نار الموقد هذه كما كانت في بلاد الإغريق طاهرة طهارة جوهرية فكان من المحرم بتاتاً على البرهمن أن يلتقي فيها بأى شيء قدر بل أن يدفئ فيها قدميه (١) . وكما كان يحدث في بلاد الإغريق لم يكن يستطيع الرجل المذنب أن يقترب من موقده قبل أن يتطهر من دنسه .

ولأنه لدليل كبير على قدم هذه العقائد وهذه الشعائر أن نجدها في آن واحد لدى أهل شواطئ البحر المتوسط وأهل شبه الجزيرة الهندية على السواء . من المؤكد أن الإغريق لم يستعبروا هذه الديانة من الهنود ولا الهنود من الإغريق بل إن الإغريق والإيطاليين والهنود ينتمون إلى نفس الجنس وقد عاش أسلافهم معاً في آسيا الوسطى في فترة سحيقة جداً ؛ وهناك أولاً وجدوا هذه العقائد وأقاموا هذه الشعائر . فيجب إذن أن نرجع ديانة النار المقدسة إلى تلك الحقبة البعيدة الغامضة التي لم يكن فيها إغريق ولا إيطاليون ولا هنود والتي لم يكن فيها إلا الأريا . وعند ما انفصلت القبائل بعضها عن بعض استصحب بعض منها هذه العبادة إلى ضفاف نهر الغانج والبعض الآخر إلى شواطئ البحر المتوسط ؛ ثم إن بعض هذه القبائل المنفصلة ، والتي لم تعد بينها أية صلة ، عبد براهما وبعضها عبد زوس والبعض الآخر چانوس ، اتخذت كل جماعة آلهتها لكنها احتفظت جميعاً ، كثرات قديم ، بالديانة الأولى التي تصورتها ومارستها في المهد المشترك بين جنسها .

(١) نفس الفرائض في الديانة الرومانية :

Pedem in focum non imponere, Varron dans Nonius, p. 479, éd. Quicherat, p. 557.

إذا لم يكن وجود هذه العبادة لدى جميع الشعوب الهندوأوربية دليلاً كافياً على توغلها في القدم فإننا نجد أدلة أخرى في شعائر الإغريق والرومان الدينية؛ ففي جميع الأضاحي، حتى ما كان يقدم منها تمجيداً لزوس وأثينا، كان يوجه الدعاء الأول للموقد دائماً (١)، فكل صلاة لإله أيا كان يجب أن تبدأ وأن تنتهي بصلاة للموقد (٢). وفي أولبيا كانت أول تضحية يقدمها الإغريق مجتمعين للموقد، والثانية لزوس (٣). كذلك في روما كانت أول عبادة دائماً لفستا التي لم تكن سوى الموقد (٤). ويقول أوفيدوس عن هذه المعبودة إنها تحتل المكان الأول في شعائر الإنسان الدينية. لذلك نقرأ في أناشيد الريح فيدا « قبل جميع الآلهة الآخرين تجب دعوة أغني؛ سنتلفظ باسمه المبجل قبل أسماء جميع الخالدين الآخرين. أي أغني! مهما يكن الإله الذي نكرمه بضحيتنا، إليك دائماً تتجه الضحية المحرقة ». من المؤكد إذن أنه في روما في زمن أوفيدوس وفي الهند في زمن البرهمنيين كانت نار الموقد تتقدم على كل الآلهة الآخرين. وليس ذلك لأن جوبيتر وبراهما لم ينالا في ديانة الناس أهمية أكبر من تلك بكثير بل لأنهم كانوا يتذكرون أن نار الموقد أقدم بكثير من هؤلاء الآلهة، وكانت قد اتخذت المكان الأول في العبادة منذ عدد من القرون وعجزت الآلهة الأحداث والأكبر منها عن انتزاعه من يدها.

وقد تغيرت رموز هذه الديانة حسب العصور. فعندما تعودت شعوب بلاد الإغريق وإيطاليا أن تتصور آلهتها كأشخاص، وأعطت لكل واحد منهم اسماً علماً وشكلاً آدمياً، خضعت عبادة الموقد القديم للقانون المشترك الذي فرضه الإدراك الإنساني في تلك الحقبة على كل ديانة. فاعتبروا مذبح

(١) Porphyre, *De abstin.*, II, p. 106; Plutarque, *De frigido*, 8

(٢) الأناشيد الهومييرية ٢٩؛ وكذلك ٣ البيت ٣٣. أفلاطون: قراتيل (Cratyle)

١٨؛ Hésychius, ἀφ' ἑστίας. ديودوروس ٦ : ٢؛ أرسطوفانيس: الطيور ٨٦٥

(٣) بوسانياس ٥ : ١٤.

(٤) سيسرون: طبيعة الآلهة ٢ : ٢٧. أوفيدوس *Fast.* ٦ : ٣٠٤

النار المقدسة شخصاً وسموه «إستيا» *estia* «فستا» *Vesta* . وكان الاسم هو بذاته في اللاتينية والإغريقية فضلاً عن أنه لم يكن شيئاً آخر غير الكلمة التي كانت تدل على المذبح في اللغة المشتركة الأولى . وبطريقة مألوفة جعلوا من اسم الذات علماً وتكونت أسطورة رويداً رويداً . فتصوروا هذا المعبود في شكل امرأة لأن الكلمة التي كانت تدل على المذبح كانت مؤنثة . بل إنهم ذهبوا إلى حد تمثيل هذه الإلهة بتهاتيل لكنهم لم يستطيعوا قط أن يمحوا أثر العقيدة البدائية التي بمقتضاها كانت هذه المعبودة نار المذبح فقط . وحتى أوفيدوس ذاته كان مضطراً إلى الموافقة على أن فستا لم تكن شيئاً غير «لهب متأجج» (١) .

فإذا قربنا عبادة النار المقدسة هذه من عبادة الموقى التي تكلمنا عنها منذ قليل تبدت لنا بينهما صلة وثيقة .

فلنلاحظ أولاً أن هذه النار التي كانت تؤجج على الموقد لم تكن في ذهن الناس نار الطبيعة المادية، وما يرونها فيها لم يكن العنصر الطبيعي المحض الذي يدفء أو يحرق والذي يحول الأجسام ويصهر المعادن ويجعل من نفسه الأداة القوية للصناعة البشرية . فإن نار المذبح من طبيعة مغايرة تماماً . إنها نار طاهرة . لا يمكن إحداثها إلا بمعونة شعائر معينة ولا يمكن تغذيتها إلا بأنواع معينة من الخشب . إنها نار عفة يجب أن يقصى الاتصال الجنسي بعيداً عن حضرتها (٢) . لم يكونوا يطلبون منها الثراء والصحة فحسب بل يدعونها أيضاً لينالوا منها طهارة القلب والاعتدال في الشهوات والحكمة إذ تقول أنشودة أورفية : « اجعلينا أترياء وذوى ميسرة ، واجعلينا أيضاً حكماً أعفاء . » فنار الموقد إذن تشبه كائناً معنوياً . حقاً إنها لتوهج وتدفئ وإنها لتضج الغذاء المقدس لكنها في نفس الوقت لها فكر، لها وعي ، إنها لتدرك الواجبات وتحرص على أن تؤدي ، حتى لنكاد نقول إنها إنسان ، فلها من الإنسان طبيعته المزدوجة : جسمانياً ، تلمع وتتحرك

(١) أوفيدوس : الأعياد *Fast.* ٦ : ٢٩١ .

(٢) هسيودوس : ديوان ٦٧٨ - ٦٨٠ ؛ بلوتارخوس : تعليقات على هسيودوس ، القطعة ٤٨ .

وتعيش وتجلب السعة وتحضر الغذاء وتغذى الجسم ، ومعنوياً ، لها عواطف وإحساسات فتمنح الإنسان الطهارة وتأمر بالشئ الجميل والحسن وتغذى الروح . ويمكن القول بأنها تقوم على الحياة البشرية في سلسلة مظاهرها المزدوجة فهي منبع الثراء والصحة والفضيلة في آن واحد . إنها حقاً إله الطبيعة البشرية . وفيما بعد ، عندما دفع برهما وزوس هذه العبادة إلى الصف الثاني ، بقيت نار الموقد أقرب شئ للإنسان في النطاق الإلهي ؛ فكانت وسيطته لدى آلهة الطبيعة المادية ، وهي التي تكفلت بحمل صلاة الإنسان وقربانه إلى السماء وبجلب التعطفات الإلهية للإنسان . ثم بعد ذلك عندما خلقوا من أسطورة النار المقدسة قستا العظيمة أصبحت قستا الإلهة العذراء ؛ إنها لم تكن تمثل في العالم الخصب ولا القوة بل كانت هي النظام ؛ لم تكن النظام الدقيق ، المعنوي ، الحسابي ، القانون اللازم الذي لا مفر منه *ἀνάγκη* والذي لوحظ في وقت مبكرين ظواهر الطبيعة المادية ، بل كانت النظام الخلق ، فقد تصوروا على شكل روح عامة تنظم حركات العوالم المختلفة ، كما تضع الروح البشرية النظام بين أعضائها .

وهكذا تراءى لنا فكرة الأجيال البدائية : إن جوهر هذه العبادة خارج عن الطبيعة المادية ومستقر في العالم الصغير الخفي ألا وهو الإنسان . يعيدنا ذلك إلى عبادة الموتي . فهما متساويتان في القدم وكانتا مرتبطتين برباط وثيق بحيث أن عقيدة الأولين لم تجعل منهما سوى ديانة واحدة . فالموقد والجن (الدايمون) والبطل (الهيرو) والآلهة اللاريس كل ذلك كان مختلطاً ببعضه ببعض . نرى من فقرتين من بلاوتوس وكولوملا (Columelle) أنهم كانوا يستعملون في اللغة العادية كلمتي موقد أولار منزلي بلا فارق بينهما ، كما نرى من سيسرون أنهم لم يكونوا يميزون الموقد من الپناتس (Pénates) ولا الپناتس من الآلهة لاريس (٢) فنقرأ في سرفيوس *Servius* : « يقصد الأقدمون بالموقد الآلهة

(١) تيبولوس ٢ : ٢ . هوراسيوس *Odes* ٤ : ١١ : ٦ . أوفيد يوس : الحزينات ٣ : ١٣ : ٥ : ٥ . كان الإغريق ينعنون آلهتهم المنزلية أو الهيروى بكلمة *ἐφέστιοι* أو *ἐστιοῦχοι*

(٢) *Plaute, Aulul., II, 7,16: In foco nostro Lari. Columelle, XI, 1,9: (٢) Larem focumque familiarum, Ciceron, Pro domo, 41; Pro Quintio, 27, 28.*

لاريس لذلك استطاع فرجيليوس أن يضع أحياناً لفظ موقد بدلاً من پئاتس وأحياناً پئاتس بدلاً من موقد بلا فارق بينهما « (١) . وفي فقرة أخرى يدعو إينياس نفس هؤلاء الآلهة ويسميهم پئاتس ، لاريس ، فستا في آن واحد (٢) هذا وقد رأينا أن أولئك الذين يسميهم القدماء لاريس أو هيروى لم يكونوا سوى أرواح الموتى الذين كان ينسب إليهم الإنسان سلطة إلهية فوق سلطة البشر . وكانت ذكرى كل من هؤلاء الموتى المقدسين مرتبطة دائماً بالموقد فلم يكن من المستطاع عند عبادة أحدهما أن ينسى الآخر بل كان يجمع بينهما في احترام الناس وفي صلواتهم ؛ فعندما تتكلم الذرية عن الموقد كانت تذكر طواعية اسم السلف ؛ يقول أورستيس لهلينا : « غادري هذا المكان وتقدمي نحو موقد پيلوپس العتيق لكي تسمعي كلماتي » (٣) . وكذلك إينياس عند ما كان يتكلم عن الموقد الذي كان ينقله عبر البحار كان يطلق عليه اسم لار اساراكوس (Lare d'Assarcus) كما لو كان يرى في هذا الموقد روح سلفه .

يقول النحوى سرفيوس الذي كان على علم كبير بالتاريخ القديم للإغريق والرومان (وقد كانوا يدرسونه في أيامه أكثر مما كانوا يفعلون في زمن سيسرون) إنها لعادة قديمة جداً أن يدفن الموتى في المنازل ويضيف : « وفي المنازل أيضاً كانوا يمجّدون اللاريس والپئاتس تبعاً لهذه العادة » (٤) . تقرر هذه الجملة بوضوح صلة عتيقة بين عبادة الموتى وبين الموقد . وبناء عليه نستطيع أن نظن أن الموقد المنزلي لم يكن في الأصل إلا رمزاً لعبادة الموتى وأنه تحت حجر الموقد هذا كان يرقد أحد الأسلاف وأن النار إنما كانت توقد فيه لتمجيده وأنه كان يلوح أن هذه النار كانت تعمل على بقاء الحياة فيه أو أنها تمثل روحه الساهرة دائماً . وما ذلك إلا فرض من الفروض تنقصنا الأدلة عليه . لكن المؤكد أن عبادة الموتى والموقد كانت موجودة لدى أقدم الأجيال من الجنس الذي خرج منه

(١) Servius, in Aen., III, 134.

(٢) فرجيليوس : الإنييد ٢ : ٢٩٧ ؛ ٩ : ٢٥٧ - ٢٥٨ ؛ ٥ : ٧٤٤ .

(٣) أوربييدس : : أورستيس ١٤٢٠ - ١٤٢٢ .

(٤) Servius, in Aen., V, 64; VI, 152.

انظر أفلاطون : مينوس ص ٣١٥ *Ἐθαπτον ἐν τῇ οἰκίᾳ τοὺς ἀποθανόντας*

الإغريق والرومان ، وهى ديانة لا تتخذ آلهتها من الطبيعة المادية ولكن من الإنسان ذاته ، وكان موضع عبادتها هو الكائن الخفى الذى فىنا أى القوة المعنوية والمفكرة التى تحرك جسمنا وتحكمه .

لم يكن سلطان هذه الديانة على الروح متساوياً على الدوام فقد تضاعف رويداً لكنه لم يخف تماماً . وحيث أنها كانت معاصرة للعصور الأولى للجنس الآرى فقد تغلغت إلى عمق بالغ فى أحشاء هذا الجنس بحيث أن ديانة الأولمب المتألقة لم تكن كافية لاستئصال شأفها وكان لا بد من المسيحية .

وسرى قريباً أى أثر قوى كان لهذه الديانة على أنظمة القدماء المنزلية والاجتماعية فقد تصوروها وأقاموها فى تلك الحقبة السحيقة التى كان هذا العنصر يبحث فيها عن أنظمتها وقد حددت الطريق الذى سارت فيه الشعوب منذ ذاك الوقت .

الفصل الرابع الديانة المنزلية

يجب ألا نتصور هذه الديانة العتيقة على نمط تلك التي نشأت فيما بعد في الجماعات الأكثر منها تقدماً . فنذ عدد من القرون لم يعد الجنس البشري يتقبل مذهباً دينياً إلا بشرطين : أحدهما أن ينادى المذهب بإله واحد ؛ والآخر أن يتجه المذهب لجميع الناس وأن يكون في متناول الجميع دون أن يقصى أية طبقة أو أى جنس إقصاء منظم . لكن ديانة الأزمنة الأولى لم تكن تحقق أى شرط من هذين الشرطين . فإنها لم تكن تقدم لعبادة البشر إلهاً واحداً ؛ وفوق هذا لم تكن آلهتها تقبل العبادة من جميع الناس . لم يتقدموا كآلهة للجنس البشري بل لم يكونوا يشبهون براهما الذى كان على الأقل إلهاً لطبقة كبيرة بأسرها ، ولا زوس بانهلينوس Zeus Panhellénien الذى كان إله أمة بأكملها . ففي هذه الديانة البدائية لم يكن فى استطاعة أى إله أن يكون معبوداً لغير أسرة واحدة . فكانت الديانة منزلية محضة .

لا بد من إيضاح هذه النقطة الهامة ، إذ لا يمكن بدون ذلك أن نفهم الصلة الوثيقة جداً التي قامت بين هذه العقائد وبين تكوين الأسرة الإغريقية والرومانية . لم تكن عبادة الموتى تشبه بأى وجه كان عبادة المسيحيين للقديسين . فإن إحدى قواعدها الأولى كانت تقضى بأنه لا يمكن لأية أسرة أن تؤديها إلا للموتى الذين ينتسبون إليها عن طريق الدم . ولا يمكن طبقاً لهذه الديانة أن يقوم بالحناة إلا أقرب الأقربين للمتوفى . أما عن الأكلة الحنازية التي كانت تتجدد فيما بعد في فترات معينة فإن الأسرة وحدها هي التي كان لها حق الاشتراك فيها ، وكل غريب كان يقصى عنها بعنف (١) فكانوا يعتقدون أن الميت لا يقبل

(١) يحرم قانون صولون السير باكياً وراء نعش شخص من غير الأقرباء (بلوتارخوس، صولون ٢١) . ولم يكن يسمح للنساء بمصاحبة الميت إلا لدرجة بنات العم *ἐντὸς ἀνεψιαδῶν* (Demosthène, *In Macartatum*, 61-63). Cf. Ciceron, *De legibus*, II, 26. Varron, *L.L.*, VI, 13: *ferunt epulas ad sepulcrum quibus jus ibi parentare*. Gaius, II, 5,6: *Si modo mortui funus ad nos pertineat*.

القربان إلا من أبدى أهله ولا يقبل عبادة إلا من ذريته . وحضور رجل من غير الأسرة كان يقلق راحة الأرواح لذلك كان يحرم القانون على الغريب أن يقترب من أحد القبور (١)؛ وكان لمسه مدفنًا بالقدم ، ولو سهواً ، عملاً غير صالح يتحتم على الغريب أن يسترضى الميت من أجله وأن يتطهر هو ذاته . والكلمة التي كان يطلقها الأقدمون على عبادة الموتى تعد معبرة في حد ذاتها ، فكان الإغريق يقولون *Παριδάειν* (٢) واللاتينيون يقولون *parentare* إذ لم يكن أحد يوجه الصلاة والقربان إلا إلى آبائه (٣) . فعبادة الموتى كانت في الحقيقة عبادة الأسلاف (٤). وبالرغم من استهزاء لوقيانوس بآراء العامة فإنه يفسرها لنا بوضوح عندما يقول : « إن الميت الذي لم يترك ولداً لا يتلقى قرباناً وهو معرض لجوع أبدى . » (٥) .

وفي الهند كما في بلاد الإغريق لا يمكن أن يقدم قربان لميت إلا من هؤلاء الذين تحدروا منه فكان قانون الهنود كالقانون الأثيني يحرم أن يقبل أجنبي في الأكلة الجنازية حتى ولو كان صديقاً . كان من المحتم أن تقدم هذه الوجبات من لدن ذرية الميت لا من آخرين . وكان يظن أن الأرواح في مقرها كانت تنفوه

(١) قانون صولون في بلوتارخوس : صولون ٢١ : *Οὐκ ἔξεστιν ἐπ' ἀλλότρια μνήματα βαδίζειν*
Cicéron, *De legibus*, II, 26: *Pittacus omnino accedere quemquam vetat in funus aliorum.*

(٢) بوليدوكيس (بولليكس) ٣ : ١٠

(٣) ولذا تقرأ في إيسايوس (Isée) : ميراث منيكليس ٤٦ « إذا لم يكن لمنكليس أطفال فإن القرابين المنزلية لن تقدم له وما من أحد يحمل القربان السنوي إلى قبره . » وترى فقرات أخرى من نفس الخطيب أن الابن هو الذي يجب أن يحمل المشروبات إلى القبر دائماً (ميراث فيلسكتيمون ٥١ و ٦٥ ؛ وميراث أبولودوروس ٣٠) .

(٤) في الأصل على الأقل إذ أنه فيما بعد أصبح للمدن أبطالها (هيروى) المحليون والقوميون كما سنرى فيما بعد . وسنرى أيضاً أن التبنى كان يخلق قرابة مفتعلة ويعطى الحق في تكريم سلسلة من الأسلاف .

(٥) لوقيانوس : الحداد (*De Luctu*)

بهذه الأمنية : « ألا ليت يولد من سلالتنا أبناء على التوالى يقدمون لنا على مر الزمان الأرز المسلوق فى اللبن والعسل والزبد المصنّى (١) . »

وينتج من هذا أنه كان واجباً على الابن فى بلاد الإغريق وفى روما كما فى الهند أن يريق السوائل وأن يقدم القرابين لروح والده وأرواح جميع أجداده (٢). والتقصير فى هذا الواجب هو أخطر وزر يمكن ارتكابه ما دام قطع العبادة من شأنه أن يسقط سلسلة من الموتى ويقضى على سعادتهم . مثل هذا الإهمال لم يكن سوى قتل حقيقى للأب يتكرر عدداً من المرات بقدر ما للأسرة من من أسلاف .

أما إذا كانت الأضاحى تقدم دائماً طبقاً للشعائر ، والأطعمة تحمل إلى القبر فى الأيام المحددة فإن السلف يصبح إلهاً حامياً ؛ إنه عدو لكل من لم يتحدر من صلبه ، يصدّهم بعيداً عن قبره ويصيبهم بالأمراض إذا ما اقربوا منه ، إلا أنه رفيق بذويه مغيث لهم .

فكان هناك تبادل خدمات دائم بين الأحياء والموتى من كل أسرة. كان السلف يتلقى من ذريته سلسلة من الوجبات الجنائزية وهى المتع الوحيدة التى كان يستطيع الحصول عليها فى حياته الثانية ؛ ويتلقى الخلف من السلف العون والقوة اللتين كان يحتاج إليهما فى هذه الحياة . فلم يكن فى استطاعة الحى أن يستغنى عن الميت ولا الميت عن الحى . ومن هنا قام رباط وثيق بين جميع الأجيال من أبناء الأسرة الواحدة وجعل منها هيئة متماسكة إلى الأبد .

وكان لكل أسرة قبرها الذى يحىء أمواتها ليرقدوا فيه الواحد بعد الآخر دائماً معاً ، فإن جميع الذين تربطهم سوية رابطة الدم يجب أن يدفنوا فيه ، ولا

(١) قوانين مانو ٣ : ١٣٨ ؛ ٣ : ٢٧٤ .

(٢) وما تسميه اللغة الإغريقية Ποιεῖν τὰ νομιζόμενα ايسخينيس (إشين) ضد تيمارخوس . ٤ ؛ دينارخوس : ضد أرسطوغيتون ١٨ . أنظر (بلوتارخوس : كاتون)

Χρὴ τοῖς γονεῦσιν ἐναγλίζειν

الظر دينارخوس يتهم أرسطوغيتون بأنه لم يقدم الضحية السنوية لوالده الذى مات فى إرتريا (Erétie) دينارخوس : ضد أرسطوغيتون ١٨ .

يمكن أن يقبل فيه أى رجل من أسرة أخرى (١) . وهناك تقام الحفلات وأعياد الذكرى ، وتعتقد كل أسرة أنها ترى هناك أسلافها المقدسين . وفى الزمن المتناهى فى القدم ، كان القبر فى ممتلكات الأسرة ذاتها ، وسط المسكن غير بعيد عن الباب ، وذلك (كما يقول أحد القدماء) كى يقابل الأبناء آباءهم كل مرة

(١) العادة القديمة ، عادة قبر الأسرة مشهود بها بأثبت وجه فان الكلمات *Táφος πατρῶος, μνημα πατρῶον, μνημα τῶν προγόνων* تتردد بلا انقطاع

عند الأغريق كالألفاظ *tumulis patrius, monumentum gentis* عند اللاتينيين *Démosthène, In Eubulidem, 28: Τὰ πατρῶα μνήματα ὧν κοινωνοῦσιν* وكان قانون صولون يحرم أن يدفن فى القبر رجل من أسرة

أخرى : سيسرون : القوانين ٢ : ٢٦ *ne alienum inferat* ويصف ديموشينيس (ضد ما كارتاتوس ٧٩) القبر « الذى يرقد فيه كل أولئك الذين يتحدثون من بوسيلوس Bousélos ؛ يسمونه أثر آل بوسيلوس ، وهو موضع كبير يحيط به حائط طبقاً للعادة القديمة ». وقبر اللاكياديين (Lakiades) (المسمى *μνήματα Κιμώνια*) ذكره باركيلينوس (Marcellinus) مؤلف ترجمة ثوقيد يدعى كاذكره بلوتارخوس : كيمون . وهناك حكاية قديمة تثبت إلى أى حد كانوا يعتقدون أنه من الضرورى أن يدفن كل بيت فى قبر أسرته . يروى أن اللاقيديمونيين (Lacédémoniens) وهم يوشكون أن يدخلوا المعركة مع السينيين ربط كل واحد منهم على ذراعه الأيمن علامة خاصة تحمل اسمه واسم أبيه لكى يمكن التعرف على جسمه فى حالة الوفاة ونقله إلى قبر آبائه ؛ هذه النبذة من الأخلاق القديمة حفظها لنا جوستينوس ٣ : ٥ . ويلمح ايسخيلوس لنفس العادة عند ما يقول عند الكلام على المحاربين الذين على وشك الهلاك أنهم سينقلون إلى قبور آبائهم *Tάφων πατρῶων λαχαί* (السبعة ضد ثيبه ٥ : ٩١٤) - وكانت للرومان أيضاً مقابر عائلية . Cicéron, De offic., I, 17 :

Sanguinis conjunctio, eadem habere monumenta majorum, iisdem uti sacris, sepulcra habere communia.

كان من المحرم كما فى بلاد الاغريق أن يدفن فيها رجل من أسرة أخرى *Cicéron, De legib., II, 22: Mortuum extra gentem inferri fas negant.*

أنظر أوفيدىوس الحزينات ٤ : ٣ : ٤٥ ؛ فيليوس ٢ : ١١٩ ؛ سويتونيوس : نيرون ٥٠ ، طيريوس ١ . سيسرون : المسائل التوسكلانية ١ : ٧ الديجست ١١ : ٧ ؛ ٤٧ : ١٢ : ٥

يدخلون فيها المسكن أو يخرجون منه؛ وحتى يوجهوا الدعوات إليهم في كل مرة (١). وهكذا يرقد السلف بين ذويه: إنه خفى لكنه حاضر على الدوام، إنه لا يزال عضواً في الأسرة ورباً لها. وباعتباره خالداً سعيداً ومقدساً، فإنه كان يهتم بكل فإن تركه على الأرض؛ يعرف حاجاته ويدعم ضعفه. أما ذلك الذي لا يزال يعيش ولا يزال يعمل، ذلك الذي لم يستوف بعد وجوده كما يقول القدماء، فله بجواره نصحاء وأعدوان: ألوهم آباؤه. فإذا أحاطت به المصاعب لجأ إلى حكمهم القديمة، واستمد منهم العزاء في أحزانه، وانتمس منهم العون وقت الخطر، وإذا ارتكب وزراً طلب منهم المغفرة.

حقاً إنه ليصعب علينا النوم كثيراً أن ندرك أن الرجل يستطيع أن يعبد أباه أو سلفه، فإن تأليه إنسان يبدو لنا مناقضاً للدين. إن فهم العقائد القديمة لأولئك الناس يكاد يصعب علينا بقدر ما كان يصعب عليهم تصور عقائدنا. ولكن لتتخيل أنه لم يكن لدى الأقدمين فكرة الخلق فعندئذ يصبح سر التناسل بالنسبة لهم كسر الخلق بالنسبة لنا. كان المنسل يبدو لهم كائناً إلهياً فكانوا يعبدون سلفهم. ولا بد أن هذا الشعور كان طبيعياً جداً وقوياً جداً فإنه يبدو كمبدأ جوهرى لديانة وجدت في أصل الجماعات البشرية بأسرها تقريباً إذ نجده لدى الصينيين وعند قدماء الغيت (Gètes) والسكيثيين (Scythes) ولدى شعوب أفريقيا كما نجده عند شعوب العالم الجديد. (٢)

كما كان من الصفات الجوهرية للنار المقدسة، التي كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعبادة الموتى، أنها كانت تعد ملكاً خالصاً لكل أسرة. فهي تمثل الأسلاف (٣)

(١) أوريبديدس: هيلينا ١١٦٣ - ١١٦٨.

(٢) كان من عادة الأتروسك والرومان أن تحتفظ كل أسرة دينية بصور أسلافها مصفوفة حول ساحة المنزل atrium فهل كانت هذه الصور مجرد صور أم أوثان؟

(٣) *Ἑστία πατριᾶ*, *Focus patrius* وكذلك في الفيدا فان المعبود أغنى ما زال يدعى أحياناً كآله إله منزلى.

وكانت هي العناية الآلهية لأسرة من الأسر وليس هناك شيء مشترك بينها وبين نار الأسرة المجاورة التي كانت تعد بدورها عناية إلهية أخرى. فكل موقديحمى ذويه .

كل هذه الديانة كانت مكنونة داخل نطاق المنزل ، فلم تكن العبادة علنية بل على العكس كانت جميع الاحتفالات تجري في وسط الأسرة دون سواها (١) فلم يكن الموقد يوضع في خارج المنزل إطلاقاً بل ولا على مقربة من الباب الخارجى حيث يستطيع الغريب أن يشاهده تماماً . وكان الإغريق يضعونه دائماً داخل نطاق (٢) يحميه من لمس غير المأذون لهم بل حتى من النظر إليه . وكان الرومان يخفونه وسط منازلهم . كل هذه الآلهة (موقد، لاريس ، مانيس) كانوا يسمونها الآلهة المستترة أو الآلهة الداخلية (٣) . فقد كانت السرية لازمة لكل شعائر هذه الديانة : *Sacrificia occulta* كما يقول سيرون (٤) . وإذا لمح أجنبي إحدى هذه الحفلات فإنها تضطرب وتتلوث بمجرد هذه النظرة وحدها .

لم تكن لتلك الديانة المنزلية قواعد موحدة ولا شعائر مشتركة فقد كان لكل أسرة استقلالها التام وما كان لأية سلطة خارجية الحق في تنظيم عبادتها وعقيدها . لم يكن هناك كاهن غير الأب ، وباعتباره كاهناً لم يكن يعترف بأية رئاسة أخرى فوق رئاسته . لقد كان في استطاعة حبر روما أو أرخون أثينا أن يتأكد من أن رب الأسرة يقوم بكل شعائره الدينية ولكنه لم يكن له الحق في أن يملأ عليه أقل تغيير فيها فإن القاعدة المطلقة هي (٥) *Suo quisque ritu sacrificium faciat*

(١) إيسايوس : ميراث كيرون ١٥ — ١٨

(٢) كان يسمى هذا السور *ἔρκος*

(٣) *Θεοὶ μύχιοι, dii Penates. Cicéron, De nat. Deor., II, 27: Penates, quod penitus insident. Servius, in Aen., III, 12: Penates ideo appellantur quod in penetralibus aedium coli solebant.*

(٤) Cicéron, *De Arusp. resp.*, 17.

(٥) فارون : اللسان اللاتيني ٧ : ٨٨ .

وقد كان لكل أسرة احتفالاتها الخاصة بها وأعيادها الخاصة وصيغ أدعيتها وأناشيدها (١) ؛ والوالد، وهو المفسر الأوحى لديانتها، وجبرها الأوحى، كانت له وحده سلطة تعليمها ولم يكن يستطيع تعليمها إلا لابنه . وكانت الشعائر وعبارات الدعاء والأغاني ، التي كانت جزءاً جوهرياً من هذه الديانة المنزلية، ميراثاً وملكاً مقدساً لم تكن الأسرة تشرك أحداً فيه بل لقد كان محرماً عليها الكشف عنه للأجانب . كذلك كان في الهند إذ يقول البرهماني : « إني لقوى على أعدائي بالأغاني التي تلقيتها عن أسرتي والتي نقلها إلى والدي (٢) » .

وهكذا لم تكن الديانة مستقرة في المعابد بل في المنزل . فكان لكل واحد آلهته ، ولم يكن كل إله يحمى غير أسرة واحدة . ولم يكن لها إلا في منزل واحد . ولا يمكن في حدود المعقول أن نفترض أن ديانة بهذه الصفة قد أوحى بها للناس خيال قوى لواحد منهم أو علمتها لهم طائفة من الكهنة بل إنها ولدت من تلقاء نفسها في الروح البشرية . فكانت الأسرة مهداً ، وكل أسرة صنعت آلهتها لنفسها .

مثل هذه الديانة لا تستطيع أن تنتشر إلا عن طريق التوالد . فعندما يمنح أب الحياة لابنه يمنحه في نفس الوقت عقيدته وعبادته والحق في رعاية الموقد وتقديم الأكلة الجنازية وترتيل صيغ الدعاء . فالتوالد يقيم صلة سرية بين الطفل الذي يولد للحياة وبين جميع آلهة الأسرة . هؤلاء الآلهة هم أسرته ذاتها *Θεοὶ ἐγγενεῖς* وهم دمه *Θεοὶ σύναιμοι* (٣) . وإذن فقد كان الطفل يحمل

(١) هسيودوس ديوانه ٧٠١ . ماكروبيوس : ساتورناليا ١ : ١٦ . سيسرون :

القوانين ٢ : ١١ : *Ritus familiae patrumque servare*

(٢) رينغ فيدا ترجمة لانغلو Langlois الجزء الأول صفحة ١١٣ . كثير أماتذ كرقوانين مانو الشعائر الخاصة بكل أسرة ٨ : ٣ ؛ ٩ : ٧ .

(٣) صوفوكليس : اتتيغون ١٩٩ ؛ شرحه ٦٥٩ . قارن *Πατρῶοι Θεοὶ* في ارسطوفانيس : الذناير ٣٨٨ ؛ ايسخيلوس : الفرس ٤٠٤ ؛ صوفوكليس : اليكترا ٤١١ ؛ *Θεοὶ γενέθλιοι* أفلاطون : القوانين ٥ صفحة ٧٢٩ ؛ *Di generis* أوفيدوس : الأعياد ٣ . ٦٣١

معه عند مولده الحق في عبادتهم وتقديم الأضحية لهم . كما أنه يجب أن يعد بدوره بين آلهة الأسرة هؤلاء عندما يؤلفه الموت هو نفسه فيما بعد .

لكن يجب ملاحظة هذه الخاصية وهي أن الديانة المنزلية لم تكن تنتشر إلا من ذكر إلى ذكر ولا ريب أن العلة في ذلك هي ما كان يظنه الناس في التوالد (١) . فقد كانت عقيدة العصور الأولى كما نجدها في القيدا أو كما نرى من آثار منها في جميع الشرع الإغريقي الروماني هي أن القدرة على الإنتاج كانت مستقرة في الوالد دون سواه . فالوالد دون سواه هو الذي يحوز الجوهر الحقي للكائن وينقل قبس الحياة . وقد نتج عن هذه الفكرة القديمة أن القاعدة هي أن العبادة المنزلية كانت تنتقل دائماً من ذكر إلى ذكر وأن المرأة لم تكن تساهم فيها إلا عن طريق أبيها أو زوجها؛ وعلى الجملة ، لم يكن للمرأة بعد وفاتها نفس النصيب الذي كان للرجل في العبادة وفي حفلات الغذاء الجنائزي : وقد نتجت عن ذلك نتائج أخرى جد خطيرة في القانون الخاص وفي تكوين الأسرة مما سنعرض له فيما بعد .

(٤) تدعو القيدا النار المقدسة مصدر الذرية المذكورة ، المتاكخارا (Mitakchara) ترجمة أوربان (Orianne) ص ١٣٩

الكتاب الثاني الأسرة

الفصل الأول

كانت الديانة هي المبدأ الأساسي للأسرة القديمة

إذا ما انتقلنا بالفكر إلى وسط هذه الأجيال القديمة من الناس فإننا نجد في كل منزل مذبجاً وحوله نرى الأسرة مجتمعة . فتجتمع كل صباح لتوجه للموقد أدعيتها الأولى وكل مساء لتدعوه مرة أخيرة. وفي أثناء النهار تجتمع أيضاً بالقرب منه للغذاء الذي يوزع بعد الصلاة وإراقة السوائل والذي تتناوله الأسرة في خشوع ، وفي كل هذه الأعمال الدينية تترتل الأسرة أناشيد خلفها لها آباؤها .

وفي خارج المنزل وعلى مقربة منه في الحقل المجاور نجد قبراً ، ذلك هو المسكن الثاني لهذه الأسرة ، هناك ترقد معا عدة أجيال من الأسلاف لم يفرق الموت بينهم بل ظلوا مجتمعين في ذلك الوجود الثاني واستمروا يؤلفون أسرة لا انفصام لها .

ولا توجد بين الأحياء والأموات من الأسرة من مسافة غير هذه الخطوات المعدودة التي تفصل البيت عن القبر . وفي أيام معينة تحدد لها لكل واحد ديانتها المنزلية يجتمع الأحياء بجوار الأسلاف ويحملون إليهم الغذاء الجنازي ويسكبون لهم اللبن والتمر ويضعون الحلوى والفواكه أو يحرقون لهم لحوم الأضاحي . وفي مقابل هذه القرابين يلتمسون منهم الحماية ، ويدعونهم آلهتهم ويطلبون منهم أن يجعلوا الحقل خصباً والبيت زاهراً والقلوب عامرة بالفضائل

لم يكن أساس الأسرة العتيقة هو المولد دون سواه . والدليل على ذلك أن الأخت لم تكن في الأسرة في مقام الأخ ، ذلك لأن الابن المحرر أو البنت المتزوجة لم تكن تعد إطلاقاً جزءاً منها . وفي النهاية توجد عدة نصوص هامة في القوانين الإغريقية والرومانية ستتاح لنا فيما بعد فرصة فحصها .

كذلك لم يكن أساس الأسرة هو العطف الطبيعي . إذ أن القانون الإغريقي والقانون الروماني لا يقيمان لهذه العاطفة وزناً . فهي تستطيع أن توجد في قرار القلوب لكنها ليست شيئاً مذكوراً في الشرع . وفي استطاعة الأب أن يدلل ابنته لكنه لا يستطيع أن يخلف لها ما يملك ؛ فإن قوانين التوارث ، وهي أشد القوانين صدقاً في الشهادة على الأفكار التي تصورها الناس عن الأسرة ، تتناقض تناقضاً سافراً مع نظام المواليد أو مع العطف الطبيعي على السواء (١)

عندما لاحظ مؤرخو الشريعة الرومانية بحق أن أساس الأسرة الرومانية لم يكن المولد ولا العطف ظنوا أن هذا الأساس لا بد وأنه كان موجوداً في السلطة الأبوية أو الزوجية ، فجعلوا من هذه السلطة نوعاً من النظام الأزلي لكنهم لم يفسروا كيف نشأت هذه السلطة اللهم إلا أن يكون ذلك عن طريق تفوق قوة الزوج على الزوجة وقوة الأب على الأبناء ، لكنه من الخطأ أن نضع القوة هكذا كأصل للتشريع وسنرى فيما بعد أن السلطة الأبوية أو الزوجية لم تكن سبباً رئيسياً بل كانت هي ذاتها نتيجة لسواها فهي مشتقة من الديانة ، والديانة هي التي أقامتها فلم تكن هي إذن الأساس الذي قامت عليه الأسرة .

إن ما كان يجمع أعضاء الأسرة العتيقة هو شيء أقوى من المولد ومن العاطفة ومن القوة الجسدية ، ألا وهو ديانة الموقد والأسلاف ، تلك التي جعلت من الأسرة هيئة متماسكة في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى . فالأسرة العتيقة هي رابطة دينية أكثر منها رابطة طبيعية ، لهذا سنرى فيما بعد أن المرأة لم تكن تحسب منها على وجه الحقيقة إلا إذا لقنتها حفلة الزواج المقدسة العبادية ، وأن الابن لم يكن بعد منها إذا تخلى عن العبادية أو إذا حرر ، بينما على العكس يصبح المتبنى ابناً حقيقياً فيها لأنه إذا لم يكن حائزاً لرباط الدم فإنه سيكون له شيء خير منه وهو المشاركة في العبادية ؛ وسنرى أن الموصى له إذا رفض أن يتخذ عبادية هذه الأسرة فإنه لا يحصل على الميراث ، وفي الختام أن القرابة وحق الإرث

(١) مفهوم أننا نتكلم هنا عن أقدم الشرائع وسنرى فيما بعد أن هذه القوانين القديمة قد عدلت .

لم يكونا ينظران طبقاً للمولد بل تبعاً لحقوق المساهمة في العبادة كما أقامتها الديانة .
ومما لا ريب فيه أن الديانة لم تكن هي التي خلقت الأسرة ولكن من المؤكد
أنها هي التي منحها قواعدها ، ومن هنا نتج أن الأسرة القديمة كانت تتكون
تكويناً مخالفاً كل المخالفة لما كانت تكون عليه لو أن العواطف الطبيعية كانت
وحدها المؤسسة لها .

وكانت اللغة الإغريقية القديمة تستعمل كلمة ذات دلالة واضحة تطلقها
على الأسرة ، فكانوا يقولون *ἐπίστυον* ومعناها الحرفي : المجاور للموقد .
فالأسرة كانت مجموعة من الأشخاص تسمح لهم الديانة أن يوجهوا أديعتهم لنفس
الموقد وأن يقدموا الأكلة الجنازية لنفس الأسلاف (١) .

(١) لكي يقول هيرودوت (٧٣:٥) . . . أسرة يستعمل التعبير *ἐπιτάφια ἐπίστυα*
وفي مكان آخر (١: ١٧٦) لكي يدل على ٨. أسرة يقول *ὁ γδῶκοντα ἐστὶν* نفس
التعبير في بلوتارخوس : رومولوس ٩ .

الفصل الثانى

الزواج

كان أول نظام أقامته الديانة المنزلية على الأرجح هو الزواج .

يجدر ملاحظة أن هذه الديانة ، ديانة الموقد والأسلاف ، التى كانت تنتقل من ذكر إلى ذكر ، لم تكن مقصورة على الرجل وحده بل كان للمرأة نصيبها من العبادة . فقد كانت وهى عذراء تحضر شعائر أبيها الدينية ، وإذا ما تزوجت حضرت شعائر زوجها .

وإنا لنحس من هذا وحده الطابع الجوهرى للرباط الزوجى لدى القدماء . أسرتان تعيشان إحداهما بجوار الأخرى لكن لهما آلهة مختلفة . فى إحداهما تساهم فتاة منذ طفولتها فى ديانة أبيها وتدعو موقده وتقدم له كل يوم سواكل وتحيطه فى أيام الأعياد بزهور وقلائد من الزهر وتلتمس حمايته وتشكره على آلائه . هذا الموقد الأبوى هو إلهها . فاذا ما طلبها شاب من الأسرة المجاورة زوجاً له فإن الأمر يصبح بالنسبة لها شيئاً آخر غير مجرد الانتقال من منزل إلى منزل آخر ؛ إنها تهجر الموقد الأبوى لتدعو منذ الآن موقد الزوج ، فهو تغيير للدين وقيام بشعائر أخرى وتلاوة لصلوات أخرى ، فالمسألة هى إذن ترك إله طفولتها لتضع نفسها تحت سلطان إله لا تعرفه ولا أمل لها أن تبقى موالية لأحدهما بينما هى تكرم الآخر ، إذ أن فى هذه الديانة مبدأ لا يتغير وهو أن الشخص الواحد لا يستطيع أن يدعو موقدين ولا سلسلتين من الأجداد وفى ذلك يقول أحد القدماء «ابتداء من الزواج لا يبقى للزوجة أية علاقة بديانة آبائها المنزلية ؛ إنها لتضحى لموقد الزوج » (١)

فالزواج إذن عمل خطير بالنسبة للفتاة وليس أقل خطورة بالنسبة للزوج إذ أن تلك الديانة تقتضى أن يولد الشخص بجوار الموقد لى يكون له الحق فى

(١) ديكاي ارخوس (Dicearque) مقتبساً فى اصطفاًن (إتيين) البيزنطى تحت لفظ Πάτρα

التضحية له ، وها هو ذا يهم بإدخال أجنبية بالقرب من موقده ، وبرفقتها سيقوم باحتفالات ديانته الخفية ، ويكشف لها عن الشعائر والصيغ التي هي تراث أسرته وما من شيء لديه أثمن من هذا التراث فإن هذه الآلهة وهذه الشعائر والأناشيد التي تلقاها عن آباءه هي التي تحميه في الحياة وهي التي تعدّه بالثراء والسعادة والفضيلة . لكنه بدلا من أن يحتفظ لنفسه بهذه السلطة الواقية له ، كما يحتفظ الهمجى بصنمه أو بتيميته ، فإنه سيسمح لامرأة أن تقتسمها معه .

وهكذا عندما ننفذ في أفكار هؤلاء الناس القديما نرى مقدار أهمية الارتباط الزوجي عندهم وكم كان تدخل الديانة لازما له . ألم يكن من الضروري إذن أن تلقن الفتاة في احتفال مقدس العبادة التي توشك أن تتبعها منذ الآن ؟ ولكي تصبح كاهنة لهذا الموقد الذي لم يكن يربطها به مولدها ألم يكن يلزمها نوع من التنصيب الديني أو التبنى ؟

كان الزواج هو الاحتفال المقدس الذي يتطلب منه إحداث هذه الآثار العظيمة . وقد اعتاد الكتاب اللاتينيون والإغريق أن يطلقوا على الزواج كلمات تدل على عمل ديني (١) ، فيقول پوليدوكيس Pollux الذي كان يعيش في عهد الأنطونيين ، ولكن كانت في حياته مجموعة كاملة من الأدب القديم لم تعد لدينا الآن ، إنهم في الأزمنة القديمة بدلا من أن يطلقوا على الزواج اسمه الخاص γάμος كانوا يطلقون عليه كلمة Τέλος فقط ومعناها الاحتفال المقدس (٢) كما لو كان الزواج في تلك الأزمنة القديمة قد أصبح الاحتفال الذي فاق سواه قداسة .

هذا وإن الديانة التي كان يعمل الزواج بمقتضاها لم تكن ديانة هوميرو وچوتون وآلهة الأواب الآخرين ، ولم يكن الزواج في معبد بل كان في المنزل وكان الإله المنزلي هو الذي يشرف عليه . والحق أنه عندما تغلبت ديانة آلهة

Θύειν γάμον, sacrum nuptiale

(١)

(٢) پوليدوكيس ٣ : ٣ : ٣٨ .

السما لم يستطع الناس أن يمتنعوا عن التوسل إليهم أيضاً في صلوات الزواج ؛ بل لقد تعودوا أن يذهبوا أولاً إلى المعابد وأن يقدموا لهؤلاء الآلهة قرايين يسمونها مقدمات الزواج (١) . لكن الجزء الرئيسي الجوهرى من الاحتفال كان يتم دائماً أمام الموقد المنزلى .

يمكن القول إن احتفال الزواج كان يتكون عند الإغريق من ثلاثة فصول يحدث الأول منها أمام موقد والد الزوجة *ἐγγύησις* والثالث عند موقد الزوج *Télos* والثاني هو الانتقال من أحدهما إلى الآخر *Πομπή*

١ - فى المنزل الأبوى وبحضور طالب الزواج يقدم الوالد ضحية وهو يحاط عادة بأسرته ، وعند انتهاء التضحية يعلن وهو يتلو صيغة مخصصة لذلك أنه يعطى ابنته للشاب . وهذا الإعلان لازم كل اللزوم للزواج ، إذ أن الفتاة لا يمكن أن تذهب توطاً لعبادة موقد الزوج إلا إذا فصلها والدها مقدماً من الموقد الأبوى : فلكي تدخل فى ديانتها الجديدة يجب أن تتخلص من كل رباط ومن كل صلة بديانتها الأولى (٢) .

٢ - تنتقل الفتاة إلى منزل الزوج ، والزوج فى بعض الأحيان هو الذى يقودها بنفسه (٣) . وفى بعض المدن كان عبء قيادة الفتاة يقع على أحد أولئك الرجال الذين كانت لهم عند الإغريق صفة كهنوتية والذين كانوا يسمونهم المنادين (*héraults*) (٤) وكانت الفتاة فى العادة توضع فوق مركبة (٥) وتغطى وجهها بلباس وتحمل تاجاً على رأسها ، والتاج كما سئرى فى كثير من المناسبات كان يستعمل فى جميع احتفالات العبادة ، ورداؤها أبيض ، وكان البياض هولون

(١) *Προτέλεια, προγάμια.* Pollux, III, 38

(٢) هيرودوت ٦ : ١٣٠ وإيسايوس : ميراث فيلوكتيمون ١٤ . يعطى ديموشينيس بعض ألفاظ الصيغة المستعملة : *Ἐγγυῶ ἐπὶ δικαίοις δάμαρτα εἶναι* (من أجل التاج ٢ : ١٨) وهذا الجزء من عملية الزواج كان يسمى أيضاً *traditio* أنظر بوليدوكيس ٣ : ٣٥ : ديموشينيس : الدفاع عن فوريون ٣٢ .

(٣) بوليدوكيس (بولكس) ٣ : ٤١ .

(٤) بلوتارخوس : المسائل الإغريقية ٢٧ .

(٥) Plutarque, *Quest. rom.*, 29, Photius, *Lex.* p. 52:

Παραλαβόντες αὐτὴν ἐκ τῆς πατρῶας ἐστίας ἐπὶ τὴν ἀμάξαν ἄγουσιν εἰς τὴν τοῦ γαμοῦντος

الملابس في جميع الشعائر الدينية ، ويتقدمونها وهم يحملون شعلة ؛ تلك هي الشعلة الزوجية (١) وعلى طول سير الموكب يرتلون حولها نشيداً دينياً يتكرر فيه الرد $\tilde{\omega} \tilde{\upsilon}\mu\acute{\eta}\nu. \tilde{\omega} \tilde{\upsilon}\mu\acute{\epsilon}\nu\alpha\iota\epsilon$ وكانو يسمون هذا النشيد الهمينا يوس hyménéé وقد كان لهذا الغناء المقدس من الأهمية ماجعلهم يطلقون اسمه على الاحتفال بأكمله (٢) .

ولم تكن الفتاة تدخل منزلها الجديد من نفسها بل يجب أن يخطفها زوجها وأن يمثل معها عملية الاغتصاب وأن تصرخ هي بضع صرخات وأن يتظاهر النساء اللواتي يصحبنها بالدفاع عنها. لماذا هذه الشعيرة الدينية ؟ هل هي رمز على حياة الفتاة ؟ إن ذلك قليل الاحتمال لأن ساعة الحفر لم تأت بعد وإن الذي سيعمل أولاً في هذا المنزل ما هو إلا حفلة دينية . ألم يكن الأولى بالقصد أنهم أرادوا أن يبينوا أن المرأة التي ستضحى لهذا الموقد ليس لها أى حق من تلقاء ذاتها وأنها لا تقرب منه بدافع من إرادتها وأنه لا بد من أن يقدمها له رب المكان ورب الإله بعمل يستمد منه سلطته ؟ ومهما يكن من أمر فإن الزوج كان يرفعها بين ذراعيه بعد معركة صورية ، ويتخطى بها الباب مع الاحتراز التام من أن تمس قدماه عتبة الدار (٣) .

وهذا الذى سبق ما هو إلا إعداد للحفلة ومقدمة لها . أما العمل المقدس فسيبدأ في المنزل

(١) الإلياذة : ١٨ : ٤٩٢ . هسيود ييوس : الترس ٢٧٥ . أوريبيديس :
إيفيغينيا في الأوليس ٧٣٢ ، الفينيقيات ٣٤٤ ، هيلينا ٧٢٢ — ٧٢٥ .
بوليدوكيس (بولييكس) ٣ : ٤١ . لوقيانوس : أثيون Action .
(٢) الإلياذة ١٨ : ٤٩٥ . هسيودوس : الترس ٢٨٠ . ارستوفانيس : الطيور ؛
بوليدوكيس ١٧٢ . السلم ١٣٣٢ . بوليدوكيس ٣٧ : ٤ ؛ ٨٠ . فوتيوس :
خزانة الكتب C. 239

Plutarque, *Lycurgue*, 15: 'Εγάμουν δι' ἀρπαγῆς. Denys (٣)

d' Halicarnasse: Οὐκ ἐφ' ὕβροιο τῆς ἀρπαγῆς, ἀλλ' ἐπὶ γάμῳ γενομένης,
ἐλληνικὸν καὶ ἀρχαῖον τὸ ἔθος καὶ τρόπον συμπάντων καθ' οἷς συνά-
πτονται γάμοι ταῖς γυναῖξιν ἐπιφανέστατον.

٣ - يقتربون من الموقد وتوضع الزوجة في حضرة المعبود المنزلى وينثرون عليها ماء التثاير وتمس النار المقدسة (١) وتقال الأدعية ثم يقتسم الزوجان كعكة وخبزاً وبعض الفاكهة (٢) .

وهذا النوع من الوجبة الخفيفة الذى يبدأ وينتهى بإراقة السوائل والدعاء، هذا الاقسام للغذاء أمام الموقد، يربط بين الزوجين برباط دينى ويصلهما بالآلهة المنزلين (٣) .

والزواج الرومانى كثير الشبه بالزواج الإغريقى ويشمل مثله ثلاث مراحل التسليم *traditio*، الزفاف *deductio in domum* واقتسام الدقيق *Confarreatio* ١- تغادر الفتاة الموقد الأبوى . وحيث أنها لم تكن مرتبطة بهذا الموقد بمقتضى حق خالص لها بل عن طريق رب الأسرة فقط فإنه ما من شىء يستطيع أن يفصلها عنه إلا سلطة الأب فعملية التسليم *traditio*، إجراء لا مفر منه (٤) . ٢- تقاد الفتاة إلى منزل الزوج . وكماهى الحال فى بلاد الإغريق تكون ملثمة

Ignem undamque jugalem (Valer. Flaccus, *Argonaut.*, VIII, (١) 245).

(٢) بلوتارخوس : صولون . ٢ : عن الزواج ١ ونفس العادة عند المقدونيين ؛
Quinte-Curce, VIII, 16: *Jussit afferri patrio more panem: hoc erat apud Macedones sanctissimum coeuntum pignus; quem divisum gladio uterque libabat.*

(٣) ومن هنا هذا الاصطلاح الذى استعمله أفلاطون (القوانين ٨ ص ٢٤١) *Taïs μετὰ θεῶν καὶ ἱερῶν γάμων ἐλθούσους εἰς τὴν οἰκίαν.* وهذا التعبير الآخر من بلوتارخوس (حياة تيسسيوس ١٠) :

εἰς κοινωνίαν γένους ἐλθεῖν τὰ μέγιστα καὶ τιμιώτατα. λαμβάνοντας καὶ δίδοντας ويقول نفس المؤلف فى مكان آخر أنه لا توجد صلة أقدم من صلة الزواج *οὐκ ἐστὶ ἱερωτέρα κατὰξενξίς* (Amatorius, 4)

(٤) عن الأشكال الفذة للتسليم *traditio* والخطوبة *sponsio* فى القانون الرومانى انظر النص الغريب المنقول عن سرفيوس سولبيسيوس (Servius Sulpicius) فى أولوس جيلبيوس (Aulu-Gelle) ٤ : ٤ - انظر

Plaute, *Aululaire*, II, 2, 41-49; II, 3, 4; *Trinummus*, V, 4; Cicéron, *Ad Atticum*, I, 3,

وتحمل تاجاً ، وتسبق الموكب شعلة الزوجية (١) ، ويرتلون حولها نشيداً دينياً قديماً . وربما تكون عبارات هذا النشيد قد تغيرت مع الزمن لكي تتفق مع تطورات العقائد أو اللغة لكن الرد المقدس من النشيد بقي دائماً دون أن يلحق به تغيير وهو لفظ *Talassic* ، لفظ لم يكن الرومان في زمن هوراسيوس يفهمون معناه أكثر مما كان الإغريق يفهمون معنى كلمة *ἱμεναίαι* ويحتمل أنه كان بقية مقدسة لصيغة عتيقة لا يمسه أحد بسوء (٢) .

يقف الموكب أمام منزل الزوج . وهناك يقدمون للفتاة النار والماء ؛ فالنار هي رمز المعبود المنزلي والماء هو ماء النار الذي تستخدمه الأسرة في كل الأعمال الدينية (٣) ، ولكي تدخل الفتاة المنزل لابد من تمثيل الاغتصاب (٤) ، كما كانوا يفعلون في بلاد الإغريق ، ويجب على الزوج أن يرفعها بين ذراعيه وأن يحملها فوق العتبة دون أن تمسها قدماءه .

٣ - تقاد الزوجة أمام الموقد حيث توجد البناتس وحيث يجتمع جميع الآلة المنزليين وصور الأسلاف حول النار المقدسة ويقدم الزوجان قرباناً كما في بلاد الإغريق ويريقان السوائل ويتلوان بعض الصلوات ويأكلان معاً كعكة من خالص الدقيق *panis farreus* (٥) .

(١) أوفيد يوس : الأعياد ٢ : ٥٥٨ - ٥٦١ .

(٢) بلوتارخوس : رومولوس ١٥ .

(٣) فارون : اللسان اللاتيني ٥ : ٦١ . بلوتارخوس : مسائل رومانية ١ . سرفيوس على الإنييد ٤ : ١٦٧ .

(٤) بلوتارخوس : مسائل رومانية ٢٩ ؛ رومولوس ١٥ . ماكروبيوس : ساتورناليا ١ : ١٥ . فستوس تحت لفظ *rapi* .

(٥) Pline, *Hist. nat.*, XVIII, 3,10: *In sacris nihil religiosius con-farreationis vinculo erat, novaeque nuptae farreum praeferabant.* Denys d'Halicarn., II, 25; *Ἐκάλουν τοὺς ἱεροὺς γάμους φαρράκια ἀπὸ τῆς κοινωνίας τοῦ φαρρός*

تاسيتوس : حوليات ٤ : ١٦ ؛ ١١ : ٢٦ - ٢٧ ؛ جوفيناليس : ٣٢٩ - ٣٣٦ .

سرفيوس على الإنييد ٤ : ١٠٣ ؛ *ad Georg.*, 1,31 ؛ غايوس ١ : ١١٠ -

١١٢ . اولبيانوس ٩ ، الديجيست ٢٣ : ٢ : ١ . وعند الأتروسك أيضاً كان يتم

الزواج بضحية (فارون ، الفلاحة ٢ : ٤) - ونفس العادة عند قدماء الهنود قوانين مانو

٣ : ٢٧ - ٣٠ ، ١٧٢ ؛ ٥ : ١٥٢ ؛ ٨ : ٢٢٧ ؛ ٩ : ١٩٤ ، متاكخارا

ترجمة أوريان (*Orianne*) ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ٢٣٦ .

وهذه الكعكة التي تؤكل وسط تلاوة الصلوات ، بحضرة معبودات الأسرة وعلى مشهد منهم ، هي التي تخلق الارتباط المقدس بين الزوج والزوجة (١) فهما مرتبطان منذئذ بنفس العبادة ويصبح للمرأة نفس الآلهة ونفس الشعائر ونفس الصلوات ونفس الأعياد التي لزوجها . ومن هنا هذا التعريف القديم للزواج الذي حفظه لنا الفقهاء *Nuptiae sunt divini juris et humani communicatio* وهذا التعريف الآخر *Uxor socia humanae rei atque divinae* (٢) ذلك بأن المرأة دخلت شريكة للزوج في ديانته ، تلك المرأة التي أدخلها الآلهة أنفسهم في المنزل كما يقول أفلاطون .

وللمرأة التي تزوجت بهذه الطريقة حق عبادة الموتى أيضاً ؛ لكنها لا تحمل الأكلة الجنازية إلى أسلافها هي إذ أنه لم يعد لها حق في ذلك فإن الزواج قد فصلها تماماً من أسرة أبيها وفصم صلاتها الدينية معها ؛ وإنما تحمل القربان لأسلاف زوجها *filiae loco* كما يقول الفقهاء . وليس في استطاعة أحد أن ينتمي إلى أسرتين ولا إلى ديارتين منزليتين . فالمرأة بأسرها لأسرة زوجها وديانته . وسنرى عواقب هذه القاعدة في قانون الميراث .

لا بد أن يكون نظام الزواج المقدس قديماً في الجنس الهندو أوروبي قدم الديانة المنزلية . إذ أن أحدهما لا يسير بدون الآخر . وقد علمت هذه الديانة الإنسان أن الارتباط الزوجي شيء آخر غير الصلة الجنسية والعاطفة الطارئة وربطت بين زوجين بالرباط الوثيق المستمد من عبادة واحدة وعقائد واحدة . فضلاً عن أن حفلة الزواج كانت جد رائعة وكانت تحدث من الآثار الخطيرة

(١) وسنتكلم فيما بعد عن أشكال الزواج الأخرى التي كانت تستعمل عند الرومان والتي لم تكن الديانة تتدخل فيها وإنما يسكتنا أن نقول هنا أن الزواج المقدس يبدو لنا أنه أقدمها إذ أنه يطابق أقدم العقائد ولم يختف إلا متمشياً مع ضعفها .

(٢) ديجست : ٢ . مجموعة قوانين يوستينيانوس ٩ : ٣٢ : ٤ . ديونيسيوس

الماليكارناسي ٢ : ٢٥ : *Koinos χρημάτων καὶ ἱερῶν*

ما لا ندهش معه من أن نرى هؤلاء الناس يعتقدون أنه غير مسموح ولا مستطاع إقامة هذه الحفلة إلا لامرأة واحدة في كل منزل . إنه لا يمكن لمثل هذه الديانة أن تسمح بتعدد الزوجات .

بل إننا لنذكر أن مثل هذا الارتباط لم يكن قابلاً للحل وأن الطلاق يكاد يكون مستحيلاً (١) . كان القانون الروماني يسمح بسهولة بحل الزواج الذي تم بطريق الشراء *coemptio* أو المتعة *usus* لكن حل الزواج الديني كان شديد الصعوبة. فكان لابد لهذا الانفصام من حفلة مقدسة جديدة إذ أن الدين وحده يستطيع أن يفرق ما جمعه الدين . فلا يستطيع أن يمحو أثر *confarreatio* إلا *diffarreatio* فيظهر الزوجان اللذان يريدان الانفصام أمام الموقد المشترك للمرة الأخيرة ويحضرهما كاهن وشهود وتقدم للزوجين ، كما حدث في يوم الزواج ، كعكة من خلاصة الدقيق (٢) . لكن من المحتمل أنهما بدلا من اقتسامها كان يدفعانها عنهما ثم إنهما بدلا من الصلوات كانا يتلوان صيغا «غريبة الطابع ، قاسية ، تنطوي على البغض ، مخيفة» (٣) ، وهي نوع من الملاعة تنازل به المرأة عن عبادة الزوج وآلهته . ومنذ ذلك يصبح الرباط الديني مفصوماً . وبانقطاع المشاركة في العبادة تنقطع كل مشاركة أخرى من تلقاء نفسها ويصبح الزواج منحلاً .

(١) على الأقل في الأصل . يقول ديونيسيوس الهاليكارناسي (٢ : ٢٥) بصراحة إنه ما من شيء كان يستطيع أن يحل هذا الزواج - يبدو أن الحق في القدرة على الطلاق أدخل مبكر جداً في القانون الأتيكي .

(٢) فستوس تحت لفظ *Diffarreatio* ، بوليدوكيس ٣ *Ἀποπομπή* ونقرأ في إحدى الكتابات (أورلي رقم ٦٤٨)

Sacerdos confarreationum et diffarreationum

(٣) بلوتارخوس « مسائل رومانية » . *Φρικώδη, ἀλλόκοτα, σκυθρωπά*

الفصل الثالث

استمرار الأسرة . العزوبة محرمة . الطلاق في حالة العقم

عدم المساواة بين الابن والبنت

إن العقائد الخاصة بالموتى ، والعبادة التي كان يجب إقامتها لهم ، هي التي كونت الأسرة القديمة ومنحتها معظم قواعدها .

وقد رأينا آنفاً أن الإنسان كان يعد بعد الموت كائناً سعيداً إلهياً ولكن بشرط أن يقدم له الأحياء الأكلة الجنازية دائماً . فإذا حدث أن انقطعت القرابين فإن في ذلك انحطاطاً للميت يسقط به إلى مرتبة شيطان تعس شرير إذ أن هذه الأجيال القديمة لم تكن قد فكرت في الثواب والعقاب في الفترة التي ابتدأت تتصور فيها الحياة الأخرى . كانوا يعتقدون أن سعادة الميت لم تكن متوقفة على السلوك الذي سلكه في حياته بل على ما تسلكه سلالته نحوه . لذا كان كل والد ينتظر من ذريته سلسلة الأكلات الجنازية التي من شأنها أن تضمن لروحه الراحة والسعادة .

كانت هذه الفكرة هي المبدأ الأساسي للشرع المنزلي عند القدماء . فاشتقت منها أولاهذه القاعدة وهي أن على كل أسرة أن تبقى إلى الأبد فقد كان الموتى في حاجة إلى ألا تييد سلالته ولم يكن لهم في القبر الذي يعيشون فيه موضوع قلق سواء . وكانت فكرتهم الوحيدة كما كان همهم الوحيد أن يكون هناك على الدوام رجل من دمهم يحضر القرابين إلى القبر . لذلك كان يعتقد الهندي أن هؤلاء الموتى كانوا يكررون بلا انقطاع «ليتة يولد دائماً في سلالتنا أبناء يحضرون لنا الأرز واللبن والعسل».. وكان الهندي يقول أيضاً «إن زوال أسرة يؤدي إلى

القضاء على ديانة تلك الأسرة . والأسلاف المحرومون من قربان الكعك
يهوون إلى مقر التعساء » (١) .

فكر الناس طويلاً في إيطاليا وفي بلاد الإغريق مثل هذا التفكير . وإذا كانوا
لم يخلفوا لنا في كتاباتهم تعبيراً واضحاً عن عقائدهم كالذي نجده في كتب
الشرق القديمة فإن قوانينهم على الأقل لا زالت باقية تشهد على عقائدهم العتيقة.
ففي أثينا كان القانون يكلف رجل الدولة الأول أن يسهر على ألا تنقرض
أسرة ما (٢). وكذلك كان القانون الروماني متنبهاً إلى عدم سقوط أية عبادة منزلية (٣).
وإذا لنقرأ في خطبة لخطيب أثيني : « ما من رجل يعلم أنه سوف يموت وتبلغ
قلة اهتمامه بذاته حد الرغبة في ترك أسرته بلا ذرية : إذ أنه لن يكون هناك
أحد يؤدي له العبادة الواجبة للموتى » (٤) . فكانت لكل واحد مصلحة قوية
في ترك ابن بعده لاقتناعه بأن الأمر متعلق بخلوده السعيد . بل لقد كان ذلك
واجباً نحو الأسلاف ما دامت سعادتهم كانت لا تدوم إلا بقدر ما تدوم الأسرة
لذلك كانت قوانين مانو تسمى الابن الأكبر « المولود للقيام بالواجب » .

وإذا لنلمس هنا صفة من أجدر صفات الأسرة القديمة بالملاحظة . فإن الديانة
التي كونت هذه الأسرة كانت تفرض حتماً عدم فناءها . إن أسرة تنطفيء
لهي عبادة تموت . ولا بد أن نتصور هذه الأسرات في الحقبة التي لم تكن
العقائد قد تغيرت فيها : لكل واحدة منها ديانة وآلهة ، وديعة ثمينة لا بد أن
تسهر عليها . وإن أكبر مصيبة يخشاها برها لهي انقطاع سلالتها فإن ديانتها
تختفي عندئذ من الأرض وينطفيء موقدها وتهوى كل سلسلة موتاها في النسيان
والشقاء الأبدي . لقد كانت أكبر مصلحة للحياة البشرية هي في استمرار الذرية
لكي تستمر العبادة .

(١) بهاغافاد - غيتا (Bhagavad-Gita) ١ : ٤٠

(٢) إيسايوس : ميراث ابولودوروس . ٣ ؛ ديموشينيس : ضد ما كارتاتوس ٧٥

(٣) Cicéron, *De legibus*, II, 19: Perpetua sint sacra. Denys, IX, 22
Ἦτα μὴ ἱερὰ ἐκλείφῃ πατρῶα.

(٤) إيسايوس ٧ : ميراث ابولودوروس . ٣ . Cf. Stobée, *Serm.*, LXVII, 25 :
Ἐὶ γὰρ ἐκλείποι τὸ γένος, τίς τοῖς θεοῖς θύσει ;

وطبقاً لهذه الآراء كان لا بد أن تكون العزوبة إثماً خطيراً ومصيبة معاً . إثماً لأن الأعزب كان يعرض سعادة أرواح أسرته للخطر ، ومصيبة لأنه لن يتلقى هو ذاته أية عبادة بعد موته ولن يعرف « ما يبهج الأرواح » وفي ذلك نوع من اللعنة له ولأسلافه معاً .

من الممكن أن نظن أن هذه العقائد الدينية ظلت زمناً طويلاً كافية في غيبة القوانين لمنع العزوبة ، لكنه يبدو زيادة على ذلك أن القوانين قد نصت ، بمجرد ما وجدت ، على أن العزوبة شيء رديء ، معاقب عليه ؛ يقول ديونيسيوس الهاليكارناسي الذي فتش في حوليات روما القديمة أنه رأى فيها قانوناً قديماً يجبر الشبان على الزواج (١) وتحتوي رسالة سيسرون في القوانين ، وهي الرسالة التي تنقل دائماً تقريباً قوانين روما القديمة في شكل فلسفي ، على قانون يحرم العزوبة (٢) ؛ وفي أسطرة كانت شريعة أيكورغ تعاقب الرجل الذي لا يتزوج عقاباً شديداً (٣) . ونعرف من عدة قصص أنه لما بطل تحريم العزوبة عن طريق القوانين كانت لا تزال محرمة عن طريق الأخلاق . وأخيراً يبدو من فقرة من بوليدوكيس أن القانون في كثير من المدن الإغريقية كان يعاقب على العزوبة باعتبارها جناية (٤) ؛ كان ذلك مطابقاً للعقائد ، فإن الإنسان لم يكن لنفسه بل كان للأسرة . كان عضواً في مجموعة متعاقبة وكان لا بد ألا تنتهي المجموعة عنده . إنه لم يولد من باب المصادفة وإنما أدخلوه في الحياة لكي يواصل عبادة ما وكان عليه ألا يغادر الحياة دون أن يتأكد أن هذه العبادة ستستمر بعده .

(١) ديونيسيوس الهاليكارناسي ٩ : ٢٢

(٢) سيسرون : القوانين ٣ : ٢

(٣) بلوتارخوس : ليكورغ ١٥ ؛ حكم (apohhtégmes) اللاكيديمولين .
أنظر حياة ليساندروس ٣ : *Ἀγαμέμνων δίκη*

(٤) بوليدوكيس ٣ : ٤٨ .

لكنه لم يكن يكنى أن يخلف ابناً بل لا بد أن يكون الابن ، الذى عليه أن يواصل الديانة المنزلية، ثمرة زواج ديني . أما النخل ، الابن غير الشرعى ، الذى كان الإغريق يسمونه *νόθος* واللاتينيون *spurius* فلم يكن باستطاعته أن يقوم بالدور الذى تعينه الديانة للابن . والواقع أن صلة الدم لم تكن لتنشئ الأسرة من تلقاء ذاتها بل كان لا بد من رباط العبادة أيضاً . هذا ولم يكن فى استطاعة الابن المولود من امرأة لم يشركها احتفال الزواج فى عبادة الزوج أن يساهم هو ذاته فى العبادة (١) . فلم يكن له الحق فى تقديم الأكلة الجنازية ولم تكن الأسرة لتستمر عن طريقه . وسرى فيما بعد أنه لم يكن له الحق فى الميراث لنفس السبب .

وإذن فقد كان الزواج إلزامياً ولم يكن يهدف للذة ولم يكن غرضه الأساسى اتحاد كائنين يوافق كل منهما الآخر ويريدان المشاركة فى سعادة الحياة ومتاعها . بل كان أثر الزواج فى نظر الديانة والقوانين هو ربط كائنين فى نفس الديانة المنزلية لكى يولد منهما ثالث جدير باستمرار هذه العبادة على يديه . ويتبين ذلك جيداً من الصيغة المقدسة التى كانت تتلى فى عقد الزواج ؛ كان الرومان يقولون : (٢) *Ducere uxorem liberum quaerendorum causa* ويقول الإغريق *παίδων ἐπ' ἀρότω γυναικῶν* (٣)

ما دام الزواج لم يعقد إلا لاستمرار الأسرة فإنه يبدو من العدل إمكان فصله إذا كانت المرأة عاقراً . فكان الطلاق فى مثل هذه الحال شرعياً دائماً عند القدماء ومن الجائز أنه كان إجبارياً . ففى الهند كانت تحتم الديانة « أن

(١) ايسايوس ٦ ، ميراث فيلوكتيمون ٤٧ . ديموستينيس : ضد ما كارتاتوس ٥١ .

(٢) يعنى يتخذ زوجة طلباً للذرية — العرب .

(٣) ميناندر ييوس : القطعة ١٨٥ . ديموستينيس : ضد نيأيرا (Neaera) ١٢٢ .

لوقيانوس : تيمون ؛ اينسخيلوس : أغاممنون ١٢٠٧ .

يستبدل بالمرأة العاقر سواها في نهاية ثمان سنوات» (١) . أما أن هذا الواجب كان كذلك في بلاد الإغريق فهو شيء لا يثبت به نص صريح. بيد أن هيرودوت يذكر ملكين من ملوك اسبرطة أجبرا على تطليق زوجتيهما لأنهما كانتا عاقرين (٢) . أما فيما يختص بروما، فإن قصة كارفيليوس روجا (Carvilius Roga)

الذي كان طلاقه أول طلاق ذكرته الحوليات الرومانية ، معروفة بما فيه الكفاية . يقول أولوس جيلوس واتفصل كارفيليوس روجا ، وهو رجل من أسرة كبيرة ، من زوجته بالطلاق لأنه لم يكن في استطاعته أن ينجب أولاداً منها . كان يحبها حباً ودوداً ، ولم يكن له إلا أن يهنيء نفسه على سلوكها ، لكنه ضحى بحبه في سبيل ديانة القسم لأنه أقسم (في صيغة الزواج) أن يتخذها زوجة ليكون له أطفال» (٣) .

كانت الديانة تقول إن الأسرة يجب ألا تنقرض ؛ وعلى كل عاطفة وكل حق طبيعي أن يتراجع أمام هذه القاعدة المطلقة . فإذا كان زواج ما عقياً من ناحية الزوج فلا بد مع ذلك من استمرار الأسرة . وكان لا بد إذن أن يحل محل الزوج أخ له أو قريب . وكان لزاماً على المرأة أن تستسلم لهذا الرجل والطفل الذي يولد من ذلك كان يعتبر ابناً للزوج ويستمر في عبادته . تلك كانت القواعد المرعية عند قدماء الهنود وسنجدتها مرة أخرى في قوانين أثينا واسبرطة (٤) . إلى هذا الحد بلغ سلطان هذه الديانة . وإلى هذا الحد تقدم الواجب الديني على جميع الواجبات الأخرى .

ومن باب أولى كانت التشريعات القديمة تفرض زواج الأرملة بأدنى أقارب زوجها إذا لم يكن لها أولاد ، والولد الذي يولم يشتر بأنه ابن المتوفى (٥) .

(١) قوانين مانو ٩ : ٨١

(٢) هيرودوت ٥ : ٣٩ ، ٦٤ : ٦١

(٣) أولوس جيلوس ٤ : ٣ . فاليريوس ماكسيموس ٢ : ١ : ٤ . ديونيسيوس ٢ :

٢٥ .

(٤) بلوتارخوس : صولون ٢ . هكذا يجب أن نفهم ما يقوله اكسينوفون وبلوتارخوس عن اسبرطة : اكسينوفون : جمهورية اللاكيديمونين ١ ؛ بلوتارخوس : ليكورغ ١٥ — أنظر قوانين مانو ٩ : ١٢١ .

(٥) قوانين مانو ٩ : ٦٩ ، ١٤٦ . وكذلك عند العبرانيين : سفر تثنية التشريع ٢٥

لم يكن مولد البنت يقوم بالغرض من الزواج . والواقع أن الفتاة لا تستطيع أن تستمر في العبادة إذ أنها منذ اليوم الذي تزوج فيه تنازل عن أسرة أبيها وعن عبادته وتنتمى إلى أسرة زوجها وديانته . فإن الأسرة ، كالديانة ، لم تكن لتستمر إلا بطريق الذكور ؛ وهذه حقيقة رئيسية سنرى عواقبها فيما بعد .

فالابن إذن هو الذي كان منتظراً وكان لازماً . إنه هو الذي كانت تتطلبه الأسرة والأسلاف والموقد ، وكما كانت تقول قوانين الهنود القديمة وبه يسدد الأب دينه نحو أرواح أسلافه ويضمن لنفسه الخلود . ولم يكن هذا الولد أقل مقداراً في نظر الإغريق إذ أنه هو الذي سيعمل الأضحية فيما بعد ويقدم الأكلة الجنازية ويحافظ بعبادته على الديانة المنزلية . لذلك كان يسمى الابن في مؤلفات إسخيلوس القديم منقلد الموقد الأبوى (١) .

كان يعلن عن دخول هذا الابن في الأسرة بإجراء ديني . كان لا بد أولاً أن يتقبله الأب . ويجب على هذا الأخير ، باعتباره رب الموقد وحارسه مدى الحياة وممثل الأسلاف ، أن يقرر ما إذا كان المولود الجديد من الأسرة أو ليس منها . إذ أن المولد لم يكن إلا الرباط الطبيعي أما إعلان الوالد فكان الرباط الخلقى والديني . كان هذا الإجراء إجبارياً كذلك سواء في روما أو في بلاد الإغريق أو في الهند .

وكان لا بد للابن من نوع من التلقين كما رأينا بالنسبة للمرأة . وكان يحدث ذلك بعد المولد بفترة وجيزة : اليوم التاسع في روما ، والعاشر في بلاد الإغريق ، والعاشر أو الثاني عشر في الهند (٢) . ففي ذلك اليوم يجمع الوالد الأسرة ويدعو الشهود ويضحي لموقده ويقدم الطفل للآلهة المنزليين . فكانت تحمله

(١) إسخيلوس : حاملات السوائل ٢٦٤ (٢٦٢) . وكذلك في أوربيديس (الفينيقيات ١٦) يطلب لا يوس إلى أبولون أن يهبه أطفالاً ذكوراً

Παῖδων ἀρσένων κοινωμάτων

(٢) أرسطوفانيس : الطيور ٩٢٢ . ديموستينيس *In Baeot. de dote*, 28 . ماكروبيوس : ساتورناليا ١ : ١٧ . قوانين مانو ٢ : ٣٠ .

امرأة بين ذراعيها وتطوف به وهي تجرى حول النار المقدسة عدة مرات (١). وكان الغرض المزدوج من هذا الاحتفال هو أولاً تطهير الطفل (٢) أى أن يباط عنه الدنس الذى كان يظن القدماء أنه قد لحقه بمجرد عملية الحمل ، ثم تلقينه العبادة المنزلية . وابتداء من تلك اللحظة يصبح الطفل مقبولا فى هذا النوع من الجماعة المقدسة والملة الصغيرة التى كانوا يسمونها الأسرة . إذ أصبح حائزاً لديانتها وقائماً بشعائرها وأهلاً لتلاوة أدعيتها؛ كان يكرم الأسلاف ولا بد من أن يصبح هو ذاته ، فيما بعد ، سلفاً مكرماً .

(١) أفلاطون ثيأتيتوس (*Thééthète*) . لىسياس استشهد به هاربوراتيون تحت لفظ *Ἀμφιδρόμια*

(٢) *Puer lustratur* ماكروبوس : ساتورناليا ١ : ١٧

الفصل الرابع التبني والتحرير

كان واجب الإبقاء على العبادة المنزلية هو مبدأ شريعة التبني عند الأقدمين فإن نفس الديانة التي كانت تجبر الإنسان على الزواج، والتي كانت تقرر الطلاق في حالة العقم، والتي كانت تقيم مقام الزوج أحد أقربائه في حالة العجز الجنسي أو الموت المبكر، كانت كذلك تقدم للأسرة وسيلة أخيرة لتجنب شقاء الانقراض الذي كانوا يخشونه أشد خشية: تلك الوسيلة هي حق التبني.

«من لم تهيه الطبيعة ابناً يستطع أن يتبنى ولداً كيلا تنقطع الاحتفالات الجنازية» هكذا يتكلم مشرع الهنود القديم (١). ولدينا دفاع غريب من خطيب أثيني في قضية كانوا ينازعون فيها ابناً متبنياً في شرعية تبنيه. يرينا المدافع أولاً لأي سبب كانوا يتبنون ابناً فيقول: «لم ير منكليس (Ménéclès) أن يموت من غير أطفال؛ فكان متمسكاً بأن يترك من بعده واحداً ليدفنه وليقوم له فيما بعد باحتفالات العبادة الجنازية». يبين بعد ذلك ما سوف يحدث إذا ألغت المحكمة تبنيه، لا ما سيحدث له هو ذاته؛ بل ما يحدث لذلك الذي تبناه؛ مات منكليس لكن مصلحة منكليس هي التي في خطر. «إذا ما أبطلتم تبني فإنكم تكونون قد جعلتم منكليس يموت دون أن يخلف ابناً من بعده وبالتالي لن يضحى أحد تكريماً له ولن يقدم له أحد الأكلات الجنازية وعلى الحملة فسيصبح من غير عبادة» (٢).

(١) قوانين مانو ٩ : ١٠

(٢) إيسايوس: ميراث منكليس ١٠ : ٤٦ ، ويرى نفس الخطيب في الدفاع عن ميراث استفيلوس Astyphilos, C 7 رجلاً تبني ابناً قبل موته لكي *ἐπὶ τοὺς βωμοὺς* *ἐπὶ τοὺς πατρῶους βαδίζει καὶ τελευτήσαντι αὐτῷ καὶ τοῖς ἐκείνου προγόνοις τὰ νομιζόμενα ποιήσει.*

فالتبني معناه إذن السهر على دوام العبادة المنزلية وعلى سلامة الموقد واستمرار القرابين الجنازية . لم يكن هناك سبب للتبني إلا ضرورة توقي انقراض العبادة ، وقد نتج عن ذلك أنه لم يكن مسموحاً به إلا لمن لا ولد له : وقانون الهنود صريح في هذا الشأن (١) . وقانون أثينا ليس أقل صراحة ، وكل دفاع ديموستينيس ضد ليوخارس Léochares دليل على ذلك (٢) . ليس لدينا نص واضح يثبت أن الأمركان كذلك في القانون الروماني القديم . نعرف أنه كان في استطاعة نفس الرجل في زمن غايوس أن يكون له أبناء بالطبيعة وأبناء بالتبني . لكنه يبدو أن هذا الوضع لم يكن مسموحاً به في القانون في عصر سيسرون إذ أن الخطيب في إحدى مرافعاته يتكلم هكذا : « ما هو القانون الذي ينظم التبني ؟ أليس من اللازم أن يكون المتبني في سن لم تعد تسمح له بالحصول على أطفال ، وأن يحاول أن يكون له أطفال قبل التبني ؟ فالتبني معناه أن يطلب الإنسان إلى الديانة وإلى القانون ما عجز عن الحصول عليه من الطبيعة (٣) » . يهاجم سيسرون تبني كلوديوس معتمداً على أن الرجل الذي تبناه له ابن من قبل وينادي بأن هذا التبني ضد الشريعة الدينية .

عندما يتبنى الإنسان ولداً يجب عليه قبل كل شيء أن يلقنه عبادته ، « أن يدخله في ديانته المنزلية وأن يقربه من آلهته المنزلية (پناتس) » (٤) لذلك كان يعمل التبني باحتفال مقدس يلوح أنه كان شيئاً بعض الشبه بالاحتفال

(١) قوانين مانو ٩ : ١٦٨ ، ١٧٤ . داتا كا ساندريكا *Dattaca-sandrica* ترجمة أوربان ص ٢٦٠ .

(٢) أنظر أيضاً إيسايوس : ميراث منكليس ١١ - ١٤ .

(٣) سيسرون : من أجل منزله ١٣ : ١٤ . قارن ما يقوله أولوس جيلوس بخصوص الـ *adrogatio* الذي كان عبارة عن تبني رجل *homo sui juris* أي رجل له حقوقه الذاتية *arrogationes non temere nec inexplicite committuntur; nam comitia arbitris pontificibus, praebentur; aetasque ejus qui arrogare vult an liberis gignendis idonea sit consideratur* (Aulu-Gelle, V, 19).

(٤) 'Επὶ τὰ ἱερὰ ἄγειν Isée, *De apollod. her.*, 1. *Venire in sacra*, (٤) Cicéron, *Pro domo*, 13; *In penates adsciscere*, Tacite, *Hist.*, I, 15.

الذى كان يشهر به مولد الابن . وبذلك كان المولود الجديد يقبل لدى الموقد ويشرك في الديانة . فالآلهة والأشياء المقدسة والشعائر والأدعية ، كل ذلك يصبح مشتركاً بينه وبين أبيه بالتبني فيقولون إنه انتقل إلى عبادة أسرته الجديدة *in sacra transiit* (١) .

وبهذا الإجراء ذاته كان يتنازل عن عبادة الأسرة القديمة (٢) . والواقع أننا رأينا أنه طبقاً لهذه العقائد القديمة لم يكن في استطاعة رجل أن يضحي لموقدين ولا أن يمجّد سلسلتين من الأسلاف إذ بقبوله في بيت جديد يصبح بيت أبيه غريباً عنه . إنه لم يعد هناك شيء مشترك بينه وبين الموقد الذى رآه يولد ولم يعد يستطيع أن يقدم الأكلة الجنازية لأسلافه هو . لقد انقطعت صلة المولد وتغلّبت الصلة الجديدة المستمدة من العبادة (٣) . أصبح الرجل غريباً عن أسرته القديمة بحيث أنه إذا مات لا يكلف والده الطبيعى بجنائزته والسير أمام موكب دفنه . ولا يستطيع الابن المتبنى أن يعود إلى أسرته القديمة . وقد يسمح له القانون بذلك ، على أكثر تقدير ، إذا كان له ابن وخلفه مكانه في الأسرة المتبنية إذ كانوا يعتبرون أنه ما دام بقاء هذه الأسرة قد أصبح بذلك مضموناً فإن في استطاعته الخروج منها . لسكنه في هذه الحال يفصم كل صلة مع ابنه الذى من دمه (٤) .

ويقابل التبنى التحرر كمتعلق به . لكى يستطيع ابن أن يدخل في أسرة جديدة كان لابد له بحكم الضرورة أن يستطيع الخروج من أسرته القديمة أى أن

(١) فاليريوس ماكسيموس ٧ : ٧ . سينرون : من أجل منزله ١٣ :
Est heres sacrorum

(٢) *Amissis sacris paternis, Cicéron, Pro domo.*

(٣) Tite-Live, XLV, 40: *Duo filii quos, duobus aliis datis in adoptionem, solos sacrorum heredes retinuerat domi.*

(٤) إيسايوس : ميراث فيلوكتيمون ٤٥ : ميراث أرسطارخوس ١١ .
ديموشثينيس : ضد ليوخاريس ٦٨ . انتيفون القطعة ١٥ . هارپوراتيون طبعة
Bekker ص ١٤٠ — قارن قوانين مانو ٩ : ١٤٢

يكون قد تحرر من ديانتها (١) . كان الأثر الأساسي للتحرير هو التنازل عن عبادة الأسرة التي ولد فيها . وكان الرومان يطلقون على هذه العملية اسماً ذا دلالة : *sacrorum detestatio* (٢) وعندئذ لا يعد الابن المحرر عضواً في الأسرة لا من ناحية الديانة ولا من ناحية القانون .

(١) *Consuetudo apud antiquos fuit ut qui in familiam transiret prius se abdicaret ab ea in qua natus fuerat. Servius, ad Aen., II, 156.*

(٢) . أولوس جيلْيوس ١٥ ٢٧ . قارن ما كان يسميه : الإغريق ἀποκήρυξις أفلاطون : القوانين ١١ ص ٩٢٨ : Ὑπὸ κήρυκος ἐναντίον πάντων

ἀπειπεῖν υἱὸν κατὰ νόμον μηκέτι εἶναι

أنظر لوقيانوس ٢٩ : الابن المحروم من الميراث . بوليدوكيس ٤٤ : ٩٣ . هيسِيخْيوس (Hésychius) تحت لفظ Ἀποκηρυκτός

الفصل الخامس

القرابة - ما كان يسميه الرومان أغناسيو (Agnatio) (العصبية)

قال افلاطون إن القرابة هي المشاركة في نفس الآلهة المنزلين (١). ويقول بلوتارخوس أيضاً أن الأخوين هما الرجلان اللذان يجب عليهما أن يقدموا نفس الأضحية وتكون لهما نفس الآلهة الموروثة عن الآباء ويقتسما نفس القبر (٢). وعندما يريد ديموسثينيس أن يثبت أن شخصين قريبان يبين أنهما يمارسان نفس العبادة ويقدمان الأكلة الجنازية لنفس القبر. والواقع أن الديانة المنزلية هي التي تنشئ القرابة. يستطيع رجلان أن يقولوا إنهما قريبان إذا كانت لهما نفس الآلهة ونفس الموقد ونفس الأكلة الجنازية.

هذا وقد لاحظنا فيما سبق أن حق تقديم الأضحية للموقد لم يكن ينتقل إلا من ذكر إلى ذكر وكذلك عبادة الموتى لم تكن تؤدي إلا للأصول حسب الذكور. نتج عن هذه القاعدة الدينية أنه لا يمكن أن تكون القرابة عن طريق النساء فقد كان في رأى هذه الأجيال القديمة أن المرأة لا تنتقل الوجود ولا العبادة بل كان الابن يتلقى كل شيء عن الوالد. هذا ولم يكن من المستطاع أن ينتمى الشخص إلى أسرتين وأن يدعو موقدين. فلم يكن الابن إذن من ديانة غير ديانة الأب، أو أسرة غير أسرته (٣). كيف يمكن أن تكون له أسرة من ناحية الأم؟ إن أمه نفسها قد تنازلت، منذ اليوم الذي تمت فيه شعائر الزواج المقدسة، عن أسرتها الأصلية بصفة قاطعة. ومنذ ذلك الوقت وهي تقدم الأكلة الجنازية إلى أسلاف الزوج كما لو كانت قد أصبحت ابنتهم ولم تعد تقدمها لأسلافها هي

(١) افلاطون : القوانين ٥ ص ٧٢٩ : *Eugeneia homogēon theōn koinonia*

(٢) بلوتارخوس : الحب ٧

(٣) *Patris, non matris familiam sequitur* دييجست : السفر ٥ الباب ١

لأنها لم تعد تعتبر منحدره منهم . إنها لم تعد تحتفظ بصلة دينية ولا بصلة شرعية مع الأسرة التي ولدت فيها ؛ وبالأولى ، لم يكن هناك شيء مشترك بين ابنها وبين هذه الأسرة .

لم تكن عملية المولد المادية هي مبدأ القرابة بل كان هذا المبدأ قائماً على العبادة . ويرى هذا واضحاً في الهند : هناك يقدم رئيس الأسرة الأكلة الجنازية مرتين في الشهر فيقدم كعكة لروح والده وأخرى لجدّه لأبيه وثالثة لجد والده ، ولا يقدم إطلاقاً للذين ينحدر منهم عن طريق النساء . ثم يصعد في سلسلة النسب ، ولكن دائماً في نفس الاتجاه ، فيقدم قرباناً لأجداده الرابع والخامس والسادس ، غير أن القربان لهؤلاء أخف مما كان عليه للسابقين فهو مجرد إراقة الماء وبضع حبات من الأرز : تلك هي الأكلة الجنازية . ولا تعد القرابة إلا من واقع القيام بهذه الشعائر . فإذا استطاع رجلان ، يقوم كل منهما بالأكلات الجنازية على حدة ، أن يجدا ، عندما يصعد كل منهما في سلسلة أسلافه الستة ، واحداً منهم مشتركاً بينهما فإن هذين الرجلين قريبان ، ويتسميان سامانوداكاس *samanodacas* إذا كان السلف المشترك بينهما من أولئك الذين لا يقدم لهم غير إراقة الماء وساپنداس *sapindas* إذا كان ممن يقدم لهم الكعك (١) فإذا حسبنا طبقاً لعاداتنا ، فإن القرابة بين الساپنداس تذهب إلى الطبقة السابعة وبين السمانوداكاس إلى الرابعة عشرة (٢) . وتعرف القرابة في هذه الحال أو تلك من تقديم القربان لنفس السلف . وهكذا نرى أنه لا يمكن في هذا النظام قبول القرابة عن طريق النساء .

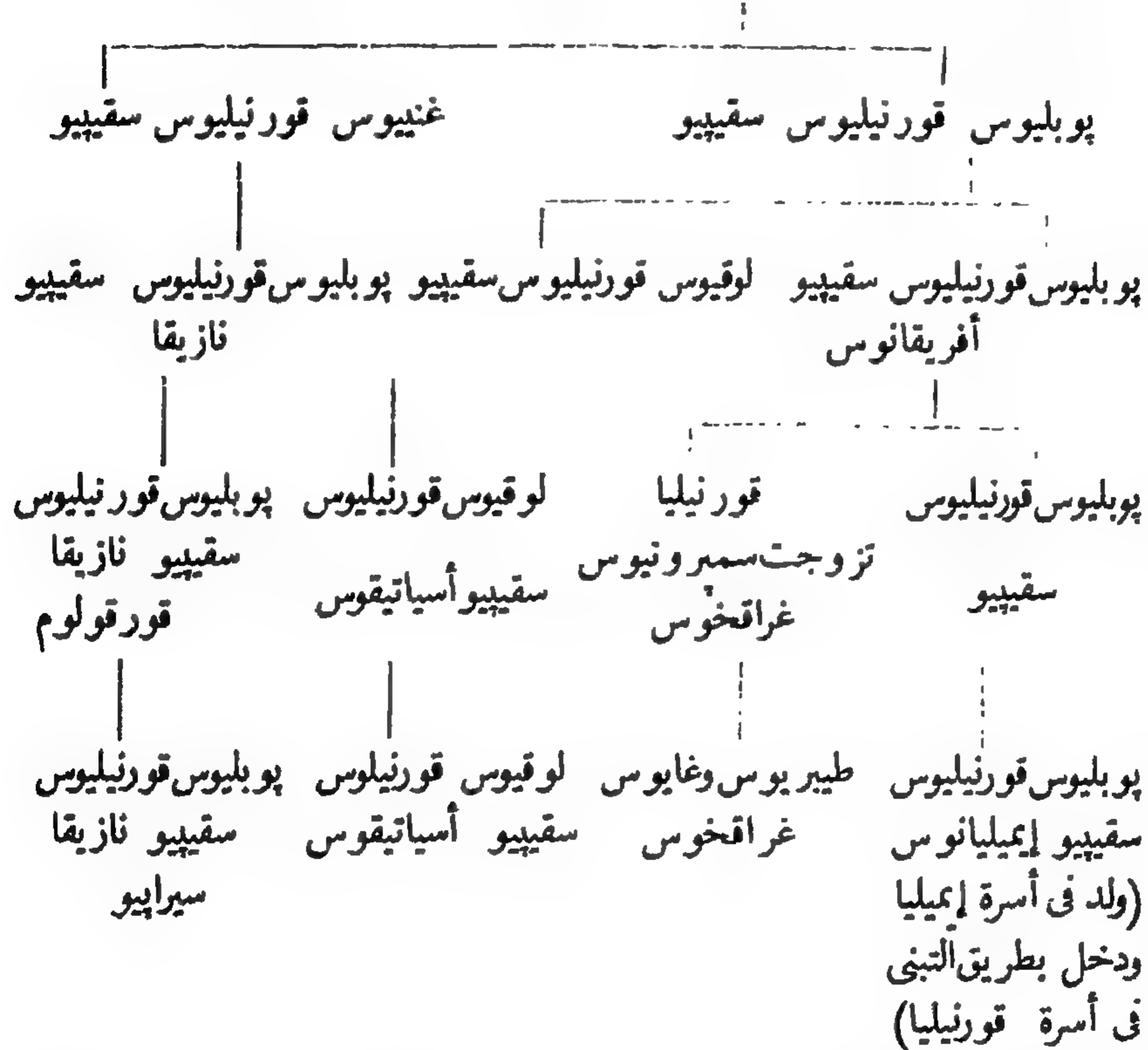
وكذلك كان في الغرب : وقد كثر النقاش فيما كان يقصده الفقهاء الرومانيون بكلمة أغناسيو *agnatio* لكن المعضلة تصبح هينة الحل إذا ما قارنا الأغناسيو *agnatio* بالديانة المنزلية . فما دامت الديانة لا تنتقل إلا من ذكر

(١) قوانين مانو ٥ : ٦٠ . ميتا كخارا ترجمة أوريان ص ٢١٣ .

(٢) يقصد الطريقة المنصوص عنها في المادة ٣٣٨ من القانون المدني الفرنسي ونصها كالاتي في الحواشي تحسب الطبقات بالأجيال من أحد الأقرباء حتى الأصل المشترك ودون أن يحسب هذا الأخير وابتداء من هذا الأخير إلى القريب الآخر فيكون الأخوان في الطبقة الثانية ، والعم وابن الأخ في الطبقة الثالثة ، وأبناء العم الأولون في الرابعة وهكذا - المغرب .

إلى ذكر فإنه لن يستطيع رجلا أن يقرر جميع الفقهاء القدماء . أن يكونا أغناسيين فيما بينهما إلا إذا وجدا ، وهما يصعدان في عمود النسب ذكراً عن ذكر ، أسلافاً مشتركين بينهما (١) . فالقاعدة إذن فيما يختص بالأغناسيو هي نفس القاعدة الخاصة بالعبادة . كانت هناك صلة واضحة بين الموضوعين ولم تكن الأغناسيو شيئاً سوى القرابة كما أقرتها الديانة في الأصل (٢) .

ولكى نجعل هذه الحقيقة أكثر وضوحاً يجدر أن نرسم جدولاً لأسرة رومانية
لوقيوس قورنيليوس سقيبيو (مات حوالى سنة ٢٥٠ قبل الميلاد)



Gaius I, 156: *Sunt agnati per virilis sexus personas cognatione juncti, velut frater ex eodem patre natus, fratris filius, neposve ex eo, item patruus et patruui filius et nepos ex eo.* Id., III, 10.
Ulpien. XXVI *Institutes de Justinien*, III, 2.

(٢) القرابة عن طريق الذكور *agnatio* هي العصبية في اللغة العربية ويقال عن الرجل عاصب وجمعها عصبية . أما ما يسمى *cognatio* فهي القرابة الطبيعية قرابة الدم وسنستعمل هذه الألفاظ في التعريب بدلا من الألفاظ اللاتينية - المعرب .

في هذا الجدول أربعة أشخاص يمثلون الجيل الخامس الذي كان يعيش حوالى سنة ١٤٠ قبل الميلاد . فهل كانوا جميعاً أقارب فيما بينهم . كانوا كذلك طبقاً لآرائنا الحديثة ، لكنهم لم يكونوا جميعاً أقرباء في رأى الرومان . فلنبحث إذن فيما إذا كانت لهم نفس الديانة المنزلية أى فيما إذا كانوا يقربون القرابين لنفس الأسلاف . لنفرض أن سقيپيو أسياتيقوس الثالث الذى بقى وحده من فرعه يقدم الأكلة الجنازية فى اليوم المعين ؛ فإذا صعد عمود النسب من ذكر إلى ذكر وجد أن سلفه الثالث هو پوبليوس سقيپيو . وكذلك سقيپيو إميليانوس بينما يقدم ضحية يجد فى سلسلة أسلافه نفس پوبليوس سقيپيو هذا . فيكون سقيپيو أسياتيقوس وسقيپيو إميليانوس قريبين فيما بينهما . ولو كانا عند الهنود لسموهما *sapindas*

ومن ناحية أخرى ، السلف الرابع لسقيپيو سيراپيو هو لوقيوس قورنيليوس سقيپيو وهو أيضاً السلف الرابع لسقيپيو إميليانوس فهما إذن قريبان فيما بينهما ولو كانا عند الهنود لسموهما *samanodacas* . فى لغة روما الشرعية والدينية هؤلاء السقيپيو يسمون أغناسيين (عصابة) فالأولان أغناسيان (عاصبان) فيما بينهما للدرجة السادسة ، والثالث أغناسى (عاصب) معهما فى الدرجة الثامنة .

وليس الأمر كذلك فيما يختص بطيرىوس غراقخوس فإن هذا الرجل الذى يعد طبقاً لعادتنا الحديثة أقرب الأقربين لسقيپيو إميليانوس لم يكن حتى من أقربائه الأبعدين فى الدرجة . والواقع أنه لا يهم طيرىوس إلا قليلاً أن يكون ابن قورنيليا ابنة آل سقيپيو ؛ فلا هو ولا قورنيليا ذاتها ينتمى إلى هذه الأسرة عن طريق الدين . فليس له أسلاف غير آل سمرونيوس . فسقيپيو إميليانوس وطيرىوس غراقخوس ليسا عاصيين أذن ، لأن صلة الدم لا تكفى لإقرار هذه القرابة إذ لا بد من صلة العبادة .

ومن هذا نفهم لماذا كان الأخوان لأب عاصيين فى نظر القانون الرومانى ولم يكن كذلك الأخوان لأم . بل لا يقولن أحد أن التناسل عن طريق الذكور كان هو المبدأ الثابت الذى تأسست عليه القرابة . فإن التعرف الحقيقى على العصابة لم يكن عن طريق المولد بل عن طريق العبادة . والواقع أن الابن الذى فصله التحرر

عن العبادة لا يعود عاصباً مع أبيه ، والغريب الذى تبنيه أى قبلوه فى العبادة يصبح عاصباً مع من تبناه ومع أسرته كلها : إلى هذه القدر كان صحيحاً أن الديانة هى التى تعين القرابة .

لا ريب أنه جاء على الهند وبلاد الإغريق ، كما جاء على روما ، زمن لم تكن فيه القرابة عن طريق العبادة هى القرابة الوحيدة المقبولة . فإنه كلما ضعفت هذه الديانة القديمة كلما ارتفع صوت الدم وأصبحت القرابة عن طريق الدم معترفاً بها ، وكان الرومان يسمون كوغناسيو *cognatio* هذا النوع من القرابة الذى كان مستقلاً تمام الاستقلال عن قواعد الديانة المنزلية . عندما نقرأ الفقهاء منذ سيسرون إلى جوستينيانوس نرى طريقتى القرابة تتنافسان وتتنازعان ميدان الشريعة . ولكن فى زمن اللوحات الإثنى عشرة كانت القرابة الوحيدة المعروفة هى الأغناسيو (العصبية) وهى دون سواها التى تمنح الحق فى الميراث . وسرى فيما بعد أنه كان كذلك عند الإغريق .

الفصل السادس

حق التملك

ها هو ذا نظام من أنظمة القدماء يجب ألا نتصوره طبقاً لما نراه حولنا فقد أسس القدماء حق التملك على مبادئ لم يعد معمولاً بها في الأجيال الحاضرة ونتج عن ذلك أن القوانين التي جعلوها ضماناً له كانت تختلف اختلافاً محسوساً عما لدينا.

من المعروف أن هناك أجناساً لم تصل قط إلى إقامة الملكية الخاصة لديها وأخرى وصلت إلى ذلك مع مضي الزمن وبعناء . والواقع أنه ليس بالأمر الهين أن نعرف ما إذا كان في استطاعة الفرد عند نشأة المجتمع أن يملك الأرض وأن يقيم صلة قوية بين شخصه وبين جزء من الأرض بحيث يستطيع أن يقول : هذه الأرض لي ، هذه الأرض بمثابة جزء مني . فالتار يتصورون حق التملك حينما يتعلق بالقطعان ثم لا يفهمونه عندما يتعلق بالأرض.

وعند قدماء الجرمان ، تبعاً لبعض المؤلفين ، لم تكن الأرض ملكاً لأحد في كل عام كانت تعين القبيلة لكل واحد من أعضائها نصيباً يزرعه ويبدلون الأنصبه في العام التالي . فكان الجرمان مالكا للمحصول ولم يكن مالكا للأرض . ولا يزال الأمر كذلك لدى جزء من الجنس السامي ولدى بعض الشعوب الصقلية (السلافية).

وعلى عكس ذلك شعوب بلاد الإغريق وإيطاليا فقد عرفت التملك الفردي ومارسته دائماً منذ أقدم العصور . ولم تبق أية ذكرى تاريخية عن عصر كانت الأرض فيه مشاعاً (١) . كما أننا لا نرى لديهم شيئاً يشبه تلك القسمة السنوية للحقول التي أشير

(١) أبدى بعض المؤرخين رأياً مفاده أن الملكية في روما كانت في البدء عامة ولم تصبح خاصة إلا في حكم نوما . ومصدر هذه الغلطة تفسير خاطيء لثلاثة نصوص في بلوتارخوس (نوما ١٦) وسيسرون (الجمهورية ٢ : ١٤) وديونيسيوس (٢ : ٤٧) . والواقع أن هؤلاء المؤرخين الثلاثة يقولون إن نوما وزع بعض الأراضي على المواطنين لكنهم يبينون بوضوح جداً أنه لم يتم بهذا التقسيم إلا بالنسبة للأراضي التي أضافتها فتوحات سلفه الأخيرة إلى الأراضي الرومانية الأولى *agri quos bello Romulus cepit* أما الـ *ager Romanus* أي الأرض التي تحيط بروما على بعد خمسة أميال (استرابون ٥ : ٣ : ٢) فكانت ملكاً خاصاً منذ نشأة المدينة . أنظر ديونيسيوس ٢ : ٧ ؛ فارون : الفلاحة ١ : ١٠ ؛ نونيوس ماركيلوس طبعة Quicherat ص ٦١

إليها عند الحرمان . بل إن هناك حدثاً جديراً بالملاحظة . فبينما الأجناس التي لا تمنح الفرد تملك الأرض تمنحه على الأقل تملك ثمار عمله أي محصولها كان الأمر على العكس عند الإغريق ، ففي بعض المدن كان يفرض على المواطنين أن يجعلوا محصولهم أو على الأقل الجزء الأكبر منه مشاعاً ويتحتم عليهم أن يستهلكوه بالمشاركة (١) ، لم يكن الفرد إذن سيداً مطلقاً على القمح الذي حصده لكنه في نفس الوقت ، وفي هذا تناقض جد جدير بالملاحظة ، كان له التملك المطلق على الأرض . كانت الأرض ملكاً له أكثر من المحصول . ويلوح أن فكرة حق التملك قد سلكت لدى الإغريق مسلكاً مضاداً كل التضاد للمسلك الذي يبدو طبيعياً . فإن هذا الحق لم يطبق أولاً على المحصول ثم على الأرض بعد ذلك بل اتبع في ذلك الترتيب العكسي .

هناك ثلاثة أشياء نجدها ، منذ أقدم العصور ، مؤسسة وثيقة القرار في هذه الجماعات الإغريقية والإيطالية : الديانة المنزلية والأسرة وحق التملك . ثلاثة أشياء كان بينها منذ البدء علاقة بينه ويبدو أنها كانت غير قابلة للانفصال . كانت فكرة الملكية الخاصة في جوهر الديانة ، فكان لكل أسرة موقدها وأسلافها ولا يمكن لسواها أن يعبد هذه الآلهة ، وهي أيضاً لا تحمي سواها فقد كانت ملكاً لها .

هذا وكان الناس في العصور القديمة يرون بين هذه الآلهة وبين الأرض صلة خفية . فلنأخذ الموقد أولاً : هذا المذبح هو رمز الحياة المستقرة . واسمه وحده يدل على ذلك (٢) . ويجب أن يوضع على الأرض ، ومتى وضع لا يمكن أن ينقل من موضعه فإن إله الأسرة يريد أن يكون له سكن ثابت . فمن الناحية

(١) وهكذا كان كل واحد في اقريطش (كرت) يعطى للاكالات المشتركة عشر محصول أرضه (أثينا يوس Athénée ٤ : ٢٢) . وكذلك في اسبرطة كان على كل فرد أن يقدم من ماله الخاص كمية معينة من الدقيق والخمر والثمار لتفقات المائدة المشتركة (أرسطو : السياسة ٢ : ٧ طبعة ديدو ص ٥١٥ ؛ بلوتارخوس : ليكودغ ١٢ ؛ ديكاي أرخوس Dicearque في أثينا يوس ٤ : ١٠) .

(٢) *Eorla, ἱστῆμι, stare* (٢) . أنظر بلوتارخوس *De primo frigido*, 21
ماكروبيوس ١ : ٢٣ أوفيد يوس : الأعياد ٦ : ٢٩٩

المادية كان يصعب نقل الحجر الذى يتأجج فوقه . أما من الناحية الدينية فإن نقله أصعب من ذلك بكثير وليس مسموحاً به للإنسان إلا إذا اضطرته الحاجة القاسية ، إذا طرده عدو أو إذا لم تستطع الأرض أن تغذيه . عندما يوضع الموقد فإنما يوضع مع الاعتقاد والرجاء بأنه سيبقى دائماً فى نفس هذا المكان . فيقيم الإله هناك لا ليوم ولا مدى حياة رجل فحسب بل لكل الزمن الذى تبقى فيه هذه الأسرة وما بقى أحد لكى يحافظ على لهيبه بالضحية . وهكذا يمتلك الموقد الأرض . إنه يجعل هذه البقعة من الأرض له . إنها ملك له .

والأسرة التى تبقى على الدوام مجتمعة حول مذبحها بحكم الواجب وبحكم الدين تثبت فى الأرض كالمذبح ذاته . وتجيء فكرة المسكن المستقر محيثاً طبيعياً : فالأسرة مرتبطة بالموقد والموقد مرتبط بالأرض وبذلك تستقر صلة وثيقة بين الأرض وبين الأسرة : هناك يجب أن يكون مسكنها الدائم الذى لن تفكر فى تركه إلا إذا أجبرتها على ذلك قوة عليا . فهى كالموقد تحتل هذا المكان على الدوام إن هذا المكان لها . إنه ملكها . وليس ملك لرجل بمفرده بل لأسرة يجب أن يأتى أعضاؤها المختلفون الواحد تلو الآخر يولدون ويموتون فى هذا المكان .

لنتبع آراء القدماء . فإن موقدين يمثلان آلهة متباينة لا تتحد ولا تختلط أبداً وإن ذلك لمن الحقيقة حتى أن الزواج بين أسرتين لا يقيم تحالفاً بين آلهتهما . يجب أن يكون الموقد منزلاً أى منفصلاً انفصلاً يبتأ عن كل ما عداه يجب ألا يقترب منه الأجنبي فى اللحظة التى تقام فيها احتفالات العبادة بل ألا يلتقى نظرة عليه . لذلك يسمون هؤلاء الآلهة بالآلهة الخفية *μύχια* أو الآلهة الداخلية *penates* . ولكى تنفذ هذه القاعدة الدينية تنفيذاً حسناً يجب أن يكون هناك سور حول الموقد على مسافة معينة . وليس بذى بال أن يكون حاجزاً من الشجيرات أو حاجزاً من الخشب أو حائطاً من الحجر مهما يكن فإنه يبين الحد الذى يفصل منطقة موقد عن منطقة موقد آخر . هذا السور

يعد مقدساً (١) . ومن الإثم أن يتخطاه أحد . فإن الإله يسهر عليه ويضعه تحت حراسته . ولذا ينتعون هذا الإله *ἐρκεῖος* (٢) . هذا السور الذى ترسمه الديانة ونحميه هو أضمن رمز لحق التملك ودليلاً الذى لا يرد .

ولنتقل إلى العصور الأولى للجنس الآرى . الحرم المقدس الذى يسميه الأغريق *ἐρκος* هو الحوز الممتد إلى حد ما الذى فيه بيت الأسرة وقطعائها والحقل الصغير الذى تزرعه ، وفى الوسط يقوم الموقد الحامى . ولنهبط إلى العصور التالية : وصلت الشعوب إلى بلاد الإغريق وإيطاليا وبنت مدناً . واقتربت المساكن متلاصقة . ولا يزال السور المقدس موجوداً لكنه على نسب أقل فيقتصر فى كثير من الأحيان على حائط صغير أو على حفرة أو على خط مشقوق أو على مجرد نطاق من الأرض يبلغ عرضه بضعة أقدام . وفى جميع الأحوال لا يجوز لمساكن أن يتماسا فالحائط المشترك يعتبر شيئاً مستحيلاً إذ لا يمكن أن يكون نفس الجدار مشتركاً بين منزلين لأنه فى هذه الحال يختفى سور الآلهة المنزلية المقدس . فى روما يحدد القانون عرض المسافة الحرة التى يجب أن تفصل دائماً بين منزلين بقدمين ونصف ، وهذه المسافة مخصصة « لإله السور » (٣) .

**Ερκος ἑρδον* Sophocle, *Trachin.* 606

(١)

(٢) فى العصر الذى كادت الديانة الأكثر بهاء ، وهى ديانة زوس ، أن تمحو فيه هذه العبادة والذى جمعوا فيه بين زوس وبين معبود الموقد اتخذ الإله الجديد لنفسه صفة *ἐρκεῖος* . ولا يقلل هذا من صحة أن الحامى الحقيقى للسور فى الأصل كان هو الإله المنزلى . يشهد بذلك ديونيسيوس الهاليكارناسى (١ : ٦٧) عند ما يقول إن الـ *Θεοὶ ἐρκεῖοι* هم بذاتهم البناتس . هذا ويتبين ذلك من مقارنة فقرة من بوسانياس (٤ : ١٧) وفقرة من أوربيدس (الطرواديات ١٧) وفقرة من فرجيليوس (الإنييد : ٥١٤) ؛ فهذه الفقرات الثلاث تشير إلى نفس الحقيقة وترى أن *Zeus ἐρκεῖος* ما هو إلا الموقد المنزلى .

(٣) فستوس : تحت لفظ *Ambitus* ، فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ٢٢ . سرفيوس

تعليقات على الإنييد ٢ : ٤٦٩ .

نتج عن هذه القواعد الدينية القديمة أن الحياة في المشاع لم تستطع أن تستقر قط. فإن مسكن العشيرة المشتركة (phalanstère) لم يعرف فيها قط. وحتى فيثاغورس لم ينجح في إقامة أنظمة كانت تقاومها ديانة الناس الباطنية كما أننا لا نجد في أية فترة من حياة القدماء شيئاً يشبه معيشة المخالطة في القرية التي كانت عامة في فرنسا في القرن الثاني عشر. فما دام لكل أسرة آلهتها وعبادتها فلا بد أنه كان لها أيضاً مكانها الخاص على الأرض ومسكنها المنعزل أى ملكها.

كان الإغريق يقولون إن الموقد علم الإنسان أن يبنى المنازل (١). والواقع أن الرجل الذي أثبتته ديانته في مكان ما يعتقد أنه يتحتم عليه ألا يفارقه قط وسرعان ما فكر في إقامة بناء ثابت في ذلك المكان. فالخيمة توافق العربي أما الأسرة التي لها موقد منزلي فلا بد لها من مسكن باق. وسرعان ما حل المنزل المبنى من الحجر محل الكوخ المبنى من الطين أو الخشب. إنهم لم يبنوا لحياة رجل فحسب بل للأسرة التي كان لا بد أن تتعاقب أجيالها في نفس المسكن.

كان المنزل دائماً بداخل السور المقدس فعند الإغريق كانوا يقسمون المربع الذي يحيط به هذا السور إلى قسمين : فالقسم الأول هو الفناء ، والمنزل يحتل القسم الثاني . وبذلك يكون الموقد، الموضوع في وسط الحيز الذي يحيطه السور الشامل للجميع ، في نهاية الفناء وبالقرب من مدخل المنزل . أما في روما فكان الترتيب مختلفاً لكن المبدأ هو بذاته. فقد بقي الموقد موضوعاً ووسط حيز السور لكن المباني تقوم حوله من الجهات الأربع بحيث يكون محصوراً وسط فناء صغير. وتبين في وضوح الفكرة التي أوحى بهذه الطريقة في البناء . فقد قامت الجدران حول الموقد لتعزله وتحميه . ويمكن القول، كما كان الإغريق يقولون ، إن الديانة علمت بناء المنزل .

(١) ديودوروس ٥ : ٦٨ . روى هذه العقيدة أوستايس (Eustathe) الذي يقول إن المنزل خرج من الموقد (أوستايس : تعليقات على الأوديسة ١٤ : البيت ١٥٨ ؛ ١٨ : البيت ١٥٦) .

الأسرة في هذا المنزل هي المهيمنة والمالكة ومعبودها المنزل هو الذى يضمن حقها؛ والمنزل يقدسه حضور الآلهة الأبدى . أنه المعبود الذى يحفظهم . يقول سيرون « أى شيء أكثر قداسة من مسكن الإنسان ؛ إن فيه المذبح ؛ وهناك تنوهج النار المقدسة . وفيه الأقداس والديانة (١) » والدخول إلى هذا المنزل بقصد سيء من الرجس . فقد كان المسكن مصوناً لا يمس . وفي إثارة رومانية أن الإله المنزل كان يصد اللص ويبعد العدو (٢) .

ولنتقل إلى شيء آخر كان كذلك موضعاً للعبادة وهو القبر لكى نرى أن نفس الآراء كانت تلازمه ؛ فقد كانت للقبر أهمية عظيمة في ديانة القدماء ، إذ من ناحية كان عليهم أن يؤدوا عبادة للسلف ومن ناحية أخرى كان يجب أن تقوم الحفلة الرئيسية في هذه العبادة ، أى الأكلة الجنائزية ، في نفس المكان الذى يرقد فيه الأسلاف (٣) . لذلك كان للأسرة قبر مشترك لا بد أن يأتى أعضاؤها ليرقدوا فيه الواحد تلو الآخر . وكانت القاعدة فيما يختص بهذا القبر هي نفس القاعدة التى تراعى فيما يختص بالموقد فلم يكن مسموحاً بالجمع بين أسرتين في نفس المدفن كما أنه لم يكن مسموحاً بالجمع بين موقدين منزليين في بيت واحد . وسيان في الإثم دفن ميت خارج قبر أسرته أو وضع جثمان غريب في ذلك القبر (٤) . فقد كانت الديانة المنزلية تعزل كل أسرة عن جميع الأسرات الأخرى سواء في الحياة أو في المات . وتقصى بشدة كل مظهر من مظاهر المشاركة . فكما أنه

(١) سيرون : من أجل منزله ٤١ .

(٢) أوفيدوس : الأعياد ٥ : ١٤١ .

(٣) تلك كانت القاعدة القديمة ، على الأقل عند ما كانوا يعتقدون أن الأكلة الجنائزية غذاء للميت . أنظر أوريبيدس : الطرواديات ٣٨١ (٣٨٩) .

(٤) سيرون : القوانين ٢٢ : ٢ ؛ ٢٦ : ٢ . غايوس : القواعد (Instit.) ٢ : ٦ ، الديجست السفر ٤٧ الباب ١٢ . يجب أن نلاحظ كما سنرى فيما بعد أن العبد والمولى كانا جزءاً من الأسرة ويدفنان في القبر المشترك . وكانوا يخرجون عن القاعدة ، التى تفرض أن يدفن كل شخص في قبر أسرته ، في حالة ما إذا منحت المدينة ذاتها الجنائزة العامة لأحد الأفراد .

لا يجوز أن تتجاوز المنازل فإنه لا يجوز أن تماس القبور . فكان لكل واحد منها ، كما كان للمنازل ، نوع من السور العازل .

إلى أى حد كانت صفة الملك الخاص واضحة في كل ذلك . فالموتى آلهة تتبع أسرة بالذات وهذه الأسرة وحدها الحق في دعوتهم . هؤلاء الموتى قد تملكوا الأرض وهم يعيشون تحت هذا الكتيب الصغير وما من أحد يستطيع أن يفكر في الاختلاط بهم إلا إذا كان من الأسرة . هذا وليس لأحد الحق في أن يجردهم من ملكية الأرض التي يشغلونها . فالقبر عند القدماء لا يمكن أن يهدم ولا أن ينقل . (١) وتحرم ذلك أشد القوانين قسوة . فهذا هو ذا إذن جزء من الأرض يصبح باسم الدين ملكاً خالداً لكل أسرة . لقد تملك الأسرة هذه الأرض بوضع موتاها فيها واستقرت هناك إلى الأبد : وفي استطاعة الفرع الحي من هذه الأسرة أن يقول من الناحية الشرعية إن هذه الأرض لى : إنها له بحيث لا يمكن فصلها عنه ولا حقله في التنازل عنها . فالأرض التي يرقد فيها الموتى لا يمكن التنازل عنها ولا وضع اليد عليها . يحتم القانون الروماني أنه إذا باعت أسرة الحقل الذي فيه قبرها فإنها تبقى مالكة لهذا القبر على الأقل ، وتحفظ إلى الأبد بالحق في اختراق الحقل لكي تقوم باحتفالات عبادتها (٢) .

ولم تكن العادة القديمة أن يدفن الموتى في الجبانات أو على حافى طريق بل في حقل كل أسرة . يشهد بهذه العادة ، التي كانت متبعة في العصور القديمة ، قانون لصولون وعدة فقرات من بلوتارخوس (٣) . نرى في دفاع لديموشثينيس أنه في عصره أيضاً كانت كل أسرة تدفن موتاها في حقلها وعند ما كانوا يشتركون ملكاً في أتيكا كانوا يجدون فيه مدفن أصحابه الأقدمين (٤) . وفي

(١) ليكورغ : ضد ليوقراتيس ٢٥ . كان لا بد لنقل القبر . في روما ، من تصريح من الأحبار ، بلينيوس : رسائل ١٠ : ٧٣ .

(٢) سيسرون : القوانين ٢ : ٢٤ . ديجيست : السفر ١٨ الباب ١ : ٦ .

(٣) قانون صولون ذكره غايوس في ديجست ١٠ : ١ : ١٣ . بلوتارخوس : أرسطيديس ١ ؛ كيمون ١٩ ؛ ماركيانوس : حياة ثوقيديدس فقرة ١٧ .

(٤) ديموشثينيس : ضد كاليكليس ١٣ ، ١٤ . وقد وصف ديموشثينيس في مكان آخر قبر البوسيليين Busélides « كتيب على كل شيء من ، الامتداد وسور حسب العادات القديمة حيث يرقد معاً جميع الذين تحدزوا من بوسيلوس (ديموشثينيس ، ضد ماكاتاتوس : ٧٩)

إيطاليا يشهد بهذه العادة ذاتها قانون اللوحات الإثنتى عشرة ونصوص إثنين من الفقهاء وعبارة لسيقولوس فلاكوس Sículus Flaccus : « كانت هناك في القديم طريقتان لوضع القبر فكان يضعه بعضهم على حدود الحقل والبعض الآخر في حوائى منتصفه » (١) .

ومن هذه العادة ندرك أن فكرة التملك قد امتدت بسهولة من الكتيب الصغير الذى كانت ترقد فيه الموتى إلى الحقل الذى يحيط به الكتيب . ونستطيع أن نقرأ فى كتاب كاتون الأكبر صيغة كان يتوسل بها الأكار الإيطالى للأرواح لكي تسهر على حقلة وتحرسه من اللصوص وتجعله ينتج محصولاً طيباً . وهكذا كانت أرواح الموتى تمتد أثر حمايتها إلى أطراف الأرض المستحوز عليها ، ومع الحماية حق التملك . وهى التى كانت تجعل الأسرة المسيطر الوحيد على هذا الحقل وهكذا أنشأ القبر الارتباط الذى لا ينفصم بين الأسرة والأرض ، ألا وهو التملك .

الديانة هي التي أقامت حق التملك لدى معظم الشعوب البدائية . ففي التوراة يقول الله لإبراهيم : «أنا الرب الذي أخرجتك من أور الكلدانيين لكي أعطيك هذه الأرض » . ولموسى «سأدخلكم في الأرض التي أقسمت أن أعطيها لإبراهيم وسأعطيها لكم ميراثاً » . فالتة ، وهو المالك الأصلي بحق الخلق ، يفوض للإنسان حق التملك لجزء من الأرض (٢) . ولقد كان هناك شيء مماثل لذلك لدى الشعوب الإغريقية والإيطالية القديمة ١ . حقاً إنها لم تكن ديانة هوبنير التي أسست هذا الحق وقد يكون ذلك لأنها لم تكن قد وجدت

(١) سيقولوس فلاكوس طبعة غيز (Goez) ض ٥٤. أنظر القطع الإضافية (طبعة غيز ص ١٤٧: بومبونوس في الديجست السفر ٤٧ الباب ١٢: ٥. بولص في الديجست ٨: ١: ١٤. ديجست ١٩: ١: ٥٣: *si vendidisti fundum in quo sepulcrum habuisti*: ١١: ٧: ٢ فقرة ٩؛ ١١: ٧: ٤٣ و ٤٦

(٣) نفس الإثارة عند الأتروسك :

Cum Jupiter terram Etruriae sibi vindicavit, consuit jussitque metiri campos signarique agros." Auctores rei agrariae في القطعة التي عنوانها *Idem Vegoiae Arrunti* طبعة لاخمان (Lachmann) ص ٣٥٠

بعد . إن الآلهة التي منحت كل أسرة حقها على الأرض هي الآلهة المنزلية والموقد والمائيس . فإن الديانة التي كانت لها السلطان على أرواحهم أولاً هي الديانة التي كونت الملكية عندهم .

ومن الواضح وضوحاً بيناً أن التملك الخاص كان نظاماً لا تستطيع الديانة المنزلية أن تستغنى عنه . كانت هذه الديانة تفرض عزل المسكن وعزل المدفن أيضاً . وإذن فقد كانت المشاركة الجماعية في المعيشة مستحيلة . وكانت نفس الديانة تأمر بأن يكون الموقد ثابتاً في الأرض وألا يهدم القبر أو ينقل . احذف التملك يصبح الموقد لا مستقر له وتختلط الأسرات ويترك الموتى لا عبادة لهم . فقد تملك الأسرة الأرض عن طريق الموقد الذي لا يترجح والممدفن الدائم . وأنه ليجوز القول بأن الأرض قد تشربت ديانة الموقد والأسلاف وتشبعت بها . وإذن فلم يكن الرجل في العصور القديمة مكلفاً بحمل معضلات تتجاوز الحد في الصعوبة . لقد وصل دفعة واحدة ، من غير جهد ، وبدون أدنى تردد ، وبفضل عقائده فقط ، إلى فكرة حق التملك ، هذا الحق الذي تخرج منه كل حضارة ؛ إذ عن طريقه يصلح الإنسان الأرض ويصبح هو ذاته أحسن مما كان .

لم تكن القوانين هي التي ضمنت حق الملك أولاً وإنما كانت هي الديانة . فكان كل ملك تحت إشراف معبودات منزلية كانت تسهر عليه (١) . وكان يجب أن يحاط كل حقل بسور يفصله فصلاً واضحاً عن أملاك الأسرات الأخرى كما رأينا فيما يختص بالمنزل . هذا السور لم يكن حائطاً من الحجر بل كان شريطاً من الأرض يبلغ عرضه بضعة أقدام كان يجب أن يبقى من غير زرع وألا يمس المحراث ، هذه المساحة كانت مقدسة ويعلن القانون الروماني أنها غير قابلة لوضع اليد (٢) . إنها للديانة . وفي أيام معينة من الشهر

(١) *Lares agri custodes*, Tibulle, I, 1, 23. *Religio Larum posita in fundi villaeque conspectu*. Cicéron, *De legib.*, II, 11.

(٢) سيسرون : القوانين ١ : ٢١ .

أو السنة كان رب الأسرة يطوف بحقله متتبّعاً هذا الخط . كان يدفع أمامه الضحية ويغني الأناشيد ويقدم القرابين (١) . كان يعتقد أنه قد أيقظ بهذا الاحتفال عطف آلهته على حقله وعلى منزله وأبرز ، على الأخص ، حقه في التملك بالطواف بعبادته المنزلية حول حقله ؛ فالطريق الذي سارت فيه الأضاحي وترتل فيه الصلوات هو حد الملك الذي لا تمس حرمة .

كانوا يضعون على طول هذا الخط ، وعلى مسافات ، بعضاً من الأحجار الكبيرة أو بعضاً من جذوع الأشجار يسمونها تخوم *termes* . وفي الاستطاعة أن نتبين ماهية هذه التخوم وما هي الأفكار التي كانت تتعلق بها ، من الطريقة التي كانت تقوى الناس تضعها بها في الأرض . يقول صيقولوس فلاكوس « هالك ما كان يفعله أسلافنا : كانوا يبدأون بحفر حفرة صغيرة ويوقفون التخم على الحافة ويتوجونه بقلائد من العشب والزهر ؛ ثم يقدمون قرباناً . وعند ما يذبحون الأضحية يجعلون دمها يسيل في الحفرة ويلقون فيها فحماً مشتعلًا (من المحتمل أنهم كانوا يوقدونه من النار المقدسة في الموقد) وحبوباً وكعكاً وفاكهة وقليلًا من الحمر والعسل وعندما يحترق كل ذلك في الحفرة يفرسون الحجر أو قطعة الخشب في الرماد وهو لا يزال ساخناً . » (٢) ونرى بوضوح أن الغرض من هذا الاحتفال هو جعل التخم كما لو كان ممثلاً مقدساً للعبادة المنزلية ، ولكي تستمر هذه الصفة ملازمة له كانوا يجددون العملية المقدسة في كل عام بسكب السوائل عليه وتلاوة الأدعية : فإن وضع التخم في الأرض هو بمثابة أن الديانة المنزلية قد غرست في الأرض لكي تبين أن هذه الأرض أضحت ملكاً للأسرة إلى الأبد . وقد ساعد الشعر على اعتبار التخم ، فيما بعد ، إلهاً متميزاً عن غيره وله كيانه .

ويبدو أن استعمال التخوم أو الحدود المقدسة للحقول كان عاماً في الجنس الهندو أوروبي . فقد كان موجوداً عند الهنود في زمن سحيق في القدم . وكانت

(١) كاتون : الفلاحة ١٤١ . *Script. rei agrar.* طبعة غيز Goetz ص ٣٠٨
ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢ : ٧٤ . أوفيد يوس : الأعياد ٢ : ٦٣٩ . استرابون ٥ : ٣
(٢) *Siculus Flaccus, De conditione agrorum*, édit. Lachmann, 141; (٢) édit. Goetz, p. 5.

بين احتفالات التحديد المقدسة عندهم وبين تلك التي وصفها صيقولوس في إيطاليا مشابهة كبيرة (١). وقبل روما نجد التخم عند السابينيين (٢) ونجده أيضاً عند الأتروسك. وكانت للإغريق أيضاً تخوم مقدسة يسمونها $\theta\rho\omicron\iota, \theta\epsilon\omicron\iota \theta\rho\omicron\iota$ (٣) وعندما يهضع التخم طبقاً للشعائر لا تستطيع أية سلطة في العالم أن تنقله من مكانه. بل لا بد أن يبقى في نفس المكان على جميع الآباد. وهذا المبدأ الديني كانوا يعبرون عنه في روما بالأسطورة التالية: عندما أراد جوبيتر أن يجعل لنفسه مكاناً على جبل الكايبيتول ليتخذ فيه معبداً لم يستطع أن يجرّد إله التخم (الحد) من ملكه. وهذه الرواية ترى إلى أي حد كانت الملكية مقدسة؛ إذ أن التخم الذي لا يمكن أن يزحزح لا يدل على شيء إلا على الملكية التي لا تمس بسوء.

والواقع أن التخم كان يحمي حد الحقل ويسهر عليه ولم يكن يستطيع الجار أن يقترب منه كل الاقتراب: «إذ عندئذ، كما يقول أوفيدوس، يشعر الإله بصدمة سكة المحراث أو الفأس ويصيح: قف هذا حقلِي وذاك حقلك» (٤). ولكي يعتدى امرؤ على حقل أسرة كان لا بد له من قلب التخم أو نقله. وهذا التخم إله، فالخطيئة فظيعة والعقاب شديد: يقول القانون الروماني القديم «إذا ما مس الإنسان التخم بسكة محراثه فإن الرجل وثيرانه يكونون للآلهة السفليين نذراً» (٥) ومعنى ذلك أنه كان يضحي بالرجل والثيران عقاباً لهم. وكان القانون الأتروسكي يقول وهو يتكلم باسم الدين: تحكم الآلهة على من يمس التخم أو ينقله. يزول منزله وتنقرض سلالته، ولن تنتج أرضه ثماراً

(١) قوانين مانو ٨ : ٢٤٥. فريهاسباتي (Vrihaspati) اقتبس Sicé, *Legislat. hindoue* p. 159

(٢) فاورن: اللسان اللاتيني ٥ : ٧٤ .

(٣) بوليدوكيس ٩ : ٩. هيسيتيوس $\theta\rho\omicron\varsigma$. أفلاطون: القوانين ٨ ص ٨٤٢ ترجم بلوتارخوس وديونيسيوس كلمة *terminus* بكلمة $\theta\rho\omicron\varsigma$. هذا وقد كانت الكلمة موجودة في اللغة الإغريقية أيضاً $T\acute{\epsilon}r\mu\omega\upsilon\alpha$ (أوريبيديس : : اليكترا ٩٦) .

(٤) أوفيدوس : الإعياد ٢ : ٦٧٧ .

(٥) Festus, V°. *Terminus*, éd. Müller, p. 363; *Qui terminum exarasset, et ipsum et boves sacros esse.*

ويبيد البرد والصدأ ونيران القبيظ محصوله ، وأعضاء جسم المذنب تغطيتها القروح وتتناكل حتى تتساقط (١) .

ليس لدينا نص القانون الأثيني عن نفس الموضوع ولم يبق لدينا منه سوى ثلاث كلمات معناها « لا تتجاوز الحد » لكن يلوح أن أفلاطون يكمل فكرة المشرع عندما يقول « يجب أن يكون أول قوانيننا هو ذا : يجب ألا يلمس أحد الحد الذي يفصل بين حقله وحقل جاره إذ لا بد من بقاءه ثابتاً ، يجب ألا يفكر أحد في زحزحة الحجر الصغير الذي يفصل بين الصداقة والعداوة ، ذلك الحجر الذي أقسم الإنسان أن يتركه في مكانه . » (٢) .

من جميع هذه العادات ومن مجموعة هذه القوانين ينتج بجلاء أن الديانة المنزلية هي التي علمت الإنسان أن يملك الأرض وهي التي ضمنت له حقه عليها .

ولا يصعب علينا أن نفهم أن حق التملك وقد فهموه هم على هذا الوضع وأقاموه عليه . كان أكمل في آثاره وأكثر إطلافاً مما يمكن أن يكون عليه في مجتمعاتنا الحديثة التي يقوم فيها على مبادئ أخرى . كان التملك ملازماً للديانة المنزلية إلى حد أنه لم يكن في استطاعة الأسرة أن تتنازل عن ملكها إلا إذا تنازلت عن دينها . فكان المنزل أو الحقل بمثابة المذبح فيها ولم يكن في استطاعتها أن تفقداهما أو تتنازل عنهما . لم يدع أفلاطون في رسالته عن القوانين أن يقدم جديداً عندما حرم على المالك أن يبيع حقله : وكل ما عمله أنه كان يذكر بقانون قديم . كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن الملك لم يكن قابلاً للتنازل في الأزمنة القديمة . ومن المعروف معرفة واضحة أنه كان محرماً في اسبرطة بصفة قاطعة أن يبيع الإنسان أرضه (٣) . وكان نفس التحريم مكتوباً في قوانين لوكر Locres ولوكاديا (Leucade) (٤) . وكان

(١) *Script. rei agrar.* édit. Goetz, p. 258 ; éd. Lachmann, p. 351

(٢) أفلاطون : القوانين ٨ ص ٨٤٢ .

(٣) أرسطو : السياسة ٢ : ٦ : ١٠ (طبعة ديدو ص ٥١٦) . هيراقليديس السنطي : قطع من المؤرخين الأغريق (طبعة ديدو ج ٢ ص ٢٢٢) . بلوتارخوس : الأنظمة اللاكونية ٢٢ .

(٤) أرسطو : السياسة ٢ : ٤ : ٤ .

فيدون القورنثي من مشرعى القرن التاسع يأمر بأن يبقى عدد الأسرات والأمولاك لا يلحقه تغيير (١). وهذا أمر لا يمكن مراعاته إلا إذا كان محرماً على كل أسرة أن تباع أرضها أو حتى أن تقسمها. أما قانون صولون وهو متأخر عن قانون فيدون القورنثي بسبعة أجيال أو ثمانية فلم يعد يحرم على الإنسان أن يبيع ملكه لكنه كان يفرض على البائع عقاباً صارماً ألا وهو فقدان حقوق المواطنين (٢) وأخيراً نخبرنا أرسطو بصفة عامة أن التشريعات القديمة في كثير من المدن كانت تحرم بيع الأراضي (٣).

قوانين كهذه يجب ألا تثير الدهشة في نفوسنا. فلنؤسس التملك على حق العمل وعندئذ يستطيع الإنسان أن يتنازل عنه. ثم لنؤسسه على الديانة إنه لن يستطيع ذلك. إذ أن صلة أقوى من إرادة الإنسان تجمع بينه وبين الأرض. فضلاً عن أن هذا الحقل الذي يحتوي على القبر الذي يعيش فيه الأسلاف المؤهلون والذي يجب على الأسرة أن تقوم فيه بعبادة إلى الأبد. هذا الحقل ليس ملكاً للفرد وحده بل للأسرة بأكملها. ليس الفرد الذي يعيش الآن هو الذي مكن حقه في هذه الأرض

(١) أرسطو: السياسة ٢ : ٣ : ٧ . لم يكن هذا القانون من جانب الشارع القديم يرمى إلى المساواة في المال ، إذ أن أرسطو يضيف: «ولو أن الأملاك لم تكن متساوية» ، بل كان يرمى فقط إلى المحافظة على الملك في الأسرة: وفي ثييه أيضاً كان عدد الأملاك ثابتاً . أرسطو: السياسة ٢ : ٩ : ٧ .

(٢) كان يعاقب الرجل الذي تنازل عن ملكه الموروث $\delta\tau\alpha\ \pi\alpha\tau\rho\omega\alpha\ \kappa\alpha\tau\epsilon\delta\eta\delta\omicron\kappa\omega\varsigma$ بعقوبة التجريد من الحقوق $\alpha\tau\iota\mu\acute{\iota}\alpha$ أيسخينيس (Eschine) ضد تيمارخوس . ٣ : ٤ ديوغينيس لا إرتيوس (Laerce) : صولون ١ : ٥٥ . ومن المؤكد أن هذا القانون لم يكن مرعياً في عصر أيسخينوس لكنه كان قائماً من حيث الشكل كأثر من القاعدة القديمة . فكانت هناك دائماً $\delta\acute{\iota}\kappa\eta\ \kappa\alpha\tau\epsilon\delta\eta\delta\omicron\kappa\acute{\epsilon}\nu\alpha\iota\ \tau\alpha\ \pi\alpha\tau\rho\omega\alpha$ (Bekker, *Anecdota* p. 199 et 310).

(٣) Aristote, *Polit.* VI, 2, 5: $\text{Ἦν τὸ γ'ἀρχαῖον ἐν πολλαῖς πόλεσι}$ (٣) $\text{νενομοθετημένον μὴ πωλεῖν ἐξεῖναι τοὺς πατρῴους (alias πρώτους) κληροῦς.}$

إن الإله المنزلى هو الذى فعل ذلك وليست الأرض فى يد الفرد إلا وديعة؛ إنها ملك لأولئك الذين ماتوا وللذين سيولدون. إنها متصلة أوثق اتصال بهذه الأسرة ولم يعدنى الاستطاعة أن تفصل عنها . فإن فصل الواحدة عن الأخرى معناه تغيير العبادة وإغضاب الدين . كما أن التملك عند الهنود كان مؤسساً على العبادة وكان بدوره غير قابل للتنازل (١) .

إننا لا نعرف القانون الرومانى إلا ابتداء من اللوحات الإثنى عشرة ؛ ومن الواضح أن بيع الملك كان مسموحاً به فى تلك الفترة . ولكن هناك أسباباً تدعو إلى الاعتقاد بأن الأرض فى الزمن الأول لروما، وفى إيطاليا قبل وجود روما ، لم تكن قابلة للتنازل عنها ؛ وذلك كما كانت عليه الحال فى بلاد الإغريق. ولو أنه لم يبق أى شاهد على هذا القانون القديم إلا أننا نستطيع على الأقل أن نميز أوجه التيسير التى أدخلت عليه شيئاً فشيئاً. فإن قانون اللوحات الإثنى عشرة عند ما ترك للقبر ميزة عدم التنازل جرد الحقل منها . ثم سمحوا فيما بعد بتقسيم الملك إذا كان هناك عدة أخوة ولكن على شرط القيام باحتفال دينى جديد : فإن الديانة وحدها هى التى تستطيع أن تقسم ما قررت الديانة فيما سبق أنه غير قابل للقسمة . وأخيراً سمحوا ببيع الملك . لكن كان لا بد لذلك من إجراءات ذات صبغة دينية . لم يكن من المستطاع أن يقع البيع إلا فى حضور الـ *libripens* (٢) ومع القيام بجميع شعائر الـ *mancipatio* (٣) الرمزية. ويرى شىء شبيه

(١) ميتاكخارا ترجمة أوربان ص . ه . . اختفت هذه القاعدة شيئاً فشيئاً عند ما تغلبت البراهمانية .

(٢) معناها الوزن . وهو من يمسك الميزان فى البيوع الصورية ويتظاهر بأنه يزن النحاس الذى يمثل ثمن الشئ المبيع تمثيلاً صورياً - العرب .

(٣) هو وضع الشخص يده على الشئ بحضور خمسة شهود ليحصل على حق الملك على ذلك الشئ وفى نفس الوقت يضرب الميزان الذى يقبض عليه الوزن بقطعة من العملة . وهو من الإجراءات الرمزية فى القانون الرومانى - العرب

بذلك في بلاد الإغريق فقد كان بيع منزل أو عقار يصحبه قربان للآلهة (١) ويلوح أن كل نقل للملكية كان لابد أن يكون مسموحاً به من الدين .

إذا لم يكن في استطاعة المرء أن يتنازل عن أرضه أو لم يكن يستطيعه إلا بصعوبة فمن باب أولى لم يكن بمستطاع أن يجرد منها بالرغم منه . فكان نزع الملكية بسبب المنفعة العامة مجهولاً عند الأقدمين . ولم تكن المصادرة معمولاً بها إلا كنتيجة لحكم بالنفي (٢)، أى عند ما يجرد الإنسان من لقبه كمواطن فلا يستطيع أن يزاوّل أى حق على أرض المدينة . وكذلك نزع الملكية من أجل الديون فإننا لا نصادفه قط في الشرع القديم للمدن (٣) . حقاً إن قانون اللوحات الإثنتى عشرة لا يترفق بالمدين ومع ذلك لم يكن يسمح بمصادرة ملكه لمصلحة الدائن . فجسم الرجل هو الذى يقابل دينه وليست أرضه ، إذ أن الأرض لا تنفصل عن الأسرة . فكان أسهل أن يسرق الإنسان من أن ينتزع منه حق التملك الذى كان يتبع أسرته أكثر مما كان يتبعه ؛ كان المدين يوضع في يد دائنه والأرض تتبعه في عبوديته بطريقة ما . والسيد الذى كان يستغل

(١) قطعة من ثيوفراطوس رواها ستوبايوس . Stobée, *Serm.*, 42 .

(٢) اختفت هذه القاعدة في عصر الديمقراطيات في المدن .

(٣) كان لدى الإليين (*Eléens*) قانون يحرم رهن الأرض (أرسطو : السياسة ٧ : ٢) . وكان الرهن مجهولاً في القانون القديم في روما . وما يقال عن الرهن في القانون الأثيني قبل صولون يعتمد على كلمة من بلوتارخوس فهمت خطأ . فإن المصطلح *ēpos* الذى يدل فيما بعد على الحد الرهنى كان يدل في عصر صولون على التخيم المقدس الذى كان شارة على حق الملك . أنظر أدناه الكتاب الرابع الفصل السادس . ولم يظهر الرهن في الشرع الأثيني إلا فيما بعد ، وفي صورة البيع الوفاى بشرط الشراء من جديد فقط .

قوى الرجل الجسمانية لمصلحته كان يتمتع كذلك بثمار الأرض لكنه لا يصبح مالكا لها . إلى هذا الحد كان حق التملك فوق كل شيء . مصاناً لا يمس بسوء (١)

(١) نقرأ في المادة الخاصة بالدين العاجز عن الوفاء في قانون اللوحات الإثنتي عشرة *Si volet suo vivito* و إذن لا يزال الدين محتفظاً لنفسه ببعض الشيء بعد أن كاد يصبح عبداً . فملكه ، إذا كان له ملك ، لم ينزع منه . والترتيبات المعروفة في القانون الروماني باسم *mancipation avec fiducie* والمعروفة باسم *pignus* كانت قبل الدعوى السرفية *action servienne* وسائل ملتوية تضمن للدائن دفع دينه ، وتدل بطريق غير مباشر على أن نزع الملكية من أجل الديون لم يكن موجوداً . وكان لابد فيما بعد ، عند ما أبطلوا الإلزام الجسماني من إيجاد وسيلة لوضع اليد على أملاك المدين ولم يكن ذلك بالأمر اليسير . لكن التمييز الذي كانوا يميزونه بين التملك والحيازة كان يمددهم بوسيلة . فقد حصل الدائن من الـ *præteur* على حق بيع ما للمدين *bona* وليس بيع الملك *dominium* . وعندئذ فقط فقد المدين التمتع بملكه عن طريق نزع الملكية المستتر .

..... نظام *mancipation avec fiducie* هو أن ينقل المره حق ملكه على شيء ما بطريق الـ *mancipatio* وتعهد المشتري برد الشيء عند الوفاء بالدين المضمون به (بيع الوفاء) - الـ *pignus* هو أن ينقل صاحب الشيء لصاحب الدين حيازة الشيء دون الملكية الدعوى السرفية هي دعوى من الدعاوى العينية تمكن مؤجر الأتيان العقارية من الحصول على إيجار أطيانه باعطائه حق الرهن على منقولات المؤجر له إذا لم تكن هذه المنقولات قد سلمت له من قبل على سبيل الرهن - العرب

الفصل السابع حق الإرث

١- طبيعة حق الإرث عند الأقدمين والمبدأ الذي قام عليه

حيث إن حق الملك إنما أنشئ للقيام بعبادة متوارثة فلم يكن من الجائز أن يندثر هذا الحق بعد الحياة القصيرة التي يحياها الفرد . فإن الإنسان يموت وتبقى العبادة ، إذ يجب ألا ينطىء الموقد أو يهجر القبر . وما دامت الديانة المنزلية قائمة فإنه يجب أن يستمر معها حق الملك .

هناك شيان مرتبطان ارتباطاً وثيقاً في عقائد الأقدمين كما هي في قوانينهم ألا وهما : عبادة الأسرة وملك الأسرة . لذلك كانت في القانون الإغريقي ، كما في القانون الروماني ، قاعدة لا استثناء فيها وهي أنه لا يمكن الحصول على الملك بدون العبادة ولا القيام بالعبادة بدون الملك . يقول سيسرون : «تفرض الديانة أن تكون ممتلكات كل أسرة غير قابلة للانفصال عن عبادتها وأن تكون العناية بالقرايين من نصيب من يعود إليه الميراث دائماً» (١) . أما في أثينا فهي ذى العبارات التي يستعملها صاحب الدعوى للمطالبة بميراث «تدبروا جيداً أيها القضاة وقلوا أيهما يجب أن يرث أملاك فيلوكتيمون Philoctémon وأن يقدم

(١) سيسرون : القوانين ٢ : ١٩ - ٢٠ . لقد بلغ من أهمية الأشياء المقدسة *sacra* أن كتب الفقيه غايوس هذه الفقرة الغريبة :

Quare autem tam improba possessio et usucapio concessa sit, illa ratio est quod voluerunt veteres maturius hereditates adiri, ut essent qui sacra facerent, quorum illis temporibus summa observatio fuit (Gaius, II, 55).—Festus, v° Everriator (éd. Müller, p. 77). *Everriator vocatur qui, accepta hereditate, justa facere defuncto debet: Si non fecerit, suo capite luat.*

القرايين على قبره، أهو خصمى أم أنا؟» (١). فهل يمكن القول بطريقة أوضح من هذه بأن العناية بالعبادة لا يمكن أن تتفصل عن الميراث . وكذلك الحال في الهند : « أيا كان الشخص الذى يرث فهو مكلف بتقديم القرايين للقبر » . (٢)

من هذا المبدأ جاءت كل قواعد حق الإرث عند القدماء . والقاعدة الأولى أنه ما دامت الديانة المنزلية وراثية ، كما رأينا ، من ذكر إلى ذكر فإن الملك يكون كذلك أيضاً . وكما أن الابن هو الذى يستمر فى العبادة طبيعياً وإلزامياً فهو الذى يرث الأموال أيضاً . ومن هنا وجدت قاعدة الوراثة ؛ وهى ليست نتيجة لمجرد اتفاق تم بين الناس بل مشتقة من عقائدهم ، من ديانتهم ، مما له أكبر سلطان على أرواحهم : فليست إرادة الأب الشخصية هى التى تجعل الابن يرث . لم يكن الوالد فى حاجة لأن يوصى بل كان الابن يرث بمقتضى حقه المطلق أو كما يقول الفقيه *ipso jure heres existit* بل إنه وارث الزاماً *heres necessarius* (٣) وليس له أن يقبل الميراث أو يرفضه . فقد كان الاستمرار فى الملك كالأستمرار فى العبادة التزاماً بقدر ما كان حقاً . وسواء أراد أم لم يرد فإن التركة مفروضة عليه مهما كانت حالتها : مفروضة عليه حتى باعها وديونها . فإن الميراث بعد تصفية التركة (*sous bénéfice d'inventaire*) وحق التنازل عن التركة لم يكن مسموحاً بهما للابن فى القانون الإغريق ولم يدخل فى القانون الرومانى إلا فى زمن متأخر جداً .

تنعت اللغة القانونية فى روما الابن بأنه *eres suus* كما لو قيل *heres sui ipsius* والواقع أنه لا يرث إلا من تلقاء نفسه فليس بين الأب وبينه هبة أو وصية أو انتقال ملكية بل مجرد استمرار *parentis continuatur dominium*

(١) إيسايوس ٦ : ٥١ . يطلق أفلاطون على الوارث *διάδοχος θεῶν* (القوانين ٥ ص ٧٤٠) .

(٢) قوانين مانو ٩ : ١٨٦ .

(٣) ديجست : السفر ٣٨ الباب ١٦ : ١٤ .

بل كان الابن في حياة الوالد شريكاً في تملك الحقل أو المنزل :

(١) *vivo quoque patre dominus existimatur*

ولكى نكوّن فكرة صحيحة عن التوارث عند القدماء يجب ألا نتصور ثروة تنتقل من يد إلى أخرى . فالثروة ثابتة كالموقد أو القبر المرتبطة بهما . إن الإنسان هو الذى يزول . إن الانسان هو الذى يصل ، كلما تسلسلت أجيال الأسرة ، في الساعة المعينة ، لكى يستمر في العبادة ويعنى بالملك .

٢ - يرث الابن ولا ترث البنت

هنا لأول وهلة تبدو القوانين القديمة غريبة ظالمة . وإن الإنسان ليعروه شيء من الدهشة عند ما يرى أن البنت ، في القانون الرومانى ، لا ترث الأب إذا كانت متزوجة . ولا ترث في القانون الإغريقى على أية حال . أما ما يخص الإخوة وأبناءهم فإنه يظهر لأول وهلة أكثر بعداً عن الطبيعة والعدالة . ذلك بأن هذه القوانين جميعاً ليست مستمدة من المنطق ولا من العقل ولا من الإحساس بالعدالة بل من العقائد ومن الديانة التى كانت تسيطر على النفوس .

القاعدة في العبادة أنها تنتقل من ذكر إلى ذكر ، والقاعدة في الميراث أنه يتبع العبادة ، والبنت ليست أهلاً للاستمرار في الديانة الأبوية مادامت تزوج وبزواجها تنازل عن عبادة الأب لتتخذ عبادة الزوج . فليس لها إذن أى حق في الميراث وإذا حدث أن والداً ترك أملاكه لابنته فإن الملك يصبح منفصلاً عن العبادة ، وهو أمر غير مقبول . بل إن البنت لا تستطيع حتى القيام بأول واجب من واجبات الوارث وهو الاستمرار في سلسلة الأكلات الجنائزية حيث إنها تقدم القرابين إلى أسلاف زوجها . ولذا حرمت عليها الديانة أن ترث أباه .

ذلك هو المبدأ العتيق . وقد فرض نفسه على مشرعى الهنود وعلى مشرعى الإغريق والرومان سواء بسواء . كانت للشعوب الثلاثة نفس القوانين لا لأن بعضها قد استعارها من البعض الآخر بل لأنها استمدت قوانينها من نفس العقائد

(١) القواعد (Institutes) ٣ : ١ : ٣ : ٣ : ٩ : ٧ : ٣ : ١٩ : ٢ .

يقول قانون مانو «ليقتسم الإخوة بعد موت والدهم الميراث فيما بينهم» ويضيف الشارع أنه يوصى الإخوة بأن يعطوا بائنة لأخواتهم، مما يكمل إقامة الدليل على أنه لم يكن لمن أى حق في التركة الأبوية .

والأمر كذلك في أثينا؛ فكثيراً ما سححت الفرصة للخطباء الأثينيين في مرافعاتهم لكي يدلّثوا على أن البنات لم يكن ليرثن (١) . وديموستينيس هو ذاته مثال لتطبيق هذه القاعدة إذ كانت له أخت، ونعرف من كتاباته هو ذاته أنه كان الوارث الوحيد للميراث، وإنما احتفظ والده بسبع الميراث فقط كبائنة لابنته . أما فيما يختص بروما فإن فرائض الشرع البدائي معروفة لنا معرفة ناقصة جداً فليس لدينا أى نص من تلك العصور القديمة يتعلق بحق البنت في الإرث ، وليس لدينا أى مستند شبيه بمرافعات أثينا. ونحن مجبرون في النهاية على البحث عن الآثار الضئيلة التي خلفها الشرع البدائي في تشريع متأخر جداً ومختلف جداً؛ فما زال غايوس وقواعد جوستينيانوس (Institutes) تذكر أن البنت لاتعد من الورثة الطبيعيين إلا إذا كانت لا تزال تحت سلطة الأب حين وفاته (٢)؛ وهي لا تكون تحت سلطته إذا كانت قد تزوجت طبقاً للشعائر الدينية . فإذا فرضنا أنه كان في استطاعتها قبل زواجها أن تشاطر أخاها في الميراث فإنه من المحتم أنها لم تكن لتستطيع ذلك بمجرد أن أخرجها الـ *confarreatio* من الأسرة الأبوية ليربطها بأسرة الزوج . حقاً إن نص القانون لا يحرمها وهي غير متزوجة من نصيبها في الميراث ، لكن لا بد من التساؤل عما إذا كانت تستطيع من الناحية العملية أن تكون وريثة حقاً . هذا ويجب ألا نغفل أن تلك البنت كانت

(١) نرى في إيسايوس (ضد اكسيناينيتوس ٤) والدا يترك ابنا وابنتين وابنا آخر محرراً ، والابن الأول وحده هو الذي يرث . ونرى في ليسياس (الدفاع عن مانتيشيوس ١٠) أخوين يتقاسمان الميراث ويكتفیان باعطاء بائنة لأختيهما . فضلاً عن أن البائنة لم تكن في عادات أثينا إلا جزءاً صغيراً من الميراث الأبوي . ويرى ديموستينيس أيضاً (In Baeotum, de dote, 22-24) أن البنات لاترث ؛ وأخيراً يرى أرسطوفانيس (الطيور ١٦٥٣ - ١٦٥٤) بشكل واضح أن البنت لا ترث إذا كان لها إخوة .

(٢) غايوس ١: ٣-٢ ؛ قواعد (Institutes) جوستينيانوس ٢ : ١٩ : ٢ .

موضوعة تحت وصاية أخيها أو عصبتها وأنها كانت تبقى كذلك طول حياتها وأن الوصاية في القانون القديم إنما أقيمت لمصلحة الأملاك لا لمصلحة البنت وأن الغرض منها كان المحافظة على الأملاك في الأسرة (١) ، وأخيراً أنه لم يكن في استطاعة البنت في أية سن أن تزوج أو أن تغير أسرتها بدون إذن الوصي عليها . تسمح هذه الحقائق الموثوق بها بالاعتقاد بأنه كانت هناك، إن لم تكن في القوانين فعلى الأقل من الناحية العملية ووفقاً للعادات ، سلسلة من الصعوبات تحول دون أن تكون البنت مالكة لنصيبها من الميراث ملكاً تاماً كما كان ملك الابن لنصيبه . وليس لدينا دليل على أن البنت كانت محرومة من الميراث لسنا على ثقة من أنها لم تكن ترث والدها وهي متزوجة، ولم تكن تستطيع وهي غير متزوجة أن تتصرف فيما ورثته قط . فإن كانت ترث ، فإنها ما كانت تفعل ذلك إلا مؤقتاً وبشرط، ويكاد يكون إرثها هو مجرد حق الانتفاع بالثمار . ولم يكن لها الحق في أن توصى أو تتنازل بدون إذن من ذلك الأخ أو من أولئك العصبة الذين كان لهم أن يرثوا أملاكها بعد موتها والذين كانوا حفاضة عليها في حياتها. (٢)

وهناك ملحوظة أخرى يجدر ألا نغفلها . تذكرنا قواعد جوستينيانوس بالمبدأ القديم ، الذي لم يعد معمولاً به حينئذ لكنه لم يكن قد نسي ، وهو المبدأ الذي يأمر بانتقال الإرث إلى الذكور دائماً (٣) ، ولا ريب أن إحدى ذكريات هذه القاعدة أن المرأة في القانون المدني لم تكن لتستطيع أن تعين وارثة إطلاقاً . وكلما صعدنا من عصر جوستينيانوس نحو العصور القديمة كلما اقتربنا من قاعدة تحرم الإرث على النساء . وفي عصر سيسرون لا يستطيع الأب إذا ترك ابناً وابنة أن يوصي لابنته إلا بثلث ماله ، وإذا لم يكن له إلا ابنة وحيدة فإنها لم تكن تستطيع أن تنال غير النصف . هذا ويجب أن نلاحظ أنه لكي تحصل هذه البنت على ثلث المال أو نصفه، كان لا بد أن يكون الوالد قد أوصى بوصية

(١) وقد أحسن المسيو جيد (Gide) في التدليل على ذلك في كتابة :
Etude sur la condition de la femme, p. 114.

(٢) غايوس ١ : ١٩٢ .

(٣) القواعد ٣ : ١ : ١٥ : ٣ : ٢ : ٣ :
Ita jura constitui ut plerumque hereditates ad masculos confluerent.

لصالحها فليس للبنت شيء عن طريق الشرع (١). وأخيراً قبل سيسرون بقرن ونصف عندما أراد كاتون أن يحجب العادة القديمة عمل على إصدار القانون فوكونيا (Voconia) الذي كان يحرم : أولاً ، إقامة امرأة وارثة حتى لو كانت وحيدة ، متزوجة أو غير متزوجة ؛ ثانياً ، أن يوصى للنساء بأكثر من نصف المال (٢). ولم يعمل القانون فوكونيا سوى أن جدد قوانين أقدم منه إذ لا يمكن الظن بأن معاصري آل سقييو كانوا يقبلون هذا القانون لو لم يعتمد على مبادئ عتيقة كانت لا تزال محترمة. فكان القصد منه إقامة ما غيره الزمن ؛ هذا وأغرب ما في هذا القانون فوكونيا أنه لا ينص على شيء ما بخصوص الميراث الطبيعي (Ab intestat) لكن سكوتاً كهذا لا يمكن أن يدل على أن البنت كانت في هذه الحال وارثة شرعية ، إذ ليس مقبولا أن يحرم القانون على البنت أن تراث أباه بوصية لو أنها كانت في الأصل وارثة شرعاً بدون وصية . بل الأولى أن يدل هذا السكوت على أنه لم يكن لدى الشارع شيء يقوله عن الإرث الطبيعي (Ab intestat) إذ أن القواعد القديمة فيما يختص بهذه النقطة قد حوفظ عليها خير مما حوفظ على سواها .

لذلك ، ولو أننا لا نستطيع أن نوكد أن البنت كانت محرومة من الميراث حرماناً بيئناً إلا أنه من المؤكد على الأقل أن القانون الروماني العتيق وكذلك القانون الإغريقي كانا يعطيان للبنت مركزاً أقل بكثير من مركز الابن . وكان ذلك هو النتيجة الطبيعية التي لا مفر منها للمبادئ التي نقشها الديانة في جميع الأذهان .

حقاً إن الناس قد وجدوا منذ فترة مبكرة حيلة يوفقون بها بين القاعدة الدينية التي كانت تحرم على البنت أن تراث وبين الشعور الطبيعي الذي يرمي

(١) سيسرون : الجمهورية ٣ : ٧ .

(٢) سيسرون ؛ ضد فريس (Verres) ٢ : ١ : ٤٢ Ne quis heredem virginem faceret. Id., 43: Si plus legarit quam ad heredes perveniat, non licet أنظر تيتوس ليفيوس : الموجز ٤١ ؛ غايوس ٢ : ٢٢٦ و ٢٧٤ ؛ القديس أوغسطينوس : مدينة الله ٣ : ٢١

إلى تمكينها من التمتع بثروة أبيها . وهذا بئين تماماً، على الأخص في القانون الإغريق .

كان التشريع الأثيني يرمى بشكل واضح إلى أن تزوج الفتاة على الأقل بالوارث ما دامت محرومة من الميراث . فإذا ترك المتوفى ابناً وبناتاً مثلاً كان القانون يسمح بالزواج بين الأخ وأخته على شرط ألا يكونا مولودين من أم واحدة . وكان للأخ وهو الوارث الوحيد الخيار في الزواج من أخته أو إعطائها بائنة (١)

وإذا لم يكن للأب غير بنت واحدة فقد كان في استطاعته أن يتبنى ابناً ويزوجه ابنته ، كما كان يستطيع أن يقيم وارثاً بوصية ويتزوج الوارث ابنته (٢) . فإذا مات والد الابنة الوحيدة ولم يتبن ولم يوص فإن القانون القديم كان يجعل من أقرب أقربائه وارثاً له (٣) لكن هذا الوارث كان ملزماً بزواج الابنة ، وبمقتضى هذا المبدأ أجاز زواج العم بابنة أخيه، بل كان القانون

(١) ديموستينيس: ضد إوبوليديس (In Eubuliden) . ٢ . بلوتارخوس: ثيمستوكليس ٣٢ . قورنيليوس نيبوس: كيمون ١ . يجب ملاحظة أن القانون لم يكن يسمح بالزواج من الأخ من أم ولا من الأخ المحرر . فلا يمكن الزواج إلا من أخ من أب لأن هذا الأخير هو وحده وارث الأب .

(٢) إيسايوس : ميراث بيرهوس De Pyrrhi heriditate ٦٨ .

(٣) لم يعد هذا الوضع من الشرع الأتيكي القديم مسيطراً تماماً في القرن الرابع . بيد أننا نجد أثراً واضحاً منه في مراعاة إيسايوس : ميراث قيرون . موضوع القضية هو الآتي : مات قيرون (Ciron) ولم يترك غير بنت فطالب أخ قيرون بميراثه . وترافع إيسايوس عن البنت . ولم تصل إلينا مراعاة الخصم الذي دفع، بالبداهة باسم المبدأ القديم ، بأنه ليس للبنت أي حق . لكن مؤلف الـ *ὑποθέσεις* الموضوع في رأس خطبة إيسايوس يخطر أن هذا المحامي الماهر جداً كان يدافع هنا عن قضية سيئة فيقول إن نظريته كانت تتفق مع الإنصاف الطبيعي لكنها مناقضة للقانون .

يحتّمه (١) وكان هناك ما هو أكثر من ذلك : إذا تصادف أن كانت هذه البنت متزوجة من قبل فإنه يتحتم عليها أن تترك زوجها لتزوج وارث أبيها (٢) . ومن الجائز أن يكون الوارث متزوجاً هو أيضاً من قبل فيجب عليه أن يطلق زوجته ليتزوج من قريبته (٣) . وإنا نرى هنا إلى أي حد تنكر الشرع العتيق للطبيعة لكي ينسجم مع الديانة (٤) .

وقد أدت بهم ضرورة إرضاء الديانة ، متحدة مع الرغبة في إنقاذ مصالح البنت الوحيدة ، إلى إيجاد حيلة أخرى . وفي هذه النقطة يلتقي الشرع الهندي والشرع الأثيني لقاء عجيباً . فنقرأ في قوانين مانو « من ليس له ابن ذكر يستطيع أن يكلف ابنته بأن تعطيه ابناً يصبح ابنه ويقوم بالاحتفال الجنائزي تكريماً له » ولهذا يجب على الوالد أن يخطر الزوج الذي يعطيه ابنته بتلاوة هذه الصيغة : « أعطيك هذه البنت التي لا أخ لها مزية بالجواهر والولد الذي يولد منها يكون ابني ويحتفل بجنائزي » (٥) . وكذلك كانت العادة في أثينا إذ يستطيع

(١) إيسايوس : ميراث يرهوس ٦٤ ، ٧٢ - ٧٥ ؛ إيسايوس : ميراث اريستارخوس ٥ ؛ ديموشينيس : ضد ليوخارس ١ . كان يطلق على البنت الوحيدة كلمة *ἐπίκληρος* وترجمونها خطأ بالوارثة . لكن المعنى الأصلي للكلمة والمستمد من جوهرها هو « التي يجوار الميراث » أي التي « تؤخذ معه » ففي حدود الشرع الصحيحة لم تكن البنت وارثة إذ أن الوارث يأخذ الميراث *συναντιῇ* كما يقول القانون المشار إليه في مرافعة ديموشينيس : ضد ماكارتاتوس ٥١ : إنظر إيسايوس ٣ : ٤٢ : ميراث اريستارخوس ١٣ . لم تكن حالة الـ *ἐπίκληρος* وفقاً على القانون الأثيني بل نعثر عليها في اسبرطه (هيرودوت ٦ : ٥٧ وأرسطو : السياسة ٢ : ٦ : ١١) وفي ثوري (Thurii) (ديودوروس ١٢ : ١٨) .

(٢) إيسايوس : ميراث يرهوس ؛ ميراث اريستارخوس ١٩ .

(٣) ديموشينيس : ضد إوبوليديس ٤١ ؛ ضد أونيتور (الخلاصة) .

(٤) خفت كل هذه الالتزامات شيئاً فشيئاً . والواقع إن في عصر إيسايوس وديموشينيس كان أقرب الأقربين يستطيع أن يتخلص من الزواج بالوارثة الوحيدة على شرط أن يتنازل عن التركة وأن يقدم بائنة لقريبته (ديموشينيس : ضد ماكارتاتوس ٥٤ ؛ إيسايوس : ميراث كليونيوس ٣٩) .

(٥) قوانين مانو ٩ : ١٢٧ ، ١٣٦ . فاسيشتا Vasishta ١٧ : ١٦ .

الأب أن يديم سلالة عن طريق ابنته بتقديمها لزوج على هذا الشرط الخاص. والولد الذى يولد من مثل هذا الزواج يعتبر ابناً لأب المرأة ويتبع عبادته ويشهد إجراءاته الدينية ويعنى بقبوره بعد ذلك (١). كان هذا الولد فى الشرع الهندى يرث جده كما لو كان ابنه. وكذلك كان الأمر تماماً فى أثينا. فعندما يزوج والد ابنته الوحيدة بالطريقة التى روينها فإن وارثه لا يكون ابنته ولا صهره بل ابن البنت (٢). وبمجرد أن يبلغ هذا الأخير سن الرشد يتملك ميراث جده لأمه بالرغم من أن أباه وأمه لا يزالان على قيد الحياة (٣).

هذا التساهل الغريب من جانب الديانة والقانون يؤيد القاعدة التى يستأنها من قبل. فإن البنت لم تكن أهلاً لأن ترث ولكن تيسيراً طبيعياً جداً لصرامة هذا المبدأ أدى إلى اعتبار البنت الوحيدة كوسيط يمكن الأسرة من الاستمرار عن طريقه. إنها لم تكن ترث لكن العبادة والميراث كانا ينتقلان عن طريقها.

٣ - توارث الحواشى

إذا مات رجل من غير عقب وأريد معرفة الوارث لأمواله فإنه كان يكفى البحث عن من يجب أن يستمر فى عبادته.

كانت الديانة المنزلية تنتقل بطريق الدم من الذكور إلى الذكور. فكان التناسل فى عمود النسب المذكر هو الذى يقرر دون سواه الصلة الدينية بين رجلين، تلك الصلة التى تسمح لأحدهما بالاستمرار فى عبادة الآخر. وما كانوا يسمونه القرابة لم يكن، كما رأينا أعلاه، سوى التعبير عن هذه الصلة. كانوا أقرباء لأنه كانت لهم نفس العبادة ونفس الموقد فى الأصل ونفس الأسلاف. لكنهم لم يكونوا أقرباء لأنهم خرجوا من بطن أم واحدة.

(١) إيسايوس : ميراث قیرون ١٥٠ ، ١٦٠ ، ٢١٠ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ ، ٢٧٠ .

(٢) لم يكونوا يسمونه حفيداً بل كانوا يطلقون عليه الاسم الخاص θυγατρίδος .

(٣) إيسايوس : ميراث قیرون ٣١ ؛ ميراث ارسطارخوس ١٢ . ديموستينيس :

قضية التاج ٢ : ٢٠ .

فإن الديانة لم تكن تسمح بقراءة عن طريق النساء ولم تكن هناك أية صلة بين أبناء أختين أو أبناء أخت وأخ ولم يكونوا ينتمون لنفس الديانة المنزلية ولا لنفس الأسرة .

كانت هذه المبادئ تنظم ترتيب التوارث . فإذا فقد رجل ابنه وابنته ولم يترك وراءه غير أحفاد فإن الذي يرث هو ابن ابنه وليس ابن ابنته . وعند انعدام الذرية كان يرثه أخوه لا أخته . وعند انعدام الأخوة وأبناء الأخوة كان لابد من الصعود في سلسلة أجداد المتوفى ، في عمود النسب المذكور دائماً ، إلى أن يعثروا على فرع يخرج من الأسرة عن طريق الذكور ثم ينحدرون في ذلك الفرع من ذكر إلى ذكر إلى أن يجدوا رجلاً حياً : ذلك هو الوارث .

كانت هذه القواعد مرعية عند الهنود والإغريق والرومان على السواء . ففي الهند كان الميراث يتبع أقرب ساپندا وعند انعدام الساپندا يتبع السمانوداكا^(١) وقد رأينا أن القرابة التي تعبر عنها هاتان الكلمتان هي القرابة الدينية أو القرابة عن طريق الذكور وكانت تقابل العصبية (الأغناسيو) الرومانية .

وها هو ذا الآن قانون أثينا : «إذا مات رجل من غير عقب فإن الوارث هو أخ المتوفى ما دام له أخ من أبيه فإذا لم يوجد فابن الأخ : إذ أن الإرث ينتقل دائماً للذكور ولذرية الذكور»^(٢) وكانوا في زمان ديموستينيس لا يزالون يذكرون هذا القانون القديم ولو أنه كان قد لحقه التبديل وابتدأوا في ذلك العصر يقبلون القرابة عن طريق النساء .

وكانت اللوحات الإثنتا عشرة تقرر كذلك أنه إذا مات رجل دون وارث تلقائي *hérítier sien* فإن الميراث يتبع أقرب عاصب له . وقد رأينا أنه لا يمكن لأي إنسان أن يكون عاصباً عن طريق النساء . فكان القانون الروماني القديم يحدد أيضاً أن ابن الأخ يرث العم *patruus* أي أخ الأب ولا يرث الخال *avunculus*

(١) قوانين مانو ٩ : ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) ديموستينيس : ضد ماكارثاتوس ٥١ ؛ ضد ليوخاريس . إيسايوس ٧ : ٢٠ .

أى أخ الأم (١) . فإذا ما عدنا إلى الجدول الذى رسمناه لأسرة سقيبيو لاحظنا أن سقيبيو إيميليانوس مات دون ذرية فلا يمكن أن ينتقل ميراثه الى قورنيليا عمته ولا إلى غايوس غراقخوس الذى يعتبر فى آرائنا الحديثة ابن عمته لحاء بل إلى سقيبيو أسياتيقيوس الذى كان فى شرع القدماء أقرب اقربائه .

لم يعد الشارع فى عهد جوستينيانوس يفهم هذه القوانين القديمة فكانت تبدو له مجحفة . وكان يهتم بالصرامة الزائدة قانون اللوحات الإثنى عشرة «الذى كان يؤثر الذرية المذكورة دائماً ويحرم من الميراث أولئك الذين لا يرتبطون بالمتوفى إلا عن طريق النساء» . (٢) شرع مجحف ، إذا شئنا ، إذ أنه لم يكن يحسب حساباً للطبيعة ، لكنه شرع منطقي إلى أبعد الحدود إذ أن نقطة ابتدائه هى أن الارث مرتبط بالعبادة وقد كان يقصى عن الميراث أولئك الذين لم تكن الديانة تسمح لهم بالاستمرار فى العبادة .

٤ - آثار التحرير والتبني

سبق أن رأينا أن التحرير والتبني كان يحدثان تبديلاً فى عبادة الإنسان ، فالأول منهما ينتزعه من العبادة الأبوية والثانى يلقنه ديانة أسرة أخرى . وهنا أيضاً كان الشرع القديم على اتفاق مع القواعد الدينية فالابن الذى أخرجه التحرير من العبادة الأبوية كان يقصى عن الميراث أيضاً (٣) . وعلى العكس فإن الأجنبي الذى اشترك بالتبني فى عبادة أسرة ما كان يصبح ابناً فيها ، ويستمر فى عبادتها ، ويرث أموالها . وفى الحالين كان الشرع القديم يحسب للرباط الدينى حساباً أكبر مما كان يحسبه للرباط المولد .

وحيث أنه كان مناقضاً للدين أن يكون لرجل بذاته عبادتان متزائتان فإنه لم يكن باستطاعته أيضاً أن يرث من أسرتين . ولذا كان الابن المتبنى ،

(١) قواعد (Institutes) ٣ : ٢ : ٤

(٢) شرحه ٣ : ٣ .

(٣) إيسايوس : ميراث أرسطارخوس ٤٥ و ١١ ؛ ميراث أستفيلوس ٣٣ .

الذى كان يرث من الأسرة المتبنية . لا يرث من أسرته الطبيعية . وقد كان الشرع الأثيني صريحاً جداً في هذا الموضوع : فكثيراً ما ترينا مرافعات الخطباء الأثينيين رجالاً تبنتهم أسرة ويريدون أن يرثوا من الأسرات التى ولدوا فيها لكن القانون كان يحول دون ذلك . لأن الابن المتبنى لا يستطيع أن يرث من أسرته الأصلية إلا إذا عاد إليها ولا يستطيع أن يعود إليها إلا إذا تنازل عن الأسرة المتبنية ؛ ولا يستطيع الخروج من هذه الإلحاشطين : أحدهما أن يترك ميراث هذه الأسرة ؛ والآخر ألا تنقطع ، بخروجه منها ، العبادة المنزلية التى تبنى للاستمرار فيها ، ولهذا يجب أن يترك فى هذه الأسرة ابناً يحل محله (١) . وهذا الابن يعنى بالعبادة ويضع يده على الأملاك ، وعندئذ يستطيع الوالد أن يعود إلى الأسرة التى ولد فيها وأن يرث منها . لكن هذا الأب وهذا الابن لا يستطيعان أن يتوارثا : أنهما ليسا من نفس الأسرة ، أنهما ليسا قريبين .

إننا لنتبين جيداً فكرة الشارع القديم عندما قرر هذه القواعد البالغة فى الدقة . لم ير إمكان الجمع بين ميراثين لشخص واحد إذ أنه ليس فى استطاعة نفس اليد أن تخدم ديارتين منزلتين .

٥ - لم تكن الوصية معروفة فى الأصل

كان حق الوصية . أى تصرف المرء فى أملاكه بعد الوفاة لكى تنتقل إلى غير الوارث الطبيعى ، يتعارض مع العقائد الدينية التى كانت أساس حق التملك وحق الإرث . وهل كان فى الاستطاعة التفكير فى الوصية بينما كان التملك ملازماً للعبادة . والعبادة وراثية ؟ هذا ولم يكن الملك تابعاً للفرد بل للأسرة لأن الإنسان لم يحصل عليه بحق العمل بل عن طريق العبادة المنزلية . وباعتباره مرتبطاً بالأسرة كان ينتقل من الميت للحى لا بإرادة الميت واختياره بل بمقتضى القواعد العليا التى أقرتها الديانة .

(١) هاريوخراتيون : تحت لفظ "Οτοι οι ποιητοι" . ديمومثينيس : ضد ليوخاريس

لم يكن الشرع الهندي القديم يعرف الوصية وكان الشرع الأثيني لغاية ضولون يحرمها (١) . ولم يسمح بها. ضولون ذاته إلا لمن لم يخلف عقباً (٢) وقد كانت الوصية محرمة أو مجهولة زمناً طويلاً في اسبرطه ولم يصرح بها إلا بعد حرب البيلوبونيز (٣). وكانوا يذكرون عصراً كان فيه الأمر كذلك في قورنثه وثيبه (٤) ومن المؤكد أن حق المرء في الوصية بأملأكه بطوع هواه لم يكن معترفاً به في البدء كحق طبيعي ، بل كان المبدأ الثابت في العصور القديمة أن كل ملك يجب أن يبقى في الأسرة التي ربطته الديانة بها .

يفسر أفلاطون فكرة المشرعين القدماء تفسيراً واضحاً في رسالته عن القوانين ، وما هي في جزئها الأكبر إلا تعليق على القوانين الأثينية ، يفرض أن رجلاً يطالب وهو على سرير الموت بحقه في التوصية ويصبح : « أيتها الآلهة : أليس من القسوة كل القسوة ألا تستطيع التصرف في ملكي كما أريد ، ولمصلحة من أشاء ، تاركاً نصيباً أوفى لهذا ونصيباً أقل لذلك طبقاً لما أبدوه لي من المودة ؟ » . لكن الشارع يجب هذا الرجل « أنت الذي لا تستطيع أن تمنى نفسك بأكثر من يوم . أنت الذي لا تفعل أكثر من أن تعبر الحياة الدنيا . هل لك أنت أن تقرر مثل هذه المسائل ؟ لست أنت السيد على أملاكك ولا على نفسك ، إنما أنت وأموالك على السواء ملك للأسرة أي لأسلافك وذريتك » (٥) .

الشرع القديم في روما غامض جداً بالنسبة لنا ، وقد كان كذلك بالنسبة لسيسرون . إن ما نعرفه عنه لا يرقى إلى ما وراء اللوحات الإثنتي عشرة ومن المؤكد أنها لم تكن الشرع القديم في روما ، هذا ولم يبق لنا منها إلا بعض بقايا . يصرح هذا القانون بالوصية ، إلا أن القطعة الخاصة بهذا الموضوع قصيرة جداً ومن الواضح أنها ناقصة جداً بحيث لا نستطيع أن نهني أنفسنا بأننا

(١) بلوتارخوس : ضولون ٢١ .

(٢) إيسايوس : ميراث يرهوس ٦٨ . ديموشثينيس : قضية التاج ٢ : ١٤ .

(٣) بلوتارخوس : أغيس ٥ .

(٤) أرسطو : السياسة ٢ : ٣ : ٤ .

(٥) أفلاطون : القوانين ١١ .

نعرف الترتيبات الحقيقية التي رتبها المشرع في هذا الموضوع؛ وإنا لا ندري ما هي التحفظات ولا ما هي الشروط التي استطاع أن يضعها عندما منح الحق في الوصية (١). وليس لدينا قبل اللوحات الإثنى عشرة أى نص قانوني يحرم الوصية أو يسمح بها. لكن اللغة تحتفظ بذكرى زمن لم تكن الوصية معروفة فيه إذ أنها تسمى الابن وارثاً من تلقاء ذاته وضرورياً (٢)، وهذه الصيغة التي لازال يستعملها غايوس وجوستينيانوس، مع أنها لم تكن على وفاق مع تشريع زمانهما، لا ريب في أنها آتية من عصر بعيد لم يكن في الإمكان أن يحرم الابن فيه من الميراث أو أن يرفضه. لم تكن للوالد إذن حرية التصرف في ثروته، ولم تكن الوصية مجهولة جهلاً مطلقاً بل كانت صعبة جداً. فكان لا بد لذلك من إجراءات عظيمة. أولاً، لم تكن السرية ممنوحة للموصي في حياته لأن الرجل الذي يحرم أسرته من الميراث ويتعدى القانون الذي أقامته الديانة يجب أن يفعل ذلك بصفة علنية وفي وضوح النهار، وأن يتحمل في حياته كل البغضاء التي تلازم عملاً كهذا. ولم يكن ذلك كل شيء. إذ كان لا بد أن تلقى إرادة الموصي موافقة السلطة العليا أي الشعب مجتمعاً في ندوات (curies) تحت رئاسة الحبر (٣). ويجب ألا نعتقد أن ذلك لم يكن سوى إجراء أجوف وعلى الأخص في القرون الأولى. هذه الحشود (comices) المجمععة في ندوات

(١) *Uti legassit, ita jus esto*. لو لم يكن لدينا من قانون حولون إلا الألفاظ *διάθεσται ὅπως ἂν ἐθέλῃ* لكنا نظن أيضاً أن الوصية كان مسموحاً بها في جميع الأحوال الممكنة. لكن القانون يضيف *ἂν μὴ παῖδες ὥσι*

(٢) المصطلح اللاتيني لما عربناه بالوارث من تلقاء ذاته هو *heres suus* ومعناه من يرث ذاته لأنه يعتبر مالكا من الأصل بخلاف المصطلح *heres ejus* الذي يدل على من يرث سواء - العرب .

(٣) أليانوس ٢ : ٢ . غايوس ١ : ١٠٢ ، ١١٩ . أولوس جيلبيوس ١٥ : ٢٧ . لا ريب أن الوصية *calatis comitiis* أقدمها استعمالاً ؛ وهي لم تعد معروفة في عصر سيسرون (الخطيب ١ : ٥٣) .

كانت أحفل الاجتماعات في المدينة الرومانية . وأنه لرأى صبياني أن نقول إنهم كانوا يدعون الشعب تحت رئاسة زعيمه الديني لكي يحضر قراءة وصية كمجرد شاهد . ويمكن الاعتقاد بأن الشعب كان يصوت بل إن ذلك كان ضرورياً كل الضرورة لو تأملنا فيه . فقد كان هناك قانون عام يرتب نظام التوارث بطريقة دقيقة ولكي يبدل هذا النظام في حالة خاصة كان لابد من قانون آخر : ذلك القانون الاستثنائي هو الوصية . وإذن لم يكن حق الوصية معترفاً به تماماً للإنسان ، ولم يكن بمستطاع أن يُعترف به ما بقي المجتمع تحت سيطرة الديانة القديمة فإن الرجل الحي لم يكن في عقائد هذه العصور القديمة إلا ممثلاً ، ولبضع سنوات ، لسكائن ثابت خالد هو الأسرة : لم تكن العبادة والتملك إلا وديعة لديه وينتهي حقه عليهما بانتهاء حياته .

٦ - عدم قسمة الميراث في الزمن القديم

يجب أن نعود إلى ما وراء الأزمنة التي احتفظ التاريخ بذكرها ، إلى تلك القرون البعيدة التي استقرت فيها الأنظمة المنزلية وأعدت فيها الأنظمة الاجتماعية . لم يبق من ذلك العصر ولا يمكن أن يبقى أي أثر مكتوب ، لكن القوانين التي كانت تتحكم عندئذ في الناس تركت بعض آثار في شرع العصور التالية .

نميز في تلك العصور السحيقة نظاماً لا بد وأنه قد ساد زمناً طويلاً وكان له أثر عظيم في تكوين الجماعات في المستقبل وبدونه لا يمكن تفسير هذه الجماعات : ذلك هو عدم قسمة الميراث مع نوع من حق البكورة .

كانت الديانة القديمة تقيم فارقاً بين الابن الأكبر والابن الأصغر إذ يقول الأربا القدماء أن « الابن الأكبر ولد للقيام بالواجب نحو الأسلاف وولد الآخرون من الحب » ، وبمقتضى هذا التفوق الأزلي كان للابن الأكبر الامتياز بأن يرأس جميع حفلات العبادة المنزلية بعد موت أبيه . فهو الذي كان يقدم الأكلات الجنازية وهو الذي كان يتلو صيغ الدعاء : « إذ أن حق تلاوة الأدعية يتبع الابن الذي جاء إلى العالم أولاً » فكان الابن الأكبر هو الوارث للأناشيد والمواصل للعبادة ، وهو الرئيس الديني للأسرة . من هذه العقيدة خرجت إحدى

قواعد الشرع : الابن الأكبر فقط يرث الأموال . كذلك يقول نص قديم أدخله آخر محرر لقوانين مانو في قانونه : « يستحوز الابن الأكبر على الميراث بأ كمله ويعيش الأخوة الآخرون تحت سلطته كما كانوا يعيشون تحت سلطة والدهم . يسدد الابن الأكبر الدين للأسلاف وإذن يجب أن يكون له كل شيء » (١).

جاء القانون الإغريقي من نفس العقائد الدينية التي جاء منها الشرع الهندي فليس من المستغرب إذن أن نجد فيه أيضاً في البدء حق البكورة . ففي أسطرطه كانت أنصبة الملك المقررة في البدء غير قابلة للقسمة ولم يكن للابن الأصغر أى نصيب . وكذلك كان في كثير من التشريعات القديمة التي درسها أرسطو إذ أنه يعلمنا أن تشريع ثيبه كان يفرض بصفة قاطعة أن يبقى عدد الأنصبة من الأرض ثابتاً . وكان ذلك يقضى حتماً بعدم القسم بين الإخوة . كما أن قانوناً قديماً في قورنثه كان يريد أن يبقى عدد الأسرات بلا تغيير مما لا يمكن حصوله إلا إذا حال حق البكورة دون تمزيق الأسرات في كل جيل (٢) .

أما عند الأثينيين فيجب ألا نتوقع أن نجد هذا النظام القديم نافذاً في عصر ديموسثينيس . لكن الذي كان لا يزال قائماً في ذلك العصر هو ما كان يسمى امتياز الابن الأكبر (٣) . وفحواه ، فيما يلوح ، هي المحافظة على المنزل الأبوي خارج القسمة ؛ وهي ميزة هائلة من الناحية المادية ، وأعظم منها من الناحية الدينية ، إذ أن المنزل الأبوي كان يحوى موقد الأسرة القديم . فبينما كان الابن الأصغر في عهد ديموسثينيس يذهب ليقود موقداً جديداً ، كان الأكبر وهو الوارث الحقيقي يبقى حائزاً للموقد الأبوي ولقبر الأسلاف . وكان هو وحده أيضاً يحتفظ باسم الأسرة (٤) . تلك بقايا عصر كان هو فيه صاحب الميراث الوحيد

(١) قوانين مانو ٩ : ١٠٥ - ١٢٦ ، ١٠٧ . تغيرت هذه القاعدة القديمة كلما ضعفت الديانة القديمة . وتوجد في مجموعة قوانين مانو مواد تجيز تقسيم التركة بل وتوصي بذلك .

(٢) أرسطو : السياسة ٢ : ٩ : ٧ : ٢ : ٣ : ٧ : ٢ : ٤ : ٤ .

(٣) *Προσβεία* ديموسثينيس : الدفاع عن فورميون ٣٤ . لم تكن الـ *Προσβεία*

في عصر ديموسثينيس إلا كلمة لا معنى لها وكانت التركة تقسم منذ زمن بعد أقساماً متساوية بين الأخوة .

(٤) ديموسثينيس : Demosthène. In Boeotum, de nomine

ويمكن أن نلاحظ أن الإجحاف الذي يخلقه حق البكورة فضلاً عن أنه لم يثر الدهشة في الأذهان التي كان للديانة عليها سلطان كبير، فإنه كان يلفظه الكثير من عادات القدماء. فأحياناً كانت تتبنى الابن الأصغر أسرة أخرى يرث منها وأحياناً يتزوج ابنة وحيدة، وأخيراً كان يتلقى بعض الأحيان نصيب الأرض الذي كان لأسرة انقرضت فإذا عدت كل هذه الوسائل أرسل الأبناء الصغار إلى إحدى المستعمرات.

أما فيما يختص بروما فإننا لا نجد فيها أي قانون يتعلق بحق البكورة. ولكن يجب ألا نستخلص من هذا أنه كان مجهولاً في إيطاليا العتيقة فمن الجائز أنه اختفى وأُحْتُ ذكراه. وما يسمح بالاعتقاد بأنه كان نافذاً فيما وراء الزمن المعروف لنا أنه لا يمكن بدونه تفسير وجود الفصيلة *gens* الرومانية والسابينية. كيف كانت أسرة تستطيع الوصول إلى أن تشمل عدة آلاف من الأفراد الأحرار، كالأسرة كلوديا، أو عدة مئات من المحاربين كلهم من الأشراف كالأسرة فاييا، إذا لم يحافظ حق البكورة على وحدتها خلال سلسلة طويلة من الأجيال، ولم يميز عدددها من قرن إلى قرن بوقوفه حائلاً دون تمزيقها، إن حق البكورة القديم هذا ليدل على وجوده بعواقبه، أو، كما نقول، بأعماله.

هذا ويجب أن نفهم أن حق البكورة لم يكن معناه سلب صغار الأسرة لمصلحة الابن الأكبر. وتفسر مجموعة قوانين مانو معناه عندما تقول: «ليحب الأخ الأكبر إخوته الصغار بعطف الأب لأبنائه»، وعلى هؤلاء بدورهم أن يحترموا كوالدهم. ففي فكر العصور القديمة كان حق البكورة يتضمن دائماً الحياة المشتركة، فلم يكن في جوهره إلا تمتع جميع الأخوة بالأموال متمتعاً مشتركاً بزعامة الأخ الأكبر. فكان يمثل عدم قسمة الميراث كما كان يمثل عدم قسمة الأسرة. ومن هذه الناحية نستطيع أن نعتقد أنه كان نافذاً في أقدم شرع في روما أو على الأقل في عاداتها وأنه كان مصدر الفصيلة (*gens*) الرومانية (١).

(١) احتفظت اللغة اللاتينية القديمة ببقية من عدم القسمة هذا تستحق الإشارة إليها مهما كانت ضعيفة. فكانوا يطلقون كلمة *sors* على النصيب من الأرض، ملك الأسرة. فيقول فستوس *sors patrimonium significat* فكانت كلمة *consortes* تطلق إذن على الذين لم يكونوا سوى شركاء في نصيب من الأرض ويعيشون على نفس الملك. وكانت اللغة القديمة تطلق هذه الكلمة على الإخوة بل وعلى الأقارب من درجة بعيدة نوعاً، شهادة من زمن كان الميراث والأسرة فيه غير قابلين للقسمة (فستوس تحت لفظ *sors*. سيسرون: ضد فريس ٢ : ٣ : ٢٣ تيتوس ليفيوس ٢٧: ٤١. فليوس (Velleius) ١: ١٠. لوكرسيوس (Lucretius) ٣: ٧٧٢: ٦: ١٢٨٠).

الفصل الثامن

السلطة في الأسرة

١ - مبدأ السلطة الأبوية عند القدماء وطبيعتها

لم تتلق الأسرة قوانينها عن المدينة. فلو كانت المدينة هي التي أقامت القانون الخاص لكان من المحتمل أن تضعه بطريقة تختلف اختلافاً كلياً عما رأيناه ، ولنظمت حق الملكية وحق الإرث طبقاً لمبادئ أخرى . إذ أنه لم يكن من مصلحتها أن تكون الأرض غير قابلة للتنازل ، والميراث غير قابل للقسمة. فالقانون الذي يسمح للوالد أن يبيع ابنه، بل أن يقتله ، وهو قانون نجده في بلاد الإغريق كما نجده في روما، لم يكن مما تخيلته المدينة بل كان الأولى أن تقول للوالد : «إن حياة زوجتك وطفلك وحريةكما ليستا ملكاً لك، وأنا أحميهما حتى منك انت ، فلست أنت الذي تخاكمهما والذي تقتلهما إذا ما زلاً ، وسأكون أنا قاضيهما الوحيد» . فإذا كانت المدينة لا تتكلم على هذا النحو فن الظاهر أنها لم تكن تستطيع ذلك لأن القانون الخاص كان موجوداً قبلها وعندما أخذت تدون قوانينها وجدت هذا الشرع قائماً من قبل ، حياً : ممتدة جذوره في العادات ، يشد أزره اتفاق عام ، فقبلته إذ لم تكن تستطيع غير هذا . ولم تجرؤ على تعديله إلا مع الزمن الطويل . لم يكن الشرع القديم من عمل مشرع بل بالعكس كان مفروضاً على الشارع : لقد ولد في الأسرة ، خرج من تلقاء نفسه وتكون بأكمله من المبادئ العتيقة التي كونها . لقد انبثق من العقائد الدينية ، التي كانت مقبولة من الجميع في العصر البدائي لهذه الشعوب، والتي كان لها السلطان على عقول الناس وإرادتهم .

تتكون الأسرة من أب وأم وأطفال وأرقاء . ولا بد أن يكون لهذه المجموعة نظامها مهما كانت صغيرة، فلمن إذن السلطة الأولى ؟ أ للوالد ؟ كلا . ففي كل منزل شيء هو فوق الوالد ذاته : ألا وهو الديانة المنزلية، ألا وهو ذلك الإله

الذى يسميه الإغريق . الموقد السيد *ioia déopoua* ويسميه اللاتينيون *Lar familiae Pater* (١) . هذا المعبود الداخلى ، أو بعبارة أخرى الاعتقاد الكائن فى النفس البشرية ، ذلك هو السلطة التى يقل الجدل فيها عن سواها . وهى التى ستعين المراتب فى الأسرة .

الأب هو الأول بجوار الموقد ، فهو الذى يوقده ويرعاه وهو حبره الأعظم وهو الذى يشغل أعلا الوظائف فى جميع الأعمال الدينية . فهو الذى يذبح الأضحية . وفمه يتلو صيغة الدعاء الذى يجلب له ولذريته حماية الآلهة . وبه تستمر الأسرة والعبادة . وهو وحده الذى يمثل سلسلة الذرية كلها وعليه تعتمد العبادة المنزلية ، ويكاد يستطيع أن يقول كما يقول الهندي : إننى أنا الإله . وعندما يوافيه الموت يصبح كائناً إلهياً تضرع له ذريته .

لم تضع الديانة المرأة فى منزلة لها مثل هذا السمو . حقاً إنها تساهم فى الأعمال الدينية لكنها ليست ربة الموقد لأنها لم تتلق ديانتها من مولدها وإنما لقنها الزواج إياها . لقد تعلمت من زوجها الدعاء الذى تتلوه . وهى لا تمثل الأسلاف لأنها لم تنحدر منهم ولن تصبح هى ذاتها سلفاً . وعند ما توضع فى القبر لا تتلقى عبادة خاصة ، فهى فى الموت كما كانت فى الحياة لاتعد إلا عضواً من زوجها . وتتفق الشرائع الإغريقية والرومانية والهندية على اعتبار المرأة قاصراً على الدوام فهى لا تستطيع أبداً أن يكون لها موقد ، ولا تكون رئيسة للعبادة قط . تعطى فى روما لقب أم الأسرة *materfamilias* لكنها تفقده إذا مات زوجها (٢) وحيث أنه ليس لها موقد خاص بها إطلاقاً فليس لها شيء مما يعطى السلطة فى المنزل . إنها لا تأمر أبداً ، بل إنها ليست حرة ولا سيدة على نفسها *sui juris* على الإطلاق . إنها دائماً بجوار موقد شخص آخر وتكرر دعاء شخص آخر ، وفى جميع أعمال الحياة الدينية لا بد لها من رئيس ، وفى جميع إجراءات الحياة المدنية لا بد لها من وصى .

(١) بلاوتوس : التاجر *Mercator* : ١٠٠ : *Dii Penates familiaeque Lar Pater*
 المعنى الأصلى لكلمة *Lar* هو رب ، أمير ، سيد . أنظر *Lar Porsenna, Lar Tolumnius*
 (٢) Festus, éd. Müller, p. 125: *Materfamilias non ante dicebatur quam vir ejus paterfamilias dictus esset . . . Nec vidua hoc nomine appellari potest.*

يقول قانون مانو، تعتمد المرأة أثناء طفولتها على أبيها وأثناء شبابها على زوجها وعندما يموت زوجها تعتمد على أبنائها. وإذا لم يكن لها ابن فعلى أقرب أقرباء زوجها، إذ أنه لا بد ألا تحكم نفسها مطلقاً وفق هواها (١). وتقول القوانين الإغريقية والرومانية نفس القول. تخضع لأبيها وهي بنت، فإذا مات الأب خضعت لأخوتها ولعصبتها (agnats) (٢). وتكون وهي متزوجة تحت وصاية زوجها. فإذا مات الزوج لا تعود لأسرتها الأصلية إذ أنها بزواجها المقدس قد تنازلت عنها إلى الأبد (٣)؛ فتبقى الأرملة خاضعة لولاية عصبة زوجها أى لأبنائها هي إن وجدوا (٤) أولاً أقرب أقربائه إذا عدم الأبناء (٥). ولزوجها من السلطة عليها ما يمكنه من تعيين وصى عليها قبل موته بل من أن يختار لها زوجاً آخر (٦).

ولكى يبين الرومان سلطة الزوج على المرأة كان لهم تعبير قديم جداً احتفظ به فقهاؤهم ذلك هو لفظ *manus*. وليس من اليسير الكشف عن معناه الأصلي. وقد جعل الشراح منه تعبيراً عن القوة المادية كما لو كانت المرأة موضوعة تحت يد الزوج العنيفة. وهناك شبهة كبيرة في أنهم كانوا واهمين. فإن سلطة الرجل على المرأة لم تكن ناتجة إطلاقاً عن زيادة قوة الرجل، بل كانت مشتقة ككل القانون الخاص من العقائد الدينية التي كانت تضع الرجل فوق المرأة. وبما يدل على ذلك أن المرأة التي لم تزوج طبقاً للشعائر المقدسة، والتي لم تشترك تبعاً لذلك في العبادة، لم تكن خاضعة لسلطة الزوج (٧). لقد كان الزواج هو

(١) قوانين مانو ٥ : ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) ديموشينيس : ضد أونيتور ١ : ٧ ؛ *In Boeotum, de dote* ؛ ضد إوبوليديس ٤ . - إيسايوس : ميراث مينكلييس ٢ و ٣ . ديموشينيس : قضية التاج ٢ : ١٨ .

(٣) تعود إليها في حالة الطلاق : ديموشينيس : ضد إوبوليديس ٤١ .

(٤) ديموشينيس : قضية التاج ٢ : ٢٠ ؛ ضد فاينيوس ٢٧ ؛ ضد كارتاتوس ٧٥ . إيسايوس : ميراث بيرهوس ٥٠ - أنظر الأوديسه ٢١ : ٣٥٠ - ٣٥٣ .

(٥) غايوس ١ : ١٤٥ - ١٤٧ ، ١٩٠ ؛ ٦ : ١١٨ ؛ أولبيانوس ١١ : ٢٧١ .

(٦) ديموشينيس : ضد أفوبوس ؛ الدفاع عن فورميون ٨ .

(٧) سيسرون الجدل (*topica* طويقا) ١٤ ؛ تاسيتوس الحوليات ٤ : ١٦ ؛ أولوس جيلوس ١٨ : ٦ . وسنرى فيما بعد أنه في فترة معينة ولأسباب سنقولها تصوروا أشكالاً جديدة للزواج وجعلوها تنتج نفس الآثار القانونية التي كان ينتجها الزواج المقدس .

الذى يخلق خضوع المرأة وكرامتها في آن واحد؛ إلى هذا الحد كان صحيحاً أن الأسرة لم تكن تنشأ من حق الأقوى !

ولنتقل إلى الطفل . هنا تحدث الطبيعة عن نفسها بصوت مرتفع ، فهي تريد أن يكون للطفل حارس ، مرشد ، وأستاذ . فالديانة على وفاق مع الطبيعة إذ تقول إن الوالد هو الذى سيكون رئيس العبادة ، وعلى الابن فقط أن يعاونه في مهامه المقدسة . لكن الطبيعة لا تتطلب هذا الخضوع إلا لعدد معين من السنين ، أما الديانة فإنها تتطلب أكثر من ذلك ؛ تجعل الطبيعة للابن سنا للرشد لكن الديانة لا تمنحه شيئاً من ذلك . فطبقاً للمبادئ العتيقة كان الموقد غير قابل للقسمة والملك غير قابل لها كذلك . ولا يفصل الإخوة عند موت والدهم ، ومن باب أولى لا يمكن أن يفصلوا عنه أثناء حياته . كانت صرامة الشرع القديم تبقى الأبناء مرتبطين بموقد أبيهم وبناء عليه خاضعين لسلطانه ، وما دام حياً فإنهم قاصرون .

وإننا ندرك أن هذه القاعدة ما كانت لتستطيع أن تستمر إلا ما بقيت الديانة المنزلية في عنفوان قوتها . وهذا الخضوع الذى لا نهاية له من جانب الابن للأب قد اختفى مبكراً في أثينا . أما في روما فإن القاعدة قد حوفظ عليها محافظة المتحرج فلم يستطع الابن إطلاقاً أن يقوم على موقف خاص في حياة أبيه . بل كان دائماً تحت سلطة أبيه حتى وإن تزوج ، حتى وإن أنجب أبناء (١) .

(١) عندما يقول غايوس عن السلطة الأبوية *Jus proprium est civium Romanorum* يجب أن نفهم أنه في زمن غايوس لم يكن الشرع الروماني يعترف بهذه السلطة إلا عند المواطن الروماني . وليس معنى ذلك أنها لم تكن موجودة قبل ذلك في مكان آخر أنه لم يكن معترفاً بها في شرع المدن الأخرى . وسيوضح ذلك مما سنقوله عن المركز القانوني للرعايا تحت حكم روما . وكان الوالد في الشرع الأثيني السابق على صولون يستطيع أن يبيع أبناءه (بلوتارخوس : صولون ١٣ و ٢٣)

هذا وقد كان الأمر في السلطة الأبوية كما كان في السلطة الزوجية . فكان مبدؤها وشرط وجودها هو العبادة المنزلية فالابن المولود من سرية لم يكن تحت سلطة الأب ، ولم يكن بين الأب وبينه مشاركة في الديانة ؛ فلم يكن هناك إذن ما يمنح لأحدهما السلطة ويفرض على الآخر الطاعة . فالأبوة وحدها لا تعطى أى حق للأب .

وبفضل الديانة المنزلية كانت الأسرة هيئة صغيرة منظمة ، جماعة صغيرة لها رئيسها وحكومتها. وليس في مجتمعنا الحديث شيء ما يستطيع أن يعطينا فكرة عن هذه السلطة الأبوية . فإن الوالد في ذلك الزمن العتيق لم يكن يقتصر على أن يكون الرجل القوى الذى يحمى ، والذي بيده السلطة لكى يجعل نفسه مطاعاً ، بل كان الكاهن ووارث الموقد والمتمم لأجداده وأرومة سلالة ، ومستودع الشعائر الخفية للعبادة والصيغ السرية للدعاء . كانت الديانة مستقرة كلها فيه

ونفس الاسم الذى يطلق عليه : *pater* ، يحمل في ذاته معلومات غريبة. واللفظ هو بذاته في اللغات الإغريقية واللاتينية والسنسكريتية . ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن هذا اللفظ يرجع إلى عصر كان أسلاف الإغريق والإيطاليين والهنود لازالوا يعيشون فيه معا في آسيا الوسطى . فإذا كان معناه ؟ وأية فكرة كان يمثلها عندئذ في ذهن الناس ؟ من الممكن أن نعرف ذلك إذ أنه احتفظ بهذا المعنى الأول في صيغ اللغة الدينية وفي صيغ اللغة القضائية ، فعندما كان القدماء يدعون *جوپيتر* ويسمونه *pater hominum Deorumque* لم يكونوا يريدون أن يقولوا إن *جوپيتر* كان والد الآلهة والناس إذ أنهم لم يعتبروه كذلك أبداً، بل على العكس كانوا يعتقدون أن الجنس البشرى كان موجوداً قبله . وكان يطلق نفس اللقب على *نيبتون* و*أبولون* و*بأكخوس* و*فولكان* و*بلوتون* ومن المؤكد أن الناس لم يكونوا يعتبرونهم أباء لهم (١) . وكذلك كان يطلق لقب *mater* على

(١) Aulu-Gelle, V, 12: *Jupiter. . . . Sic et Neptunuspater conjuncte dictus est et Saturnuspater et Marspater*. Lactance, *Instit.*, IV, 3: *Jupiter a precantibus pater vocatur, et Saturnus et Janus et Liber et ceteri* . وكان بلوتون يسمى *Dis Pater* (فارون : اللسان اللاتيني: ٦٦: ٥؛ سيسرون: طبيعة الآلهة ٢: ٢٦). وكان يستعمل نفس اللفظ للإله التير في الأدعية *Tiberine Pater, te, Sancte, precor* (تيتوس ليفيوس، ٢ : ١٠) ويسمى فرجيليوس الإله فولكان *Pater Lemnius* إله لنوس .

مينرثا وديانا وفستا اللواتي اشتهرن بأنهن آلهات عذارى . وكذلك في اللغة القضائية كان يمكن أن يعطى لقب *pater* أو *paterfamilias* لرجل ليس له أولاد وليس متزوجاً بل وفي سن لا تسمح بالزواج (١) . إذن لم تكن فكرة الأبوة مرتبطة بهذا اللفظ وكان في اللغة القديمة لفظ آخر يدل على الوالد دلالة صحيحة وهو قديم مثل لفظ *pater* ولذلك يوجد له مثيل في لغات الإغريق ، *γεννήτης* ، والرومان ، *genitor* ، والهنود ، *gānitar* . وكان لكلمة *pater* معنى آخر يطبق في اللغة الدينية على جميع الآلهة وفي لغة القانون على كل رجل لا يتبع أى شخص آخر وله سلطة على أسرة وعلى ملك *paterfamilias* . ويرينا الشعراء أنهم كانوا يستعملونه لجميع من كانوا يريدون تكريمهم : فكان العبد والمولى يطلقه على سيده وكان مرادفاً للألفاظ *rex, ἀναξ, βασιλεύς* ولم يكن يتضمن معنى الأبوة بل يتضمن معنى القوة والسيادة والرتبة الرفيعة .

إن اطلاق لفظ كهذا على والد الأسرة بحيث استطاع أن يصبح بالتدريج أكثر أسمائه شيوعاً هو بكل تأكيد حدث ذو دلالة بينة ويبدو خطيراً لمن يريد أن يعرف الأنظمة العتيقة . ويكنى تاريخ هذا اللفظ لسكى يعطينا فكرة عن السلطة التي باشرها الأب في الأسرة زمناً طويلاً وعن الشعور المنطوى على التوقير الذي لازمه كحبر أعظم وكسلطان .

٢ - تعداد الحقوق التي كانت تتكون منها السلطة الأبوية

كانت القوانين الإغريقية الرومانية تعترف للأب بتلك السلطة التي لا حد لها والتي خلعتها الديانة عليه من قبل . ويمكن إدراج الحقوق العديدة جداً والمتباينة جداً التي منحتة إياها في ثلاث فئات بحسب ما إذا اعتبرنا أب الأسرة رئيساً دينياً أو صاحب ملك أو قاضياً .

١ - الأب هو الرئيس الأعلى للديانة المنزلية ؛ وهو الذي ينظم كل احتفالات العبادة كما يبدو له ، أو ، على الأصح ، كما رأى والده يقوم بها . وليس في

(١) البيانوس في الديجست ١: ٦: ٤: *Patres familiarum sunt qui sunt suae potestatis, sive puberes, sive impuberes.*

الأسرة من ينازعه في سيادته الكهنوتية ، ولا تستطيع المدينة ذاتها ولا أحبارها أن يغيروا شيئاً ما في عبادته . وباعتباره كاهناً للموقد لا يعترف بأى رئيس . وهو المسؤول باعتباره رئيساً دينياً عن دوام العبادة وبالتالي عن دوام الأسرة وهو الذى يتعلق به دون سواه كل ما يتصل بهذا الدوام ، الذى يعد أول ما يعنى به وأول واجب فرض عليه . ومن هنا جاءت سلسلة بأسرها من الحقوق :

حق الاعتراف بالطفل عند مولده أو إنكاره . هذا الحق تعطيه القوانين الإغريقية للأب (١) كما تعطيه له القوانين الرومانية . وبالرغم مما فيه من همجية فإنه لا يناقض المبادئ التى تقوم عليها الأسرة . فإن المولد لا يكتفى للدخول فى الدائرة المقدسة للأسرة حتى ولو كان خالياً من النزاع بل لابد من قبول الرئيس وتلقين العبادة . طالما أن الطفل لم يشرك فى العبادة المنزلية فإنه لا يعد شيئاً بالنسبة للوالد .

حق طلاق الزوجة ، سواء فى حالة العقم ، إذ يجب ألا تنقرض الأسرة ، أو فى حالة الزنا ، إذ لا بد أن تكون الأسرة والنزوة نقية من كل فساد .

حق تزويج البنت أى التنازل لآخر عن السلطة التى له عليها ، وحق تزويج الابن لأن زواج الابن بهم دوام الأسرة .

حق التحرير ، أى إقصاء ابن عن الأسرة وعن العبادة . وحق التبنى ، أى إدخال أجنبي بجوار الموقد المنزلى .

حق تعيين وصى لزوجته ولأولاده عند موته .

ولابد من ملاحظة أن جميع هذه الحقوق كانت من حق الوالد وحده دون جميع أعضاء الأسرة الآخرين . ولم يكن للمرأة الحق فى الطلاق ، على الأقل فى العصور القديمة . ولم تكن تستطيع حتى وهى أرملة أن تحرر أو تتبنى . ولم تكن إطلاقاً وصية حتى على أبنائها . وفى حالة الطلاق كان الأولاد يبقون مع الوالد حتى البنات منهم . ولم يكن أبنائها تحت سلطتها إطلاقاً . وعند زواج ابنتها لم تكن موافقتها مطلوبة . (٢)

(١) هيرودوت ١ : ٥٩ . بلوتارخوس : الكيبياديس ٢٣ ؛ اغيسيلوس ٣

(٢) ديموشينيس : ضد إيوليديس ٤٠ و ٤٣ . غايوس ١ : ١٥٥ . أوليانوس

٨ : ٨ . القواعد ١ : ٩ . ديحست الكتاب الأول ، الباب ١ : ١١

٢- رأينا فيما سبق أنهم لم يكونوا يتصورون التملك في الأصل كحق فردي ، بل كحق للأسرة . فكانت الثروة تتبع الأسلاف والنرية كما يقول أفلاطون صراحة وكما يقول جميع الشارحين القدماء ضمناً ، ولم يكن هذا الملك يقسم بحكم طبيعته نفسها . فلم يكن بمستطاع أن يوجد في كل أسرة غير مالك واحد ، وهو الأسرة ذاتها ، وغير مستفيع واحد بالثمار ألا وهو الوالد . وهذا المبدأ يفسر عدة نظم في الشرع القديم .

حيث أن الملك غير قابل للقسمة ويقوم بأكمله على الوالد فلا المرأة ولا الولد يملكان شيئاً خاصاً بهما . فقد كان نظام البائنة عندئذ مجهولاً ولا يمكن العمل به . فكانت بائنة المرأة ملكاً للزوج من غير تحفظ وله على أملاك البائنة حقوق المالك لا حقوق المدير لها فحسب . وكل ما تستطيع المرأة أن تحصل عليه أثناء الزواج ينسقط في يد الزوج بل إنها لا تسترد بائنتها عندما تصبح أرملة (١) .

وكان الابن في نفس الحالة التي كانت عليها المرأة : فلم يكن يملك شيئاً وأية هبة يعطيها لم تكن نافذة بسبب أنه لم يكن لديه شيء خاص به . ولم يكن يستطيع أن يكتسب شيئاً ، فكانت ثمار عمله وأرباح تجارته لأبيه . فإذا ما أوصى له أجنبي بشيء فإن أباه هو الذي يتلقى الشيء الموصى به وليس هو . وهذا يفسر نص القانون الروماني الذي يحرم كل عقد بيع بين الأب والابن . فلو أن الوالد باع لابنه لكان بائعاً لنفسه ما دام الولد لا يكتسب إلا لأبيه (٢) . نرى في الشرع الروماني ، ويوجد أيضاً في قوانين أثينا ، أن الوالد كان يستطيع أن يبيع ابنه (٣) ذلك لأن الأب كان يستطيع أن يتصرف في جميع

(١) غايوس ٢ : ٩٨ . كل هذه القواعد من الشرع الأقدم قد غيرها الشرع البريتوري . وكذلك في أثينا في عصر إيسايوس وديموسثينيس كانت تعاد البائنة في حالة انحلال الزواج . ولا تقصد أن نتكلم في هذا الفصل إلا عن الشرع الأقدم .
(٢) ميسرون : القوانين ١ : ٢٠ . غايوس ٢ : ٨٧ . ديجمست : الكتاب ١٨ الباب ١ : ٢

(٣) بلوتارخوس : صولون ١٣ . ديونيسيوس الماليكارنسي ٢ : ٢٦ . غايوس ١ : ١١٧ ، ١٣٢ ، ٦٤ ، ٧٩ . أليانوس ١٠ : ١ . تيتوس ليفيوس ٤١ : ٨ . فستوس تحت لفظ *Deminutus*

الملك الذي كان في الأسرة وأن الولد ذاته كان يمكن اعتباره ملكاً مادام عمله وخراجاه مورد دخل . فكان للوالد الخيار في أن يحتفظ لنفسه بهذه الأداة من أدوات العمل أو أن يتنازل عنها لسواه . والتنازل عنها هو ما كان يسمونه بيع الابن . والنصوص التي لدينا من الشرع الروماني لاتدلنا دلالة واضحة على طبيعة هذا العقد من عقود البيع ولا التحفظات التي كان يمكن أن يحتويها . ويبدو مؤكداً أن الابن الذي يباع هكذا لم يكن يصبح تماماً عبداً للمشتري ، بل كان في استطاعة الوالد أن يشترط بيع الابن له من جديد . وحينئذ كان يحتفظ بسلطته عليه ، وبعد أن يسترده يستطيع أن يبيعه مرة أخرى (١) . وقد سمح قانون اللوحات الإثنتي عشرة بهذه العملية لثلاث مرات ، لكنه أعلن أنه بعد هذا البيع ثلاثاً يحرم الابن في النهاية من السلطة الأبوية (٢) . ويمكن أن نحكم من ذلك كم كانت سلطة الأب مطلقة في الشرع العتيق (٣) .

٣ - نعلم من بلوتارخوس أن النساء في روما لم يكنَّ يستطعن الظهور في ساحة العدل ولو كشاهدات (٤) . وتقرأ في الفقيه غايوس: ويجب أن نعلم أنه لا يمكن في التقاضي التنازل عن شيء للأشخاص الذين هم تحت السلطة أي المرأة والابن والعبد . إذ أنه ما دام هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون أن يكون لهم شيء ما خاصاً بهم فقد استتجوا بحق أنهم لا يستطيعون كذلك أن يطالبوا بشيء ما بطريق التقاضي . فإذا ارتكب ابنك الخاضع لسلطتك جريمة فإن القضية ترفع عليك . والجريمة التي يرتكبها الابن ضد والده لا ينشأ عنها أي

(١) Gaïus, I, 140: *Quem pater ea lege vendidit ut sibi remanciparetur, tunc pater potestatem propriam reservare sibi videtur.*

(٢) *Si pater filium ter venumduit, filius a patre liber esto* (apud Ulpian., fragm., X, 1).

(٣) إذا ارتكب الابن جريمة كان في استطاعة الأب أن يتخلص من مسؤوليته بتسليمه كتعويض للشخص المجني عليه: Gaïus. I, 140; *Quem pater ex noxali causa mancipio dedit, velut qui furti nomine damnatus est et eum mancipio actori dedit. . . hunc actor pro pecunia habet.*

في هذه الحالة يفقد الوالد سلطته (انظر سيسرون: الدفاع عن كيكينا (Caecina) ٣٤؛ الخطيب ١ : ٤٠)

(٤) بلوتارخوس : بوليكلولا (Publicola) ٨

تقاضى» (١). من كل هذا ينتج بوضوح أن المرأة والولد لا يستطيعان أن يكونا مدعين أو مدعى عليهما ولا متهمين ولا شاهدين. فن بين جميع الأسرة لا يستطيع أن يظهر أمام محكمة المدينة سوى الوالد . لأن العدالة العامة غير موجودة إلا له ، ولذلك كان مسئولاً عن الجنايات التي يرتكبها ذووه .

وإذا كانت العدالة بالنسبة للولد وللزوجة غير موجودة في المدينة فما ذلك إلا لأنها كانت في المنزل . وقاضيهما هو رئيس الأسرة ، وهو يجلس كما لو كان في محكمة بمقتضى سلطته الزوجية أو الأبوية ، باسم الأسرة وبمراى من الآلهة المنزلين (٢) .

يروى تيتوس ليفيوس أن مجلس الشيوخ عندما أراد أن يستأصل احتفالات باكخوس (Bacchanales) من روما قرر عقوبة الموت على من ساهموا فيها. وقد نفذ المرسوم بسهولة في المواطنين ، ولكن فيما يختص بالنساء ، ولم يكن أقل الجميع خطيئة ، اعترضت صعوبة خطيرة : فالنساء لم يكن خاضعات لقضاء المدينة ، والأسرة فقط هي صاحبة الحق في محاكمتهن . وقد احترم مجلس الشيوخ هذا المبدأ القديم وترك للأزواج والآباء غيب الحكم على النساء بالإعدام (٣).

وهذا الحق في المقاضاة الذي كان يباشره رئيس الأسرة في منزله كان كاملاً وغير قابل للاستئناف ، فكان يستطيع أن يحكم بالإعدام كما كان يفعل القاضي في المدينة وليس لأية سلطة أن تعدل في قراراته . يقول كاتون الأكبر « الزوج هو قاضى زوجته وليس لسلطته حد فهو يستطيع ما يريد : فإذا ارتكبت خطأ عاقبها ، وإذا شربت خمرأً حكم عليها ، وإذا اتصلت برجل آخر قتلها » . وكذلك كان الشرع فيما يختص بالأبناء . يذكر فاليريوس ماكسيموس شخصاً يدعى اتيليوس (Atilius) قتل ابنته التي أتت بفاحشة . ويعرف الجميع ذلك

(١) غايوس : ٢ : ٩٦ ، ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) جاء وقت غيرت فيه العادات هذه المحكمة فاستشار الوالد جميع الأسرة وأقامها محكمة برئاسة : تاسيتوس : الحوليات ١٣ : ٣٢ . ديجست : السفر ٢٣ الباب ٤ ، أفلاطون : القوانين ٩ .

(٣) تيتوس ليفيوس ٣٩ : ١٨ .

الوالد الذى قتل ابنه شريك كاتيلينا . ١ (١)

والحوادث التى من هذا القبيل متعددة فى التاريخ الرومانى . وإنها لفكرة خاطئة أن نعتقد أنه كان للوالد الحق المطلق فى قتل زوجته وأولاده ، فقد كان قاضيهم وإذا حكم عليهم بالموت فما ذلك إلا بمقتضى حقه فى القضاء . وحيث أن والد الأسرة كان هو الوحيد الخاضع لقضاء المدينة فإنه لم يكن باستطاعة المرأة ولا الابن أن يجدا قاضياً سواه إذ كان هو فى أسرته القاضى الوحيد .

هذا ولا بد من ملاحظة أن السلطة الأبوية لم تكن سلطة تحكمية كما تكون السلطة المستمدة من حق الأقوى بل كان مبدؤها فى العقائد التى كانت فى قرارة النفوس وكانت تجد حدودها فى نفس هذه العقائد . فكان للوالد الحق مثلاً فى إقصاء الابن من أسرته لكنه كان يعلم جيداً أنه إذا فعل ذلك تعرضت الأسرة لخطر الانقراض وتعرضت أرواح هذه الأسرة لأن تهوى فى نسيان أبدى . كان من حقه أن يتبنى الأجنبي لكن الديانة كانت تحرم عليه أن يفعل ذلك إذا كان له ابن . كان الوالد هو المالك الوحيد للأموال ، لكن لم يكن من حقه ، فى البدء على الأقل ، أن يتخلى عنها . كان يستطيع أن يطلق زوجته لكنه لى يفعل ذلك كان يتحتم عليه أن يجرؤ على تحطيم الرباط الدينى الذى أقام الزواج . وهكذا كانت الديانة تفرض على الوالد التزامات بقدر ما كانت تخلعه عليه من حقوق .

ظلت الأسرة العتيقة على هذا المنوال زمناً طويلاً . وقد كانت العقائد التى تنطوى عليها النفوس كافية ، بدون حاجة إلى حق القوة أو إلى نفوذ سلطة اجتماعية ، لتكوينها تكويناً منتظماً ومنحها نظاماً وحكومة وعدلاً ، ولتثبيت القانون الخاص بكل تفاصيله .

(١) كاتون فى أولوس جيلوس ١٠ : ٢٣ ؛ فالريوس ماكسيموس ٦ :

١٠٣ - ٦ . وكذلك كان يسمح القانون الإغريقى للزوج أن يقتل زوجته الزانية (Schol. ad Horat., Sat., II, 7, 62)

ويسمح للوالد أن يبيع بيع الرقيق ابنه الملوثة الشرف (بلوتارخوس : صولون ٢٣) . المقصود بهذا أولوس فولفيوس Fulvius وهو ابن أحد أعضاء مجلس الشيوخ وقد قبض عليه أبوه وهو ذاهب ينضم الكاتيلينا وأعدمه (سالوستيوس : كاتيلينا ٣٩) - العرب

الفصل التاسع

الأخلاق العتيقة في الأسرة

لا يقتصر التاريخ على دراسة الأحداث المادية والأنظمة . فهدف دراسته الحقيقي هو النفس البشرية ؛ وعليه أن يتطلع إلى معرفة ما كانت تؤمن به هذه النفس وتفكر فيه وتشعر به في مختلف عصور حياة الجنس البشري .

وقد عرضنا في أول هذا الكتاب عقائد عتيقة كوَّنها الإنسان عن مصيره بعد الموت . ثم قلنا كيف انتجت هذه العقائد الأنظمة المنزلية والقانون الخاص . بقي أن نبحث في أثر هذه العقائد في الأخلاق في الجماعات البدائية . ومن غير أن نزعم أن هذه الديانة القديمة قد خلقت الإحساسات الخلقية في قلب الإنسان يمكن أن نعتقد على الأقل أنها اشتركت معها فقوتها وأعطاها سلطة أكبر ووطدت سلطاتها على سلوك الإنسان وحقها في توجيهه ، وفي بعض الأحيان أيضاً ضللتها .

كانت ديانة هذه العصور الأولى منزلية خالصة ، وكذلك كانت الأخلاق فلم تكن الديانة تقول للرجل وهي تشير إلى رجل آخر : ها هو ذا أخوك . بل كانت تقول له : هاك أجنبياً ، إنه لا يستطيع أن يساهم في إجراءات موقدك الدينية ولا يستطيع أن يقترب من قبر أسرتك ، إن له آلهة أخرى غير آلهتك . ولا يستطيع أن يرتبط بك بدعاء مشترك ، فإن آلهتك ترفض عبادته وتعتبره عدواً لها ، فهو عدو لك أيضاً .

في ديانة الموقد هذه لا يدعو الرجل المعبود لصالح قوم آخرين قط . فلا يدعوهم إلا لنفسه أو لذويه . وقد بقي مثل إغريق كذا كرى وكبقية لهذه العزلة القديمة من جانب الإنسان في الصلاة فكانوا في عصر پلوتارخوس يقولون للرجل

الأناني: أنت تضحى للموقد (١). يقصدون بذلك: أنت تبتعد عن مواطنك وليس لك أصدقاء وليس أشباهك بشيء عندك. أنت لا تعيش إلا لنفسك وذوبك. كان هذا المثل علامة على زمن كانت فيه كل ديانة حول الموقد ولم يكن أفق الأخلاق والعاطفة يتجاوز دائرة الأسرة الضيقة.

ومن الطبيعي أنه كان للفكرة الخلقية ابتداؤها ومراحل تقدمها كما كان للفكرة الدينية، فكان إله الأجيال الأولى من هذا الجنس صغيراً جداً. ثم جعله الناس أكبر شيئاً فشيئاً. كذلك الأخلاق كانت في البدء جد ضيقة وناقصة نقصاً كبيراً ثم اتسعت اتساعاً غير محسوس إلى أن وصلت، من تقدم إلى تقدم، إلى إعلان واجب المحبة نحو جميع الناس. كانت نقطة ابتدائها هي الأسرة فإن الواجبات قد ظهرت لأنظار الناس لأول مرة تحت فعل عقائد الديانة المنزلية.

ولنتصور ديانة الموقد والقبر هذه وهي في عنفوان شبابها. يرى الإنسان المعبود على مقربة منه: وهو، كالضمير ذاته، يشهد أنه أعماله. كان هذا السكان المستضعف واقعاً تحت أنظار شاهد لا يفارقه فهو لا يشعر إطلاقاً بأنه وحيد فإن له بجواره، في منزله وفي حقله، حماة يعينونه على مشاق الحياة، وقضاة يجازونه على السوء من أعماله. يقول الرومان «إن اللاريس (Lares) آلهة يخشى جانبها مكلفة بعقاب بني البشر والسهر على كل ما يجري بداخل المنزل». - ويقولون أيضاً «البناتيس (Penates) هم الآلهة الذين يجعلوننا نعيش، يغذون أجسامنا، وينظمون أرواحنا». (٢)

وكانوا يحبون أن ينعثوا الموقد بالعفيف (٣). وكانوا يعتقدون أنه كان يأمر الناس بالعفة ويجب ألا يرتكب بمشهد منه أي دنس سواء كانت دناسته مادية أو معنوية. ويبدو أن الأفكار الأولى عن الخطيئة والعقاب والتكفير إنما جاءت من هنا فالرجل الذي يشعر بأنه مذنب لا يستطيع أن يقترب من موقده بعد ذلك. فإن

(١) Παροιμία τῇ ἐστία θύομεν ἐφ' ὧν οὐκ ἐστὶ μεταδοῦναι οὐδὲ ἐξενέγκειν. (١)

*Eoria θύσεις, Pseudo-Plutarch., édit. Duebner, V. 167.

Eustathius in Odys., VII, 247:

(٢) بلوتارخوس: المسائل الرومانية ٥١. ماكروبيوس: ساتورناليا ٣ : ٤

(٣) Ἀγνοῖς ἐστίας βάθροισ Ὀريبيديس: هراكليوس المائج ٧٠٥.

إلهه يصده . فلن يسمح لسافك دم بتقديم قربان ولا إراقة سوائل ولا صلاة ولا أكلة مقدسة . لقد كان الإله من الصرامة بحيث لا يقبل أى عذر . إنه لا يميز بين قتل غير متعمد وبين جريمة مع الاصرار فاليد الملوثة بالدم لن تستطيع أن تمس الأشياء المقدسة (١) . ولكي يستطيع الإنسان أن يعود إلى عبادته ويسترد إلهه كان لا بد له من التطهر بحفلة تكفيرية على الأقل (٢) . إن هذه الديانة تعرف الرحمة . ولها شعائر لمسح أذناس النفس . ومهما كانت ضيقة وجافية فإنها كانت تعرف كيف تعزى الإنسان عن أخطائه ذاتها .

وإذا كانت تجهل واجبات الإحسان جهلاً مطلقاً فإنها كانت ترسم للإنسان على الأقل واجباته نحو الأسرة بوضوح يدعو إلى الإعجاب . كانت تجعل الزواج إلزامياً فإن العزوبة جريمة في نظر ديانة تجعل من دوام الأسرة أول الواجبات وأكثرها قداسة . لكن القرآن الذى تفرضه كان لا يمكن أن يتم إلا بمشهد من المعبودات المنزلية . ذلك هو القرآن الدينى بين الزوج والزوجة ، القرآن المقدس الذى لا فكاك منه . وعلى الإنسان ألا يعتقد أنه مسموح له أن ينبذ الشعائر وأن يجعل من الزواج مجرد عقد برضى الطرفين كما كان الأمر فى أواخر عهد المجتمعين الإغريق والرومان . فإن هذه الديانة العتيقة تحرم عليه ذلك . وإذا تجاسر على فعله عاقبته عليه . إذ أن الولد الذى قد يولد من مثل هذا القرآن يعتبر ثغلاً ، أى كائناً لا مكان له بجوار الموقد ، ولا حق له فى القيام بأى عمل مقدس : إنه لا يستطيع أن يصلى (٣) .

وتسهر نفس هذه الديانة على طهارة الأسرة فأكبر جريمة يمكن أن ترتكب فى نظرها هى جريمة الزنا . إذ أن القاعدة الأولى فى العبادة هى أن الموقد ينتقل

(١) هيرودوت ١ : ٣٥ . فرجيليوس : الإنيد ٢ : ٧١٩ . بلوتارخوس : ثيسبيوس ١٢

(٢) هيرودوت ١ : ٣٥ . أيسخيلوس : حملات السوائل ٩٦ . وقد وصف ابولونيوس الروديسى الاحتفال (Apollonius de Rhode, IV, 704-707)

(٣) إيسايوس : ميراث فيلوكتيمون ٤٧ . ديموشينيس : ضد ما كارتاتوس ٥١ :
Nóthos δὲ μὴ εἶναι ἀγχιωτελᾶν μήθ' ἱερῶν μήθ' ὁρίων
 وكانت ديانة العصور المتأخرة تحرم على ال νόθος أن يقوم بالشعائر ككاهن
 انظر Ross, Inscr. gr., III, 52

من الأب إلى الابن ، والزنا يدخل الاضطراب في نظام المولد . والقاعدة الأخرى أن القبر لا يحوى غير أعضاء الأسرة ، وابن الزنا يعد غريباً يدفن في القبر . إنه اعتداء على كل مبادئ الديانة : فالعبادة دنست والموقد أصبح نجساً وكل قربان أصبح إثمًا ، بل هناك ما هو أدهى من ذلك : يحطم الزنا سلسلة ، الذرية ، فالأسرة قد انقرضت حتى دون أن يعلم الأحياء بذلك ، ولم تعد هناك سعادة إلهية للأسلاف لذا يقول الهندي : « في هذه الحياة وفي الأخرى يبيد ابن الزنا القرابين المقدمة للأرواح . » (١) .

تلك إذن هي العلة في أن قوانين الإغريق وروما كانت تعطى للوالد الحق في إنكار الطفل الوليد . وتلك هي العلة أيضاً في أنها كانت في هذه الدرجة من الصرامة وهذه الدرجة من القسوة على الزنا . في أثينا كان يسمح للزوج بقتل المذنب ، وفي روما كان الزوج باعتباره قاضي الزوجة يحكم عليها بالإعدام . وكانت هذه الديانة من الشدة بحيث لم يكن للإنسان حتى الحق في العفو التام . بل كان مضطراً أن يطلق زوجته على الأقل (٢) .

ها هي إذن القوانين الأولى للأخلاق المنزلية قد وجدت ووضع لها جزاؤها . ها هي ذى ، علاوة على العاطفة الطبيعية ، ديانة أمارة تقول للرجل والمرأة إنهما ارتبطا إلى الأبد ، وإنه تنشأ من هذا القران واجبات دقيقة يجلب نسيانها أخطر العواقب في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى . ومن هنا أتت جدية الارتباط الزوجي عند القدماء وقداسته ، والطهارة التي احتفظت بها الأسرة زمناً طويلاً .

(١) قوانين مانو ٣ : ١٧٥ .

(٢) ديموسثينيس : ضد نيارا ٨٦ . من الحق أنه إذا كانت هذه الأخلاق البدائية تحرم الزنا فإنها لم تكن تنهى عن زواج المحرمات : فكانت الديانة تسمح بذلك . كان التحريم الخاص بالزواج على عكس المتبع لدينا . فكان من المحمود أن يتزوج الإنسان بأخته (قورنيليوس نيبوس : الاستهلال (prooemium) ؛ حياة كيمون c. 1 . منوقيوس فليكس (Minucius Felix) : أوكتافيوس ٣) . لكن الزواج من امرأة من بلدة أخرى كان محرماً من حيث المبدأ .

تفرض هذه الأخلاق المنزلية واجبات أخرى فتقول للزوجة إن عليها أن تطيع ، وللزوج إن له أن يأمر ، وتعلم الإثنيين أن يحترم كل منهما الآخر. للزوجة حقوقها إذ أن لها مكانها بجوار الموقد . فهي المسكفة بالسهر على ألا ينطفىء وهي على الأخص التي يجب عليها أن تكون متنبهة إلى بقاءه طاهراً . وهي تدعوه وتقدم له القرابين (١). فلها إذن سدانته . وحيث لا توجد الزوجة تكون العبادة المنزلية ناقصة وغير وافية ، إنها لمصيبة كبرى للإغريق أن يكون له «موقد محروم من الزوجة» (٢) . وعند الرومان كان حضور الزوجة في القرابين واجباً إلى حد أن الكاهن كان يفقد كهونته إذا ما أصبح أرملًا (٣) .

ويمكن الاعتقاد بأن أم الأسرة كانت مدينة لهذه القسمة في الكهنوت المنزلي بالتبجيل الذي لم ينقطعوا إطلاقاً عن إحاطتها به في المجتمعين الإغريق والرومان. ومن هنا جاء أن المرأة كانت تحمل في الأسرة نفس القلب الذي كان يحمله زوجها . يقول اللاتينيون *paterfamilia, materfamilia* والإغريق *oikodespotes, oikodespoina* والهنود *grihapati grihapatni* . ومن هنا جاءت أيضاً هذه الصيغة التي كانت تتلوها المرأة في الزواج الروماني *Ubi tu Caius, ego Caia* ، وهي صيغة تحدثنا بأنه إذا لم تكن في المنزل مساواة في السلطة فقد كانت فيه على الأقل مساواة في الكرامة . (٤)

(١) Caton, *De re rust.*, 143: *Rem divinam faciat . . . Focum purum, habet.* Macrobe, I, 15, in fine: *Nupta in domo viri rem facit divinam.*

قارن ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢ : ٢٢ .

(٢) اكسينوفون : حكومة اللايديمونيين ٩ : ٥ : *Γυναικὸς κενὴν ἐστίν* .

(٣) بلوتارخوس : مسائل رومانية . ٥ . انظر ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢ : ٢٢ .

(٤) لذلك يخطيء الإنسان كثيراً إذا تكلم عن خضوع المرأة الرومانية المحزن *in manu mariti* فإن كلمة *manus* لا تتضمن فكرة القوة البهيمة بل السلطة ، وتنطبق على سلطة الوالد على البنت أو سلطة الأخ على الأخت كما تنطبق على سلطة الزوج على المرأة . تيتوس ليفيوس ٢ : ٣٤ : *Feminas in manu esse parentum, fratrum, virorum* كانت المرأة المتزوجة سيدة المنزل طبقاً للشعائر؛ ماكروبيوس ١ : ١٥ : نهاية الفقرة : *Nupta in domo viri DOMINIUM adipiscitur* ويعبر ديونيسيوس الهاليكارناسي (٢٥ : ٢) عن مركز المرأة تعبيراً جلياً : «باطاعتها زوجها في كل شيء كانت سيدة المنزل مثله» .

أما الابن فقد رأيناه خاضعاً لسلطة والد يستطيع أن يبيعه وأن يحكم عليه بالإعدام . لكن هذا الابن له دوره في العبادة أيضاً . فله وظيفة يقوم بها في الاحتفالات الدينية ؛ وحضوره في بعض الأيام من الضرورة بحيث كان الروماني الذي لا ابن له مضطراً أن يتبنى بصفة صورية ، ولتلك الأيام ، ابناً للقيام بالشعائر (١) . انظر أية رابطة قوية تقيمها الديانة بين الأب والابن ! كانوا يعتقدون في حياة أخرى في القبر ، حياة سعيدة وهادئة إذا ما قدمت الأكلات الخنازية بانتظام . وهكذا كان الوالد مقتنعاً بأن مصيره بعد هذه الحياة يتوقف على عناية ابنه بقبره ، وكان الابن مقتنعاً من ناحيته أن أباه المتوفى سيصبح يوماً ما إلهاً وأنه سيضرع إليه .

ويمكن أن نحزر كل ما كانت هذه العقائد تضعه في الأسرة من الاحترام والعطف المتبادل . كان القدماء يطلقون على الفضائل المنزلية اسم البر (*pietas*) فكان من البر طاعة الابن لأبيه وحبه لأمه *pietas erga parentes* . وكان من البر كذلك ملازمة الأب لابنه وعطف الأم *pietas erga liberos* . كان كل شيء في الأسرة مقدساً : فالشعور بالواجب والمودة الطبيعية والفكرة الدينية ، كل ذلك كان يمتزج بعضه ببعض ولا يكون إلا شيئاً واحداً ، وتعبّر عنه كلمة واحدة . وقد يبدو غريباً جداً أن يعد حب المنزل بين الفضائل . لكنه كان واحدة منها عند القدماء . كان هذا الإحساس عميقاً وقوياً في نفوسهم . تأملوا أنخيسيس (Anchise) الذي يرى طروادة وهي تحترق ومع ذلك لا يريد أن يغادر مسكنه القديم . تأملوا أوديسيوس (Ulysse) ، الذي تعرض عليه جميع الكنوز بل الخلود وهو لا يريد إلا أن يرى لهيب موقده من جديد . ولتقدم إلى سيسرون ؛ فليس الذي يتكلم هنا شاعراً بل رجلاً من رجال الدولة : «هنا ديانتي ، هنا أرومتي ، هنا آثار آبائي ؛ لا أدري أي سحر هنا يتغلغل في قلبي وجواسي .» (٢) يجب أن نعود بفكرنا إلى أقدم الأجيال لكي ندرك إلى أي حد كانت حادة وقوية هذه المشاعر ،

(١) ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢ : ٢٠ ، ٢٢ .

(٢) سيسرون : القوانين ٢ : ١ ؛ من أجل المنزل ٤١ .

التي كانت قد ضعفت في زمن سيسرون . فالمنزل عندنا ما هو إلا مسكن ، إلا ملجأ ، نهجره وننساه من غير كبير عناء ، وإذا تمسكنا به فما ذلك إلا بقوة العادات والذكريات ، فعندنا أن الديانة ليست هناك . إلهنا إله الكون ، نجده في كل مكان . لكنه كان غير ذلك عند القدماء . فإنهم كانوا يجدون داخل منازلهم معبودهم الرئيسي وملاذهم الذي كان يحميهم فرداً فرداً ويسمع دعاءهم ويستجيب إلى توسلاتهم . أما خارج منزله فلا يشعر المرء بإله ما . وكان إله الجار إلهاً عدواً . فكان الإنسان وقتذاك يحب منزله كما يحب المرء اليوم كنيسته (١) .

وهكذا لم تكن عقائد العصور الأولى بمعزل عن التطور الأخلاقي لهذا الجزء من الإنسانية . فقد كانت هذه الآلهة تفرض الطهارة وتحرم سفك الدماء . فإذا كانت فكرة العدالة لم تولد من هذه العقيدة فإنها على الأقل قد استمدت القوة منها . كانت هذه الآلهة تابعة بالمشاع لجميع أعضاء أسرة بذاتها . وهكذا وجدت الأسرة نفسها متحدة برباط قوى وتعلم كل أعضائها أن يتحابوا وأن يحترم بعضهم بعضاً . كانت هذه الآلهة تعيش داخل كل منزل . فكان الإنسان يحب منزله ، مسكنه الثابت الدائم ، الذي تلقاه عن أجداده ويخلفه لأبنائه كقدس من الأقداس .

كانت الأخلاق العتيقة التي نظمها هذه العقائد تجهل الإحسان لكنها علمت الفضائل المنزلية على الأقل . كانت عزلة الأسرة عند هذا الجنس ابتداء الأخلاق . هنا ظهرت الواجبات واضحة محددة ملزمة لكنها محصورة في دائرة محدودة . ويجب أن نتذكر ، فيما يتلو من هذا الكتاب ، صفة الضيق هذه في الأخلاق الأولى : إذ أن المجتمع المدني الذي تأسس فيما بعد على نفس المبادئ اكتسب بنفس الطابع ؛ وكثير من النواحي الغربية في السياسة القديمة تجد تفسيرها هنا (٢) .

(١) من هنا قداسة المسكن الذي اعتبره القدماء دائماً لا يمكن الاعتداء عليه : ديموشثينيس ضد اندروتيون ٥٢ ؛ ضد إيفرغوس (Evergos) . ٦٠ . ديحست De in jus voc., II, 4 .
(٢) هل هناك حاجة للقول بأننا حاولنا في هذا الفصل أن نضع يدنا على أقدم أخلاق الشعوب التي أصبحت فيما بعد الإغريق والرومان ؛ وهل هناك حاجة لكي نضيف أن هذه الأخلاق قد تغيرت فيما بعد مع الزمن على الأخص عند الإغريق ؟ إنا لنجد حتى في الإلياذة عواطف جديدة وأخلاقاً أخرى ؛ سيبينها ما يتلو من هذا الكتاب .

الفصل العاشر

الفصيلة (Gens) في روما وفي بلاد الإغريق

نجد عند فقهاء الرومان وكتاب الإغريق آثاراً من نظام عتيق يبدو أنه كان في شدة عنفوانه في العصر الأول من المجتمعات الإغريقية والإيطالية ، لكنه ضعف رويداً رويداً ولم يترك غير بقايا لا يكاد يدركها الحس في الجزء الأخير من تاريخها . نريد أن نتكلم عما كان اللاتينيون يسمونه *gens* والإغريق *γένος* كثيراً ما جادلوا في طبيعة الفصيلة (*gens*) وتكوينها؛ وقد لا يخلو من الفائدة أن نتكلم أولاً عن الأصل في صعوبة هذه المعضلة .

كانت الفصيلة (*gens*) ، كما سرى فيما بعد ، تكون هيئة قائمة على نظام متشعب بروح السراة (الأرستقراطية) ، وبفضل نظامها الداخلي استطاع البطارقة (*patriciens*) في روما والنسباء (*Eupatrides*) في أثينا أن يبقوا على امتيازاتهم زمناً طويلاً . وبمجرد أن تغلب الحزب الشعبي لم يتهاون في محاربة هذا النظام القديم بكل قواه . ولو أنه استطاع أن يقضى عليه قضاء تاماً لكان من المحتمل ألا تبقى لنا منه أقل ذكرى . لكنه كان شديد الحيوية ومتأصلاً في الأخلاق بدرجة فذة فلم يكن ليزال إزالة تامة . واكتفوا بتعديله ، بأن نزعوا منه ما كان ميزته الجوهرية، ولم يتركوا منه إلا أشكاله الخارجية التي لم تكن تضايق النظام الجديد في شيء. وهكذا تصور السوق في روما أن يكونوا فصائل (*gentes*) تقليداً للبطارقة . أما في أثينا فقد حاولوا أن يقلبوا الفصائل *γένη* رأساً على عقب وأن يدمجوها معاً ويستبدلوا بها الأحياء (*dèmes*) التي أقاموها على نمطها؛ وسنفسر هذه الأحداث عندما نتكلم عن الثورات . ويكفي أن نلاحظ هنا أن من شأن هذا التعديل العميق، الذي أدخلته حكومة العامة (الديمقراطية) في نظام الفصيلة أن يضل من يريد أن يعرف التكوين الأصلي . إذ أن كل المعلومات التي وصلت

إلينا عنها ترجع إلى العصر الذي كانت قد تحولت فيه ، فهي لا تربينا إلا ما تركته الثورات باقياً منها .

لنفرض أنه في بحر عشرين قرناً قد اختفت كل معرفة بالعصور الوسطى وأنه لم تبق أية وثيقة عما سبق ثورة ١٧٨٩ ، ومع هذا أراد مؤرخ من ذلك العصر أن يكون لنفسه فكرة عن الأنظمة السابقة فإن الوثائق الوحيدة التي تحت يده ستره أشراف القرن التاسع عشر ، أعني شيئاً يختلف اختلافاً جسيماً عن نظام الإقطاعيات . لكنه يتذكر أن ثورة كبيرة وقعت في الفترة بينهما ، ويستنتج من ذلك بحق أنه لا بد أن هذا النظام قد تغير ككل الأنظمة الأخرى . وهذه الطبقة من الأشراف ، التي تربها له نصوصه ، لن تكون في نظره إلا ظلاً ، أوصورة متغيرة جداً ، لطبقة أخرى من الأشراف كانت أقوى منها قوة لانظير لها . ثم إذا هو فحص بانتباه البقايا الضئيلة من هذا الأثر العتيق (بعض تغيرات باقية في اللغة ، وبعض مصطلحات مرقت من القانون ، وبعض ذكريات غامضة أو حسرات غقيمة) فلربما استطاع أن يحزر شيئاً من نظام الإقطاعيات وأن يكون لنفسه فكرة عن القرون الوسطى لا تبعد كثيراً عن الحقيقة . حقاً إن الصعوبة ستكون كبيرة ، وهي ليست أقل بالنسبة لمؤرخ اليوم الذي يريد أن يعرف الفصيلة العتيقة إذ ليست لديه عنها بيانات أخرى غير تلك التي ترجع إلى زمن لم تكن فيه إلا خيالاً لما كانت عليه .

سنبدأ بتحليل كل ما يقوله لنا الكتاب القدماء عن الفصيلة ، أي ما تبقى منها في العصر الذي كانت قد تغيرت فيه ، وبمساعدة هذه البقايا سنحاول أن نستشف النظام الحقيقي للفصيلة (*gens*) العتيقة .

١ - ما نعلمه عن الفصيلة (*gens*) من الكتاب الأقدمين

إذا فتحنا التاريخ الروماني في عصر الحروب البونية وجدنا ثلاثة أشخاص يسمون : كلوديوس پولخر *Claudius Pulcher* وكلوديوس نير و *Claudius Nero* . وكلوديوس كثنو *Claudius Centho* وينتمي الثلاثة جميعاً إلى فصيلة *gens* واحدة هي الفصيلة كلوديا . *gens Claudia*

يقدم ديموستينيس في إحدى مرافعاته سبعة شهود يشهدون بأنهم من *γένος* واحدة وهي فصيلة البريتين (Brytides). والجدير بالملاحظة أن هؤلاء الأشخاص السبعة، المذكورين كأعضاء من نفس الفصيلة، كانوا مقيدون في ستة أحياء (dèmes) مختلفة. وفي هذا دليل على أن الفصيلة لا تقابل الحي بالضبط، ولم تكن مثله مجرد قسم إداري (١).

ما هو ذا الحدث الأول قد ثبتنا منه: كانت هناك فصائل (Gentes) في روما وفي أثينا. ويمكن أن نذكر أمثلة خاصة بعدد كبير من المدن الأخرى من بلاد الإغريق وإيطاليا وأن نستنتج منها بطريق الترجيح أن هذا النظام كان عاماً عند هذه الشعوب القديمة.

كان لكل فصيلة عبادة خاصة. ففي بلاد الإغريق كانوا يعرفون أعضاء الفصيلة (Gens) الواحدة من أنهم كانوا يقدمون القرابين معاً منذ عصر بعيد جداً (٢). ويذكر بلوتارخوس المكان الذي كان يقدم فيه الليقوميديين (Lycomèdes) أصحابهم، ويتكلم أيسخينيس عن مذبج البوتين (Butades) (٣). وفي روما أيضاً كان لكل فصيلة إجراءات دينية تقوم بها. وتحدد ديانتها الخاصة اليوم والمكان والشعائر (٤). هاهم أولاء الغاليون يحاصرون السكايتوليوم وما هو ذا أحد أفراد أسرة فايوس يخرج منه ويحترق خطوط الأعداء مرتدياً الملابس الدينية ويحمل في يده الأشياء المقدسة ويذهب لتقديم القرбан على مذبج فصيلته الواقع على الكويريناليس. وفي الحرب البونية الثانية كان فايوس آخر، وهو الملقب بترس روما، يصمد في وجه هانيبال؛ ومن المؤكد أن الجمهورية كانت في شديد الحاجة إلى عدم تركه جيشها ومع ذلك فقد تركه في يد مينوقيوس

(١) ديموستينيس: ضد نيايرا ٧١. أنظر بلوتارخوس: ثيميستوكليس. أيسخينيس: Hésychius: قضية السفارة ١٤٧ Ross, *Demi Attici*, 24 Boeckh, *Corp. inscr.*, no 385. وكثيراً ما تسمى الفصيلة عند الإغريق *Πάτρα* انظر بنديروس في مواضع متفرقة.

(٢) Harpocration *Γεννηται*: 'Εκάστη τῶν φραιτῶν διήρητο εἰς γένη *Τριάκοντα ἐξ ὧν αἱ ἱερῶσαι αἱ ἐκάστοις προσήκονσαι ἐκλήρουτο.* Hésychius: *Γεννηται*, οἱ τοῦ αὐτοῦ γένος μετέχοντες καὶ ἄνωθεν ἀπ' ἀρχῆς ἔχοντες κοινὰ ἱερά.

(٣) بلوتارخوس: ثيميستوكليس. أيسخينيس: قضية السفارة (De falsa legat., 147)

(٤) Cicéron, *De Arusp. resp.*, 15 ديونيسيوس الهاليكارناسي ١١ : ١٤ . فستوس تحت لفظ *propadi* طبعة ميلر ٢٣٨

(Minucius) الأهوج . ذلك لأن عيد تقديم القربان عند فصيلته قد حان وكان لا بد له من الإسراع إلى روما ليقوم بالعمل المقدس (١) .

وكان لا مفر من أن تستمر هذه العبادة من جيل إلى جيل ، وكان من الواجب أن يترك المرء أبناء من بعده لكي يستمروا فيها . ترك كلوديوس وهو خصم شخصي لسيرون فصيلته لكي يدخل في أسرة سوقية فقال له سيرون : «لماذا تترك ديانة فصيلة كلوديا تنقرض بسبب سوء تصرفك ؟ » . (٢)

ولم يكن آلهة الفصيلة *Dii gentiles* يشعرون بسواها أو يريدون أن يدعوهم غيرها . وما من غريب يستطيع أن يقبل في حفلاتها الدينية . فكانوا يعتقدون أنه إذا حصل أجنبي على جزء من الأضحية بل إذا حضر القربان فقط فإن آلهة الفصيلة تغضب ويصبح جميع أعضاء الفصيلة تحت وزر إثم خطير .

وكما كان لكل فصيلة عبادتها وأعيادها الدينية ، فقد كان لها أيضاً قبرها المشترك . فنقرأ في مرافعة لديموسثينيس : «عندما فقد هذا الرجل أبنائه دفنهم في قبر آبائه ، في هذا القبر المشترك بين جميع أهل فصيلته » ؛ ويدل سياق المرافعة على أنه ما من أجنبي يمكن أن يدفن في هذا القبر . وفي خطبة أخرى يتكلم نفس الخطيب عن القبر الذي تدفن فيه طائفة البوسيليين (Busélides) أعضاءها والذي تقدم فيه كل عام قرباناً جنازياً : «مكان الدفن هذا حقل على شيء من السعة يحيط به سور حسب العادة القديمة» . (٣)

وكذلك كانت الحال عند الرومان . فيتكلم فيليوس (Velléius) عن قبر الفصيلة كوينتيليا (gens Quintilia) ونخبرنا سويتونيوس بأن قبر فصيلة كلوديا (gens Claudia) كان على سفح أكمة الكايتوليوم (٤) .

يعتبر شرع روما القديم أن أعضاء الفصيلة أهل لأن يرث بعضهم بعضاً . وتقضى اللوحات الإثنتا عشرة أنه في حالة انعدام الأبناء والعصبة (agnats) ، يصبح

(١) تيتوس ليفيوس ٥ : ٤٦ ؛ ٢٢ : ١٨ . فاليريوس ماكسيموس ١ : ١١ : ١١ .
بوليبوس ٣ : ٩٤ . بلينيوس ٣٤ : ١٣ . ماكروبيوس ٣ : ٥ .

(٢) سيرون : من أجل المنزل ١٣

(٣) ديموسثينيس : ضد ما كارتاتوس ٧٩ ؛ ضد إوبوليديس ٢٨ .

(٤) سويتونيوس : طيريوس ١٠١ . فيليوس (Velléius) ٢ : ١١٩

عضو الفصيلة (*gentilis*) وارثاً طبيعياً : فعضو الفصيلة في هذا الشرع هو أقرب من القريب عن طريق الدم (*cognat*) أى أقرب من الأقرباء عن طريق النساء (١).

ما من شيء أكثر ارتباطاً بعضه ببعض من أعضاء الفصيلة ، فهم متحدون في القيام بنفس الاحتفالات المقدسة ويتعاونون في كل مطالب حاجات الحياة. فالفصيلة بأكملها ضامنة لدين الفرد من أعضائها ؛ تقتدى الأسير وتدفع غرامة المحكوم عليه وإذا أصبح أحد ذويها من أصحاب المناصب تكتب لدفع النفقات التي يتطلبها منصبه (٢) .

يصحب المهمل كل أعضاء فصيلته إلى المحكمة : وتلك علامة على التضامن الذي يقيمه القانون بين الرجل والهيئة التي ينتمى إليها . وإنه لعمل مناف للديانة أن يقاضى المرء رجلاً من فصيلته ، بل أن يشهد عليه . كان رجل يدعى كلوديوس شخصية هائلة وخصماً شخصياً لأپيوس كلوديوس (*Appius Claudius*) أحد أعضاء مجلس العشرة (*decemvir*). فلما حوكم هذا الأخير وهدد بالموت تقدم كلوديوس ليدافع عنه واستعطف الشعب له ، بيد أنه لم يفته التنبه إلى أنه إذا كان قد قام بهذا المسعى فإن ذلك لم يكن من باب المحبة بل من باب الواجب (٣).

إذا لم يكن لعضو من الفصيلة الحق في استدعاء عضو آخر أمام قضاء المدينة فما ذلك إلا لأنه كان له قضاء آخر في الفصيلة ذاتها . فقد كان لكل واحدة منها عميد هو قاضيا وكاهنًا وقائدها الحربي معاً (٤) . وإنا لنعرف أنه عندما جاءت أسرة كلوديوس السابينية لتقيم في روما كان الثلاثة آلاف شخص الذين كانت تتكون منهم يطيعون رئيساً واحداً . ونرى فيما بعد ، عندما تسكفل آل فاييوس بالقيام بالحرب وحدهم ضد سكان فييس (*Véies*) ، أنه كان لهذه الفصيلة رئيس

(١) غايوس ٣ : ١٧ . ديجمست ٣ : ٣ : ١

(٢) تيتوس ليفيوس ٥ : ٣٢ . ديونيسيوس الهاليكارناس : القطعة ١٣ : ٥٥ .
أبيانوس : هانيبال ٢٨ .

(٣) تيتوس ليفيوس ٣ : ٥٨ ، ديونيسيوس الهاليكارناس ١١ : ١٤ .

(٤) ديونيسيوس الهاليكارناس ٢ : ٧

يتكلم باسمها أمام مجلس الشيوخ ويقودها لملاقاة العدو (١) .

وفي بلاد الإغريق أيضاً كان لكل فصيلة عميد . تشهد بذلك النقوش المكتوبة ، وترينا أن هذا العميد كان يحمل بصفة عامة لقب زعيم (archonte) (٢) . وأخيراً كان للفصيلة مجامعها في روما كما في بلاد الإغريق وكانت تصدر مراسيم يتحتم على أعضائها الخضوع لها وتحترمها المدينة ذاتها (٣) .

تلك كانت مجموعة العادات والقوانين التي لا تزال نجد لها نافذة في العصور التي كانت الفصيلة قد ضعفت فيها وتكاد أن تستبدل بطبيعتها طبيعة أخرى . تلك هي بقايا هذا النظام العتيق (٤) .

٢ - مناقشة بعض الآراء التي أبديت لتفسير الفصيلة gens الرومانية

اقترحت عدة مذاهب في هذا الموضوع المعروض لمجادلات العلماء منذ زمن طويل . يقول البعض إن الفصيلة ما هي إلا تماثل في الأسماء ؛ وعند آخرين أن الفصيلة ما هي إلا تعبير عن الصلة بين أسرة لها الولاية وأسرّة أخرى موالية لها . وكل من هذين الرأيين يتضمن جزءاً من الحقيقة لكنه ما من واحد منهما يقابل كل سلسلة الوقائع والقوانين والعادات التي عدناها آنفاً .

(١) ديونيسيوس الهالكارناسي ٩ : ٥

(٢) Boeckh, Corp. inscr., nos 397, 399. Ross, Demi Attici, 24

(٣) تيتوس ليفيوس ٦ : ٢٠ . سويتونيوس : طيريوس Ross, Demi Attici, 24

(٤) حاول سيسرون أن يعرف الفصيلة : *Gentiles sunt qui inter se eodem nomine sunt, qui ab ingenuis oriundi sunt, quorum majorum nemo servitutem servivit* (Cic., Topiques 6). هذا التعريف ناقص ، فهو يشير إلى بعض علامات خارجية أكثر مما يشير إلى صفات جوهرية . ويبدو أنه كانت لسيرون ، الذي كان من طبقة السوقة ، آراء مبهمّة جداً عن الفصيلة في العصور العتيقة فيقول (Tusculanes, I, 16) إن الملك سرفيوس تيليوس كان *gentilis* معه :

(*meo regnante gentili*) وأن شخصاً يدعى فروكينوس (Varrucinus) يكاد يكون

gentilis مع فريس (Verrès) (ضد فريس ٢ : ٧٧) .

وفي نظرية أخرى تدل كلمة فصيلة على نوع من القرابة المصطنعة : فالفصيلة هي مجموع سياسي من عدة أسر كانت في الأصل غريبة بعضها عن بعض . ولما كانت صلة الدم مفقودة فقد أقامت المدينة بينها اتحاداً وهمياً وقرابة مصطلحاً عليها .

وأول اعتراض على ذلك هو أنه إذا لم تكن الفصيلة سوى اجتماع مصطنع فكيف تفسر أنه كان لأعضائها حق التوارث فيما بينهم . ولماذا يفضل عضو الفصيلة (*gentilis*) على القريب عن طريق الدم (*cognatus*) ؟ لقد رأينا فيما سبق قواعد الإرث وبيننا أية صلة وثيقة وضرورية كانت تقيمها الديانة بين حق الارث وبين القرابة عن طريق الذكور . فهل يجوز الظن بأن القانون القديم كان يتعد عن هذا المبدأ إلى حد أن يمنح التركة لأعضاء الفصيلة لو أن هؤلاء كانوا غرباء بعضهم عن بعض .

أبرز مميزات الفصيلة ، والمحقق منه أكثر من سواه ، هو أن للفصيلة عبادة في ذاتها كما كان للأسرة عبادتها . فإذا بحثنا فيما هو الإله الذي كانت تعبده كل واحدة منها لاحظنا أنه دائماً سلف مؤله ، وأن المذبح الذي كانت تحمل إليه القرابين ما هو إلا قبر . ففي أثينا ييجل الإيمولبيون (*Eumolpides*) إيمولپوس (*Eumolpos*) أرومة جنسهم ، ويعبد الفيتاليون (*Phytalides*) فيتالوس (*Phytalos*) ، والبوتيون بوتس (*Butès*) ، والبوسيليون بوسيلوس (*Busélos*) ، واللاكياتيون (*Lakiades*) لاكيس (*Lakios*) ، والأمينانديون (*Amynandrides*) ككروپس (*Cecrops*) (١) . وفي روما ينحدر آل كلوديوس من كلوسوس (*Clausus*) ، ويمجد الكيكيليون (*Caecilius*) البطل كيكلولوس (*Caeculus*) باعتباره رأس جنسهم ، والكالپورنيون (*Calpurnius*) من يدعى كالپوس (*Calpus*) ، واليوليون (*Julius*) شخصاً يدعى يولوس (*Julus*) ، والكليليون (*Cloelius*) من يدعى كليلوس (*Cloelus*) (٢) .

(١) ديموشينيس : ضد ما كارتاتوس ٧٩ . بوسانياس ١ : ٣٧ . قش الأميناندرين اقتبسه روس Ross ص ٢٤ .

(٢) فستوس تحت الألفاظ : *Caeculus, Calpurnii, Cloelia*

حقاً إنه مسموح لنا أن نعتقد أن الكثير من سلاسل الأنساب هذه قد اختلقت فيما بعد . لكنه يجب الاعتراف بأن هذه الخدعة ما كانت تجد مبرراً لو لم تكن العادة الثابتة لدى الفصيلة الحقيقية أن تعترف بسلف مشترك وأن تؤدي له العبادة . فإن الكذب يسعى دائماً لتقليد الحقيقة .

هذا ولم يكن ارتكاب الخدعة هيناً كما يبدو لنا . فإن هذه العبادة لم تكن صيغة جوفاء للتظاهر . فقد كانت هناك قاعدة من أكثر قواعد الديانة صرامة تحتم ألا يمجّد كسلف إلا أولئك الذين يتحدر المرء منهم حقيقة . وكان تقديم هذه العبادة لأجنبي إثماً خطيراً . فإذا عبدت الفصيلة سلفاً مشتركاً فما ذلك إلا لأنها كانت تعتقد بإخلاص أنها متحدرة منه . أما تقليد القبر وتزييف الأعياد والأكلات الجنازية فمعناه إدخال الكذب في أقدم ما لديهم والاستهزاء بالدين . مثل هذا الاختلاق كان ممكناً في عصر قيصر عند ما أصبحت ديانة الأسرات القديمة لا تحرك ساكناً في أحد . لكننا إذا انتقلنا إلى الزمن الذي كانت هذه العقائد قوية فيه فإننا لا نستطيع أن نتصور أن عدة أسرات قد اتحدت في مخادعة واحدة وقالت لنفسها : سنتظاهربأن لنا سلفاً واحداً ونقيم له قبراً ونقدم له أكلات جنازية وتعبده ذريتنا في جميع العصور التالية . مثل هذه الفكرة لم يكن يجوز أن تعرض للأذهان أو كان يجب أقصاؤها كفكرة خاطئة .

في العضلات الصعبة التي كثيراً ما يجود بها التاريخ يستحسن أن نتلمس في مصطلحات اللغة كل المعلومات التي تستطيع أن تعطيها ، فقد يفسر اللفظ كنه المنظمة التي كان يطلق عليها . ولفظ *gens* هو بالضبط لفظ *genus* إلى درجة أنه كان من المستطاع استعمال الواحد بدل الآخر وأن يقال *gens Fabia* و *genus Fabium* بلا فارق بينهما (١) وكلاهما يقابل الفعل *gignere* والاسم *genitor* مقابلة تامة كما أن *γένος* تقابل *γενναί* و *γονεύς* وكل هذه الألفاظ تحمل في ذاتها فكرة البنوة . كما أن الإغريق كانوا يطلقون على أعضاء الفصيلة لفظ *ὁμογάλακτες* ومعناه الراضعون من نفس اللبن (٢) . فلنقارن بجميع هذه الألفاظ تلك

(١) تيتوس ليفيوس ٢ : ٤٦ : *Genus Fabium*

(٢) Philochore, dans les *Fragm. hist. graec.*, t. 1. p. 399: *Γεννῆται*, οἱ ἐκ τοῦ αὐτοῦ τῶν τριάκοντα γένων, οἷς καὶ πρότερόν γησι γιλόχορος ὁμογάλακτας καλεῖσθαι. - Pollux VIII, 11 : Οἱ μετέχοντες τοῦ γένους γεννῆται καὶ ὁμογάλακτες.

التي تعودنا أن نترجمها بكلمة أسرة: في اللاتينية *familia* وفي الإغريقية *Oikos* ،
لا هذه ولا تلك تحمل في ذاتها معنى التناسل أو القرابة. فإن معنى *familia* الحقيقي
هو المِلك . فهي تدل على الحقل ، المنزل ، المال ، الأقرباء . ولهذا تقول
اللوحات الإثنتا عشرة عند الكلام على الوارث : *familiam nancitor* ليأخذ التركة .
أما *Oikos* فمن الواضح أنها لا تعرض في الذهن أية فكرة غير فكرة الملك أو
المزول ومع ذلك فإن هذه الألفاظ هي التي نترجمها عادة بكلمة أسرة . فهل من
المقبول أن ألفاظاً معناها الذاتي مسكن أو ملك قد استطاعت أن تستعمل في
كثير من الأحيان للدلالة على الأسرة بينما كلمات أخرى معناها الذاتي بنوة
ومولد وأبوة لم تكن تدل إطلاقاً إلا على تجمع مصطنع ؟ من المجزوم به أن
ذلك لا يتفق مع وضوح اللغات القديمة ودقتها . ولا ريب أن الإغريق
والرومان كانوا يعلقون على الألفاظ *gens* و *γένος* فكرة أصل مشترك ، ويجوز
أن تكون هذه الفكرة قد محيت عندما تغيرت الفصيلة لكن الكلمة ظلت
باقية لتكون شاهداً عليها .

فالمذهب الذي يمثل الفصيلة كتجمع مصطنع يجد ضده : أولاً ، التشريع
القديم الذي يعطى لعضو الفصيلة (*gentilis*) حق الإرث ؛ ثانياً ، العقائد الدينية
التي لا تريد مشاركة في العبادة إلا حيث توجد مشاركة في المولد ؛ ثالثاً ،
مصطلحات اللغة التي تدل على أن في الفصيلة أصلاً مشتركاً . وفي هذا المذهب
عيب آخر وهو افتراضه أن الجماعات البشرية قد استطاعت أن تبدأ كنتيجة
لاتفاق أو لحيلة وهو ما لا يستطيع علم التاريخ أن يقبله كشيء صحيح .

٣ - الفصيلة *gens* هي الأسرة عندما كانت لا تزال حافظة لنظامها الأصلي ووحدةها .
كل شيء يعرض الفصيلة علينا كما لو كان يجمع بينها رباط المولد . فلنستفتِ
اللغة مرة أخرى : أسماء الفصائل في بلاد الإغريق كما في روما موضوعة في
الصيغة المستعملة في اللغتين لأسماء الأبوة : كلوديوس *Claudius* معناه ابن كلوسوس
(*Clausus*) وبوتاديس ابن بوتس *Butès*

يبدأ أولئك الذين يعتقدون أنهم يرون في الفصيلة تجمعاً مصطنعاً من نقطة
خاطئة فهم يظنون أن الفصيلة تشمل دائماً عدة أسرات لها أسماء مختلفة ويؤثرون

التمثل بالفصيلة قورنيليا (Cornélia) التي كانت تشمل في الحقيقة آل سقيپيو (Scipio) وآل لنتولوس (Lentulus) وآل قوسوس (Cossus) وآل سيلّا (Sylla). لكن الأمر أبعد من أن يكون كذلك دائماً. إذ يبدو أنه لم يكن للفصيلة ماركيا Marcia غير فرع واحد على الدوام. ولا نرى إلا فرعاً واحداً فقط في الفصيلة لوكريتيا (gens Lucretia) والفصيلة كوينتيليا (gens Quintilia) لزمّن طويل. ومن الصعب جداً بكل تأكيد أن نقول ما هي الأسرات التي كونت فصيلة فاييا (gens Fabia)؛ إذ من الجلي أن جميع آل فاييوس المعروفين في التاريخ كانوا ينتمون لطبقة واحدة؛ في البدء كانوا يحملون جميعاً نفس اللقب فايولانوس (Vibulanus) ثم استبدلوا به جميعاً لقب امبوستوس (Ambustus) ثم استعملوا بدله فيما بعد لقب ماكسيموس (Maximus) أو دورسو (Dorso).

من المعروف أن العادة في روما هي أن يحمل كل بطريق ثلاثة أسماء. فكان أحدهم مثلاً يتسمى پوبليوس قورنيليوس سقيپيو (Publius Cornélius Scipio) وليس من العيب أن نبحث أي هذه الأسماء الثلاثة كان يعتبر الاسم الحقيقي. لم يكن پوبليوس سوى اسم وضع في المقدمة *praenomen*، وسقيپيو اسم مضاف *agnomen*، والاسم الحقيقي *nomen* هو قورنيليوس. وهذا الاسم هو في نفس الوقت اسم الفصيلة (gens) بأكملها. فلو لم يكن لدينا غير هذا البيان الوحيد عن الفصيلة العتيقة لكان كافياً لكي نوّكد أنه كان هناك أشخاص باسم قورنيليوس قبل أن يوجد أشخاص اسمهم سقيپيو، وليس كما يقال أحياناً أن أسرة سقيپيو انضمت لأسرات أخرى لكي تكون الفصيلة قورنيليا.

والواقع أننا نرى من التاريخ أن الفصيلة قورنيليا ظلت زمناً طويلاً غير منقسمة وأن كل أعضائها كانوا يحملون اللقب (cognomen) مالوغينسيس (Maluginensis) واللقب قوسوس (Cossus). وفي عصر الدكتاتور كاميلوس Camille فقط اتخذ أحد فروعها لقب سقيپيو. وبعد ذلك بقليل اتخذ فرع آخر لقب روفوس (Rufus) الذي استبدل به

فيما بعد لقب سيلّا (Sylla) . ولم يظهر آل لتولوس (Lentulus) إلا في زمن الحروب السامنية وآل كيثيغوس (Cethégus) إلا في الحرب الهونية الثانية. وكذلك كان الحال في الفصيلة كلوديا . ظل آل كلوديوس متحدين زمناً طويلاً في أسرة واحدة ويحملون جميعاً لقب ساينوس (Sabinus) أو ريغيلنيسيس (Regillensis) علامة على أصلهم. ويمكن أن تتبعهم خلال سبعة أجيال دون أن تتبين فروعاً في هذه الأسرة الكثيرة العدد . وإنما في الجيل الثامن فقط ، أي في عصر الحرب الهونية الأولى ، نرى ثلاثة فروع يتفصل بعضها عن بعضها وتتخذ ثلاثة ألقاب تصبح وراثية فيها: أولئك هم آل كلوديوس بولخر (Claudius Pulcher) الذين استمروا خلال قرنين من الزمان ، وآل كلوديوس كثنو (Claudius Centho) الذين لم يلبثوا أن انقرضوا ، وآل كلوديوس نيرو (Claudius Nero) الذين استمروا إلى زمن الإمبراطورية .

يتبين من كل هذا أن الفصيلة لم تكن تجمع أسرٍ بل كانت هي الأسرة ذاتها وكان في استطاعتها على السواء ألا تحوي غير سلسلة نسب واحدة أو أن تنتج عدة فروع . فما هي إلا أسرة واحدة على الدوام .

هذا ومن السهل أن تتبين تكوين الفصيلة العتيقة وطبيعتها إذا مارجعنا إلى العقائد القديمة والأنظمة القديمة التي لاحظناها أعلاه . بل إن الإنسان ليعترف أن الفصيلة مشتقة اشتقاقاً طبيعياً من الديانة المنزلية ومن القانون الخاص في الأزمنة القديمة . وفي الواقع ماذا تقرر هذه الديانة الأولى؟ تمجيد السلف ، أي الرجل الذي كان أول من دفن في القبر ، تمجيداً أبدياً كإله ، واجتماع النرية كل عام بجوار المكان المقدس الذي يرقد فيه ليقدموا له الأكلة الجنازية . هذا الموقد المشتعل على الدوام ، هذا القبر الذي يمجّد دوماً بالعبادة ، ذلك هو المركز الذي تأتي جميع الأجيال لتعيش حوله والذي به تبقى كل فروع الأسرة ، مهما كان عددها ، مجتمعة في شراكة واحدة . ثم ما ذا يقول القانون الخاص في تلك العصور القديمة؟ رأينا ، بينما نحن نلاحظ ما كانت عليه السلطة في الأسرة القديمة ، أن الابن لم يكن يتفصل عن الوالد؛ ولاحظنا ، عند دراسة قواعد انتقال

الميراث ، أن الإخوة الصغار لم يكونوا ينفصلون عن الأخ الأكبر بفضل مبدأ المشاركة في الملك . فالموقد والقبر والميراث ، كل ذلك كان غير قابل للقسمة في الأصل . وكذلك كانت الأسرة بالتبعية ؛ لم يكن الزمن ليمزقها . تلك الأسرة غير القابلة للقسمة ، والتي كانت تمتد على مدى العصور مخلّدة عبادتها واسمها من قرن إلى قرن ، تلك هي الفصيلة العتيقة . كانت الفصيلة هي الأسرة ، لكنها الأسرة التي احتفظت بالوحدة التي تأمرها بها ديانتها ، والتي بلغت كل كل التطور الذي سمح لها القانون الخاص القديم ببلوغه (١) .

إذا ما قبلنا هذه الحقيقة فإن كل ما يقوله لنا الكتاب القدماء عن الفصيلة يصبح واضحاً . ولن يكون في ذلك التضامن الوثيق الذي لاحظناه بين أعضائها منذ هنيئة ما يدعو إلى العجب : فهم أقرباء من حيث المولد ، والعبادة التي

(١) حاجة إلى العودة إلى ما قلناه أعلاه (الكتاب الثاني الفصل الخامس) عن العصبية (*agnatio*) ؛ وقد استطعنا أن نرى أن العصبية وعضوية الفصيلة (*gentilitas*) تصدران عن نفس المبادئ ، وهما قرابة من نفس القبيل . والفقرة من قانون اللوحات الإثنتي عشرة التي تجعل الميراث من نصيب أعضاء الفصيلة عند انعدام العصبية قد حيرت الفقهاء وجعلتهم يظنون أن هناك فارقاً جوهرياً بين هذين النوعين من القرابة ولكن هذا الفارق لا يرى في أي نص . فكان الإنسان عاصباً (*agnatus*) كما كان عضواً في الفصيلة (*gentilis*) عن طريق الذرية المذكرة والروابط الدينية . ولم يكن بين الاثنين فارق إلا في الدرجة وقد أصبح واضحاً على الأخص ابتداء من الفترة التي انفصلت فيها فروع الفصيلة الواحدة بعضها عن بعض . فكان العاصب عضواً من الفرع ، وعضو الفصيلة عضواً من الفصيلة . وعندئذ تقرر بين مصطلحي عضو الفصيلة والعاصب نفس الفرق الذي كان بين لفظي فصيلة (*gens*) وأسرة (*familia*) . يقول أولبيانوس (أولبيانوس ، في ديجيست السفر . ٥ الباب . ١ الفقرة ١٩٥) : *familiam dicimus omnium agnatorum* . فإذا كان المرء عاصباً بالنسبة لرجل ما فانه من باب أولى يكون عضو فصيلة (جنتيليا) معه . لكنه من المستطاع أن يكون المرء عضو فصيلة من غير أن يكون عاصباً . وكان قانون اللوحات الإثنتي عشرة يعطي الإرث عند انعدام العصبية لمن لم يكونوا إلا أعضاء فصيلة (جنتيلين) بالنسبة للمتوفى أي لأولئك الذين كانوا من نفس الفصيلة التي ينتمى إليها دون أن يكونوا من فرعه أو أسرته . وسنرى فيما بعد أنه قد دخل في الفصيلة عنصر أقل مرتبة وهم الموالى : من هنا تكونت رابطة قانونية بين الفصيلة وبين المولى . وهذه الرابطة الدينية تسمت أيضاً *gentilitas* فعند سيسرون مثلاً (الخطيب ١ : ٣٩) يدل التعبير *jus gentilitatis* على الصلة بين الفصيلة والمولى . وبذلك دل نفس اللفظ على شيئين يجب ألا نخطئ بينهما .

يشتركون في القيام بها ليست خيالاً بل أنت إليهم من أسلافهم . وبما أنهم من أسرة واحدة فإن لهم مدفناً مشتركاً . ولنفس السبب يعلن قانون اللوحات الإثنى عشرة أنهم أهل لأن يتوارثوا فيما بينهم . وبما أنه كان لهم جميعاً في الأصل ميراث واحد غير قابل للقسمة فقد كانت العادة بل الضرورة تقضى أن تكفل الفصيلة بأكملها دين الواحد من أعضائها وأن تدفع فدية الأسير أو غرامة المحكوم عليه . كل هذه القواعد قامت من تلقاء نفسها عندما كانت الفصيلة لا تزال محتفظة بوحدةها . فلما تمزقت الفصيلة لم تستطع هذه القواعد أن تحتفي تماماً . وقد بقيت من هذه الوحدة العتيقة المقدسة بين أفراد هذه الأسرة سمات لا تزول ، في القربان السنوي الذي كان يجمع أعضائها المشتتين ، وفي التشريع الذي كان يعترف لهم بحق الإرث ، وفي الأخلاق التي كانت توصيهم بالتعاون فيما بينهم .

كان من الطبيعي أن يتسمى أعضاء الفصيلة الواحدة بنفس الاسم وهو أيضاً ما حدث . فاستعمال الاسم الأبوي للأسرة يرجع إلى هذه الفترة السحيقة ويرتبط بشكل ظاهر بهذه الديانة القديمة . فكانت كل فصيلة تتداول اسم السلف من جيل إلى جيل وتبقى عليه بنفس العناية التي تبقى بها على عبادته . فما يسميه الرومان *nomen* ، أى الاسم بالمعنى الصحيح ، إنما هو اسم السلف الذي كان على كل الذرية وعلى كل أعضاء الفصيلة أن يتسموا به . ثم جاء يوم استقل فيه كل فرع من بعض النواحي وميزَ تفرُّدَه باتخاذ لقباً (*cognomen*) . هذا ولما كان على كل شخص أن يمتاز بتسمية خاصة فقد أصبح لكل واحد اسمه المضاف (*agnomen*) مثل غايوس (*Caius*) وكوينتوس (*Quintus*) . لكن الاسم الحقيقي هو اسم الفصيلة ، وهو الذي كانوا يتسمون به بصفة رسمية ؛ وهذا الاسم كان مقدساً ، وهو الذي كان يرتقى إلى أول سلف معروف ولذا كان لا بد أن يبقى ما بقيت الأسرة وآلتها . - وكذلك كانت الحال في بلاد الإغريق . فالرومان والإغريق متشابهون في هذه النقطة أيضاً . فقد كان لكل إغريقي ؛ على الأقل إذا انتمى إلى أسرة قديمة وذات نشأة منتظمة ، ثلاثة أسماء ؛ مثله في هذا مثل البطريق في روما . كان أحد هذه الأسماء خاصاً به ، والآخر اسم أبيه ، وبما أن هذين الاسمين

كانا يتابعان عادة فيما بينهما فإن مجموع الإثنين كان يساوى اللقب (cognomen) الوراثى الذى كان يطلق فى روما على أحد فروع الفصيلة ؛ وأخيراً الاسم الثالث وهو اسم الفصيلة بأكملها . وبذلك كانوا يقولون كيمون بن ملتياديس اللاكيادى *Κιμων Μιλτιάδου Λακιάδης* وكان اللاكياديون يولفون فصيلة *γένος* كما كان القورنيليون يولفون فصيلة *gens* ، وكذلك كان البوتيون *Butades* والفيتاليون *Phylatides* والبريتيون *Brytides* والاميناندريون *Amynandrides* وهلم جرا . ويمكن ملاحظة أن بنداروس لا يمدح أبطالهدون أن يذكر اسم الفصيلة التى ينتمون إليها . وكان ينتهى هذا الاسم فى العادة عند الإغريق بالمقطع *ων* و *ωνος* وبذلك كانت له صيغة الصفة . وكذلك كان اسم الفصيلة عند الرومان ينتهى بالمقطع *ius* على الدوام . ولا يمنع هذا من أنه كان الاسم الحقيقى . فى اللغة اليومية كان يمكن أن يشار إلى الشخص بلقبه الفردى لكن فى اللغة الرسمية السياسية ، أو الدينية ، كان لابد من إعطاء الشخص تسمية كاملة ويتحتم ، على الأخص ، ألا ينسى اسم الفصيلة *γένος* (١) . ومما هو جدير بالملاحظة أن تاريخ الأسماء عند القدماء قد سلك مسلكاً يختلف اختلافاً كلياً عما سلكه فى الجماعات المسيحية . كان الاسم الحقيقى فى القرون الوسطى لغاية القرن الثانى عشر هو اسم المعمودية أو الاسم الفردى ولم تأت أسماء العائلات إلا فيما بعد باعتبارها أسماء أراض أو ألقاب . ولقد كان الأمر على العكس تماماً عند القدماء . وهذا الاختلاف إذا ما تنبها إليه يعود إلى اختلاف الديانتين . ففى اعتبار الديانة المنزلية القديمة كانت الأسرة هى الهيئة الحقيقية والكائن الحقيقى الذى لم يكن الفرد إلا عضواً منه لا يمكن انفصاله : لذا كان اسم الأسرة هو الأول من حيث التاريخ والأول من حيث الأهمية . وعلى العكس كانت الديانة الجديدة تعترف للفرد بحياة خاصة وحرية تامة واستقلال شخصى محض ولم تكن تستنكف قط من عزله عن الأسرة لذلك كان اسم المعمودية هو الاسم الأول وبقى الاسم الوحيد زمناً مديداً ،

(١) حقاً إن حكم العامة (الديموقراطية) قد أحل اسم الحى محل اسم الفصيلة *γένος* وقد كان ذلك نوعاً من التقليد للقاعدة العتيقة والاستحواز على *هينوس* ليفيوس

٤ - امتداد الأسرة : الرق والولاء

إن ما رأيناه من الأسرة ، ومن ديانتها المنزلية ، ومن الآلهة الذين اصطنعهم والقوانين التي منحها لنفسها ، وحق البكورة الذي قامت على أساسه ، ووحدةها ، وتطورها من عصر إلى عصر إلى أن كونت الفصيلة *gens* ، وقضاؤها ، وكهوتها وحكومتها الداخلية ، كل ذلك يوجه أذهاننا ، بالرغم منا ، نحو فترة أولى كانت الأسرة فيها مستقلة عن كل سلطة عليا ولمّا تكن المدينة قد وجدت فيها .

فلنتأمل هذه الديانة المنزلية : هذه الآلهة التي لم تكن تنتمي إلا لأسرة واحدة ولم تكن تقوم بدور العناية الآلهية إلا في داخل منزل ، وهذه العبادة التي كانت سرية ، هذه الديانة التي لم تكن ترغب في الانتشار ، وهذه الأخلاق العتيقة التي كانت تفرض عزلة الأسرات : إنه لمن الجلي أن عقائد من هذا القبيل لا يمكن أن تنشأ في أذهان الناس إلا في فترة لم تكن المجتمعات الكبيرة قد تكونت فيها بعد . فإذا كانت العاطفة الدينية قد قنعت فيما يختص بالإلهيات بفكرة بالغة هذا المبلغ من الضيق فما ذلك إلا لأن المجتمع الإنساني كان عندئذ متناسباً معها في الضيق . فإن الزمن الذي لم يكن الإنسان يعتقد فيه إلا في الآلهة المنزلين هو أيضاً الزمن الذي لم تكن توجد فيه غير الأسرات . ومن الحق البين أن هذه العقائد كانت تستطيع أن تبقى بعد أن تكونت المدن والأمم ، ولزمن مديد ، لأن الإنسان لا يتحرر بسهولة من الآراء التي تسلطت عليه يوماً من الأيام . وإذن فقد استطاعت هذه العقائد أن تستمر ولو أنها كانت عندئذ مناقضة للحالة الاجتماعية . وفي الواقع ، أي شيء أكثر تناقضاً من أن يعيش الناس في مجتمع مدني بينما لكل أسرة آلهتها الخاصة ؟ ألا إنه من الواضح أن هذا التناقض لم يكن موجوداً على الدوام وإن هذه العقائد كانت تطابق حالة الناس الاجتماعية مطابقة دقيقة في الوقت الذي استقرت فيه في الأذهان وبلغت فيه من القوة ما يجعلها ديانة . هذا والحالة الاجتماعية الوحيدة التي يمكن أن تتفق معها هي تلك التي كانت تعيش فيها الأسرة مستقلة منزلة .

هذه هي الحال التي يبدو أن الجنس الآري قد عاش فيها زمناً طويلاً . تشهد بذلك أناشيد القيدا فيما يختص بالفرع الذي أنتج الهنود . وتشهد به العقائد القديمة والقانون الخاص القديم عند أولئك الذين أصبحوا فيما بعد الإغريق والرومان .

إذا قارنا الأنظمة السياسية لأريا الشرق مع أنظمة أريا الغرب فإننا لانكاد نجد أى تشابه . أما إذا قارنا الأنظمة المنزلية لهذه الشعوب المتباينة فإنه يترأى لنا أن الأسرة كانت مكونة وفقاً لنفس المبادئ في بلاد الإغريق وفي الهند على السواء . هذا وقد كانت تلك النتائج ، كما لا حظنا أعلاه ، فذة في طبيعتها بحيث لا نستطيع الظن بأن هذه المشابهة كانت وليدة المصادفة . وأخيراً لا تقتصر الحالة على تشابه هذه الأنظمة بجلاء بل يغلب أن تكون الألفاظ التي تدل عليها هي بذاتها في اللغات المختلفة التي كان يتكلمها هذا الجنس من نهر الكانج إلى نهر التير . ويمكن أن نستخلص من ذلك خلاصتين : إحداهما أن نشأة الأنظمة المنزلية في هذا الجنس كانت سابقة للفترة التي انفصلت فيها الفروع المختلفة ، والأخرى أن نشأة الأنظمة السياسية كانت على العكس متأخرة عن هذا الانفصال ؛ فقد تحددت الأولى منذ الزمن الذي كان الجنس لا يزال يعيش فيه في مهده العتيق في آسيا الوسطى ، وتكونت الثانية رويداً رويداً في الأقاليم المختلفة التي قادتها الهجرة إليها .

يمكن إذن أن تترأى لنا فترة طويلة لم يعرف الناس فيها أى نظام للمجتمع غير الأسرة . وفي ذلك الوقت نشأت الديانة المنزلية التي لم يكن في الاستطاعة أن تولد في مجتمع قائم على نظام آخر ، بل التي لا بد أنها كانت عقبة في طريق التطور الاجتماعى زمناً طويلاً . وفي ذلك الوقت أيضاً تكوّن القانون الخاص القديم الذي وجد نفسه فيما بعد غير متفق مع مصالح مجتمع على شىء من السعة لكنه كان منسجماً كل الانسجام مع الحالة الاجتماعية التي ولد فيها .

لنضع أنفسنا فكرياً وسط هذه الأجيال العتيقة التي لم تستطع ذكرها أن تبيد إبادة تامة ، تلك التي خلفت عقائدها وقوانينها للأجيال القادمة . كان لكل أسرة ديانتها وآلهتها وكهنوتها ؛ كانت العزلة الدينية قانونها ؛ وكانت

عبادتها سرية . لم تكن الأسرات يختلط بعضها ببعض حتى في الموت أو في الوجود الذي يعقب الموت . كانت كل منها تستمر تعيش على حدة في قبرها الذي يقصى عنه الأجنبي . وكان لكل أسرة ملكها أى نصيبها من الأرض الذي تربطها به ديانتها ارتباطاً لا انفصام له : فآلة التخوم (Termes) تحرس سورها، وأرواحها تسهر عليه . وكان عزل الملكية إلزامياً إلى حد أنه لم يكن في الإمكان أن يكون للمكين حدود مشتركة بل يجب أن يترك بينهما نطاق من الأرض يكون محايداً ويبقى معصوماً من الاعتداء . وأخيراً كان لكل أسرة رئيسها كما يكون للأمة ملكها ، ولها قوانينها التي لا ريب في أنها لم تكن مكتوبة لكن العقيدة الدينية كانت تنقشها في قلب كل رجل ؛ ولها قضاؤها الداخلي الذي ليس فوقه قضاء يمكن الاستئناف أمامه . كانت الأسرة تملك في ذاتها كل ما يحتاج إليه الإنسان احتياجاً شديداً لحياته المادية أو لحياته المعنوية فلا حاجة بها لشيء من الخارج ، إنها دولة منظمة ومجتمع يكفى نفسه .

لكن أسرة العصور القديمة هذه لم تكن محدودة بالنسبة التي عليها الأسرة الحديثة . فإن الأسرة تتمزق وتضيق وتضيق في المجتمعات الكبيرة ؛ لكنها ، عند انعدام أية جماعة أخرى ، تمتد وتتطور وتتفرع دون أن تنقسم ، ويبقى الكثير من الفروع الصغرى مجتمعاً حول فرع أكبر بالقرب من الموقد الوحيد والقبر المشترك .

وهناك عنصر آخر يدخل أيضاً في تكوين هذه الأسرة العتيقة . فإن الحاجة المتبادلة ، حاجة الفقير للغنى وحاجة الغنى للفقير قد خلقت الخدم . لكن الخدم والعبيد ، في هذا النوع من الأنظمة الأبوية ، سيان . وإن الإنسان ليدرك ، في الحقيقة ، أن مبدأ الخدمة الحرة المبني على الرضا، والتي تستطيع أن تنقطع على هوى الخادم . لا يمكن أن تتفق مع حالة اجتماعية تعيش فيها الأسرة منعزلة . فضلاً عن أن الديانة المنزلية لا تسمح بقبول أجنبي في الأسرة . فلا بد إذن من أن يصبح الخادم بطريقة ما عضواً أجزءاً متمماً لتلك الأسرة ، وهو ما يمكن الوصول إليه بنوع من تلقين العبادة المنزلية للوافد الجديد .

وترينا عادة غريبة دامت زمناً طويلاً في البيوت الأثينية كيف كان يدخل العبد في الأسرة . كانوا يجعلونه يقرب من الموقد ، يضعونه في حضرة المعبود

المنزلى ، ويسكبون ماء النار على رأسه ، ويقسم مع الأسرة بعض الكعك والفواكه (١) . وفى هذا الاحتفال ما يشبه احتفال الزواج أو احتفال التبنى . ولا ريب أنه كان يعنى أن الوافد بالحديد الذى كان غريباً بالأمس قد أصبح من الآن عضواً فى الأسرة وسيتدين بديانته . لذلك كان العبد يشهد الأدعية ويشارك فى الأعياد (٢) . فالموقد يحميه وديانة الآلهة اللاريس أصبحت له كما هى لسيده (٣) ، ولهذا كان من الواجب دفن العبد فى مدفن الأسرة .

لكن مجرد حصول الخادم على العبادة والحق فى الدعاء كان يفقده حرته فقد كانت الديانة غلا يقيد ، وكان يرتبط بالأسرة طول حياته وحتى على مدى الزمن الذى يتلو الموت .

كان فى استطاعة سيده أن يخرج من الخلعة الوضيعة ويعامله كرجل حر . لكن الخادم لم يكن ليترك الأسرة لذلك . فإنه لم يكن فى مقدوره ما دام مرتبطاً بها برباط العبادة أن يفصل عنها دون أن يرتكب إثماً . لهذا كان يستمر ، تحت اسم العتيق أو المولى ، فى الاعتراف بسلطة الرئيس أو المولى ولا تنقطع التزاماته نحوه ، إنه لا يتزوج إلا بموافقة السيد ، والأطفال الذين

(١) ديموشينيس: قضية التاج ١: ٧٤. أرسطوفانيس: بلوتوس *Plutus* ٧٦٨. يشير هذان الكاتبان إشارة جلية إلى احتفال ما لكنهما لا يصفانه . ويضيف شارح أرسطوفانيس بضع تفاصيل. انظر فى أيسخيلوس كيف تسقى كلتيمسترا (*Clytemnestre*) أمة جديدة : « ادخل هذا المنزل ما دام جويتر يريد أن تشاركى فى إراقة ماء النار مع عبيدى الآخرين بجوار موقدى المنزل (أيسخيلوس : أغاممنون ١٠٣٥ - ١٠٣٨) »

(٢) . أرسطو : السياسة ١: ٥ : « أنه يجب القيام بالقرايين والأعياد للعبيد أكثر مما يجب للأحرار » . ويقول سيسرون : القوانين ٢: ٨ : *Ferias in famulis habento* : « كان محرماً جعل العبيد يعملون فى أيام الأعياد (سيسرون : القوانين ٢ : ١٢) .

(٣) سيسرون : القوانين ٢: ١١ : *Neque ea, quae a majoribus prodita est cum dominis tum famulis religio Larum, repudianda est.* بل كان فى استطاعة العبد أن يقوم بالعملية الدينية باسم سيده (كاتون : الفلاحة ٨٣) .

يولدون منه يستمرون في الطاعة (١) .

وهكذا كان يتكون في باطن الأسرة الكبيرة عدد معين من الأسرات الصغيرة الموالية أو التابعة . وكان الرومان ينسبون نظام الولاء إلى رومولوس كما لو كان في الإمكان أن يكون نظام من هذا القبيل من عمل رجل واحد . نظام الولاء أقدم من رومولوس ، فضلاً عن أنه كان موجوداً في كل مكان في بلاد الإغريق وفي إيطاليا أيضاً (٢) . وليست المدن هي التي أقامته ونظمتها بل على العكس منرى فيما بعد أنها انتقصته شيئاً فشيئاً ودمرته . فإن نظام الولاء من أنظمة القانون المنزلي ، وقد وجد في الأسرات قبل أن توجد المدن .

يجب ألا نحكم على نظام الولاء في الأزمنة العتيقة من حال المولى الذين نراهم في زمن هوراسيوس . فن الواضح أنه أتى على المولى دهر طويل كان فيه خادماً ملحقاً بالمولى . لكن كان هناك شيء عندئذ يحفظ له كرامته : لقد كان له نصيب في العبادة ، وكان مشتركاً في ديانة الأسرة . كان له نفس الموقد ونفس الأعياد ونفس الأشياء المقدسة (*sacra*) التي كانت لوليه . وفي روما كان يتخذ اسم الأسرة علامة على هذه المشاركة الدينية . فكان يعتبر عضواً فيها عن طريق التبنى . ومن هنا رباط وثيق وتبادل في الواجبات بين المولى والمولى . أصغروا إلى القانون الروماني القديم : وإذا ألحق المولى أذى بمولاه فعليه اللعنة (*sacer esto*)

(١) عن التزامات العطاء في القانون الروماني انظر

Digeste, XXXVII, 14, De jure patronatus; XII, 15. De obsequiis parentibus et patronis praestandis; XIII, 1, De operis libertorum

كان الشرع الإغريقي فيما يختص بالعق والولاء أكثر تبكيراً في التبديل من الشرع الروماني . لذلك لم يبق لنا إلا القليل جداً من العلومات عن الحالة القديمة لهذه الطبقات من الناس . مع ذلك انظر ليسيوس Lysias في هارپوقراتيون (Harpocraton) تحت لفظ *Ἀποστασία* ، وخرمسيوس (Chrysippe) في أثيناوس (Athénée) ٩ : ٩٣ ، وقرة غربية في أفلاطون : القوانين ١١ ص ٩١٥ . يتبين من ذلك أنه كان على المعتق دائماً واجبات نحو سيده السابق .

(٢) عن الولاء عند السابينيين : تيتوس ليفيوس ٢ : ١٦ ؛ ديونيسيوس ٥ : ٤٠ ؛

وعند الأتروسك : ديونيسيوس ٩ : ٥ ؛ وعند الإغريق *ἔθος ἑλληνικὸν καὶ ἀρχαῖον* ؛ ديونيسيوس ٢ : ٩

ولميت» (١) . كان على الولي أن يحمي مولاه بكل الوسائل وكل القوى التي تحت تصرفه : بدعائه ككاهن ، وبرمحه كمحارب ، وبقانونه كقاض. وفيما بعد عندما أصبح قضاء المدينة يستدعى المولى أمامه كان على الولي أن يدافع عنه ، كان عليه أن يكشف له عن صيغ القانون الخفية التي تجعله يكسب قضيته (٢) . كان في استطاعة المرء أن يشهد أمام القضاء على قريبه عن طريق الدم (cognatus) لكنه لا يستطيع ذلك مع المولى (٣) . وقد استمروا بعد ذلك يعتبرون الواجبات نحو الموالى أعلى بكثير من الواجبات نحو أقارب الدم (٤) . لماذا ؟ ذلك لأن قريب الدم كان مرتبطاً عن طريق النساء فقط فلم يكن قريباً ولم يكن له نصيب في ديانة الأسرة . والمولى على العكس من ذلك ، كانت له المشاركة في العبادة فكان على الرغم من كل ضعفه صاحب القرابة الحقيقية التي تتكون حسب تعبير أفلاطون من عبادة نفس الآلهة المنزلية .

الولاء رباط مقدس كونه الديانة وما من شيء يستطيع أن يفصمه . وبمجرد ما يصير المرء مولى لأسرة فإنه لا يستطيع أن يخلع نفسه منها لأن ولاء تلك الأزمنة الأولى لم يكن صلة اختيارية وطارئة بين رجلين ، بل صلة وراثية ، فالإنسان مولى بحكم الواجب من أب إلى ابن (٥) .

(١) قانون اللوحات الإثنتي عشرة اقتبس منه سرفيوس ad Aen., VI, 609 انظر فرجيليوس Aut fraus innexa clienti . عن واجبات الأولياء انظر ديونيسيوس ١٠: ٢ .
(٢) Clienti promere jura هوراسيوس : رسائل ١: ٢: ٤٠٤ . سيسرون : الخطيب ٣ : ٣٣

(٣) Caton, dans Aulu - Gelle, V, 3; XXI, 1: Adversus cognatos pro cliente testatur: testimonium adversus clientem nemo dicit.

(٤) Aulu - Gelle, XX, 1: clientem tuendum esse contra cognatos.

(٥) في رأينا أن هذه الحقيقة تبرز بروزاً تاماً من روايتين نقلتا إلينا: إحداهما نقلها بلوتارخوس والأخرى نقلها سيسرون عند مادعي غ . هرينيوس C. Herennius ليشهد ضد ماريوس احتج بأنه مناقض للقواعد العتيقة أن يشهد الولي على مولاه . ولما ظهرت عليهم الدهشة لوصفه ماريوس بالمولى وهو الذي كان فيما سبق عريقاً للشعب (tribun) أضاف بأن الحقيقة أن «ماريوس وأسرته كانا منذ أقدم الأزمنة موالى

نرى من كل ذلك أنه كان في استطاعة الأسرة ، في أقدم الأزمنة ، بفرعها الأكبر وفروعها الصغرى وخدمها ومواليها ، أن تكون مجموعة من الرجال كثيرى العدد . وعلى مر الزمن ، كانت تصل الأسرة إلى تكوين جماعة على جانب كبير من الاتساع ولها رئيسها الوراثى ، وذلك بفضل ديانتها التى كانت تحفظ وحدتها وبفضل قانونها الخاص الذى جعلها غير قابلة للقسمة وبفضل قوانين الولاء التى تمسك بخدمها . ويبدو أن الجنس الآرى كان يتكون ، خلال سلسلة طويلة من القرون ، من عدد لا حده من جماعات من هذا القبيل . وهذه الآلاف من المجموعات الصغيرة كانت تعيش منعزلة لا يربط بعضها ببعض إلا القليل من الصلات ، وليس ببعضها أدنى حاجة إلى البعض الآخر إذ لا يربط بينها أى رابط دينى أو سياسى ، لكل منها ملكها وحكومتها الداخلية وآلهتها .

لأسرة هرنىوس .» وقد قبل القضاة العذر ، لكن ماريوس الذى لم يكن تواقاً لأن ينزل إلى هذا الوضع أجاب أنه قد تحرر من الولاء منذ اليوم الذى انتخب فيه لأحد المناصب ، ويضيف المؤلف «أن ذلك لم يكن صحيحاً بالمرة فليس كل منصب يحرر من حالة الولاء وليس هناك غير المناصب الندوية (magistratures curules) التى لها هذه الميزة» (بلوتارخوس : حياة ماريوس هـ) . فكان الولاء إذن ، فيما عدا هذا الاستثناء الوحيد ، إجبارياً ووراثياً ؛ نسي ماريوس ذلك ، لكن آل هرنىوس كانوا يتذكرون . — يذكر سيسرون قضية تقاضى فيها فى زمانه آل كلودىوس وآل ماركيلوس (Marcellus) . اعتمد الأولون على الشرع القديم وادعوا باعتبارهم رؤساء لفصيلة كلوديا (gens Claudia) أن آل ماركيلوس كانوا موالى لهم ؛ ولا جدوى من أن هؤلاء كانوا منذ قرنين فى الصف الأول فى الدولة . فقد استمر آل كلودىوس فى الدفاع بأن رابطة الولاء لا يمكن أن تكون قد انقضت . — يسمح لنا هذان الحدثان اللذان بقيا بمنجاة من النسيان بأن نحكم على ما كان عليه الولاء فى العصور الأولى .

الكتاب الثالث

المدينة



الفصل الأول

الأخوية (Phratric) والندوة (Curie) القبيلة (Tribu)

لم نقدم للآن أى تاريخ ولا نزال عاجزين عن تقديم أى تاريخ . فإنه أيسر لنا، فى تاريخ هذه المجتمعات العتيقة، أن نسمّ العصور بتوالى الآراء والأنظمة من أن نسمها بتوالى السنين .

لقد جعلتنا دراسة القواعد القديمة فى القانون الخاص نستشف ، فيما وراء الأزمنة التى نسميها تاريخية ، فترة من قرون كانت فيها الأسرة هى الصورة الوحيدة للمجتمع . وعندئذ كانت تستطيع الأسرة أن تضم فى نطاقها الواسع عدة آلاف من الكائنات البشرية ، لكن الجماعة البشرية فى هذه الحدود كانت لا تزال مفرطة فى الضيق . مفرطة فى الضيق بالنسبة للحاجات المادية إذ كان من العسير على هذه الأسرة أن تكفى نفسها فى مواجهة كل فرص الحياة ؛ مفرطة فى الضيق بالنسبة للحاجات المعنوية التى تتطلبها طبيعتها فقد رأينا كم كان إدراك الإلهيات فى هذا العالم الصغير غير كاف وكم كانت الأخلاق غير كاملة .

وصغر هذا المجتمع البدائى كان يتفق مع ضآلة الفكرة التى كونوها لأنفسهم عن المعبود . فكان لكل أسرة آلهة ولم يكن الإنسان ليتصور أو يعبد إلا آلهة منزلية . لكنه لم يكن ليقتنع زمناً طويلاً بهذه الآلهة التى هى دون ما يستطيع أن يصل إليه إدراكه بكثير؛ وإذا كان لا بد له من قرون كثيرة أخرى لى يصل إلى تصور الله ذاتاً واحدة لا كفاء لها ولا نهاية فقد كان عليه أن يقترب من هذا المثل الأعلى اقتراباً غير محسوس فى تدرجه ، وذلك بتوسيع إدراكه من عصر إلى عصر وبتأديده تدريجياً للأفق الذى يفصل حده

في نظره ما بين الذات الآلهة وأشياء هذه الحياة الدنيا .

وإذن فقد كانت الفكرة الدينية والجماعة البشرية تكبران في وقت واحد .

كانت الديانة المنزلية تحرم أن تختلط أسرتان وأن تمتزجا معاً . ولكن كان من الجائز أن تجتمع عدة أسر ، دون أن تضحي بدياناتها الخاصة ، لكي تحتفل على الأقل بعبادة أخرى مشتركة فيما بينها . وهذا هو ما حدث . فقد كوّن عدد معين من الأسرات مجموعة تسميها اللغة الإغريقية أخوية *hratrie* واللغة اللاتينية ندوة *curie* (١) فهل كانت هناك صلة مولد بين الأسرات التي تنتمي لنفس المجموعة ؟ من المستحيل أن نؤكد ذلك . أما الموثوق به فهو أن هذا التجمع الجديد لم يتم إلا بتوسيع الفكرة الدينية إلى حد ما . ففي اللحظة التي اتحدت فيها هذه الأسرات تصورت معبوداً أعلى من معبوداتها المنزلية ومشتركة فيما بينها جميعاً ويسهر على المجموع بأكمله ، وأقاموا له مذبحاً ، وأوقدوا ناراً مقدسة ، ونظموا

(١) هذا النمط في نشأة الأخويه مبين بوضوح في قطعة غربية من ديسكاي أرخوس (Dicéarque, dans *Fragm. hist. gr.*, éd. Didot, t. II, p. 238) فبعد أن تكلم عن عبادة الأسرة التي لم تكن تنتقل من أسرة لأخرى حتى بالزواج أضاف :
 'Ετέραις ἐτέθην ἱερῶν κοινωνική σύννοδος ἦν φρατρίαν ὠνόμαζον
 ويشار إلى الأخوية في هوميروس باعتبارها نظاماً شائعاً عند الإغريق : الإلياذة
 ٢ : ٣٦٢ : 'Αγάμεμνον, κατά φρήτρας, κατά φύλα, Κρῖν' ἄνδρας
 φρήτρη φρήτρηφιν ἀρήγη, φύλα δὲ φύλοις : ٣ : ٥٢ : Φρατρίαι
 ἦσαν δυοκαίδεκα καὶ ἐν ἑκάστη γένῃ τριάκοντα : ديموسثينيس : ضد ما كارتاتوس ١٤
 إيسابوس : ميراث فيلوكتيمون . ١٠ : كانت هناك أخويات في ثيبه (شارح بنداروس
 البرزخيات (Isthm) ٦ : ١٨) وفي قورنثه (شرحه : الأوليات ١٣ : ١٢٧)
 وتساليا (شرحه : البرزخيات ١٠ : ٨٥) وفي نيبوليس (استرابون :
 ص ٢٤٦) وفي أقريطيس (كريت) (Boeckh, *Corp. inscr.* no 2555)
 ويظن بعض المؤرخين أن ال *ὄβαι* في اسبرطه تقابل الأخويات في أثينا — كان اللفظان
 أخوية وندوة يعتبران مترادفين وترجم ديونيسوس الهاليكارناسي (٢ : ٨٥) وديون
 كاسيوس (القطعة ١٤) الواحد بالآخر .

عبادة (١) .

لم تكن هناك ندوة ولا أخوية إلا وكان لها مذبجها وإلهها الحارس لها . وكانت الأعمال الدينية فيها من نفس طبيعة الأعمال الدينية في الأسرة وتتكون في جوهرها من أكلة مشتركة ؛ وكان الغذاء يجهز على المذبج ذاته ولذا كان ، مقدساً وكانوا يأكلونه وهم يتلون بعض الأدعية ؛ وكان المعبود حاضراً ، يتلقى نصيبه من الأغذية والأشربة (٢) .

بقيت أكالات الندوة الدينية هذه زمناً طويلاً في روما . فقد ذكرها سيسرون ووصفها أوفيدوس (٣) . وفي عصر أغسطس كانت لا تزال تحتفظ بكل أشكالها العتيقة . يقول مؤرخ من ذلك العصر « رأيت في هذه الأماكن المقدسة الغذاء وهو يوضع أمام الإله . كانت الموائد من الخشب حسب عادة الأسلاف والآنية من الفخار . وكانت الأغذية خبزاً وكعكاً ودقيق الحواري وبعض فاكهة . رأيتهم يريقون السوائل ولم تكن تراق من أقداح من الذهب أو الفضة بل من أوان من الصلصال . لقد أعجبت بأهل هذه الأيام الذين ظلوا مخلصين إلى هذا الحد لشعائر آبائنا وعاداتهم » (٤) . في أثينا ، في أيام الأعياد مثل الأباتوريا (Apaturies) والثارغيليا (Thargélies) ، كانت كل أخوية تجتمع حول مذبجها ، وتذبح ضحية وتطهى على النار ويوزع لحمها على جميع أعضاء

(١) يذكر ديموستينيس (ضد ماكارثاتوس ١٤) وإيسايوس (ميراث أبولودوروس) مذبج الأخوية والضحية التي كانت تقدم عليه . ويتكلم قراتينوس (Cratinus) (في أثينا يوس ١١: ٣ ص ٤٦٠) عن الإله الذي يرأس الأخوية ، *Zeus φράτριος* ، بوليدوكيس ٣ : ٥٢ : *Θεοὶ φράτριοι. Τὸ ἱερὸν ἐν ᾧ συνήσαν : φράτορες, φράτριον ἐκαλεῖτο, φράτριος αἶξ, ἣ θυομένη τοῖς φράτορσι.* (٢) *Φρατριακὰ δεῖπνα* (أثينا يوس ٥: ٢) ؛ *Curiales mensae* (فستوس ص ٦٤) (٣) سيسرون : الخطيب ٧: ١ *Dies curiae, convivium* . أوفيدوس : الأعياد ٦ : ٣٠٥ . ديونيسيوس ٢ : ٦٥

(٤) ديونيسيوس ٢ : ٢٣ . مهما يكن فقد أدخلت بعض تغييرات . ولم تعد أكالات الندوة سوى إجراء أجوف صالح للكهنة . وكان أعضاء الندوة يؤثرون أن يتخلصوا منها وأدخلت عادة توزيع الأغذية والنقود بدلا من الأكلة المشتركة .
Plaute: *Aululaire*, v, 69 et 137.

الأخوية ، وكانوا يحرسون حرصاً كبيراً على ألا ينال أى أجنبي نصيباً منها (١) هنالك عادات دامت حتى الأزمنة المتأخرة من التاريخ الإغريق وتلقى شعاعاً على طبيعة الأخوية العتيقة . ومنها نرى أنه لى يكون الإنسان عضواً فى أخوية ، فى عصر ديموسثينيس ، كان لا بد أن يكون مولوداً من زواج شرعى فى إحدى الأسرات التى تتكون منها الأخوية . إذ أن ديانة الأخوية كديانة الأسرة لم تكن تنتقل إلا عن طريق الدم ، فكان الأثينى الصغير يقدمه والده للأخوية ويحلف أنه ابنه . وكان يتم القبول بشكل دينى ، فكانت الأخوية تذبج ضحية وتطهى لحمها على المذبح . وكان يحضر جميع الأعضاء فإذا رفضوا قبول الوافد الجديد عندما يداخلهم الشك فى شرعية مولده ، وقد كان ذلك من حقهم ، كان عليهم أن ينزعوا اللحم من على المذبح . فإذا لم يفعلوا واقتسموا لحم الضحية مع الصغير بعد الطهى فإن الشاب يعد مقبولا ويصبح عضواً فى الجماعة لا رجوع فى ذلك (٢) ومما يفسر هذه العادات أن القدماء كانوا يعتقدون أن كل غذاء يجهز على مذبح ويقسمه عدة أشخاص يقيم فيما بينهم رابطة لا انفصام لها واتحاداً مقدساً لا ينقطع إلا بانقطاع الحياة (٣)

(١) يصف إيسايوس (ميراث أبولودوروس ١٥ - ١٧) إحدى هذه الأكلات ويتكلم فى مكان آخر (ميراث أستيفيلوس ٢٣) عن رجل خرج من أخوته كنتيجة لتبنيه فأصبح يعتبر غريباً عنها ، وكان يتقدم عبثاً فى كل أكلة مقدسة فلا يعطونه أى نصيب من لحوم الضحية ، أنظر لىسياس القطعة ١٠ (طبعة ديدوج ٢ ص ٢٥٥) : «إذا وغل رجل مولود من أبوين أجنيين فى أخوية فإن كل أثينى يستطيع أن يقاضيه» .

(٢) ديموسثينيس : ضد ما كارتاتوس ١٣-١٥ . إيسايوس : ميراث فيلوكتيمون ٢١ - ٢٢ ؛ ميراث قيرون ١٨ . ولندكر أن التبني المنتظم كان يحدث دائماً نفس النتائج التى كانت تحدثها البنوة الشرعية ويقوم مقامها .

(٣) نفس هذا رأى هو المبدأ الذى قامت عليه الضيافة العتيقة . وليس من موضوعنا أن نصف هذا النظام الغريب . ولنقل فقط إنه كان للديانة نصيب كبير فيه فالرجل الذى نجح فى الوصول إلى الموقد لا يمكن اعتباره غريباً فقد أصبح *ἐφ᾽ ἑστῆος* (صوفوكليس التراخيات (trach.) ؛ أوريبديدس : يون ٦٥٤ ؛ أيسخيلوس : الإويمينين ٥٧٧ ؛ ثوقيدديدس ١ : ١٣٧) فمن شارك فى الأكلة الجنازية أصبح إلى الأبد فى مشاركة دينية مع مضيفه ولهذا يقول إيفاندروس (Evandre) إلى أهل طروادة *Communem vocate Deum* (فرجيليوس

كان لكل أخوية أو ندوة رئيس، كوريون (Curion) أو فراتريارخوس (Phratrarche)، وظيفته الأساسية أن يرأس القرابين، وربما كانت اختصاصاته في الأصل أكثر سعة من ذلك. وكانت للأخوية مجامعها ومناقشاتها وتستطيع أن تصدر قرارات (١)؛ وفيها، كما كان في الأسرة، إله وعبادة وكهنة وقضاء وحكومة. لقد كانت مجتمعا صغيراً على نمط الأسرة تماماً.

وقد استمرت الجماعة تكبر طبعاً، وعلى نفس هذا النمط. وتجمعت عدة ندوات وأخويات وكونت قبيلة، وقد كان لهذه الجماعة الجديدة ديانتها أيضاً فكان في كل قبيلة مذبح ومعبود يحميها (٢).

وكان إله القبيلة في العادة من نفس طبيعة إله الأخوية وإله الأسرة. فقد كان رجلاً موثقاً، ومنه كانت تستمد القبيلة اسمها ولذا كان يسميه الإغريق البطل المسمى باسمه (héros éponyme)، وكان له يوم عيد سنوي؛ وكان الجزء الأساسي من الاحتفال الديني أكلة تشترك فيها القبيلة بأكملها (٣).

الإنييد (٢٧٥:٧). — نرى هنا مثلاً مما يوجد دائماً في النفس البشرية من منافاة حكيمة للمنطق: فالديانة المنزلية لا تعمل للأجنبي؛ إنها تصده؛ لكن هذا السبب ذاته يجعل الأجنبي الذي يقبل فيها مرة يزداد قداسة. فبمجرد أن يلمس الموقد يصبح محتسباً عليه أن يكف عن أن يكون أجنبياً. فنفس المبدأ الذي كان يقصيه بالأسس يتطلب أن يكون اليوم وإلى الأبد عضواً في الأسرة.

(١) عن الكوريون curio وحاكم الندوة (magister curiae) أنظر ديونيسيوس ٢ : ٦٤ ؛ فارون ؛ اللسان اللاتيني ٥ : ٨٣ ؛ فستوس ص ١٢٦ وقد ذكر الفراتريارخوس في ديموشينيس ؛ ضد إوبولوس ٢٣ . والناقشة والتصويت مذكوران في ديموشينيس ؛ ضد ماكارثاتوس ٨٢. وتحتوي عدة كتابات على قرارات أصدرتها الأخويات . أنظر Corpus inser. attic. t. II, éd. Kohler, nos 598, 599, 600.

(٢) Φυλίων θεῶν ἱερὰ. (Pollux, VIII, 110)

(٣) Φυλετικὰ δεῖπνα (أثينا يوس ٥ : ٢ بوليدوكيس ٣ : ٦٧ ؛ ديموشينيس In Boeot., de nom., 7. عن قبائل أثينا الأربع القديمة وعن صلاتها بالأخويات وبالفصائل γένη، انظر بوليدوكيس ٨ : ٩٠-١١١. وهاربولكراتيون تحت لفظ τριτύς نقلاً عن أرسطو. وجود القبائل القديمة، وعددها ثلاث أو أربع، حدث مشترك بين جميع المدن الإغريقية دورية أو يونانية ؛ الإلياذة ٢ : ٣٦٢ و ٦٦٨ . الأوديسة ١٩ : ١٧٧ ؛ هيرودوت ٤ : ١٦١ ؛ ٥ : ٦٨ و ٦٩. انظر Otf Müller, Dorier, t. II, p. 75. ويجب التمييز بين

كان للقبيلة كما كان للأخوية مجامع . وكانت تصدر قرارات يجب على كل أعضائها أن يخضعوا لها : وكانت لها محكمة ولها حق محاكمة أعضائها . وكان لها رئيس *tribunus. φυλοβασίλεις* (١) . نرى مما تبقى لنا من أنظمة القبيلة أنها كونت في الأصل لتكون مجتمعاً مستقلاً، وكما لو لم تكن هناك أية سلطة اجتماعية فوقها (٢) .

بين القبائل الدينية في الأزمنة الأولى والقبائل التي هي مجرد أقسام محلية في الأزمنة المتأخرة ، وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد . والأولى فقط لها صلة بالأخويات والفصائل (γένη)

(١) بوليدوكيس ٨: ١١ :

Οἱ φυλοβασίλεις, ἐξ Εὐπαιριδῶν ὄντες μάλιστα τῶν ἱερῶν ἐπεμελοῦντο
أنظر أرسطوفى الطقعة التي اتبسها فوتيوس (Photius) تحت لفظ *Ναυκραρία*

(٢) لم يترك التنظيم السياسي والديني للقبائل الثلاث الأصلية في روما إلا آثاراً قليلة في الوثائق وكل ما نعلمه هو أنها كانت مكونة من ندوات وفصائل وكان لكل واحدة منها عريف (*tribunus*) . وقد حوِّظ لنا على أسمائها رامنيس وتيتيس ولوكيريس (*Ramnes, Tities, Luceres*) وكذلك على بعض احتفالات من عبادتها . فضلاً عن أن هذه القبائل كانت هيئات هائلة جداً بحيث لم يكن يسع المدينة إلا أن تعمل على إضعافها ونزع استقلالها . وقد عمل السوق أيضاً على إزالتها .

الفصل الثانى

عقائد دينية جديدة

آلهة الطبيعة المادية

قبل الانتقال من تكوين القبائل إلى نشأة المدن يجدر بنا أن نذكر عنصراً هاماً من عناصر الحياة الذهنية في هذه الشعوب العتيقة .

عندما بحثنا في أقدم عقائد هذه الشعوب وجدنا ديانة موضوعها الأسلاف ورمزها الأساسى الموقد وهى التى كونت الأسرة وأقامت القوانين الأولى . لكنه كان لهذا الجنس فى جميع فروع ديانة أخرى ، وهى التى كانت شخصياتها الرئيسية زوس (Zeus) وهيرا (Hera) وأثينا (Athénè) (١) وچونون (Juno) ، ديانة الأولمپوس الإغريقى والكاييتولوم الرومانى .

وكانت الأولى من هاتين الديانتين تتخذ آلهتها من النفس البشرية ، والثانية تتخذ آلهتها من الطبيعة المادية . إذا كان الإحساس بالقوة الحية وبالشعور الذى يحمله الإنسان فى نفسه قد ألهمه الفكرة الأولى عن الإلهيات فإن رؤية هذه اللانهاية التى تحيط به وتسحقه قد رسمت لشعوره الدينى مسلكاً آخر .

كان الإنسان فى العصور الأولى فى مواجهة الطبيعة بلا انقطاع . ولما تكن عادات الحياة المتحضرة قد ضربت بينهما ستاراً حاجزاً . فكان ذلك الجمال يسحر بصره وتلك العظمة تبهره . كان يستمتع بالضوء ويفزع من الليل ، وعندما يرى عودة وضياء السموات المقدس (٢) كان يشعر بالعرفان بالجميل .

(١) الاسم الذى يطلق على بلدة أثينا فى اللغة الإغريقية هى أثيناي وقد تعودنا أن نسميها بالعربية أثينا . واسم الآلهة باللغة الإغريقية أثينا مما يجعله يختلط فى اللغة العربية باسم المدينة لذلك استعملنا للآلهة لفظ أثينايا وهو أقدم صورة لاسمها باللغة الإغريقية واحتفظنا للبلدة باسمها الدارج على السنتا أثينا - العرب .

(٢) صوفوكليس : انتيغونه : البيت ٨٧٩ . وكثيراً ما تعبر الفيدا عن نفس الفكرة

كانت حياته في يد الطبيعة فكان ينتظر السحاب المحسن الذي يتوقف عليه محصوله ويخشى العاصفة التي تستطيع أن تحبط عمله وأمل عام بأكمله . كان يشعر في كل لحظة بضعفه وبقوة ما يحيط به قوة لانظير لها . كان يحس على الدوام بمزيج من التبجيل والمحبة والفرع نحو هذه الطبيعة الجبارة .

لم ينته به هذا الشعور فوراً إلى إدراك إله واحد يدبر الكون ، إذ لم تكن لديه عندئذ فكرة الكون . لم يكن يعلم أن الأرض والشمس والكواكب أجزاء من مجموع واحد . ولم ترد على ذهنه فكرة أنه يمكن أن يهيمن عليها كائن واحد . فعندما ألقى الإنسان أول نظرة على العالم الخارجي تصوره على شكل جمهورية مشوشة تتحارب فيها قوات متنافسة . ولما كان حكمه على الأشياء الخارجية على حسب حاله هو ، وكان يشعر في نفسه بأنه شخص حر ، فقد رأى كذلك في كل جزء من الخليقة ، في الأرض ، وفي الشجرة ، وفي السحابة ، وفي ماء النهر ، وفي الشمس ، أشخاصاً يشبهون شخصيته . فنسب إليهم الفكر والإرادة واختيار الأفعال ؛ ولما كان يشعر بأنهم أقوىاء وأنه خاضع لسيطرتهم فقد اعترف بتبعيته لهم ، وتضرع إليهم ، وعبدتهم ، وجعل منهم آلهة .

وهكذا عرضت الفكرة الدينية لهذا الجيل من البشر في شكلين جد مختلفين . فمن ناحية نسب الإنسان الصفة الإلهية للمبدأ الخفي ، للإدراك ، ولما تراءى له من روحه ، ولما شعر أنه مقدس من ذاته . ومن ناحية أخرى طبق فكرته عن الشيء الإلهي على الأشياء الخارجية التي كان يتأمل فيها ويحبها ويخشها ، على العوامل الطبيعية التي كانت المهيمنة على سعادته وحياته .

نتج عن هذين النوعين من العقائد ديانتان نراهما مستمرتين ما دام المجتمعان الإغريقي والروماني . لم تحارب إحداهما الأخرى بل عاشتا في شيء من حسن التفاهم وتقاسمتا السيطرة على الإنسان ، لكنهما لم تختلط أحداهما بالأخرى ، لقد كانت لهما دائماً تعاليم منفصلة كل الانفصال ، وفي الغالب متناقضة ، واحتفالات وشعائر مختلفة اختلافاً مطلقاً . فلم يكن هناك شيء ما قط مشتركاً بين عبادة آلهة الأولمبوس وعبادة الأبطال والأرواح . أما أي هاتين الديانتين كانت الأولى في التاريخ فهو شيء لا نستطيع أن نقوله . بل لن نستطيع

أن نجزم أن إحداهما كانت سابقة الأخرى . إنما المؤكد أن إحداهما وهى عبادة الموتى ، بعد أن ثبتت فى عصر بعيد جداً ، بقيت راسخة على الدوام فى شعائرها بينما كانت قواعد مذهبها تزول شيئاً فشيئاً . أما الأخرى ، وهى عبادة الطبيعة المادية ، فقد كانت أكثر ميلاً للتقدم وتطورت بحرية خلال العصور بينما كانت تغير أساطيرها ومذاهبها شيئاً فشيئاً وتزيد بلا انقطاع فى سيطرتها على الإنسان .

٢٠ الصلة بين هذه الديانة وتطور المجتمع الإنسانى

يمكن الاعتقاد بأن العناصر الأولى لديانة الطبيعة هذه عتيقة جداً . وربما كانت تضاهى عبادة الأسلاف فى القدم . ولكن بما أنها كانت تقابل أفكاراً أعم وأسمى من هذه ، فقد كان لا بد لها من وقت أطول لكى تثبت فى صورة مذهب واضح (١) ، ومن المحقق أنها لم توجد فى العالم فى يوم واحد وأنها لم تخرج تامة الخلق من عقل رجل واحد . بل ولدت فى العقليات المختلفة بأثر من قوتها الطبيعية فتصورتها كل عقلية على طريقها . وقد كانت هناك أوجه شبه بين جميع هذه الآلهة التى خرجت من أذهان مختلفة لأن الأفكار كانت تتكون فى الإنسان على طريقة تجرى على وتيرة واحدة تقريباً . ولكن كان هناك تنوع كبير أيضاً إذ أن كل عقلية كانت تصنع آلهتها . فتتج عن ذلك أن بقيت هذه الديانة مشوشة لمدة طويلة وأن كانت آلهتها لا عداد لها .

يبد أن العناصر التى كان يمكن تأليها لم تكن كثيرة العدد . فالشمس التى

(١) . أسن الضرورى أن نذكر كل الروايات المأثورة عند الإغريق وشعوب إيطاليا والتى كانت تجعل من ديانة جويتر ديانة شابة وحديثة نسبياً ؛ لقد احتفظت بلاد الإغريق وإيطاليا بذكرى زمن كانت فيه المجتمعات البشرية موجودة من قبل ولم تكن هذه الديانة قد تكونت فيه بعد . أوفيدىوس : الأعياد ٢ : ٢٨٩ ؛ فرجيليوس : Géorg. I, 126 ؛ أيسخيلوس Euménides ؛ بوسانياس ٨ : ٨ . هناك ظواهر على أن البتريس (Pitris) عند الهنود سابقون على الديفاس (Dévas)

تخصب والأرض التي تغذى والسحاب الذي ينعم مرة وينكب مرة أخرى تلك كانت القوى الرئيسية التي كان في الاستطاعة اتخاذ آلهة منها . غير أن كل واحد من هذه العناصر ولدت منه آلاف من الآلهة ، ذلك لأن الناس قد نحوا نفس العامل الطبيعي في مظاهر مختلفة فخلعوا عليه أسماء مختلفة . فالشمس مثلاً سميت هنا هيراكليس (المجيد) وهناك فويبوس (Phoebos) (الساطع) وفي مكان آخر أبولون (Apollon) (طارد الليل أو طارد السوء) ؛ هذا يسميها الكائن العلي (هيريون Hyperion) والآخر المغيث (الكسيكاكوس Alexicacos) ومع طول الزمن لم تتبين المجموعات من الناس التي أطلقت هذه الأسماء المختلفة على الكوكب الساطع أنها تعبد نفس الإله .

والواقع أن كل رجل لم يكن يعبد إلا عدداً محدوداً جداً من المعبودات ، لكن آلهة الواحد لم يكن يبدو عليها أنها آلهة الآخر ، وفي الحق أنه كان في الإمكان أن تتشابه الأسماء ؛ فمن الجائز أن كثيراً من الناس قد أطلقوا على آلهتهم اسم أبولون أو اسم هيراكليس إذ أن هذه الألفاظ كانت تنتمي إلى لغة الاستعمال اليومي ولم تكن غير نعوت تدل على الذات الإلهية بصفة أو بأخرى من أكثر صفاتها بروزاً . لكنه لم يكن في استطاعة المجموعات المختلفة من البشر أن تعتقد أن هذا الاسم ذاته لم يكن ينطوي إلا على إله واحد فكانوا يعدون إذن آلافاً مختلفة من الإله جوبيتر وكانت هناك جمهرة من الإلهات ميزفا وديانا وجونون قل أن تتشابه فيما بينها . وحيث أن كل واحدة من هذه التصورات قد كونها الجهد الحر الذي بذلته كل عقلية على حدة وكانت إلى حد ما ملكاً لها فقد حدث أن بقيت هذه الآلهة مستقلة بعضها عن البعض الآخر زمناً طويلاً وأن كان لكل واحد منها أسطورة الخاصة وعبادته (١) .

(١) إذا كان يحدث في كثير من الأحوال أن عدة أسماء كانت تمثل نفس المعبود أو نفس الفكرة من أفكار الذهن فانه كثيراً ما كان يحدث أيضاً أن نفس الاسم كان يخفى معبودات مختلفة جداً ؛ فقد كان أمثال بوسيدون هيببوس وبوسيدون فيتالموس وبوسيدون إريخيوس وبوسيدون الإيجي وبوسيدون الهيليكوني Poseidon Hippios, Poseidon Phytalmios, Poseidon Erechthée, Poseidon Aegéen, Poseidon Héliconien آلهة مختلفة لم تكن لها نفس الصفات ولا نفس العباد .

وحيث أن أول ظهور لهذه العقائد كان في عصر لا زال الناس يعيشون فيه طبقاً لنظام الأسرة ، فقد كان لهذه الآلهة الجدد طابع المعبودات المنزلية كما كان للجن (دايمون) والأبطال واللاريس . لقد اتخذت كل أسرة آلهتها لذاتها واحتفظت بها كل منها لنفسها باعتبار هذه الآلهة حماة لها لا تريد أن يشاركها الأغراب فيما تدره عليها من نعم . وهي فكرة كثيراً ما تظهر في أناشيد الفيدا ولا ريب أنها كانت ماثلة في ذهن أربا الغرب أيضاً لأنها تركت أثراً واضحة في ديانتهم . فكلما خلقت أسرة إلهها بتمثلها الشخصية في أحد العوامل الطبيعية كانت تشركه في موقدها وتعهده بين آلهتها المنزلية (پناتس) وتضيف له بضع كلمات في صيغة دعائها . ولهذا السبب كثيراً ما تقابل عند القدماء تعبيرات كهذه : الآلهة الجالسة بجوار موقدي ، چوپيتر موقدي ، أبولون أبائي (١) . تقول تكميسا (Tecmesse) إلى آياس (أچاكس Ajax) : «استحلفك باسم چوپيتر الجالس بجوار موقدك» . وتقول ميديا (Medée) الساحرة في أوريبيديس : «أحلف بهيكاني (Hécate) ، إلهتي وسيدتي التي أجعلها ، والتي تسكن معبد موقدي» . وعند ما يصف فرجيليوس أقدم ما في ديانة روما يرى هيراكليس مشتركاً مع موقد إيفاندروس (Evandre) الذي يعبد هيراكليس كمعبود منزلي .

من هنا أتت آلاف من العبادات المحلية التي لم تستطع الوحدةانية أن تستقر بينها ومن هنا هذه المناضلات بين الآلهة التي تملأ عهد تعدد الآلهة والتي تمثل منازعات الأسرات والنواحي والمدن . ومن هنا أخيراً هذا الجمهور الذي لا حصر له من الآلهة والآلهات الذي لا نعرف منه حتماً غير الجزء الأصغر ؛ إذ أن كثيراً منها قد هلك دون أن يترك حتى اسمه ، لأن الأسرات التي كانت تعبدتها قد انقرضت أو أن المدن التي خصتها بعبادة قد دمرت .

كان لا بد من انقضاء زمن طويل قبل أن تخرج هذه الآلهة من أحضان الأسرات

(١) Ἔστιοιχοι, ἐφέστιοι, πατρῶοι ὁ ἐμὸς Ζεὺς أوريبيديس: هيكا به ٣٤٥ :

أوريبيديس : ميديا ٣٩٥ . صوفوكليس : آياس (Ajax) ٣٩٢ . فرجيليوس ٨ : ٥٤٣ .

هيراودوت ١ : ٤٤ .

التي تصورتها والتي كانت تعتبرها ميراثاً لها . بل إن كثيراً منها لم تتخلص إطلاقاً من هذا النوع من الصلة المنزلية . فقد بقيت ديميتير التي كانت تعبد في إيليسيس (Déméter d'Eleusis) معبودة خاصة لأسرة إيمولپوس (Eumolpides) ؛ وأثينايا التي كانت تعبد في رايية أثينا كانت تابعة لأسرة بوتس (Butades). وكان لآل بوتيتوس (Potitii) في روما هيراكليس و آل نوتيتوس (Nautii) مينرثا (١) وهناك شبهة كبيرة في أن عبادة فينوس بقيت زمناً طويلة محصورة في أسرة يوليوس وأنه لم يكن لهذه الإلهة عبادة عامة في روما .

وقد حدث مع طول الزمن أن نال معبود إحدى الأسرات سلطاناً كبيراً على خيال الناس وبدأ قوياً بنسبة ازدهار هذه الأسرة فرغبت مدينة بأكملها أن تتخذة لنفسها وأن تؤدي له عبادة عامة لتتال بركاته . وهو ما حدث لديميتير معبودة آل إيمولپوس وأثينايا معبودة آل بوتس وهيراكليس معبود آل بوتيتوس ولكن عند ما تقبل أسرة أن يقتسم إلهها هكذا فإنها كانت تحتفظ على الأقل بكهنته . ويمكن أن نلاحظ أن كهنوت أي إله قد ظل وراثياً زمناً طويلاً ولم يستطع الخروج من أسرة معينة (٢) . تلك بقية من زمن كان فيه الإله ذاته ملكاً لهذه الأسرة ولم يكن يحى غيرها ولا يريد أن يخدمه سواها .

لقد حق لنا إذن أن نقول إن هذه الديانة الثانية كانت في البدء على وفاق مع حالة الناس الاجتماعية وكانت كل أسرة مهداً لها وبقيت زمناً طويلاً محبوسة

(١) Tite—Live, IX, 29: *Potitii, gens cujus familiare fuerat sacerdotium Herculis*

ديونيسيوس ٢ : ٦٩ . وكذلك آل أوريليوس Aurellii كانت عبادتهم المنزلية هي عبادة الشمس . فستوس تحت لفظ Aureliam طبعة ميلر ص ٢٣ (٢) هيرودوت : ٥ : ٦٤ ، ٦٥ ؛ ٧ : ١٥٣ ؛ ٩ : ٢٧ . بنداروس : البرزخيات ٧ : ١٨ أكسينوفون الهلينييات ٧ : ٨ . أفلاطون : القوانين ٦ ص ٧٥٩ ، المائدة ص ٤٠ ؛ بلوتارخوس : ثيسوس ٢٣ ؛ حياة الخطباء العشرة ، ليكورغ c. 11 . فيلوخوروس القطعة ١٥٨ ص ٤١١ . ديودوروس ٥ : ٥٨ . بوسانياس ١ : ٣٧ ؛ ٤ : ١٥ ؛ ٦ : ١٧ ؛ ١٠ : ١٠١ . أبولود وروس ٣ : ١٣ ؛ جوستينوس : ١٨ : ٥ ؛ هاربوقراتيون : الالفاظ Etsoφovtáðai Eivēidai سيسرون : التكهّن (De devinatione) ١ : ٤١ . استرابون ٩ ص ٤٢١ ؛ ١٤ ص ٦٣٤ . تاسيتوس : الحوليات ٢ : ٥٤ .

في هذا الأفق الضيق . لكنها كانت أكثر ملاءمة من عبادة الموتى لتقدم الجماعة المقبل إذ أن الأسلاف والأبطال والأرواح (manes) كانت آلهة لا يمكن أن يعبدوها بحكم جوهرها ذاته إلا نفر قليل من الناس، وكانت تقيم إلى الأبد حدوداً بين الأسرات لا يمكن تخطيها ، أما ديانة آلهة الطبيعة فكانت أوسع نطاقاً ، فلم يكن هناك أى قانون صارم يحول دون انتشار أية واحدة من هذه العبادات . ولم يكن في الطبيعة الباطنية لهذه الآلهة ألا تعبدوها إلا أسرة واحدة وأن تقصى الأجنبي عنها . وفي النهاية كان على الناس أن يصلوا تدريجياً إلى إدراك أن چويتر الخاص بأسرة ما كان في جوهر الأمر نفس الكائن أو نفس الفكرة التي تتصور في چويتر آخر ، وهو أمر لم يكونوا يستطيعون اعتقاده أبداً في اثنين من اللاريس أو الأسلاف أو المواقد .

ولنصف إلى ذلك أنه كان لهذه الديانة الجديدة ناحية أخلاقية أخرى . فإنها لم تكن تقتصر على تعليم الإنسان واجبات الأسرة . فكان چويتر إله الضيافة ومن طرفه يأتي الأجانب والمتوسلون والمعيدون المبجلون ، أولئك الذين كان يجب أن يعاملوا « كإخوة » . وكانت جميع هذه الآلهة كثيراً ما تتخذ الصورة البشرية وتترأى للناس ، وكان ذلك أحياناً لتحضر معاركهم وتساهم في قتالهم ؛ وفي الغالب أيضاً لتوصيهم بالوفاق وتعلمهم التعاون فيما بينهم .

وكما تطورت هذه الديانة الثانية اتسع المجتمع بنفس القدر . هذا ومن الجلي أن هذه الديانة التي كانت ضعيفة في أول الأمر قد اتسعت فيما بعد اتساعاً عظيماً . فقد كانت في الأصل تشبه أن تكون في ظل الأسرات تحت حماية الموقد المنزلي . فهناك حصل الإله الحديد على مكان صغير ، صومعة (cella) ضيقة بمراًى من الموقد المبجل ويجواره لكي ينال الإله نصيباً من احترام الناس للموقد . فلما زادت سلطة الإله على النفوس رغب شيئاً فشيئاً عن هذا النوع من الوصاية ، وهجر الموقد المنزلي ، وأصبح له منزل لشخصه وقرابين خاصة ؛ هذا وقد بنى هذا المسكن (raos من raio يسكن) على صورة المحراب الأصلي . فكان كما كان أولاً ، صومعة (cella) أمام موقد . لكن الصومعة اتسعت وتجمعت وأصبحت معبدًا . وبقى الموقد في مدخل بيت الإله ، لكنه . بدا يجواره

أصغر حجماً . كان هو الأساس في الأصل لكنه لم يعد إلا شيئاً ملحقاتاً . لم يصبح هو الإله بعد ذلك ونزل إلى مرتبة المذبح للإله والآلة للقربان . لقد صار مكلفاً بحرق لحم الأضحية وبحمل القربان مع دعاء الإنسان إلى ذلك المعبود ذي الجلال الذي يقيم صنمه في المعبد .

وعند ما نرى هذه المعابد تقام وتفتح أبوابها للجمهور العابدين يمكن أن نطمئن إلى أن الإدراك البشرى وإلى أن المجتمع قد اتسعا منذ زمن بعيد.

الفصل الثالث

المدينة تتكون

تكونت القبيلة، كما تكونت الأسرة والأخوية، لكي تكون هيئة مستقلة إذ أنه كانت لها عبادة خاصة يقصى عنها الأجنبي . وإذا ما تكونت لم يعد في استطاعة أية أسرة جديدة أن تقبل فيها . وكذلك لم يكن في استطاعة قبيلتين أن تندمجا في قبيلة واحدة لأن ديانتيهما تعارضان في ذلك . ولكن كما اتحدت عدة أخويات في قبيلة واحدة فإن عدة قبائل قد استطاعت أن تتحد فيما بينها على شرط أن تحترم ديانة كل منها . واليوم الذي وجد فيه ذلك الحلف وجدت فيه المدينة .

ومما هو قليل الأهمية أن نبحث عن السبب الذي دعا عدة قبائل متجاورة للاتحاد ، فأحيانا يكون الاتحاد اختيارياً ، وأحيانا تفرضه قوة عليا من جانب قبيلة أو إرادة قوية من جانب رجل . أما المؤكد فهو أن رباط الجماعة القديمة كان هو الديانة أيضاً ، إذ أنه لم يكن يفوت القبائل التي تجمعت لتكوين مدينة ما أن توقد ناراً مقدسة وأن تتخذ ديانة مشتركة .

وهكذا لم يتسع المجتمع البشرى في هذا الجنس على شكل دائرة تتسع شيئاً فشيئاً وتترك الأقرب فالقريب . بل كانت على العكس جماعات صغيرة تكونت قبل ذلك بزمن طويل وانضم بعضها لبعض . فتكونت الأخوية من عدة أسر وتكونت القبيلة من عدة أخويات وتكونت المدينة من عدة قبائل . فضلاً عن أن الأسرة والأخوية والقبيلة والمدينة ما هي إلا مجتمعات تتشابه فيما بينها تشابهاً دقيقاً وولدت إحداها من الأخرى عن طريق سلسلة من المحالفات . بل يجدر أن نلاحظ أنه عندما كانت تنضم هذه المجموعات المختلفة بعضها لبعض لم تكن تفقد الواحدة منها شخصيتها أو استقلالها . وبالرغم من أن عدة

أسرات قد اتحدت في أخوية فإن كل واحدة منها بقيت مكونة كما كانت في مدة عزلتها ، لم يتغير فيها شيء ، لا عبادتها ولا كهونها ولا حق ملكيتها ولا قضاؤها الداخلي . ثم اتحدت بعض الندوات فيما بعد لكن كل منها قد حافظت على عبادتها واجتماعاتها وأعيادها ورئيسها . ومن القبيلة انتقلوا إلى المدينة لكن القبائل لم تنحل لذلك واستمرت كل واحدة منها تؤلف هيئة كما لو كانت المدينة غير موجودة تقريباً . وفي الديانة بقيت جمهرة من العبادات الصغيرة قامت فوقها عبادة مشتركة ، وفي السياسة استمرت جمهرة من الحكومات الصغيرة في وظائفها وقامت فوقها حكومة مشتركة .

كانت المدينة حلفاً . ولذلك ظلت عدة قرون على الأقل مضطرة إلى احترام الاستقلال الديني والمدني للقبائل والندوات والأسرات ؛ ولم يكن لها في البدء حق التدخل في الشؤون الخاصة بأية واحدة من هذه الهيئات الصغيرة ، لم يكن لها شأن في داخل أسرة ما ولم تكن قاضياً فيما يجري فيها بل تركت للأب الحق أو الواجب في محاكمة زوجته وابنته ومولاه . ولهذا السبب استطاع القانون الخاص الذي ثبت في عصر عزلة الأسرات أن يبق في المدن ولم يعدل إلا في وقت متأخر جداً .

هذه الطريقة في نشأة المدن القديمة تشهد بها عادات دامت زمناً طويلاً جداً فلما إذا تأملنا جيش المدينة في العصور الأولى وجدنا أنه كان موزعاً على قبائل وندوات وأسرات (١) وبحيث يكون جار المحارب في القتال هو ذات الشخص الذي يريق معه السوائل في زمن السلم ويقدم القرابين على نفس المذبح ، كما يقول أحد القدماء (٢) . وإذا تأملنا الشعب

(١) هوميروس : الإلياذة ٢ : ٣٦٢ . فارون : اللسان ٥ : ٨٩ . بقيت العادة في أثينا أن يرتب العساكر حسب القبائل والأحياء (dèmes) : هيرودوت ٦ : ١١١ ؛ إيسايوس : ميراث منكليس ٤٢ ؛ ليسياس : الدفاع عن ماقتيشيوس ١٥ .
(٢) ديونيسيوس الهاليكارناسي ٢ : ٢٣ .

مجتمعاً في القرون الأولى لروما فإنه كان يصوت مجتمعاً في ندوات أو فصائل (١). وإذا ما تأملنا العبادة رأينا في روما ستا من سادئات النار (فستالس Vestales) إثنين لكل قبيلة : وفي أثينا يقوم الأرخون (archonte) بمعظم القرابين باسم المدينة بأكملها . لكن لا تزال باقية بعض الاحتفالات الدينية التي يجب أن يشترك رؤساء القبائل في القيام بها (٢) .

وبذلك لم تكن المدينة تجمعاً من الأفراد . وإنما كانت حلفاً من عدة مجموعات كانت قد تكونت قبلها وتركها باقية . ونرى في الخطباء الأثينيين أن كل أثيني كان عضواً في أربع جماعات متباينة ؛ فهو عضو في أسرة وفي أخوية وفي قبيلة وفي مدينة . إنه لا يدخل في الأربعة جميعاً في وقت واحد وفي يوم واحد كما يفعل الفرنسي الذي ينتمي منذ مولده إلى أسرة وقرية ومديرية ووطن . فإن الأخوية والقبيلة لم تكن أقساماً إدارية ، كان يدخل الإنسان في هذه الجماعات الأربع في فترات مختلفة وكأنه يرقى من الواحدة إلى الأخرى . فيقبل الطفل أولاً في الأسرة بطريق الاحتفال الديني الذي يقام بعد مولده بعشرة أيام . وبعد ذلك ببضع سنوات يدخل في الأخوية باحتفال آخر سبق أن وصفناه . وأخيراً في سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة يتقدم ليقبل في المدينة . وفي ذلك اليوم ، على مشهد من المذبح وأمام أضحية يتصاعد الدخان من لحمها ، يتلو قسماً يتعهد فيه ، مع العهود التي يقطعها على نفسه ، أن يحترم ديانة المدينة على الدوام (٣) . وابتداء من ذلك اليوم يكون على علم بالعبادة العامة ويصبح مواطناً (٤) . فلنلاحظ هذا الشاب الأثيني وهو يرقى درجة فدرجة ، من عبادة إلى عبادة ، وعندئذ تكون لدينا صورة للدرجات التي مرت بها الجماعة البشرية فيما مضى . فالمسلك الذي يتحتم على هذا الشاب أن يتبعه هو الذي اتبعه المجتمع في البداية

(١) أولوس جيلوس : ١٥ : ٢٧ .

(٢) بوليدوكيس ٨ : ١١١ .

(٣) بوليدوكيس ١٠٥ - ١٠٦ . *Ἀμυνῶ ὑπὲρ ἱερῶν καὶ δαίμων... καὶ ἱερὰ τὰ πατρία τιμήσω*

(٤) إيسايوس : ميراث قرون ١٩ ؛ الدفاع عن أوفيليتوس *Pro Euphiletos* ٣ . ديموشينيس : ضد إوبوليديس ٤٦ . تتبين ضرورة القيد في أخوية قبل أن يكون الإنسان عضواً في المدينة ، في الأزمنة العتيقة على الأقل ، من قانون ذكره دينارخوس (Dinarque, *Oratores attici*, coll. Didot, t. II, p. 462, fr. 82)

هاك مثلاً يجعل هذه الحقيقة أكثر وضوحاً ، لقد بقى لنا من الآثار والذكريات عن العصور العتيقة في أثينا ما يكفي لكي نستطيع أن نرى بشيء من الجلاء كيف تكونت المدينة الأثينية . يقول بلوتارخوس كانت أتيكا مقسمة في الأصل إلى أسر (١) . وقد استمرت بعض هذه الأسرات التي هي من العصر البدائي كالإيمولبيين (Eumolpides) والككروبيين (Gécropides) والغفيريين (Géphyréens) والفيثاليين (Phylalides) واللاكيايين (Lakiades) قائمة حتى العصور التالية. لم تكن المدينة الأثينية موجودة عندئذ بل كانت كل أسرة، تحيط بها فروعها الصغرى ومواليها ، تحتل ناحية وتعيش فيها مستقلة استقلالاً مطلقاً. وكان لكل منها ديانتها الخاصة : فالإيمولبيون المقيمون في إليسيس (Eleusis) يعبدون ديمتر ؛ والككروبيون الذين كانوا يسكنون الصخرة التي وجدت عليها أثينا فيما بعد كانت معبوداتهم الحامية بوسيدون وأثينايا (Athéné). وبجوارها على أكمة الأريوباغوس الصغيرة كان الإله الحامي هو أريس (Arès) ، وفي ماراثون هراكليس ، وفي پراسيس (Prasies) إله يحمل اسم أبولون ، وكان هناك أبولون آخر في فليس (Phlyes) ، والديوسقوران (Dioscures) في كيفالي (Céphale) وهكذا كانت الحال في جميع المقاطعات الأخرى (٢)

ولما كان لكل أسرة إلهها ومذبحها فقد كان لها رئيسها أيضاً. لما زار بوسانياس أتيكا وجد في البلدان الصغيرة آثاراً عتيقة استمرت مع العبادة ، وقد علمته هذه الآثار أنه كان لكل قرية ملك قبل الوقت الذي حكم فيه ككروپس في أثينا (٣) . ألم تكن هذه ذكرى عصر بعيد كان فيه لكل واحدة من هذه الأسرات الأبوية الكبيرة ، الشبيهة بالعشائر الكلتيّة ، رئيسها الوراقي الذي كان في نفس الوقت كاهناً وقاضياً ؟ كانت هناك إذن مجتمعات صغيرة حوالى المائة تعيش منعزلة في البلاد لا تعرف فيما بينها رباطاً دينياً ولا

(١) Κατὰ γένη بلوتارخوس : ثيسوس ٢٤ ؛ شرحه ١٣

(٢) بوسانياس ١ : ١٥ ؛ ١ : ٣١ ؛ ١ : ٣٧ ؛ ٢ : ١٨

(٣) بوسانياس ١ : ٣١ : *Τῶν ἐν τοῖς δήμοις φάναι πολλοὺς ὥς καὶ πρὸ :* *τῆς ἀρχῆς τῆς Κέκροπος ἐβασιλεύοντο.*

رباطاً سياسياً ، لكل منها منطقها وكثيراً ما يحارب بعضها بعضاً ، وأخيراً كانت منفصلة الواحدة عن الأخرى إلى حد أن الزواج فيما بينها لم يكن يسمح به دائماً (١) .

لكن الحاجات أو العواطف قد قربت بينها فاتحدت تدريجياً في مجموعات صغيرة من أربع أو ست . وهكذا نجد في التقاليد أن البلاد الأربع في سهل ماراثون قد تجمعت لتعبد سويلاً أبولون الدلفي (Apollon Delphinien) . وتجمع ، من ناحية أخرى ، أهالي بيرايوس (البيريه Pirée) وقاليرون (Phalère) ومحلتيين أخريين متجاورتين وبنوا معاً معبداً لهراكليس (٢) . وبمضي الزمن اختزلت هذه المائة من الدويلات الصغيرة إلى حوالي إثني عشر اتحاداً ، وقد نسبت الأسطورة إلى جهود ككروپس هذا التغير الذي انتقل به شعب أتيكا من حالة الأسرة الأبوية إلى مجتمع أكثر منها اتساعاً بقليل . وما يجب أن نفهمه من هذا هو أن ذلك التغير لم يتم إلا في الفترة التي وضعوا فيها حكم ذلك الشخص أي حوالي القرن السادس عشر قبل الميلاد . فضلاً عن أننا نرى أن ككروپس هذا لم يكن يحكم إلا واحدة من الجماعات الإثنتي عشرة وهي التي أصبحت أثينا فيما بعد ؛ وكانت الإحدى عشرة الأخرى مستقلة تماماً ؛ وكان لكل واحدة منها إلهها الحامي ، ومذبحها ، ونارها المقدسة ورئيسها (٣) .

وقد مضت عدة أجيال حصلت خلالها مجموعة الككروپيين (Cécropides) تدريجياً على أهمية أكبر من تلك . وقد تبقى لنا من هذه الحقبة ذكرى نضال دموى قاموا به ضد الإيمولبيين في إليسيس (Eleusis) وكانت نتيجته أن خضع

(١) بلوتارخوس : ثيسبيوس ١٣

(٢) بلوتارخوس : ثيسبيوس ١٤ بوليدوكيس ٦ : ١٠٥ . اسطفان البيزنطي

تحت لفظ *Ἐχελίδα*

(٣) Philochore, cité par Strabon, IX, p. 609: *Κέκροπα πρῶτον ἐξ ὧν δέκα πόλεις οὐνοικίσαι τὸ πλῆθος*. Thucydide, II, 15: *Ἐπὶ Κέκροπος ἐς Θησέα αἱ ἢ Ἀττικὴ κατὰ πόλεις ὠκέϊτο πρυτανεΐα τε ἔχουσα καὶ ἄρχοντας...* αὐτοὶ ἕκαστοι ἐπολιτεύοντο καὶ ἐβουλευόντο, καὶ τινες καὶ ἐπολέμησάν ποτε αὐτῶν. — Cf: Pollux, VIII, 111.

هؤلاء لهم مع تحفظ واحد فقط ألا وهو احتفاظهم بكهنوت معبودهم الوراثة (١). ويمكن الاعتقاد بأنه كانت هناك حروب أخرى لم تحفظ ذكراها ، وقد حصلت صخرة الككروبيين ، التي تطورت فيها عبادة أثينايا شيئاً فشيئاً ، والتي انتهت بأن اتخذت اسم إلهتها الرئيسية ، على السيادة على الاحدى عشرة دولة الأخرى . عندئذ ظهر ثيسوس (Thésée) وارث الككروبيين . وتتفق كل الآثار في القول بأنه جمع المجموعات الإثنى عشرة في مدينة واحدة . والواقع أنه نجح في جعلهم يتخذون في جميع أتيكا عبادة أثينايا بولياس (أثينايا المدنية) بحيث اشترك كل الأقليم منذ ذلك في الاحتفال بقربان الپاناثينايا (Panathénées) . أما قبل عهده فقد كان لكل قرية نارها المقدسة وبيت نارها (پريتانيون Prytanée) وقد أراد أن يكون بيت نار أثينا هو المركز الديني لكل أتيكا (٢) . وعندئذ تأسست الوحدة الأثينية ؛ فمن الناحية الدينية ، احتفظت كل ناحية بعبادتها القديمة لكنها اتخذت جميعاً عبادة مشتركة ؛ ومن الناحية السياسية ، احتفظت كل واحدة برؤسائها وقضاها وحققها في الاجتماع ؛ ولكن فوق هذه الحكومات المحلية وجدت حكومة المدينة المركزية (٣) .

(١) بوسانياس ١ : ٣٨

Thucydide, II, 15: 'Ο Θησεύς καταλύσας τῶν ἄλλων πόλεων (٢) τὰ βουλευτήρια καὶ τὰς ἀρχὰς... ἐν βουλευτήριον αποδείξας καὶ πρυτανεῖον... Plutarque, *Thésée*, 24: "Ἐν ποιήσας ὅπασσι κοινὸν πρυτανεῖον... καὶ Παναθήναια θυσίαν ἐποίησε κοινήν. ἔθυσαι δὲ καὶ Μετοίκια, ἣν ἔτι καὶ νῦν θύουσι. Cf. Pausanias, VIII, 2, 1.

(٣) يقول بلوتارخوس وثوقديدس أن ثيسوس (Thésée) حل بيت النار (پريتانيون) المحلي وأبطل مناصب القرى. وعلى كل حال فهو إن كان قد حاول ذلك فإنه لم ينجح إذ أننا لازلنا نجد العبادات المحلية والمجتمعات وملوك القبائل بعده بزمان كبير : Boekh, *Corp. inscr.*, 82, 85. ديموشينيس : ضد ثيوكرينيس ؛ بوليدوكيس ٨ : ١١١ . — وقد تركنا جانباً أسطورة يون (Ion) التي يلوح لنا أن عدداً كبيراً من المؤرخين المحترمين قد أعطوها أهمية أكبر مما يلزم بتقديمها كظهر لغزو أجنبي في أتيكا . لكن هذا الغزو لا تشير إليه أية وثيقة . فلو أن يوني البيلوبونيز استولوا على أتيكا لما كان من المحتمل أن يحافظ الأثينيون محافظة شديدة على أسمائهم : آل ككرويس وآل

يبدوا أن حقيقتين جليتين على حد سواء تبرزان من هذه الذكريات والأثرات الدقيقة التي حرصت أثينا عليها حرص المتحرجين : الأولى ، أن المدينة كانت حلقة من مجموعات تكونت قبلها ، والأخرى ، أن المجتمع لم يتطور إلا متدرجا مع اتساع الديانة . وليس في الاستطاعة البتة فيما إذا كان التقدم الديني هو الذي جلب التقدم الاجتماعي . إنما المحقق هو أن الإثنيين قد حدثا في وقت واحد وفي اتفاق عجيب .

ولا بد من التفكير في الصعوبة الزائدة التي كانت تعانيها الشعوب البدائية في تأسيس مجتمعات منظمة فليس من الهين إقامة الرباط الاجتماعي بين هذه الكائنات البشرية الكثيرة التباين والحرية والتقلب . إذ أن إعطاءهم قواعد مشتركة ، وإنشاء القيادة ، وجعلهم يقبلون الطاعة ، وإخضاع الشهوة للعقل ، والعقل للفردى للعقل العام ، كل ذلك كان يتطلب شيئا أشد من القوة المادية ، شيئا أكثر احتراماً من المنفعة وأكثر ضماناً من نظرية فلسفية وأكثر رسوخاً من مجرد اتفاق شيئا هو أيضاً في قرارة القلوب جميعاً ويقيم فيها بسلطان عظيم .

ذلك الشيء هو العقيدة ؛ وما من شيء أقوى سلطاناً على النفس منها . فالعقيدة من صنع فكرنا لكننا لسنا أحراراً في تعديلها كما نهوى . إنها من خَلَقْنَا لكننا لا نعرف ذلك ؛ إنها من البشر ونحن نؤمن بأنها إلهية ؛ إنها أثر من آثار قوتنا غير أنها أقوى منا ؛ إنها فينا ولا تتركنا ؛ إنها تخاطبنا في كل لحظة فإن قالت لنا أطيعوا أطيعنا ، وأن رسمت لنا واجبات خضعنا . إن الإنسان ليستطيع أن يقهر الطبيعة لكنه مستعبد لفكره .

أرخيوس بل لا اعتبروا اسم اليونانيين سبة (هيرودوت ١ : ١٤٣) ، ويمكن الزد أيضاً على أولئك الذين يعتقدون في غزو اليونانيين ويضيفون أن طبقة الأشراف النسباء (Eupatrides) أتت من هنا بأن معظم الأسرات الأثينية الكبيرة ترجع إلى عصر سابق بكثير للعصر الذي يضعون فيه وصول يون في أتيكا ، هل معنى هذا أن الأثينيين ليسوا يونانيين في سوادهم الأعظم ؟ من المؤكد أنهم ينتمون لذلك الفرع من الجنس الإغريقي . يخبرنا استرابون أن أتيكا كانت تسمى في أقدم العصور يونيا وياس . ولكن من الخطأ أن نجعل من ابن اكسيثوس (Xuthos) ، من بطل الأسطورة في أوربيديس ، أرومة هؤلاء اليونانيين فإنهم أقدم من يون قديماً سحيقاً ، وربما كان اسمهم أقدم بكثير من اسم الهلنيين . ومن الخطأ جعل كل النسباء من سلالة يون هذا وتقديم هذه الطبقة من الناس كشعب فاتح قهر بالقوة شعباً مغلوباً فإن هذا الرأي معه لا يعتمد على أي دليل قديم .

كانت العقيدة العتيقة تأمر الإنسان أن يعبد أسلافه ؛ فعبادة السلف هي التي جمعت الأسرة حول المذبح . ومن هنا جاءت الديانة الأولى ، والصلوات الأولى ، والفكرة الأولى عن الواجب ، والأخلاق الأولى . ومن هنا أيضاً قامت الملكية وثبت نظام الإرث . ومن هنا أخيراً جاء كل القانون الخاص وكل قواعد التنظيم المنزلي . ثم كبرت العقيدة والجماعة في آن واحد . وكلما شعر الناس بأن لهم آلهة مشتركة اتحدوا في جماعات أوسع . ونفس هذه القواعد التي وجدت واستقرت في الأسرة تنطبق على الأخوية والقبيلة والمدينة على التوالي .

ولنلق نظرة شاملة على الطريق الذي قطعه الناس . عاشت الأسرة في البدء منعزلة ولم يعرف الإنسان إلا آلهته المنزلية *Θεοὶ πατρῶν, dii gentiles* . ثم تكونت الأخوية بآلهتها *Θεὸς φράτριος, Juno curialis* فوق الأسرة . ثم أتت القبيلة وإله القبيلة *Θεὸς φύλιος* . وأخيراً وصلوا إلى المدينة وتصوروا إلهاً تشمل نعاؤه المدينة كلها *Θεὸς πολιεύς, penates publici* . درجات بعضها فوق بعض ، درجات من العقائد ودرجات من الجماعات . كانت الفكرة الدينية عند القدماء هي النسمة الملهمة والمنظمة للمجتمع .

تروى أثار الهنود والإغريق والرومان أن الآلهة كشفوا للإنسان عن القوانين الاجتماعية . وهناك حقيقة تحت هذه الصورة الأسطورية . فإن القوانين الاجتماعية كانت من عمل الآلهة لكن هذه الآلهة القوية المنيعمة لم تكن غير عقائد الناس .

تلك كانت طريقة نشأة الدول عند القدماء . وكانت هذه الدراسة ضرورية لكي نقف بعد قليل على طبيعة المدينة وأنظمتها . ولكن لا بد هنا من تحفظ فإنه إذا كانت المدن الأولى قد تكونت من حلف من المجتمعات الصغيرة التي تكونت من قبل فليس معنى هذا أن كل المدن المعروفة لنا قد تكونت بنفس الطريقة . إذ أنه بمجرد أن وجد النظام البلدي لم تعد هناك ضرورة لأن يأتنفوا نفس الطريق الطويل العسير لكل مدينة جديدة . بل كان يحدث في كثير من الأحيان أن يتبعوا نظاماً عكسياً . فعندما كان يخرج رئيس من مدينة تكونت

من قبل ويذهب لتأسيس مدينة أخرى لم يكن يستصحب في العادة إلا عدداً قليلاً من مواطنيه ويضم إليهم كثيراً من الناس الآخرين الذين يأتون من أماكن متعددة بل من المحتمل أنهم كانوا ينتمون إلى أجناس متعددة . ولم يكن يفوت هذا الرئيس مطلقاً أن ينشئ الدولة الجديدة على صورة المدينة التي غادرها . وبناء عليه كان يقسم شعبه إلى قبائل وأخويات . وكان لكل واحدة من هذه الجماعات الصغيرة موقد وقرايين وأعياد ؛ بل إن كل واحدة منها كانت تتصور بطلاً قديماً تكرمه بعبادة ما ، ثم وصلت مع الزمن إلى الاعتقاد بأنها من نسله .

هذا وكثيراً ما كان يحدث أن يعيش أهالي بعض البلاد بلا قوانين أو نظام إما لأن النظام الاجتماعي لم ينجح في الاستقرار كما في أركاديا أو لأن ثورات عنيفة مفاجئة قد أفسدته وحلته كما في قرينه (Cyrène) وثوري (Thurii) . فإذا ما حاول مشروع أن يضع نظاماً هؤلاء الناس فإنه لم يكن يفته أن يبدأ بتوزيعهم في قبائل وأخويات كما لو لم يكن هناك طراز آخر للمجتمع غير هذا . وكان يقيم في كل واحد من هذه النطاقات بطلاً يُتسمى به (éponyme) ، ويفر قرايين . ويفتح آثاراً . من هنا كانوا يبدؤون دائماً عند ما كانوا يريدون تأسيس جماعة منظمة (١) . وهكذا فعل أفلاطون نفسه عند ما تخيل مدينة نموذجية .

(١) هيرودوت ٤ : ١٦١ . انظر أفلاطون : القوانين ٥ : ٧٨٨ ؛ ٦ : ٧٧١ . وهكذا كان عندما أصلح ليكورغ مدينة أسطره وجددها فان أول شيء عمله هو أنه بنى معبداً . والثاني أنه قسم المواطنين إلى $\phi\upsilon\lambda\alpha\iota$ أو $\omega\beta\alpha\iota$ ؛ أما قوانينه السياسية فقد أتت بعد ذلك (بلوتارخوس : ليكورغ ٦)

الفصل الرابع

البلدة

لم يكن لفظا مدينة وبلدة مترادفين عند القدماء. فالمدينة كانت تجمعاً دينياً وسياسياً بين الأسرات والقبائل . وكانت البلدة مكان الاجتماع ومقر الجماعة وعلى الأخص مكانها المقدس .

ويجدر بنا ألا نتصور المدينة القديمة كما نتصور المدن التي نراها تقوم في أيامنا : نبنى بضعة بيوت فإذا هي قرية ، ويزداد عدد البيوت تدريجياً فإذا هي بلدة ؛ وننتهي إذا لزم الأمر بإحاطتها بخندق وسور . لكن البلدة عند القدماء لم تكن تتكون مع مرور الزمن عن طريق الازدياد البطيء في عدد الناس والمباني . بل كانوا يؤسسون البلدة دفعة واحدة ، تؤسس كلها في يوم واحد .

لكن كان لا بد من وجود المدينة أولاً ؛ وكان ذلك هو العمل الأشق والأطول . فإذا ما اتفقت الأسرات ، والأخويات والقبائل على الاتحاد وعلى أن يكون لها نفس العبادة فإنهم كانوا يؤسسون البلدة فوراً لكي تكون مقدساً لهذه العبادة المشتركة . ولذا كان تأسيس مدينة ما عملاً دينياً على الدوام .

سنتخذ من روما ذاتها مثلاً أول بالرغم مما هو مألوف من عدم تصديق هذا التاريخ القديم . كثيراً ما رددوا أن رومولوس كان رئيساً لعصابة من المغامرين وأنه كون لنفسه شعباً باستدعائه الصعاليك واللصوص إليه وأن جميع هؤلاء الناس الذين جمعهم من غير اختيار بنوا مصادفة بضعة أكواخ ليحفظوا فيها غنيمتهم . لكن الكتاب الأقدمين يقدمون لنا الوقائع بطريقة تختلف عن ذلك كل الاختلاف . ويلوح لنا أنه إذا أريد معرفة الزمن العتيق فإنه يجب أن تكون القاعدة الأولى هي الاعتماد على الشواهد التي تأتينا

منه . حقاً إن هؤلاء الكتاب يتكلمون عن ملجأ أى عن حائط مقدس قبل فيه رومولوس كل أولئك الذين تقدموا إليه . وهو في هذا قد اتبع المثل الذي أعطاه له الكثيرون من مؤسسى البلدان (١) . لكن هذا الملجأ لم يكن البلدة بل إنه لم يفتح إلا بعد أن أسست البلدة وتم بناؤها (٢) . فكان ذلك ملحقات مضافاً إلى روما ولم يكن روما نفسها . بل إنه لم يكن جزءاً من بلدة رومولوس إذ أنه كان واقعاً على أكمة الكايتوليوم بينما كانت البلدة تحتل هضبة البلاتيوم (Palatin) (٣) . ومن المهم تمييز العنصر المزدوج في أهالى روما تمييزاً جيداً . ففي الملجأ كان المغامرون الذين لا نار لهم ولا مكان . وعلى البلاتيوم القوم الذين أتوا من ألبا (Albe) أى الذين كانوا منظمين في مجتمع من قبل وهم موزعون على فصائل (gentes) وندوات (curiae) ولهم عبادات منزلية وقوانين . أما الملجأ فلم يكن إلا كمحلة أو ضاحية كانت الأكواخ تبنى فيها مصادفة وعلى غير قاعدة ؛ وعلى البلاتيوم كانت تقوم مدينة دينية مقدسة .

(١) Tite—Live, I, 8: *Vetere consilio condentium urbes*.

(٢) تيتوس ليفيوس ٨: ١ . بعد أن روى تيتوس ليفيوس تأسيس البلدة على البلاتيوم وبعد أن تكلم عن أنظمتها الأولى أضاف *Deinde asylum aperit*

(٣) كانت البلدة (urbs) تحتل البلاتيوم وهو ما يثبت به بصفة قاطعة ديونيسيوس ٢ : ٦٩ ؛ بلوتارخوس : رومولوس ٩ ؛ تيتوس ليفيوس ١ : ٧ و ٣٣ ؛ فارون : اللسان اللاتيني ٦ : ٣٤ ؛ فستوس تحت لفظ *Quadrata* ص ٢٥٨ ؛ أولوس جيلوس ١٣ : ١٤ . ويعطى تاسيتوس (Tacite) (الحوليات ١٢ : ٢٤) خط هذا السور الأول الذي لم يكن الكايتوليوم (الكايتول) محصوراً فيه . — وبالعكس كان الملجأ (asylum) واقعاً على سفح الكايتوليوم : تيتوس ليفيوس ١ : ٨ ؛ استرابون ٥ : ٣ : ٢ ؛ تاسيتوس : التواريخ ٣ : ٧١ ؛ ديونيسيوس ٢ : ١٥ . فضلاً عن أنه كان مجرد *Lucus* (غابه مقدسة) أو *ἱερὸν δούλον* (ملجأ مقدس) كما كان يوجد في كل مكان في إيطاليا وفي بلاد الاغريق .

أما عن الطريقة التي أسست بها هذه البلدة فإن الزمن القديم يفيض بالمعلومات. فنجد منها في ديونيسيوس الهاليكارناسي الذي كان يستمدّها من مؤلفين أقدم منه . ونجد منها في بلوتارخوس وفي شعر أوفيدوس عن الأعياد (Fastes) ، وفي تاسيتوس ، وفي كاتون الأكبر الذي تصفح الحوليات القديمة ، وفي كاتين آخرين يجب أن يدخلوا في نفوسنا ثقة خاصة وهما العالم فارون (Varron) والعالم فريوس فلاكوس (Verrius Flaccus) الذي احتفظ لنا فستوس بجزء من مؤلفاته ، وكل من هذين العالمين على معرفة كبيرة بآثار روما القديمة ، كلاهما محب للحقيقة ، وغير مصدّق لكل ما يقال ، وعارف بقواعد النقد التاريخي معرفة لا بأس بها . نقل إلينا هؤلاء الكتاب جميعاً ذكرى الاحتفال الديني الذي اتسم به تأسيس روما ولا يحق لنا أن نرفض مثل هذا العدد من الشهادات .

ليس من النادر أن تصادفنا لدى القدماء وقائع تثير فينا العجب . فهل في ذلك ما يرر القول بأنها خزعبلات ، وعلى الأخص ، إذا كانت هذه الوقائع ، التي تباعد كثيراً عن الأفكار الحديثة ، تتفق تماماً مع آراء الأقدمين . لقد رأينا في حياتهم الخاصة ديانة تنظم كل أعمالهم . ثم رأينا أن هذه الديانة قد نظمتهم في مجتمع : فأى عجب بعد هذا في أن يكون تأسيس بلدة ما عملاً مقدساً كذلك ، وأن يقوم رومولوس نفسه بهذه الشعائر التي كانت تراعى في كل مكان ؟

أول ما كان يهتم به المؤسس هو اختيار موضع للبلدة الجديدة . لكن هذا الاختيار ، وهو شيء خطير لاعتقادهم أن مصير الشعب متوقف عليه ، كان متروكاً دائماً لما تقرره الآلهة . فلو أن رومولوس كان إغريقياً لاستشار وحى دلفوى Delphes ؛ ولو كان سمنيا (samnite) لتبع الحيوان المقدس : الذئب أوطائر الصرد (pivert) أما وهو لاتيني وجار قريب للأتروسك ؛ على علم بالعيافة (زجر الطير) (١) فقد طلب إلى الآلهة أن يكشفوا له عن إرادتهم بطيران

(١) سيسرون التكهّن ١ : ١٧ . بلوتارخوس : كاميلوس ٣٢ . بلينيوس ١٤ :

الطيور ، فدلته الآلهة على البلاتيوم .

ولما جاء يوم وضع الأساس بدأ بتقديم قربان . ها هم أولاء أصحابه يحيطون به ، يوقدون ناراً من الحطب وكل واحد منهم يقفز خلال اللهب الخفيف (١) . وتفسير هذه الشعيرة أنه يجب أن يكون الشعب طاهراً لأجل العمل الذى سيتم . وكان القدماء يعتقدون أنهم يتطهرون من كل دنس جسمانى أو خلقى بقفزهم خلال اللهب المقدس .

وعندما يُبعدُ هذا الاحتفال الافتتاحى الشعب لعملية التأسيس العظيمة يحفر رومولوس حفرة صغيرة مستديرة الشكل ويلقى فيها كتلة من الثرى الذى أتى به من مدينة ألبا (٢) . ثم يقترب كل واحد من أصحابه فى دوره ويلقى مثله قليلاً من الثرى الذى أحضره من الإقليم الذى أتى منه . وهذه الشعيرة الدينية جديرة بالملاحظة وتكشف لنا عند هؤلاء الناس عن فكرة من المهم أن نشير إليها . فقبل مجيئهم على البلاتيوم كانوا يقطنون ألبا أو بلادا أخرى مجاورة لها . هنالك كان موقدهم وهنالك عاش آباؤهم ودفنوا . والديانة تحرم ترك الإنسان للأرض التى ثبت فيها الموقد والتى يرقد فيها الأسلاف الإلهيون . فكان لا بد إذن للتخلص من كل إثم أن يعمد كل واحد من هؤلاء الناس إلى محلل وأن يحمل معه فى صورة رمزية مدرة من الثرى من تلك الأرض المقدسة التى دفن فيها أسلافه والتى ترتبط بها أرواحهم . لم يكن الرجل يستطيع أن ينتقل إلى جهة أخرى إلا إذا أخذ معه أرضه وآلهته . وكان لا بد أن تم هذه الشعيرة الدينية لكى يستطيع القول، وهو يشير إلى المكان الحديد الذى اتخذته، إن هذه أيضاً أرض آباؤى *terra patrum, patria*، هنا وطنى إذ أن هنا أرواح أسرتى .

كانت الحفرة التى ألقي فيها كل واحد منهم بقليل من الثرى تسمى موندوس (*Mundus*) ؛ وهذا اللفظ كان يدل فى اللغة الدينية القديمة على إقليم الأرواح

(١) ديونيسيوس ١ : ٨٨ .

(٢) بلوتارخوس : رومولوس ١١ . ديون كاسيوس : القطعة ١٢ . أوفيدىوس

الأعياد ٤ : ٨٢١ . فستوس تحت لفظ *Quadrata*

بصفة خاصة (١) . ومن هذا المكان ذاته كانت أرواح الأموات تمرق ، كما تقول الأثارة ، ثلاث مرات في العام متطلعة لرؤية الضوء لحظة ما (٢) . ألسنا نرى بعد ذلك في هذه الأثارة الفكرة الحقيقية لهؤلاء القدماء . لقد اعتقدوا بوضعهم مدبرة من ثرى وطنهم القديم في الحفرة أنهم حبسوا فيها أرواح أسلافهم أيضاً . وكان لهذه الأرواح المجتمعة هنا أن تتلقى عبادة دائمة وأن تسهر على سلامة ذريتها وقد وضع رومولوس في نفس هذا المكان مذبحاً وأوقد ناراً . فكان ذلك موقد المدينة (٣) .

وحول هذا الموقد كان يجب أن تقوم البلدة كما يقوم المنزل حول الموقد المنزلى وقد خط رومولوس شقاً بين السور . وهنا أيضاً تحدد الشعائر أصغر التفاصيل . يجب أن يستعمل المؤسس سكة (٤) من النحاس ويحرق محراثه ثور أبيض وبقرة بيضاء . وقد قبض رومولوس نفسه على مقبض المحراث وهو مقنع الرأس مرتدياً الملابس الكهنوتية ، ووجه المحراث وهو ينشد الأدعية ومشى أصحابه خلفه في صمت ديني . وكلما رفعت السكة كتلة من الثرى ألقوا بها ، بعناية ، داخل السور لكيلا تكون أية ذرة من هذه الأرض المقدسة في

Plutarque, *Romulus*, 11, *Kalou̓sai de ton bóthron touton mou̓ndon* (١) .

secreatam diis manibus. Servius, *ad. Aen.*, III 134: *Aras Inferorum (vocat) mundos.*

(٢) كان التعبير *mundus patet* يدل على هذه الأيام الثلاثة التي كانت الأرواح تخرج فيها من مساكنها .

Varron, dans Macrobe, *Saturn.*, I, 16: *Mundus cum patet, Deorum tristium atque inferum quasi janua patet.* Festus, éd. Müller, p. 156: *Mundum ter in anno patere putabant. . . clausum omni tempore praeter hos tres dies quos religiosos judicaverunt quod his diebus ea quae occulta religionis deorum manium essent, in lucem adducerentur.*

Ovide, *Fastes*, IV, 822, *Fossa repletur humo plenaque imponitur ara, Et novus accenso fungitur igne focus* (٣)

وقد نقل الموقد فيما بعد . وعند ما اندمجت البلدان الثلاثة التي على البلاتيوم والكاييتولينوس والكويريناليس في بلدة واحدة وضع الموقد المشترك أو معبد فستاف أرض محايدة بين التلال الثلاثة

(٤) السكة هي حديدة المحراث . — العرب .

ناحية الأجنبي (١)

وهذا السور الذى رسمته الديانة مصون لا يمس ، وليس لأجنبي ولا لمواطن أن يتخطاه . فالقفز فوق هذا الشق الصغير عمل غير صالح . كانت الأثارة الرومانية تقول إن أخ المؤسس قد ارتكب هذه الخطيئة ودفع حياته ثمناً لها (٢) . وقد كان الشق مقطوعاً فى بعض المواضع لكى يكون الدخول إلى البلدة والخروج منها مستطاعاً . وللوصول إلى ذلك كان رومولوس يرفع السكة ويحملها . تلك الفرجات تسمى *portae* ؛ تلك هى أبواب البلدة (٣) . وعلى الشق المقدس أو وراءه بقليل يقوم السور فيما بعد ، وهو مقدس أيضاً (٤) . ليس لأحد أن يمس به بغير إذن من الأحرار ، حتى لإصلاحه . وعلى

(١) . بلوتارخوس : رومولوس ١١ . ديونيسيوس الهاليكارناسى ١ : ٨٠٨ . أوفيدىوس : الأعياد ٤ : ٨٢٥ وما بعدها .

Varron, *De ling. lat.*, V, 143: *Oppida condebant in Latio, Etrusco ritu, junctis bobus, tauro et vacca interiore, aratro circumagebant sulcum; hoc faciebant religionis causa, die auspicato. Terram unde exculpserant fossam vocabant et introrsum jactam murum.* Festus, éd. Müller, p. 375: *Urvat. . . ab eo sulco qui fit in urbe condenda sulco matri.* كانت هذه القواعد معروفة وبألوفة حتى أن فرجيليوس عندما وصف تأسيس بلدة بدأ بوصف هذه العادة :

Interea Aeneas urbem designat aratro (V, 755).

Plutarque, *Quest. rom.*, 27: *Tò τοῖχος ἱερὸν οὖτω γὰρ (٢) δοκεῖ Ῥωμύλος ἀποκτεῖναι τὸν ἀδελφὸν ὡς ἄρματα καὶ ἱερὸν τύπον ἐπιχειροῦντα δαπηδῆν καὶ ποιεῖν βεβηλόν.*

Caton, cité par Servius: *Urbem designat aratro; quem Cato in (٣) Originibus dicit morem fuisse; conditores enim civitatis taurum in dextra, vaccam intrinsecus jungebant; et incincti ritu Sabino, id est, togae parte caput velati, parte succincti, tenebant stivam incurvam ut glebae omnes intrinsecus caderent; et ita sulco ducto loca murorum designabant aratrum suspendentes circa loca portarum* (Servius, *Ad. Aen.*, V, 755).

Cicéron, *De nat. deorum*, III, 40: *muri urbis quos vos, ponti- (٤) fices, sanctos esse dicitis, diligentiusque urbem religione quam moenibus cingitis.*—Gaïus, II, 8: *sanctae quoque res velut muri et portae, quodammodo divini juris sunt.*—Digeste, I, 8, 8: *muros esse sanctos; ibid., 11: Si quis violaverit muros, capite punitur.*

جانبي هذا السور تركوا للديانة حرماً من بضع خطوات ويسمونه *pomoerium*، ولا يسمح بمرور المحراث فيه ولا إقامة أى مبنى عليه (١).

هكذا كان الاحتفال بتأسيس روما طبقاً لجمهرة من الشواهد القديمة. وإذا سأل سائل كيف أمكن الاحتفاظ بذكره حتى وصلت إلى الكتاب الذين نقلوها إلينا . فجوابه أن هذا الاحتفال كان يعود به إلى ذاكرة الشعب في كل عام احتفال تذكاري يسمونه يوم ميلاد روما (٢) . وكان يحتفل بهذا العيد في كل الزمن القديم من عام إلى عام؛ ولا يزال الشعب الروماني يحتفل به إلى اليوم في نفس التاريخ الذي كان يحتفل به فيه : اليوم الحادي والعشرين من شهر أبريل . إلى هذا الحد يبقى الناس مخلصين لعاداتهم القديمة خلال تقلباتهم التي لا تنقطع .

وليس من المعقول الظن بأن رومولوس كان أول من تصور مثل هذه الشعائر. على العكس، من المؤكد أن كثيراً من المدن قد شيدت على نفس النمط قبل روما. يقول فارون إن هذه الشعائر كانت مشاعة بين اللاتيوم وأتروريا . ونجربنا

Varron, V, 143: *Postea qui fiebat orbis, urbis principium:.... (١) postmoerium dictum, quo urbana auspicia finiuntur. Cippi pomoerii stant circum Roman. Tite - Live, I, 44: Pomoerium. . . . locus quem in condendis urbibus quondam Etrusci certis terminis inaugurato consecrabant, ut neque interiore parte aedificia moenibus continuarentur ac extrinsecus puri aliquid ab humano cultu pateret soli. . . Neque habitari neque arari fas est.*

أعطى أولوس جيلوس (١٣ : ١٤) التعريف الذي وجدته في كتب المستخيرين (augures):

Pomoerium est locus intra agrum affatum per totius urbis circuitum pene muros, regionibus (religionibus) certis determinatus, qui facit finem urbani auspicii.

Plutarque, *Romulus*, 12: *Kai tēn hēmēran taútēn eor- (٢) tázousi 'Ρωμαῖοι γενέθλιον τῆς πατρίδος ὀνομάζοντες.*

Pline, *Hist, nat.*, XVIII, 66, 247: *XI Kalendas maias urbis Romae natalis. Cf. Corpus inscript. lat., t. I, p. 340-341; Natalis dies urbis Romae.*

كاتون الأكبر ، الذى رجع إلى حوليات جميع الشعوب الإيطالية لى يكتب كتابه عن الأصول (*origines*) . أن جميع مؤسسى المدن استعملوا شعائر مماثلة . وكانت عند الأتروسك كتب للصلوات قُدت فيها شعائر كاملة لهذه الاحتفالات (١) .

كان الإغريق يعتقدون كالإيطاليين أن المعبود هو الذى يجب أن يختار موضع المدينة وأن يكشف عنه . لذلك كانوا يستشيرون وحى دلفوى (*Delphes*) عندما كانوا يريدون تأسيس إحدى المدن (٢) . وبسّين هيرودوت أنه كان من الإثم أو الجحون أن تجرأ دوريس (*Doriée*) الإسبرطى على بناء مدينة دون استشارة الوحى ودون القيام بأى احتفال من الاحتفالات المنصوص عنها . ولم يدهش المؤرخ الورع من أن مدينة بنيت دون مراعاة للقواعد لم تدم أكثر من ثلاثة أعوام (٣) . وعندما ذكر ثوقيديديس اليوم الذى أسست فيه اسبرطه ذكر الأناشيد الورعة والقرايين التى قدمت فى ذلك اليوم (٤) . ونجبرنا نفس المؤرخ أنه كان للأثينيين شعائر خاصة وأنهم لم يؤسسوا مستعمرة قط دون السير على مقتضاها (٥) . ويمكن أن نرى فى هزلية لأرسطوفانيس صورة على شىء من الدقة للاحتفال المألوف فى مثل هذه الحال فإن الشاعر عند ما مثل التأسيس المضحك لمدينة الطيور كان يفكر حتماً فى العادات المرعية فى تأسيس بلاد الآدميين ، لهذا وضع على المسرح كاهناً يوقد موقداً وهو يدعو الآلهة ، وشاعراً يفسد الأناشيد ، ونجبراً بالغيب يتلو الوحى .

(١) كاتون فى سرفيوس ٥ : ٧٥٥ . فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ١٤٣ .
فستوس تحت لفظ *Rituales* ص ٢٨٥ :

Rituales nominantur Etruscorum libri in quibus praescriptum est quo ritu condantur urbes, arae, aedes sacrentur, qua sanctitate muri.

(٢) هيرودوت ٤ : ١٥٦ ؛ ديودوروس ١٢ : ١٢ ؛ بوسانياس ٧ : ٢ ؛
أثيناىوس ٨ : ٦٢ .

(٣) هيرودوت ٥ : ٤٢ .

(٤) ثوقيديديس ٥ : ١٦ .

(٥) ثوقيديديس ٣ : ٢٤ .

تجول بوسانياس في بلاد الإغريق حوالى عصر هادريانوس . وعند ما وصل إلى إقليم مسينه (١) جعل الكهنة يروون له تأسيس بلدة مسينه ونقل إلينا روايتهم (٢) . لم يكن الحادث قديماً جداً فقد وقع في عهد إپامينونداس (Epaminondas) . وكان المسيينيون قد طردوا من بلادهم قبل ذلك بثلاثة قرون ، ومنذ ذلك الوقت وهم يعيشون متفرقين بين الإغريق الآخرين دون أن يكون لهم وطن ، لكنهم حافظوا في عناية شديدة على عاداتهم القومية وعلى ديانتهم . وقد أراد الثيبون أن يردوهم إلى الپيلوپونيز لكي يقيموا عدوا في جنب إسبرطه ، لكن أصعب ما في الأمر كان إقناع المسيينين بذلك . ولما كان إپامينونداس يعامل قوماً ميالين للخرافات فقد اعتقد أن من واجبه أن يذيع وحيأً يتنبأ لهذا الشعب بالعودة إلى وطنه القديم فدلّت بعض الرؤى الحارقة للعادة على أن آلهة المسيينين القومية التي كانت خانتهم في زمن الغزو قد عادت ميالة إليهم . وعندئذ عقد ذلك الشعب الوجل عزمه على العودة إلى الپيلوپونيز في إثر جيش ثيبى . كان عليهم أن يعرفوا المكان الذى ستبنى فيه المدينة إذ لم يكن هناك مجال للتفكير في العودة إلى احتلال بلدان الإقليم القديمة لأن الغزو قد دنسها . ولم تكن بيدهم الوسيلة المعتادة لاختيار المكان الذى سيقيمون فيه ألا وهى استشارة وحي دلفوى إذ أن الپيثيا كانت عندئذ من حزب إسبرطه . ولحسن الحظ كانت لدى الآلهة وسائل أخرى لإعلان إرادتهم فقد رأى كاهن مسينى رؤيا ظهر له فيها واحد من آلهة أمتة وقال له إنه سيستقر على جبل إيثومى (Ithome) وأنه يدعو الشعب إلى اللحاق به . وهكذا تبين موضع البلدة الجديدة . بقيت معرفة الشعائر اللازمة للتأسيس ، لكن المسنين كانوا قد نسوها . هذا ولم يكن فى استطاعتهم أن يتبعوا شعائر الثيبين ولا شعائر أى شعب آخر ولم يكونوا يدرّون كيف يبنون البلدة . وفى الوقت المناسب جاءت الرؤيا لمسينى آخر : أمرته الآلهة بالانتقال على جبل إيثومى والبحث عن شجرة سرو (if) بجوار شجرة آس (myrte) وحفر الأرض فى ذلك الموضع . فأطاع . واكتشف جرة

(١) مسينه هذه إقليم من بلاد الإغريق وهى غير البلدة المعروفة فى جزيرة صقلية

(٢) بوسانياس ٤ : ٢٧ .

وبدأخل الجرة صفائح من القصدير منقوش عليها كل شعائر الاحتفال المقدس .
ففسخ الكهنة صورتها فوراً وكتبوها في أسفارهم . ولم يفهم أن يعتقدوا أن
ملكاً قديماً من ملوك الميسينيين وضع الجرة في ذلك المكان قبل غزو البلاد .

فلما استحوزوا على الشعائر بدأ وضع الأساس . فقدم الكهنة في الأول
قرباناً . ودعوا آلهة مسينه القدماء وهم الديوسقوران وچوبيتر الإيثوى والأبطال
القدماء والأسلاف المعروفون المجددون . والظاهر أن حماة البلاد هؤلاء كانوا
قد غادروها طبقاً لعقائد الأقدمين في اليوم الذي أصبح فيه العدو سيداً على
البلاد . فاستحلفوهم أن يعودوا ، وتلوا عزائم من شأنها أن تجبرهم على سكنى
البلدة الجديدة بالمشاركة مع المواطنين . وقد كان ذلك هو المهم ، فإن جعل
الآلهة يستقرون معهم هو أكثر ما كان يتطلع إليه هؤلاء الناس ويمكن الاعتقاد
بأنه لم يكن للاحتفال الدينى هدف آخر . فكما أن أصحاب رومولوس حفروا
حفرة واعتقدوا أنهم أودعوها أرواح أسلافهم كذلك كان معاصرو إيامينونداس
يدعون إليهم أبطالهم وأسلافهم الإلهيين وآلهة الإقليم . واعتقدوا أنهم بالعزائم
والشعائر يلزمونهم الأرض التي سيحتلونها هم أنفسهم ويحبسونهم في السور
الذى سيخطونه . لذلك كانوا يقولون لهم : « تعالى معنا ، أيتها الكائنات الآلهية
واسكنى معنا في هذه المدينة . » وقضوا يومهم الأول في هذه القرابين وهذه
الأدعية . وفي اليوم التالى خطوا السور بينما كان الشعب ينشد الأناشيد الدينية
وإن الإنسان ليدersh أولاً عند ما يرى في المؤلفين القدماء أنه ما من مدينة
مهما كانت قديمة لا تدعى معرفة اسم مؤسسها وتاريخ تأسيسها . ذلك لأن البلدة
لم تكن تستطيع أن تنسى ذكرى الاحتفال المقدس الذى عين مولدها ، إذ أنها
كانت تحتفل بذكراه كل عام بقربان . فكانت أثينا تحتفل بيوم مولدها ، وكذلك
كانت روما . (١)

Plutarque, *Thésée*, 24: "Ἔθυσσε τὰ μετοίκια, ἥν τε καὶ νῦν θύουσι (١)

يلاحظ ميسرون (الدفاع عن سكستوس ٦٣) أنه نزل من البحر في برنديزى في اليوم الذى

كانت تحتفل فيه البلدة بيوم مولدها : *Idem dies natalis coloniae Brundisinae*

كثيراً ما كان يحدث أن تستقر جالية أو غزاة في بلدة مبنية من قبل ، فلم يكن عليهم أن يبنوا بيوتاً إذ ما من شيء يحول دون سكناتهم بيوت المغلوبيين . لكن كان عليهم أن يقوموا باحتفال التأسيس أى أن يضعوا موقدهم هم وأن يثبتوا آلهتهم القوميين في مقرهم الجديد . ولهذا نقرأ في ثوقيديديس وفي هيرودوت أن الدوريين أسسوا اسيرطه ، واليونانيين ميليتوس (Milet) مع أن هذين الشعبين وجدا هاتين البلدتين كاملتي البناء وقديمتين جداً في ذلك الحين .

تبين لنا هذه العادات بوضوح ماذا كانت البلدة في فكر القدماء . كان يحوطها سور مقدس، وتمتد حول مذبح، وبذلك كانت تعد السكن الدينى الذى يتلقى آلهة المدينة وأهلها على السواء . قال تيتوس ليفيوس عن روما «ليس في هذه البلدة مكان لم يتشعب بالدين ولا يشغله معبود ما ... الآلهة يسكنونها» . وما قاله تيتوس ليفيوس عن روما كان يستطيع كل إنسان أن يقوله عن بلده . لأنها إذا كانت قد أسست طبقاً للشعائر فإنها تكون قد تلقت بداخل سورها آلهة حماة كما لو كانوا قد غرسوا في أرضها ولن يفارقوها أبداً . كانت كل بلدة مقدساً وكل بلدة كان يمكن أن تدعى مقدسة (١) .

كما أن الآلهة كانت تلازم المدينة إلى الأبد فقد كان من واجب الشعب أيضاً ألا يترك المكان الذى استقرت فيه آلهته . فقد كان هناك من هذه الناحية تعهد مشترك ، نوع من التعاقد بين الآلهة والناس . قال عرفاء السوق (tribuns) يوماً أن روما بعد أن خربها الغاليون لم تعد سوى كومة من الخرائب وأنه على بعد خمس مراحل كانت توجد مدينة كاملة البناء كبيرة ، جميلة ، ذات موقع حسن ، وخالية من السكان منذ فتحها الرومان . فيجب إذن ترك روما المحربة والانتقال إلى فيييس (Veii) . لكن كاميلوس الورع أجابهم قائلاً «إن مدينتنا

(١) *Ἰλίου ἱερὸν* (اللياذة) *Ἀθηναίαι* *ἱεραὶ* (أرسطوفانيس : الفرسان ١٣١٩) .
Δακεδαίμονι δὴ (ثيوغنيس : البيت ٨٣٧) . ويقول ثيوغنيس عند الكلام على ميغارا *Ἱερὰν πόλιν* بوسانياس ١ : ٢٦ : *Ἱερὰ τῆς Ἀθηναῖς ἐστὶν ἡ πόλις* .

أسست طبقاً للدين ، وإن الآلهة أنفسهم عينوا موضعها واستقروا فيها مع آبائنا ، وبالرغم من أنها كلها خرائب فإنها لا تزال مسكن آلهتنا القومية . فبقى الرومان في روما .

نقد كان هناك شيء مقدس وإلهي يلزم بطبعه هذه البلدان التي أقامتها الآلهة (١) والتي استمروا يملأونها بحضورهم . وإنا نعرف أن الآثار الرومانية كانت تعد روما بالخلود . وكان لكل مدينة آثار شبيهة بهذه . لقد كانوا يبنون جميع البلدان لكي تكون خالدة .

(١) Neptunia Troja, Θεόδομητοι Ἀθηναί . انظر غنيس البيت ٧٥٥ (طبعة ولكر (Welcker)

الفصل الخامس

عبادة المؤسس: أسطورة إينياس (Enée)

المؤسس هو الرجل الذي يقوم بالعملية الدينية التي بدونها لا يمكن أن توجد البلدة . فهو الذي كان يضع الموقد الذي يجب أن تشتعل عليه النار المقدسة إلى الأبد . وهو الذي كان يدعو الآلهة بدعواته وشعائره ويثبتها في البلدة الجديدة إلى الأبد .

وإننا لنذكر الاحترام الذي لا بد أنه كان يلزم هذا الرجل المقدس . ففي حياته كان يرى الناس فيه مؤلف العبادة ووالد المدينة ؛ وبعد مماته كان يصبح سلفاً مشتركاً لكل الأجيال التي تتوالى بعده ؛ فكان بالنسبة للمدينة كما كان السلف الأول بالنسبة للأسرة : لاراً عائلياً . وتدوم ذكراه كما تدوم نار الموقد التي أوقدها . وكانوا يخصصون له عبادة ويعتقدون أنه إله ، وتعبد المدينة باعتباره المنعم عليها . وكانت تجدد على قبره القرابين والأعياد كل عام (١) .

يعلم الجميع أن رومولوس كان يعبد وكان له معبد وسدنة . فقد استطاع الشيوخ أن يذبحوه لكنهم لم يستطيعوا أن يحرموه من العبادة التي كانت

(١) بنداروس : البيثيات ٥ : ١١٧ - ١٣٢ ؛ الأوليات ٧ : ١٤٣ - ١٤٥ . يطلق بنداروس على المؤسس «أب الاحتفالات المقدسة» (Hyporchemes fr. 1). أما إعادة إنشاء عبادة للمؤسس فيشهد بها هيرودوت وديودوروس

Herodote VI, 38: *Μιλτιάδει τελευτήσαντι Χερσσηοῖται θύουσιν, ὡς νόμος οἰκιστῆ.*

Diodore de Sicile, XI, 78: *Ἰερὼν ἐτελεύτησε καὶ τιμῶν ἡρωικῶν ἔτιχεν ὡς ἄν κτίστης γιγνὼς τῆς πόλεως* (أراتوس ٥٣) التكريم الديني والقرابين التي أنشئت لأراتوس بعد موته ويضيف *ὡςπερ οἰκιστὴν ἐκῆδευσαν*

من حقه باعتباره مؤسساً (١) . وكذلك كانت كل بلدة تعبد من أسسها : فقد كانت في أثينا معابد لكروپس وثيسوس اللذين كانا يعتبران مؤسسى أثينا الواحد بعد الآخر . وكانت أبديرا (Abdère) تقدم القرابين لمؤسسها تيمسيوس (Timésios) وكذلك ثيرا (Théra) لثيراس (Théras) وتندوس لتيس (Ténès) وديلوس لأنيوس (Anios) وقرينيه لباتوس (Battos) ومليتوس لنيليوس (Nélée) وامفيبوليس لهاغنون (Hagnon) (٢) . وفي عهد سيستراتوس ذهب شخص يدعى ملتياديس ليؤسس مستعمرة في شبه جزيرة خرسونيس (Chersonese) في تراقيا . فأنشأت له هذه المستعمرة عبادة بعد موته « طبقاً للعادة المألوفة » ولما أسس هيرون (Hiéron) طاغية سيراكوسه إتنا تمتع فيها فيما بعد « بعبادة المؤسسين (٣) .

ما من شيء كان عالقاً بقلب المدينة بقدر ما كانت ذكرى تأسيسها ، عند مازار بوسانياس بلاد الإغريق في القرن الثاني من الميلاد المسيحي استطاعت كل بلدة أن تحدثه عن اسم مؤسسها ونسبه وأهم الأحداث في حياته . ولم يكن من المستطاع أن يخرج هذا الاسم وهذه الأحداث من الذاكرة إذ أنها كانت جزءاً من الدين وكانت تستعاد ذكرها في الاحتفالات المقدسة كل عام . وقد احتُفظ بذكرى عدد كبير من القصائد الإغريقية التي كان موضوعها

(١) بلوتارخوس : رومولوس . ديونيسيوس ٢ : ٦٣ : *Tὸν 'Ρωμόλον ἱεροῦ* : *κατασκευῇ καὶ θυσίαις διετησίαις ἔταξε γεραιροῦσθαι* أوفيد يوس : الأعياد ٢ : ٤٧٥ - ٥١٠ . سيسرون : الجمهورية ٢ : ١٠ : ١ : ٤١ : « وامن رحيب في أن بعض الأناشيد قد ألفت منذ تلك اللحظة تمجيدا للمؤسس » وإن النفس لتحدثنا بأن نرى صدى لهذه الأغاني القديمة في بعض أبيات من الشعر لأنيوس (Ennius) رواها سيسرون .

Simul inter

Sese sic memorant: O Romule, Romule die,
Qualem te patriae custodem Di genuerunt!
O pater, o genitor, o sanguem Dis oriundum,
Tu produxisti nos intra luminis oras,

(٢) هيروdot ١ : ١٦٨ . بنداروس : البيثيات ٤ . ثوقيديديس ٥ : ١١ . استرابون ١٤ : ١ . سيسرون : طبيعة الآلهة ٣ : ١٩ . بلوتارخوس : المسائل الإغريقية ٢٨ . بوسانياس ١ : ٣٤ : ٣ : ١ .

(٣) هيروdot ٦ : ٣٨ . ديودوروس ١١ : ٧٨ . ويبدو أن عبادة المؤسس كانت موجودة عند السابينيين أيضاً . القديس أوغسطينوس : مدينة الله ١٨ : ١٩ : *Sabini etiam regem suum primum Sangum retulerunt in Deos.*

تأسيس بلدة . فقد تغنى فيلوخوروس (Philochores) بتأسيس سلامين ، ويون بتأسيس خيوس ، وكريتون بتأسيس سيراقوسة ، وزوپيروس بتأسيس ميليتوس ؛ وقد ألف أبولونيوس وهرموغينيس وهيلانيكوس وديوقليس قصائد أو روايات عن نفس الموضوع . وقد لا تكون هناك بلدة واحدة لم تكن لها قصيدتها أو على الأقل نشيدها عن تلك العملية المقدسة التي أنشأتها .

ومن بين كل هذه القصائد القديمة ، التي كان موضوعها التأسيس المقدس لبلدة من البلاد ، قصيدة واحدة لم تبد ، لأنه إذا كان موضوعها قد جعلها عزيزة على مدينة فإن جمالها قد جعلها ثمينة لجميع الشعوب وجميع القرون . من المعروف أن إينياس (Enée) أسس لافينيوم (Lavinium) التي خرج منها أهالي ألبا والرومان ، وبذلك كان يعبر أول مؤسس لروما وقد اتخذوه موضوعاً لمجموعة من الآثار والذكريات التي نجدتها مدونة من قبل في أبيات الشاعر القديم نيفيوس (Naevius) وفي تواريخ كاتون الأكبر . وقد سطا فرجيليوس على هذا الموضوع وكتب القصيدة القومية للمدينة الرومانية .

ووصول إينياس أو بالحرى انتقال آلهة طروادة إلى إيطاليا هو موضوع الإنييد (Enéide) . وتتغنى القصيدة بهذا الرجل الذي جاب البحار لكي يؤسس بلدة ويحمل آلهته إلى اللاتيوم .

dum conderet urbem

Inferretque Deos Latio (١)

يجب ألا نحكم على الإنييد من واقع آرائنا الحديثة . يشكو الإنسان في بعض الأحيان من أنه لا يجد في إينياس الجرأة والاندفاع والحماس ؛ ويتعب من صفة البار التي تتكرر بلا انقطاع ؛ ويدهش من رؤية هذا المحارب يستشير آلهته المنزلية (پناتس) بعناية المتأثم ، ويدعو في كل مناسبة معبوداً ما ، ويرفع ذراعيه نحو السماء حين يجب القتال ، ويترك الوحي يتدافعه فوق جميع البحار ، ويسكب الدمع عند رؤية الخطر ؛ كما أنه لا يفوت الإنسان أن يلومه على فتوره

(١) تعريبها : إلى أن يؤسس بلدته وينقل آلهته إلى اللاتيوم . (فرجيليوس : الإنييد ١ : ٥ - ٦) - العرب

نحو ديدون ؛ وتحذثه النفس بأنهم هذا القلب بأنه لا يحركه شيء .

Nullis ille movetur

Fletibus, aut voces ullas tractabilis audit. (١)

ذلك لأن الأمر هنا ليس أمر محارب أو بطل رواية وإنما أراد الشاعر أن يرينا كاهناً : فينياس هو رئيس العبادة ، الرجل المقدس ، المؤسس الإلهي الذي رسالته هي انقاذ بناتس المدينة .

Sum pius Aeneas raptos qui ex hoste Penates

Classe veho mecum. . (٢)

وصفته الغالبة يجب أن تكون البر ، وهذا النعت الذي ينعت به الشاعر في أغلب الأحيان هو الذي يليق به أحسن من سواه . وفضيلته يجب أن تكون انعدام الشخصية انعداماً بارداً سامياً لا يجعله بشراً بل يجعله آلة في يد الآلهة . لماذا نبحت فيه عن الشهوات . إنه لاحق له فيها ؛ ويجب عليه أن يدفعها إلى أعماق قلبه .

Multa gemens multoque animum labefactus amore,

Jussa tamen Divum insequitur. (٣)

كان إنياس في هوميروس شخصية مقدسة وكاهناً عظيماً ، كان الشعب « يمجده كمثيل للآلهة » وكان جوبيتر يؤثره على هكتور . وهو في فرجيليوس حارس آلهة طروادة ومنقذهم . ظهر له هكتور في رؤيا أثناء الليلة التي قضى فيها على طروادة وقال له « تستودعك طروادة آلهتها ؛ ابحث عن مدينة أخرى » . وفي نفس الوقت سلمه الأشياء المقدسة والدمى الحامية ونار الموقد التي يجب ألا تحمد . لم يكن هذا الحلم زينة وضعها هوى الشاعر ، إنه بالعكس الأساس الذي تقوم عليه القصيدة بأكملها . إذ بهذا الحلم أصبح إنياس مستودع آلهة المدينة وكُشف له عن رسالته المقدسة .

(١) تعريبها : ما من عبادة تحركه وما من كلمة تستلين قلبه (فرجيليوس : الإنييد

٤ : ٤٣٨ - ٤٣٩) - العرب .

(٢) تعريبها : أنا إنياس البار الذي ينقل معه في سفائنه البناتس التي استخلصها

من العدو (فرجيليوس : الإنييد ١ : ٣٧٨ - ٣٧٩) . - العرب

(٣) تعريبها : كان كثير التأوه ، وقد عصف بنفسه حب شديد ؛ إلا أنه كان

ينفذ أوامر الآلهة . (فرجيليوس : الإنييد ٤ : ٣٩٥ - ٣٩٦) . - العرب

هلكت بلدة طروادة لكن مدينة طروادة لم تهلك ؛ وبفضل إينياس لم ينطوىء الموقد ولا تزال للآلهة عبادة ، لقد هربت المدينة والآلهة مع إينياس وجابت البحار وبحثت عن إقليم يسمح لها بالوقوف فيه :

Considerare Teucros

(١) . . . Errantesque Deos agitataque numina Trojae.

يبحث إينياس لآلهة آبائه عن مقر ثابت مهما كان صغيراً :

(٢) Dis sedem exiguam patriis.

لكن اختيار هذا المقر الذى سيرتبط به مصير المدينة إلى الأبد لا يتوقف على الناس بل هو للآلهة . استشار إينياس الكهان وسأل الوحي . فهو لا يرسم بنفسه طريقه وهدفه بل يترك الآلهة توجهه .

(٣) . Italiam non sponte sequor.

كان يريد أن يتوقف في تراقيا واقريطيش وصقلية وقرطاجة مع ديدون : *fata obstant* لكن أمر الآلهة ، الوحي الموحى ، *fata* ، يقوم بصفة دائمة بينه وبين رغبته في الدعة ، بينه وبين غرامه .

يجب ألا نخدع في هذا . فبطل القصة الحقيقى لم يكن إينياس بل آلهة طروادة ، هذه الآلهة التى يجب أن تكون يوما ما آلهة روما . إن موضوع الإنييد هو نضال الآلهة الرومانيين ضد معبود من الأعداء . وهناك عقبات من كل جنس تظن أنها ستوقفهم

(٤) ! Tantae molis erat romanam condere gentem

(١) تعريبها : ليستقر الطرواديون وآلهتهم المتجولون وأرباب طرواده المقللين .

(فرجيليوس : الإنييد ٦ : ٦٧ - ٦٨) - العرب

(٢) تعريبها : مقراً صغيراً لآلهة آبائه . - العرب

(٣) تعريبها : لم أسع وراء إيطاليا باختيارى . (فرجيليوس : الإنييد ٤ : ٣٦١) العرب .

(٤) تعريبها إلى هذا الحد كان تأسيس الأمة الرومانية عبئاً ثقيلاً (فرجيليوس : الإنييد ١ : ٣٣) - العرب .

أوشكوا أن تبتلعهم العاصفة أو أن يغلظهم حب امرأة . لكنهم ينتصرون على كل شيء ويصلون إلى الهدف المعين :

Fata viam inveniunt.

هذا ما كان لا بد له من أن يوقظ اهتمام الرومان بقصة فذة . ففي هذه القصيدة كانوا يرون أنفسهم ومؤسسيهم وبلداتهم وأنظمتهم وعقائدهم وإمبراطوريتهم : إذ لولا هذه الآلة لما وجدت المدينة الرومانية (١) .

(١) ليس لنا أن نفحص هنا ما إذا كانت أسطورة إينياس تقابل حدثاً حقيقياً . بل يكفي أن نرى فيها عقيدة . إنها ترينا ما كان يتصوره القدماء عن مؤسس البلدة وأية فكرة كانوا يتصورونها عن البناتيغر (*Penatiger* = حامل البناتس) وذلك هو المهم فيما يخصنا . ولنضيف أن عدة بلاد في تراقيا وفي إقريطش وفي إبيروس وفي كيثيرا (*Cythere*) وفي زاكنثا (*Zacynthe*) وفي صقلية وفي إيطاليا كانت تعتقد أن إينياس هو الذي أسسها وكانت تؤدي له عبادة .

الفصل السادس

آلهة المدينة

يجب ألا ننسى أن رباط المجتمع بأكمله في العصور القديمة هو العبادة ، فكما أن الموقد المنزلي كان يجمع حوله أعضاء الأسرة فكذلك المدينة كانت مجتمع أولئك الذين كانوا يتخذون نفس الآلهة الحماة والذين كانوا يقومون بالعمل الديني لدى نفس الموقد ،

ومذبح المدينة هذا كان محصوراً داخل سور مبنى كان يسميه الإغريق بريتانيون (Prytanée) (١) ويطلق عليه الرومان معبد فستا . (٢)

(١) كان بيت النار (البريتانيون) هو قبل كل شيء المبنى الذي يحوى الموقد 'Εστία .. οὗτω δ' ἄν κυριώτατα καλοῖης τὴν ἐν πρυτανείῳ, ἐφ' ἧς τὸ πῦρ τὸ ἁσθεστον ἀνάπτεται. Pausanias, V, 15, 5: ἐν αὐτῷ τῷ πρυτανείῳ, οἶκημα ἐνθα ἡ ἔστια . يقول ديونيسيوس الهاليكارناسي (٢ : ٢٣) أنه كان يوجد في بيت النار عند الإغريق موقد الأخويات المشترك .

ὡσπερ ἐν τοῖς ἑλληνικοῖς πρυτανείοις ἔστια κοινὴ τῶν φρατριῶν شارح بنداروس : النميميات (Neméennes) ١١ ؛ شارح ثوقيديدس ١٥ : ٢ - كان هناك بيت نار في كل بلدة إغريقية : في أثينا (ثوقيديدس ١٥ : ٢ ؛ بوسانياس ١٨ : ١) وفي سيقيون (Sicyone) (هيرودوت ٥ : ٦٧) وفي مينارا (بوسانياس ٢ : ٣٥) ؛ وفي إليس (بوسانياس ٥ : ١٥) وفي سيفنوس (هيرودوت ٣ : ٥٧) ؛ وعند الأخيويين (Achéens) في فثيوتيس (Phthiotes) (هيرودوت ٧ : ١٩٧) ؛ وفي رودس (بوليبوس ٥ : ٢٩) ؛ وفي مانتينيا (بوسانياس ٨ : ٩) وفي ثاسوس (أثينا يوس ١ : ٥٨) ؛ وفي ميثيلينه (Mitylène) (أثينا يوس ١٠ : ٢٤) وفي سيزيكا (تيتوس ليفيوس ٤١ : ٢٠) ؛ وفي نوقراطيس (أثينا يوس ٤ : ٣٢) ؛ وفي سيراكوسه (سيسرون : ضد فريس De signis ؛ وحتى في جزائر ليباري التي كان يقطنها الجنس الإغريقي (ديودوروس ٢٠ : ١٠١) . يقول ديونيسيوس الهاليكارناسي إنه لم يكن من الممكن في اعتبارهم أن تؤسس مدينة دون أن يقيموا الموقد المشترك أولاً (٢ : ٦٥) . وكانت في أسبرطه كاهنة تحمل لقب ἔστια πόλεως (Boeckh, Corp. inscr. gr., t. I, p. 610) .

(٢) لم يكن معبد فستا في روما إلا موقداً لمدينة القدس .

Cicéron, De legibus, II, 8. Virgines Vestales custodiunto ignem foci publici sempiternum. Ibid., II, 12: Vesta quasi focus urbis. Ovide, Fastes, VI, 291: Nec tu aliud Vestam quam vivam intellige flammam.

لم يكن في البلدة شيء أقدم من هذا المذبح الذي كان يعنى فيه بالنار المقدسة دائماً . حقاً إن هذا التبجيل الكبير قد ضعف في وقت مبكر في بلاد الإغريق إذ أن الخيال الإغريقي قد استأثرت به معابد أكثر جلالاً وأساطير أكثر خصباً وتماثيل أكثر بهاء . لكنه لم يضعف قط في روما . فإن الرومان لم ينفكوا عن الاعتقاد بأن مصير المدينة مرتبط بهذا الموقد الذي كان يمثل آلهتها (١) ويدل الاحترام الذي كانوا يحملونه للفتيساليس على أهمية كهنوتهم (٢) . فإذا لقي قنصل إحداهم في طريقه كان يحني حزمه (faisceaux) أمامها (٣) . يقابل ذلك أنه إذا تركت إحداهم النار تنطفئ أو دنست العبادة بارتكاب ما ينافي واجب العفة كانت البلدة تعتقد أنها أصبحت مهددة بفقد آلهتها فتنقم من الفتيساليس بوءدها وهي لا تزال حية (٤) .

Tite-Live, XXVI, 27: *Conditum in penetrali fatale pignus ro-*
mani imperii. Cicéron, Philippiques, XI, 10. Quo salvo salvi sumus
futuri.

(٢) كان الحجاب يحملون أمام أرباب الناصب العالية في روما حزماً من العصي وكان كل حاجب يحمل واحدة وإذا كانوا خارج روما كانوا يجعلون مع الحزمة فأساً . وهذه الحزم هي رمز السلطة . وكان للقنصل اثنا عشر حاجباً يسرون أمامه - العرب

(٣) *Virgines sanctae* هوراسيوس *Odes* ٢٧:٢:١ . *sanctissimum*
sacerdotium (يسرون . من أجل المنزل ٥٣) . انظر ميسرون : الدفاع عن
فونتيوس ٢٠ .

(٤) تيتوس ليفيوس ٢٨: ١١ . فستوس ص ١٠٦ *Ignis Vestae si quando*
interstinctus esset, virgines verberibus afficiebantur a pontifice
لم يكن يستطيع إيقاد النار من جديد إلا بطريقة عتيقة ودينية . فستوس : شرحه:
Mos erat tabulam felicitatis tamdiu terebrare quousque ignem
cribro aeneo virgo in oedem ferret.

كاد معبد فستا أن يحترق. ذات يوم، باندلاع نار شبت في المنازل المجاورة فروّعت روما إذ شعرت أن مستقبلها في خطر ، فلما انقضى الخطر حث مجلس الشيوخ القنصل على البحث عن مدبري الحريق وسرعان ما اتهم القنصل بعض أهالي كاپوا (Capoue) الذين كانوا عندئذ في روما لا لأنه كان لديه أى دليل على إدانتهم بل لأنه قدّر هكذا : «هدد حريق موقدنا وليس من الممكن أن توقد هذا الحريق، الذى كان يودى إلى تحطيم عظمتنا ووقف مصائرنا . إلا يد أشد أعدائنا قسوة . وليس لنا أعداء ألد من أهالي كاپوا ، تلك المدينة التى هى في الوقت الحاضر حليفة هانيبال ، والتي تتطلع إلى أن تكون في مكاننا عاصمة لإيطاليا . فهولاء الناس إذن هم الذين أرادوا أن يقضوا على معبد فستا ، موقدنا الخالد ، رهن عظمتنا المقبلة وضمانها.» (١) . وبذلك كان يعتقد أحد القناصل تحت سيطرة آرائه الدينية أن أعداء روما لم يجدوا وسيلة للتغلب عليها أضمن من إبادة موقدها . نرى هنا عقائد الأقدمين ؛ كان الموقد العام هو موقد المدينة ؛ هو الذى أنشأها وهو الذى يحافظ عليها .

كما أن عبادة الموقد المنزلى كانت سرية وأن الأسرة وحدها كانت صاحبة الحق في المشاركة فيها كذلك كانت عبادة الموقد العام محجوبة عن الغرباء . فما من أحد يستطيع أن يشهد القرابين اللهم إلا إذا كان مواطناً . فمجرد نظرة من الأجنبي كانت تدنس العمل الدينى (٢) .

كان لكل مدينة آلهة لا ينتمون إلا لها : وفي العادة كانت هذه الآلهة من نفس طبيعة آلهة ديانة الأسرات الأولى ، وكانوا يسمونهم كما كانوا يسمون هولاء : لاريس ، پئاتس ، جن (génies) ، شياطين (démons) ، أبطال (٣) ؛

(١) تيتوس ليفيوس ٢٦ : ٢٧ .

(٢) *ἱερὰ ἀπορρητά, ἀθέατα, ἀδηλα* بلوتارخوس : نوما ٩ ؛ كاميلوس ٢٠ . ديونيسيوس الهاليكارناسي ٦٦: ٢ . فرجيليوس : الإنبيد ٣ : ٤٠٨ . بوسانياس ١٥٠٠ . أبيانوس : الحرب الأهلية ١ : ٥٤ .

(٣) *Penates publici* (تيتوس ليفيوس ٣: ١٧) ؛ *Lares publici* (بلينيوس :

التاريخ الطبيعى ٢١ : ٨: ٣) . *Et vigilant nostra semper in urbe Lares* .

(أوفيدوس : الأعياد ٢ : ٦١٦) . سيسرون : الدفاع عن سكستوس ٢٠ :

Te, patria, testor, et vos, Penates patriique dit : ماكروبيوس : ساتورناليا

De diis Romanorum propriis, id est, Penatibus. : ٤ : ٣

Servius, *ad Aen.*, II, 351: *Genio urbis Romae*

وما هي، تحت ستار هذه الأسماء، إلا أرواح بشرية ألها الموت : فقد رأينا أن الإنسان في الجنس الهندو أوروبي كان يعبد أولاً القوة الخفية الخالدة التي يحس بها في نفسه . هؤلاء الجن وهؤلاء الأبطال هم في أغلب الأحوال أسلاف الشعب (١) . وكان يدفن الجسد إما في البلدة نفسها وإما في الأرض المحيطة بها؛ وحيث أن الروح لم تكن تغادر الجسم كما بيناه آنفاً فقد نتج عن ذلك أن هؤلاء الأموات المؤهلين كانوا مرتبطين بالأرض التي دفنت فيها عظامهم . وكانوا يسهرون على المدينة من أعماق قبورهم ؛ كانوا يحمون البلاد وكانوا إلى حد ما رؤساءها وسادتها . ونجد هذا التعبير ، رؤساء البلاد، يطلق على الموتى في وحي وجهته البشيا (Pythie) إلى صولون : «مجدد بالعبادة رؤساء البلاد ، الموتى الذين يسكنون تحت الثرى (٢)» . وقد أتت هذه الآراء من السلطة الفائقة التي كانت تنسبها الأجيال الأولى للروح البشرية بعد الموت ؛ وكان يصبح إلهاً للمدينة كل رجل أدى لها خدمة جليلة : من مؤسسها إلى من أحرز لها نصراً أو أدخل تحسيناً على قوانينها (٣) . بل لم يكن من الضروري أن يكون رجلاً عظيماً أو محسناً وإنما يكفي أن يؤثر على عقلية معاصريه تأثيراً قوياً وأن يجعل نفسه موضوعاً لأثارة شعبية لكي يصبح بطلاً أي ميتاً قوياً ترجى حمايته ويخشى غضبه . وقد استمر الوثنيون عشرة قرون وهم يقدمون القرابين

Plutarque, Aristide, 11: Οἱ μὲν γὰρ ἥρωες, οἷς ἐκέλευε θύειν, (١)
ἀρχηγέται : Πλαταιέων ἦσαν. Sophocle, Antigone, 199: Τὴν πατρίαν καὶ
δαίμονες ἐγγχώριοι. قارن عند اللاتينيين
dii indigetes (سرفيوس : Ad Aen. : ١٢ : ٣٩٤ ؛ أولوس جيلوس ١٦:٢).
Plutarque, Solon, 9: Ἀρχηγούς χώρας θυσίαις ἥρωας ἐνοίκους ἔλασσο, (٢)
οἱ φθίμενοι δέρονται ἐς ἡέλιον δύοντα تلح هذه الألفاظ الأخيرة إلى عادة
الآثينيين في دفن الموتى بتوجيههم نحو المغرب (بلوتارخوس : صولون ١٠).
(٣) كان لليكورغ (Lycurgue) في أسطرطه معبد وكهنة وأعياد مقدسة وأناشيد
(هيرودوت ١ : ٦٥ ؛ بلوتارخوس : ليكورغ ٣١ ؛ إيفوروس (Ephore) في استرابون
٨:٥:٥) كان ثيسيوس إلهاً في أثينا التي أقامت معبداً لرفاته . وكان أرسطومينيس يكرم
بعبادة عند المسينيين (بوسانياس ٤: ٣٢) ؛ والإياكيديين (Eacides) في إغينا (Egine)
(هيردوت ٥ : ٨٠) ويمكن أن نرى في بوسنياس عدد الأبطال المسمين الذين كانت
تجددهم كل مدينة .

لإتيوكليوس (Etéocles) وبولينيكوس (Polynice) (١) . وكان سكان أكنثا (Acanthe) يؤدون عبادة لفارسي مات عندهم أثناء حملة خشايارشا (Xerxes) (٢) . وكان هيپوليتوس يمجّد كإله في تريزينا (Trézène) (٣) ، وكان پرهوس (Pyrrhus) ابن أخيلئوس (Achille) إلها في دلفوى (Delphes) لالشيء إلا لأنه مات فيها ودفن بها (٤) . وكانت كروتون (Croton) تؤدى عبادة لأحد الأبطال لعله واحدة هي أنه كان في حياته أجمل رجل في البلدة (٥) . وكانت أثينا تعبد إوريستئوس (Eurysthée) باعتباره أحد حماة بيد أنه كان من أرغوس ، ويفسر لنا أوريبيديس منشأ هذه العبادة عندما يظهر على المسرح إوريستئوس مستعداً للموت وهو يقول للأثينيين : «أدفنوني في أتيكا فساكون عطوفاً عليكم وساكون في باطن الأرض ضيفاً حامياً لبلدكم (٦) » . تعتمد كل مأساة أويديپوس (أوديب) في قولونوس (Colone) على هذه العقائد : تنازع كريون (Créon) وثيسئوس (Thésée) ، أى ثيبه وأثينا ، على جسم رجل يوشك أن يموت وأن يكون إلها ؛ وقد اختار أويديپوس أثينا طبقاً لما ترويها الأسطورة ، وعين هو ذاته المكان الذى يريد أن يدفن فيه ، وقال : «لن أكون ، وأنا ميت ، قاطناً لا نفع فيه لهذا الإقليم (٧) » . سأدافع عنكم ضد خصومكم ، وساكون لكم سوراً أقوى من ملايين من المحاررين (٨) إن جثمانى الراقد تحت الثرى سيشرب من دم المحاررين الثيبين . « (٩) .

-
- (١) بوسانياس ٩ : ١٨ .
 (٢) هيرودوت ٧ : ١١٧ .
 (٣) ديودوروس ٤ : ٦٢ .
 (٤) بوسانياس ١٠ : ٢٣ ؛ بنداروس : النمييات Néméennes ٧ : ٦٥ وما بعدها .
 (٥) هيرودوت ٥ : ٤٧ .
 (٦) أوريبيديس : الهراكلين (Héraclides) ١٠ : ٣٢ .
 (٧) صوفوكليس : أويديپوس في قولونوس ٦٢٧ .
 (٨) شرحه ١٥٢٤ ، ١٥٢٥ ، ١٥٢٥ .
 (٩) شرحه ٦٢١ . ٦٢٢ . كانوايشيرون في أثينا إلى القبر الذى كانت ترقد فيه عظام أويديپوس والـ ἡρώων الذى كان يتلقى فيه التكريم الجنائزى (بوسانياس ١ : ٢٦ ؛ ٣٠) . ولاداعى للقول بأنه كان للثيبين أسطورة أخرى عن أويديپوس .

كان الموتى ، أيا كانوا ، حمة للبلاد على شرط أن تقدم لهم العبادة . « طلب الميغاريون ذات يوم من وحى دلفوى كيف تكون بلدتهم سعيدة . فأجاب الإله إنها ستكون كذلك لو اهتموا دائماً بالمداولة مع أكبر عدد . فهموا أن الإله إنما دل بهذه الألفاظ على الموتى الذين هم في الواقع أكثر عدداً من الأحياء وبناء عليه بنوا غرفة مجلسهم في ذات المكان الذي كان فيه مدفن أبطالهم » (١) . لقد كان حظاً كبيراً لمدينة ما أن يكون لها موتى على شيء من المكانة . فكانت مانتينية (Mantinée) تتكلم شاحخة عن رفات أركاس (Arcas) ، وثيبه عن رفات غيريون (Géryon) ومسينه عن رفات أرسطومينيس (٢) . ولكي يحصلوا على هذه الرفات الثمينة كانوا في بعض الأحيان يستعملون الخداع . يذكر هيرودوت بأية خدعة اختلس الإسبرطيون رفات أورستيس (٣) . والحق أن هذه الرفات ، التي كانت تلازمها روح البطل ، جلبت النصر للإسبرطيين فوراً . وعندما حصلت أثينا على السلطة كان أول ما استعملتها فيه هو انتزاع رفات ثيسوس التي كانت قد دفنت في جزيرة سكيروس (Scyros) وإقامة معبد لها في البلدة كي تزيد في عدد حماها من الآلهة .

علاوة على هؤلاء الأبطال وأولئك الجن كان للناس آلهة من جنس آخر أمثال جوبيتر وجونون (Junon) ومينرفا ، جذب منظر الطبيعة أفكار الناس إليها . ولكننا رأينا أن هذه الآلهة التي خلقها الإدراك البشرى ظلت زمناً طويلاً تتصف بصفات المعبودات المنزلية أو المحلية . ولم يتصوروا في البدء هذه الآلهة ساهرة على الجنس البشرى بأكمله بل اعتقدوا أن كلا منها كان ينتمي إلى أسرة أو مدينة خاصة .

ولهذا كان من المألوف أن يكون لكل مدينة ، بغض النظر عن أبطالها ،

(١) بوسانياس ١ : ٤٣ . ويعثر على أسطورة مشابهة وعلى نفس العادة في مدينة تارنت (Tarente) الإغريقية (بوليبوس ٨ : ٣٠) .

(٢) بوسانياس ٤ : ٣٢ ؛ ٨ : ٩ ؛ ٨ : ٣٦ .

(٣) هيرودوت ١ : ٦٧ - ٦٨ . بوسانياس ٣ : ٣ .

چوبيتر أو مينرفا أو أى معبود آخر أشركته مع آلهاتها المنزلية (بناتس) الأولى ومع موقدها . وكان فى بلاد الإغريق وإيطاليا جمهرة من المعبودات المدنية (Poliades) فكان لكل بلدة آلهتها الذين يقطنون فيها (١) .

وقد نسبت أسماء الكثير من المعبودات ولقد كان من المصادفة أن احتفظوا بذكر الإله ساتراپيس (Satrapès) الذى كان ينتمى إلى بلدة إليس (Elis) والإلهة دنديمينه (Dindymène) فى ثيبه، والإلهة سوتيريا (Soteria) فى إيجيوم (Aegium) وبريتوما رتيس (Britomartis) فى جزيرة إقريطش وهيبليا (Hyblaea) فى هيبلا (Hybla) أما أسماء زوس وأثينا وهيرا وچوبيتر ومينرفا فهى معروفة لنا أكثر من سواها ونعلم أنها كثيراً ما كانت تطلق على هذه المعبودات المدنية . ولكن لنحذر من استنتاج أن مدينتين كانتا تعبدان نفس الإله لمجرد أنهما كانتا تطلقان نفس الاسم على إلهيهما ؛ فقد كانت هناك إلهة تدعى أثينا فى أثينا وكانت هناك أخرى فى اسرطه ، وكانت إلهتين (٢) . وقد اتخذ عدد كبير من المدن چوبيتر إلهاً مدنياً فكان هناك من الآلهة چوبيتر بقدر ما كان من المدن . وترى فى أسطورة حرب طروادة إلهة تدعى پالاس Pallas تتلقى عبادة وتحمى عبادها (٣) . فهل يقال إن نفس المعبود هو الذى كان يظهر فى الجيشين ؟ . كلا . إذ

(١) كانوا يسمون هؤلاء الآلهة: θεοὶ πολίεις (بوليدوكيس ٩ : ٤٠) Πολιοῦχοι (أيسخيلوس : السبعة ١٠٩) πολῖται (أيسخيلوس : شرحه ٢٥٣) ἀστυνόμοι (أيسخيلوس : أغاممنون ٨٨) - وكانوا يحمون البلدة حماية خاصة ؛

Vitruve, I, 7: Quorum deorum in tutela civitas videtur esse.

Macrobe, III, 9: Constat omnes urbes in alicujus dei esse tutela.

Hésychius: Πολιοῦχοι, οἱ τὴν πόλιν σώζοντες καὶ οἱ ἄρχοντες αὐτῆς.

ويعبر فرجيليوس عن نفس الفكرة (٩ : ٢٤٦) Di patrii, quorum semper

sub numine Troja est . وقد أشار أرسطوفانيس (الطيور : البيت

٨٢٦) بحاجة كل مدينة إلى البدء باعطاء نفسها معبوداً مدنياً Τίς

Τίς δαὶ θεὸς πολιοῦχος ἔσται - كانت هذه المعبودات تسكن الإقليم وتتملكه :

ديموشينيس : قضية التاج ١٤١ : Ἀττικὴν τὴν χώραν ἔχουσι θεοὶ ὅσοι

بلوتارخوس : أريستيديس ١٨ : Πλαταιῖδα τὴν χώραν ἔχουσι θεοὶ οἱ

ليوكراتيس : ٢٦ : Ἀθηναίαν τὴν χώραν εἰληχυῖαν

(٢) ثوقيديديس ١ : ١٣٤ . ؛ بوسانياس ٣ : ١٧٠ .

(٣) الإلياذة ٦ : ٨٨ .

لم يكن القدماء ينسبون لآلهتهم هبة التواجد في مكانين في آن واحد (١) .
كان لكل من بلدتي أرغوس وساموس معبودة مدنية تدعى هيرا . ولم تكونا
إلهة واحدة إذ أنها كانت ممثلة في كل من المدينتين بأوصاف متباينة جداً . وكانت
في روما معبودة تدعى جونون (Juno) وعلى بعد خمسة مراحل كان لبلدة فييس
(Veii) آلهة أخرى بنفس الاسم . وكان التماثل بينهما من الضلالة بحيث نرى الدكتاتور
كاميلوس عند ما حاصر فييس يتجه إلى جونون إلهة العدو ليستحلفها بترك
البلدة الأترسكية والانتقال إلى معسكره . فلما أصبح سيد المدينة أخذ التمثال ،
وهو مقتنع كل الاقتناع بأنه في نفس الوقت قد أخذ الإلهة ، ونقلها في ورع إلى
روما . فأصبح لروما منذئذ إلهتين حاميتين باسم جونون . وقد وقعت نفس
القصة بعد بضع سنوات لحويتير آخر أحضره دكتاتور آخر من برينست
(Préneste) بينما كان لدى روما ثلاثة أو أربعة من قبل (٢) .

لم تكن المدينة التي لها معبود خاص بها ترغب في رؤيته يحمي الأجانب
ولم تكن تسمح لهم بعبادته . وفي معظم الحالات لم يكن ينفذ إلى المعبد غير
المواطنين . فكان لأهالي أرغوس دون سواهم حق الدخول في معبد هيرا في
أرغوس . ولكي يستطيع المرء أن يدخل معبد أثينا في أثينا كان لا بد له
أن يكون أثينياً (٣) . أما الرومان الذين كانوا يعبدون عندهم إلهتين تسميان
جونون فإنه لم يكن باستطاعتهم أن يدخلوا معبد جونون الثالثة التي كانت في
بلدة لانوفيوم (Lanuvium) الصغيرة (٤) .

(١) كانت هناك *Αθηνή πολιás* في أثينا . وكانت هناك أيضاً *Αθηνή*

في تيغيا (Tégée) . وقد وعدت أهالي تيغيا بأن مدينتهم لن يستولى عليها أحد أبداً (بوسانياس
٨ : ٤٧) .

(٢) تيتوس ليفيوس ٥ : ٢١ ، ٢٢ ، ٦ : ٢٩ - انظر في ديون كاسيوس
٥٤ : ٤ قصة تين جويتر الكايتولي (Jupiter Capitolin) وجويتر المرعد
(Jupiter Tonnant) إلهين مختلفين .

(٣) هيرودوت ٥ : ٧٢ ، ٦ : ٨١ . كان لاسبرطه إلهة تدعى أثينا وأخرى تدعى
هيرا (بلوتارخوس : ليكورغ ٦ ؛ بوسانياس ٣) لكنه لم يكن لأي اسبرطي الحق في
الدخول إلى معبد أثينا المدنية في أثينا أو هيرا المدنية في أرغوس .

(٤) لم يحصلوا على هذا الحق إلا بعد الاستيلاء على البلدة (تيتوس ليفيوس ٨ : ١٤)

لا بد من الاعتراف بأن القدماء، إذا استثنينا بعض النادرين من صفوة الأذكياء ، لم يتصوروا الله قط ذاتا واحدة تهيمن بفعلها على الكون ؛ فكان لكل واحد من آلهتهم التي لا تحصى نطاقه الصغير، لهذا أسرة، ولذلك قبيلة، وللآخر مدينة . وكان ذلك هو العالم الذي يكفي لآلاء كل واحد منهم . أما إله الجنس البشرى فإن بعض الفلاسفة قد استطاع أن يتصوره تخميناً وربما استطاعت أسرار إليسيس (Eleusis) أن تجعله يراى لأذكى من تلقوها ، لكن العامة لم تعتقد فيه إطلاقاً . وقد ظل الإنسان دهرأ طويلا لا يفهم الذات الإلهية إلا كقوة تحمية هو بالذات، ويريد كل رجل وكل مجموعة من الناس أن تكون لها آلهتها . واليوم لازلنا نرى عند سلالة هؤلاء الإغريق فلاحين جفاة يدعون القديسين بحرارة لكن يخجلنا الشك في أن تكون لديهم فكرة عن الله؛ يريد كل منهم أن يكون له بين هؤلاء القديسين حام منقطع له ، منعم مقصور عليه. وفي نابولي لكل حي سيدة (مادونا = السيدة العذراء) : فالصعنوك (lazzarone) يركع أمام سيدة شارع ويقذف في حق سيدة الشارع المجاور له . وليس من النادر أن نرى إثنين من الجمالين (facchini) يتشاجران ، ويتضاربان بالمدى ، من أجل مواهب سيدتهما . تلك أمور استثنائية اليوم ، لا نراها إلا عند بعض الشعوب وفي بعض الطبقات؛ لكنها كانت القاعدة عند القدماء.

كان لكل مدينة هيئة كهنتها التي لا تتبع أية سلطة أجنبية ، فلم تكن هناك أية رابطة بين كهنة مدينتين ولا أية صلة ولا أى تبادل في التعليم أو الشعائر. فإذا ما انتقلنا من مدينة إلى أخرى فإننا نجد آلهة أخرى وتعاليم أخرى واحتفالات أخرى . كانت للقدماء كتب للصلوات لكن كتب بلدة ما لم تكن تشبه كتب بلدة أخرى . كان لكل مدينة مجموعة صلواتها وسننها وكانت تحتفظ بها في سرية شديدة . وكانت تعتقد أنها تضر بديانها ومصيرها لو تركت الغرباء يرونها . وهكذا كانت الديانة محلية محضة، مدنية محضة، على أن نأخذ هذه

الكلمة الأخيرة بمعناها القديم أى خاصة بكل مدينة على حدة (١) .
لم يكن الإنسان يعرف سوى آلهة بلده ولم يكن يمجّد غيرها أو يحترم سواها
فكان لكل واحد أن يقول ما يقوله أجنبي لنساء أرغوس في مأساة لأيسخيلوس
«إني لا أخشى آلهة بلادكم ولست مدينياً لهم بشيء» (٢) .

كانت كل مدينة تنتظر سلامتها من آلهتها . كانوا يدعونها لدى الخطر
ويقولون لها : « يا آلهة هذه المدينة . لا تجعلوها تهلك مع بيوتنا ومواقدنا . » .
وأنت الذى تسكن أرضنا منذ زمن بعيد ، هل تخونها ؟ وأنتم جميعاً ، يا حفظة
أبراجنا ، لا تسلموها للأعداء (٣) . لذا كان الناس يقيمون لهم عبادة لكي
يضمنوا لأنفسهم حياتهم . كان بهذه الآلهة نهم للقرايين . فكانوا يغدقونها
عليهم ولكن بشرط أن يسهروا على سلامة البلدة . ويجب ألا تنسى
أن فكرة العبادة ، كانت مقصورة على تغذية الإله أى على مده
بكل ما يلد لحواسه : لحوم وكعك وخمر وعطور وملابس وحلى ورقص
وموسيقى . وفي مقابل ذلك كانوا يطالبونه بالنعم والخدمات . لذلك يقول
خريسيس (Chrysès) لإلهه في الإلياذة : « منذ زمن طويل وأنا أحرق لك
ثيراناً سماناً ، واليوم تقبل دعواتي وارم سهامك على أعدائي . » وفي مكان آخر
تدعوا نساء طرواده إلهتهن ويقدمن لها ثوباً جميلاً ويعدنّها بإثنتى عشرة بقرة
«إذا أنقذت إليون (Ilion) (٤)» . فكان هناك عقد دائم بين هذه الآلهة وهؤلاء
الناس ؛ لم تكن تقوى هؤلاء عجائزاً ولم يكن أولئك يعطون بلا مقابل ، يتجه
الثيبيون ، في أيسخيلوس ، إلى آلهتهم المدنية ويقولون . «كونوا حماتنا ،
فصالحنا مشتركة ؛ إذا ازدهرت المدينة مجدت آلهتها . اظهروا أنكم تحبون
بلدتنا ؛ فكروا في العبادة التى يؤديها هذا الشعب لكم وتذكروا القرايين

(١) لم تكن هناك عبادة مشتركة في عدة مدن إلا في حالة الحلف . هذا وسنتكلم
عن ذلك فيما بعد .

(٢) أيسخيلوس : المتضرعات ٨٥٨ .

(٣) أيسخيلوس : الرؤساء السبعة الآيات ٦٩ - ٧٣ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٣٩ ،

١٦٨ - ١٧٠ .

(٤) الإلياذة ١ : ٣٧ وما بعدها ؛ ٦ : ٩٣ - ٩٦ .

الفاخرة المقدمة إليكم .» (١) لقد عبر الأقدمون عن هذه الفكرة مائة مرة ؛ يقول ثيوغنيس إن أبولون أنقذ ميغارا من عدوان الفرس «لكي تقدم له بلده ذبائح مجيدة كل عام.» (٢)

ومن هنا جاء أنه ما من مدينة كانت تسمح للأجانب بتقديم قرابين لآلهتها المدنية، ولا حتى بدخول معبدها (٣) . فلكيلا تسهر آلهتها إلا عليها كان من الضروري ألا تتلقى عبادة إلا منها . وحيث أن الآلهة لم تكن تمجد إلا هناك فقد كان لازماً عليها ، إن أرادت دوام القرابين والذبائح التي كانت عزيزة عليها ، أن تحمي هذا البلد وأن تبقيه إلى الأبد وأن تثريه وتقويه .

والواقع أن هذه الآلهة كانت تتعب نفسها عادة من أجل بلدها ؛ أنظر في فرجيليوس كيف كانت جونون «تجهد نفسها وتعمل» لكي تحصل بلدها قرطاجة على سلطان العالم يوماً ما . كان كل واحد من هذه الآلهة مشغولاً بعظمة مدينته كما كانت جونون في فرجيليوس . كانت لهؤلاء الآلهة نفس المصلحة التي كانت لمواطنيهم من البشر . ففي زمن الحرب كانت تمشي وسطهم للقتال . نرى في أوربيديس شخصاً يقول عند اقتراب إحدى المعارك : «ليست الآلهة التي تحارب معنا بأقل قوة من تلك التي في جانب أعدائنا» (٤) . لم يكن الإيغينيون (Eginètes) يدخلون غزوة دون أن يحملوا معهم تماثيل أبطالهم القوميين ، الإياكيديين (Eacides) ؛ وكان الإسبرطيون يستصحبون التنداريين (Tyndarides) في جميع حملاتهم (٥) . وفي المعمعة كان الآلهة والمواطنون يتكاتفون

(١) أيسخيلوس : الرؤساء السبعة ٧٦ - ٧٧ ، ١٧٦ - ١٨١ .

(٢) ثيوغنيس طبعة ولكر (Welcker) البيت ٧٥٩ ؛ طبعه بواسوناد (Boissonade) البيت ٧٧٧ .

(٣) لا ريب في أنه لا حاجة بنا إلى التنبيه على أن هذه القواعد القديمة قد مرنت كثيراً مع الزمن ؛ ولدينا كتابات ترى أجانب يقدمون قرابين للمعبودات الأثينية لكن هذه الكتابات ترجع إلى تاريخ حديث نسبياً .

(٤) أوربيديس : الهيراكليين ٣٤٧ .

(٥) هيرودوت ٥ : ٦٥ ؛ ٥ : ٨٠ .

فإذا جاء النصر فما ذلك إلا لأنهم قاموا جميعاً بواجبهم . وعلى العكس ، إذا انهزموا حملوا الآلهة مسؤولية الهزيمة ؛ فكانوا يلومونهم على سوء قيامهم بواجبهم كمدافعين عن البلدة ؛ بل كانوا يذهبون في بعض الأحيان إلى هدم مذابحهم وقذف معابدهم بالأحجار (١) .

وإذا غلبت بلدة كانوا يعتقدون أن آلهتها قد غلبت معها . (٢) وإذا سقطت بلدة فإن آلهتها أنفسهم كانوا يؤسرون .

حقاً إن الآراء فيما يختص بالنقطة الأخيرة غير مؤكدة وقد اختلفت فيما بينها . فقد اقتنع الكثيرون بأنه مامن مدينة كان يمكن أن تؤخذ ما دامت آلهتها مقيمة فيها . فإذا سقطت فما ذلك إلا لأنهم هجروها من قبل . عندما رأى إنياس (Enée) أن الإغريق قد استولوا على طروادة صاح أن آلهة المدينة قد رحلت متخفية عن معابدها ومذابحها (٣) . وفي أيسخيلوس تعبر مجموعة المنشدين الثيبين عن نفس العقيدة عندما تستحلف الآلهة عند اقتراب العدو بالاهجروا البلدة (٤) .

طبقاً لهذا الرأي كان لا بد للاستيلاء على بلدة ما من إخراج الآلهة منها . ولهذا الغرض كان يستعمل الرومان صيغة معينة كانت في كتاب شعائريهم وقد حفظها لنا ماكروبوس : أنت ، أيها الأعظم ، الذي في حمايته هذه المدينة ، أدعوك ، وأعبدك ، واستعطفك أن تترك هذه البلدة وهذا الشعب ، وأن تهجر هذه المعابد وهذه الأماكن المقدسة ، وعند ابتعادك عنها ، أن تأتي إلى روما عندي وعند ذوي . لتكن بلدتنا ومعابدنا وأماكننا المقدسة أمتع لك وأعز .

(١) سويتونيوس : كاليغولا ٥ ؛ سنيكا (Sénèque) : حياة الغبطة (De vita beata) ٣٦ .

(٢) فرجيليوس : الإنييد ١ : ٦٨ : Victosque Penates .

(٣) فرجيليوس : الإنييد ٢ : ٣٥١ .

Excessere omnes, adytis arisque retictis,
Di, quibus imperium hoc steterat.

(٤) أيسخيلوس : الرؤساء السبعة ٢١٧-٢٢٠ . «إتيوكلئوس (Etéocle) : يقولون إنه عند الاستيلاء على مدينة ما تهجرها الآلهة . مجموعة المنشدين (الكورس) : ليت الآلهة الذين هنا لا يهجرونا أبداً ، ولا أرى ثيبة يستولى عليها العدد عنوة وتترك طعمة للنيران .»

خذنا في رعايتك . فإذا ما فعلت ذلك فأني سأنشئ معبدًا تكريمًا لك (١) . «
وقد كان القدماء مقتنعين أن هناك صيغًا بلغت من قوة الفعل والسلطان أنها
لو تليت بالضبط ، ودون أن يغير منها لفظ واحد ، فإن الإله لا يستطيع أن
يقاوم طلب الناس . فالإله الذي يدعى على هذه الصورة ينتقل إلى العدو وتسقط
البلدة (٢) .

ونجد في بلاد الإغريق نفس الآراء ، وعادات مشابهة لذلك . وحتى في
عهد ثوقيديديس لم يكن يفوتهم إذا حاصروا بلدة أن يتوجهوا بدعاء لآلهتها
لكي يسهلوا بالاستيلاء عليها (٣) . وفي كثير من الأحيان بدلا من استعمال
صيغة لاجتذاب الإله كان يفضل الإغريق أن ينزعوا تمثاله بحذق . يعلم الجميع
أسطورة أوديسيوس وهو يختلس تمثال بالاس إلهة الطرواديين . وفي عصر
آخر أراد سكان إينينا (Egina) أن يحاربوا إبيدوروس فبدأوا بانتزاع تمثالين
حاميين لهذه البلدة ونقلوهما عندهم (٤) .

(١) ماكروبوس : ساتورناليا ٣ : ٩ . بلينيوس : التاريخ الطبيعي ٢٨ : ٤ : ١٨

*In oppugnationibus ante omnia solitum a Romanis sacerdotibus
evocari deum in cujus tutela id oppidum esset promittique illi
eundem aut ampliorem apud Romanos cultum.*"

(٢) عن قوة الصيغ (العزائم) ، *ἐπαγωγαί* أو *καταθέσεις* ، انظر أفلاطون : القوانين ١١
ص ٩٣٣ ؛ أوربيديس : المتضرعات ٣٩ ، كانت هذه الصيغ من القدم بحيث أن الكثير
من ألفاظها لم يعد مفهوماً بل لم يكن يعد من اللغة الإغريقية ؛ انظر هسيخيوس
(Hésychius) تحت كلمة *ἑφεσία* . وكان القدماء يعتقدون أنه كان باستطاعتهم
أن يلزموا الآلهة وأن يجبروهم قسراً ؛ وتلك هي الفكرة التي يعبر عنها فرجيليوس في هذه
الآيات .

*Junonis magnae primum prece numen adora
Junoni cane vota libens, dominamque potentem
Supplicibus supera donis (En., III, 427-440).*

فنص الدعاء (*preces*) والوعود (*vota*) والقرابين (*dona*) ، تلك هي الأسلحة الثلاثة التي
بها يمكن التغلب (*superare*) على سوء نية إلهة ما .

(٣) ثوقيديديس ٢ : ٧٤ .

(٤) هيرودوت ٥ : ٨٣ .

يروى هيرودوت أن الأثينيين أرادوا محاربة أهالي إيجينا ، لكن المحاولة كانت مليئة بالأخطار إذ أنه كان لإيجينا بطل حام ذو قوة عظيمة ووفاء فذ : ألا وهو إياكوس (Eacus) . فبعد أن فكر الأثينيون تفكيراً ناضجاً أجلوا تنفيذ غرضهم ثلاثين عاماً ؛ وفي نفس الوقت أقاموا في بلادهم مصلى لإياكوس هذا بالذات وخصصوا له عبادة . وكانوا على اعتقاد أنه إذ دامت هذه العبادة ثلاثين عاماً بلا انقطاع فإن الإله لن يتبع الإيجينيين بل الأثينيين . إذ أنه كان يلومهم أنه ما من إله يتقبل الأضحية السمينية مثل هذا الحين الطويل دون أن يصبح صنعة أولئك الذين كانوا يقدمونها له . وإذن ، سيجبر إياكوس في النهاية على ترك مصالح الإيجينيين ومنح النصر للأثينيين (١)

وفي بلوتارخوس نقرأ هذه القصة الأخرى : أراد صولون أن تكون أثينا سيدة جزيرة سلامين الصغيرة التي كانت عندئذ تتبع الميغاريين . فاستشار الوحي فأجابه : «إذا أردت الاستيلاء على الجزيرة فإنه لا بد أن تحصل أولاً على عطف الأبطال الذين يحملونها والذين يسكنون فيها» . فأطاع صولون ، وباسم أثينا قدم قرايين لبطل سلامين الرئيسيين . فلم يقاوم هذان البطلان الهبات المهداة إليهما وانتقلا إلى جانب أثينا . ولما حرمت الجزيرة من الحماة استولوا عليها (٢) .

وإذا حاول المحاصرون في زمن الحرب أن يستولوا على معبودات البلدة فإن المحاصرين من ناحيتهم كانوا يعملون جهد الطاقة على الاحتفاظ بهم . ففي بعض الأحيان كانوا يربطون الإله بالسلاسل لمنعوه من الفرار ، وفي أحيان أخرى كانوا يخبثونه عن جميع الأنظار حتى لا يستطيع العدو أن يجده ، أو يعارضون الصيغة (العزيمة) التي يحاول العدو أن يغوى بها الإله بعزيمة أخرى من فضائلها أنها تحجزه . وقد تصور الرومان وسيلة لاحت لهم أكثر ضماناً : فكانوا يكتبون اسم أهم آلهتهم الحماة وأقواها ؛ وكانوا يظنون أنه ما دام الأعداء لا يستطيعون أن يدعوا هذا الإله باسمه فإنه لن ينتقل إذن من جانبهم

(١) هيرودوت ٥ : ٩٩ .

(٢) بلوتارخوس : صولون ٩

قط وأن بلدتهم لن تسقط أبداً (١) .

ومن هنا نرى أية فكرة فذة كانت عند القدماء عن الآلهة . لقد ظلوا حيناً طويلاً لا يتصورون الإله على أنه سلطة عليا . فكان لكل أسرة ديانتها المنزلية ولكل مدينة ديانتها القومية ، فكانت البلدة كملتة صغيرة لها آلهتها وقواعد دينها وعبادتها . تبدولنا هذه العقائد جد جافية لكنها كانت عقائد شعب هو أكثر شعوب ذلك الزمن روحانية وكان لها على هذا الشعب ، وعلى الشعب الروماني ، فعل بلغ من قوته أن أكبر جزء من قوانينهما وأنظمتهم وتاريخهما قد صدر عن هذه العقائد نفسها .

Plin., *Hist. nat.*, XXVIII, 4, 18: *Constat ideo occultatum in (١) cujus dei tutela Roma esset, ne qui hostium evocarent.* — Macrobe, *Sat.*, III, 9: *Ipsius urbis nomen etiam doctissimis ignotum est, caventibus Romanis ne, quod saepe adversus urbes hostium fecisse se noverant, idem ipsi hostili evocatione paterentur, si tutelae suae nomen divulgaretur.* — Servius, *ad Aen.*, II, 351: *"Romani celatum esse voluerunt in cujus dei tutela Roma sit, ne suis nominibus dii Romani appellarentur, ne exaugurari possint."*

الفصل السابع

ديانة المدينة

الأكلات العامة

رأينا أعلاه أن أهم احتفال في العبادة المنزلية هو أكلة كانوا يدعونها قرباناً. وإن جميع الظواهر لتوحى بأن أكل غذاء مجهز على مذبح كان أول صورة خلعها الإنسان على العمل الدينى . وكانت هذه الأكلة ، التى كان يدعى إليها الإله ، والتى كان يعطى نصيبه منها ، كافية لسد الحاجة إلى الاتصال بالمعبود. وكذلك كان الاحتفال الرئيسى لعبادة المدينة هو أكلة من هذا النوع . وكان لابد أن يقوم بها كل المواطنين جماعة تمجيداً للمعبودات الحامية . وكانت عادة هذه الأكلات العامة شاملة فى بلاد الإغريق . وكانوا يعتقدون أن سلامة المدينة متوقفة على القيام بها . (١)

وتمدنا الأوديسه بوصف لإحدى هذه الأكلات المقدسة . فقد مدت تسع موائد طويلة لشعب پيلوس (Pylos) . وجلس إلى كل واحدة منها خمسمائة مواطن وضحي كل جمع بتسعة ثيران تمجيداً للآلهة . وهذه الأكلة التى كانت تسمى أكلة الآلهة تبدأ وتنتهى بإراقه السوائل وبالأدعية (٢) . كما تشير أقدم الآثار الأثينية إلى العادة القديمة فى الأكل جماعة . فيروى أن أورسيتس قاتل أمه وصل إلى أثينا فى ذات اللحظة التى كانت المدينة تهتم فيها بالقيام بالعمل المقدس مجتمعة حول ملكها (٣) . كما نعث على هذه الأكلات العامة فى عصر إكسينوفون ؛ فى أيام معينة من السنة كانت تضحي البلدة بعدة أضاح ويقسم

(١) Σωτήρια τῶν πόλεων σύνδειπνα أثيناىوس ٥ : ٢ . يذكر بوليذوكيس (٣٤ : ١) الـ δημοθoiníαι أو الـ πανθoiníαι بين الأعياد الدينية .
(٢) الأوديسيه ٣ : ٥ - ٩ ؛ ٤٣ - ٥٠ ؛ ٣٣٩ - ٣٤١ .
(٣) أثيناىوس ١٠ : ٤٩ نقلا عن فانوديموس (Phanodème) .

الشعب لحومها (١) . وكانت نفس هذه العادات موجودة في كل مكان (٢) .
وفما عدا هذه المآدب العظيمة، التي كان يجتمع فيها كل المواطنين ، والتي
ما كانت تحدث إلا في الأعياد العظيمة، كانت تنص الديانة على أن تكون
هناك أكلة مقدسة كل يوم . ولهذا الغرض كان يجب على بعض الرجال الذين
تختارهم المدينة أن يأكلوا معاً باسمها داخل حرم بيت النار (البريتانيون) على
مرأى من الموقد والآلهة الحماة . وكان الإغريق مقتنعين أنه إذا قدر لهذه الأكلة
أن تحذف يوماً واحداً فإن الدولة تصبح مهددة بفقدان عطف آلهتها عليها (٣) .
ففي أثينا كانت القرعة تعين الرجال الذين كان عليهم أن يشاركوا في الأكلة
المشتركة . وكان القانون يعاقب الذين يرفضون القيام بهذا الواجب عقاباً
شديداً (٤) . والمواطنون الذين يجلسون إلى المائدة المقدسة كانت تخلع عليهم
موقتاً صفة كهنوتية ؛ وكانوا يدعون پاراسيتيس (parasites) وهذه الكلمة
قد بدأت لقباً مقدساً وإن كانت قد أصبحت فيما بعد كلمة تدل على الازدراء (٥) .

Xénophon, *Resp. Athen.*, 3: θύουσι δημοσίᾳ ἡ πόλις ἱερεῖα πολλά, (١)
ἐστὶ δὲ ὁ δῆμος εὐωχούμενος καὶ διαλαγχάνων τὰ ἱερεῖα.
أرسطوفانيس (السحاب ٣٨٦) . يذكر بلوتارخوس (بريسكيليس) ١١ وإسوقراط
(*Aréopagitique*, 29) عادة الـ ἐστιάσεις في أثينا .

Athénée, V, 2: Οἱ νομοθεῖται τὰ τε φυλετικὰ δεῖπνα καὶ (٢)
δημόσια θοῖνα. يذكر نفس المؤلف τὰ δημοτικά προσέταξαν καὶ τὰ φρατριακά
في أرغوس ويذكر في إسبرطه أكلات ἐχρτάς καὶ τὰς ἐχρτάς وهي مستقلة عن الـ φειδίτια اليومية
(أثينا يوس ١١ : ٦٦) ويعطى وصفاً مطولاً للأكالات المقدسة في بلدتي فيغاليا
ونوقراطيس ويذكر الشعائر التي كانت تتبع فيها وإراقة السوائل والأناشيد (٣٢ : ٤) .
ويقول عن أكلات تارنتا (٤ : ٦١) : Ἡ πόλις καθ' ἑκάστον μῆνα βουθντεῖ .
καὶ δημοσίᾳ ἐστιάσεις ποιεῖται كما يشير إلى هذه العادة في ١٠ : ٢٥ .
ويصف بنداروس في العاشرة من قصائده النيمة (Néméennes) الأكالات المقدسة في تندوس
(Ténédos) . انظر ديودوروس ١٠ : ٧٢ .

Athénée, V, 2: Συγδεῖπνον δσημέραι οἱ περὶ πρύτανιν σώφρονα (٣)
καὶ σωτήρια τῶν πόλεων σύνδειπνα,

(٤) انظر مرسوم ذكره أثينا يوس (٢٦ : ٤) Ὅς ἂν μὴ θέλῃ παρασιτεῖν, εἰσαγέτω
εἰς τὸ δηκαστήριον.

Plutarque, *Solon*, 24: ἴδιον δὲ τοῦ Σόλωνος καὶ τὸ περὶ τῆς ἐν (٥)

δημοσίᾳ σιτήσεως, ὅπερ αὐτὸς παρασιτεῖν κέκληκε. — Athénée, VI, 26:
Τὸ τοῦ παρασίτου ὄπομα πάλαι ἦν σεμνὸν καὶ ἱερόν... Ἐν τοῖς παλαιοῖς
νόμοις αἱ πλεῖσται τῶν πόλεων ἔτι καὶ τήμερον ταῖς ἐντιμοτάταις ἀρχαῖς
συγκαταλέγουσι παρασίτους. القطعة ١٥٦ ؛ كليتوديوموس القطعة ١١

بوليدوكس ٦ : ٣٥ .

وفي زمن ديموسثينيس اختفى الياراسيتيس لكن سذنة بيت النار كانوا لا يزالون ملزمين بالأكل معاً في بيت النار . فقد كانت في جميع البلدان قاعات معدة للأكلات المشتركة (١) .

وعندما نرى كيف كانت تجري الأمور في هذه الأكلات ، نتعرف جيداً على احتفال ديني . فكان على رأس كل مأكل تاج . والواقع أنها كانت عادة قديمة أن يتنوج الإنسان بأوراق الشجر والزهور كلما قام بعمل عظيم من أعمال الديانة؛ وكانوا يقولون «بقدر ما يتزين الإنسان بالزهور بقدر ما يضمن رضا الآلهة عنه»؛ لكنك إذا قدمت قرباناً دون أن يكون لك تاج فإنهم يتولون عنك» (٢) . وكانوا يقولون أيضاً «التاج رسول الفأل الحسن يرسله الدعاء أمامه نحو الآلهة» (٣) ولنفس السبب كان يرتدى المأكلون أردية بيضاء . فقد كان البياض هو اللون المقدس عند القدماء ؛ إنه اللون الذي ترتضيه الآلهة (٤) .

كانت تبدأ الأكلة بالدعاء وإراقة السوائل ، لا مبدل لذلك ؛ وتنشد الأناشيد (٥) . وكان كتاب الشعائر في كل مدينة ينص على لون الأطعمة ونوع الخمر التي يجب تقديمها . وكان الخروج في أي شيء عن العادة التي اتبعها الأسلاف ، كتقديم صنف جديد أو تغيير نغمة الأناشيد المقدسة ، يعد كفراً خطيراً تؤخذ به المدينة بأكملها أمام الآلهة . بل كانت الديانة تذهب إلى حد تعيين طبيعة الأواني التي يجب استعمالها سواء لطهي الأطعمة أو لخدمة المائدة . ففي بلدة ما ، كان لا بد من وضع الخبز في سلال من النحاس ؛ وفي بلدة أخرى

(١) ديموسثينيس : قضية التاج ٥٣ . أرسطو : السياسة ١٩:١:٧ . بوليديوكيس

٨ : ١٥٥ . بوسانياس ٥ : ١٥ .

(٢) قطعة من سافو في أثينا يوس ١٥ : ١٦ .

(٣) قطعة من خايريمون Chaerémon في أثينا يوس ١٥ : ١٩ .

(٤) أفلاطون : القوانين ١٢ : ٩٥٦ . سيسرون : عن القوانين ٢ : ١٨ . فرجيليوس ٥ : ٧٠ ، ٧٧٤ ، ٧ : ١٣٥ ، ٨ : ٢٧٤ . وكذلك عند الهنود كان لا بد في الأعمال الدينية من لبس تاج وارتداء أردية بيضاء ، قوانين مانو ٤ : ٧٢ ، ٦٦ .

(٥) هرمياس في أثينا يوس (٣٢:٤) : *Τοῦ ἱεροκέρυκος τὰς πατριους εὐχὰς*

καταλέγοντος συνσπένδοντες

كان يجب ألا تستعمل إلا أوان من الفخار ؛ وكانت أشكال الخبز ذاتها ثابتة لا تتبدل (١) . ولم تفتأ قواعد الديانة القديمة هذه معسولا بها أبداً ، وحافظت الأكلات المقدسة على بساطتها الأولى . فقد تغير كل شيء : العقائد والأخلاق والحالة الاجتماعية ، وبقيت هذه الأكلات لا تتغير فيها . فقد كان الإغريق على الدوام محافظين أدق محافظة على ديانتهم القومية .

ومن الحق أن نضيف أنه بعد أن يرضى المأكلون الديانة بأكلهم الأطعمة المنصوص عنها كانوا يستطيعون أن يبدأوا فوراً أكلة أخرى أشهى وأكثر ملاءمة لذوقهم . وتلك كانت عادة إسبرطه إلى حد ما (٢) .

كانت عادة الأكلات المقدسة نافذة في إيطاليا بقدر ما كانت نافذة في بلاد الإغريق . يقول أرسطو إنها عادة كانت موجودة في القدم عند الشعوب المسماة أونوتريون (Oenotriens) وعند الأسك (Osques) والأوزون (Ausones) (٣) . وقد دون فرجيليوس ذكراها مرتين في ملحمة الإنييد (Enéide) . لم يستقبل لاتينوس (Latinus) الشيخ رسل إينياس (Enée) في مسكنه بل في معبد « قدسته ديانة الأسلاف ؛ فهناك كانت تقام الولائم المقدسة بعد توضحية الأضاحي ؛ وهناك كان يجلس كل رؤساء الأسرات معاً إلى موائد طويلة » . وفيما بعد عند ما وصل إينياس عند إيفاندروس (Evandre) وجده يحتفل بقربان : الملك في وسط شعبه والجميع متوجون بالزهور ؛ وكلهم جلوس إلى نفس المائدة يتغنون بنشيد في مدح إله المدينة (٤) .

استمرت هذه العادة في روما . فقد كانت هناك دائماً قاعة يأكل فيها ممثلو الندوات جماعة ؛ وفي بعض الأيام كان مجلس الشيوخ يقوم بأكلة مقدسة في الكايتوليوم (٥) . وفي الأعياد العظيمة كانت تمتد الموائد في الشوارع ويتخذ

(١) انظر المؤلفين الذين ذكرهم أثينا يوس ١ : ٥٨ : ٤ ؛ ٣١ : ٣٢ و ١١٤ : ٦٦ .

(٢) أثينا يوس ٤ : ١٩ : ٤ ؛ ٢٠ .

(٣) أرسطو : السياسة ٧ : ٩ : ٢ - ٣ طبعة ديدوس ٦١١ .

(٤) فرجيليوس ٧ : ١٧٤ وما بعدها ؛ ٨ : ٢٠١ - ١١١ ، ٢٨٣ - ٣٠٥ .

(٥) ديونيسيوس ٢ : ٢٣ أولوس جيلوس ١٢ : ٨ تيتوس ليفيوس ٤٠ : ٥٩ .

الشعب بأكماله مكانه منها . وفي الأصل كان الأحبار يرأسون هذه الأكلات ؛ وفيما بعد كانوا يوكلون هذه المهمة إلى كهنة متخصصين يسمونهم إپولونيس (epulones) (١) .

تمدنا هذه العادات القديمة بفكرة عن الرباط الوثيق الذي كان يربط بين أعضاء المدينة . فقد كانت الجماعة البشرية ديانة ، وكان رمزها أكلة يأكلونها جماعة .

يجب أن نتصور هذه الجماعات الصغيرة البدائية مجتمعة بأكملها ، أو على الأقل رؤساء الأسرات فيها ، إلى مائدة واحدة . وقد ارتدى كل منهم رداء أبيض ووضع على رأسه تاجاً ؛ وكلهم يريقون السوائل معاً ، ويرتلون نفس الصلاة . وينشدون نفس الأناشيد ، ويأكلون نفس الغذاء المجهز على نفس المذبح ، والأسلاف حضور بينهم ، والآلهة يشاطرونهم الأكل ، ومن هنا جاء الاتحاد القبلي (نسبة للقبيلة) بين أعضاء المدينة . فإذا طرأت حرب تذكر الناس ، حسب تعبير أحد القدماء ، « أنه يجب ألا يفر المرء عن رفيقه في الصف ، هذا الذي قدم معه نفس القرابين وأراق معه نفس السوائل وشاطره الأكلات المقدسة » (٢) . والواقع أن هؤلاء الرجال مرتبطون بشيء أقوى من المنفعة ، ومن الاتفاق ، ومن العادة ، كانوا مرتبطين بالمشاركة المقدسة في الأكل التي قاموا بها في ورع على مشهد من آلهة المدينة .

(١) Cicéron, *De oratore*, III, 19: *Pontifices veteres, propter sacri-
ficiorum multitudinem tres viros epulones esse voluerunt ut
illud ludorum epulare sacrificium facerent.*

وكانت تطلق لفظة *epulum* بمعناها الأصلية على الأكلات التي تقدم تمجيذا للآلهة .

Festus, ed., Müller, p. 78: *Epulones. . . . datum his nomen
quod epulas indicendi Jovi caeterisque diis potestatem haberent.*
Voyez Tite-Live, XXV, 2; XXVII, 36; XXIX, 38; XXXIII, 42; XXXIX,
46, in quo toto foro strata triclinia.

Cicéron, *Pro Murena*, 36: *Cum epulum populo romano daret.*

(٢) Denys, II. 23: *Μὴ καταλιπεῖν τὸν παραστάτην, ὃ συνέσπεισε*

καὶ συνέθυσε καὶ κοινῶν ἱερῶν μετέσχε
الإسبرطيين المشتركة التي يقارنها ، فضلاً عن ذلك ، بأكلات الرومان المشتركة .

٢- الأعياد والتقويم

في كل زمان وفي كل مجتمع أراد الانسان أن يكرم آلهته بالأعياد . فقرر أن تكون هناك أيام لا تسود على روحه فيها غير العاطفة الدينية، دون أن تشغل باله الأفكار والأعمال الدنيوية . فجعل للآلهة نصيباً في تلك الأيام التي قدر له أن يحياها .

تأسست كل مدينة بمقتضى شعائر كان أثرها في رأى القدماء أنها تثبت الآلهة القوميين في نطاقها. وكان لابد من تجديد فضائل هذه الشعائر كل عام باحتفال ديني جديد ؛ وكانو يسمون هذا العيد يوم المولد ؛ وعلى جميع المواطنين أن يحتفلوا به .

كان كل ما هو مقدس مصدراً لعيد. فكان هناك عيد لسور المدينة (*amburbalia*) وعيد لحدود المنطقة (*ambarvalia*) . وفي تلك الأيام كان يؤلف المواطنون موكباً كبيراً مرتدين الأردية البيضاء ومتوجين بأوراق الشجر ، ويطوفون حول البلدة أو المنطقة وهم يرتلون الأدعية ؛ وفي المقدمة يسير الكهنة يقودون الأضحية التي كان يضحي بها في نهاية الاحتفال (١) .

يأتى بعد ذلك عيد المؤسس . ثم إن كل بطل من أبطال المدينة وكل روح من هذه الأرواح التي كان الناس يدعونها كحامية كان يتطلب عبادة ما. فكان لرومولوس عيده ، ولسرفيوس توليوس ولكثيرين سواهم ، حتى لمرضة رومولوس ولأم إيفاندروس . وكذلك كان في أثينا عيد ككروپس وعيد إرخثيوس وعيد ثيسوس ، وكانت تحتفل بكل واحد من أبطال الإقليم وهم ثيسوس وإوريستيوس (*Eurysthée*) وأندروغيا (*Androgée*) وجمهرة أخرى .

(١) فستوس: تحت لفظ (*Amburbiales*) ، طبعة ميلر ص ٥ . ما كروبيوس: ساتورناليا

٣ : ٥ . ووصف العيد في تيبولوس ، الكتاب الثانى 1. *élégie*

وكانت هناك أيضاً أعياد الحقول ، وعيد الحرث وعيد البذر وعيد الازدهار وعيد قطف العنب. وكان كل عمل في حياة الزارع في بلاد الإغريق وكذلك في إيطاليا مصحوباً بالقرابين وكانوا يقومون بالأعمال وهم يرتلون الأناشيد المقدسة. ففي روما كان الكهنة يعينون ، كل عام ، اليوم الذي يجب أن يبدأ فيه قطف العنب واليوم الذي يستطيعون فيه أن يشربوا الخمر الجديد . كانت الديانة تنظم كل شيء ، والديانة هي التي تأمر بتشذيب الكروم لأنها كانت تقول للناس : إنها لخطيئة أن تريقوا للآلهة خمر كرمة لم تشذب (١) .

وكان لكل مدينة عيد لكل واحد من المعبودات التي اتخذتها حامية لها وهي كثيرة في أغلب الأحيان . فكلما أدخلت في المدينة عبادة معبود جديد كان لا بد من إيجاد يوم في السنة ينحصر له . ومما تمتاز به هذه الأعياد الدينية تحريم العمل (٢) وفرض المرح والجهل والغناء والألعاب . وتضيف الديانة : حاذروا أن يؤذى بعضكم بعضاً (٣) .

ولم يكن التقويم شيئاً آخر غير تتابع الأعياد الدينية ، لذلك كان الكهنة هم الذين يضعونه . وقد ظلوا في روما زمناً طويلاً دون أن يدونوه كتابة .

Plutarque, *Numa*, 14: *Mē spēndēin theoīs ēx ampeleon atēmētōn* (١)

Varron, *L.L.* VI, 16: *Aliquot locis vindemiae primum ab sacerdotibus publice fiebant, ut Romae etiam nunc; nam flamen dialis auspicatur vindemiam et, ut jussit vinum legere, agna Jovi facit. . . Pline, XVIII, 2: Nec degustabant nova vina ante quam sacerdotes primitias libassent.*

عن الأعياد التي كان لابد أن تسبق الحصاد انظر فرجيليوس *Georgiques* ١ : ٣٤٠ . ٣٥٠ .

(٢) أفلاطون ، القوانين ٢ ص ٥٨٤ . ديموشينيس : ضد ميدياس ١٠ . Demosthène, in *Timocratae* 29: *Mē χρηματίζειν ὅτι ἂν μὴ περὶ τῆς εορτῆς ἥ* Cicéron, *De legibus*, II, 12: *Feriarum ratio in liberis quietem habet litium et iurgiorum, in servis operum et laborum.* Macrobe, I, 16: *Affirmabant sacerdotes pollui ferias, si opus aliquod fieret.*

(٣) ديموشينيس : ضد تيموكراتيس ٢٩ . نفس التوصية في روما ، ماكروبيوس : ساتورناليا ١ : ١٥ : *In feriis vim cuiquam inferre piaculare est.* انظر سيسرون القوانين ٢ : ١٢ *quietem iurgiorum*

وكان الحبر يقدم قرباناً ويدعو الشعب في أول يوم من الشهر ويخبرهم بالأعياد التي تقع خلال الشهر . وكانوا يسمون هذه الدعوى كالاتيو (Calatio) ومنها أتى اسم الكاليندى (Calendae) الذي كانوا يطلقونه على ذلك اليوم (١) . لم يكن التقويم منظماً على أساس جريان القمر ولا على الجريان الظاهري للشمس. ولم تكن تنظمه إلا قوانين الديانة وهي قوانين خفية لا يعرفها إلا الكهنة وحدهم . وكانت الديانة تأمر تارة بتقصير السنة وتارة أخرى بإطالتها . ويمكن تكوين فكرة عن التقاويم الأولى إذا تأملنا أن شهر مايو كان عند أهالي ألبا اثنين وعشرين يوماً وأن مارس كان ستة وثلاثين يوماً (٢) .

وما يسهل إدراكه أن تقويم أية مدينة لم يكن يشبه في شيء ما تقويم مدينة أخرى ما دامت الديانة لم تكن واحدة فيهما وكانت الأعياد مختلفة باختلاف الآلهة . ولم يكن للسنة نفس المدة من بلدة إلى أخرى . ولم تكن للشهور نفس الأسماء ؛ فكانت أثينا تسميها بطريقة تختلف تماماً عن طريقة أثينا ، وتسميها روما بطريقة تختلف تماماً عن طريقة لا فينيوم . ومصدر ذلك أن اسم كل شهر كان يشتق في العادة من اسم العيد الرئيسي فيه : هذا ولم تكن الأعياد واحدة . لم تتفق المدن على جعل ابتداء السنة في فترة واحدة ولا على حساب سلسلة سنواتها ابتداء من تاريخ بذاته. وفي بلاد الإغريق أصبح عيد أوليمبيا، مع مضي الزمن، تاريخاً مشتركاً لكنه لم يحل دون أن يكون لكل مدينة عامها الخاص . وفي إيطاليا كانت كل بلدة تحسب السنوات ابتداء من يوم تأسيسها .

٣ - الإحصاء والثمار

من أهم احتفالات ديانة المدينة احتفال كان يسمى التطهير (٣) . وكان يحدث

(١) فارون : اللسان اللاتيني ٦ : ٢٧ . سرفيوس Ad Aen. ٨ : ٦٥٤ . ماكروبيوس ساتورناليا ١ : ١٤ ؛ ١ : ١٥ .

(٢) Censorinus, De die natali, 22

(٣) كانوا يسمون هذه العملية καθάρειν أو ἀγνεύειν πόλιν هيونا كس طبعة برغك (Bergk) القطعة ٦ . ، وكانوا يقولون في اللاتينية lustrare - سيسرون : التكهين ١ : ٤٥ : Cum censor populum lustraret سرفيوس Ad. Aen. ١ : ٢٨٣ : Post quinquennium unaquaque civitas lustrabatur

في أثينا كل عام (١). أما في روما فلم يكونوا يقومون به إلا كل أربعة أعوام . وتدل الشعائر التي كانت تراعى فيه، والاسم نفسه الذي كان يحمله، على أن من فضائل هذا الاحتفال نحو الخطايا التي يرتكبها المواطنون في العبادة . والواقع أن هذه العبادة البالغة حد التعقيد كانت منبع ذعر للقضاء ؛ ولما كان الإيمان وطهارة النيات شيئاً ضئيلاً، وكانت الديانة كل الديانة في القيام الدقيق بمرائض لا حصر لها فقد كان يخشى على الدوام من اقتراف إهمال أو نسيان أو خطأ . ولم يكن المرء واثقاً دائماً من عدم وقوعه تحت سوط غضب إله ما أو حفيظته فكان لابد إذن، لكي يطمئن قلب الإنسان، من قربان يكفر به عن آثامه. وكان رجل الدولة المكلف بهذا (وهو في روما الرقيب (censor) ؛ وقبل الرقيب كان القنصل ؛ وقبل القنصل الملك) يبدأ بالتأكيد عن طريق الاستشارة عما إذا كانت الآلهة راضية عن الاحتفال. ثم يدعو الشعب عن طريق المنادى الذي كان يستعمل لهذا الغرض صيغة مقدسة (٢). وفي اليوم المعين يجتمع كل المواطنين خارج الأسوار ؛ وهنا يخيم السكون على الجميع ويطوف رجل الدولة ثلاث مرات حول الجماعة وهو يسوق أمامه ثلاث أضاح: كبش وخنزير وثور *suovetaurilia* ؛ ومجموع هذه الحيوانات الثلاثة، عند الإغريق كما عند الرومان ، قربان كفارة. ويتبع الموكب بعض الكهنة والمضحكين ، وعند ما تتم الدورة الثالثة يتلو رجل الدولة صيغة دعاء ويضحى بالأضحية . (٣) وأبتداء من تلك اللحظة

Diogène Laerce. *Socrate* c. 23. "Ἐκ τῶν θαργηλιῶνος, ὅτε καθαίρουσι τὴν (١) πόλιν Ἀθηναῖοι, Harpocraton V^o Φάρμακος: Δύο ἄνδρας Ἀθήνησιν ἐξήγον καθάρσια ἐσομένους τῆς πόλεως ἐν τοῖς θαργιλίοις, ἓνα μὲν ἑπὲρ τῶν ἀνδρῶν, ἓνα δὲ ὑπὲρ τῶν γυναικῶν" وكذلك كانوا يطهرون الموقد المنزلي كل عام، (أيسخيلوس: حملة السوائل ٩٦٦)

(٢) فارون، اللسان اللاتيني ٦ : ٨٦، ٨٧ .

Tite-Live, I, 44: *Suovetaurilibus lustravit*. Denys d' Halic., (٣)

IV, 22 : *Κελεύσας τοὺς πολίτας ἅπαντας συνελθεῖν... καθαρμὸν αὐτῶν ἐποιήσατο ταύρω καὶ κρίω καὶ τράγῳ.*

Cicéron, *De oratore*, II, 66: — *Lustrum condidit et taurum immolavit*. — Servius, *ad Aen.*, III, 279: *Lustrato populo dii placantur*. Cf. *ibid.* VIII, 183.

لخص فاليريوس ماكسيموس الدعاء الذي كان يتلوه الرقيب :

Censor, cum lustrum conderet, inque solito fieri sacrificio scriba ex publicis tabulis solenne ei precationis carmen praeiret, quo dii immortales ut populi romani res meliores amplioresque facerent ro-

تكون كل نجاسة قد محيت وكل إهمال في العبادة قد صحح وأصبحت المدينة في سلام مع آلهتها .

وكان لا بد من شيئين بالنسبة لعمل من هذا القبيل وبهذه الأهمية : أحدهما ألا يتسلل أى أجنبي بين المواطنين وهو أمر كان من شأنه، إذا وقع، أن يدخل الاضطراب في الاحتفال وينقضه ؛ والآخر أن يكون جميع المواطنين حاضرين وبدون ذلك يبقى في المدينة بعض الدنس . فكان لا بد إذن من أن يسبق هذا الاحتفال الديني تعداد للمواطنين . فكانوا يحصونهم في روما، وفي أثينا، بعناية المتأتمنين ؛ ومن المحتمل أن رجل الدولة كان يذكر عددهم في صيغة الدعاء كما أنه كان يدوّن فيها بعد في التقرير الذي كان يحرره الرقيب عن الاحتفال وكان فقدان حق المواطن هو عقاب الرجل الذي لم يسجل اسمه . وهذه القسوة لها ما يفسرها، فالرجل الذي لم يساهم في العمل الديني، الذي لم يطهر الذي لم يُبتل من أجله الدعاء ولم تضح له الأضحية، هذا الرجل لم يكن في استطاعته أن يكون عضواً في المدينة بعد ذلك، لأنه لم يعد مواطناً أمام الآلهة التي شهدت الاحتفال (١)

gabantur (Valère Maxime, IV, 1, 10)

وقد دأبت هذه العادات إلى عصر الإمبراطورية : Vopiscus, *Aurélien*, 20 : *Lustrata urbs, cantata carmina*. ورواج ان تيتوس ليفيوس (١ : ٤٤) كان يعتقد ان سرفيوس هو الذي أنشأ نظام النثار . لكنه قديم قدم روما . والدليل على ذلك أن نثار (*lustratio*) البلاتيوم، أى بلدة رومولوس الأولى ، قد استمر يقام من عام إلى عام . Varron, *De ling. lat.*, IV, 34 : *Februatur populus, id est, lupercis nudis lustratur antiquum opidum Palatinum gregibus humanis cinctum*.

وربما كان سرفيوس توليوس (Servius Tullius) هو أول من وقع النثار الأول على البلدة التي زاد فيها . وهو على الأخص الذي أنشأ التعداد الذي كان يصحب النثار لكنه لم يكن يختلط معه .

(١) كان يمكن جلده بالسوط أو بيعه كرقيق . ديونسيوس ٤ : ١٥ ؛ ٥ : ٧٥ ؛ سيسرون : الدفاع عن كيكليكيثا (Caecina) ٣٤ . وكان على المواطنين الغائبين عن روما أن يعودوا ليوم النثار، وليس لأى عذر أن يعفيهم من هذا الواجب . تلك كانت القاعدة في الأصل ، ولم تلتف إلا في القرنين الأخيرين من الجمهورية . فليوس (Velléius) ٢ : ٧ : ٧ ؛ تيتوس ليفيوس ٣٧ : ٢٤ ؛ أولوس جيلوس ٥ : ١٩ .

ويمكن أن نحكم على أهمية هذا الاحتفال من السلطة البالغة التي كانت لرجل الدولة المترس عليه . قبل أن يشرع الرقيب في التضحية كان يصف الشعب طبقاً لنظام معين : هنا الشيوخ ، وهناك الفرسان ، وفي مكان آخر القبائل ؛ وباعتباره سيداً مطلقاً في ذلك اليوم كان يعين مكان كل رجل في الفئات المختلفة . وعندما يصطف الجميع طبقاً لتعليماته كان يقوم بالعمل المقدس . وينتج من ذلك أنه ابتداء من ذلك اليوم إلى النثار القادم كان يحتفظ كل رجل في المدينة بالمرتبة التي عينها له الرقيب في الاحتفال . فيكون شيخاً إذا عد في ذلك اليوم بين الشيوخ ، وفارساً إذا وضع بين الفرسان ، وإذا كان مجرد مواطن فإنه كان ينتمى إلى القبيلة التي وضع بين صفوفها في ذلك اليوم . بل إذا رفض الرقيب قبوله في الاحتفال فإنه لا يكون مواطناً بعد ذلك . وبهذا كان المكان الذي شغله كل فرد في هذا الاجراء الديني ، والذي رأته الآلهة فيه ، هو المكان الذي يحتفظ به في المدينة مدة أربعة أعوام . ومن هنا كان سلطان الرقباء عظيماً .

لم يكن يشهد هذا الاحتفال إلا المواطنون . لكن نساءهم وأطفالهم وأرقاءهم وأموالهم ، منقولة أو غير منقولة ، كانت مطهرة بطريقة ما في شخص رئيس الأسرة . ولهذا السبب كان يتعين على كل فرد أن يعطى للرقيب قبل التضحية تعداد الأشخاص والأشياء المتعلقة به (١) .

وكان النثار ينفذ في عهد أغسطس بنفس الدقة ونفس الشعائر التي كان ينفذ بها في أقدم الأزمنة . وكان الأحبار لا يزالون يعتبرونه عملاً دينياً . وكان رجال الدولة يرون فيه ، على الأقل ، وسيلة إدارية فائقة .

(١) سيسرون : القوانين ٣ : ٣ ؛ الدفاع عن فلاكوس ٣٢ . تيتوس ليفيوس

١ : ٤٣ . ديونيسيوس ٤ : ١٥ ؛ ٥ : ٧٥ . قارون : اللسان اللاتيني ٦ : ٩٣ .

بلوتارخوس : كاتون الأكبر ١٦ .

٤- الديانة في المجمع ، في مجلس الشيوخ ، في المحكمة ، في الجيش ، النصر

لم يكن هناك عمل واحد من أعمال الحياة العامة لا يدخلون الآلهة فيه ، وحيث أنه كانت تتسلط على الإنسان فكرة أن الآلهة طورا تكون حماة ممتازة وطورا أعداء ألداء فإنه لم يكن يحروا إطلاقاً على إتيان عمل ما دون أن يكون واثقاً من أنهم راضون عنه .

لم يكن الشعب يجتمع في المجمع إلا في الأيام التي تسمح له الديانة فيها بذلك . كانوا يتذكرون أن المدينة عانت نكبة في يوم معين ، فلا يرتابون في أن الآلهة كانت في ذلك اليوم غائبة أو غاضبة ؛ ثم لا ريب في أنها لابد أن تكون غاضبة كل عام في نفس الزمن لأسباب خافية على البشر (١) . وإذن يكون ذلك اليوم نحساً إلى الأبد . فلا يجتمعون فيه ولا يتقاضون ، بل كانت الحياة العامة موقوفة فيه . وفي روما كان لا بد قبل دخول الجلسة من تأكيد المستخيرين أن الآلهة راضية . وكان المجمع يبدأ بصلاة يتلوها المستخير ويكررها القنصل بعده (٢) . وكان الأمر كذلك عند الأثينيين ؛ فالمجمع يبدأ دائماً بعمل ديني . كان يقدم الكهنة قرباناً ؛ ثم يرسمون دائرة كبيرة برش ماء التثار على الأرض

(١) عن هذه الفكرة من أفكار القدماء انظر كاسيوس همينيا (Cassius Hemina) في ماكروبوس ١ : ١٦ .

(٢) عن أيام النحس عند الإغريق انظر هسيودوس : الأعمال والأيام : البيت ٧١ وما بعده . وكانوا يطلقون على أيام النحس اسم *ἡμέραι ἀπόφραδες* (ليسياس الدفاع عن قانيا ، قطعة طبعة ديدوج ٢ ص ٢٧٨) . انظر هيرودوت ٦ : ١٠٦ .
Plutarque, *De defectu oracul.*, 14; *De ei apud Delphos*, 20.

(٣) سيسرون : الدفاع عن مورينا ١ . تيتوس ليفيوس ٥ : ١٤ ؛ ٦ : ٤١ ؛ ٣٩ : ١٥ . ديونيسيوس الهاليكارناسي ٧ : ٥٩ ؛ ٩ : ٤١ ؛ ١٠ : ٣٢ لا زال بلينيوس يذكر في مديح تراجان (٦٣) الـ *longum carmen comitiorum*

وبداخل هذه الدائرة المقدسة يجتمع المواطنون (١) . وقبل أن يتكلم أى خطيب كان يتلى دعاء أمام الشعب الصامت (٢) . وكانوا يستشيرون الاستخارات أيضاً . وإذا تجلت فى السماء آية ما ذات طابع منحوس فإن المجلس كان يتفرق فوراً (٣) .

وكان المنبر مكاناً مقدساً لا يصعد عليه الخطيب إلا وعلى رأسه تاج (٤) . وقد قضت العادة زمناً طويلاً أن يبدأ خطابه بدعاء الآلهة .

وفى روما كان المكان الذى يجتمع فيه مجلس الشيوخ هو أحد المعابد دائماً . وإذا عقدت جلسة فى مكان آخر غير مقدس فإن القرارات التى تتخذ يلحقها البطلان . إذ أن الآلهة لم يكونوا حاضريها (٥) . وقبل كل مداولة يقدم الرئيس قرباناً ويتلو دعاء . وكان فى القاعة مذبح يريق عليه كل شيخ

Eschine, *In Timarchum*, 23: Ἐπειδὴν τὸ καθάριστον περιενέχθη (١) καὶ ὁ κήρυξ τὰς πατρίας εὐχὰς εὐξεται. Id. *In Ctesiph.*, 2-6. Pollux, VIII, 104: Περιεστιάρχοι ἐκάθαιρον χοιριδίοις τὴν ἐκκλησίαν.

ومن هنا كلمة أرسطوفانيس (Aristophane, *Acharn* 44.) Ἐντὸς τοῦ καθάρματος للدلالة على مكان الاجتماع . انظر دينارخوس : ضد أرسطوغيتون ١٤ .

(٢) يذكر ديموستينيس هذا الدعاء دون أن يذكر صيغته (السفارة ٧٠) . ويمكن تكوين فكرة عنها من الصورة التى يعارضها بها أرسطوفانيس فى

Thesmophoriazousae v. 295-350.

Aristophane, *Acharniens*, 171: Διοσημία ἐστὶ (٣)

Idem, *Thesmoph.*, 381, et Scholiaste: Στέφανον ἔθος ἦν τοῖς (٤)

- λέγουνσι στεφανοῦσθαι πρῶτον

Cicéron, *In Vatinius*, 10: *In Rostris, in illo augurato templo*, ويقول سرفيوس (Ad Aen. ١١ : ٣٠١) إن كل خطبة عند القدماء كانت تبدأ بدعاء، ويذكر على سبيل البرهان ما كان لديه من خطب كاتون والأخوين غرافخوس

Varron, dans Aulu-Gelle, XIV, 7: *Nisi in loco per augures* (٥)

constituto, quod templum appellaretur, senatusconsultum factum fuisset, justum id non esse. Cf. Servius, *ad Aen.*, I, 446; VII, 153: *Nisi in augusto loco consilium senatus habere non poterat*, Cf Cicéron, *Ad diversos*, X, 12.

السوائل عند دخوله ويدعو الآلهة (١) .

وكان مجلس شيوخ أثينا يشبه من هذه الناحية مجلس شيوخ روما فكانت القاعة تحوى كذلك مذبحاً ، موقداً . وكانوا يقومون بعمل دينى عند ابتداء كل جلسة . فكان كل شيخ عند دخوله يقترب من المذبح ويتلو دعاء . (٢) وكانوا لا يجلسون للقضاء فى المدينة ، فى روما كما فى أثينا ، إلا فى الأيام التى تبين الديانة أنها من أيام القبول ، وفى أثينا كانت تعقد جلسة المحكمة بجوار مذبح وتبدأ بقربان (٣) ، وفى عصر هوميروس كان القضاء يجتمعون فى دائرة مقدسة .

يقول فستوس إن فى كتب شعائر الأتروسك بياناً للطريقة التى يجب أن تتبع فى تأسيس بلدة، أو تقديس معبد، أو توزيع الندوات والقبائل فى المجمع، أو صف جيش فى المعركة . كل هذه الأشياء كانت مينة فى كتاب الشعائر لأن كل هذه الأشياء كانت تمس الديانة .

وكان للديانة من السيطرة فى الحرب بقدر ما كان لها فى السلم على الأقل . وكانت فى البلدان الإيطالية فرق من الكهنة تسمى فسيالس *feciales* ترأس ، كالمنادين (*herauts*) عند الإغريق، جميع الاحتفالات المقدسة الناتجة عن العلاقات الدولية . وكان الفسياليس (*fecialis*) يعلن الحرب وهو يتلو صيغة مقدسة بعد أن يكون قد غطى رأسه بقناع من الصوف، طبقاً للشعائر، واستشهد بالإله (٤) .

(١) Varron, dans Aulu-Gelle, *ibid.*,: *Immolare hostiam prius* .
auspicarique debere qui senatum habiturus esset.
 ٣٥ ديون كاسيوس ٥٤ : ٣٠ .

(٢)
 Andocide, *De suo reditu*, 15; *De mysteriis*, 44; Antiphon, *super choreuta*, 45.

• ليكورغ ضد ليوقراطس ١٢٢ . ديموشينيس : ضد ميدياس ١١٤ . ديودوروس
 ١٤ : ٤ . إكسينوفون ، الهلينييات ٢ : ٣ : ٥٢ .

(٣) أرسطوفانيس : الزناير ٨٦٠ - ٨٦٥ . انظر الإلياذة ١٨ : ٥٠٤ .

(٤) يمكن رؤية «شعائر» إعلان الحرب فى تيتوس ليفيوس ١ : ٣٢ . قارن

وفي نفس الوقت يقدم القنصل قرباناً وهو مرتد الملابس الكهنوتية ، ويفتح في احتفالٍ معبد أقدم معبود في إيطاليا وأكثرهم تيجيلاً : معبد چانوس (١). وقبل القيام بحملة يجتمع الجيش ، ويتلو القائد أدعية ويقدم قرباناً . وكذلك كان الحال بالضبط في أثينا وفي إسبرطه (٢) .

وكان الجيش أثناء المعركة يمثل صورة للمدينة ، وكانت ديانتها تلاحقه . فكان الإغريق يحملون معهم تماثيل معبوداتهم . وكان كل جيش إغريقي أو روماني يحمل معه موقداً ويغذى ناره المقدسة ليل نهار (٣) . وكان يرافق الجيش الروماني المتكهنون والمستخرون بالدجاج (Pullarii) . وكان لكل جيش إغريقي متنبئ .

ديونيسيوس ٢ : ٧٢ ؛ بلينيوس ٢٢ : ٢ : ٥ ؛ سرفيوس Ad Aen. ٩ : ٥٢ ؛ ١٠ : ١٤ . - ويؤكد ديونيسيوس (١ : ٢١) وتيتوس ليفيوس (١ : ٣٢) أن هذا النظام كان شائعاً بين كثير من البلدان الإيطالية . - وفي بلاد الإغريق أيضاً كانت تعلن الحرب على يد مناد κήρυξ ، ثوقيديس ١ : ٢٩ ؛ بوسانياس ٤ : ٥ : ٨ . بوليديوكيس ٤ : ٩١ .

(١) تيتوس ليفيوس ١ : ١٩ ؛ وهناك وصف مضبوط وتفصيلي للاحتفال في فرجيليوس ٦٠١ - ٦١٧ .

(٢) Denys, IX, 57 : Οἱ ὑπατοὶ εὐχὰς ποιησάμενοι τοῖς θεοῖς καὶ καθήραντες τὸν στρατὸν ἐξήσαν ἐπὶ τοὺς πολεμίους . أكسينوفون : الهلنيات ٣ : ٤ : ٣ : ٤ : ٧ : ٢ : ٥ : ٦ : ٥ . انظر في أكسينوفون (جمهورية اللاقيديمونيين ١٣ (١٤) سلسلة القرابين التي كان يقدمها جيش إسبرطي قبل الخروج من البلدة ، قبل تجاوز الحدود ، والتي كان يجددها فيما بعد كل صباح قبل أن يعطى أى أسر بالسير . عند قيام أسطول كان يقدم الأثينيون قرباناً ؛ وكذلك الرومان . قارن ثوقيديس ٦ : ٣٢ وتيتوس ليفيوس ٢٩ : ٢٧ .

(٣) هيرودوت ٩ : ١٩ ؛ واكسينوفون (جمهورية اللاقيديمونيين ١٣) وبلوتارخوس (ليكورغ ٢٢) . وعلى رأس كل جيش إغريقي يمشى رجل يلقب بحامل النار πύρφορος وهو يحمل النار المقدسة . (أكسينوفون : جمهورية اللاقيديمونيين ١٣ ؛ هيرودوت ٨ : ٦ ؛ بوليديوكيس ١ : ٣٥ ؛ هسيخيوس تحت كلمة πύρφορος . وكذلك كان يوجد دائماً موقد مشتعل في كل معسكر روماني (ديونيسيوس ٩ : ٦) وكذلك كان الأتروسك يحملون موقداً في جيوشهم (بلوتارخوس : بوليكلولا ١٧) . وكذلك يتكلم تيتوس ليفيوس (٢ : ١٢) عن رجل يلقب accensus ad sacrificium foculus وكان للدكتاتور سيلاً ذاته موقد أمام خيمته (Julius Obsequens, 116)

فلتأمل جيشاً رومانياً وهو يعد نفسه للقتال . يستحضر القنصل ضحية ويهوى عليها بالفأس ، فتسقط ، ولا بد أن تدل أحشاؤها على إرادة الآلهة ، فيفحصها عراف الأحشاء (Haruspex) وإذا كانت العلامات تدل على القبول أعطى القنصل إشارة القتال . وكانت أمهر الترتيبات وخير الأحوال ملائمة عديمة الحدودى إذا لم تسمح الآلهة بالقتال . فإن أساس الفن الحربى عند الرومان ألا يجبر أمرواً على القتال برغم أنفه عندما تكون الآلهة غير راضية . ولهذا السبب كانوا يجعلون معسكرهم كل يوم شبيهاً بالقلعة .

ولتأمل الآن جيشاً إغريقياً ولتتخذ معركة پلاتايا (Platées) مثلاً لذلك . اصطف الإسرطيون للمعركة وكل منهم فى موضعه للقتال . على رأس كل واحد منهم تاج ، ويسمعهم النافخون فى المزمار الأناشيد الدينية ، والملك يذبح الأضاحى خلف الصفوف بقليل . لكن الأحشاء لم تعط العلامات الموافقة فلا بد من إعادة القربان ، فضحى بضحيتين ثم بثلاث ثم بأربع على التوالى . وفى خلال ذلك اقتربت فرسان الفرس ورمت بسهامها وقتلت عدداً كبيراً من الإسرطيين . بقى الإسرطيون بلا حراك، والتروس موضوعة عند أقدامهم، حتى دون أن يقوا أنفسهم من ضربات العدو . إنهم ينتظرون إشارة الآلهة . وفى النهاية أظهرت الضحايا علامات الموافقة من جانب الآلهة، وعندئذ رفع الإسرطيون تروسهم وانتضوا سيوفهم وقاتلوا وكانوا هم المنتصرين (١).

وكانوا يقدمون قرباناً بعد كل انتصار . وذلك هو أصل موكب النصر (triumphus) المعروف جيداً لدى الرومان والذي لم يكن مألوفاً بدرجة أقل منها عند الإغريق . وهذه العادة هى نتيجة الرأى الذى كان ينسب النصر لآلهة المدينة . فقبل المعركة يوجه لهم الجيش دعاء شبيهاً بذلك الذى نقرؤه فى أيسخيلوس: «أعدكم، أيها الآلهة الذين تسكنون أرضنا وتملكونها . أعدكم، إذا سعد سلاحنا ونجت بلدتنا أن أروى مذابحكم بدم الشياة وأضحى لكم بالثيران وأعرض فى معابدكم المقدسة الغنائم التى كسبتها

(١) هيرودوت ٩ : ٦١ - ٦٢

رماحنا (١) . وبمقتضى هذا الوعد كان على المنتصر أن يقدم قرباناً ؛ وكان يثوب الجيش إلى البلدة للقيام به ؛ ويتوجه إلى المعبد في موكب طويل وهو يغنى نشيداً مقدساً *θρίαμβος* (٢)

وفي روما يكاد الاحتفال أن يكون صورة من ذلك . كان يتوجه الجيش في موكب إلى معبد البلدة الرئيسي ؛ ويسير الكهنة على رأس الموكب وهم يقودون الضحايا . وعندما يصل القائد إلى المعبد يضحي للآلهة بالأضحية . وفي أثناء الطريق ، يحمل كل جندي تاجاً كما يليق باحتفال مقدس وينشدون نشيداً كما في بلاد الإغريق . حقاً لقد جاء زمن لم يتعفف فيه الجند عن أن يستبدلوا بالنشيد أغاني المعسكر أو عبارات التندر على قائدهم ، لكنهم حافظوا على الأقل على عادة تكرار النداء القديم *Io triumphe* بين وقت وآخر (٣) . وهذا النداء المقدس هو الذي خلع اسمه على الاحتفال .

وهكذا كانت الديانة تتدخل في جميع الأعمال في زمن السلم وفي زمن الحرب . كانت حاضرة على الدوام ، محيطة بالإنسان . فكان كل شيء تحت سيطرة ديانة المدينة : الروح ، والجسد ، الحياة الخاصة ، والحياة العامة ، الأكلات ، والأعياد ، والمجامع ، والمحاكم ، والقتال . كانت تنظم كل أعمال

(١) أيسخيلوس : الرؤساء السبعة ٢٥٢-٢٦٠ . أوربيديس : الفينيقيات ٥٧٣

(٢) ديودوروس ٤ : ٥ . فوتيوس *θρίαμβος ἐπιδείξις νίκης, πομπή*

(٣) Tite-Live, XLV, 39: *Diis quoque, non solum hominibus, debetur triumphus. . . consul proficiscens ad bellum vota in Capitolio nuncupat; victor, perpetrato bello, in Capitolio triumphans ad eosdem deos, quibus vota nuncupavit, merita dona populi romani traducit.*

تيتوس ليفيوس ٥ : ٢٣ ؛ ١٠ : ٧ . فارون : اللسان اللاتيني ٦ : ٦٨٠ . بلينيوس : التاريخ الطبيعي ٧ : ٥٦ ؛ ٣٣ : ٧ : ٣٦ .

الإنسان وتتصرف في جميع لحظات حياته ، وتعين كل عاداته . كانت تحكم الكائن البشرى بسلطان مطلق بلغ من أمره أنه لم يبق أى شىء خارجاً عنها .
وإنها لفكرة زائفة جداً عن الطبيعة البشرية أن نعتقد أن ديانة الأقدمين هذه كانت دجلاً وإلى حد ما مهزلة تمثيلية . يزعم منتسكيو (Montesquieu) أن الرومان لم يتخذوا عبادة إلا ليكبحوا جماح الشعب . لكن ما من دين كان ذلك أصله إطلاقاً ، وكل ديانة انتهى بها الأمر إلى الاستناد إلى سبب المنفعة العامة دون سواه . لم يدم استنادها هذا زمناً طويلاً ، ويقول منتسكيو أيضاً إن الرومان كانوا يخضعون الديانة للدولة ، والعكس هو الصحيح . إنه من المحال أن يقرأ الإنسان بضع صفحات من تيتوس ليفيوس دون أن تثير دهشته التبعية المطلقة التي كان فيها الناس حيال آلهتهم . لم يعرف الرومان ولا الإغريق هذه المنازعات المحزنة بين الكنيسة والدولة ، وهي التي بلغت تلك الدرجة من الشيوع في مجتمعات أخرى . وما مرجع ذلك إلا أن الدولة في روما كانت خاضعة للديانة ، وكذلك كانت أسيرطه وأثينا . ولم يكن السبب في ذلك أنه كانت هناك في أى وقت من الأوقات هيئة من الكهنة فرضت سلطانها عنوة . فإن الدولة القديمة لم تخضع لكهنوت قط ، بل كانت خاضعة لديانتها هي ذاتها . فكانت هذه الدولة وهذه الديانة مختلطتين اختلاطاً تاماً بحيث لم يكن التفكير في نزاع بينهما هو وحده المستحيل ، بل كان التمييز بينهما مستحيلاً أيضاً .

الفصل الثامن

الشعائر والحوليات

لم يكن من مميزات ديانة القدماء ولا من فضائلها أن ترفع الذكاء البشرى إلى إدراك المطلق، ولا أن تفتح للفكر النهم طريقاً ساطعاً يعتقد أنه يلمح الله في نهايته . بل كانت هذه الديانة مجموعة سيئة الارتباط من العقائد الصغيرة والسنن الضئيلة والشعائر الدقيقة . لم يكن هناك داع للبحث عن معناها ، ولم يكن هناك مجال للتفكير ولا للاستبانة . لم يكن للفظ الديانة (religion) (١) المعنى الذى يعنيه لنا الآن . فإننا نقصد بهذه الكلمة مجموعة من التعاليم ، ومذهباً عن الله ، ورمزاً عن الإيمان بالأسرار التى فىنا وحولنا . وكانت نفس هذه الكلمة تعنى عند القدماء شعائر واحتفالات والأعمال الظاهرية للعبادة . لم يكن المذهب إلا شيئاً ضئيلاً ، أما المهم فهى العادات، وهى التى كانت الزامية . كانت الديانة رباطاً مادياً ، وغلاً يُستعبد به الإنسان ، صنعه الإنسان لنفسه لكنه كان يحكم الإنسان . كان يخشاه فلا يجرؤ أن يجادله أو يناقشه أو يواجهه . كانت هناك آلهة وأبطال وأموات يطالبونه بعبادة مادية، وكان يسدد لهم دينهم ليجعل منهم أصدقاء بل أكثر من هذا لكيلا يتخذ منهم أعداء .

أما صداقتهم فلم يكن الانسان يعتمد عليها إلا قليلا . فقد كانت آلهة حاسدة . سريعة الغضب ، لا مودة عندها ولا عطف ، يطيب لها أن تحارب الإنسان (٢) . لم تكن الآلهة تحب الإنسان ، ولم يكن الإنسان يحب آلهته . كان يؤمن

(١) معنى الكلمة فى أصلها اللاتينى الرباط ، الميثاق — العرب .

(٢) Plutarque, *De defectu oraculor*, 14: "Α δρωσιν ἄνθρωποι

μηνίματα δαιμόνων, ἀφοσιούμενοι καὶ προὔνοντες οὓς ἀλάστορας καὶ παλαμναίους ὀνομάζουσι.

بوجودها لكنه كان يتسنى أحياناً لو لم توجد . حتى آلهته المنزلية أو القومية كان وجلاً منها . يخاف أن تغدر به ؛ وكان أكبر مخاوفه أن يحقق به غضب هذه الكائنات الخفية . فكان شغله طوال حياته أن يهدىء ثائرتها كما يقول الشاعر *paces deorum quaerere* . لكن ماهى الوسيلة لإرضائها؟ وعلى الأخص ما هى الوسيلة التى بها يثق الإنسان أنه أرضاهم وأنهم قد أصبحوا فى صفه ؟ اعتقدوا أنهم وجدوها فى استعمال صيغ معينة . فالصلاة الفلانية المركبة من من الألفاظ الفلانية قد أعقبتها النجاح المطلوب فلا ريب فى أن مرجع ذلك أن الإله قد استمع لها ، وأنه كان لها أثر فيه ، وأنها كانت قوية ، أقوى منه ما دام لا يستطيع أن يقاومها . فحافظوا إذن على عبارات هذا الدعاء الخفية المقدسة . وبعد الأب ، كررها الابن . وبمجرد ما عرفوا الكتابة قيدوها كتابة . فكان لكل أسرة ، وعلى الأقل لكل أسرة دينية ، كتاب كانت تحفظ فيه الصيغ التى استعملها الأسلاف والتى تراجعت الآلهة أمامها . فكان ذلك سلاحاً استخدمه الإنسان ضد قلب آلهته . لكن كان من المحتم ألا يتغير منه لفظ ولا مقطع وألا تتغير ، على الأخص ، النعمة التى كان يجب ترتيله عليها . إذ لو حدث شيء من ذلك لفقد الدعاء قوته وبقيت الآلهة أحراراً (١) .

لكن الصيغة لم تكن كافية . بل كانت هناك أيضاً أعمال خارجة دقيقة التفاصيل وغير قابلة للتبديل فيها . فكان لأقل حركة من حركات المضحيّ وأقل جزء من أجزاء ملبسه نظام معين . فعند التوجه لإله معين كان يتحتم أن تكون الرأس مقنعة ،

(١) عن الأناشيد القديمة التى استمر الاغريق على ترتيلها فى الاحتفالات انظر بوسانياس ١ : ١٨ ، ٧ : ١٥ فى نهايتها ؛ ٧ : ٢١ ، ٩ : ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ . يلاحظ سيسرون (القوانين ٢ : ١٥) أن البلدان الاغريقية كانت متنبهة إلى المحافظة على النعم القديم *antiquum vocum servare modum* . ويسير أفلاطون (القوانين ٧ ص ٧٩٩ - ٨٠٠) على نهج القواعد القديمة عند ما ينص على أن الأغاني والنعم تبقى بلا تبديل . وعند الرومان كانت كتب الشعائر تحدد صيغ الأدعية . أنظر فارون : اللسان اللاتينى ، وكاتون فى مواضع متفرقة .

Quintilien, I, 11: *Saliorum carmina, vix sacerdotibus suis intellecta, mutari vetat religio et consecratis utendum est.*

ولإله آخر أن تكون الرأس عارية، ولثالث أن يرفع شقة الدثار (toge) على الكتف. وفي بعض الأعمال يتحتم أن تكون القدمان حافيتين. وكانت هناك أدعية لامفعول لها إلا إذا دار الإنسان بعد تلاوتها حول نفسه من الشمال إلى اليمين. وجنس الضحية، ولون شعرها، وطريقة نحرها، وشكل المذبة، ونوع الخشب الذي كان لابد من استعماله لشيء اللحوم، كل ذلك كانت تنظمه ديانة كل أسرة وكل مدينة لكل إله، وعبثاً كان أشد القلوب حماسة يقدم للآلهة أسمن الأضاحي، فإنه إذا ما أهمل شعيرة واحدة من شعائر التضحية التي لا حصر لها تصبح التضحية باطلة. إن أقل نقص كان يجعل من العمل المقدس عملاً دنساً. وكان أهون تغيير يثير الاضطراب والتشويش في ديانة الوطن ويحول الآلهة الحماة إلى أعداد الداء بقدر ما كانوا حماة. ولهذا كانت أثينا قاسية على الكاهن الذي يغير شيئاً ما في الشعائر القديمة (١). ولهذا كان مجلس شيوخ روما يعزل القناصل والدكتاتوريين الذين يرتكبون خطأ ما في التضحية.

كل هذه الصيغ والسنن خلفها الأسلاف الذين جربوا مفعولها. لم يكن هناك مجال للتجديد بل كان يجب الاعتماد على ما فعله الأسلاف، وكانت أعلا مراتب التقوى أن يعملوا كما كانوا يعملون، لم يكن يهم إلا قليلاً أن تتغير العقيدة. فكانت تستطيع أن تتغير بجزئية خلال العصور وأن تتخذ ألف شكل مختلف على هوى تفكير الحكماء أو خيال الشعب. لكن كان من الأهمية العظمى ألا تهوى الصيغ في النسيان وألا تتبدل الشعائر. لذلك كان لكل مدينة كتاب يحفظ فيه كل ذلك.

كان استعمال الكتب المقدسة عاماً لدى الإغريق ولدى الرومان ولدى

(١) ديموسثينيس: ضد نيايرا ١١٦، ١١٧. اقتبس فارون بضعة ألفاظ من كتب الأقداس (libri sacrorum) التي كانت محفوظة في أثينا والتي كانت لغتها عتيقة. (اللسان اللاتيني ٥ : ٩٧). — عن احترام الإغريق للشعائر القديمة أنظر بضعة أمثلة غريبة في بلوتارخوس (مسائل إغريقية ٢٦، ٣١، ٣٥، ٣٦، ٥٨). وقد أحسن إيسوقراط (Aréopagitique, 20-30) التعبير عن الفكرة القديمة وفي كل مرافعته ضد نيايرا.

الأتروسك (١) . وفي بعض الأحيان كانت الشعائر مكتوبة على لوحات من الخشب ؛ وفي بعض الأحيان على القماش ؛ كانت أثينا تحفر شعائرها على ألواح من النحاس أو على لوحات من الحجر كيلا تزول (٢) . وكان لروما كتب أحبارها ، وكتب مستخيرها . وكتب احتفالاتها ، ومجموعة دعواتها (Indigitamenta) . وما من بلدة إلا وكان لها كذلك مجموعة من الأناشيد القديمة في تمجيد آلهتها (٣) . وعبثاً كانت تتغير اللغة متمشية مع الأخلاق والعقائد ؛ فقد كانت العبارات والنغم تبقى بلا تبديل وكانوا يدأبون على ترتيل هذه الأناشيد في الأعياد دون أن يفهموها .

هذه الكتب وهذه الأناشيد كتبها الكهنة وحافظوا عليها بعناية كبيرة جداً . فلم يكونوا يطلعون الأجانب عليها أبداً . ومن كشف عن إحدى الشعائر والصيغ فقد خان ديانة المدينة وسلم آلهتها للأعداء . ولزيادة الحيلة كانوا يخفونها حتى عن المواطنين ولم يكن يستطيع العلم بها إلا الكهنة دون سواهم .

في ذهن هذه الشعوب ، كان كل قديم محترماً ومقدساً . فإذا أراد الروماني أن يقول إن شيئاً ما عزيز عليه كان يقول هذا عتيق بالنسبة إلى . وكان عند الإغريق تعبير مماثل (٤) . كانت البلدان شديدة التمسك بماضيها إذ أنها كانت تجد في

(١) بوسانياس ٤ : ٢٧ ، بلوتارخوس : الرد على كولوتيس (Colotes) ١٧ .
بلينيوس : التاريخ الطبيعي ١٣ : ٢١ . فالريوس ماكسيموس ١ : ١ : ٣ . فارون :
اللسان اللاتيني ٦ : ١٦ . كنسورينوس (Censorinus) ١٧ . فستوس تحت كلمة Rituales .

(٢) Pollux, VIII, 128: δέλτοι χαλκαῖ, αἷς ἦσαν πάλαι ἐντετυπωμένοι
οἱ νόμοι οἱ περὶ τῶν ἱερῶν καὶ τῶν πατριῶν.
Lysias, in Nicomachum, 17: χρηὴ
θεύειν τὰς θυσίας τὰς ἐκ τῶν κυρβέων καὶ τῶν στηλῶν κατὰ τὰς ἀναγραφάς.

(٣) اقتبس أثينا يوس (١٤ : ٦٨) أناشيد أثينا القديمة ؛ وإيليانوس (Elien)
(٣٩ : ٢) أناشيد الإقريطشين ؛ وينداروس البيثيات ٥ : ١٣٤) أناشيد قرينه ؛
وبلوتارخوس (ثيسوس ١٦) أناشيد البوتيين (Bottiéens) وتاسيتوس (حوليات ٤ :
٤٣) أناشيد المتكهنين Vatum carmina التي حافظ عليها الإسبرطيون والمسينيون .
(٤) pátriōn ἐστὶν ἡμῖν . كثيراً ما تتردد هذه الكلمات عند ثوقيديديس
وعند الخطباء الأثينيين .

الماضى كل بواعث ديانتها كما كانت تجد كل قواعدها . كانوا فى حاجة للادكار إذ أن كل عبادتهم كانت تتركز على ذكريات وأثرات . لذلك كان التاريخ أكثر أهمية للقديما منه لنا . فقد وجد قبل هيرودوت وثوقيديديس وأمثالهما بدهر طويل ؛ وسواء كان مكتوباً أو غير مكتوب ، مجرد إثارة أو كتاب ، فإنه معاصر لنشأة المدن . ما من بلدة مهما كانت صغيرة أو كبيرة إلا وضعت أكبر اهتمامها فى الاحتفاظ بذكرى ما مر فيها . ولم يكن ذلك من الزهو بل من الديانة . لم تكن بلدة ما تعتقد أن لها الحق فى نسيان شىء ما ؛ إذ كل شىء فى تاريخها مرتبط بعبادتها .

والواقع أن التاريخ كان يبدأ بعملية التأسيس ويخبر عن اسم المؤسس المقدس ويستمر بأسطورة آلهة المدينة والأبطال الحماة . كان يعلم تاريخ كل عبادة وأصلها والعلّة فى وجودها ويفسر شعائرها الغامضة . كانوا يدونون فيه العجائب التى عملتها آلهة البلاد والتى بها أعلنت قوتها وطبيعتها وغضبها . وكانوا يصفون فيه الاحتفالات التى بها أبعد الكهنة بمهارة نذيراً بالشر أو هدؤوا سخيمة الآلهة . ويضعون فيه أى الأوبئة نزلت بالمدينة وبأية صيغة مقدسة عاجلها ، وفى أى يوم قدّس معبد ما ولأية علّة أنشئ قربان ما أو عيد ما . وكانوا يدونون فيه كل الحوادث التى يمكن أن تنتسب إلى الدين ، والانتصارات التى تدل على مساعدة الآلهة والتى كثيراً ما رأوا الآلهة تحارب فيها ، والهزائم التى تدل على غضبها والتى من أجلها كان يتحتم إنشاء قربان للتكفير . كل ذلك كان مكتوباً لتعليم الذرية ولتقواها . كل هذا التاريخ كان الدليل المادى على وجود الآلهة القوميين . إن الحوادث التى يحويها لى الشكل الظاهر الذى تجلت فيه الآلهة من عصر إلى عصر . بل إن بين هذه الوقائع عدداً كبيراً نتجت عنه أعياد تذكارية ، أى قرابين وأعياد وألعاب مقدسة . كان تاريخ المدينة يخبر المواطن بكل ما يجب أن يؤمن به وكل ما يجب أن يعبد .

لذلك كان الكهنة هم الذين يكتبون هذا التاريخ . فكانت لروما حوليات أحبارها ، وكان للكهنة السابينيين ، والكهنة السامنيين ، والكهنة الأتروسك ،

مثيلاتها (١) . وعند الإغريق بقيت لنا ذكرى كتب أثينا واسبرطه ودلفوى وناكسوس وتارنت أو حولياتها المقدسة (٢) . عند ما جاب يوسانياس بلاد الإغريق في عهد هادريانوس روى له كهنة كل بلدة التواريخ المحلية القديمة ؛ أنهم لم يخترعوها بل تعلموها في حولياتهم .

كان هذا النوع من التاريخ محلياً محضاً . كان يبدأ بالتأسيس لأن ما هو سابق على هذا التاريخ لم يكن يهم المدينة في شيء ما ، ولهذا كان الأقدمون على جهل تام بأصول جنسهم . ولم ينقل كذلك إلا الحوادث التي وجدت المدينة نفسها مقحمة فيها ، ولم يكن يهم ببقية العالم . كان لكل مدينة تاريخها الخاص كما كانت لها ديانتها وتقويمها

ويمكن الاعتقاد بأن حوليات البلدان هذه كانت جافة جداً . فإنها لم تكن عملاً فنياً بل كانت عملاً دينياً . ثم فيما بعد جاء الكتّاب : القصصيون أمثال هيرودوت ، والمفكرون أمثال ثوقيديديس . عندئذ خرج التاريخ من أيدي الكهنة وتبدلت طبيعته . ومن سوء الحظ أن هذه المؤلفات الحميلة الرائعة لا تزال تتركنا نأسف على المحفوظات القديمة للبلدان وكل ما كانت تعلمه لنا عن عقائد القدماء وحياتهم الداخلية . ولقد هلكت هذه الوثائق التي لا تقدر بقيمة والتي يبدو

(١) ديونيسيوس ٢ : ٤٩ : تيتوس ليفيوس ١٠ : ٣٣ . سيسرون : التكهين ٢ : ٤١ ؛ ١ : ٣٣ ؛ ٢ : ٢٣ . كنسورينوس ١٢ : ١٧ . سويتونيوس : كلوديوس ٤٢ . ماكروبيوس ١ : ١٢ ؛ ٥ : ١٩ . سولينوس (Solin) ٢ : ٩ . سرفيوس ٧ : ٦٧٨ ؛ ٨ : ٣٩٨ . رسائل ماركوس أوريليوس ٤ : ٤ .

(٢) حوليات اسبرطه القديمة *ᾠδοί, παλαιόται, ἀναγραφαί* ذكرها بلوتارخوس (الرد على كولوتيس) IV (Colotès) ، وأثينا يوس ١١ : ٤٩ ؛ وتاسيتوس : حوليات ٤ : ٤٣ . وتكلم بلوتارخوس (صولون : ١١) عن حوليات دلفوى . حتى المسيحيين كانت لهم حوليات و *monumenta sculpta aere prisco* ترجع كما كانوا يقولون إلى الغزو الدوري (تاسيتوس ، نفس المرجع) .

Denys d'Halic., *De Thucyd. hist.*, éd. Reiske, t. VI, p. 819:

“Ὅσαι διεσώζοντο παρὰ τοῖς ἐπιχωρίοις μνημαὶ κατὰ ἔθνη καὶ κατὰ πόλεις εἴτ' ἐν ἱεροῖς εἴτ' ἐν βεβήλοις ἀπκείμεναι γράφαί.
 ويشير بوليبيوس أيضاً (١٢ : ١٠) إلى *δημοσίαι τῶν πόλεων ἀναγραφαί*

أنها كانت محفوظة طي الأسرار ولم تكن تخرج من المعابد ، هذه الوثائق التي لم تكن تنسخ منها صور ، والتي لم يكن يقرأها غير الكهنة ، هلكت جميعاً ولم يبق لنا منها غير ذكرى خافتة .

حقاً إن لهذه الذكرى قيمة عظيمة بالنسبة لنا . وبدونها ربما كان يحق لنا أن نرفض كل ما تروييه بلاد الإغريق وروما عن تاريخها القديم . فإن جميع هذه الروايات ، التي تبدو لنا ضئيلة الشبه بالحق بدرجة كبيرة لابتعادها عن عاداتنا وطرق تفكيرنا وفعلنا ، كان يمكن اعتبارها من نتاج خيال البشر . لكن هذه الذكرى التي بقيت لنا من الحوليات القديمة ترينا على الأقل الاحترام الخاشع لدى القدماء لتاريخهم . نعلم أن الحوادث كانت تودع في هذه المحفوظات ، كلما حدث شيء منها ، بعناية تخشى الإثم . ففي هذه الكتب المقدسة كانت كل صحيفة معاصرة للحدث الذي تروييه . وكان تغيير هذه الوثائق مستحيلاً استحالة مادية ، إذ أن الكهنة كانوا حفظة عليها وكان للديانة مصلحة عظيمة في بقائها من غير تبديل . بل إنه لم يكن يسهل على الخبر ، أثناء كتابته للسطور ، أن يدرج عن قصد وقائع مخالفة للحقيقة . كانوا يعتقدون أن كل حادث آت من الآلهة ويكشف عن إرادتهم ويمد الأجيال القادمة بذكريات ورعة بل بأعمال مقدسة ؛ كل حادث يقع في المدينة يصبح على الفور جزءاً من ديانة المستقبل . مع مثل هذه العقائد يدرك الإنسان جيداً أنه كانت هناك أغلاط كثيرة غير مقصودة ناتجة عن الميل إلى التصديق وإثارة العجائب والإيمان بقوة الآلهة القوميين . لكن الكذب المقصود لا يمكن تصوره ؛ إذ أنه كان يكون إثماً وكان فيه اعتداء على قداسة الحوليات وتبديل للديانة . من ذلك نستطيع أن نعتقد أنه إذا لم يكن كل شيء في هذه الكتب القديمة صحيحاً فإنه لم يكن فيها على الأقل شيء لا يعتقد الكاهن أنه صحيح ، وإنه لسبب قوى للثقة في نظر المؤرخ الذي يسعى إلى اختراق ظلمات تلك العصور القديمة أن يعلم أنه إذا كانت أمامه أغلاط فإنه ليس أمامه دجل . بل إن هذه الأغلاط ذاتها تستطيع بما لها من ميزة المعاصرة للأحقاب القديمة التي يدرسها أن تكشف له على الأقل عن عقائد الناس الخالصة إن لم تكشف عن تفاصيل الحوادث .

وكانت هناك أيضاً بجوار الحوليات ، هذه الوثائق المكتوبة الصحيحة ،
أثارة شفهية مغلدة بين شعب المدينة . وهي ليست أثارة مبهمه سلبية كأثاراتنا ،
بل أثارة عزيزة على البلدان ولا تتغير طبقاً لهوى الخيال ؛ ولم يكونوا أحراراً في تبديلها
إذ أنها كانت جزءاً من العبادة وكانت تتكون من روايات وأغانٍ تتكرر من
عام إلى عام في أعياد الديانة . هذه الأناشيد المقدسة غير القابلة للتبديل كانت
تثبت الذكريات وتحيي الأثارة على الدوام .

لا ريب أنه لا يمكن الاعتقاد بأن هذه الأثارة كانت في دقة الحوليات . بل
كان من الجائز أن تكون الرغبة في مدح الآلهة أقوى من حب الحقيقة . بيد أنه
كان يجب أن تكون على الأقل ظلاً للحوليات وأن تكون في العادة على وفاق
معها . إذ أن الكهنة الذين كانوا يحررون هذه الحوليات ويقرؤونها كانوا
هم بذاتهم الذين يرأسون الأعياد التي كانت ترتل فيها هذه القصص القديمة

هذا وقد جاء زمن أبيحت فيه هذه الحوليات ؛ فأنهت روما بأن نشرت
حولياتها ؛ وعرفت حوليات البلدان الإيطالية الأخرى . ولم يتعفف كهنة
البلدان الإغريقية عن رواية ما كانت تحويه حولياتهم (١) فدرست هذه الآثار
العتيقة وأجبل النظر فيها . وتكونت مدرسة من المطلعين من فارون (Varron)
وفريوس فلاكوس (Verrius Flaccus) ألي أولوس جيليوس (Aulu-Gelle)
وماكروبوس (Macrobe) . فسطع الضوء على التاريخ القديم بأجمعه . وصححوا

(١) Cicéro, *De oratore*, II, 12: *Res omnes singulorum annorum* (١)
mandabat litteris pontifex et proponebat domi ut potestas esset
populo cognoscendi.

(انظر سرفيوس Ad Aen. ١ : ٣٧٣ . أعلن ديونيسيوس أنه يعرف
كتب روما المقدسة وحولياتها الخفية (١١ : ٦٢) . - وكان في بلاد الانحياز منذ عهد
قديم بعض القدم ككتاب (logographes) رجعوا إلى حوليات البلدان المقدسة ونسخوها ؛ انظر
Denys, *De Thucyd. histor.*, c. 5, éd. Reiske, p. 819.

بضع أغلاط كانت قد تسربت إلى الأثارة ورددتها مؤرخو الفترة السابقة
فعرف مثلاً أن پورسنا (Porsenna) كان قد استولى على روما وأن الذهب قد دُفع
للغاليين . لقد بدأ عصر النقد التاريخي . وجدير بالملاحظة أن هذا النقد الذي
كان يصعد إلى المصادر ويدرس الحوليات لم يجد فيها شيئاً يتحوله الحق في رفض
المجموع التاريخي الذي أنشأه هيرودوت وتيتوس ليفيوس .

الفصل التاسع

حكومة المدينة . الملك

١ - سلطة الملك الدينية

يجب ألا نتصور مدينة تتشاور عند نشأتها في الحكومة التي ستعطيها لنفسها وتبحث وتناقش في قوانينها وتلائم بين أنظمتها. إن القوانين لم توجد والحكومات لم تقم بهذه الطريقة . فقد ولدت أنظمة المدينة السياسية مع المدينة ذاتها ، وفي نفس اليوم الذي ولدت فيه ؛ وكل عضو في المدينة كان يحملها في ذاته ؛ إذ أنها كانت بذرة كامنة في معتقدات كل رجل وفي ديانته .

كانت تنص الديانة على أن يكون للموقد كاهن أعلى دائماً . ولم تكن تسمح باقتسام السلطة الكهنوتية . فكان للموقد المنزلي كاهن أكبر هو أب الأسرة . وكان لموقد الندوة كاهن هو الكوريون أورئيس الأخوية (فراتريارخوس) ؛ وكذلك كان لكل قبيلة رئيسها الديني الذي كان يسميه الأثينيون ملك القبيلة ؛ فكان من المحتم أن يكون للمدينة حبرها أيضاً .

وكان سادن الموقد العام هذا يتسمى بالملك . وفي بعض الأحيان كانوا يعطونه ألقاباً أخرى . ولما كان سادناً لبית النار قبل كل شيء فقد كان الإغريق يميلون إلى تسميته سادن بيت النار (Prytane) . وفي بعض الأحيان كانوا يسمونه الأرخون (archonte) أيضاً. ويجب أن نرى تحت هذه الأسماء المختلفة ، ملك ، سادن بيت النار ، أرخون ، شخصاً هو على الأخص رئيس العبادة . كان يشرف على الموقد ويقدم القربان ويتلو الدعاء ويرأس الأكلات الدينية .

من الواضح أن ملوك إيطاليا وبلاد الإغريق القدماء كانوا كهنة بقدر ما كانوا ملوكاً ، نقرأ في أرسطو «ليست العناية بالقرايين العامة للمدينة تابعة

لكهنة مخصوصين بل لأولئك الرجال الذين يتلقون وظيفتهم من الموقد والذين يسمونهم هنا ملوكاً وهناك سدة بيوت النار (پريتان) وفي مكان آخر أراخنة وذلك طبقاً للعادة الدينية» (١) .. هكذا يتكلم أرسطو وهو الرجل الذي عرف أنظمة المدن الإغريقية أحسن من سواه. تدل هذه الفقرة البالغة في الدقة ، أولاً على أن الألفاظ الثلاثة ، ملك ، سادن بيت النار ، أرخون ، ظلت زمناً طويلاً مترادفة ؛ وقد بلغ ذلك من الصحة أن مؤرخاً ، هو خارون اللامپساكي (Charon de Lympsaque) ، كتب كتاباً عن ملوك لاقيديمون وعنوانه : أراخنة اللاقيديمونيين وسدة بيت نارهم . (٢) كما تدل على أن ذلك الشخص ، الذي كان يسمى بأحد هذه الأسماء على السواء، وربما بالثلاثة جميعاً في آن واحد ، كان كاهن المدينة وأن عبادة الموقد العام كانت مصدر وظيفته وسلطانه .

هذه الصفة الكهنوتية في المملكية الأولى بينها الكتاب القدماء بجلاء. ففي أيسخيلوس توجه بنات داناوس (Danaüs) الخطاب إلى ملك أرغوس بهذه العبارات : أنت السادن الأعلى لبيت النار وأنت الذي تسهر على موقد هذا الإقليم» (٣) . وفي أوريبديدس يقول أورستيس قاتل أمه لميلالوس (Ménélas) «إنه من العدل وأنا ابن أغاممنون أن أملك في أرغوس» ؛ ويجيبه ميلالوس «وهل أنت، أيها القاتل، في حال تسمح لك أن تمس أواني ماء النثار لأجل القرابين؟ هل أنت في حال تخولك ذبح الأضاحي؟» (٤) وإذن فقد كانت وظيفة الملك.

(١) أرسطو : السياسة ١:٥:١١ (ديدو ص ٦٠٠). — Denys d'Halic., II, 65.

Tà kalouména prytaneia êstîn ierà kai therapéuetai pròs tôn êchόντων τὸ μέγιστον ἐν ταῖς πόλεσι κράτος.

(٢) Suidas, V^o Χάρων. (٢)

(٣) أيسخيلوس : المتضرعات ٣٦٩ (٣٥٧) . نعرف أية صلة وثيقة كانت عند القدماء بين المسرح والديانة . فكان التمثيل المسرحي احتفالاً من احتفالات العبادة العبادية وكان على شاعر المأسى على العموم أن ينشر إحدى أساطير المدينة المقدسة . ومن هنا أتى أننا نجد في شعر المأسى هذا العدد من الآثار القديمة بل من صيغ اللغة القديمة .

(٤) أوريبديدس : أوريسثيس ١٥٩٤ - ١٥٩٧ .

الأولى هي القيام بالاحتفالات الدينية. ولقد خلع ملك قديم من ملوك سيقىون (Sicyone) لأن يده قد لوّثها القتل فلم يعد في حالة تمكنه من تقديم القرابين (١). وما دام لم يعد يستطيع أن يكون كاهناً فإنه لم يكن يستطيع أن يكون ملكاً .

يرينا هوميروس وفرجيليوس الملوك مشغولين على الدوام بالاحتفالات المقدسة؛ ونعرف من ديموستينيس أن ملوك أتيكا القدماء كانوا يقومون بأنفسهم بجميع القرابين التي تنص عليها ديانة المدينة ، ومن إكسينوفون أن ملوك إسبرطة كانوا هم رؤساء الديانة اللاقيديمونية (٢). وكان اللوكومون (lucumons) الأتروسك رجال دولة ورؤساء حربيين وأخباراً في آن واحد (٣).

ولم يكن الأمر على غير ذلك فيما يختص بملوك روما ، إذ تصورهم الأثارة كهنة دائماً . وأولهم رومولوس الذي كان « مثقفاً في علم الاستخارة » (٤) والذي أسس المدينة حسب الشعائر الدينية . والثاني نوما (Numa) ويقول عنه تيتوس ليفيوس أنه « كان يقوم بأغلب الوظائف الكهنوتية ؛ لكنه تنبأ بأنه سيكون على خلفائه أن يعانون الحروب في أغلب الأوقات ولن يستطيعوا أن يفرغوا لمشاكل القرابين دائماً ؛ فأنشأ الفلامين (flamines) (٥) لكي يقوموا مقام الملوك عندما يتغيب هؤلاء عن روما ». وبهذا لم يكن الكهنوت الروماني إلا نوعاً من الاشتقاق من الملكية الأولى (٦).

(١) نيقولا الدمشقي في *Fragm. hist. graec., t. III, p. 394*

(٢) ديموستينيس : ضد نيارا ٧٤ - ٨١ . إكسينوفون : جمهورية اللاقيديمونيين

١٤ - ١٣ . هيرودوت ٦ : ٥٧ . أرسطو : السياسة ٣ : ٩ : ٢

Tà pros tous theous apodédotai basileis

(٣) فرجيليوس ١٠ : ١٧٥ . تيتوس ليفيوس ٥ : ١ . كينسورينوس ٤

(٤) سيسرون : طبيعة الآلهة ٣ : ٢ ؛ الجمهورية ٢ : ١٠ ؛ التكهّن ١ : ١٧ ؛ ٢ : ٣٨

٣٨ . انظر أبيات إنئوس (Ennius) في سيسرون (التكهّن ١ : ٤٨) . - لم يكن القدماء يمثلون رومولوس مرتدياً رداء الحرب بل رداء الكاهن ويده عصا المستخير ويرتدي الدثار الكهنوتي *lituo pulcher trabeaque Quirinus*

(أوفيدئوس : الأعياد ٦ : ٣٧٥ ؛ ويلينيوس : التاريخ الطبيعي ٩ : ٣٩ : ١٣٦) .

(٥) الفلامين ، باللاتينية *flamen*، ومعناه الحرفي النافخ في النار أو الملهم . وكان

لكل إله فلامين وأكبرهم فلامين جوبيتر : - العرب .

(٦) تيتوس ليفيوس ١ : ٢٠ . سرفيوس *Ad Aen.* ٣ : ٢٦٨ :

Majorum haec erat consuetudo ut rex esset etiam sacerdos et pontifex.

كان هؤلاء الملوك الكهنة ينصبون بمراسم دينية . كان يقاد الملك الحديد على قمة أكمة الكايتولينوس ويجلس على مقعد من الحجر مولياً وجهه نحو الجنوب . وعلى شماله يجلس أحد المستخيرين وقد غطى رأسه بلفائف مقدسة وأمسك بيده عصا الاستخارة (١) فيرسم في اتجاه السماء بعض الخطوط ويتلو دعاء ويضع يده على رأس الملك ويتوسل للآلهة أن تبين بآية مرئية أن هذا الرئيس مرضى عنه منهم . ثم بمجرد ما تتضح موافقة الآلهة من البرق أو من طيران الطيور يستحوز الملك الحديد على منصبه . وصف تيتوس ليفيوس هذا الاحتفال عند تنصيب نوما ، ويؤكد ديونيسيوس أنه كان يحدث لجميع الملوك ، وبعد الملوك للقناصل؛ ويضيف أنه كان لا يزال مستعملاً في زمانه (٢) . مثل هذه العادة كان لها ما يبررها . إذ أن الملك سيصبح الرئيس الأعلى للديانة ، وعلى أدعيته وقرابينه ستتوقف سلامة المدينة ، ولذلك كان لهم الحق في التأكد أولاً من أن هذا الملك مقبول من الآلهة .

لم بطلنا القدماء على الطريقة التي كان ينصب بها ملوك إسبرطه في وظائفهم لكنهم يخبرونا على الأقل أن حفلة دينية كانت تقام عندئذ (٣) . بلى إننا نعرف من عادات قديمة دامت حتى نهاية تاريخ إسبرطه أن المدينة أرادت أن تستوثق من أن ملوكها كانت ترضى عنهم الآلهة . ولذلك كانت تسأل الآلهة أنفسهم طالبة أليهم « آية σημεῖον » وإليك ما كانت عليه هذه الآية كما نقلها بلوتارخوس : « كل تسع سنوات يختار الإيفورات (Ephores) ليلة صافية جداً لكن لا قمر فيها ويجلسون صامتين وعيونهم شاخصة نحو السماء . فإذا ما رأوا نجماً يقطع السماء من أحد جانبيها إلى الآخر دهم ذلك على أن ملوكهم اقترفوا

(١) عصا الاستخارة ، باللاتينية *lituus* ، عصا معقوفة من أحد طرفيها يمسكها المستخير ويشير بها نحو السماء بطريقة خاصة . وهناك أيضاً الدثار الكهنوتي *trabea* وهو دثار أبيض به خطوط حمراء كان يلبسه الملوك والفرسان والمستخيرون والقناصل - العرب

(٢) تيتوس ليفيوس ١ : ١٨ . ديونيسيوس ٢ : ٦ ، ٤ : ٨٠ . - من هنا جاء أن بلوتارخوس ، وهو يلخص خطاباً لطبريوس غراخوس (بلوتارخوس : طبريوس ١٥) ، نسب إليه قائ

"Ἡ γε βασιλεία ταῖς μεγίσταις λειτουργίαις καθοσίωται πρὸς τὸ θεῖον"

(٣) ثوقيديدس ٥ : ١٦ في نهايتها .

خطيئة ما نحو الإله ؛ وعندئذ يوقفونهم عن الملك إلى أن يأتي وحى من دلفوى يرفعهم من سقطتهم . (١) .

٢ — سلطة الملك السياسية

حيث أن السلطة في الأسرة ملازمة للكهنوت وأن الوالد باعتباره رئيساً للعبادة المنزلية كان في نفس الوقت قاضياً وسيداً ، كذلك كان كاهن المدينة الأكبر هو أيضاً الرئيس السياسى . فالمدبح هو الذى يمنحه الوظيفة ، حسب تعبير أرسطو (٢) . وليس في هذا الخلط بين الكهنوت والسلطان ما يثير العجب . فإننا نكاد نجد في أصل كل المجتمعات إما لأنه في طفولة الشعب لم يكن يستطيع الحصول على الطاعة سوى الديانة وإما لأن طبيعتنا تحس بحاجتها لعدم الخضوع لسلطة ما إلا أن تكون سلطة فكرة خلقية .

سبق أن قلنا إلى أى حد كانت ديانة المدينة مختلطة بكل شئ . فكان الإنسان يشعر في كل لحظة أنه يستمد العون من آلهته وبالتالي من هذا الكاهن الموضوع بينهم وبينه . وهذا الكاهن هو الذى كان يسهر على النار المقدسة ؛ وعبادته اليومية هي التي تنقذ المدينة في كل يوم كما يقول بنداروس (٣) . وهو الذى يعرف صيغ الدعاء التي لا تقاومها الآلهة . وهو الذى يذبح الأضحية في ساعة القتال ويجلب للجيش حاية الآلهة . فكان من الطبيعي أن يُقبل الرجل المسلح بمثل هذه السلطة وأن يُعترف به رئيساً . وقد نتج من اختلاط الديانة بالحكومة وبالعدل وبالحرب أن أصبح الكاهن في نفس الوقت بحكم الضرورة رجل دولة وقاضياً ورئيساً حربياً . يقول أرسطو «الملوك إسرطه ثلاثة اختصاصات : يقدمون القرابين ويتولون القيادة في الحرب ويقومون بالقضاء» (٤) . ويستعمل ديونيسيوس الهاليكارناسي نفس العبارات عند الكلام على ملوك روما .

(١) بلوتارخوس : أغيس ١١

(٢) Aristote. Pol., VI. 5. 11: 'Απὸ τῆς κοινῆς ἐστίας ἔχουσι τὴν τιμὴν.

(٣) بنداروس : النيمييات Néméennes ٩ : ١ - ٥

(٤) أرسطو : السياسية ٣ : ٩

كانت القواعد المنظمة لهذه الملكية بسيطة جداً ولم يكن ضرورياً أن يبحث عنها طويلاً فقد كانت مستمدة من نفس قواعد العبادة مباشرة : كان المؤسس الذى وضع الموقد هو بالطبع كاهنها الأول . وفى الأصل كانت الوراثة هى القاعدة الثابتة لنقل هذه العبادة ؛ وسواء كان الموقد موقد أسرة أو موقد مدينة فإن الديانة كانت تنص على انتقال مهمة القيام عليه من الوالد إلى الابن دائماً . وإذن فقد كان الكهنوت وراثياً ؛ والسلطة معه . (١).

وهناك حالة معروفة جداً فى تاريخ الإغريق القديم تدل بطريقة قاطعة على أن الملكية كانت فى البدء للرجل الذى وضع موقد المدينة . نعرف أن أهالى المستعمرات اليونانية لم يكونوا أثينيين بل كانوا خليطاً من البيلاجيين (Pélasges) والأبوليين (Eoliens) والأبانتين (Abantos) والكادميين (Cadméens) ، ومع ذلك فإن موقد المدن الجديدة قد وضعها جميعاً أعضاء من أسرة كودروس الدينية . نتج عن ذلك أنه بدلاً من أن يكون لهذه الجاليات رؤساء من جنسهم : بيلاجى للبيلاجيين ، وأبانتى للأبانتين ، وأبولوس للأبوليين ، فقد أعطوا جميعهم الملكية فى بلدانهم الإثنى عشرة لكودريين (٢) . ومن المؤكد أن هؤلاء الأشخاص لم يحصلوا على سلطتهم بالعنف إذ أنهم كانوا الأثينيين الوحيدين فى هذه الجماعة الكثيرة العدد . لكنهم ما داموا قد وضعوا الموقد فقد كان من حقهم أن يشرفوا عليه . وإذن فقد كانت الملكية من نصيبهم دون نزاع وبقيت وراثية فى أسرهم . أسس باتوس قرينه فى أفريقيا وظل الباتيون (Battiades) زمناً طويلاً حائزين للرتبة الملكية . وأسس پروتيس (Protis) مرسيليا ، فباشر البروتيون (Protiades) الكهنوت فيها من أب لابن وتمتعوا فيها بميزات كبيرة .

(١) لم نتكلم هنا إلا عن العصر الأول للمدن . وسنرى فيما بعد أنه أتى حين لم تعد فيه الوراثة هى القاعدة : ففي روما لم تكن الملكية وراثية ، ويرجع ذلك أن تأسيس روما حديث نسبياً ويرجع إلى فترة كانت الملكية فيه قد هوجمت وتضاءلت فى كل مكان .

(٢) هيرودوت ١ : ١٤٢ - ١٤٨ . بوسانياس ٧ : ١ - ٥ .

فلم تكن القوة إذن هي التي خلقت الرؤساء والملوك في هذه المدن القديمة . وليس صحيحاً أن يقال إن أول من كان ملكاً فيها هو جندي سعيد الحظ . فإن السلطة كانت مستمدة من عبادة الموقد كما قال أرسطو صراحة . فالديانة خلقت التمسك في المدينة كما أنها هي التي خلقت رئيس الأسرة في البيت . كانت العقيدة الأمارية ، التي لا تجادل ، تقول إن كاهن الموقد الوراثة هو مستودع الأشياء المقدسة وحارس الآلهة . كيف يمكن التردد في طاعة مثل هذا الرجل ؟ كان الملك ذاتاً مقدسة ، *basileus ieros* كما يقول بنداروس . لم يكونوا يرون فيه إلهاً تماماً بل على الأقل « أقوى رجل في رفع غضب الآلهة » (١) الرجل الذي بدون معونته لا يؤثر أي دعاء ولا يقبل أي قربان .

استقرت هذه الملكية التي نصفها ديني ونصفها سياسي في جميع البلدان منذ نشأتها دون جهد من جانب الملوك ودون مقاومة من جانب الرعايا . وأنا لا نرى في أصل الشعوب القديمة الذبذبات والمناضلات التي تميز مولد المجتمعات الحديثة العسير . ومعروف كم لزم من الزمن بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية للعثور مرة أخرى على قواعد مجتمع منظم . فقد رأت أوروبا ، خلال قرون ، عدة مبادئ متناقضة تتنازع حكومة الشعوب ، والشعوب ترفض في بعض الأحيان كل تنظيم اجتماعي . لا نرى مثل هذا المنظر في بلاد الإغريق القديمة ولا في إيطاليا القديمة ؛ إن تاريخها لا يبدأ بالمنازعات . ولم تظهر الثورات إلا في النهاية . تكونت المجتمعات عند هذه الشعوب ببطء ، مع طول الزمن ، وعلى درجات ، بالانتقال من الأسرة إلى القبيلة ومن القبيلة إلى المدينة ، ولكن من غير اهتزاز ولا نضال . استقر النظام الملكي بطريق طبيعي في الأسرة أولاً ، وفي المدينة فيما بعد . لم يتدعه مطمع البعض وإنما ولدته الحاجة الجلية في نظر الجميع وكان ، خلال قرون عديدة ، هادئاً مهجلاً نافذاً . لم يكن الملوك في حاجة للقوة المادية ؛ لم يكن لهم جيش ولا مالية لكن كانت تعاضدهم عقائدها سلطانها على النفس ، فكانت سلطتهم مقدسة ومصونة .

(١) صوفوكليس : أويدديوس ملك ٣٤ .

وفيا بعد قلبت ثورة ، سنتحدث عنها في مكان آخر ، النظام الملكي في جميع البلدان . لكنه عندما سقط لم يترك أية ضغينة في قلوب الناس . فلم يلحقه في يوم ما هذا الاحتقار المزوج بالسخيمة الذي يلزم عادة العظمة المنهارة . وبالرغم من سقوطه بنى احترام الناس وعطفهم ملازماً لذكراه بل رأى في بلاد الإغريق شيء ليس عادياً في التاريخ وهو أنه في البلدان التي لم تنقرض فيها الأسرة المالكة لم يقتصر الأمر على عدم طردها بل إن نفس الرجال الذين جردوها من السلطة داوموا على تبجيلها . ففي إفسسوس ومارسيليا وقرينه بقيت الأسرة الملكية بعد حرمانها من سلطتها محاطة باحترام الشعوب بل احتفظت بلقب الملك وشاراته (١) .

أقامت الشعوب النظام الجمهوري ، لكن لقب ملك كان أبعد من أن يكون سبة بل بقي لقباً مبعجلاً . تعود البعض أن يقول إن هذا اللفظ كان كريهاً محترماً : إنه لخطأ غريب ! فإن الرومان كانوا يطلقونه على الآلهة في أدعيهم . وإذا لم يجروا المعتصيون في أي وقت على اتخاذ هذا اللقب فليس ذلك لأنه كان بغيضاً ، بل الأمثل لأنه كان مقدساً (٢) . وفي بلاد الإغريق أعيدت الملكية مراراً في البلدان ، لكن السلاطين الجدد لم يعتقدوا قط أن لهم الحق في تسمية أنفسهم ملوكاً وقنعوا بأن يُدعى "عون" طغاة (tyrants) (٣) ، ولم يكن الفارق بين هذين الاسمين اختلافاً في الصفات الخلقية التي كانت في شخص السلطان ، فإنهم لم يكونوا يسمون الأمير الصالح ملكاً ولا الطالح طاغية ؛ وإنما كانت الديانة على الأخص هي التي تميز بينهما . كان الملوك الأولون يقومون بوظائف الكهنة ويستمدون سلطانهم من الموقد ؛ أما الطغاة في الفترة المتأخرة فإنهم لم يكونوا سوى رؤساء سياسيين ولم يكونوا مدينين بسلطتهم إلا للقوة أو الاختيار .

Strabon, XIV, 1, 3: *Kaì ēti nūn oī ek tou gēnous 'Andrōklou* (١) *ὀνομάζονται βασιλεῖς ἔχοντές τινος τιμᾶς, προεδρίαν ἐν ἄγῳσι καὶ πορ-φύραν ἐπίσημον τοῦ βασιλικοῦ γένους, σκίπτουσα ἀντὶ σκῆπτρου, καὶ τὰ ἱερὰ τῆς Δήμητρος.* أثيناويوس ١٣ : ٣٦ ص ٥٧٦ .

Tite-Live, III, 39: *Nec nominis (regii) homines tum pertae-* (٢) *sum esse, quippe quo Jovem appellari fas sit, quod sacris etiam ut solemne retentum sit. — Sanctitas regum* (Suétone, Julius 6).

Cicéron, *De rep.*, I, 33: *Cur enim regem appellem, Jovis Op-* (٣) *timi nomine, hominem dominandi cupidum aut populo oppresso dominantem, non tyrannum potius?*

الفصل العاشر

رجل الدولة

لم ينقطع امتزاج السلطة السياسية بالكهنوت في شخص واحد بانتهاء الملكية . فإن الثورة التي أقامت النظام الجمهوري لم تفصل الوظائف التي كان يبدو أن اختلاطها شيء طبيعي جداً وكان هذا الاختلاط عندئذ هو القانون الأساسي للمجتمع البشري . فكان رجل الدولة الذي حل محل الملك ، على مثاله ، كاهناً ورئيساً سياسياً في آن واحد . .

وفي بعض الأحيان كان يحتفظ هذا الحاكم السنوي باللقب المقدس : ملك (١) . وفي مكان آخر كان اسم سادن بيت النار (prytane) ، الذي احتفظ له به ، يدل على وظيفته الرئيسية (٢) . وفي بلدان أخرى ساد لقب أرخون (Archonte) ففي ثيبه مثلاً كان رجل الدولة الأول يلقب بهذا اللقب لكن ما يقوله بلوتارخوس عن هذه الوظيفة يرينا أنها لا تختلف عن الكهنوت إلا قليلاً . وكان يجب على هذا الأرخون أن يلبس تاجاً أثناء مدة توليته (٣) كما يليق بكاهن . وكانت الديانة تحرم عليه أن يترك شعره ينمو أو أن يحمل أي شيء من الحديد معه ، وهي التزامات تجعله شبيهاً إلى حد ما بالفلامين الرومانيين . وكان لبلدة بالاتيا أرخون كذلك ، وكانت ديانة هذه المدينة تأمر أن يرتدى اللباس الأبيض (٤) ، أي اللون المقدس طول مدة توليته .

(١) في ميغارا (في ساموثراكي) . تيتوس ليفيوس ٤٥ : ٥ .
Boeckh, Corp. inscr. gr., n° 1052.

(٢) بنداروس : النيمييات ١١

(٣) بلوتارخوس : مسائل رومانية . ٤

(٤) بلوتارخوس : أريستيديس ٢١ .

وكان الأراخنة الأثينيون يصعدون إلى ربوة المدينة (acropole) يوم استلامهم مقاليد وظيفتهم وعلى رأسهم تاج من الآس (myrte) ويقدمون قرباناً لمعبودة المدينة (١). وكذلك كان المألوف في مباشرة وظائفهم أن يضعوا تاجاً من ورق الشجر على رؤوسهم (٢). ومن المؤكد أن التاج الذي أصبح مع مضي الزمن رمزاً للسلطة، وبقى كذلك، لم يكن عندئذ سوى رمز ديني، علامة ظاهرة تصحب الدعاء والقربان (٣). والذي يُدعى الملك من بين الأراخنة كان رئيساً للديانة على وجه الخصوص. لكنه كان لكل واحد من أئداده وظيفة دينية يقوم بها، وقربان يقدمه للآلهة (٤).

كان عند الإغريق تعبير عام للدلالة على رجال الدولة. فكانوا يقولون *οἱ ἐν τέλει* ومعناه الحرفي الذين يقومون بالقربان (٥). وهو تعبير قديم يدل على الفكرة التي كانوا يتصورونها في البدء عن رجل الدولة. يقول بنداروس عن هذه الشخصيات إنهم يضمنون سلامة المدينة بالقرايين التي يقدمونها للموقد. وفي روما كان أول عمل للقنصل أن يقدم قرباناً في الفوروم (٦). فكان

(١) ثوقيديديس ٨ : ٧٠. أبولودوروس : القطعة ٢١ (مجموعة ديدوج ١ ص ٤٣٢)

(٢) ديموسثينيس : ضد ميدياس ٣٣. أيسخينيس : ضد تيارخوس ١٩

(٣) كانوا يلبسون التيجان في فرقة المنشدين وفي المواكب : بلوتارخوس : نقياس ٣ ؛ فوقيون ٣٧. سيسرون : ضد فريس ٤ : ٥٠.

(٤) بوليبيدوكيس ٨ فصل ٩ الأرقام ٨٩ و ٩٠ ؛ ليسياس *De Ev. prob.* 6-8 ؛ ديموسثينيس ضد نيايرا ٧٤ — ٧٩ ؛ ليكورغ مجموعة ديدوج ٢ ص ٣٦٢ ؛ ليسياس : ضد اندوكيديس ٢

(٥) يستعمل التعبير *οἱ ἐν τέλει* أو *Tà τέλη* للدلالة على رجال الدولة في اسبرطة كما هو مستعمل لأمثالهم في أثينا. ثوقيديديس ١ : ٥٨ ؛ ٢ : ١٠ ؛ ٣ : ٣٦ ؛ ٤ : ٦٥ ؛ ٦ : ٨٨ ؛ إكسينوفون : أغيسيلاس ١ : ٣٦ ؛ الهلينييات ٦ : ٤ : ١. قارن هيرودوت ١ : ١٣٣ ؛ ٣ : ١٨. أيسخيلوس : الفرس ٢٠٤ ؛ أغاممنون ١٢٠٢. أوريبديس : التراخينيات ٢٣٨.

(٦) الفوروم هو الساحة العامة لمدينة روما وكان يقام فيها السوق وتُعقد الاجتماعات والحفلات والمحاكم - المعرب .

يأتى بالأضحية في الميدان العام ، وعند ما يقرر الحبر أنها لا ثقة للتقديم يضحها القنصل بيده بينما يأمر المنادى الجمهور بالصمت الدينى ويسمعهم لاعب المزمارة الأغنية المقدسة (١) . وبعد ذلك ببضعة أيام يتوجه القنصل إلى لا فينيوم التى خرجت منها الپناتس الرومانية ويقدم قرباناً مرة أخرى.

عندما تفحص ، بشىء من الانتباه ، طابع رجل الدولة عند القدماء ، نرى إلى أى حد بلغت قلة الشبه بينه وبين رؤساء الدولة في المجتمعات الحديثة . كان الكهنوت والقضاء والقيادة ممزجة في شخصه . فقد كان يمثل المدينة التى هى جماعة دينية بقدر ما هى سياسية على الأقل . وكانت في يده الاستخارات والشعائر والأدعية وحماية الآلهة . فكان القنصل شيئاً أكبر من رجل . لقد كان وسيطاً بين الإنسان والمعبود ، وكان المصير العام مرتبطاً بمصيره . إنه بمثابة الروح الحامية للمدينة ؛ وموت القنصل يجلب النحس (funeste) للدولة (٢) . يرينا تيتوس ليفيوس إلى أى حد كانت روما قلقة على مصير جيش كلوديوس نيرون عند ما ترك هذا القنصل جيشه وخف لمساعدة رصيفة لأن الجيش وهو محروم من رئيسه محروم في نفس الوقت من حماية السماء . فقد ارتحلت ، بارتحال القنصل ، الاستخارات أى الديانة والآلهة (٣) .

وكانت المناصب الرومانية الأخرى ، التى تعتبر إلى حد ما كأعضاء انفصلت من القنصلية الواحد تلو الآخر ، تجمع مثلها بين اختصاصات كهنوتية واختصاصات سياسية . فكان يُرى الرقيب في بعض الأيام وعلى رأسه تاج وهو يقدم قرباناً باسم المدينة ويهوى بيده على الضحية : وكان البريتورات (præteurs) والمحتسبون الندويون (édiles curules) (٤) يرأسون أعياداً دينية (٥) .

(١) سيسرون: قانون الأراضي ٢ : ٣٤ . تيتوس ليفيوس ٢١ : ٦٣ : ٩١ :

٨ : ٤١ : ١٠ . ماكوبيوس : ساتورناليا ٣ : ٣

(٢) تيتوس ليفيوس ٢٧ : ٤٠ :

(٣) تيتوس ليفيوس ٢٧ : ٤٤ : *Castra relicta sine imperio, sine auspicio* (٤) البريتور : معناه الحرفى الذى يسير في المقدمة أى المقدم أو الإمام ووظيفته تغلب عليها الناحية القضائية . والمحتسب الندوى أو المجلسى كان مكلفاً بصفة خاصة بمراقبة الأسواق والتنظيم والآداب وقد استعملنا كلمة المحتسب لتقابل كلمة édile لأن المحتسب في الدولة الإسلامية في مصر كان يقوم بنفس الأعمال التى كان يقوم بها ال édile على وجه التقريب ، والندوى (curule) نسبة للندوة (curia) ويضاف إليه هذا اللقب تمييزاً له عن محتسب السوق (édile plébéien) - العرب .

(٥) فارون : اللسان اللاتينى ٦ : ٥٤ . أثيناىوس ١٤ : ٧٩ .

وما من أحد من رجال الدولة إلا وكان يقوم بعمل مقدس . إذ أنه كان في ذهن القدماء أن كل سلطة يجب أن تكون دينية من ناحية ما . وكان عرفاء السوقه (tribuns) هم وحدهم الذين لا يقومون بأى قربان ولهذا لم يكونوا محسوبين بين رجال الدولة الحقيقيين ؛ وسرى فيما بعد أن سلطتهم كانت ذات طبيعة استثنائية محضة .

وتظهر الصفة الكهنوتية التى تلازم وظيفة رجل الدولة على الأخص فى الطريقة التى كان ينتخب بها . ففى نظر القدماء لم يكن يبدو أن تصويت الناس كان كافياً لإقامة رئيس المدينة . طالما كانت الملكية الأولى قائمة كان يبدو طبيعياً أن يعين هذا الملك ، الذى هو رئيس بحكم المولد ، طبقاً للقانون الدينى الذى ينص على أن الولد يخلف أباه فى كل كهنوت ؛ فقد كان يلوح لهم أن فى المولد ما يكفى للكشف عن إرادة الآلهة . وعندما قضت الثورات على هذه الملكية فى كل مكان بحث الناس ، فيما يلوح ، عن طريقة للاختيار لا ترفضها الآلهة لكى تحل محل المولد . فلم يرى الأثينيون والكثير من الشعوب الإغريقية وسيلة أحسن من القرعة . ولكن المهم ألا نكون فكرة خاطئة عن هذه الطريقة التى جعلت موضوعاً للطعن فى حكم العامة الأثينى ، ولا بد لذلك من التوغل فى فكر القدماء . فإن القرعة لم تكن فى نظرهم هى المصادفة . بل كانت القرعة بمثابة إعلان للإرادة الإلهية . وكما أنهم كانوا يلجأون إليها فى المعابد ليطلعوا على الأسرار العلوية فكذلك كانت المدينة تلجأ إليها لاختيار رجل الدولة فيها . وكانوا مقتنعين بأن الآلهة تختار الأمثل بإخراج اسمه من الوعاء . وقد عبر أفلاطون عن رأى القدماء عند ما قال : «إننا نقول عن الرجل الذى تعينه القرعة أنه عزيز على المعبود ونجد من العدالة أن يتولى القيادة . وفى جميع مناصب الدولة التى تمس الأشياء المقدسة نعلم فيها إلى القرعة تاركين للمعبود اختيار من يطيب

له. وبذلك كانت تعتقد المدينة أنها تتلقى رجال دولتها من الآلهة (١).
وفي الواقع أن الأمور كانت تجري في روما على هذا النحو تحت مظاهر

(١) أفلاطون : القوانين ٣ ص ٦٩٠ ؛ ٦٤ ص ٧٥٩ . توهم المؤرخون المحدثون أن الاختيار بالقرعة كان من اختراع حكم العامة الأثيني ، وأنه لا بد أنه أتى زمن كانت فيه الأراخنة تنتخب بطريقة *χειροτονία* . وهو مجرد فرض لا يؤيده أي نص . وعلى العكس تصور النصوص الاختيار بالقرعة *κλήρος, τῶν κναμῶν λαχεῖν* على أنه قديم جداً . فيقول بلوتارخوس الذي كتب حياة بركليس فعلا عن المؤرخين المعاصرين مثل ستيسبروتوس (Stésimbrote) أن بركليس لم يكن أرخونا قط إذ أن هذا المنصب كان يمنح بالقرعة منذ أقدم العصور *ἐκ παλαιῶν* (بلوتارخوس : بركليس ٩) . وقال ديمتريوس الفاليري ، الذي كتب مؤلفات عن تشريع أثينا وعلى الأخص عن منصب الأرخون ، مانصبه إن أرستيديس كان أرخونا عن طريق القرعة (ديمتريوس ، نقله بلوتارخوس : أرستيديس ١) . حقاً إن ايدومينيوس اللامبساكي (Idoménée de Lympsaque) ، وهو كاتب متأخر ، قال إن أرستيديس رفع إلى هذا المنصب باختيار مواطنيه ؛ لكن بلوتارخوس الذي نقل هذا الادعاء (نفس المرجع) يضيف أنه إذا كان ذلك صحيحاً فإنه يجب أن نفهم أن الأثينيين عملوا استثناء إرضاء لكفاءة أرستيديس الممتازة . وبين هيرودوت (٦ : ١٠٩) أنه في زمن معركة ماراثون كان الأراخنة التسعة ومن بينهم رئيس الحرب (polémarche) معينين عن طريق القرعة . ويذكر ديموشثينيس (ضد لبتينيس ٩٠) قانوناً ينتج منه أنه في زمن صولون كانت القرعة تعين الأراخنة . وأخيراً بوسانياس (٤ : ٥) يجعلنا نفهم أن الانتخاب السنوي (للأرخون) عن طريق القرعة جاء مباشرة بعد نظام تعيين الأراخنة كل عشر سنوات أي في سنة ٦٨٣ . حقاً إن صولون انتخب أرخوناً *ῥέθη ἀρχῶν* ؛ وربما أرستيديس أيضاً . لكنه ما من نص يتضمن أن قاعدة الانتخاب قد وجدت قط . بل يبدو أن الانتخاب بالقرعة قديم قدم منصب الأرخون ذاته ؛ وهذا هو ما نظنه ، على الأقل في غيبة نصوص تناقضه ، فضلاً عن أنه لم يكن طريقة من طرق حكم العامة ، يقول ديمتريوس الفاليري أنه في عصر أرستيديس لم يكونوا يضربون القرعة إلا بين أثري الأسرات *ἐκ τῶν γένων τῶν τὰ μέγιστα τιμήματα ἔχοντων* قبل صولون لم يكونوا يضربون القرعة إلا بين النسباء (Eupatrides) وحتى في عصر ليسياس وديموشثينيس لم تكن أسماء جميع المواطنين توضع في الوعاء (ليسياس : الدفاع عن العاجز ٣ ؛ *De Invalido*) ؛ ضد اندوكيديس ٤ ؛ إيسوقراط ٢ ، 150 . *ἀντιδόσεως* . وإنا لانعرف قواعد القرعة جيداً فضلاً عن أنها كانت موكولة للتسموئيت العاملين . وكل ما نستطيع أن نؤكد أنه أن النصوص لم تكن تشير في أي عصر إلى *χειροτονία* فيما يختص بالأراخنة التسعة . وجدير بالملاحظة أن حكم العامة عند ما تغلب أنشأ مناصب القادة (stratèges) ومنحهم كل السلطة ولم يفكر فيما يختص هؤلاء الرؤساء في استعمال القرعة وأثر أن ينتخبهم بطريق التصويت ، بحيث كان هناك اختيار بالقرعة لمنصب الدولة التي ترجع إلى عصر السراة ، وانتخاب لتلك التي ترجع إلى حكم العامة .

مختلفة . فكان يتحتم ألا يكون انتخاب القنصل بيد الناس . إذ أن إرادة الشعب أو هواه لم يكونا قادرين على خلق رجل الدولة خلقاً شرعياً . وإليك إذن كيف كان يختار القنصل : كان أحد رجال الدولة العاملين ، أى رجل حائز من قبل للصفة المقدسة وللإستخارات ، يحدد من بين أيام العمل اليوم الذى يجب أن يعين فيه القنصل . وكان يسهر خلال الليلة السابقة لذلك اليوم فى الهواء الطلق شاخص البصر إلى السماء وهو يلاحظ الآيات التى ترسلها الآلهة وفى نفس الوقت يتلو فى ذهنه أسماء بعض المرشحين للمنصب . فإذا كانت الإشارات موافقة فإن الآلهة تكون قد قبلت المرشحين . وفى اليوم التالى يجتمع الشعب فى حقل مارس (champ de Mars) ، ويرأس الاحتفال نفس الشخص الذى استخار الآلهة ويلفظ بصوت عال أسماء المرشحين الذين عملت لهم الاستخارات وإذا وجد بين المطالبين بالقنصلية واحد لم توافق الاستخارات عليه يحذف اسمه ولا يصوت الشعب إلا على الأسماء التى يتلوها هذا الرئيس (١) . وإذا لم يسم الرئيس إلا مرشحين فإن الشعب يصوت لها بحكم الضرورة . وإذا سمى ثلاثة أشخاص اختار الشعب اثنين منهما ؛ ولم يكن للجمع الحق مطلقاً فى التصويت على أشخاص غير الذين عينهم الرئيس إذ أن الاستخارات لم تكن بالقبول ، وموافقة الآلهة لم تكن مضمونة ، إلا لهؤلاء فقط (٢) .

(١) فاليريوس ماكسيموس ١ : ١ : ٣ . بلوتارخوس : ماركيلوس ٥ . تيتوس ليفيوس ٤ : ٧

(٢) تشهد عدة مستندات بوجود هذه القواعد فى القانون العام فى روما ، وهى التى سقطت من الاستعمال فى القرون الأخيرة من الجمهورية ، فيلاحظ ديونيسيوس ٤ : ٨٤ أن الشعب لا يصوت إلا على الأسماء التى يقترحها رئيس اللجان : *O Δουκρέτιος* . *ἄνδρας αἰρεῖται δύο, Βροῦτον καὶ Κολλάτινον, καὶ ὁ δῆμος καλούμενος* *κατὰ λόχους ἐπεκύρωσε τοῖς ἄνδρασι τὴν ἀρχήν* (centuria) لأسماء أخرى فإن فى استطاعة الرئيس ألا يحسب حساباً لهذه الأصوات Tite-Live, III, 21: *Consules edicunt ne quis L. Quinctium consulem faceret; si quis fecisset, se id suffragium non observaturos.*

Tite-Live, VII, 22: *Consules. . . rationem ejus se habituros negabant.*

هذه الواقعة من سنة ٣٥٢ قبل الميلاد وترى رواية تيتوس ليفيوس تجاهل الشعب فى هذه المرة تجاهلاً كبيراً لحق الرئيس . بيد أن هذا الحق الذى أصبح من الآن فصاعداً نصاً مكتوباً

تفسر هذه الطريقة في الانتخاب ، التي كانت متبعة في القرون الأولى من الجمهورية . بعض مظاهر التاريخ الروماني التي قد تثير الدهشة لأول وهلة . فثلاً نرى في كثير من الأحيان أن الشعب يكاد يجمع على تعيين رجلين في منصب القنصلية إلا أنه لا يستطيع ذلك لأن الرئيس لم يكن قد استخار لهما الرجلين أو لأن الاستشارات لم تبد موافقة . وعلى العكس نرى الشعب مراراً يعين قناصل رجلين يفضهما (١) ذلك لأن الرئيس لم يتل غير اسميهما فكان لا مفر من التصويت عليهما إذ أن التصويت لا يعبر عنه إلا بنعم أو بلا . ولا بد أن يكون في كل تصويت اسمان ولا يمكن أن تكتب أسماء غير التي عينت . ويستطيع الشعب الذي يقدمون له مرشحين يفضهم أن يدل على غضبه بالانسحاب دون تصويت ؛ لكنه كان يبقى دائماً داخل المكان عدد كاف من المواطنين لتمثيل الانتخاب (٢) .

نرى هذا ما كانت عليه سلطة رئيس اللجان ولن يدهشنا بعدئذ التعبير الشرعي ، «يخلق القناصل (Creat consules)» ، وهو تعبير لم يكن ينطبق على الشعب بل على رئيس اللجان . والواقع أنه كان أولى من الشعب بأن يقال عنه أنه يخلق

لم يبلغ إلغاء شرعياً وقد تجاسر أكثر من قنصل على التذكير به فيما بعد . Aulu-Gelle, VI, 9: *Fulvium pro tribu aedilem curulem renuntiaverunt; at aedilis qui comitia habebat negat accipere* الذي كان محتسباً (édile) أن يقبل الأصوات وأن يحسبها . وفي مكان آخر أعلن القنصل بوركيوس Porcius أنه لا يقبل المرشح الفلاني *non accipere nomen ejus* تيتوس ليفيوس (٣٩ : ٣٩) . يروي فالريوس ماكسيموس ٣ : ٨ : ٣ أنه عند افتتاح اللجان (comices) سئل الرئيس غ . بيسون (C. Pison) عما إذا كان يعلن انتخاب لوليوس باليكانوس (Lollius Palicanus) في حالة ما إذا اتجهت إليه أصوات الشعب ، فأجاب بيسون أنه لن يعلنه *non renuntiabo* ؛ وعندئذ أعطى المجمع أصواته لمرشح آخر ، نرى في فيليوس (Velléius) (٩٢ : ٢) أحد رؤساء اللجان يحرم على مرشح أن يقدم نفسه *profiteri vetuit* فلما تشبث هذا الأخير برأيه أعلن أنه حتى لو انتخب بأصوات الشعب بأكمله فإنه لا يعترف بالتصويت . هذا وقد كان إعلان الرئيس *renuntiatio* شيئاً لا يمكن الاستغناء عنه وبدونه لا يمكن أن يكون هناك انتخاب .

(١) تيتوس ليفيوس ٢ : ٤٢ ؛ ٤٣ : ٤٣ . ديونيسيوس ٨ : ٨٧

(٢) نرى مثلين من ذلك في ديونيسيوس ٨ : ٨٢ وتيتوس ليفيوس ٢ : ٦٤ .

القناصل إذ أنه هو الذى يكشف عن إرادة الآلهة . وإذا لم يكن هو الذى يعمل القناصل فإن الآلهة كانت تعملهم عن طريقه على الأقل . أما سلطة الشعب فينتهى مداها عند اقرار الانتخاب، وعلى أكثر تقدير عند الاختيار من بين ثلاثة أسماء أو أربعة إذا تبين أن الاستشارات كانت موافقة على ثلاثة مرشحين أو أربعة على السواء .

ومما لا ريب فيه أن هذا المسلك كان مفيداً للسراة (الأرستوقراطية) الرومانية إلى أبعد حد . لكن المرء يفضل نفسه إذا لم يرفى كل هذا سوى خدعة تصورها السراة . فمثل هذه الخدعة لا يمكن إدراكها فى القرون التى كانوا يؤمنون فيها بهذه الديانة . بل إنها كانت تعد عبثاً من الناحية السياسية فى الأزمنة الأولى إذ أنه كان للبطارقة الأغلبية فى الانتخاب . بل كان من الجائز أن تنقلب ضدهم باعطائها سلطة باهظة لرجل واحد . والتفسير الوحيد الذى يمكن أن تفسر به هذه العادات، أو على الأصح شعائر الانتخاب هذه، هو أن جميع الناس كانوا يعتقدون بإخلاص أن اختيار رجل الدولة لم يكن للشعب بل للآلهة . فإن الرجل الذى سيتصرف فى ديانة المدينة ومصيرها يجب أن يكشف عنه صوت المعبود .

القاعدة الأولى لانتخاب رجل الدولة هى التى يعطيها سيسرون : وليعين طبقاً للشعائر (١) . وإذا حدث بعد عدة شهور أن جاء أحد يقول لمجلس الشيوخ إن إحدى الشعائر أهملت أو أسىء القيام بها كان مجلس الشيوخ يأمر القناصل بعزل أنفسهم ، وكانوا يطيعون . والأمثلة عديدة . وإذا كان مسموحاً أن نعتقد بالنسبة لاثنين أو ثلاثة منهم أن المجلس قد ارتاح للتخلص من قنصل عاجز أو مريض التفكير فإننا ، على العكس ، لا نستطيع أن ننسب له فى أغلب الأحيان مبرراً آخر غير التخرج الدينى .

(١) Cicéron, *De legibus*, III, 3: *Auspicia patrum sunt, oblique ex se produnt qui comitiatu creare consules rite possint.*

نعرف أن سيسرون فى القوانين (*De legibus*) لم يعمل أكثر من أن نقل قوانين روما وفسرها

حقاً إنه عند ما كانت القرعة في أثينا ، أو الاستخارات في روما ، تعين الأرخون أو القنصل كان ذلك نوعاً من الاختيار تفحص بمقتضاه كفاءة المنتخب الجديد (١). لكن هذا سيرينا ماذا كانت تتمنى المدينة أن تراه في رجل الدولة فيها . إنها لم تكن تسعى وراء أشجع رجل للحرب ولا أمهر ولا أعدل رجل في السلم بل وراء أكثرهم محبة من الآلهة . والواقع أن مجلس الشيوخ الأثيني كان يسأل المنتخب الجديد عما إذا كان له إله منزلي (٢) ، عما إذا كان عضواً في أخوية ، عما إذا كان له قبر عائلي ، وعما إذا كان يقوم بكل واجباته نحو الموتى (٣). لماذا هذه الأسئلة ؟ ذلك لأن الذي ليست له عبادة عائلية لا يجوز له أن يساهم في العبادة القومية ولا أن يكون أهلاً لتقديم القرابين باسم المدينة ومن أهمل عبادة موتاه كان معرضاً لغضبهم الخفيف وتطارده أعداء غير مرئيين. إنها لمخاطرة كبيرة من جانب المدينة أن تكل حظها لمثل هذا الرجل . كانت تريد أن يكون رجل الدولة الجديد من أسرة طاهرة حسب تعبير أفلاطون (٤). ذلك أنه إذا كان واحد من أسلافه قد اقترف عملاً من هذه الأعمال التي تسيء إلى الديانة فإن موقد الأسرة كان يبقى مدنساً إلى الأبد وكانت الذرية تظل مبعوضة

(١) δοκιμασία أو ἀνάκρισις ἀρχόντων والأسئلة المختلفة التي كانت توضع في هذا الامتحان عددها دينارخوس (ضد ارسطوغيتون ١٧-١٨) وبوليديوكيس (٨ : ٨٥ - ٨٦) ، قارن ليكورغ القطعة ٢٤ وهاربوقراطيون تحت لفظ Ἐρκειος

(٢) Εἰ φράτορες εἰσὶν αὐτῶ καὶ βῶμοι Δίος ἔρκειου καὶ Ἀπόλλωνος (٢) πατρῶν (Dinarque dans Harpocraton). Εἰ Ἀπόλλων ἐστὶν αὐτοῖς πατρῶς καὶ Ζεὺς ἔρκειος (Pollux, VIII, 85)

(٣) Εἰ ἥρεια πατρῶα ἐστὶ (دینارخوس : ضد ارسطوغيتون ١٧-١٨) . وكانوا يسألون الأرخون أيضاً عما إذا كان قد قام بكل الحملات التي أمر بها وعما إذا كان قد دفع كل الضرائب . (٤)

Platon, Lois, VI, p. 759: Ὅς ὅτι μάλιστα ἐκ τῶν καθαρυνουσῶν οἰκήσεων ولأسباب شبيهة بهذه كانوا يقصون عن منصب الأرخون كل مصاب بعاهة أو أمشوه (ليسياس : الدفاع عن العاجز ١٣) ذلك لأن العيب الجسماني كان يعد علامة على غضب الآلهة ويجعل الرجل غير لائق بالقيام بأي كهنوت وبالشأى غير لائق للقيام بأي منصب من مناصب الدولة .

من الآلهة . تلك هي أهم الأسئلة التي كانت توجه لمن سيكون رجل الدولة .
كان يبدو أنهم لا يهتمون بطبعه ولا بذكائه بل كانوا يهتمون على الأخص بأن
يكون أهلاً للقيام بالوظائف الكهنوتية وألا تتعرض ديانة المدينة للضرر على
يديه .

ويلوح أن هذا النوع من الامتحان كان متبعاً في روما . حقاً إنه ليست لدينا
أية معلومات عن الأسئلة التي كان على القنصل أن يجيب عليها . لكننا نعرف على
الأقل أن هذا الامتحان كان يقوم به الأحرار ، ونستطيع جيداً أن نعتقد أن
موضوعه لم يكن غير أهلية رجل الدولة من الناحية الدينية (١) .

(١) ديونيسيوس ٢ : ٧٣ : *Oi pontifices... τὰς ἀρχὰς ἀπάσας ἐξετάζουσι* :
لسنا في حاجة إلى التنبيه إلى أنه في العصور الأخيرة من الجمهورية لم يكن هذا
الامتحان إلا إجراء أجوف ، ذلك بفرض أنه كان معمولاً به .

الفصل الحادى عشر

القانون

كان القانون، عند الإغريق وعند الرومان وكذلك عند الهنود ، فى أول الأمر جزءاً من الديانة؛ وكانت مجموعة قوانين المدينة هى مجموعة من الشعائر والفرائض الدينية والأدعية والنصوص الشرعية فى آن واحد . وكانت قواعد حق الملكية وحق الإرث متفرقة بين القواعد الخاصة بالقرايين وبالدفن وبعادة الموتى .

وإن ماتبقى لنا من أقدم قوانين روما، وهو ما كان يسمى بالقوانين الملكية، لينطبق فى الكثير من الأحيان على العبادة بقدر ما ينطبق على علاقات الحياة المدنية . فكان أحدها يحرم على المرأة الحاطئة أن تقترب من المذابح ، وآخر يحرم تقديم بعض ألوان من الطعام فى الأكلات المقدسة، وثالث يبين أى الاحتفالات الدينية كان يجب على القائد المنتصر أن يقوم به عند دخوله البلدة . وكانت مجموعة قوانين اللوحات الإثنى عشرة ، ولوأنها أحدث عهداً ، لا تزال تحوى فرائض مفصلة عن شعائر الدفن الدينية . وكان تشريع صولون مجموعة قوانين ودستور وكتاب شعائر فى آن واحد ؛ فكان ترتيب القرايين وثنم الأضحية منظماً فيها كما كانت شعائر الأعراس وعبادة الموتى .

رسم سيسرون ، فى رسالته عن القوانين ، هيكلاً تشريع لم يكن كله وليد الخيال. بل كان فى مجموعة قوانينه مقلداً للشارعين القدماء ، سواء فى جوهرها أو فى شكلها . وها هى ذى القوانين الأولى التى كتبها : لا يقترب أحد من الآلهة إلا بيدين طاهرتين ؛ —حافظوا على معابد الآباء ومستقر اللاريس المنزليين ؛ على الكهنة ألا يستعملوا فى الأكلات المقدسة إلا الأطعمة المنصوص عليها؛

فلتؤدّ للآلهة المائيس العبادة الواجبة لهم . من المؤكد أن الفيلسوف الروماني كان قليل الاهتمام بديانة اللاريس والمائيس القديمة ؛ لكنه رسم تشريعاً على صورة التشرييع القديمة وظن أنه ملزم بإدماج قواعد العبادة فيها .

من الحقائق المعترف بها في روما أنه من غير المستطاع أن يكون المرء حبراً صالحاً إذا كان لا يعرف القانون . (١) يقابل هذا أنه لم يكن من المستطاع أن يعرف القانون إذا كان لا يعرف الديانة . كان الأحبار هم الشارعين الوحيدين زمناً طويلاً . وحيث أنه لم يكن يكاد يوجد أى عمل من أعمال الحياة لا تربطه صلة ما بالديانة فقد نتج عن ذلك أن كل شيء تقريباً كان خاضعاً لقرارات هؤلاء الكهنة ، وأنهم كانوا القضاة الوحيدين المختصين بنظر عدد لا حد له من القضايا . فكانت ترفع إلى محاكمهم جميع المنازعات الخاصة بالزواج والطلاق وحقوق الأطفال المدنية والدينية . كانوا قضاة في الزناء بالمحرّمات وكذلك في العزوبة . ولما كان التبنى يمس الدين فإنه لم يكن يقع إلا بموافقة الحبر . وكان عمل الوصية معناه فصم النظام الذي أقامته الديانة لتوارث الأملاك وانتقال العبادة ؛ لذا كان يجب في الأصل أن يحجز الحبر الوصية . ولما كانت حدود كل ملك تعينها الديانة فقد كان من الواجب ، كلما وقع جاران في خصومة ، أن يترافعا أمام الحبر أو أمام كهنة كانوا يسمونهم الإخوة الأرفقاليس (٢) وذلك هو السبب في أن نفس الأشخاص كانوا أحباراً وفقهاء ؛ فإن الشرع والديانة كانا شيئاً واحداً (٣) .

(١) سيسرون : القوانين ٢ : ١٩ :

Pontificem neminem bonum esse nisi qui jus civile cognoscit.

(٢) سيسرون : القوانين ٢ : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ؛ ٧ *De Arusp. resp.*

لأجل منزله ١٢ ، ١٤ . ديونيسيوس ٢ : ٧٣ . تاسيتوس : حويات ١ : ١٠ ؛ التاريخ ١ : ١٥ . ديون كاسيوس ٤٨ : ٤٤ . بلينيوس : التاريخ الطبيعي ١٨ : ٢ . أولوس جيلوس ٥ : ١٩ ؛ ١٥ : ٢٧ . بومبونوس في الديجيسيت : *De origine juris*

(٣) ومن هنا جاء هذا التعريف القديم الذي احتفظ به الفقهاء إلى عصر جوستينيانوس :

Jurisprudentia est rerum divinarum atque humanarum notitia.

كان للأرخون الأول والملك، في أثينا، نفس الاختصاصات القضائية التي كانت للحبر الروماني تقريباً . ذلك لأن الأرخون كان مكلفاً بالسهر على دوام العبادة المنزلية (١)، ولأنه كانت للملك الإدارة العليا لديانة المدينة على نمط حبر روما إلى حد ما . لذلك كان الأول يحكم في جميع المنازعات الخاصة بحق الأسرة والثاني في جميع الجرائم التي تمس الديانة (٢) .

يتبين لنا بوضوح كيف كانت تولد القوانين القديمة . لم يكن يخترعها رجل واحد . ومن المحتمل أن يكون صولون وليكورغ ومينوس ونوما قد دونوا قوانين مدنيهم بالكتابة ؛ لكنهم لم ينشئوها ، فإذا كنا نقصد بالشارع رجلاً يبتدع قانوناً بقوة عبقريته ويفرضه على الآخرين فإن هذا الشارع لم يوجد عند القدماء إطلاقاً . كما أن القانون العتيق لم يخرج من تصويت الشعب . ولم تظهر فكرة أن عدد الأصوات يستطيع أن يخلق القانون إلا متأخرة جداً في المدن وبعد أن غيرتها ثورتان . وحتى ذلك الوقت كانت تبدو القوانين كشئ عتيق ، غير قابل للتعديل ، وله حرمة . فهي قديمة قدم المدينة ، والمؤسس هو الذي وضعها في نفس الوقت الذي وضع فيه الموقد *moresque viris et moenia ponit* ، وهو الذي أنشأها في نفس الوقت الذي أنشأ فيه الديانة . ومع ذلك ، لا يمكن القول أنه تخيلها بنفسه . فمن هو إذن مؤلفها الحقيقي ؟ عند ما تسكلمنا آنفاً عن تنظيم الأسرة وعن القوانين الإغريقية والرومانية التي كانت تنظم الملك والإرث والوصية والتبني لاحظنا كم كانت هذه القوانين مطابقة بالضبط لعقائد الأجيال القديمة . وعند ما نضع هذه القوانين تجاه الإنصاف الطبيعي نجدها مناقضة له في كثير من الأحيان ، ويبدو من البداهة بمكان أنهم لم يستمدوها من فكرة الحق المطلق والشعور بالعدل . ولكن لنضع هذه القوانين ذاتها تجاه عبادة الموتى والموقد ولنقارنها بالفرائض المختلفة في هذه الديانة الأولى ولنسوف نعرف عندئذ أنها متفقة جميعاً في ذلك كله اتفاقاً كاملاً .

(١) إيسايوس : ميراث أبولودوروس . ٣ .

(٢) بوليدوكيس ٨ : ٩٠ . أندوكيديس : (De mysteriis) الأسرار ١١١ .

لم يكن للإنسان أن يتدبر ضميره ويقول : هذا عدل ، وهذا ليس بعدل فإن الشرع العتيق لم يولد على هذا النمط . وإنما كان الإنسان يعتقد أن الموقد المقدس ينتقل ، طبقاً للقانون الديني ، من أب إلى ابن ؛ فنتج عن ذلك أن المنزل كان ملكاً وراثياً . كان الرجل الذي دفن أباه في حقله يعتقد أن روح الميت يتملك هذا الحقل إلى الأبد وأنه يتطلب من ذريته عبادة دائمة ؛ ونتج عن ذلك أن الحقل ، وهو ملك الميت ومكان القرابين ، قد أصبح ملك أسرة ولا يجوز التنازل عنه . كانت الديانة تقول : يواصل الابن العبادة ، وليست البنت . فقال القانون مع الديانة : يرث الابن ولا ترث البنت ، ابن الأخ يرث ولا يرث ابن الأخت . تلك هي الطريقة التي كان يعمل بها القانون ، لقد عرض نفسه من تلقاء ذاته دون أن يلجأوا للبحث عنه . كان النتيجة المباشرة ، الضرورية ، للعقيدة ؛ كان هو الديانة ذاتها مطبقة على علاقات الناس فيما بينهم .

كان القدماء يقولون إن قوانينهم أتت من الآلهة ؛ ولم يكن الإغريطشيون ينسبون قوانينهم لمينوس (Minos) بل لحويتر ؛ وكان اللاقيديمونيون يعتقدون أن مشرعهم لم يكن ليكورغ بل أبولون ؛ وكان الرومان يقولون إن نوما كتب تحت إملاء معبودة من أقوى معبودات إيطاليا القديمة : الآلهة إغيريا (Egerie) ؛ وتلقى الأتروسك قوانينهم من الإله تاغيس (Tagès) . وهناك شيء من الحق في جميع هذه الآثار . فإن الشارع الحقيقي عند الأقدمين لم يكن الإنسان بل العقيدة الدينية التي كان يحملها الإنسان في ذاته .

ظلت القوانين شيئاً مقدساً أمداً طويلاً . وحتى في الزمن الذي قبلوا فيه أن إرادة رجل أو أصوات شعب تستطيع أن تعمل قانوناً ، كان لابد أن تستشار الديانة أو أن تكون راضية . كانوا يعتقدون في روما أن إجماع الأصوات لم يكن كافياً لكي يكون هناك قانون . بل كان لا بد أن يقر الأحرار قرار الشعب وأن يشهد المستخبرون أن الآلهة تتقبل القانون المقترح قبولاً حسناً (١) .

(١) Denys, IX, 41: *Tὰς φρατρίαρχικὰς ψηφηφορίας ἔδει προβουλευσαμένης τῆς βουλῆς, καὶ τοῦ πλήθους κατὰ φρατρίας τὰς ψήφους ἐπενέγκαντος, καὶ μετ' ἀμφοτέρα ταῦτα τῶν παρὰ τοῦ Δαιμονίου σημείων καὶ οἰωνῶν μηδὲν ἐναντιωθέντων, τότε κυρίας εἶναι.*
كانت هذه القاعدة تلاحظ بدقة بالغة في القرن الأول من الجمهورية ثم اختفت فيما بعد أو وجدوا مخرجاً منها .

أراد عرفاء السوق، ذات يوم، أن يقر مجلس القبائل قانوناً فقال لهم أحد البطارقة «أى حق لكم فى عمل قانون جديد أو المساس بالقوانين القائمة؟ أنتم الذين ليس لكم حق الاستشارات، أنتم الذين لا تقومون فى مجامعكم بأعمال دينية، أى نصيب لكم فى الديانة وفى جميع الأشياء المقدسة التى يجب أن يحسب القانون واحداً منها؟ (١)» .

ندرك من ذلك احترام القوانين والتمسك بها، وهو ما حافظ عليه القدماء زمناً طويلاً . لم يروا فى القوانين عملاً بشرياً؛ فقد كان لها أصل مقدس . لم يكن من اللغو أن يقول أفلاطون إن إطاعة القوانين هى إطاعة الآلهة . إنه لم يكن إلا معبراً عن الفكرة الإغريقية عند ما أظهر، فى كريتون (Criton)، سقراط وهو يهب حياته لأن القوانين طلبتها إليه . وقبل سقراط كتبوا على صخرة ثرموبيلاي (Thermopyles) «أيها المار اذهب وقل لإسبرطه إننا متنا هنا امثالاً لقوانينها» . كان القانون عند القدماء مقدساً على الدوام؛ فى زمن الملكية كان ملك الملوك؛ وفى زمن الجمهوريات كان ملك الشعوب؛ وكانت مخالفته إثماً كبيراً .

كان القانون، من حيث المبدأ، غير قابل للتعديل ما دام أنه إلهى . ومما يلاحظ أنهم لم يلغوا قانوناً قط، كان من المتيسر أن تسن قوانين جديدة لكن القديمة كانت تبقى دائماً مهما كان التناقض بين القديمة والجديدة . فإن قانون دراكون (Dracon) لم يلغ قانون صولون (٢)، والقوانين الملكية لم تلغها

Denys, X, 4: Τίνος ὑμῖν μέτεστι τῶν ἱερῶν, ὧν ἐν τι (١)

καὶ νόμος ἦν

Cf. Tite-Live, III, 41: Nec plebem nec tribunos legem ferre posse.

Andocide, De mysteriis, 82: Ἐδοξε τῷ δήμῳ, Τισάμενος εἶπε, (٢)

πολιτεύεσθαι Ἀθηναίους κατὰ τὰ πάτρια, νόμοις δὲ χρῆσθαι τοῦ Σόλωνος, χρῆσθαι δὲ καὶ τοῖς Δράκοντες θέσμοις, οἷσπερ ἐχρώμεθα ἐν τῷ πρόσθεν χρόνῳ. انظر ديموشينيس: ضد إورغوس ٧١؛ ضد ليبتينوس ١٥٨ . بوليدوكيس

٩ : ٦١ — أولوس جيليوس ١١ : ١٨ : Draconis leges, quoniam videbantur: acerbiores, non decreto jussuque, sed tacito, illiteratoque Atheniensium consensu oblitteratae sunt.

اللوحات الإثنتا عشرة . والحجر الذي كان القانون منقوشاً عليه كان مصوناً لا يمس ؛ وعلى أكثر تقدير كان يعتقد أقل الناس تأثماً أنه مسموح له أن يقلبه ؛ وهذا المبدأ هو السبب الرئيسي في الخلط الكبير الذي يلاحظ في الشرع القديم . فكانت القوانين المتعارضة المختلفة العصور توجد مجتمعة فيه ، ومن حقها جميعاً أن تحترم . نرى في مرافعة لإيسايوس رجلين يتنازعان ميراثاً ، كل منهما يدعى أن قانوناً ما في صالحه ، والقانونان متناقضان تناقضاً مطلقاً ومقدسان على السواء . وكذلك كانت مجموعة قوانين مانو تحتفظ بالقانون القديم الذي كان يقر حق البكورة ، وتكتب بجواره آخر ينص على القسمة المتساوية بين الإخوة .

لم يكن للقانون القديم حيثيات قط . ولماذا تكون له حيثيات ؟ إنه لم يكن ملزماً بإبداء الأسباب . إنه موجود لأن الآلة هي التي قد عملته . إنه لا يناقش بل يفرض . إنه عمل من أعمال السيطرة ؛ والناس يخضعون له لأنهم يؤمنون به .

لم تكن القوانين مكتوبة خلال أجيال طويلة بل كانت تنتقل مع العقيدة وصيغة الدعاء من أب لابن ، كانت أثارة مقدسة دائمة حول موقد الأسرة أو موقد المدينة .

واليوم الذي بدأوا يقيدونها فيه بالكتابة دونوها فيه في الكتب المقدسة ، في كتب الشعائر ، بين الأدعية والاحتفالات . ذكر فارون قانوناً قديماً لبلدة توسكولوم وأضاف أنه قرأه في الكتب المقدسة لهذه البلدة (١) . ويقول ديونيسيوس الهاليكارناسي ، الذي يرجع للمستندات الأصلية ، إن القليل من القوانين الذي كان مكتوباً في روما قبل عصر الرجال العشرة (Decemvirs) كان في الكتب المقدسة (٢) . وقد خرج القانون ، فيما بعد ، من كتب الشعائر ؛ كتبوه على حدة لكن العادة استمرت على وضعه في معبد واحتفظ الكهنة بحراسته .

(١) فارن : اللسان اللاتيني ٦ : ١٦ .

Denys, X, 1: *En Israël βίβλοις ἀποκείμενα

(٢)

وسواء أكانت مكتوبة أو غير مكتوبة ، فقد كانت هذه القوانين مصوغة في قالب أوامر موجزة جداً يمكن مقارنتها من حيث الشكل بآيات كتاب موسى أو فقرات (سلوكاس Glocas) كتاب مانو . بل إن ظاهر الأمر يدل على أن كلمات القانون كانت منغمة (١). يقول أرسطو إنه قبل الزمن الذي كتبت فيه القوانين كانوا يرتلون (٢) . وقد بقيت من ذلك ذكريات في اللغة ؛ كان الرومان يسمون القوانين *carmina* (منظومات) (٣) وكان الإغريق يطلقون عليها νόμοι (أغاني) (٤) .

وهذه القصائد القديمة كانت نصوصاً لا مبدل لها . وتغيير حرف منها أو نقل كلمة أو تبديل النغم إن هو إلا إتلاف للقانون ذاته بإتلاف الصورة المقدسة التي نزل بها على الناس . فكان القانون كالدعاء الذي لم يكن يقبله المعبود إلا بشرط أن يتلى بالضبط و الذي كان يصبح إثماً إذا غيرت منه كلمة واحدة ؛ فالظاهر والنص الحرفي هو كل شيء في الشرع البدائي ، ولا مجال للبحث عن معنى القانون أو روحه . لم تكن قيمة القانون مستمدة من المبدأ الخلقى المستكن فيه بل من الألفاظ التي تحويها صيغته . قوته في الكلمات المقدسة التي كان يتألف منها .

لم تكن فكرة الحق ، عند القدماء ، وعلى الأخص في روما ، تنفصل عن استعمال بعض ألفاظ مقدسة . فإن كان المقصود هو التعاقد على التزام مثلاً كان على الواحد أن يقول : *Dari spondes?* وعلى الآخر أن يجيب : *spondeo* . فإذا لم يتلفظ بهذه الألفاظ فلا عقد هناك . وعبثاً يطالب الدائن بسداد دينه إذ أن المدين لم يكن مديناً بشيء . فإن الملمزم للإنسان في هذا الشرع العتيق لم يكن

(١) إيليانوس : قصص متنوعة ٢ : ٣٩

(٢) أرسطو *Probl.* ١٩ : ٢٨

(٣) تيتوس ليفيوس ١ : ٢٦ *Lex horrendi carminis erat*,

(٤) *Némos* يتسم ؛ *νόμος* فاصلة ، وزن ، نغم ، أغنية ؛ انظر بلوتارخوس : عن الموسيقى ص ١١٣٣ ؛ بنداروس ؛ البيثيات ١٢ : ٤١ ؛ القطعة ١٩ . (طبعة هيين Heyne) شارح أرسطوفانيس : الفرسان ٩ : *Νόμοι καλούνται οἱ εἰς θεοῦς ὕμνοι*

الضمير ولا الشعور بالعدالة بل الصيغة المقدسة . فإذا ماتليت هذه الصيغة بين رجلين فإنها كانت تقيم بينهما صلة شرعية . وحيث لا توجد الصيغة لا يوجد الشرع .

لن تدهشنا الصيغ الشاذة في الاجراءات الرومانية إذا ما فكرنا أن الشرع العتيق كان ديانة ، والقانون نصاً مقدساً ، والعدالة مجموعة شعائر . كان المدعى يطالب بواسطة القانون (*agit lege*) . كان يمسك الخصم بمنطوق القانون . لكن حذار : لكي يكون القانون في صفه يجب عليه أن يعرف عباراته وأن ينطقها نطقاً مضبوطاً . فلو تلفظ بكلمة بدل أخرى لا نعدم القانون وعجز عن الدفاع عنه . ويروي غايوس قصة رجل اجتث جاره كرومه ، والواقعة ثابتة . فتلفظ بالقانون ، لكن القانون كان يقول أشجاراً وقال هو كروماً ، فأضاع قضيته (١) .

لم يكن منطوق القانون كافياً بل كان لابد من أن تصاحبه علامة خارجية ، تماثل شعائر الحفلة الدينية ، كانوا يسمونها عقداً أو يسمونها إجراءات المقاضاة . ولهذا السبب كان لابد من استعمال قطعة النحاس والميزان في كل بيع . ولكي يبيع الإنسان شيئاً مالا يده من مسكه بيده *mancipatio* ، وإذا تنازعوا ملكاً كانوا يمثلون نزاعاً وهمياً *manuum consertio* . ومن هنا جاءت الإجراءات الشكلية في العتق والتحرير والدعاوى القضائية وكل الأعمال التمثيلية في الإجراءات .

حيث ان القانون كان جزءاً من الديانة فقد كان له نصيبه من صفة السرية التي كانت لجميع ديانة المدن . فكانت صيغ القانون سرّاً مكتوماً كصيغ العبادة . كانت مخبأة عن الأجنيبي بل مخبأة عن السوق . ولم يكن ذلك لأن البطارقة حسبوا أنهم يستمدون قوة كبيرة من احتكار تملك القوانين بل لأن القانون ، بحكم أصله وطبيعته ، قد لاح لهم ، زمناً طويلاً ، سرّاً لا يمكن أن يتلقنه الإنسان إلا بعد أن يكون قد تلقن أولاً العبادة القومية والعبادة المنزلية .

(١) غايوس : القواعد ٤ : ١١ .

ثم إن الأصل الدينى للشرع العتيق يفسر لنا صفة من أهم صفات هذا الشرع . كانت الديانة مدنية محضة أى خاصة بكل مدينة ؛ فلم يكن مستطاعاً أن يصدر عنها غير شرع مدنى . لكن من المهم أن نميز المعنى الذى كان لهذه الكلمة عند القدماء . فعندما يقولون إن الشرع كان مدنياً *jus civile, νόμοι πολιτικοί* لم يكونوا يقصدون أن لكل مدينة مجموعة قوانينها فحسب ، كما أن لكل دولة مجموعتها فى أيامنا هذه ، بل كانوا يريدون أن يقولوا إنه لم تكن لقوانينهم قيمة ولا عمل إلا بين أعضاء المدينة الواحدة . لم يكن يكفى أن يسكن الإنسان مدينة لكى يخضع لقوانينها ويحتذى فيها بل لا بد أن يكون من مواطنيها . لم يكن القانون موجوداً بالنسبة للعبد ، ولم يكن موجوداً كذلك بالنسبة للأجنبى . وسرى فيما بعد أن الأجنبى المقيم فى بلدة ما لم يكن يستطيع أن يكون مالكا فيها أو وارثاً أو موصياً ، ولا أن يعقد عقداً من أى نوع ولا أن يمثل أمام محاكم المواطنين العادية ؛ فإذا حدث أن كان دائناً لمواطن فى أثينا فإنه ما كان يستطيع أن يقاضيه لدفع دينه لأن القانون لم يكن يعترف بعقد صحيح من ناحيته .

وكانت هذه الترتيبات من جانب القانون ذات طابع منطقى كامل . لأن القانون لم يولد من فكرة العدالة بل من الديانة ولم يكن يمكن تصويره خارجها . فلكى توجد صلة حق بين رجلين كان لا بد أن تكون بينهما صلة دينية أى أن تكون لهما عبادة نفس الموقد ونفس القرابين . فإذا لم توجد هذه المشاركة الدينية بين رجلين فإنه لا يلوح فى الإمكان أن توجد بينهما أية صلة شرعية . ولم يكن للعبد أو للأجنبى نصيب فى ديانة المدينة . كان الأجنبى والمواطن يستطيعان أن يعيشا جنباً لجنب سنوات طويلة دون أن يفكر أحد فى إمكان إقامة صلة شرعية بينهما . فإن الشرع لم يكن إلا وجهاً من أوجه الدين . لا مشاركة فى الدين ، فلامشاركة فى القانون .

الفصل الثاني عشر

المواطن والأجنبي

كان يعرف المواطن من أن له نصيباً في عبادة المدينة ، ومن هذه المساهمة كان يستمد كل حقوقه المدنية والسياسية . فإن تنازل عن العبادة فقد تنازل عن الحقوق . وقد تكلمنا آنفاً عن الأكلات العامة التي كانت أهم احتفال للعبادة القومية . وفي أسبرطه كان من يتخلف عن الحضور فيه ، حتى لو لم يكن ذلك نتيجة خطأ من جانبه ، يحرم فوراً من حساباته بين المواطنين (١) . كانت كل مدينة تحتم أن يشترك كل أعضائها في أعياد عبادتها (٢) . وفي روما كان لا بد من الحضور في احتفال النثار المقدس لكي يتمتع المرء بالحقوق السياسية (٣) . والرجل الذي لم يحضر أى الذى لم يشارك في الدعاء العام والقرايين لا يعود مواطناً حتى النثار المقبل .

إذا أريد تحديد المواطن في الأزمنة العتيقة بأهم خصائصه وجب القول أنه الرجل الذى يحوز ديانة المدينة ، وهو الذى يمجّد نفس الآلهة الذين تمجدهم (٤) ، وهو الذى من أجله يقدم الأرخون أو سادن بيت النار

(١) أرسطو: السياسة ٢ : ٦ : ٢١ (٢ : ٧)

(٢) Boeckh, *Corp. inscr.*, n° 3641 b, t. II, p. 1131 . وكذلك في أثينا ، كان الرجل الذى عين للمشاركة في الاكلات العامة ولم يقم بهذا الواجب يقاضى ويعاقب . انظر قانونا ذكره أثيناىوس ٦ : ٢٦ .

(٣) ديونيسيوس ٤ : ١٥ ؛ ٥ : ٧٥ . سيسرون: الدفاع عن كيكينيا ٣٤ ؛ فيليوس Velléius ١٥ : ٢ . وكانوا يقبلون استثناء للجنود في الحرب؛ ومع ذلك كان لابد أن يرسل الرقيب من يدون أسماءهم حتى إذا ما قيدوا في سجل الاحتفال اعتبروا حضوراً .

(٤) οὗς ἡ πόλις νομίζει θεοὺς νομίζων (Xénophon, *Mémor.* I, 1.)

القربان كل يوم (١) ، والذي له حق الاقتراب من المذابح ، والذي يستطيع أن ينفذ إلى داخل السور المقدس حيث تقوم المجامع ، والذي يشهد الأعياد والذي يتبع المواكب ويختلط في مجامع الأعياد (panégyries) ، والذي يجلس إلى الأكلات المقدسة يتلقى نصيبه من الأضحية. لهذا أقسم هذا الرجل يوم قيده في سجل المواطنين أن يمارس عبادة آلهة المدينة وأن يحارب من أجلهم (٢) . انظر مصطلحات اللغة : فالقبول بين المواطنين يعبر عنه في اللغة الإغريقية بالألفاظ *μετεῖναι τῶν ἱερῶν* المساهمة في القدسيات (٣) .

وبعكس ذلك الأجنبي ، فهو الذي لا منفذ له إلى الديانة ، والذي لا تحميه آلهة المدينة ، والذي ليس له حتى حق دعائهم ، إذ أن هؤلاء الآلهة القوميين لا يريدون تلقي الدعوات والقرايين إلا من المواطن ؛ إنهم يصدون الأجنبي ؛ فدخول معابدهم محرم عليه وحضوره أثناء الاحتفالات رجس . وقد بقي لنا شاهد على هذا الشعور القديم بالكراهية في شعيرة من أهم شعائر العبادة الرومانية . عندما يضحى الحبر في الهواء الطلق يجب أن يكون مقنع الرأس ، « إذ يجب ألا يترأى وجه أجنبي لعيني الحبر أمام النيران المقدسة في العمل الديني للآلهة القوميين ؛ فإن ذلك يبلبل الاستخارات (٤) . » والشئ المقدس الذي

(١) عن القرايين التي كان يقدمها سادن النار كل يوم باسم البلدة ، انظر انتيفون : *Super choreuta, 45*

(٢) *Kal ta iera ta patria timēsō... āmunō dē ūpēr ierōn.* الصيغة الكاملة لهذا القسم في بوليدوكيس ٨ : ١٠٥ - ١٠٦

(٣) مرسوم خاص بالبالاتيين في ديموستينيس : ضد نيأيرا ١٠٤ . قارن نفس المرافعة ١١٣ : *τελειῶν καὶ ἱερῶν καὶ τηῶν μετέχειν* . انظر أيضاً إيسوقراط : مجامع الأعياد (*Panégyr.*) واسترابون ٩ : ٣ : ٥٠ .

(٤) فرجيليوس : الإنييد ٣ : ٤٠٦ . فستوس تحت لفظ *Exesto* : *Lictor in quibusdam sacris clamitabat, hostis exesto.* نعرف أن *hostis* كانت تطلق على الأجنبي (ماكروبيوس ١ : ١٧ ؛ فارون : اللسان اللاتيني ٥ : ٣ ؛ بلاوتوس : صاحب النميات الثلاثة (*trinummus*) (٢ : ١ ، ٦٥) عند فرجيليوس تعني عبارة *hostilis facies* وجه أجنبي .

يقع لفترة ما في يد أجنبي يفقد قداسه على الفور ولا يمكن أن يستعبد صفته الدينية إلا باحتفال تكفيرى (١). وإذا انتزع العدو مدينة ثم حدث أن استردها المواطنون فإنه لا بد قبل كل شيء من تطهير المعابد وإطفاء جميع المواقد وتجديدها فإن ملامسة الأجنبي لها قد دنسها (٢).

وهكذا كانت الديانة تميز بين المواطن والأجنبي تمييزاً عميقاً غير قابل للمحو (٣). طالما كانت السيطرة على الأرواح لنفس هذه الديانة فإنها كانت تحرم على الأجانب حق المدينة. ففي زمن هيرودوت لم تكن اسبرطة قد منحت لأحد اللهم إلا لواحد متكهن؛ ومع هذا فقد كان لا بد لذلك من أمر صريح من الوحي (٤). وكانت أثينا تمنحه أحياناً ولكن بأية حيلة. كان لا بد أولاً من تصويت الشعب مجتمعاً على قبول الأجنبي، ولم يكن ذلك يعد شيئاً. كان لا بد بعد تسعة أيام من تصويت مجمع ثان تصويتاً مماثلاً بطريق التصويت السرى وأن يكون هناك ستة آلاف صوت موافق على الأقل: هذا الرقم يبدو جسيماً إذا فكرنا أنه كان من النادر أن يجمع مجمع أثيني هذا العدد من المواطنين؛ وأخيراً، كان في استطاعة أول طارئ من الأثينيين أن يعترض بنوع من القيتو وأن يهاجم المرسوم أمام المحاكم باعتباره مناقضاً للقوانين القديمة وأن يلغيه. حقاً إنه لم يكن هناك إجراء عام أحاطه الشارع بالصعوبات والاحتياطات بقدر ما أحاط الإجراء الذي يخضع على الأجنبي لقب المواطن؛ وتكاد الإجراءات التي

(١) ديجيست، الكتاب ١١، الباب ٦ : ٣٦

(٢) يمكن أن نرى مثلاً لهذه القاعدة فيما يختص ببلاد الاغريق في بلوتارخوس أرمتيديس ٢. وفيما يختص بروما في تيتوس ليفيوس ٥ : ٥٠

(٣) لقد تلطفت فيما بعد هذه القواعد التابعة للعصور الأولى. فقد حصل الأجانب على حق دخول معابد المدينة ووضع قربان فيها. ومع هذا بقيت بعض الأعياد وبعض القرابين يقصى عنها الأجنبي دائماً. أنظر : Boeckh, Corp. inscr., n° 101

Πειραιεῖοι νόμιμόν ἐστιν εἰσιέναι, ἄλλω δὲ μή.

(٤) هيرودوت ٩ : ٣٣ - ٣٥. بيد أن أرسطو يقول أن ملوك اسبرطة القدماء كانوا يميلون إلى منح حق المدينة (السياسة ٢ : ٩ : ١٢)

يجب القيام بها أن تكون بقدر ما يلزم لإعلان الحرب أو سن قانون جديد . من أين أتى وضع هذا القدر من العقوبات في طريق الأجنبي الذي يريد أن يكون مواطناً ؟ من المؤكد أنهم لم يكونوا يخشون أن يُميل صوته الميزان في المجمع السياسية . يخبرنا ديموشثينيس عن المبرر الحقيقي وعن فكرة الأثينيين الحقيقية «ذلك أنه يجب التفكير في الآلهة والاحتفاظ للقرايين بطهارتها» . إقصاء الأجنبي هو «السهر على الاحتفالات المقدسة» . وقبول أجنبي بين المواطنين هو «إعطاؤه نصيباً في الديانة وفي القرايين (١)» . ولم يكن يشعر الشعب في مثل هذه الأمور أن له كامل الحرية بل كان يعتريه تأثم ديني ؛ إذ أنه كان يعلم أن الآلهة القوميين كانوا تواقين إلى إبعاد الأجنبي وأنه ربما أفسد حضور الطاريء الجديد القرايين . كان منح حق المدينة لأجنبي اعتداء حقيقياً على المبادئ الأساسية للعبادة القومية ولهذا كانت المدينة في البدء جد ضئيلة به ؛ ثم يجدر ملاحظة أن الرجل الذي يقبل مواطناً بهذا العناء لم يكن يستطيع أن يكون أرخوناً ولا كاهناً . كانت المدينة تسمح له حقاً بالمثل في عبادتها ؛ أما رئاسته لها فقد كان فيه مجاوزة للحد .

ما من أحد كان يستطيع أن يكون مواطناً في أثينا إذا كان مواطناً في بلدة أخرى (٢) . إذ يستحيل من الناحية الدينية أن يكون عضواً في مدينتين في آن واحد ، كما رأينا أنه يستحيل أن يكون عضواً في أسرتين . إذ ليس في استطاعة أحد أن يتبع ديانتين في آن واحد .

كانت المساهمة في العبادة تجر معها حيازة الحقوق . ما دام المواطن يستطيع أن يشهد القربان الذي يسبق المجمع فقد كان يستطيع أن يصوت أيضاً . وما دام يستطيع أن يقدم القرايين باسم المدينة فقد كان يستطيع أن يكون سادناً لبيت النار أو أرخوناً . وما دام متديناً بديانة المدينة فإنه كان يستطيع أن يستنجد بقانونها وأن يقوم بكل شعائر الإجراءات القانونية .

(١) ديموشثينيس : ضد نيأرا ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) بلوتارخوس : صولون ٢٤ . سيسرون : الدفاع عن كيكينا ٣٤

وعلى عكس ذلك ليس للأجنبي أى حق، إذ ليس له أى نصيب فى الديانة؛ وإذا دخل نطاق المقدس الذى رسمه الكاهن للمجمع عوقب بالموت . إذ لا وجود لقوانين المدينة فيما يختص به . فإذا ما ارتكب جريمة عومل كما يعامل العبد ، وعوقب من غير إجراء قضية لأنه لا حق له فى عدالة المدينة (١) . وعندما وصلوا إلى الشعور بالحاجة إلى عدالة للأجنبي ، كان لابد من إقامة محكمة خاصة . فكان لروما پريتور لمحاكمة الأجنبي (*praetor peregrinus*) وكان قاضى الأجانب فى أثينا هو البولوبرخوس أى نفس رجل الدولة المكلف بمهام الحرب وجميع العلاقات مع العدو (٢) .

لم يكن فى استطاعة الأجنبي أن يكون مالكا فى روما أو فى أثينا (٣) . ولم يكن فى استطاعته أن يتزوج ، أو على الأقل لم يكن معترفاً بزواجه ؛ والأطفال المولدون من قران مواطن بأجنبية كانوا يعتبرون نغالا (٤) . ولم يكن يستطيع أن يتعاقد مع مواطن ، أو على الأقل لم يكن القانون يعترف بقيمة ما لمثل هذا العقد . وفى الأصل لم يكن له حق المتاجرة (٥) . وكان

(١) أرسطو : السياسية ٣ : ١ : ٣ . أفلاطون . : القوانين ٦

(٢) ديموشينيس : ضد نيايرا ٤٩ . ليسياس : ضد بانتاليون ٢ ، ٥ ، ١٣ . بوليدوكيس ٨ : ٩١ . هاربوقراطيون تحت لفظ *Pelēmarchos*

(٣) اكسينوفون : *De vectigal* ٢ : ٦ . كان فى استطاعة الأجنبي أن يحصل كخطوة فردية على ما يسميه الشرع الاغريقى *ἐγκλησις* والشرع الرومانى *jus commercii*

(٤) ديموشينيس : ضد نيايرا ١٦ . ارسطوفانيس : الطيور ٦٥٢ . أرسطو : السياسة ٣ : ٣ : ٥ . بلوتارخوس : بريكليس ٣٧ . بوليدوكيس ٣ : ٢١ . أثيناىوس ١٣ : ٣٨ . تيتوس ليفيوس ٣٨ : ٣٦ و ٤٣ . غايوس ١ : ٦٧ . البيانوس ٥ : ٤ - ٩ . بولوص ٢ : ٩ . كان لا بد من قانون خاص تصدره المدينة لاعطاء سكان بلدة أخرى الـ *ἐπιγαμία* أو الـ *connubium*

(٥) البيانوس ١٩ : ٤ . ديموشينيس : الدفاع عن فورسيون ٦ ؛ ضد بوليديس

القانون الروماني يحرم عليه أن يرث مواطناً بل يحرم على المواطن أن يرث منه (١) وقد توغلوا في هذا المبدأ إلى حد أنه إذا حصل غريب على حق المدينة الرومانية دون أن يحصل ابنه الذي ولد قبل تلك الفترة على نفس الخطوة ، فإن الابن يصبح غريباً عن الوالد ولا يستطيع أن يرث منه (٢) . فإن الفاصل بين المواطن والأجنبي كان أقوى من الرابط الطبيعي بين الأب والابن .

قد يبدو لأول وهلة أنهم جعلوا همهم مناوئة الأجنبي . لكن الأمر لم يكن كذلك بالعكس ، كانت أثينا وروما تستقبلانه استقبالا حسناً وتحميانه لأسباب تجارية أو سياسية . لكن عطفهما وحتى مصلحتهما لم يستطعا إلغاء القوانين القديمة التي أقامتها الديانة . لم تكن هذه الديانة تسمح للأجنبي أن يصبح مالكا . إذ أنه لم يكن يستطيع أن يكون له نصيب في الأرض الدينية للمدينة ، ولم تكن تسمح للأجنبي أن يرث المواطن ولا للمواطن أن يرث الأجنبي إذ أن كل انتقال للأموال كان يجر وراءه انتقالا للعبادة . وكان يستحيل على المواطن أن يقوم بعبادة الأجنبي كما كان يستحيل على الأجنبي أن يقوم بعبادة المواطن .

كان من المستطاع استقبال الأجنبي والسهر عليه بل تقديره إذا كان ثرياً أو شريفاً ، لكنه لم يكن من المستطاع إعطاؤه نصيباً في الديانة أو الشرع . كان يعامل العبد من بعض النواحي بأحسن مما كان يعامل به الأجنبي ؛ إذ أن العبد ، باعتباره عضواً في أسرة يشارك في عبادتها ، كان مرتبطاً بالمدينة عن طريق سيده ؛ فكانت الآلهة تحميه . لذلك كانت الديانة الرومانية تقول إن قبر العبد مقدس أما قبر الأجنبي فليس كذلك . (٣)

لكي يعد الأجنبي شيئاً ما في نظر القانون ، لكي يستطيع المتاجرة والتعاقد والتمتع بما له في أمان ، لكي يستطيع قضاء المدينة أن يحميه

(١) سيسرون : الدفاع عن أرخياس ٥ . غايوس ٢ : ١١٠ .

(٢) بوسانياس ٨ : ٤٣ .

(٣) ديجيست ، الكتاب ١١ ، الباب ٧ : ٢ ؛ الكتاب ٤٧ ، الباب ١٢ : ٤

حماية فعالة كان لا بد من أن يكون مولى لمواطن . كانت روما وأثينا تريدان أن يتخذ كل أجنبي ولياً (١) . فإذا ما وضع الأجنبي نفسه في الولاء وفي تبعية مواطن فإنه كان يرتبط بالمدينة عن طريق هذا الوسيط ؛ ويساهم عندئذ في بعض فوائد الشرع المدني ويتحصل على حماية المدينة .

كانت المدن القديمة تعاقب على معظم الأغلاط التي كانت ترتكب نحوها بتجريد المذنب من صفة المواطن ، ويسمى هذا العقاب *ἀτιμία* (٢) . ولم يكن للرجل الذي ينزل به هذا العقاب أن يتولى أى منصب ولا أن يكون عضواً في المحاكم ولا أن يتكلم في المجمع . وفي نفس الوقت كانت الديانة محرمة عليه . ويقول منطوق الحكم وإنه لن يدخل في أى قدس من أقداس المدينة ولن يكون له الحق في لبس تاج من الزهور في الأيام التي يضع فيها المواطنون تيجاناً، وإنه لن يضع قدمه في النطاق الذي خطه ماء الثارودم الأضحية في الساحة العامة للمدينة (agora) (٣) . إن آلهة المدينة لم تعد موجودة بالنسبة له .

(١) هاربوراتيون تحت لفظ *Προστάτης* . بوليديوكيس ٣ : ٥٦ . ليكورغ : ضد ليوقراطيس ٢١ . ارسطو : السياسية ٣ : ١ : ٣

(٢) عن الـ *ἀτιμία* في أثينا أنظر أيسخينيس : ضد تيارخوس ٢١ ؛ أندوكيديس : الأسرار ٧٣ - ٨٠ ؛ بلوتارخوس : فوقيون ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ - عن الـ *ἀτιμία* في إسبرطة ، هيرودوت ٧ : ٢٣١ ؛ ثوقيديدس ٥ : ٣٤ ؛ بلوتارخوس : أغيسيلائوس ٣ . وكانت نفس العقوبة موجودة في روما ؛ وكانوا يعبرون عنها بالمصطلحين *infamia* أو *tribu movere* ، تيتوس ليفيوس ٥ : ٢ ؛ ٢٤ : ١٨ ؛ ٣٧ : ٢٩ ؛ ٤٢ : ١٠ ؛ ٤٥ : ١٥ ؛ سيرون : الدفاع عن كلوينتيوس ٤٣ ؛ الخطيب ٢ : ٦٧ ؛ فاليريوس ماكسيموس ٢ : ٩ : ٦ ؛ بس . اسكونيوس طبعة أورلي ص ١٠٣ . (Ps. Asconius, éd. Orelli, p. 103) ؛ ديمست : الكتاب ٣ ، الباب ٢ . وقد ترجم ديونيسيوس (٦٣ : ١١) *infames* بكلمة *ἀτιμοί* وترجم ديون كاسيوس (١٣ : ٣٨) *tribu movere* بكلمة *ἀτιμάζειν*

Eschine, In Timarchum: *Μὴ ἐξέστω αὐτῷ ἱερῶσύνῃν ἱεράσασθαι*, (٣)
μήδ' εἰς τὸ δημοτέλῃ ἱερὰ εἰσάτω, μήδ' ἐν ταῖς κοιναῖς στεφανηφορίαις στεφανοῦσθαι, μήδ' ἐν τοῖς τῶν τῆς ἀγορᾶς περιρραντηρίων πορευέσθαι.
 Lysias, In Andocidem, 24: *Ἐργεσθαι τῆς ἀγορᾶς καὶ τῶν ἱερῶν*

وكان يفقد في نفس الوقت جميع الحقوق المدنية ، فلا يظهر أمام المحاكم حتى كشاهد . وإذا غبن لا يسمح له أن يشتكى ؛ «ويمكن ضربه من غير عقاب» (٤) فإن قوانين المدينة لا تحميه ، ولم يعد له حق في شراء ، ولا بيع ، ولا عقد من أى نوع (٥). لقد أصبح غريباً في البلدة وجرد من كل شيء دفعة واحدة : فإن الحقوق السياسية والدينية والحقوق المدنية كانت كلها مجموعة يتضمنها لقب مواطن وتُفقد بفقده .

Plutarque, Agésilas, 30: *Παλει ὁ βουλόμενος αὐτούς*. - Lysias, *In And.*, (٤)
24: *Ὡστε μὴδ' ἀδικουμενον ὑπὸ τῶν ἐχθρῶν δύνασθαι δίκην λαβεῖν*. —
Démosthène, *In Midiam*, 92: *Ἀτιμία νόμων καὶ δικῶν καὶ πάντων*
στέρησις. تبين المرافعة ضد نيايرا (٢٦ : ٢٨) أن الـ *ἀτιμος* لم يكن مسموحاً له حتى
بالشهادة أمام المحاكم .

(٥) لم يكن يستطيع في اسبرطة أن يشتري أو أن يبيع أو أن يعقد زواجا
و أن يزوج ابنته لمواطن. ثوقيديديس ٥ : ٣٤ ويلوتارخوس : اغيسيلوس ٣ .

الفصل الثالث عشر

الوطنية والذنى

كلمة الوطن عند القدماء معناها أرض الآباء (terra patria) ، فوطن كل رجل هو الجزء من الأرض الذى قدسته ديانتة المنزلية أو القومية ، الأرض التى أودعت عظام أسلافه فيها وتشغلها أرواحهم . الوطن الصغير هو قطعة الأرض التى للأسرة بقبرها وموقدها ؛ والوطن الكبير هو المدينة يبيت نارها وأبطالها ، بسورها المقدس ومنطقتها التى حددتها الديانة . كان الإغريق يقولون «أرض الوطن المقدسة» ولم تكن تلك الكلمة عبثاً . فإن هذه الأرض كانت مقدسة للإنسان حقاً إذ كانت تسكن فيها آلهته . فالدولة والمدينة والوطن لم تكن معنويات كما هى عند المحدثين ؛ بل كانت تمثل فى الواقع مجموعة كاملة من المعبودات المحلية مع عبادة يومية وعقائد مسيطرة على الروح .

ومن هذا تفسر وطنية القدماء ، تلك العاطفة العنيفة التى كانت عندهم الفضيلة العليا ، والتى كانت تنتهى إليها جميع الفضائل الأخرى . فكان كل ما هو أعز على الإنسان من سواه يفتى فى الوطن . ففى الوطن كان يجد صالحه وأمنه وحقه وإيمانه وإلهه . فإذا فقد ذلك فقد كل شئ . لذلك كاد يصبح من المستحيل أن يكون الصالح الخاص غير متفق مع الصالح العام . يقول أفلاطون : إن الوطن هو الذى يلدنا ويطعمنا ويربينا . ويقول صفوكليس : الوطن هو الذى يحفظنا .

مثل هذا الوطن لا يكون مجرد سكن للإنسان . فليترك المرء أسواره المقدسة وليتخط الحدود المقدسة للمنطقة ، إنه لن يجد لنفسه ديانة ولا رابطة اجتماعية من أى نوع كان . فهو فى كل مكان ، عدا وطنه ، منبوذ من الحياة المنتظمة ومن الحق . وهو فى كل مكان آخر لا إله له ومنبوذ من الحياة المعنوية . فهناك فقط له كرامة الإنسان وواجباته . إنه لا يستطيع أن يكون إنساناً إلا هناك .

إن الوطن ليسك بالإنسان رابطاً إياه برباط مقدس ؛ ويجب أن يُحب كما تُحب الديانة وأن يطاع كما يطاع الله يجب أن يهبه الإنسان نفسه كاملة وأن يضع فيه كل شيء وأن ينذر له كل شيء ، يجب أن يحب ، مجيداً كان أو خاملاً ، سعيداً أو تعساً . يجب أن يحب في آلائه وأن يحب أيضاً في صرامته . يتحتم ألا ينقص حب سقراط للوطن لأنه حكم عليه بغير حق يجب أن يحب الوطن ، كما أحب إبراهيم ربه ، حباً يحمله على أن يضحى له بابنه . وعلى الأخص ، يجب أن يعرف الإنسان كيف يموت من أجله . فإن الإغريق والرومان لا يموت قط تفانياً لرجل ولا ثورة للشرف لكن حياته دين للوطن لأنه إذا اعتدى على الوطن فقد اعتدى على ديانته . إنه يحارب حقاً من أجل مذابحه ومواقده *pro aris et focis* (١) لأنه إذا استولى العدو على بلده فإنه سيهدم مذابحه ويطنىء مواقده ويدنس مقابره ويحطم آلهته ويمحو عبادته ؛ حب الوطن هو تقوى القدماء .

لا بد أن حيازة الوطن كانت ثمينة جداً فإن القدماء لم يتصوروا عقاباً أقسى من حرمان الإنسان من وطنه ، فكان النفي هو العقاب المألوف على الجرائم الكبيرة لم يكن النفي قاصراً على تحريم الإقامة في البلدة والبعد عن أرض الوطن بل كان يتناول في نفس الوقت الحرمان من العبادة ، إنه كان يتضمن ما يسميه المحدثون النفي من الجماعة (الحرمان من الكنيسة) ، فنفي رجل معناه طبقاً للصيغة المستعملة عند الرومان حرمانه من النار والماء (٢) ، ويجب أن نفهم من هذه النار نار القرايين ومن هذا الماء ماء النثار (٣) . فكان النفي إذن يضع الإنسان خارج الديانة ، وفي أسرطه أيضاً عندما يحرم إنسان من حق المدينة كانت تحرم عليه النار (٤) . أنطق شاعر أثيني شخصية من شخصياته بالصيغة المفزعة التي تصب على المنفى

(١) ومن هنا صيغة القسم التي كان يتلوها الأثيني الصغير: *Ἀμυνῶ ὑπὲρ τῶν ἱερῶν* بولييدوكيس ٨ : ١٠٥ : ليكورغ : ضد ليوقراطيس ٧٨ .

(٢) سيسرون : من أجل منزله ١٨ . تيتوس ليفيوس ٢٥ : ٤ . البيانوس ٣ : ١٠ .

إ (٣) فستوس طبعة بيلر ص ٢ .

(٤) هيرودوت ٧ : ٢٣١ .

وقال منطوق الحكم : ليعزب ولا يقترب إطلاقاً من المعابد . لا يكلمه مواطن ولا يتلقاه أحد . لا يتقبله إنسان في الصلوات ولا في القرابين ولا يقدم له أحد ماء النثار (١) . كل بيت يدينه حضوره والرجل الذي يتقبله يصبح نجساً بملامسته . يقول القانون «من أكل أو شرب معه أولسه وجب عليه أن يتطهر» (٢) . وتحت تأثير هذا النقي من الجماعة لم يكن يستطيع المنفى أن يقوم بنصيب في أى احتفال ديني . إنه لم تعد له عبادة ولا أكالات مقدسة ولا صلوات لقد محرم إرثه في الديانة .

يجب أن نفكر تماماً في أن الله لم يكن عند القدماء موجوداً في كل مكان . وإذا كانت لديهم فكرة عن معبود للكون فإنه لم يكن ، في اعتبارهم ، المنعم عليهم ، ولم يكن هو الذي يوجهون إليه الدعاء . فإن آلهة كل شخص هم الذين كانوا يسكنون منزله وقريته وبلدته ؛ وعندما يترك المنفى وطنه يترك آلهته أيضاً ، فلا يعود يرى في أى مكان ديانة تستطيع أن تعزيه وأن تحميه ، ولا يعود يحس منما يسهر عليه ؛ لقد انتزعت منه سعادة الدعاء ؛ وأصبح بعيداً عنه كل ما يستطيع أن يسد حاجته الروحية .

كانت الديانة هي التبع الذي تنساب منه الحقوق المدنية والسياسية . فكان المنفى يفقد كل ذلك بفقدانه ديانة الوطن . وما دام قد أقصى عن ديانة المدينة فقد كان يرى نفسه وقد انتزعت منه في نفس الوقت عبادته المنزلية وكان عليه أن يطغى موقده (٣) . لم يعد له حق الملك ؛

(١) صوفوكليس : أويديوس ٢٢٩ - ٢٥٠ - وكذلك كان الأمر في ال-*ατιμία* التي كانت نوعاً من النفي الداخلي .

(١) Platon, *Lois*, IX, p. 881: *Φευγέτω δειφυγίαν ἐξ ἄστεος καὶ πάντων ἱερῶν, εἰργέσθω... Ἐὰν δέ τις τῷ τοιούτῳ συμφάγη ἢ συμπίῃ ἢ τινα ἄλλην κοινωνίαν κοινωνήσῃ, ἢ καὶ μόνον ἐντυγχάνων προσάπτεται, μήτε εἰς ἱερὸν ἔλθῃ μήτ' εἰς ἀγορὰν πρότερον ἢ καθήρηται.*

(٣) أويديوس : الحزنيات ١ : ٣ : ٤ . *Exstinctos focos*

فقد كانت أرضه وأملكه تصادر لمنفعة الآلهة أو لمنفعة الدولة (١)
 إنه لم تعد له عبادة فإنه لم تبق له أسرة ، وكف عن أن يكون زوجاً وأباً . لم
 بعد أبناؤه في سلطته (٢) . وزوجته لم تعد زوجته وتستطيع أن تتخذ زوجاً آخر على الفور (٣) .
 تأمل ريغولوس (Régulus) : إنه أسير العدو ، والقانون الروماني يعتبره
 مثيلاً للمنى ؛ وعند ما سأله مجلس الشيوخ رأيه رفض الإدلاء به إذ أن المنى
 لم يعد عضواً في مجلس الشيوخ ؛ وعندما اندفعت زوجته وأولاده نحوه دفع
 عن نفسه احتضانهم له لأن المنى لم يعد له أطفال ولا زوجة :

Fertur pudicae conjugis osculum
 parvosque natos, ut capitis minor,
 A se removisse. (٤)

وهكذا كان المنى يفقده ديانة المدينة وحقوقها يفقد ديانة الأسرة وحقوقها :
 لم يعد له موقد ولا زوجة ولا أطفال ؛ وإذا ما مات لا يمكن دفنه في

(١) تيتوس ليفيوس ٣ : ٥٨ ، ٤٠ : ٤٠٠ . ديونيسيوس ١١ : ٤٦ . ديموستينيس : ضد
 ميدياس ٤٣ . ثوقيديديس ٥ : ٦٠ . بلوتارخوس : ثيمستوكليس ٢٥ . بوليبيوس
 وكانت تلتف هذه القاعدة في بعض الأحيان . ويمكن في بعض الأحيان ترك الأملاك
 للمنى أو تحويلها لأطفاله . أفلاطون : القوانين ٩ ص ٨٧٧ . هذا ويجب ألا نخلط
 في شيء ما بين الأوستراكسيموس والمنى فإن الأول لم يكن يحرمه المصادرة .

(٢) قواعد جوستينيانوس ١ : ١٢ : ١ . غايوس ١ : ١٢٨ :

*Cui aqua et igni interdicatur, proinde, ac mortuo eo liberi desinunt
 in potestate esse.*

وكذلك لم يكن المنى في سلطة أبيه (غايوس نفس المرجع) فما دامت روابط الأسرة
 قد انقضت فإن حقوق الميراث تختفي .

(٣) انظر في ديونيسيوس ٨ : ٤١ وداع كوريولانوس لزوجته : «لم يعد لك زوج،
 ليتك تجددين زوجاً آخر أسعد مني» ويضيف أن أبناءه لم يعد لهم أب . ولم يكن ذلك تفخيم
 من خطيب بليغ بل عبارة الشرع العتيق .

(٤) هوراسيوس *odes* ٣ : ٥ . كلمة *capitio minor* يفسرها *capitis deminutio*

في الشرع الروماني ، وهو ما كان ينتج عن المنى . انظر غايوس ١ : ١٢٩ :
Si ab hostibus captus fuerit parens, pendet jus liberorum.

من الناحية القانونية، كان ريغولوس، الذي كان أسيراً بناء على وعده، *servus hostium*
 حسب تعبير غايوس (نفس المرجع) وبالتالي لم تعد له حقوق المدينة ولا حقوق
 الأسرة : انظر أيضاً سيرون : الواجبات (*De officiis*) ٣ : ٢٧ .

ثرى المدينة ولا في قبر أسلافه (١) . لقد أصبح أجنبياً .
وليس من العجب إذن أن الجمهوريات القديمة تكاد تسمح للمذنب دائماً
بأن يفر من الموت بالهروب من الوطن . فإن النفي لم يكن يبدو لهم أخف
وطأة من الموت (٢) . لقد كان الفقهاء الرومان يسمونه عقاباً بالإعدام .

(١) ثوقيديديس ١ : ١٣٨

(٢) تلك هي الفكرة التي يعبر عنها أوربيديس : إكترا ١٣١٥ ؛ الفينيقيات

٣٨٨ ، ويعبر عنها أفلاطون : كريتون ص ٥٢ .

الفصل الرابع عشر

روح البلديات

لقد استطاع ما رأيناه للآن عن الأنظمة القديمة ، وعلى الأخص عن العقائد القديمة ، أن يعطينا فكرة عن الفارق العميق الذى كان يميز مدينتين دائماً؛ فهما كانتا متجاورتين فإنهما كانتا تكوّنان مجتمعين منفصلين تمام الانفصال؛ لقد كان بينهما شيء أكبر من المسافة التى تفصل اليوم بلديتين ، وأكثر من الحدود التى تفصل دولتين ؛ كانت الآلهة فيها مختلفة وكذلك الاحتفالات والصلوات ، كانت عبادة مدينة ما محرمة على الرجل من أهل المدينة المجاورة . كانوا يعتقدون أن آلهة بلدة ما تعرض عن تمجيد أولئك الذين لم يكونوا مواطنين لها وعن صلواتهم .

حقاً إن هذه العقائد القديمة قد تغيرت مع الزمن وأصبحت أكثر مرونة، لكنها كانت فى عنفوان قوتها فى العصر الذى تكونت فيه المجتمعات ، وقد احتفظت هذه المجتمعات بهذا الطابع على الدوام .

يسهل علينا أن نتصور شيئين : أولاً أن هذه الديانة الخاصة بكل مدينة هى التى كونت المدينة تكويناً قوياً جداً يكاد لا يتزعزع . وإنه لعجيب حقاً أن يعيش هذا النظام الاجتماعى كل ذلك الزمن على الرغم من عيوبه وكل مقومات دماره ؛ فضلاً عن أنه كان من أثر هذه الديانة أن جعلت إقامة أى شكل اجتماعى غير المدينة أمراً مستحيلاً لقرون طويلة .

كان من المحتم على كل مدينة بحكم ديانتها نفسها أن تكون مستقلة تماماً . وكان من المحتم أن تكون لكل واحدة مجموعة قوانينها الخاصة ما دام لكل واحدة ديانتها ومن الديانة كان يصدر القانون . كان من المحتم أن يكون لكل واحدة سيادتها القضائية، ولا يمكن أن تكون هناك سلطة قضائية أعلى من سلطة

المدينة . كان لكل منها أعيادها الدينية وتقويمها . لا يمكن أن تكون الشهور والسنة واحدة في بلدين ما دامت مجموعة الأعمال الدينية مختلفة . وكان لكل منها عملتها الخاصة والتي كانت في الأصل تحمل عادة رمزها الديني . وكان لكل مدينة أوزانها ومقاييسها . لم يكونوا يسمحون بوجود شيء مشترك بين مدينتين . كان الخط الفاصل بين بلدين مختلفين من العمق بحيث عسر عليهم أن يتصوروا أن الزواج مسموح به بين سكان هاتين البلدين . ومثل هذا الاقتران كان يبدو غريباً على الدوام وظل زمناً طويلاً يعتبر غير مشروع . كان تشريع روما وأثينا يعاف قبوله بشكل واضح . وفي كل مكان تقريباً كانوا يخلطون بين الأطفال المولودين من مثل هذا الزواج وبين النغال ويحرمونهم من حقوق المواطن . لسكى (١) يكون الزواج مشروعاً بين أهالي بلدين كان لابد أن يكون بينهما اتفاق خاص (*jus connubii*, *ἐπιγαμία*) (٢) .

كان لكل مدينة حول منطقتها خط من الحدود المقدسة . وكان هو أفق ديانتها القومية وآلهتها . وفيما وراء هذه الحدود كانت تتحكم آلهة أخرى وتقام عبادة أخرى (٣) .

(۱) بولیدوکیس ۳ : ۲۱ : νόθος δ εκ ξένης ή παλλάκιδος : - وفي قانون
 ذكر أثينا يوس ۱۳ : ۳۸ : ος αν μη εξ αοτης γένηται νόθον είναι :
 ديموسثينيس : ضد نيائرا ۱۶ . بلوتارخوس : بريكليس ۳۷ .

(٢) لئسياس: *De antiqua reip. forma*, 3 ديموشثينيس: من أجل التاج ٩١. إيسوقراط
- *Plataie.*, 51 - غايوس ١ : ٦٧؛ البيانوس ٥ : ٤ ؛ تيتوس ليفيوس ٤٣ : ٣٨؛ ٣٦-٣٧.

(٣) بلوتارخوس : ثيسوس ٢٥ . أفلاطون : القوانين ٨ ص ٨٤٢ . بوسانياس في مواضع متفرقة . بوليدوكيس ١ : ١ . Boeckh. *Corp. inscript.*, t. II, p. 571 et 887 . كان خط الحدود المقدسة التي تحدد الـ *ager romanus* لا يزال موجوداً في عصر استرابون ، وعلى كل واحد من هذه الأحجار كان الكهنة يقدمون قرباناً كل عام (استرابون ٥ : ٣ : ٢) .

إن أبرز صفات تاريخ بلاد الإغريق وإيطاليا قبل الفتح الروماني هو التفتت المبالغ فيه وروح العزلة لدى كل مدينة . لم تنجح بلاد الإغريق إطلاقاً في تكوين دولة واحدة ؛ ولم تستطع البلدان اللاتينية ولا البلدان الأتروسكية ولا القبائل السامنية أن تكون هيئة مندمجة قط . لقد نسب انقسام الإغريق الذي استعصى شفاؤه إلى طبيعة بلادهم وقيل إن الجبال التي تتقاطع فيها تقيم بين الناس خطوطاً طبيعية فاصلة ؛ لكنه لم تكن هناك جبال بين ثيبه وپالاتيا ؛ بين أرغوس واسپرطه ؛ بين سيباريس وكروتون . ولم يكن هناك شيء منها بين بلدان اللاتيوم ولا بين المدن الإثنى عشرة في إتروريا . لا مزية أنه كان للطبيعة بعض الأثر في تاريخ الشعوب لكن عقائد الإنسان كان لها أثر أعظم سلطاناً ؛ فقد كان بين أي مدينتين شيء أكثر من الجبل استعصاء على العبور : ألا وهو سلسلة الحدود المقدسة ؛ ألا وهو اختلاف العبادات ، ألا وهو الحاجز الذي أقامته كل مدينة بين الأجنبي وبين آلهتها . كانت تحرم على الأجنبي أن يدخل معابد معبوداتها المدنية ؛ وكانت تفرض على معبوداتها المدنية كراهية الأجنبي ومحاربه (١) .

ولهذه العلة لم يستطع القدماء أن يقيموا نظاماً اجتماعياً غير نظام المدينة ولم يتصوروا غيره . ظل الإغريق والإيطاليون والرومان أنفسهم زمناً طويلاً لا يفكرون في أنه في استطاعة عدة بلدان أن تتحد وتعيش على قدم المساواة تحت حكومة واحدة . كان من الجائز أن يوجد حلف بين مدينتين ، أي اشتراك مؤقت من أجل نفع يجلب أو خطر يدفع ، لكنه لم يكن هناك اتحاد كامل قط ؛ إذ أن الديانة كانت تجعل من كل بلدة هيئة لا يمكن أن تندمج في أية هيئة أخرى . كانت العزلة هي قانون المدينة .

كيف كانت تستطيع عدة مدن أن تمتزج في دولة واحدة مع وجود العقائد والعادات الدينية التي رأيناها ؛ لم يكونوا يفهمون الارتباط البشري ولم يكن

(١) يرى بما فيه الكفاية أننا لا نتكلم هنا إلا عن العصر العتيق للمدن . وقد ضعفت هذه الإحساسات كثيراً بمضى الزمن .

يبدو لهم قانونياً إلا بقدر ما يرتكز على الديانة . ومن المحتم أن يكون رمز هذا الارتباط أكلة مقدسة تؤكل جماعة . كان يستطيع بضعة آلاف من المواطنين أن يجتمعوا ، إذا حزب الأمر ، حول بيت نار (بريتانيون) واحد ، ويتلوا نفس الدعاء ويقتسموا الأطعمة المقدسة . لكن حاول أن تنشأ دولة واحدة من جميع بلاد الإغريق مع وجود هذه العادات . كيف يمكن القيام بالأكلات العامة وبكل الاحتفالات المقدسة التي يفرض على جميع المواطنين أن يشهدوها ؟ أين يكون بيت النار ؟ كيف يعمل النشار السنوي للمواطنين جميعاً ؟ ماذا يصبح أمر الحدود المصونة التي كانت تعلم بها في بادئ الأمر أرض المدينة ، والتي كانت تفصلها عن بقية الأرض إلى الأبد؟ ماذا يكون أمر جميع العبادات المحلية والمعابد المدنية والأبطال الساكنين في كل ناحية ؟ كان لدى أثينا على أرضها البطل أويديپوس عدو ثيبه . فكيف يكون الجمع بين أثينا و ثيبه في عبادة واحدة وفي حكومة واحدة ؟.

عندما ضعفت هذه الخرافات (وهي لم تضعف في ذهن العامة إلا بعد زمن طويل) كان الوقت الذي يقام فيه شكل جديد من أشكال الدولة قد فات ، كان الانقسام مقدساً بحكم التعود والمنفعة والبغض المتأصل وذكرى المناضلات القديمة . لم يعد هناك مجال للعودة إلى الماضي .

كانت كل بلدة شديدة التمسك باستقلالها الذاتي (autonomia) : وكانت تطلق هذه الكلمة على مجموعة تشمل عبادتها وشرعها وحكومتها وكل استقلالها الديني والسياسي .

ولقد كان أسهل جداً على مدينة ما أن تخضع أخرى من أن تضمها ؛ وكان في استطاعة الانتصار أن يجعل من جميع سكان البلدة التي يستولى عليها عدداً من العبيد لكنه لم يكن يستطيع أن يجعل منهم مواطنين للمتتصر . لذلك كان إدماج مدينتين في دولة واحدة أي ضم الأهالي المغلوبين إلى الأهالي المنتصرين هو الشيء الوحيد الذي لا نراه قط عند القدماء ، ماعدا استثناء يكاد يكون وحيداً

سنتكلم عنه فيما بعد. إذا استولت اسبرطه على مسينيا (Messénia) فإن ذلك لم يكن ليجعل الاسرطيين والمسينيين شعباً واحداً ؛ فانها قد طردت المغلوين أو استعبدتهم واغتصبت أراضيهم . وكذلك فعلت أثينا تجاه سلامين وإيغينا وميلوس .

كان إدخال المغلوين في مدينة الغالين فكرة لا تعرض لذهن أحد . كان للمدينة آلهة وأناشيد وأعياد وقوانين هي ميراثها الثمين ؛ وكانت تحرس جيداً من إعطاء جزء منها للمقهورين . بل إنه لم يكن لها الحق في ذلك : أكان في استطاعة أثينا أن تسمح بدخول أحد أهالي إيغينا (Egine) في معبد أثينايا المدنية ؟ وأن يقوم بعبادة ثيسيوس ؟ وأن يساهم في الأكلات المقدسة ؟ وأن يرعى الموقد العام باعتباره سادن بيت النار ؟ كانت الديانة تحرم ذلك . وإذن لم يكن في استطاعة أهالي جزيرة إيغينا المغلوين أن يكونوا دولة واحدة مع أهالي أثينا ، وحيث أنه لم تكن لهم نفس الآلهة فإنه لم يكن في استطاعة الإيغينيين والأثينيين أن تكون لهم نفس القوانين ولا نفس رجال الدولة . .

لكن ، ألم يكن في استطاعة أثينا ، ما دامت قد تركت البلدة المغلوبة قائمة أن ترسل على الأقل حكاماً يقيمون فيها ليحكموها ؛ كان ممايتناfi تماماً مع مبادئ القدماء أن تحكم مدينة على يد رجل ليس من مواطنيها . إذ أن رجل الدولة يجب أن يكون رئيساً دينياً وكانت وظيفته الرئيسية القيام بالقربان باسم المدينة . فالأجنبي الذي لم يكن من حقه أن يقدم القربان لم يكن يستطيع إذن أن يكون حاكماً . وحيث أنه لم تكن له أية وظيفة دينية فإنه لم تكن له في أعين الناس أية سلطة منظمة . حاولت اسبرطه أن تضع ولايتها المسمين هارموستيس (Harmostes) في البلدان ؛ لكن هؤلاء الناس لم يكونوا حكاماً ، ولم يكونوا يقضون بين الناس ، ولم يكونوا يظهرون في المجالع ؛ وما دامت لم تكن لهم أية صلة منظمة بشعب المدن فإنهم لم يستطيعوا أن يبقوا زمناً طويلاً .

نتج عن ذلك أنه كان على كل غالب أن يختار بين هدم المدينة المغلوبة أو احتلال أرضها أو تركها مستقلة . لم يكن هناك حل وسط . فإما أن تكف المدينة

عن الوجود وإما أن تكون دولة ذات سيادة . وما دامت لها عبادتها فلا بد أن تكون لها حكومتها ولا تفقد أحدهما إلا بفقدان الأخرى ، وعندئذ تنقطع عن الوجود .

هذا الاستقلال المطلق للمدينة القديمة لم ينقطع إلا عند ما اختفت العقائد التي تأسست عليها اختفاء تاما . بعد أن تبدلت الأفكار ومرت عدة ثورات على هذه المجتمعات العتيقة ، عندئذ استطاعوا أن يصلوا إلى إدراك دولة أكبر تهيمن عليها قواعد أخرى وإلى إقامة هذه الدولة . لكن كان لا بد لذلك من أن يكشف الناس عن مبادئ أخرى وعن رابطة اجتماعية أخرى غير ما كان متبعاً في تلك العصور القديمة .

الفصل الخامس عشر

العلاقات بين المدن ، الحرب ، السلم ، تحالف الآلهة

كان للديانة سلطان كبير على حياة المدينة الداخلية ، وكانت تتدخل بنفس السلطان في جميع العلاقات التي كانت بين المدن . وهو ما يمكن أن يرى من ملاحظة كيف كان يتحارب أهل هاتيك العصور القديمة ، وكيف كانوا يعتقدون السلم ، وكيف كانوا يكونون المحالفات .

مدينتان : معنى ذلك مجموعتان دينيتان ليست لهما نفس الآلهة . فإذا كانتا في حرب فإن الرجال لا يحاربون وحدهم بل كانت الآلهة أيضاً تساهم في النضال ولا يعتقدن أحد أن ذلك كان مجرد خيال شعري . فقد كان عند القدماء عقيدة محددة جداً وعنيفة جداً ، وبمقتضاها كان كل جيش يستصحب آلهته معه . كانوا على ثقة بأن الآلهة كانت تحارب في المعركة ؛ وكان الجنود يدافعون عنها وهي تدافع عن الجنود . وكان كل فرد يعتقد أنه وهو يحارب العدو يحارب أيضاً آلهة المدينة الأخرى ؛ كان مسموحاً أن يبغض المرء هذه الآلهة الأجنبية وأن يسبها وأن يضربها ، كان في الاستطاعة أن تأخذ أسيرة .

وبذلك كان للحرب مظهر غريب . يجب أن نتصور جيشين صغيرين يواجه كل منهما الآخر ؛ وفي وسط كل منهما أصنامهم ومذبحه وأعلامه ، وهي شارات مقدسة (١) ؛ ولكل منهما وحيه الذي وعده بالنجاح واستخاراته ومتكهنوه الذين يضمنون له النصر . وقبل المعركة ، يفكر كل جندي من الجيشين ويقول كما يفكر ويقول ذلك الإغريق في أوريبديدس «الآلهة التي تحارب معنا أقوى من تلك التي مع أعدائنا» .

(١) *Ἐπὶ τὰς ἱερὰς ἐτάσσοντο σημείας* ديونيسيوس ١٠ : ١٦

يتلو كل جيش لعنة على جيش العدو . من نوع اللعنة التي احتفظ لنا ماكروبوس بصيغتها : «أيها الآلهة . بثي الفزع والهلع والضربين أعدائنا . ليحرم هؤلاء الرجال وكل من يسكن حقولهم وبلداتهم من ضوء الشمس . لتكن هذه البلدة . وحقولهم وروؤوسهم وأشخاصهم نذراً لك» (١) . وبعد أن يقال ذلك يتضارب الجانبان بهذا التهافت الوحشي الذي توجده فكرة أن الآلهة معهم وأنهم يخاربون آلهة غرباء . لا رحمة بالعدو : فالحرب ضرورية ؛ والديانة تشرف على القتال وتعرض المقاتلين : ولا مجال لأية قاعدة عليا تُلطف شهوة القتل : ومسموح بذبح الأسرى والإجهاز على الجرحى .

وحتى خارج ميدان القتال لم يكن لديهم فكرة عن واجب ما نحو العدو فلم يكن للأجنبي حق قط ومن باب أولى عند ما يكونون في حرب معه . إنهم لبسوا ملزمين أن يميزوا بين العدل والظلم فيما يخصه . أعتقد موكيوس سكيڤولا (Mucius Scaevola) وجميع الرومان أن اغتيال العدو فعل جميل ؛ وكان القنصل ماركيوس (Marcius) يتباهى علناً بأنه خدع ملك مقدونية ؛ وباع إميلوس باولوس (Paul Emile) مائة ألف إيرى بيع العبيد وكانوا قد استسلموا طواعية بين يديه (٢) .

استولى فيبيداس (Phébidas) اللاقيديموني على قلعة الثيبين في حومة السلم وقد سئل أغيسيلوس عن نصيب هذا الفعل من العدل فقال الملك : «تبينوا فقط ما إذا كان مفيداً : فبمجرد ما يكون عمل ما مفيداً للوطن فإن القيام به يصبح جميلاً» . ذلك هو القانون الدولي عند المدن القديمة . وكان كليومينيس (Cléomène) . وهو ملك آخر من ملوك اسبرطة يقول إن كل سوء تستطيع أن تلحقه بالعدو فهو عدل دائماً في نظر الآلهة والناس (٣) .

(١) ماكروبوس : ساتورناليا ٣ : ٩

(٢) تيتوس ليفيوس ٤٢ : ٥٧ ، ٤٥ ، ٣٤ .

(٣) بلوتارخوس : أغيسيلوس ٢٣ ، حكم (apophtegmes) اللاقيديمونيين . ولم يشذ أرسطيديس نفسه عن القاعدة فإنه كان يعلم ، فيما يلوح ، أن العدل ليس لزاسياً بين مدينة وأخرى . أنظر ما يقوله بلوتارخوس : حياة أرسطيديس C. 25

كان للمتصر أن يستغل انتصاره كما يشاء فما من قانون إلهي أو بشري يوقف انتقامه أو جشعه . واليوم الذي قررت فيه أثينا أن يباد جميع الميثيلينيين من غير تفریق في الجنس أو السن لم تكن تعتقد أنها تعدت حقها. وعندما رجعت في اليوم التالي عن قرارها وقنعت بإعدام ألف مواطن ومصادرة جميع الأراضي اعتقدت في نفسها الإنسانية والرحمة . وبعد الاستيلاء على پالاتيا ذبح الرجال وبيع النساء ولم يهتم أحد الغالين بأنهم اعتدوا على الحق (١) .

إنهم لم يكونوا يحاربون الجنود فقط ؛ بل كانوا يحاربون الأهليين جميعاً : الرجال والنساء والأطفال والعبيد . ولم يكونوا يحاربون الكائنات البشرية فحسب، بل كانوا يشنون الحرب على الحقول والمحصولات . كانوا يحرقون المنازل ويقطعون الأشجار ؛ وفي معظم الأحوال كان محصول العدو نذراً للآلهة السفليين ولذلك كان يحرق (٢) . كانوا يقضون على المواشي ؛ بل إنهم كانوا يتلفون البذر الذي يمكن أن ينتج في العام التالي . كانت تستطيع الحرب بضربة واحدة أن تمحو اسم شعب كامل وجنسه وأن تحول أقليماً خصباً إلى صحراء جرداء . وبمقتضى حق الحرب هذا مدت روما القفر حولها ؛ فجعلت من الأرض التي كان فيها للفولسك (Volsques) ثلاث وعشرون مدينة مستنقعات الپونتان ؛ واختفت الثلاث والخمسون مدينة التي كانت في اللاتيوم ؛ وقد ظلوا زمناً طويلاً في السامنيوم يعرفون الأماكن التي مرت بها جيوش الرومان من القفر السائد حولها أكثر مما كانوا يعرفونها من بقايا معسكراتهم (٣) .

وإذا لم يستأصل الغالب شأفة المغلوبين فقد كان من حقه أن يقضى على مدينتهم أي أن يحطم جماعتهم الدينية والسياسية . عندئذ تنقطع العبادة وتنسى

(١) ثوقيدديدس ٣ : ٥٠ : ٣٤ : ٦٨ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٦ : ٣١ : ٧٤ : ٢٢ : *Cum agris magis quam cum hominibus urendo populandoque gesserunt bella.*

(٣) تيتوس ليفيوس ٢ : ٣٤ : ١٠ : ١٥ . بلينيوس : التاريخ الطبيعي ٣٥ : ١٢ .

الآلهة (١). وبالقضاء على ديانة المدينة تختفى في نفس الوقت ديانة كل أسرة وتنطفيء المواقد . ومع العبادة تسقط القوانين والشرع المدني والأسرة والملك وكل ما كان يستند إلى الديانة (٢) ولنصنع إلى المغلوب الذي أنعم عليه بالحياة يعزى إليه أنه يقول العبارة التالية : «إني أعطى شخصي وبلدتي وأرضي والماء الذي يجري فيها وآلهة تخوى ومعابدي ومنقولاتي وكل الأشياء التي للآلهة . كل ذلك أهبه للشعب الروماني» (٣). وابتداء من تلك اللحظة تصبح الآلهة والمعابد والمنازل والأراضي والأشخاص للمتصر . وسنتكلم فيما بعد عن مصير ذلك كله تحت سيادة روما .

لكي تعقد معاهدة سلم كان لا بد من عمل ديني . ونرى حتى في الإلياذة «المنادين المقدسين الذين يحملون القرابين المخصصة لمواثيق الآلهة أعني الخراف والحمير ؛ ويتجه رئيس الجيش إلى الآلهة وهو واضع يده على رؤوس

(١) أوريبيديس: الطرواديات ٢٥-٢٨ : *Noosei ta tōn theōn oude timāsthai θέλει*. وفي بعض الأحيان كان الغالب يأخذ الآلهة لديه . وفي أحوال أخرى كان إذا أقام في الأرض المستولى عليها يدعى الحق في مواصلة عبادة آلهة الإقليم وأبطاله . روى تيتوس ليفيوس أن الرومان عندما استولوا على لانوفيوم «ردوا إليها عبادتها» دليل على أنهم قد انتزعوها منها لجرد الفتح . وإنما اشترطوا فقط أن يكون من حقهم معبد جونون لانوفينا (Juno Lanuvina) (تيتوس ليفيوس ٨ : ١٤) .

(٢) كان المغلوبون يفقدون حق الملك على أراضيهم ثوقيديديس ١ : ٩٨ ؛ ٣ :

٥٨ : ٣ ؛ ٥٨ : ١١ . بلوتارخوس : بريكليس ١١ :

Siculus Flaccus, *De cond. agror.*, dans les *Gromatici*, édit., Lachmann, p. 138: *Bellis gestis victores populi terras omnes ex quibus victos ejecerunt publicavere*. Siculus Flaccus, p. 136: *Ut vero Romani omnium gentium potiti sunt, agros ex hoste captos in victorem populum partiti sunt*.

ميسرون: ضد فريس ٢: ٣: ٦؛ قانون الأراضي الزراعية ١: ٢: ٢: ١٥. أبيانوس: الحروب الأهلية ١ : ٧ . وبمقتضى هذا المبدأ كانت ارض الولايات (*solum provinciale*) ملكاً شرعياً للشعب الروماني ؛ غايوس ٢ : ٧ :

In provinciali solo dominium populi romani est.

(٣) تيتوس ليفيوس ١: ٣٨: ٧ ؛ ٣١ : ٢٨: ٣٤ . بوليبيوس ٣٦ : ٢ . توجد صيغة التنازل ذاتها في بلاوتوس : امفيتريون (البيت ٧١) :

Urbem, agrum, aras, focos seque uti dederent

والبيت ١٩١ :

deduntque se, divina humanaque omnia, urbem et liberos.

الأضاحى ويقطع العهد على نفسه ثم يضحي بالخراف ويريق السوائل بينما يتلو الجيش هذا الدعاء : أيها الآلهة الخالدة . كما ضربت هذه الضحية بالحديد فلتحطمي كذلك رأس أول من يحنث يمينه ، (١) . وقد دامت نفس الشعائر طيلة التاريخ الإغريقي . وفي عهد ثوقيديديس كانت المعاهدة لا تزال تعقد بالقربان . يتلو رؤساء الشعب صيغة الدعاء واضعين أيديهم على الضحية المذبوحة (٢) ويتعهدون للآلهة . وكل شعب يدعو آلهته الخصوصيين (٣) ويتلو صيغة القسم الخاصة به (٤) . وهذا الدعاء وهذا القسم أمام الآلهة هما اللذان يقيدان الطرفين المتعاقدين : لا يقول الإغريق : توقيع معاهدة ؛ بل يقولون ذبح ضحية القسم *δρακία τέμνειν* أو إراقة السائل *σπένδεσθαι* وعند ما يريد المؤرخ أن يسمى من نسميهم في اللغة الحديثة موقعي المعاهدة يقول ها هي ذى أسماء من أراقوا السوائل (٥) .

إن فرجيليوس ، وهو يصف الأخلاق والشعائر الرومانية بدقة بالغة ، لا يبعد كثيراً عن هوميروس عندما يرينا كيف تعقد معاهدة : « يوضع موقد بين الجيشين ؛ ويقام مذبح للمعبودات المشتركة بينهما . ويحضر الضحية كاهن يرتدى لباساً أبيض ، ويريق الرئيسان السوائل ، ويدعوان الآلهة ؛ ويعلنان وعودهما ؛ ثم تذبح الضحية . وتوضع لحومها على لبيب المذبح (٦) » . ما أوضح تيتوس ليفيوس في هذه النقطة من قانون روما العام : « ما من معاهدة يمكن أن تعقد بدون الكهنة الفسياليس وبدون القيام بالشعائر المقدسة ؛ إذ أن المعاهدة ليست اتفاقاً ، *sponsio* ، كما هو الأمر بين الناس ؛ وإنما تعقد المعاهدة بألقاء دعاء *precatio* يطلب فيه أن يطعن الإله الشعب الذي ينحل بالشروط

(١) الإلياذة ٣ : ٢٤٥ - ٣٠١

(٢) ثوقيديديس ٥ : ٤٧ : *Katà Ierōn tateiōn* . انظر اكسينوفون . أناباسيس ٢ :

٢ : ٩ . *Σφάξαντες ταῦρον καὶ κάπρον καὶ κριόν, καὶ βάπτιοντες ξίφος* .

(٣) ثوقيديديس ٢ : ٧١ .

(٤) شرحه ٥ : ٤٧ : *Ὁμνούντων τὸν ἐπιχώριον ὄρκον ἕκαστοι*

(٥) شرحه ٥ : ١٩ .

(٦) فرجيليوس ١٢ الأبيات ١٣ ، ١١٨ - ١٢٠ ، ١٧٠ - ١٧٤ ، ٢٠٠ - ٢١٥ .

انظر ٨ : ٦٤١ : *Et caesa iungebant foedera porca* .

التي ذكرت كما طعن الكاهن الفسياليس الضحية» (١) .
وهذا الاحتفال الديني يخلع وحده صفة القداسة والعصمة على الاتفاقات الدولية . يعرف الجميع قصة شعاب كوديوم (Fourches Caudines) . فإن جيشاً كاملاً اتفق مع السامنيين بلسان قناصله وصيافقه (questeurs) وعرفاء السوق ورؤساء الفرق المثينة فيه ، لكنه لم تكن هناك أضاحى مذبوحة ولا أدعية متلوة ولا التزامات اتخذت تجاه الآلهة . لذلك اعتقد مجلس الشيوخ أنه على حق في القول بأنه ليست للاتفاق أية قيمة . ولم يطرأ في ذهن أي حبر ولا أي بطريق أنهم ارتكبوا بالغائه عملاً من أعمال الغدر .

إنها لفكرة ثابتة لدى القدماء أنه ليست على أي إنسان التزامات إلا تجاه آلهته الخصوصيين . ويجب أن نتذكر هذه الكلمة لإغريق كانت مدينته تعبد البطل ألاباندوس (Alabandos) ؛ كان يوجه كلامه لرجل من بلدة أخرى كانت تعبد هيراكليس فقال «ألاباندوس إله وهراكليس ليس إله» (٢) . مع مثل هذه الآراء كان من الضروري في معاهدة السلم أن تتخذ كل مدينة آلهتها الخاصة بها شهداء على أيمانها . يقول الهالاتيون للإسبرطيين « عقدنا معاهدة وأرقنا السوائل وأشهدتم آلهة آبائكم وأشهدنا بدورنا الآلهة الذين يقطنون إقليمنا » (٣) وكانوا يسعون جهدهم ليدعوا، إن أمكن، معبودات مشتركة بين البلدين . كانوا يحلفون بهذه الآلهة المراثية من الجميع : الشمس التي تضيء كل شيء والأرض المطعمة . لكن آلهة كل مدينة وأبطالها الحياة كانت أكثر تحريكاً لعواطف الإنسان وكان لا بد أن يتخذها المتعاقدون شاهدة إذا ما أريد أن تقيدهم الديانة قيلاً حقيقياً .

وحيث أن الآلهة قد امتزجت خلال الحرب بالمحاربين فكان يجب أن تشملها المعاهدة أيضاً . كانوا يشترطون أن تكون هناك مخالفة بين الآلهة كما ستكون

(١) تيتوس ليفيوس ٩ : ٥ . ويعطى نفس المؤرخ في مكان آخر (١ : ٢٤) وصفاً كاملاً للاحتفال وجزءاً من الـ *precatio* . ونجدتها أيضاً في بوليبيوس ٣ : ٢٥ .
(٢) سيسرون : طبيعة الآلهة ٣ : ١٩
(٣) ثوكيديديس ٢ : ٧١ .

بين أهل البلدين . والدلالة على هذه المحالفة بين الآلهة كان يحدث في بعض الأحيان أن يسمح أحد الشعبين للآخر بتبادل الحضور في أعيادهما المقدسة (١) . وفي بعض الأحيان كان كل منهما يفتح معابده للآخر بالتبادل ويتبادلان الشعائر الدينية . اشترطت روما أن يحمي معبود بلدة لانوفيوم من ذلك اليوم الرومان الذين يصبح لهم حق دعائه والدخول إلى معبده (٢) . وفي كثير من الأحيان كان يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين أن يقدم عبادة لمعبودات الآخر . وهكذا قدم الإليون (Eléens) بعد أن تعاقدوا مع الأيتولين (Etolians) قرباناً سنوياً لأبطال حلفائهم (٣) . وفي بعض الأحيان أيضاً كانت تتفق بلدتان على أن تدرج كل منهما اسم الأخرى في أدعيتها (٤) .

كثيراً ما كان يحدث على أثر محالفة ما أن يمثلوا ، على التماثيل والأنواط ، معبودات البلدين وهي تتصافح . ولهذا كانت لدينا أنواط نرى فيها أبولون إله ميليتوس وجن أزمير ، وبلاّس (Pallas) إلهة السيديين (Sidéens) وأرتميس إلهة برغي (Pergè) ، وأبولون إله هيراپوليس وأرتميس إلهة إفسوس ، متحدتين . ويرى فرجيليوس عند الكلام عن محالفة بين أهالي تراقية وطرواده بناتس الشعبين متحدتين ومشاركين (٥) .

تتفق هذه العادات الغريبة اتفاقاً تاماً مع الفكرة التي تصورها القدماء عن الآلهة . ما دام لكل مدينة آلهتها فقد بدا طبيعياً أن يظهر هؤلاء الآلهة في المعارك وفي المعاهدات ، لأن الحرب أو السلم بين بلدين هي الحرب أو السلم بين ديانتين . وقد بقى القانون الدولي عند القدماء زمناً طويلاً مؤسساً على هذا

(١) شرحه ٥ : ٢٣ . بلوتارخوس : ثيسيوس ٢٥ ، ٣٣ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٨ : ١٤ .

(٣) بوسانياس ٥ : ١٥ ، ١٢ .

(٤) هكذا كانت أثينا تدعو لخيوس وبالعكس . انظر أرسطوفانيس (الطيور البيت ٨٨٠) وقطعة غريبة من ثيوبومبيوس اقتبسها الشارح عند الكلام على هذا البيت .

(٥) فرجيايوس : الإنييد ٣ : ١٥ : *Sociique penates* . قارن تيتوس ليفيوس

١ : ٤٥ : *Deos consociatos* .

المبدأ. عند ما كانت الآلهة متعادية كانت هناك حرب لا هوادة فيها ولا قاعدة لها ، وبمجرد ما تصادقت الآلهة ارتبط الناس فيما بينهم وأحسوا بشعور الواجبات المتبادلة . فإذا أمكن الظن أن لدى المعبودات المدنية في المدينتين مبرراً ما لتحالفهما فإن ذلك يكفي لكي تتحالف المدينتان . كانت أول بلدة تعاقدت معها روما على الصداقة هي كيريه (Caeré) في إتروريا . ونحبرنا تيتوس ليفيوس عن العلة في ذلك : أثناء نكبة الغزو الغالي وجدت الآلهة الرومانية ملجأ في كيريه ، سكنت هذه البلدة وعبدت بها وبهذا تكونت رابطة مقدسة من الضيافة بين الآلهة الرومانية والمدينة الأتروسكية (١) . ومنذ ذلك الوقت والديانة لا تسمح بأن تكون البلدتان عدوتين ، إنهما حليفتان إلى الأبد .

(١) تيتوس ليفيوس ٥ : ٥٠ أولوس جيلوس ١٦ : ١٣ .

الفصل السادس عشر

الأحلاف . المستعمرات

مما لا شك فيه أن الروح الإغريقي قد بذل جهداً كبيراً ليرتفع فوق مستوى نظام البلديات : ففي وقت مبكر جداً اتحدت عدة مدن في نوع من التحالف . لكن السنن الدينية احتلت ، هنا أيضاً ، مكاناً كبيراً . كما أنه كان للمدينة موقدها في بيت النار فقد كان للمدن المجتمعة موقدها المشترك (١) . كان للمدينة أبطالها ومعبوداتها المدنية وأعيادها ، كذلك كان للحلف معبده وإله واحتفالاته وأعياده التذكارية ومن مميزات الأكلات الدينية والألعاب المقدسة .

كان لمجموعة المستعمرات الإثنى عشرة اليونية في آسيا الصغرى معبدها المشترك الذي كان يسمى پانيونيوم (Panionium) (٢) . وكان مقدساً لپوسيدون الهليكوني (Poseidôn Héliconien) الذي كان يمجده هؤلاء الناس أنفسهم في الپيلوپونيز قبل هجرتهم (٣) . كانوا يجتمعون كل عام في هذا المكان المقدس ليحتفلوا بالعيد المسمى پانيونيا (Panionia) ؛ وكانوا يقدمون قرباناً ويقسمون الأطعمة المقدسة جماعة (٤) . وكان للمدن الدورية في آسيا معبدها المشترك في رأس تريوبيوم (Triopium) . وكان هذا المعبد مهدياً إلى أبولون وپوسيدون وكانوا يحتفلون فيه في الأيام التذكارية بالألعاب التريبوية (٥) .

(١) *Ἔστιν κοινὴ τῶν Ἀρκάδων* بوسانياس ٨ : ٥٣ .

(٢) هيرودوت ١ : ١٤٣ .

(٣) استرابون ٨ : ٧ : ٢ .

(٤) Hérodote, I, 148: *Συλλεγόμενοι Ἴωνες ἄγεσκον ὁρτὴν, τῇ ἔθεντο οὖνομα Πανιώνια*. Strabon, XIV, I, 20: *Πανιώνια, κοινὴ πανήγυρις*

— ديودوروس ١٥ : ٤٩ .

(٥) هيرودوت ١ : ١٤٤ . أرستيديس الميليتي في

Fragmenta hist. graec., éd. Didot, t. IV, p. 324

وفي القارة الإغريقية كان لمجموع المدن البيئوتية (béotiennes) معبدها، معبد أثينايا إيتونيا (Athenée Itonia) (١) وأعيادها السنوية: پامبيوتيا (Pamboeotia) وكان للمدن الأخيوية (achéennes) قرايينها المشتركة في إغيوم (Aegium) وكانت تقدم عبادة لديمتر پاناخيا (Déméter Panachaea) (٢).

يلوح أن كلمة أمفيكتيونيا (amphictyonie) كانت المصطلح العتيق الذي يدل على تجمع عدة مدن. فنذ العصور الأولى للإغريق كان هناك عدد لا بأس به من الأمفيكتيونيات، نعرف منها أمفيكتيونيات كالوريا (Calaurie) وديلوس (Delos) وثرموپيلاي (Thermopyles) ودلفوى. وكانت جزيرة كالوريا هي المركز الذي تتجمع فيه البلدان هرميون (Hermione) وإبيدوروس (Epidaure) وپراسيائي (Prasiès) ونوبليا (Nauplie) وإيغينا (Egine) وأثينا وأرخومينوس (Orchomène)؛ وكانت هذه المدن تقدم فيها قرباناً لا تساهم فيه أية جهة أخرى (٣). وكذلك كان في ديلوس حيث كانت الجزر المجاورة ترسل منذ زمن سحيق في القدم ممثلين لتقديم القرابين و فرق الموسيقى والألعاب احتفالاً بعيد أبولون (٤).

ولم تكن أمفيكتيونيا ثرموپيلاي، وهي معروفة في التاريخ أكثر من السابقة، من نوع يختلف عنها؛ وقد تكونت في الأصل من مدن متجاورة (٥)؛ وكان لها

(١) بوسانياس ٩ : ٣٤ .

(٢) شرحه ٧ : ٢٤ .

(٣) استرابون ٨ : ٦ : ١٤ . حدثت تغييرات مع الزمن ، فأخذ أهالي أرغوس مكان نوبليا في الاحتفالات المقدسة ، واللايديمونيون مكان پراسيائي .

(٤) Thucydide, III, 104: "Ἦν δὲ τὸ πάλαι μεγάλη σύνοδος ἐς τὴν Ἀθῆναιαν τῶν Ἰωνῶν καὶ νησιωτῶν σὺν γυναιξὶ καὶ παισὶν ἐθεώρουν, καὶ ἀγῶν ἐποιεῖτο, χοροὺς τε ἀνηγόν αἱ πόλεις" أقامت أثينا هذه الأمفيكتيونيا من جديد في القرن الخامس ولكن بروح مختلفة إختلافاً كلياً .

(٥) عدد أيسخينيس (السفارة: ١١٦) الشعوب التي كانت تقسم حيازة المعبد *ἔθνη μετεχόντα τοῦ ἱεροῦ* وهي الشاليون (Thessaliens) والبيئوتيون (Béotiens) ودوريو (Doriens) المدن الأربع، واليونيون (Ioniens)، والبرهبيون (Perrhèbes)، والماغنيطيون (Magnètes)، والدولوب (Dolopes)، واللوكريون (Locriens)، والاتيون (Oetéens)، والفثيوتيون (Phthiotes)، والماليون (Maliens) والفوقيون (Phocéens)؛ وكانت أسطرطه فيها باعتبارها مستعمرة للدوريين، وأثينا كجزء من الشعب اليوني . انظر بوسانياس ١٠ : ٨ ؛ هارپوقراطيون تحت لفظ *Ἀμφικτύονες*

معبدها ، معبد ديمتر ، وقربانها وعيدها السنوى (١) .
لم تكن هناك أمفيكتيونيا ولا حلف من غير عبادة ، إذ أن نفس الفكرة التي هيمنت على تأسيس البلدان أنشأت أيضاً — كما يقول أحد القدماء — القرابين المشتركة بين عدة مدن . ولما كان الحوار والحاجة المتبادلة يقربان بينها فإنها كانت تحتفل بالأعياد الدينية ومجامع الأعياد (panéguries) جماعة . ومن الأكلة المقدسة ومن إراقة السوائل معاً نشأت صلة صداقة (٢) . وكانت المدن المتحالفة ترسل في الأيام التي تعينها الديانة بعض رجال تخلع عليهم مؤقتاً الصفة الكهنوتية وكانوا يسمونها ثيورو (théores) وپيلاغوروى (pylagores) وهيرومنيمونوى (hiéromnémons) ، وكانت تذبج أمامهم الأضحية تمجيداً لإله الجماعة وتقتسم اللحوم بعد طهيها على المذبح بين ممثلى المدن . وكانت هذه الأكلة المشتركة المصحوبة بالأناشيد والأدعية والألعاب هي علامة الجماعة ورابطتها .

إذا كانت وحدة الطائفة الإغريقية قد تجلت بوضوح في ذهن الإغريق فإنما كان ذلك على الأخص عن طريق الآلهة التي كانت مشتركة بينهم وعن طريق الاحتفالات المقدسة التي كانوا يحتشدون فيها ، فاتخذوا زوس پانهلينوس (Zeus Panhellenien) على نمط المعبودات المدنية . كانت الألعاب الأولمبية والبرزخية (isthmiques) والنمبية (néméens) والپيثية (pythiques) من الأيام الدينية الكبيرة التي قبل فيها جميع الإغريق شيئاً فشيئاً . كانت كل بلدة ترسل إليها وفدها ليساهم في قربان (٣) . وقد بقيت الوطنية الإغريقية زمناً طويلاً لا تعرف غير هذا الشكل الدينى . وقد ذكر ثوقيديديس الآلهة المشتركة بين الإغريق مراراً عديدة (٤) . وعندما استحلف أرسطوفانيس مواطنيه أن ينبذوا فتنهم الداخلية

Strabon, IX, 5, 17: Δήμητρος ἱερὸν ἐν ᾧ θυσίαν ἐτέλουν (١)
οἱ ἀμφικτύονες

(٢) شرحه ٩ : ٣ : ٦ . ظن ميينيكه (Meineke) أن هذه الفقرة مضافة وحذفها من طبعته . ومن المؤكد أنها من مؤلف قديم ، ومن المحتمل جداً أن تكون من استرابون . هذا وقد عبر عن نفس الفكرة أيضاً ديونيسيوس الهاليكارناسى ٤ : ٢٥ .

(٣) Platon, Lois, XII, p. 950: Θεωρούνς... Πυθώδε τῷ Ἀπόλλωνι (٣)
καὶ εἰς Ὀλυμπίαν Δίη καὶ εἰς Νεμέαν καὶ εἰς Ἰσθμόν χρηὴ πέμπειν,
κοινωνοῦντας θυσιῶν καὶ ἀγῶνων τοῦτοις τοῖς θεοῖς.

Τὰ ἱερὰ τὰ κοινὰ τῆς Ἑλλάδος (Thucyd., III, 58). Θεοὶ ὁμοβῶμοι (٤)
καὶ κοινοὶ τῶν Ἑλλήνων (Id., III, 59; V, 18).

قال لهم: «أنتم الذين تروون المذابح في أولمبيا وثرموبيلاي ودلفوى بماء نثار واحد ، لا تمزقوا بلاد الإغريق بمنازعاتكم لكن اتحدوا ضد الأجانب» (١) كانت هذه الأمفيكتيونيات وهذه الأحلاف ضئيلة الأثر السياسى . وإنها لغلطة كبيرة أن نتصور وفود (theories) ثرموبيلاي وپانيونيوم وأولمبيا كموتمر أو مجلس شيوخ اتحادى . وإذا كان الأمر ينتهى في بعض الأحيان بهولاء الرجال إلى الاهتمام بمصالح الاتحادات المادية والسياسية فإنما كان ذلك على سبيل الاستثناء وتحت سيطرة ظروف خاصة . بل إن هذه الأمفيكتيونيات لم تكن لتحول دون محاربة أعضائها بعضهم بعضاً ؛ ولم تكن اختصاصاتها النظامية هي المداولة في المصالح بل تمجيد الآلهة والقيام بالاحتفالات والمحافظة على الهدنة المقدسة زمن الأعياد ؛ فإذا كانت الوفود تقيم نفسها محكمة وتنزل عقاباً بإحدى بلدان الاتحاد فإنما يكون ذلك لأن هذا البلد أهمل بعض الواجبات الدينية أو لأنه اغتصب أرضاً ما مخصصة للمعبد (٢) .

كانت تسيطر في إيطاليا أنظمة مشابهة . فكانت لبلدان اللاتيوم الألعاب اللاتينية (féries latines) . وكان ممثلوها يجتمعون في كل عام في محراب جوبيتر لاتياريس (Jupiter Latiaris) على جبل ألبا (mont Albain) . وكانوا يضحون بثور أبيض يقسم لحمه أجزاء بقدر ما كان هناك من مدن متحالفة (٣) . وكذلك كان للبلدان الإثنى عشرة في إتروريا معبدها المشترك وعيدها السنوى وألعابها التى كان يرأسها كاهن كبير (٤) .

(١) أرسطوفانيس : ليسيستراتا *Lysistrata* البيت ١١٣ وما بعده .

(٢) لم تهتم الأمفيكتيونيات بالمصالح السياسية إلا فيما بعد وفي عهد فيليبوس المقدونى

(٣) Denys, IV, 49: "Ἰνα συνερχόμενοι πανηγυρίζωσι καὶ ἐστιῶνται καὶ κοινῶν ἱερῶν μεταλαμβάνωσι. Varron, VI, 25: *Latinae feriae, a Latinis Populis quibus ex sacris carnem petere jus fuit cum Romanis.* Pline, H. n., III, 9, 69: *Cum his carnem in monte Albano soliti accipere populi.* Cf. Tite-Live, XLI, 16. Denys, IV, 49: "Ἐνὸς ταύρου κοινῶς ὑπὸ πασῶν θυομένου, μέρος ἐκάστη τὸ τεταγμένον λαμβάνει.

(٤) تيتوس ليفيوس ٥ : ١

من المعروف أن الإغريق والرومان لم يكونوا يباشرون الاستعمار بنفس الطريقة التي يتبعها المحدثون . فلم تكن المستعمرة تابعة للدولة المستعمرة أو ملحقة بها ، بل كانت هي ذاتها دولة مستقلة . بيد أنه كان بين المستعمرة والأم رابطة من نوع خاص ، ومرجع ذلك إلى الطريقة التي تأسست بها كل مستعمرة .

يجب ألا نعتقد، في الواقع ، أن المستعمرة كانت تتكون بالمصادفة وطبقاً لهوى عدد معين من المهاجرين . فلم يكن في استطاعة جيش من المغامرين أن يؤسس بلدة ما ، ولم يكن من حقه ، في اعتقاد القدماء ، أن ينظم نفسه في هيئة مدنية . وكانت هناك قواعد لا بد من السير عليها . والشرط الأول هو ، قبل كل شيء ، حيازة النار المقدسة ؛ والثاني استصحاب شخص ذي أهلية للقيام بشعائر التأسيس . وكان المهاجرون يطلبون كل ذلك من الأم . كانوا يأخذون النار المقدسة من موقدها (١) ، ويأخذون معهم مؤسساً يجب أن ينتمي إلى إحدى الأسرات المقدسة في المدينة (٢) . وكان هذا الأخير يقوم بتأسيس البلدة الجديدة طبقاً لنفس الشعائر التي عملت فيما مضى للبلدة التي خرج منها (٣) . وكانت النار المقدسة تقيم بين البلدين رابطة أبدية من الدين والقربا . والبلدة التي قدمتها كانت تسمى المدينة الأم (٤) ؛ والتي تسلمتها كانت بالنسبة لها في مركز البنت (٥) . وإذا كان لنفس البلدة مستعمرتان كانتا تسميان مدينتين أختين (٦) .

-
- (١) *Etymologicum magnum*, v° Πρωταρχία . هيرودوت ١ : ١٣٦ .
 (٢) هيرودوت ١ : ١٤٦ ؛ ثوقيديديس ١ : ٢٤ ؛ ٦ : ٣ - ٥ ؛ ديودوروس ٥ : ٥٣ ، ٥٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ؛ بلوتارخوس : تيموليون .
 (٣) ثوقيديديس ٣ : ٣٤ ؛ ٦ : ٤ . فارون : اللسان اللاتيني ٥ : ١٤٣ : *Coloniae nostrae item conditae ut Roma* .
 (٤) يسمى هيرودوت (٧ : ٥١ ؛ ٨ : ٢٢) الأثينيين أباء اليونانيين .
 (٥) عبر القدماء عن هذه الفكرة مراراً : بوليبيوس ١٢ : ١٠ ؛ ديونيسيوس ٣ : ٧ ؛ تيتوس ليفيوس ٢٧ : ٩ ؛ أفلاطون : القوانين ٦ ؛ ثوقيديديس ١ : ٣٨ .
 (٦) بوليبيوس ٢٢ : ٧ : ١١ . بلوتارخوس : تيموليون ١٥ .

كانت عبادة المستعمرة هي ذات عبادة الأم (١) ؛ وكان في استطاعتها أن يكون لها بعض آلهة خاصة ولكن كان يتحتم عليها أن تحتفظ بالمعبودات المدنية للبلدة التي جاءت منها وأن تمجدها . فكانت المدن اليونانية الإثنتى عشرة في آسيا الصغرى تعتبر مستعمرات أثينية لأنها كانت مكونة من أثينيين بل لأنهم كانوا قد أخذوا معهم ناراً من بيت نار (پريتانيون) أثينا واستصحبوا مؤسسين أثينيين ، وكانت تؤدي عبادة لمعبودات أثينا وتحتفل بأعيادها (٢) ، وترسل لها كل عام قرابين ووفودا (théories) (٣) . وهكذا كانت تفعل مستعمرات قورنثه وناكسوس (٤) . وكذلك كانت روما ، باعتبارها مستعمرة لألبا وعن طريق هذه مستعمرة للافينيوم ، تقدم كل عام قرباناً على جبل ألبا وترسل أضيأى إلى لافينيوم حيث كانت آلهتها المنزلية (پناتس) (٥) . بل لقد كان العرف القديم عند الإغريق أن تتلقى المستعمرة من الأم الأحبار الذين كانوا يرأسون عبادتها ويسهرون على المحافظة على شعائرها (٦) .

ظلت هذه الروابط الدينية بين المستعمرات والأم قوية جداً حتى القرن الخامس قبل الميلاد . أما عن الرابطة السياسية فقد بقى القدماء زمناً طويلاً دون أن يفكروا في إقامتها (٧) .

(١) ثوقيديديس ٦ : ٤ ؛ بوليبيوس ٩ : ٧ ؛ استرابون ٤ : ١ : ٤

(٢) هيرودوت ١ : ١٤٧ ؛ ٧ : ٩٥

(٣) ثوقيديديس ١ : ٢٥ ؛ شارح أرسطوفانيس : السحب ٣٨٥ ؛ إيسوقراط : مجامع الأعياد (Panegyrique) ٧ : ٣١ .

(٤) ديودوروس ١٢ : ٣٠ ؛ ثوقيديديس ٦ : ٣

(٥) فارون : اللسان اللاتيني ٥ : ١٤٤ ؛ ديونيسيوس ٢ : ٥٢ ؛ بلوتارخوس كوربولانوس ٢٨ .

(٦) شارح ثوقيديديس ١ : ٢٥ : *Eθος ην ἀρχιέρας ἐκ μητροπόλεως λαμβάνειν*

(٧) لم تتكون هذه الرابطة السياسية، التي حاولتها قورنثه بعض الشيء (ثوقيديديس ١ : ٥٦) ، تكويناً حقيقياً إلا في الكليروخيات (clérouchies) الأثينية والمستعمرات الرومانية . وكلاهما من تاريخ حديث نسبياً وليس علينا أن نتكلم عنها هنا .

الفصل السابع عشر

الرومانى ، الأثينى

إن هذه الديانة ، التى أسست المجتمعات وحكمها أمداً طويلاً ، كونت كذلك النفس البشرية وأعطت للإنسان طابعه ؛ وبفضل تعاليمها وسننها جعلت للرومانى والإغريق طريقة خاصة فى التفكير والعمل وعادات معينة لم يستطيعوا التخلص منها إلا بعد زمن طويل . كانت تُرى الإنسان آلهة فى كل مكان ، آلهة صغيرة ، آلهة سريعة الغضب سيئة النية . كانت تسحق الإنسان بالخوف الدائم من أن يكون بعض الآلهة ناقماً عليه ، ولم تكن تترك له أية حرية فى أعماله .

يجب أن نرى أى مكان كانت تشغل الديانة فى حياة الرومانى . فقد كان منزله بالنسبة له كالمعبد بالنسبة لنا . ففيه كان يجد عبادته وآلهته : موقده إله ، والجدران والأبواب والعتبة آلهة ، وعلامات الحدود التى تحيط بحقله آلهة كذلك . القبر مذبوح وأسلافه كائنات إلهية .

كل عمل من أعماله اليومية شعيرة دينية . كل يوم ملك لدينه . يدعو موقده وآلهته المنزلية (پناتس) وأسلافه صباح مساء ؛ ويتقدم لهم بالدعاء عند خروجه من منزله وعند دخوله . كل أكلة عملية دينية يتقاسمها مع معبوداته المنزلية . الولادة ، وتلقين العبادة ، وارتداء الدثار (toge) لأول مرة ، والزواج ، والأعياد التذكارية لجميع هذه الحوادث ، كل هذه أعمال احتفالية من أعمال عبادته .

يخرج من داره ولا يكاد يخطو خطوة دون أن يقابله شيء مقدس : إما مصلى وإما مكان نزلت به صاعقة فيما مضى وإما قبر . فأحياناً يتحتم عليه أن ينكمش وأن يتأوى دعاء ؛ وأحياناً يجب أن يدير بصره وأن يغطى وجهه لكى يتجنب شيئاً مشؤوماً .

كل يوم يقرب قرباناً في منزله ، وكل شهر في ندوته ، وعدة مرات كل عام في فصيلته (gens) أو في قبيلته . وفوق جميع هذه الآلهة يجب عليه عبادة آلهة المدينة . لقد كان في روما من الآلهة أكثر ممن كان فيها من المواطنين .

يقدم بعض القرابين شكراً للآلهة ، ويقدم أخرى أكثر عدداً لتهديته سخيمتهم . وفي يوم من الأيام يظهر في موكب وهو يرقص على نغمة قديمة على صوت المزمار المقدس . وفي يوم آخر يقود مركبة ترقد فيها أصنام بعض المعبودات (١) . وفي مرة أخرى حفلة الاضطجاع (lectisternium) (٢) إذ توضع مائدة في أحد الشوارع محمية بالأطعمة وترقد تماثيل الآلهة على بعض الأسرة ويمر كل روماني وهو محني وعلى رأسه تاج وفي يده غصن غار (٣) .

لديه عيد للبذار وعيد للحصاد وثالث لشذب الكروم . وقبل أن يستوى القمح سنابل يكون قد قدم أكثر من عشرة قرابين ودعا عشرة من المعبودات الخاصة لنجاح محصوله . ولديه ، على الأخص ، أعياد للأموات كثيرة العدد لأنه يخشاهم (٤) . لا يخرج من داره قط دون أن ينظر إن كان هناك طائر منحوس الطالع . وهناك ألفاظ لا يحروء على التلفظ بها في حياته . وإن كان يرجو أملاً نقش أمنيته على لوحة يودعها عند أقدام تمثال إله ما (٥) .

(١) عن موكب الـ *tensae* انظر تيتوس ليفيوس ٥ : ٤١ ؛ سويتونيوس : فسبسيانوس ٥ . فستوس طبعة ميلر (Müller) ص ٣٦٤

(٢) مركبة من كلمة *lectus* يعني سرير وكلمة *sterno* يعني يمدد . - العرب

(٣) تيتوس ليفيوس ٣٤ : ٥٥ ؛ ٤٠ : ٣٧ ؛ بلينيوس ٣٢ : ٢ : ١٠

(٤) بلاوتوس : امفيريون ٢ : ٢ : ١٤٥ ؛ وصف أوفيدوس (الأعياد ٥ : ٤٢١ وما بعده) الشعائر المتبعة لطرد الأشباح ؛ يجب القيام عند منتصف الليل واجتياز المنزل حافي القدمين والطريقة بالأصابع الوسطى على الإبهام ووضع فول أسود في الفم ولفظه على الأرض مع إدارة الرأس قائلاً : « ها هو ما أعطيه ؛ بهذا الفول اقتدى نفسي » . تلتقط الأرواح الفول وتنصرف راضية . تلك هي الشعيرة العتيقة

(٥) جوفيناليس : قصائده التهكمية ١ : ٥٥ . وهو ما نجد دليلاً عليه أيضاً في صفائح الرصاص التي عثر عليها المسيو كارابانوس (Carapanos) في دلفوى

يستشير الآلهة في كل آونة ويريد أن يعرف إرادتهم . ويجد كل ما يعزم عليه في أحشاء الأضاحي وفي طيران الطيور وفي إرشادات الصاعقة (١) . يزعمه الإعلان عن مطر من الدم ، أو عن عجل يتكلم وترتعد لذلك فرائضه . ولا يستريح إلا عند ما يصلح احتفال للتكفير الأمر بينه وبين الآلهة (٢) .

لا يخرج من بيته إلا بالقدم النينى . ولا يقص شعره إلا عند تمام القمر ؛ ويحمل معه تماثم . وللوقاية من الحريق يغطي جدران منزله بكتابات سحرية . إنه يعرف عزائم لتوقى المرض وأخرى للشفاء منه ؛ لكن يجب تكرارها سبعا وعشرين مرة وأن يتفل في كل مرة بطريقة معينة (٣) .

إنه لا يتناقش في مجلس الشيوخ إذا لم تعط الأضاحي العلامات الموافقة على ذلك . ويفادر مجمع الشعب إذا سمع صوت فأرة . وينثني عن أشد خططه تصميمًا إذا لمح فألاً سيئاً أو قرع أذنه لفظ مشؤوم . إنه بلحسور في القتال لكن على شرط أن تضمن له الاستخارات الانتصارات .

هذا الرومانى الذى تقدمه هنا ليس هو الرجل الضعيف الروح ، الذى يجبسه البؤس والجهل في الخرافة . وإنما نتكلم عن البطريق ، عن الرجل الشريف ، القوى ، الثرى . هذا البطريق قد يكون دوراً محارباً ودوراً رجل دولة أو قنصلاً أو مزارعاً أو تاجراً ، لكنه كاهن وفكره شاخص إلى الآلهة في كل مكان

(١) سيسرون : التكهّن ١ : ٢ :

Nihil publice sine auspiciis nec domi nec militiae gerebatur.
Valère Maxime, II, 2, 1: *Apud antiquos, non solum publice, sed etiam privatim, nihil gerebatur sine auspicio prius sumpto.*

(٢) تيتوس ليفيوس ٢٤ : ١٠ : ٢٧ : ٤ : ٢٨ : ١١ وأخرى في مواضع متفرقة

(٣) انظر من بين الصيغ صيغة أعطائها كاتون (الفلاحة ١٦) وفارون (الفلاحة

٢ : ١ : ٣٧) . قارن بلينيوس : التاريخ الطبيعى ٢٨ : ٢ : ٥ - (٤ - ٢٣) . - يعاقب قانون اللوحات الإثنتى عشرة الرجل الذى ينقل المحاصيل في حقل آخر بطريق السحر *qui fruges excantassit.* (بلينيوس ٢٨ : ٢ : ١٧ : سرفيوس *ad Eclogas*

٨ : ٩٩ . قارن سيسرون : الجمهورية ٤ : ١٠ .

وعلى الدوام . يسيطر الخوف من الآفة على كل شيء عنده ، على الوطنية وحب المجد وحب الذهب مهما كانت هذه العواطف ذات سلطان على نفسه . قال هوراسيوس أصدق كلمة عن الروماني : إنه بخوفه من الآلهة أصبح سيد الأرض

Dis te minorem quod geris, imperas.

تيل إنها كانت ديانة سياسية . لكن هل في استطاعتنا أن نطن أن مجلس شيوخ مكوناً من ثلاثمائة عضو ، وأن هيئة من ثلاثة آلاف بطريق تكاتفت بمثل هذا الإجماع على خداع الشعب الجاهل . وظل ذلك قروناً دون أن يرتفع في وقت ما صوت واحد، وسط هذا القدر الكبير من المنافسات والمنازعات والمكاشحات الشخصية ، ليقول : إن هذا لكذب . لو أن بطريقاً واحداً خان أسرار طائفته ، لو أنه اتجه نحو السوق الذين فرغ صبرهم من احتمال نير هذه الديانة وخلصهم فجأة من هذه الاستخارات وهذه الكهنوتات وحررهم منها أما كان يحصل هذا الرجل فوراً على تقدير يجعله سيد الدولة ؟ أيعتقد أحد ، لو أن البطارقة لم يكونوا مؤمنين بالديانة التي كانوا يمارسونها ، أن هذه الشهوة لم تكن من القوة بحيث تجعل واحداً منهم على الأقل يكشف عن السر ؟ إن الإنسان ليخدع نفسه عن الطبيعة البشرية خداعاً خطيراً لو ظن أن ديانة ما تستطيع أن تقوم على اتفاق وأن تستند إلى الدجل . ولنحسب في قيتوس ليقوس كم مرة ضايقته هذه الديانة البطارقة أنفسهم ، كم مرة حيرت مجلس الشيوخ وعاقبت عمله ثم لنقل إن كانت هذه الديانة قد اخترعت لإراحة السياسيين . بدعوا في عصر سيسرون فقط يعتقدون أن الديانة نافعة للدولة ، لكن الديانة كانت قد ماتت في النفوس .

لنأخذ رومانياً من القرون الأولى ؛ ولنختار واحداً من أكبر المحاربين ، كاميلوس ، الذي كان ديكتاتوراً خمس مرات والذي انتصر في أكثر من عشر مواقع . ربما كان يجب في الحقيقة أن نتصوره كاهناً بقدر ما نتصوره محارباً . إنه ينتمي للفصيلة فوريا (*gens Furia*) واسمه لفظ يدل على وظيفة كهنوتية (١)؛

(١) *camillus* باللاتينية معناه صبي الكاهن أى الصبي الذي يساعده في القيام بأعماله الدينية وعلى الأخص كاهن جويتر. ومن معانيها الصبي أى الغلام الصغير ويقصد المؤلف المعنى الأول . - العرب .

الْبَسُوهُ وهو طفل الرداء *prétexte* (١) الذي يدل على طبقته والتميمة (*bulle*) (٢) التي تبعد طوالع السوء ، نَمَى وهو يشهد كل يوم احتفالات العبادة ، وقضى شبابه وهو يتعلم شعائر الدين . حقاً إن حرباً تأججت نيرانها وأن الكاهن أصبح جندياً ؛ وقد رَوَى ، وهو مجروح في فخذه في معركة للفرسان ، ينزع السلاح من الجرح ويستمر في القتال . وبعد عدة حملات رفع إلى مناصب الدولة ، وباعتباره من رجال الدولة قدم القرايين العامة ، وتولى القضاء ، وتأمر على الجيش . وجاء يوم فكروا فيه للكتاتورية . في ذلك اليوم اختلى رجل الدولة العامل في ليلة صافية واستشار الآلهة ، وفكره ملازم لكاميلوس الذي كان يتلو اسمه بصوت خافت وعيناه شاخصتان نحو السماء تبحثان عن الآيات المنبئة . فلم ترسل الآلهة إلا آيات حسنة ؛ ذلك لأنها راضية عن كاميلوس ، فعين دكتاتوراً .

ها هو ذا رئيس للجيش ؛ يخرج من المدينة دون أن تفوته استشارة الاستشارات والتضحية بعدد كبير من الأضاحي . تحت إمرته الكثير من الضباط وبقدرهم تقريباً من الكهنة وحبر ومستخبرون بالطيور ومستخبرون بالأحشاء وعرافو الدجاج (*pullaires*) ومضحون (*victimaires*) وحامل للموقد .

كان مكلفاً بوضع نهاية للحرب ضد فييس (*Veii*) التي كانوا يحاصرونها منذ تسع سنوات على غير جدوى . وفييس بلدة أتروسكية أي تكاد تكون بلدة مقدسة ؛ ويجب القتال بالورع أكثر مما يجب بالشجاعة . وإذا كان الرومان قد ظلوا تسع سنوات مغلوبين على أمرهم فما ذلك إلا لأن الأتروسك أعرف منهم بالشعائر التي ترضى عنها الآلهة ، والعزائم السحرية التي تكسب عطفهم ، وفتحت روما من جانبها الكتب السبيلية (*livres Sibyllins*) (٣) وبحث فيها عن إرادة

(١) باللاتينية *praetexta* وهو اسم رداء أبيض بجافات أرجوانية كان يلبسه كبار رجال الدولة كما كان يلبسه الأطفال من الأشراف على الأقل إلى السابعة عشرة وعندها يخلع هذا الرداء وينذر للآلهة المنزليين ويلبس الدثار . (*toga*) - العرب .

(٢) باللاتينية *bullae aureae* أو *bullae* ومعناها العلبة المستديرة وهي علبة يعلقها الصبي من رقبته وتتدلى على صدره ويدخلها التأمم وعند السابعة عشرة يخلع هذه العلبة وينذر للآلهة المنزليين - العرب .

(٣) الكتب السبيلية نسبة إلى الكاهنة (*Sibylla*) التي كتبتها وهي كاهنة إيرثريا وقد باعتهما لأحد ملوك روما . وهي تشبه إلى حد ما الجفر المذكور في بعض الروايات الإسلامية وهو كتاب به ما كان وما يكون منذ الأزل إلى آخر الدهور . - العرب .

الآلهة. فتبينت أن احتفالاتها اللاتينية (feries latines) دنسها عيب في الشكليات، فجددت القربان. بيد أنه ما زالت الغلبة للأتروسك. فلم تبق إلا وسيلة واحدة هي اختطاف كاهن أتروسكى ومعرفة أسرار الآلهة منه. فقبضوا على كاهن من أهل فييس وأحضروه إلى مجلس الشيوخ فقال «لكى تتغلب روما يجب عليها أن تخفض مستوى بحيرة ألبا مع الاحتراز من جعل مأها يسيل في البحر فامثلت روما وحفرت عدداً لا نهاية له من الخلجان والقنوات وتبدد ماء البحيرة في البرية.

وفي هذه اللحظة أنتخب كاميلوس دكتاتوراً. فتوجه إلى الجيش على مقربة من فييس وهو واثق من النجاح، إذ أن جميع أنواع الوحي قد كشف عنها وكل أوامر الآلهة قد نفذت. فضلاً عن أنه قبل أن يغادر روما كان قد وعد الآلهة الحماية بأعياد وقرايين؛ ولضمان النصر لم يهمل الوسائل البشرية؛ فزاد في عدد الجيش ووثق النظام وأمر بحفر سرداب تحت الأرض لينفذ منه إلى القلعة؛ جاء يوم الهجوم؛ خرج كاميلوس من خيمته وعمل الاستخارة وضحي بالأضاحي. وقد أحاط به الأحبار والمتكهنون؛ ودعى الآلهة وهو يرتدى *paludamentum* (١)؛ «بقيادتك يا أبولون، وبارادتك التي تلهمنى، أسير للاستيلاء على بلدة فييس وتدميرها؛ وأعدك وأنذر لك عشر الغنيمة إذا انتصرت»، لكنه لا يكفى أن تكون الآلهة معه فللعدو أيضاً معبود قوى يحميه. فدعاه كاميلوس بهذا الدعاء: «چونون، أيتها الملكة التي تسكن الآن في فييس أتوسل إليك، تعالى معنا نحن المنتصرين؛ اتبعينا إلى بلدتنا وتقبلي عبادتنا، ولتصبح بلدتنا بلدتك». ثم بعد تقديم القرايين والدعاء والأدعية وتلاوة العزائم، وعند ما أصبح الرومان واثقين من أن الآلهة في صفهم وأنه لم يعد هناك إله واحد يدافع عن العدو، أعطى الأمر بالهجوم واستولى على البلدة.

ذلك هو كاميلوس، القائد الرومانى، رجل يعرف كيف يحارب بإبداع

(١) هو العباءة الخاصة التي كان يلبسها القائد - المعرب

ويعرف، على الأخص، فن إخضاع الناس لطاعته لسكنه يؤمن إيماناً راسخاً بالآيات المنبئة ويقوم كل يوم بمناسك دينية ؛ وهو مقتنع أن ما بهم أكثر من سواه ليست هي الشجاعة بل ولا النظام وإنما هو منطوق بعض عزائم تتلى بدقة طبقاً للشعائر . وهذه العزائم إذا وجهت للآلهة تحتم عليها وتكاد ترغمها دائماً على منحه النصر . واسمى مكافأة لمثل هذا القائد هي أن يسمح له مجلس الشيوخ بتقديم قربان النصر . وعندئذ يركب المركبة المقدسة التي تجرها أربعة خيول بيضاء وهي ذاتها التي تجر تمثال چوبيتر يوم الموكب الكبير ، ويرتدى رداء مقدساً هو بذاته الذي ترتديه الآلهة أيام الأعياد ، وعلى رأسه تاج ، ويده اليمنى قابضة على غصن غار ، واليسرى على صولجان من العاج . وهي بالضبط الشارات والملبس الذي يلبسه تمثال چوبيتر (١) . وبهذه الجلالة التي تكاد تكون إلهية يطلع على مواطنيه ويذهب لتقديم تعظيمه للجلالة الحقيقية، جلالة أكبر الآلهة الرومانيين . فيتسلق سفح السكايتوليوم وعند ما يصل إلى معبد چوبيتر يضحى بالأضاحي .

لم تكن مخافة الآلهة عاطفة خاصة بالروماني. بل كانت تسيطر كذلك على قاب الإغريق . فإن هذه الشعوب التي كونتها الديانة في البدء ، وغذتها، وربتها ، قد حافظت ردهاً طويلاً على سمة تريبتها الأولى . وإنا لنعرف تأثم الإسرطى الذي لم يكن يبدأ غزوة قط قبل أن يبلغ البدر تمامه (٢) ، ولا ينفك يضحى

Tite-Live, V, 23: *Curru albis equis juncto. . . Jovis Solisque* (١)
equis. Id., X, 7: *Qui Jovis Optimi Maximi ornatu decoratus, curru curato vectus in Capitolium.* Pline, H.N., XXXIII, 7, 36: *Jovis simulacri faciem minio inlini solitum triumphantiumque corpora.*

ديونيسيوس ٢: ٣٤؛ ٥: ٤٧. أبيانوس: الحروب البونية ٦٦. قارن جوفيناليس ١٠ :

In tunica Jovis . : ٣٨

(٢) هيرودوت ٦: ١٠٦ : «عندما جاء الخبر بنزول الفرس إلى الشاطئ راق للاسبرطيين أن ينجدوا الأثينيين ؛ لكنه تعذر عليهم أن ينجدوهم فوراً ؛ ولم يريدوا أن يتعدوا القاعدة (τὸν νόμον القاعدة الدينية) وقالوا إنهم لن يبدءوا الحملة إلا اليوم الذي يبلغ فيه البدر تمامه » . ولم يقل المؤرخ إنه كان مجرد تنصل . ويجب علينا أن نحكم على القدماء وفقاً لأفكارهم لا أفكارنا .

بالأضاحى ليعرف ما إذا كان قد حان وقت القتال ، وينثنى عن أحسن الحطط تدبيراً وأكثرها لزوماً لأن نبؤة سيئة تفزعه . ويفترق الأثينى عن الرومان والإسبرطى بألف صفة من صفات الخلق والروح ، لكنه يماثلهم فى مخافة الآلهة ، فلا يدخل جيش أثينى فى غزوة قبل اليوم السابع من الشهر ، وعند ما يهجم أسطول بالإبحار يعنون كل العناية بإعادة تذهيب أصنام پالاس (Pallas) . يؤكد اكسينوفون أن للأثينيين من الأعياد الدينية أكثر مما لأى شعب إغريق آخر (١) . ويقول أرسطوفانيس (٢) : « ما أكثر الأضاحى ، المقدمة للآلهة ! وما أكثر المعابد ! وما أكثر الأصنام ! وما أكثر المواكب المقدسة ! فى كل لحظة من السنة ترى ولائم دينية وأضاحى متوجة » . ويقول أفلاطون : « نحن الذين نقدم أكثر القرابين عدداً ونعمل للآلهة أكثر المواكب بهاء وقداسة » (٣) . وتكتسى بلدة أثينا وإقليمها بالمعابد والمحاريب . فمنها ما هو لعبادة المدينة ومنها ما هو لعبادة القبائل والأحياء (dèmes) ومنها ما هو لعبادة الأسرة . وكل بيت هو ذاته معبد ، ويكاد كل حقل أن يكون فيه قبر مقدس .

والأثينى الذى يتصورونه مفرطاً فى القلب والأهواء والتحلل فى الفكر يشعر ، على العكس ، باحترام فريد للسنن القديمة والشعائر القديمة ؛ وديانته الرئيسية التى تنال من لدنه أشد أنواع الحماس الدينى هى ديانة الأسلاف والأبطال ، إنه يعبد الموتى ويخشاهم . ويلزمه أحد قوانينه بأن يقدم لهم كل عام بواكير محصوله ؛ ويحرم عليه قانون آخر أن يتلفظ بكلمة واحدة من شأنها أن تثير نقمهم (٤) . وكل ما يمس العصور العتيقة مقدس عند الأثينى ؛ وعنده

(١) اكسينوفون : الجمهورية الأثينية ٣ : ٢ . يقول صوفوكليس إن أثينا هى أتنى المدن (أويديوس : فى كولونا ١٠٠٧) ويلاحظ بوسانياس (١ : ٢٤) أن الأثينيين كانوا أكثر تنبهاً من الشعوب الأخرى فيما يختص بعبادة الآلهة .

(٢) أرسطوفانيس : السحاب ٣٠٥ - ٣٠٩ .

(٣) أفلاطون : القبياديس ٢ ص ١٤٨ .

(٤) بلوتارخوس : صولون ٢١

مجموعات قديمة دوت فيها شعائرها ولا يتحول عنها قط (١). وإذا ما أدخل كاهن أقل تجديد في العبادة فإنه يعاقب بالموت . وتراعى أشد الشعائر غرابة من قرن إلى قرن . ففي يوم معين من السنة يقدم الأثيني قرباناً تمجيداً لأريادنه (Ariane) (٢) ، وبما أنه يقال إن عشيقة ثيسيوس قد ماتت أثناء الوضع فمن المحتم تمثيل صبيحات امرأة تعاني الوضع وحركاتها . ويحتفل بعيد سنوى آخر يسمى أوسخوفوريا (Oschophories) (٣) وهو بمثابة تمثيل صامت لعودة ثيسيوس إلى أتيكا ؛ فيتوجون صولجان المنادى لأن منادى ثيسيوس توج صولجانه ؛ ويصبحون صبيحة معينة يظنون أن المنادى صاحبها ؛ وينظم موكب يرتدى فيه كل فرد الرداء الذى كان يستعمل في عهد ثيسيوس . وهناك يوم آخر كان لا يفوت الأثيني أن يسلق فيه بقولا في قدر ذات شكل معين ، وهى شعيرة يتوارى أصلها في زمن عتيق جداً ولم يعودوا يعرفون مغزاها لكنهم كانوا يجددونها بورع كل عام (٤).

وللأثيني كما للرومان أيام نحس ؛ ففي تلك الأيام لا يقع زواج ولا يُشرع في أى عمل ولا يجتمع مجلس ولا تعقد المحاكم . ويخصص اليومان الثامن عشر والتاسع عشر من كل شهر للتطهر . وفي يوم الهلنتيريا (Plynteries) (٥) ،

(١) انظر ما يقوله إيسوقراط (Aréopagitique, 29-30) عن وفاء الأسلاف للشعائر القديمة . قارن ليسيلاس : ضد نيقوماخوس ١٩ : *Tà êk τῶν κυρβεων θύοντες* ؛ ويذكر ديموستينيس أيضاً المبدأ القديم الذى يحتم أن تقدم القرابين طبقاً لشعائر القدماء دون أن يحذف منها شيء أو يحدد شيء (ضد نيبيرا ٧٥) .

(٢) هى فى الأسطورة ابنة مينوس ملك جزيرة إقريطيش وقد عشقت ثيسيوس وأعطته حبلاً مده في التيه الذى كان بناء أبوها وبذلك عرف كيف يخرج من التيه بعد أن قتل الثور المفترس (minotaure) الذى كان سيكون طعمة له . وقد تركها في جزيرة ناكسوس وألقت بنفسها من فوق صخرة في البحر - المغرب .

(٣) مكوونة من «أوسخوس» يعنى غصن و«فوريا» يعنى حمل وهو عيد كانوا يحملون فيه أغصان الكروم محملة بعناقيد العنب . - المغرب

(٤) بلوتارخوس : ثيسيوس ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٥) ومعناها عيد الغسيل لأنهم كانوا يغسلون فيه أودية أثينايا - المغرب .

وهو أنحس الأيام جميعاً، يضعون الحجاب على صنم المعبودة المدنية الكبرى (١). وعلى عكس ذلك يوم الباناثينايا (Panathénéas)، يحمل حجاب الإلهة في موكب عظيم ويحيط به جميع المواطنين بلا تفرق لسن أو مكانة. ويقدم الأثيني قرباناً من أجل المحاصيل، وقرابين لعودة المطر وعودة الصحو، ويقدم قرابين لشفاء الأمراض وطردها المجاعة والطاعون.

ولأثينا مجموعات وحيها القديم، كما أن لروما كتبها السيبلية، وتطعم في بيت النار (بريتانيون) رجالاً ينبثونها بالمستقبل (٢). وفي شوارعها تقابل في كل خطوة متكهنين وكهنة ومفسري أحلام (٣)، ويعتقد الأثيني في الفأل فيوقفه العطاس أو طنين الأذن فيما شرع فيه (٤)، ولا ينزل في سفينة قط دون أن يستنبيء الاستخارات (٥). ولا يفوته أن يستوحى طيران الطيور قبل أن يتزوج (٦). ويؤمن بالأقوال السحرية، وإذا مرض وضع تماثم حول عنقه (٧). ويتفرق مجمع الشعب إذا ما أكد أحدهم أنه ظهرت في السماء آية نحس (٨). وإذا اختل القربان لإعلان خبر سيء وجبت إعادته (٩). لا يبدأ الأثيني حملة دون أن يدعو الحظ السعيد أولاً (١٠). وعلى المنبر

- (١) Platon, *Lois*, VII, p.800: "Ἡμέραι μὴ καθαρὰ ἀλλ' ἀπόφραδες".
 فيلوخوروس القطعة ١٨٣. أكسينوفون: الهلينييات ١ : ٤ : ١٢ .
 (٢) أرسطوفانيس: السلم ١٠٨٤ .
 (٣) ثوقيدديدس ٢ : ٨ . ويتكلم أفلاطون أيضاً «عن المضحين المتقلبين والمتكهنين الذين يحاصرون أبواب الأغنياء» (السياسة ٢)
 (٤) أرسطوفانيس وشارحه: الطيور ٧٢١ . أوريبديدس: يون ١١٨٩ .
 (٥) أرسطوفانيس: الطيور ٥٩٦ .
 (٦) أرسطوفانيس: الطيور ٧١٨ . أكسينوفون: ذكريات ١ : ١ : ٣ «يعتقلون في الكهانة ويستنبئون» الطيور والأصوات والعلامات وأحشاء الأضاحي . ويؤكد أكسينوفون أن سقراط كان يعتقد في الفأل ويوصي بدراسة الكهانة (شرحه ١ : ١ : ٦ : ٤ : ٧ : ١٠) . وكان هو ذاته يعتقد اعتقاداً كبيراً في الخرافة ؛ وكان يؤمن بالأحلام (أناباسيس ٣ : ١ : ٤ : ٣) ؛ وكان يستخير أحشاء الأضاحي (شرحه ٤ : ٣) وكان يحيط به المتكهنون (شرحه ٥ : ٢ : ٩ : ٦ : ٤ : ١٣) . أنظر في الأناباسيس ٣ : ٢ مشهد العطاس .
 (٧) أمدنا بلوتارخوس بهذه النقطة التفصيلية أثناء كلامه عن بريكليس نفسه (بلوتارخوس: بريكليس ٣٧ ، نقلاً عن ثيوفراستوس) .
 (٨) أرسطوفانيس: الاخارنيون (Acharniens) ١٧١ .
 (٩) بلوتارخوس: ثيسيوس ٢٢ .
 (١٠) أرسطوفانيس: الطيور ٤٣٦ .

يوثر الخطيب أن يبدأ بدعاء للآلهة والأبطال الذين يسكنون الإقليم . ويقودون الشعب بتلاوة الوحي له . ولكي يقوى الخطباء أراءهم كانوا يكررون في كل لحظة : هكذا أمرت الإلهة (١) .

ينتمي نيقياس (Nicias) إلى أسرة كبيرة ثرية . وفي ريعان شبابه قاد وفادة (théorie) إلى مقدس ديلوس : أي أصحاب فرقة لانشاد مدائح الإله أثناء القربان . وعندما عاد إلى أثينا كرم الآلهة بجزء من ثروته فأهدى تمثالا لأثينا ومحارباً لديونيسيوس . وهو تارة هستياتور (hestiateur) (٢) ويتحمل تكاليف الأكلة المقدسة لقبيلته ، وتارة مدير فرقة (chorège) ويقوم بمصاريف فرقة للأعياد الدينية . ولا يقضى يوماً دون أن يقدم قرباناً للإله ما . وله متكهن ملازم لبيته ولا يفارقه ، ويستشير في الأمور العامة كما يستشير في مصالحه الخاصة . وعندما عين قائداً قاد حملة ضد قورنث . وبينما هو عائد منتصر إلى أثينا تبين له أن إثنين من جنوده بقيا من غير دفن على أرض العدو؛ فتملكته وسوسة دينية : وأوقف أسطوله وأرسل منادياً يطلب إلى القورنثيين الإذن بدفن الجثتين ، وبعد ذلك بوقت قصير تنافس الشعب الأثيني في غزوة صقلية . فصعد نيقياس المنبر وأعلن أن كاهنه ومتكهنه يخبران عن آيات معارضة للغزوة . ومن الحق أنه كان عند القبيياديس متكهنون آخرون يرون وحياً على عكس ذلك المعنى . فتردد الشعب ، ثم وفد رجال جاؤوا من مصر ، كانوا قد استشاروا الإله امن (أمون) الذي بدأ يشهر جداً في ذلك الوقت ، واحضروا هذا الوحي : سيضع الأثينيون يدهم على كل أهالي سيراquose . وسرعان ما صمم الشعب على الحرب (٣) .

قاد نيقياس الغزوة بالرغم منه . وقبل أن يسافر قدم قرباناً طبقاً للمألوف واستصحب معه ، كما كان يفعل كل قائد ، جيشاً من المتكهنين والمضحين وأهل الاستخارات والمنادين . وحمل الأسطول موقده ؛ ولكل سفينة شارة تمثل إلها ما .

(١) ليكورغ : ضد ليوقراطيس ١ . أرسطوفانيس : الفرسان ٣٠٣ ، ٩٩٩ ، ١١٧١ ، ١١٧٩ .

(٢) الهستياتور هو المضيف أو الداعي إلى وليمة . وكان يطلق في أثينا على المواطن المكلف بتنظيم الأكلة المشتركة لقبيلته . - العرب .

(٣) بلوتارخوس : نيقياس ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٣ .

لكن نيقياس ضئيل الأمل . ألم ينبئ بالمصيبة عدد كاف من المعجزات ؛ فقد أتلّف بعض الغربان تمثالا لبلّاس : وتهشم رجل على مذبح ؛ وكان السفر في أيام البلينثيريا (Plyntéries) المنحوسة . يعلم نيقياس علم اليقين أن هذه الحرب ستكون قاضية عليه وعلى بلاده . لذلك كان يرى طول هذه الحملة خائفاً محترزاً على الدوام ؛ يكاد لا يجروّ قط على إعطاء إشارة القتال وهو الذي عرف بأنه جندي مقدام وقائد ماهر كل المهارة .

ليس في الاستطاعة الاستيلاء على سيراقوسه ، وبعد خسائر فادحة كان لا بد من تقرير العودة إلى أثينا . أعد نيقياس أسطوله للعودة وكان البحر لا يزال حراً لكن طراً خسوف للقمر فاستشار متكهنه وأجاب المتكهن أن النبوءة مضادة وأنه لا بد من الانتظار تسعة أيام ثلاث مرات ، أطاع نيقياس ؛ وبقي كل ذلك الوقت بلا عمل ، وهو يقدم الشيء الكثير من القرابين ليهدي غضب الآلهة . وفي خلال ذلك الوقت أوصد الأعداء المرفأ ودمروا أسطوله . لم يبق إلا التقهقر برأ . وهو أمر مستحيل . ولم ينجح من أيدي السيراقوسيين لا هو ولا أحد من جنوده .

ماذا قال الأثينيون عندما وصلهم خبر النكبة ؟ كانوا يعرفون شجاعة نيقياس الشخصية وثباته العجيب ؛ ولم يفكروا أيضاً في تأنيبه على اتباعه أوامر الديانة . ولم يجدوا إلا شيئاً واحداً يلومونه عليه وهو أنه استصحب متكهنأ جاهلاً إذ أن المتكهن أخطأ فيما ينبئ عنه خسوف القمر : كان عليه أن يعلم أن القمر الذي يخفى ضياءه هو فال موافق بالنسبة لجيش يريد أن يتقهقر (١) .

(١) بلوتارخوس : نيقياس ٢٣ . ثوقيدديدس ٦ و ٧ . ديودوروس ١٢ و ١٣ .

الفصل الثامن عشر

هيمنة الدولة : لم يعرف القدماء الحرية الفردية

أسست المدينة ديانة ونظمت كنيسة . ومن هنا قوتها ؛ ومن هنا أيضاً هيمنتها والسلطان المطلق الذي كان لها على أعضائها . فلم يكن من المستطاع أن توجد الحرية الفردية في مجتمع قائم على مثل هذه المبادئ . كان المواطن خاضعاً للمدينة في كل شيء وبدون أدنى تحفظ ؛ كان لها بأكملها . وكانت كل من الديانة التي ولدت الدولة ، والدولة التي ترعى الديانة ، تسند أحدهما الأخرى وهما شيء واحد ؛ وكانت هاتان السلطتان المتحدتان والممزجتان تولفان سلطة تكاد تكون فوق سلطة البشر ينزع لها الروح والجسد على السواء . لم يكن في الرجل شيء ما مستقل . فكان جسمه للدولة ووقفاً على الدفاع عنها ؛ كانت الخدمة العسكرية واجبة عليه في روما حتى السنة السادسة والأربعين من عمره ، وفي أثينا واسرطه طول حياته (١) ؛ وكانت ثروته تحت تصرف الدولة دائماً ؛ فإذا احتاجت المدينة للمال فإنها كانت تستطيع أن تأمر النساء بتسليمها جواهرهن ، والدائنين أن يتركوا لها ديونهم ، ومالكي أشجار الزيتون أن يتنازلوا لها مجاناً عن الزيت الذي عصفروه (٢) . لم تكن الحياة الخاصة بمنجاة من هذه الهيمنة من جانب الدولة . فكان الكثير من المدن الإغريقية يحرم على الإنسان أن يبقى أعزب (٣) ولم تكن اسرطة تقتصر

(١) ثوقيديدس ١ : ١٠٥ ؛ بلوتارخوس : فوقيون ٢٤ ؛ بوسانياس ١ : ٢٦ . -
اكسينوفون : الهلينييات ٦ : ٤ : ١٧
(٢) أرسطو : الاقتصاديات ٢ . يذكر المؤلف أمثلة عن بيزانطة وأثينا ولبسك
وهراقليا البونطية وخيوس وكلازومينا وإفسوس .

(٣) Pollux, III, 48: "Ἦσαν καὶ ἀγαμίου δίκαι πολλὰχοῦ, καὶ ὀνιγαμίου"
καὶ κακογαμίου ἐν Λακίεδαίμοσι Cf. VIII, 40: Γραφή ἀγαμίου
ليساندروس ٣٠ . - في روما قضى قرار من الرقباء بفرض غرامة على العزاب .
فاليريوس ماكسيموس ٢ : ٩ ؛ أولوس جيلوس ١ : ٦ ؛ ٢ : ١٥ . ويقول سيسرون
أيضاً (القوانين ٣ : ٣) : *Censores . . . coelibes esse prohibento*

على عقاب من لا يتزوج بل كانت تعاقب من يتزوج متأخراً ، كان في استطاعة الدولة في أثينا أن تفرض العمل ، وفي اسبرطه البطالة (١). وكانت تباشر استبدادها حتى في أنفه الأمور ؛ فكان القانون في لوكر (Locres) يحرم على الرجال شرب الخمر خالصاً ، وفي روما وفي ميليتوس وفي مرسيليا كان يحرم ذلك على النساء (٢). وكان من المعتاد بلا استثناء أن تحدد قوانين كل مدينة الملابس ؛ فكان تشريع اسبرطه ينظم لباس الرأس عند النساء ، وتشريع أثينا يحرم عليهن أن يحملن في السفر أكثر من ثلاثة جلايب (٣). وكان القانون في رودس يحرم حلق اللحية ، ويعاقب في بيزنطة بالغرامة من يحوز موسى ؛ وبالعكس كان يحتم في اسبرطه حلاقة الشارب (٤).

كان للدولة الحق في ألا تسمح بأن يكون مواطنوها مشوهين أو ممسوخين وبناء عليه كانت تأمر الوالد الذي يولد له ولد كهذا أن يميته . هذا القانون كان في المجموعة القديمة من قوانين اسبرطه وروما (٥) . ولا ندرى إن كان قد وجد في أثينا ، وإنما نعرف فقط أن أرسطو وأفلاطون قد دوناه في تشريعاتها المثالية . في تاريخ اسبرطه شيء أعجب به بلوتارخوس وروسو (Rousseau) إعجاباً كبيراً . عانت اسبرطه هزيمة في ليكترا (Leuctre) وهلك الكثيرون من مواطنيها . وعندما وصل هذا النبأ فرضوا على أهل الموتى أن يظهروا بين

(١) بلوتارخوس : ليكورغ ٢٤ . بوليدوكيس ٨ : ٤٢ . ثيوفراستوس (قطعة ٩٩)
(٢) أثيناوس ١٠ : ٣٣ . إيليانوس Elien قصص متنوعة ٢ : ٣٨ .
ثيوفراستوس (قطعة ١١٧) .

(٣) اكسينوفون : جمهورية اللاقيديمونيين ٧ . ثوقيديدس ١ : ٦ . بلوتارخوس
ليكورغ ٩ . هيراقليديس البنطي : قطع طبعة ديدوج ٢ ص ٢١١ . بلوتارخوس :
صولون ٣١ .

(٤) أثيناوس ١٣ : ١٨ . بلوتارخوس : كليومينيس ٩ . — بلوتارخوس :
كاتون ٢٣ : « لم يعتقد الرومان أنه من اللازم أن تترك لكل فرد الحرية في الزواج وفي
أن يكون له أطفال وأن يعيش على هواه وأن يولم الولائم ويتبع ذوقه دون أن يخضع
للتفتيش والمحاكمة » .

(٥) سيسرون : القوانين ٣ : ٨ . ديونيسيوس ٢ : ١٥ . بلوتارخوس :
ليكورغ ١٦ .

الجمهور بوجوه مرحة . فكانت الأم التي تعرف أن ابنها نجا من الكارثة وتوشك أن تراه تظهر الحزن وتبكي ، والتي كانت تعلم أنها لن ترى ابنها كانت تظهر السرور وتجوب المعابد شاكرة للآلهة . ماذا كانت إذن سلطة الدولة . هذه السلطة التي كانت تأمر بعكس ماتوحى به العواطف الطبيعية ومع ذلك فلها تطاع !

لم تكن الدولة تقبل أن يكون رجل ما غير مكترث بمصالحها؛ لم يكن للفيلسوف ، لرجل العلم ، الحق في العيش على حدة . فكان فرضاً عليه أن يصوت في المجمع وأن يكون رجل دولة في دوره . وفي وقت كانت فيه المنازعات كثيرة الحدوث لم يكن القانون الروماني يسمح للمواطن أن يبقى محايداً . بل كان عليه أن يناضل مع هذا الحزب أو ذاك . وكان القانون يحكم على من كان يريد البقاء متحياً عن الأحزاب، وأن يبدو هادئاً ، حكماً صارماً وهو الحرمان من حق المدينة (١) .

كانت التربية أبعد بكثير من أن تكون حرة عند الإغريق . بل على العكس ، ما من شيء كانت تتمسك الدولة بالسيادة عليه أكثر من التربية . فلم يكن للوالد في أسطره أي حق في تربية ولده . ويلوح أن القانون كان أقل صرامة في أثينا . ومع هذا كانت الدولة تتصرف بحيث تكون التربية مشتركة تحت إشراف أساتذة تختارهم هي . يرينا أرسطوفانيس في فقرة بليغة أطفال أثينا ذاهبين إلى مدرستهم ؛ فهم يسرون تحت المطر أو الثلج أو الشمس الساطعة في صفوف متراصة وموزعين حسب أحيائهم ؛ ويلوح أن هؤلاء الأطفال كانوا يفهمون منذ الآن أنهم يؤدون واجباً دينياً (٢) . كانت الدولة تريد أن تدير التربية هي دون سواها ، ويخبرنا أفلاطون بالباعث على هذا التحكم (٣) : ويجب ألا يكون للوالدين الخيار في إرسال أطفالهم أو عدم إرسالهم عند الأساتذة الذين اختارهم المدينة ، إذ أن الأطفال ليسوا لوالديهم بقدر ما هم للمدينة .

(١) بلوتارخوس : صولون ٢٠ .

(٢) أرسطوفانيس : السحاب ٩٦٠ - ٩٦٥ .

(٣) أفلاطون : القوانين ٧ .

كانت الدولة تعتبر جسم كل مواطن وروحه ملكاً لها؛ لذلك كانت تريد أن تهيب هذا الجسم وهذه الروح بحيث تستغلها خير استغلال . فكانت تعلمه الرياضة البدنية لأن جسم الرجل سلاح المدينة ، وكان لا بد أن يكون هذا السلاح أشد ما يستطيع قوة وطواعية . وكذلك كانت تعلمه الأغاني الدينية والأناشيد ، والرقصات الدينية لأن هذه المعرفة كانت لازمة لحسن القيام بالقرايين وبأعياد المدينة (١) .

وكانوا يعترفون للدولة بالحق في الحيلولة دون وجود تعليم حر يجوار تعليمها . أصدرت أثينا يوماً ما قانوناً يحرم تعليم الشبان دون إذن من رجال الدولة ، وآخر يحرم تعليم الفلسفة بصفة خاصة (٢) .

لم تكن للإنسان الخيرة في عقائده . فقد كان عليه أن يؤمن بديانة المدينة وأن يعنو لها . كان في الاستطاعة بغض آلهة المدينة المجاورة أو احتقارهم . أما المعبودات ذات الصفة العامة الكونية مثل جوبيتر السماوى أو سيبيلا أو جونون فكان الإنسان حراً في أن يؤمن بها أو لا يؤمن ؛ لكن كان يفرض عليه ألا يخطر بباله الشك في أثينايا المدنية أو إرخثيوس أو ككروپس ، فقد كان ذلك إثماً كبيراً يصيب الديانة والدولة في آن واحد . وكان على الدولة أن تعاقب على ذلك عقاباً عسيراً . لقد أعدم سقراط من أجل هذه الجريمة (٣) . فإن حرية الفكر فيما يختص بديانة المدينة كانت مجهولة جهلاً تاماً لدى القدماء ؛ وكان لا بد من السير على كل قواعد العبادة والمثل

(١) أرسطوفانيس : السحاب ٩٦٦ - ٩٦٨ . وكذلك في اسبرطة : بلوتارخوس : ليكورغ ٢١ .

(٢) اكسينوفون : ذكريات ١ : ٢ : ٣١ . ديوغينيس لاركيس : ثيوفراسطس 5 .c. لم يدم هذان القانونان زمناً طويلاً . لكن ذلك لا يقلل من دلالتها على مدى السيطرة العامة التي كانوا يعترفون بها للدولة في مادة التعليم .

(٣) كان أمر الاتهام يتضمن 'Αδικοῖ Σωκράτης οὗς ἡ πόλις νομίζει θεοὺς οὐ νομίζον (اكسينوفون : ذكريات ١ : ١) . عن ! γραφή ἀσεβείας انظر بلوتارخوس : بريكليس ٣٢ ؛ مراقبة ليسياس ضد أندوكيديس ؛ بوليذوكيس ٨ : ٩٠ .

في كل المواكب والمشاركة في الأكلة المقدسة . كان التشريع الأثيني يفرض عقاباً على من يمتنع عن الاحتفال بعيد قومي احتفالاً دينياً (١) .

فلم يكن القدماء إذن يعرفون حرية الحياة الخاصة، ولا حرية التربية، ولا الحرية الدينية . ولم تكن تحسب الشخصية البشرية إلا كشيء ضئيل جداً أمام هذه السلطة المقدسة التي تكاد تكون إلهية والتي كانوا يسمونها الدولة أو الوطن . فلم يكن للدولة كما في مجتمعاتنا الحديثة حق العدل نحو المواطنين فحسب ، بل كانت تستطيع أن تعاقب من غير ذنب لمجرد أن مصلحتها في خطر . من الموثوق به أن أرسطيديس لم يرتكب أية جريمة بل لم ترق إليه شبهة ؛ لكن للمدينة الحق في اخراجه من أرضها لهذا الدافع الوحيد وهو أن أرسطيديس قد نال بحكم فضائله نفوذاً طاغياً بحيث أصبح في إمكانه أن يكون خطراً إذا شاء . وكانوا يسمون ذلك الأوستراكيسموس (ostracisme) . لم يكن هذا النظام خاصاً بأثينا وإنما نجده في أرغوس وميغارا ، سيراكوسه ، ويوحى أرسطو بأنه كان موجوداً في جميع المدن الإغريقية التي كانت فيها حكومة العامة (ديمقراطية) (٢) . ولم يكن الأوستراكيسموس عقاباً ، بل حيلة تتخذها المدينة قبل المواطن الذي ترتاب في أنه يستطيع أن يضايقها يوماً ما . كان من المستطاع في أثينا أن يتهم شخص وأن يحكم عليه لعدم وطنيته أي لعدم محبته للدولة . فلم يكن هناك ما يضمن حياة الإنسان ما دام الأمر متعلقاً بصالح المدينة . أصدرت روما قانوناً تسمح بمقتضاه بقتل كل شخص في نيته أن يصبح ملكاً (٣) . إن الحكمة المشؤومة ، وهي أن سلامة الدولة

(١) بوليذوكيس ٨ : ٤٦ . أولبيانوس : حاشية على ديموشينيس (ضد ميدياس) .

(٢) أرسطو : السياسية ٣ : ٨ : ٢ : ٥ ؛ ٢ : ٥ : ٥ . ديودوروس ٩ : ٨٧ .
بلوتارخوس : أرسطيديس ١ ؛ ثيمستوكليس ٢٢ ؛ فيلوخوروس طبعة ديدوس ص ٣٩٦ . شارح
أرسطوفانيس : الفرسان ٨٥٥ .

(٣) بلوتارخوس : بوليكلولا ١٢

هى القانون الأعلى . قد صيغت فى الزمن العتيق (١) . فكانوا يرون أن الحق والعدل والأخلاقى كل هذا يجب أن يتنحى أمام صالح الوطن .

إنه لضلال فذ بين جميع الضلالات البشرية أن يعتقد البعض أن الإنسان فى المدن القديمة كان يتمتع بالحرية . لم يكن لديه حتى فكرة عنها . لم يكن يعتقد أن فى الاستطاعة وجود حق ما قبل المدينة وآلهتها . سئى وشبكاً أن الحكومة غيرت شكلها مراراً عديدة . لكن طبيعة الدولة بقيت كما هى تقريباً ولم ينتقص من سيطرتها العامة شئ . كانت الحكومة تسمى الحكومة الملكية ، أو حكومة السراة (أرستوقراطية) ، أو حكومة العامة (ديموقراطية) على التوالى لكن ما من واحدة من هذه الثورات وهبت الناس الحرية الحقيقية : الحرية الفردية . وما كانوا يسمونه الحرية إنما هو أن يكون للمرء حقوق سياسية ، وأن يصوت ، وأن يُعَيِّن رجال الدولة ، وحقه فى أن يكون أرخوناً . لكن الإنسان لم يكن لذلك أقل عبودية للدولة . كان القدماء ، وعلى الأخص الإغريق ، يبالغون دائماً فى أهمية المجتمع وحقوقه . ويرجع ذلك بلا ريب إلى الصفة المقدسة والدينية التى خلعها المجتمع على نفسه فى الأصل .

(١) سيسرون : القوانين ٣ : ٣ .

الكتاب الرابع الثورات

الثورات

لم يكن في الاستطاعة أن نتصور شيئاً أصلب بنية من الأسرة في العصور القديمة ، تلك التي كانت تتضمن في ذاتها آلهتها وعبادتها وكاهنها وحاكمها ، ولا شيئاً أقوى من هذه المدينة التي كانت ، هي أيضاً ، تشمل في ذاتها ديانتها وآلهتها الحماة وكهنوتها المستقل ، والتي كانت تتحكم في روح الإنسان بقدر ما كانت تتحكم في بدنه ، والتي كانت أقوى بكثير من دولة اليوم ، فكانت تجمع في شخصها السلطة المزدوجة التي نراها مقسمة في أيامنا هذه بين الدولة والكنيسة . فإن كان هناك مجتمع أنشئ ليبقى فلأنما هو ذلك المجتمع ، ومع ذلك فقد عانى بدوره سلسلة ثوراته ككل ما هو بشري .

لا نستطيع أن نقول ، بصفة عامة ، في أية فترة بدأت هذه الثورات . ومن السهل أن ندرك ، في الواقع ، أن هذه الفترة لم تكن واحدة بالنسبة لمختلف المدن الإغريقية والإيطالية . والمؤكد أنه منذ القرن السابع قبل الميلاد وهذا التنظيم الاجتماعي موضع للنقاش والهجوم في كل مكان تقريباً . وابتداء من ذلك الوقت لم يكن يتساند إلا في عناء ومزيج من المقاومة والتساهل على درجة متفاوتة من المهارة ؛ وظل يناوص هكذا عدة قرون وسط المنازعات المستديمة ، ثم اختفى في النهاية .

والأسباب التي أدت إلى دماره يمكن أن تقتصر على إثنين . أحدهما التغيير الذي حدث في الآراء على مر الزمن تبعاً للتطور الطبيعي في العقلية الإنسانية ، والذي محى العقائد العتيقة فأنهارت معها البيئة الاجتماعية التي أقامتها هذه العقائد ، والتي كانت دون سواها قادرة على تدعيمها ؛ والآخر وجود طبقة من الناس كانت موضوعة خارج نظام المدينة وكانت تتألم من ذلك ومن مصلحتها أن تدمره ، فحاربته حرباً لا هوادة فيها .

وعندما ضعفت العقائد التي تأسس عليها هذا النظام الاجتماعي وأصبحت مصالح سواد الناس مناوئة لهذا النظام كان من المحتم أن يسقط . وما من مدينة نجت من قانون التبديل هذا . فلم تكن أسيرته أقدر على النجاة منه من أثينا ، ولا روما من بلاد الإغريق . وكما رأينا أن أهالي بلاد الإغريق وإيطاليا كانوا يؤمنون في الأصل بنفس العقائد ، وأن نفس السلسلة من الأنظمة امتدت لديهم ، فإننا سنرى من الآن أن جميع هذه المدن قد مرت بنفس الانقلابات .

يجب أن ندرس لماذا وكيف ابتعد الناس تدريجياً عن هذا النظام العتيق ، لا لينحطوا ، بل على العكس ليتقدموا نحو نظام اجتماعي أوسع منه وأحسن . إذ أن كل تغيير من تغييراته قد قربهم ، تحت مظهر من الفوضى ، وفي بعض الأحيان من الانحطاط ، من هدف لم يكونوا على علم به .

الفصل الأول البطارقة والموالي

إننا لم نتكلم حتى الآن عن الطبقات الدنيا ولم يكن لنا أن نتكلم عنها. إذ أن المقصود كان وصف النظام البدائي للمدينة . ولم تكن الطبقات الدنيا تعد شيئاً يوثبه له على الإطلاق في تلك المنظمة . فقد تكونت المدينة كما لو لم تكن هذه الطبقات موجودة . وكان في استطاعتنا إذن ، لكي ندرسها ، أن ننتظر إلى أن نصل إلى عصر الثورات .

كان في المدينة العتيقة طبقات وفروق واختلاف في الدرجات كما هو الأمر في كل مجتمع بشري. ففي أثينا نعرف التفريق الأصلي بين النسباء (eupatrides) والوضعاء (thètes) ، وفي أسبرطة نجد طبقة الأكفاء وطبقة الأدنياء ، وفي أوبيا (Eubée) طبقة الفرسان وطبقة الشعب . وتاريخ روما مليء بالنضال بين البطارقة والسوقة ، وهو نضال نعثر عليه في جميع المدن السايينية واللاتينية والأترسكية . بل في الإمكان أن نلاحظ أنه كلما صعدنا في تاريخ بلاد الإغريق وإيطاليا كلما ظهر التفريق عميقاً والدرجات أكثر وضوحاً . دليل مؤكد على أن انعدام المساواة لم يتكون على مر الزمن بل إنه كان موجوداً منذ الأصل وإنه كان معاصراً لنشأة المدن .

ومن المهم أن نبحث على أي المبادئ كان يعتمد هذا التقسيم بين الطبقات ؛ وبذلك نستطيع أن نرى بسهولة أكبر على أي الآراء أو أي الحاجات سينشأ القتال، وبماذا تطالب الطبقات الدنيا، وباسم أي المبادئ ستدافع الطبقات العليا عن سلطانها .

رأينا آنفاً أن المدينة نشأت من تحالف الأسرات والقبائل . وقبل اليوم الذي تكونت فيه المدينة كانت الأسرة تحوى في ذاتها هذا التفريق بين الطبقات ؛

والواقع أن الأسرة لم تكن لتمرز بل كانت ، كما كانت ديانة الموقد البدائية ، غير قابلة للتجزئة ، وكان الابن الأكبر دون سواه يخلف والده ويقبض على على الكهنوت والملك والسلطة . وكان إخوته بالنسبة له كما كانوا بالنسبة لوالده . ومن جيل إلى جيل ، ومن ابن أكبر إلى ابن أكبر ، لم يكن هناك على الدوام إلا رئيس واحد للأسرة ؛ كان يرأس القربان ويتلو الدعاء ويقضى ويحكم وإليه وحده يرجع في الأصل لقب *pater* (أب) ؛ فإنه لم يكن في الإمكان إذ ذاك تطبيق هذه الكلمة ، التي كانت تدل على السلطة لا على الأبوة ، إلا على رئيس الأسرة . فكان أبنائه وإخوته وخدمه يدعونه جميعاً هكذا .

ها هو إذن في صميم تكوين الأسرة أول مبدأ لعدم المساواة . كان البكر يمتاز فيما يختص بالعبادة والإرث . وبعد عدة أجيال كان يتكون بالطبع في كل من الأسرات الكبيرة فروع صغرى تضعها الديانة والعرف في مستوى أدنى بالنسبة للفرع الأكبر وتخضع لسلطانه باعتبارها تعيش تحت حمايته .

ولهذه الأسرة خدم لا يتركونها ويلازمونها بالوراثة ، وللأب (*pater*) أو الولي (*patron*) عليهم السلطة الثلاثية : سلطة السيد والقاضي والكاهن . كانوا يسمونهم بأسماء تختلف باختلاف الأماكن وأكثرها معرفة لنا اسم الموالي *Clients* والوضعاء (*thètes*) .

وها هي ذى طبقة دنيا أخرى . لم يكن المولى تحت الرئيس الأعلى للأسرة فحسب بل تحت الفروع الصغرى أيضاً . والفرق بينه وبينها أن العضو في فرع أصغر إذا ما صعد في سلسلة أسلافه وصل دائماً إلى *pater* (أب) أى إلى رئيس أسرة ، إلى واحد من هؤلاء الأجداد الإلهيين الذين تدعوهم الأسرة في أدعيتها . وبما أنه ينحدر من *pater* (أب) فقد كانوا يسمونه في اللاتينية *patricius* (بطريق) . وعلى العكس لا يصل ابن المولى قط ، مهما صعد في سلسلة نسبه ، إلا إلى مولى أو عبد . فليس في أجداده *pater* (أب) ومن هنا لصقت به حالة انحطاط لا يجد منها مخرجاً .

والتفريق بين هاتين الطبقتين من الناس جلى فيما يختص بالمصالح المادية فإن ملك الأسرة بأكمله للرئيس ، بيد أنه يقتسم التمتع به مع الفروع الصغرى ،

بل مع الموالى أيضاً؛ ولكن بينما للفرع الأصغر، على الأقل، حق محتمل على الملك ، في حالة ما إذا حدث أن انقرض الفرع الأكبر، فإن المولى لا يستطيع أن يصبح مالكاً إطلاقاً، والأرض التي يزرعها ما هي إلا وديعة لديه وإذا مات عادت للمولى. وقد احتفظ القانون الروماني في العصور المتأخرة بأثر من هذه القاعدة القديمة فيما كانوا يسمونه *jus applicationis* (١). بل إن مال المولى ليس له، فالولى هو مالكة الحقيقي ويستطيع أن يضع يده عليه لحاجاته الشخصية . وبمقتضى هذه القاعدة العتيقة كان القانون الروماني ينص على أنه من واجب المولى أن يقدم بائنة لابنة الولى وأن يدفع عنه الغرامة وأن يقدم فديته أو أن يساهم في تكاليف مناصبه. والتفريق أجلى من ذلك في الديانة . فإن سليل الأب (*pater*) هو الذى يستطيع دون سواه أن يقوم باحتفالات عبادة الأسرة . كان يحضرها المولى ويقدمون القربان من أجله لكنه لم يكن يقوم بها هو ذاته . فبينه وبين المعبود المنزلى وسيط على الدوام بل إنه لم يكن يستطيع أن يقوم مقام الأسرة إذا اندثرت . فإذا حدث أن انقرضت هذه الأسرة فإن الموالى لا يواصلون العبادة بل يتفرقون . إذ أن الديانة ليست ميراثاً لهم ؛ إنها ليست من دمهم ، إنها لم تأت إليهم من أسلافهم الخصوصيين : إنها ديانة مستعارة ، لهم حق التمتع بها وليس لهم حق الملك فيها .

ولنذكر أنه تبعاً لرأى الأجيال القديمة كان حق الإنسان في أن يكون له إله وفي الدعاء حقاً وراثياً . فالأثارة المقدسة والشعائر والكلمات النسكية والعزائم القوية التي تجبر الآلهة على العمل ، كل ذلك لم يكن لينتقل إلا مع الدم . فكان من الطبيعي إذن في كل هذه الأسرار العتيقة أن يكون الجزء الحر الصميم ، الذى ينحدر حقيقة من السلف الأول ، هو الحائز دون سواه للصفة الكهنوتية . فكان للبطارقة أو للنسباء الامتياز في أن يكونوا كهنة وأن تكون لهم ديانة ملكاً خالصاً لهم . (٢)

(١) معناها حق الارتباط أو حق الملازمة وهو الحق الذى بمقتضاه يرث الولى من المولى . - العرب .

سيسرون : الخطيب ١ : ٣٩ ؛ أولوس جيلوس ٥ : ١٣ .

(٢) ديودوروس ١ : ٢٨ . بوليدوكيس ٨ : ٣ . ٣٩٥ . *Etymologicum magnum* .

ديونيسيوس الهاليكارناسى ٢ : ٩ ؛ تيتوس ليفيوس ١٠ : ٦ - ٨ ؛ ٤ : ٢ ؛ ٦ : ٤١

وهكذا كان التفريق بين الطبقات موجوداً حتى قبل الخروج من حالة الأسرة ؛ كانت الديانة المنزلية القديمة قد أقامت درجات ، فلما تكونت المدينة فيما بعد لم يبدل شيء مما من تكوين الأسرة الداخلي . بل سبق أن بينا أن المدينة لم تكن في الأصل تجمعاً من الأفراد بل حلفاً من القبائل والندوات والأسرات وأن كل من هذه الهيئات قد بقي ، في هذا النوع من التحالف ، كما كان من قبل . اتحد رؤساء هذه المجموعات الصغيرة فيما بينهم لكن كل واحد منهم بقي سيداً مطلقاً في المجتمع الصغير الذي كان رئيساً عليه من قبل . ولهذا السبب بقي القانون الروماني زمناً طويلاً تاركاً للأب (*pater*) السلطة المطلقة على ذويه وحق المحاكمة لمواليه . وإذن فقد استمر في المدينة نفس التمييز بين الطبقات الذي ولد في الأسرة .

لم تكن المدينة في عصرها الأول سوى اتحاد من رؤساء الأسرات . ولدينا شواهد من عصر لم يكن سواهم يستطيع فيه أن يكون مواطناً . ولا زلنا نستطيع رؤية أثر من هذه القاعدة في قانون قديم لأثينا يقول إنه لكي يكون الإنسان مواطناً لا بد أن يكون له إله منزلي (١) . يلاحظ أرسطو أنه في الزمن القديم كانت القاعدة ، في بعض البلدان ، أن الابن لا يكون مواطناً في حياة الأب ، فإذا مات الأب تمتع الابن الأكبر وحده بالحقوق السياسية (٢) . لم يكن القانون إذن يحسب الفروع الصغرى ، وبالأولى الموالى ، في المدينة . لذلك يضيف أرسطو أن المواطنين الحقيقيين كانوا عندئذ عدداً ضئيلاً جداً .

في تلك الأزمنة القديمة ، لم يكن الجمع ، الذي كان يتناقش في المصالح العامة للمدينة ، مكوناً ، هو أيضاً ، إلا من رؤساء الأسرات (*patres* (الأباء) . ومن المسموح به ألا نصدق سيسرون عندما يقول إن رومولوس أطلق لفظ آباء على الشيوخ لكي يدل على عطفهم الأبوي نحو الشعب . فقد كان من

(١) هاربوقراتيون : تحت لفظ *Zēns ēpkeĩos* نقلاً عن هيبيريديس (*Hypéride*) وديميتريوس الفاليري .

(٢) أرسطو : السياسة ٥ : ٥ : ٣

الطبيعى أن يحمل أعضاء مجلس الشيوخ القديم هذا اللقب لأنهم كانوا رؤساء القضاة (gentes). وفى نفس الوقت الذى كان هؤلاء الرجال مجتمعين يمثلون فيه المدينة بقى كل منهم سيداً مطلقاً فى القفصيلة (gens) التى كانت كمملكة صغيرة له . ونرى أيضاً منذ ابتداء روما مجعاً آخر أكثر عدداً هو مجمع الندوات. لكنه يختلف بعض الاختلاف عن مجمع الآباء (patres) ، وكانوا هم أيضاً لا يزالون يكونون العنصر الأساسى فى هذا المجمع ؛ وإنما كان يمثل فيه كل (pater) (أب) محاطاً بأسرته . وكان أقاربه ومواليه أنفسهم حاشية له ودليلاً على قوته . هذا ولم يكن لكل أسرة فى هذه اللجان غير صوت واحد (١). ويمكن أن نفرض أن الرئيس كان يأخذ رأى أقربائه بل ومواليه لكن من الجلى أنه هو الذى كان يصوت . فضلاً عن أن القانون كان يحرم على المولى أن يكون له رأى غير رأى وليه (٢) فإذا كان المولى ملحقين بالمدينة فلأنما كان ذلك عن طريق رؤسائهم البطارقة . فكانوا يساهمون فى العبادة العامة ويظهرون أمام المحكمة ويدخلون المجمع ولكن فى إثر أوليائهم .

يجب ألا نتصور مدينة هذه العصور القديمة كتجمع من رجال يعيشون مختلطين فى نطاق سور واحد . فإن المدينة لم تكن فى الأزمنة الأولى مكاناً للسكنى قط ؛ وإنما هى المقدس الذى تقيم فيه آلهة الجماعة ؛ وهى الحصن الذى يحميهم والذى يقدسه حضورهم ؛ هى مركز الجمعية ومقر التمسك والكهنة والمكان الذى تؤدى فيه العدالة . لكن الناس لا يعيشون فيها . فقد ظل الناس عدة أجيال ، بعد ذلك ، وهم يعيشون خارج البلدة فى أسر متفرقة تقسم الريف . كل من هذه الأسرات تحتل ناحيتها ، حيث يوجد مقدسها المنزل ، وحيث

(١) أولوس جيلوس ١٥ : ٢٧ . سنرى أن الولاء قد تبدل فيما بعد ، فلن نتكلم هنا إلا عن ولاء القرون الأولى لروما .

(٢) Denys, II, 10 : Οὐτε δοιον οὐτε θέμις ψῆφον ἐναντίαν φέρειν

تكون تحت سلطة أبيها *pater* كمجموعة لا تقبل التجزئة (١). وفي أيام معينة، عند ما يكون هناك ما يتعلق بمصالح المدينة أو بلوازم العبادة المشتركة، كان رؤساء الأسرات يتوجهون إلى البلدة ويجتمعون حول الملك إما للمناقشة وإما لشهود القربان. وإذا كان المقصود حرباً جاء كل من هؤلاء الرؤساء تتبعه أسرته وخدمه (*sua manus*)، ويجتمعون حسب الأخويات أو الندوات ويكوّنون جيش المدينة تحت إمرة الملك.

(١) وصف ثوقيديدس (٢ : ١٥ ، ١٦) هذه الأخلاق القديمة التي كانت لاتزال باقية في أتيكا إلى عصره :

Γῇ κατὰ χώραν αὐτονόμῳ οἰκῇσιν μετείχον οἱ Ἀθηναῖοι, ἐν τοῖς ἡγεροῖς πανοικησὶα οἰκῆσαντες.

إنما فقط عند ابتداء حرب البيلوبونيز هجروا *οἰκίας καὶ ἱερά* ἃ διὰ παντός ἦν *αὐτοῖς ἐκ τῆς κατὰ τὸ ἀρχαῖον πολιτείας πάτρια*.

الفصل الثانى

السوقة (PLEBS)

يجب الآن التنويه بعنصر آخر من عناصر السكان كان فى مستوى أقل من مستوى الموالى أنفسهم، وبعد أن كان عاجزاً فى الأصل، حصل رويداً رويداً على قوة كافية أتاحت له تحطيم النظام الاجتماعى القديم . وهذه الطبقة التى أصبحت أكثر عدداً فى روما منها فى أية مدينة أخرى كانت تدعى فيها *plebs* (السوقة). يجب التأمل فى أصل هذه الطبقة وصفتها لإدراك الدور الذى لعبته فى تاريخ المدينة والأسرة عند القدماء .

لم يكن السوقة هم الموالى ؛ فإن مؤرخى العصور القديمة لا يخلطون بين هاتين الطبقتين . يقول تيتوس ليفيوس فى موضع ما : « لم تشأ السوقة أن تساهم فى انتخاب القنصل ؛ ولهذا انتخب البطارقة ومواليهم القناصل » (١). وفى موضع آخر «شكت السوقة من أن للبطارقة نفوذاً طاعياً فى اللجان بفضل أصوات مواليهم» (٢) ونقرأ فى ديونيسيوس الهاليكارناسى: «خرجت السوقة من روما واعتزلت فوق الأكمة المقدسة ، وبقي البطارقة فى البلدة وحدهم هم ومواليهم .» لم تكن هذه السوقة المنفصلة عن الموالى انفصلاً بئساً جزءاً مما كانوا يسمونه الشعب الرومانى وذلك على الأقل فى القرون الأولى . كانوا يطالبون من الآلهة ، فى دعاء قديم كان لا يزال يكرر فى عهد الحرب البونية، أن يكونوا عاطفين «على الشعب

(١) تيتوس ليفيوس ٢ : ٦٤ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٢ : ٥٦ .

(٣) ديونيسيوس ٦ : ٤٦ ؛ ٧ : ١٩ ؛ ١٠ : ٢٧ .

وعلى السوق» (١). فلم تكن السوق إذن مشمولة في الشعب في الأصل . كان الشعب يشمل البطارقة ومواليهم ؛ أما السوق فكانت خارجة عنه .

لم يلق القدماء إلا ضوءاً ضئيلاً على التكوين الأول لهذه السوق . ولنا الحق أن نفترض أن سوادها الأعظم كان يتكون من الأهالي القدماء الذين غلبوا على أمرهم وأخضعوا . بيد أنه يدهشنا أن نرى في تيتوس ليفيوس الذي كان يعرف الآثار القديمة أن البطارقة لم يكونوا يأخذون على السوق أنهم من الأهالي المغلوبين على أمرهم بل كانوا يأخذون عليهم أنهم قوم لا دين لهم ولا أسرة . وهذا المأخذ ، الذي لم يكن في موضعه زمن ليكيانيوس ستولون (Licinius Stolon) ، والذي لم يكن معاصرو تيتوس ليفيوس يكادون يفهمونه ، لا بد أنه يرجع إلى فترة قديمة جداً ويعود بنا إلى الأزمنة الأولى للمدينة .

والواقع أننا نلمح في نفس طبيعة الآراء الدينية القديمة أسباباً عدة كانت تدعو إلى تكوين طبقة دنيا . فإن الديانة المنزلية لم تكن تنتشر بل كانت تولد في أسرة وتبقى حبيسة فيها ؛ كان لابد لكل أسرة من أن تكون لنفسها عقيدتها وآلهتها وعبادتها . لكن كان من الممكن أن يحدث أنه لم يكن في ذهن بعض الأسرات من القوة ما يمكنها من خلق معبود لنفسها وإنشاء عبادة واختراع نشيد الدعاء ونغمته . فكانت هذه الأسرات ، لهذا السبب وحده ، في حالة ضعة تجاه الأسرات التي كانت لها ديانة ، ولا تستطيع أن تدخل معها في مجتمع . ومن

Tite-Live, XXIX, 27: *Ut ea mihi populo plebique romanae (١) bene verruncent.*—Cicéron, *pro Murena*, 1: *Ut ea res mihi magistratuque mea, populo plebique romanae bene atque feliciter eveniat.*

يذكر ماكروبيوس (ساتورناليا ١ : ١٧) وحياً قديماً من المتكهن ماركيوس يتضمن : *praetor qui jus populo plebique dabit*. أما إن الكتاب القدماء لم يحسبوا دائماً حساباً لهذا التفريق الجوهرى بين الشعب *populus* وبين السوق *plebs* فهو مالا ندهش له إذا ما تأملنا أن هذا التفريق لم يعد موجوداً عند ما كانوا يكتبون . ففي عصر سيسرون كان قد مضى زمن طويل منذ أصبحت السوق جزءاً من الشعب لكن الصيغ بقيت كآثار من عهد لم تكن طائفتا الأهالي مختلطتين فيه .

المؤكد أنه حدث أيضاً أن بعض الأسرات التي كانت لها عبادة منزلية قد فقدتها إما عن إهمال ونسيان للشعائر وإما على إثر إحدى تلك الجرائم أو تلك الأدناس التي كانت تحرم على المرء أن يقترب من موقده أو يواصل عبادته. وأخيراً كان يحدث أن يطرد من الأسرة بعض الموالى، الذين كانوا دائماً على عبادة السيد ولا يعرفون سواها ، أو أن يهجروها طواعية . فكان ذلك تنازلاً عن الديانة . ولنصف أيضاً أن الابن المولود من زواج على غير الشعائر كان يعتبر نغلاً كالذى يولد من الزنا ، ولا وجود للديانة المنزلية بالنسبة له . كل أولئك الرجال المنبوذين من الأسرات والموضوعين خارج العبادة ينضون تحت طبقة الرجال الذين لا موقد لهم . فكان وجود السوق نتيجة لازمة لطبيعة النظام العتيق التي تقصى كل ما عداها .

نكاد نجد هذه الطبقة بجوار كل المدن القديمة لكنها منفصلة عنها بخط فاصل . فقد كانت المدينة الإغريقية مزدوجة ؛ هناك المدينة بمعناها الصحيح ، πόλις ، التي تقوم عادة على قمة تل ، وهي التي أسست بمقتضى الشعائر الدينية وتضم مقدس المعبودات المدنية . وتحت سفح الأكمة مجموعة من المنازل بنيت بدون احتفال ديني ومن غير حائط مقدس ، ذلك هو مأوى السوق التي لم تكن تستطيع أن تسكن البلدة المقدسة .

وفي روما ، كان الفرق الأصلي بين طائفتي الأهلين بيئاً . فمدينة البطارقة ومواليهم هي التي أسسها رومولوس حسب الشعائر على هضبة الپالاتينوس ، ومسكن السوق هو الملجأ (Asylum) وهو عبارة عن حوزة واقعة على سفح أكمة الكايتوليوم ، وهو الذي قبل فيه الملك الأول القوم الذين لا نار لهم ولا مكان ، ولم يكن في استطاعته أن يدخلهم ببلدته . وفيما بعد ، عندما وفدت على روما أقوام جديدة من السوق ، غرباء عن ديانة المدينة ، أسكنوهم على أكمة الأفينتينوس (Aventinus) أي خارج هرم السور (pomoerium) وخارج البلدة الدينية (١) .

(١) أولوس جيلوس ١٣ : ١٤ ؛ تيتوس ليفيوس ١ : ٣٣ .

إن كلمة واحدة تميز هؤلاء السوق : إنهم لا عبادة لهم ؛ أو على الأقل يأخذ عليهم البطارقة أنه لا ديانة لهم : «ليس لهم أسلاف» ، ومعنى ذلك في ذهن خصومهم أنه ليس لهم أسلاف معترف بهم ومقبولون شرعاً ؛ «ليس لهم آباء» أى أنهم يبحثون عبثاً في سلسلة أجدادهم دون أن يجدوا إطلاقاً رئيساً لأسرة دينية : *pater* (أب) . وليست لهم أسرة *gentem non habent* «أى أنه لم يكن لهم غير الأسرة الطبيعية ؛ أما تلك التى تكونها الديانة وتنظمها ، أى الفصيلة الحقيقية ، فإنها لم تكن لهم (١) .

لم يكن الزواج المقدس موجوداً بالنسبة لهم ؛ إنهم لا يعرفون شعائره . وحيث أنه لا موقد لهم فإن القران الذى ينشئه الموقد محرم عليهم . لذلك كان يستطيع البطريق ، الذى لم يكن يعرف قراناً نظامياً غير الذى يربط بين الزوج والزوجة بحضور المعبود المنزل ، أن يقول وهو يتكلم عن السوق *Connubia promiscua habent more ferarum*. (٢)

وحيث أنه لا أسرة لهم فليس لهم سلطة أبوية . من الممكن أن تكون لهم على أطفالهم السلطة التى تعطىها القوة أو العاطفة الطبيعية ؛ لكن لم تكن لهم تلك السلطة المقدسة التى تخلعها الديانة على الأب .

وحق الملك غير موجود بالنسبة لهم . إذ كل ملك يجب أن يقره أو أن يقده الموقد والقبر والآلهة التخوم ، أى كل عناصر العبادة المنزلية . وإذا حاز السوق أرضاً فإنه لم تكن لهذه الأرض الصفة المقدسة . بل هى أرض مبتذلة ولا تعرف التحديد بالتخوم . لكن هل كان فى استطاعته ، فى الأزمنة الأولى ، حتى أن يحوز أرضاً ؟ نعرف أنه ما من أحد كان يستطيع أن يمارس حق الملك فى روما إلا إذا كان مواطناً . يقول الفقيه إنه لا يمكن أن يكون الإنسان مالكاً إلا بمقتضى حق الكويريين (*Quirites*) ؛ لكن السوق لم يكن يعد فى البدء بين الكويريين . وعند نشأة روما كانت الأرض الرومانية (*ager romanus*) مقسمة

(١) لا يلاحظ وجود الفصائل (*gentes*) السوق إلا فى القرون الثلاثة الأخيرة من الجمهورية . وعندئذ أخذت السوق تتبدل فكما حصلت على حقوق البطارقة فإنها اقتبست أيضاً أخلاقهم وتشكلت بأشكالهم .

(٢) معناها : لهم زواج مُخْلِط على طريقة البهائم — العرب

بين القبائل والندوات والفصائل (*gentes*) (١) ؛ لكن السوق الذى لم يكن يتسمى لأية واحدة من هذه المجموعات ، لم يكن يدخل فى القسمة حتماً . هؤلاء السوق . الذين لم تكن لهم ديانة ؛ لم يكن لهم ما يجعل الإنسان يطبع جزءاً من الأرض بطابعه ويجعله له . معروف أنهم سكنوا الأفيثينوس زمناً طويلاً وبنوا عليه بيوتاً ، لكنهم فى النهاية لم يحصوا على امتلاك هذه الأرض إلا بعد ثلاثة قرون وبعد كثير من النضال (٢) .

لم يكن للسوق قانون ولا عدالة . إذ أن القانون هو قرار من الديانة ؛ والإجراءات مجموعة من الشعائر . للمولى أن ينتفع بحق المدينة عن طريق وليه . أما فيما يختص بالسوق فإن هذا الحق كان غير موجود . يقول مؤرخ قديم بصراحة أن السادس من ملوك روما هو أول من سن قوانين للسوق بينما كان للبطارقة قوانينهم منذ زمن بعيد (٣) . بل يبدو أن هذه القوانين قد سحبت من السوق فيما بعد أو أن البطارقة رفضوا أن يقيموا لها حساباً لأنها لم تكن مؤسسة على الديانة ؛ إذ أننا نرى عند المؤرخ المذكور أنه عندما أنشأوا العرفاء كان لا بد من إصدار قانون خاص يحمى حياتهم وحريتهم وقد وضع هذا القانون هكذا : « ليس لأحد أن يفكر فى ضرب عريف (*tribunus*) أو قتله كما يفعل فى رجل من السوق » (٤) فيلوح إذن أنه كان لهم الحق فى ضرب السوق أو قتله ، أو على الأقل أن هذا الجرم لم تكن يعاقب عليه شرعاً إذا ما ارتكب نحو رجل كان يعدّ خارج القانون .

لم يكن للسوق حقوق سياسية . أولاً : لم يكونوا مواطنين ولم يكن يستطيع أى واحد منهم أن يكون رجل دولة . ولم تكن فى روما مجامع لمدة قرنين غير الندوات . ولم تكن الندوات تشمل فى القرون الثلاثة الأولى من روما

(١) فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ٥٥ ؛ ديونيسيوس ٢ : ٧ .

(٢) ديونيسيوس ١٠ : ٣٢ ؛ انظر تيتوس ليفيوس ٣ : ٣١ .

(٣) ديونيسيوس ٤ : ٤٣ .

(٤) ديونيسيوس ٦ : ٨٩ *ὡς ἓνα τῶν Πολλῶν* وعبارة *οἱ Πολλοί*

(الجاهل) هى العبارة التى يستعملها ديونيسيوس مراراً للدلالة على السوق .

إلا البطارقة ومواليهم . بل إن السوق لم تكن تدخل في تكوين الجيش طالما كان موزعاً حسب الندوات .

لكن ما يفرق بين السوق والبطريق تفريقاً جلياً هو أنه لم يكن للسوق نصيب في ديانة المدينة . فكان من المحال أن يدخل الكهنوت . بل يمكن الاعتقاد بأن الدعاء كان محرماً عليه في القرون الأولى وأنه لم يكن في الاستطاعة الكشف له عن الشعائر. فقد كانت حاله كما كانت في الهند حيث «يجب أن يجهل السودرا دائماً الصيغ المقدسة» . كان أجنبياً وإذن فقد كان مجرد حضوره يدنس القرايين . إنه مقصى من جانب الآلهة ؛ وبينه وبين البطريق كل البعد الذي تستطيع الديانة أن تضعه بين رجلين ، فالسوق شعب محقر ومهين ، تنفّس من الدين ، نقي من القانون ، نقي من المجتمع ، نقي من الأسرة . لا يستطيع البطريق أن يقارن هذه الحياة إلا بحياة البهائم (*more ferarum*) . ملازمة السوق دنس . نسي الرجال العشرة في لوحاتهم العشر الأولى أن يحرموا الزواج بين الطائفتين لأن هؤلاء الرجال العشرة الأوائل كانوا جميعاً من البطارقة فلم يدر في خلد واحد منهم أن مثل هذا الزواج كان في حيز الإمكان .

نرى كم من الطبقات كانت موضوعة بعضها فوق بعض في العصر البدائي للمدن . ففي الذؤابة كانت سزوات رؤساء الأسرات ، أولئك الذين كانت اللغة الرسمية في روما تسميهم الآباء (*patres*) ويسميهم الموالى الملوك (*reges*) وكانت الأوديسة تسميهم *basileis* أو *anaxtes* . وتتلو هؤلاء ، الفروع الصغرى من الأسرات . وأدنى من هؤلاء الموالى ؛ ثم أدنى منهم السوق ، أدنى بكثير وخارجون عنهم تماماً .

إن الديانة هي التي جاءت بهذه التفرقة بين الطبقات لأنها قالت ، في الزمن الذي كان يعيش فيه أسلاف الإغريق والإيطاليين والهنود معاً في آسيا الوسطى ، «الابن الأكبر يقوم بالدعاء» . ومن هنا جاء تقدم الابن الأكبر في كل شيء ؛ فكان الفرع الأكبر في كل أسرة هو فرع الكهنوت والسيادة . بيد أن الديانة كانت تقدر الفروع الصغرى تقديراً كبيراً فقد كانت بمثابة

احتياط لتحل يوماً ما محل الفرع الأكبر المنقرض وتنفذ العبادة . كما أنها كانت تنذر الموت بل العبد هوناً ما أيضاً لأنه كان يشهد لأعمال الدينية . لكن السوق . الذى لم يكن له أى نصيب فى العبادة ، فقد كانت لا تعد شيئاً على الإطلاق . وعلى ذلك استقرت المراتب .

لكن ما من شكل من الأشكال الاجتماعية . التى يتصورها الانسان وبقراها ، غير قابل للتبديل . وهذا النظام كان يحمل فى ذاته جرثومة المرض والموت . ألا وهى عدم المساواة الذى لا حد له . لقد كان لكثير من الناس مصلحة فى القضاء على نظام اجتماعى لم يكن لهم فيه نفع ما .

الفصل الثالث

الثورة الأولى

١ - انتزاع السلطة السياسية من الملوك

قلنا إن التملك كان في الأصل رئيس المدينة الديني والكاهن الكبير للموقد العام ، وإنه قد ضم إلى هذه السلطة الكهنوتية السلطة السياسية لأنه كان يبدو طبيعياً أن الرجل الذي يمثل ديانة المدينة يكون في نفس الوقت رئيس المجتمع ، والقاضي ، ورئيس الجيش . وطبقاً لهذا المبدأ حدث أن اجتمع في يدى الملك كل ما كان في الدولة من سلطان .

لكن رؤساء الأسرات الآباء (*patres*) . وفوقهم رؤساء الأخويات والقبائل كانوا يكوّنون بجوار هذا الملك طبقة من السراة (أرستوقراطية) قوية جداً . لم يكن الملك ملكاً لوحده ؛ بل كان كل أب *pater* ملكاً مثله في فصيلته (*gens*) ؛ بل إنها كانت عادة عتيقة في روما أن يسمى كل من هؤلاء الأولياء الأقوياء ملكاً ؛ وفي أثينا كان لكل أخوية ولكل قبيلة رئيسها وبجوار ملك المدينة ملوك القبائل *φυλοβασιλεις* . تلك كانت درجات من الرؤساء ، ولهم جميعاً نفس الاختصاصات ونفس العصمة في نطاق يتفاوت في اتساعه . لم يكن ملك المدينة يمارس سلطته على الأهلين كافة ؛ فكان داخل الأسرة وجميع الموالى بمنجاة من فعله . وكما أنه لم يكن للملك في العهد الإقطاعي رعية غير بضع أتباع أقوياء فإنه لم يكن لملك المدينة القديمة إمرة إلا على رؤساء القبائل والفصائل (*gentes*) الذين كان في استطاعة كل واحد منهم أن يكون بمفرده ممثلاً له في القوة ، وإذا اجتمعوا كانوا أقوى منه بكثير . يمكن أن نعتقد جيداً أنه لم يكن من اليسير عليه أن يفرض طاعته ؛ فكان على الرجال أن يحترموه احتراماً كبيراً لأنه كان

رئيس العبادة وحارس الموقد لكن لا ريب أن خضوعهم كان ضئيلاً جداً لضآلة قوته . ولم يبق الحاكمون والمحكومون أمداً طويلاً دون أن يلحظوا أنهم لم يكونوا على اتفاق على القدر الواجب من الطاعة . فقد أراد الملوك أن يكونوا أقوياء وأراد الأبناء ألا يكونوا كذلك . فنشب في جميع المدن نزاع بين السراة (الأرستوقراطية) وبين الملوك .

كانت نتيجة النزاع واحدة في كل مكان ؛ إذ غلبت الملكية على أمرها . يجب ألا نغفل أن هذه الملكية البدائية كانت مقدسة . فكان الملك هو الرجل الذى يتلو الدعاء ويقدم القرбан ، وأخيراً كان هو القادر بمقتضى الحق الموروث على أن يجلب للمدينة حماية الآلهة . فلم يكن فى الاستطاعة إذن التفكير فى الاستغناء عن ملك . كان لا بد من ملك للديانة ، كان لا بد من ملك لسلامة المدينة . لذلك نرى فى جميع المدن التى نعرف تاريخها فى البدء أنهم لم يمسوا سلطة الملك الكهنوتية وإنما اكتفوا بأن ينتزعوا منه السلطة السياسية . لم تكن هذه الأخيرة إلا كملحق أضافه الملوك لكهنوتهم ولم تكن مقدسة ولا معصومة مثله ، فكان فى الاستطاعة انتزاعها من الملك دون أن يلحق بالديانة خطر .

حفظ إذن على الملكية ؛ لكنها بعد أن جردت من سلطانها لم تعد إلا كهنوتاً . يقول أرسطو : « كان للملوك فى الأزمنة الغابرة سلطة مطلقة فى السلم والحرب ؛ لكن بعضهم تنحى فيما بعد عن هذه السلطة من تلقاء نفسه وانتزعت عنوة من الآخرين ، ولم يترك هؤلاء الملوك غير العناية بالقرايين » . ويقول بلوتارخوس نفس الشيء : « حيث أن الملوك بدوا متغربين وقساء فى إمرتهم فقد انتزع معظم الإغريق السلطة منهم ولم يتركوا لهم غير العناية بالدين » (١) . ويتكلم هيرودوت عن بلدة قريته فيقول : « تركوا لباتوس (Battos) ، سليل الملوك ، مهام العبادة وحيازة الأراضى المقدسة ، لكنهم انتزعوا منه كل السلطة التى تمتع بها آباؤه » .

(١) أرسطو : السياسة ٣ : ٩ : ٨ . بلوتارخوس . مسائل رومانية ٦٣ .

بعد أن اقتضرت هذه الملكية على الوظائف الدينية كما رأينا . استمرت في معظم الأحوال وراثية في الأسرة المقدسة التي وضعت الموقد فيما مضى وبدأت العبادة القومية . وفي عهد الإمبراطورية الرومانية أى بعد هذه الثورة بسبعة قرون أو ثمانية كان لا يزال في إفسوس ومارسيليا وثيرسپياى (Thespies) أسرات تحتفظ بلقب الملكية القديمة وشاراتها ولا تزال في يدها رأسه الحفلات الدينية (١) . أما في البلدان الأخرى فإن الأسرات المقدسة كانت قد انقرضت وأصبحت الملكية انتخابية ، وسنوية في العادة .

٢- تاريخ هذه الثورة في اسبرطه

كان لاسبرطه ملوك على الدوام . بيد أن الثورة التي نتكلم عنها هنا تمت فيها كما تمت في المدن الأخرى .

يلوح أن الملوك الثدورين الأوائل حكموا سادة مطلقين . لكن النزاع نشب بين الملوك والسراة (الأرستوقراطية) منذ الجيل الثالث . فكانت هناك سلسلة من النضال لمدة قرنين جعلت من اسبرطه مدينة من أكثر المدن الإغريقية اضطراباً (٢) . ومعروف أن ملكاً من هؤلاء الملوك وهو والد ليكورغ مات مصاباً في فتنة داخلية (٣) .

لا شيء أكثر غموضاً من تاريخ ليكورغ . بدأ كاتب سيرته القديم بهذه الكلمات : « لا نستطيع أن نقول عنه شيئاً إلا وهو موضع للجدل . » لكن من المؤكد على الأقل أن ليكورغ قد ظهر وسط المنازعات ، « في وقت كانت الحكومة تسبح فيه في اضطراب دائم » (٤) . والذي يبرز بأجلى وضوح من جميع البيانات التي وصلت إلينا عنه هو أن إصلاحه قد طعن الملكية طعنة لم تقم منها إطلاقاً . يقول أرسطو « في عهد خاريلائوس (Charilaos) أخلت

(١) استرابون ١٤ : ١ : ٣ . ديودوروس ٤ : ٢٩ .

(٢) ثوقيدديدس ١ : ١٨ . هيرودوت ١ : ٦٥ .

(٣) استرابون ٨ : ٥ . بلوتارخوس : ليكورغ ٢ .

(٤) بلوتارخوس : ليكورغ ٥ . انظر شرحه ٨ .

الملكية مكانها للسراة (الأرستوقراطية) . (١) وقد كان خاريلائوس هذا ملكاً عند ما قام ليكورغ بإصلاحه . فضلاً عن أننا نعرف من بلوتارخوس أن ليكورغ لم يكلف بأعباء المشروع إلا وسط فتنة اضطرت الملك خاريلائوس خلالها أن يبحث عن ملجأ في معبد . كان ليكورغ فترة ما صاحب الأمر في إلغاء الملكية ؛ لكنه احترز من ذلك جيداً معتبراً الملكية ضرورية والأسرة المالكة مصانة . لكنه تصرف بحيث أصبح الملوك من الآن فصاعداً خاضعين لمجلس الشيوخ فيما يختص بالحكومة وبحيث لا يكونون إلا رؤساء لهذا المجلس ومنفذين لقراراته . وبعد ذلك بقرن ازداد ضعف الملكية وانتزعوا منها هذه السلطة التنفيذية . وكلفوا بها حكماً سنويين أطلقوا عليهم لقب إيفور (Ephore) (٢) . من السهل أن نحكم من الاختصاصات التي منحت للإيفورات على ضالة السلطة التي تركت للملوك . كان الإيفورات يقضون في المسائل المدنية بينما كان مجلس الشيوخ يقضى في المسائل الجنائية (٣) ، كان الإيفورات يعلنون الحرب بناء على إشارة مجلس الشيوخ أو يقررون نصوص معاهدات السلم ، وفي زمن الحرب كان إثنان من الإيفورات يرافقان الملك ويراقبانه ؛ وهما اللذان كان يحددان خطط الحملة ويدبران جميع العمليات (٤) ، فإذا يتبقى إذن للملوك إذا ما انتزع منهم القضاء والعلاقات الخارجية والعمليات الحربية؟

(١) أرسطو : السياسة ٥ : ١٠ : ٣ طبعة ديدو ص ٥٨٩ . هيراكليديس في

Fragments des historiens grecs, coll. Didot, t. II, p. 210.

(٢) معنى الكلمة : الحارس ، الملاحظ ، الرقيب . - العرب

(٣) أرسطو : السياسة ٣ : ١ : ٧ .

(٤) أكسينوفون : جمهورية اللاقيديمونيين ٨ : ١١ : ١٥ ؛ الهلينييات ٢ : ٤ : ٣٦ ؛ ٦ : ٤ : ١ . كان للإيفورات رئاسة المجمع ؛ ثوقيديديس ١ : ٨٧ . كانوا يقررون تجنيد الجند ، أكسينوفون : جمهورية اللاقيديمونيين ١١ ؛ الهلينييات ٦ : ٤ : ١٧ . وكان من حقهم محاكمة الملوك وحبسهم في السجن والحكم عليهم بالغرامة ، هيرودوت ٦ : ٨٥ : ٨٢ ؛ ثوقيديديس ١ : ١٣١ ؛ بلوتارخوس : ليكورغ ١٢ ؛ أغيس ١١ ؛ حكم (apophthégmes) اللاقيديمونيين ص ٢٢١ . يسمى أرسطو منصب الإيفور *ἀρχὴ κυρία τῶν μεγίστων* (السياسية ٢ : ٦ : ١٤) . - احتفظ الملوك ببعض اختصاصات حربية ؛ ولكن كثيراً ما نرى الإيفورات يوجهونهم في غزواتهم أو يستدعونهم إلى أسيرطه (الهلينييات ٦ : ٤ : ١ . ثوقيديديس ٥ : ٦٣ . بلوتارخوس : أغيسيلاس ١٠ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٨ . ليساندروس ٢٣)

٣ - نفس الثورة في أثينا

رأينا أعلاه ماذا كانت حال الأهالي البدائية في أتيكا . كان يقتسم الإقليم عدد معين من الأسرات المستقلة التي لا رابط بينها . وكانت كل واحدة منها تعد مجتمعاً صغيراً يحكمه رئيس وراثي. ثم تجمعت هذه الأسرات ، ومن تجمعها نشأت المدينة الأثينية. وكانوا ينسبون لثيسوس (Thésée) أنه أتم العمل العظيم عمل الوحدة الأتيكية ، لكن الآثارات تضيف أن ثيسوس قد حطم كثيراً من المقاومة ونحن نصدقها في ذلك من غير عناء . ولم تكن الفئة التي قاومته هي فئة الموالى والفقراء التي كانت موزعة على القرى والفصائل (γένη) ، فقد كان أمثل بهؤلاء الناس أن يتنهجوا بتغيير كان من شأنه أن يضع فوق رؤسائهم رئيساً وأن يمنحهم مرجعاً وحماية . أما الذين آلمهم التغيير فهم رؤساء الأسرات ورؤساء القرى والقبائل ، βασιλῆς وال φηλοβασιλῆς ، هؤلاء النسباء الذين كانت لهم السلطة العليا في فصيلتهم (γένος) أو في قبيلتهم بمقتضى الحق الوراثي . لقد دافعوا جهدهم عن استقلالهم ؛ ولما ضاع منهم تحسروا عليه .

لقد حافظوا على الأقل على كل ما استطاعوا المحافظة عليه من سلطتهم القديمة . فبقى كل منهم الرئيس ذا الطول والحول على قبيلته أو فصيلته (γένος) . لم يستطع ثيسوس أن يدمر سلطة أقامتها الديانة وجعلتها مصانة لانعس . بل إن هناك ما هو أكثر من ذلك . إذا فحصنا الآثارات المتعلقة بتلك الفترة تراءى لنا أن هؤلاء النسباء الأقوياء لم يرضوا بالمشاركة في تكوين مدينة إلا بشرط أن تكون الحكومة اتحادية حقيقية وأن يكون لكل منهم نصيبه فيها . حقاً لقد كان هناك ملك أعلى لكن بمجرد أن كانت المصالح المشتركة تصبح في كفة الميزان كان يجب استدعاء مجلس الرؤساء ولم يكن يمكن عمل شيء هام إلا بموافقة المجلس الشبيه بمجلس الشيوخ .

وفي لغة الأجيال التالية، كانت هذه الآثارات تقول على وجه التقريب :
غير ثيسوس حكومة أثينا فبعد أن كانت ملكية جعلها جمهورية . هكذا يتكلم أرسطو وإيسوقراط وديموسثينيس وپلوتارخوس . وتحت هذه الصورة،

التي يشوبها شيء من الاختلاق ، أساس من الصحة. حقاً إن ثيسوس قد « وضع السلطة العليا في يد الشعب » كما تقول الأثارة ، لكن كلمة شعب *δῆμος* التي حافظت عليها الأثارة لم يكن مدلولها في عصر ثيسوس بالسعة التي أصبحت له في عصر ديموستينيس. فإن هذا الشعب ، أو تلك الفئة السياسية ، لم تكن عندئذ سوى طبقة السراة (الأرستوقراطية) أي مجموع رؤساء الفصائل (*γένη*) (١)

عندما أنشأ ثيسوس هذا المجمع لم يكن مجدداً باختياره . فإن تكوين الوحدة الأثينية الكبيرة قد غير أحوال الحكومة بالرغم منه . منذ اجتمع ، في مدينة واحدة ، هؤلاء النسباء ، الذين بقيت سلطتهم سليمة في الأسرات ، كونوا هيئة قوية لها حقوقها وتستطيع أن تكون لها مطالبها . فأصبح ملكُ صخرة ككروپس الصغيرة ملكاً على جميع أتيكا . لكنه بعد أن كان ملكاً مطلقاً في ناحيته لم يعد إلا رئيساً لدولة اتحادية أي الأول بين أكفائه .

لم يلبث أن ثار النزاع بين هؤلاء السراة وبين الملكية ، فقد « كان النسباء يتحسرون على السلطة الملكية الحقة التي مارسها كل منهم في بلده حتى ذلك الحين » . ويبدو أن هؤلاء السكهنة المحاريين قد قدموا الديانة بين أيديهم وادعوا أن سلطة العبادات المحلية قد انتقصت. إذا كان حقاً ، كما يقول ثوقيديديس ، أن ثيسوس حاول أن يدمر بيوت نار (پريتانيون) القرى فلا عجب أن يكون الشعور الديني قد ثار عليه . وليس بمستطاع أن نقول كم من نضال عاناه وكم من ثورة أخمدتها بالحصافة أو بالقوة ؛ أما الموثوق منه فهو أنه قد غلب في النهاية ، وطرده من أثينا ، ومات في المنفى . (٢)

لقد تغلب النسباء إذن ؛ لم يقضوا على الملكية ، لكنهم نصبوا ملكاً من اختيارهم ، منيسيثيوس (*Ménesthée*) . وبعده ، قبضت أسرة ثيسوس على الملك من جديد وحافظت عليه ثلاثة أجيال . ثم حلت محلها أسرة أخرى هي أسرة

(١) بلوتارخوس : ثيسوس ٢٥ . أرسطو ، اقتبس بلوتارخوس : شرحه ؛ إيسوقراط : هيلينا ٣٦ ؛ ديموستينيس : ضد نيأيرا ٧٥ . لا ريب أن أسطورة ثيسوس قد غيرت الزمن ، وعلى الأخص ، روح حكم العامة (الديموقراطية) .

(٢) بلوتارخوس : ثيسوس ٢٥ و ٣٢٩ . ديودوروس ٤ : ٦٢

اميلانثين، Mèlanthides. ولا بد من أن كل تلك الفترة كانت شديدة الاضطراب ، لكن ذكرى الحروب الداخلية لم تحفظ لنا بطريقة جلية .

يتفق موت كودروس (Codrus) مع انتصار النسباء النصر النهائي . وفي هذه المرة أيضاً لم يقضوا على الملكية ؛ إذ أن ديانتهم كانت تحرم ذلك عليهم. لكنهم جردوها من سلطتها السياسية . يقول الجوال بوسانياس . الذي كان متأخراً جداً عن هذه الحوادث لكنه كان يرجع بعناية للأثرات ، إن الملكية قد فقدت عندئذ جزءاً كبيراً من اختصاصاتها وأصبحت تابعة « ؛ ومعنى ذلك بلاريب أنها أصبحت منذ ذلك الوقت خاضعة لمجلس شيوخ النسباء . ويطلق المؤرخون المحدثون على هذه الفترة من تاريخ أثينا اسم عهد الأراخنة (archontat) ولا يفوتهم أن يقولوا إن الملكية قد ألغيت في ذلك الوقت . وليس ذلك بصحيح كل الصحة . تتابع ذرية كودروس من أب لابن خلال ثلاثة عشر جيلاً. كانوا يلقبون بالأراخنة لكن هناك وثائق قديمة تعطيهم أيضاً لقب ملك (١). وقد ذكرنا آنفاً أن هذين اللقبين مترادفان تماماً . فكان لأثينا خلال هذه الفترة الطويلة ملوك وراثيون . لكنها انتزعت منهم سلطتهم ولم تترك لهم غير وظائفهم الدينية . وهذا ما كان قد حدث في اسبرطة .

وفي نهاية ثلاثة قرون وجد النسباء أن هذه الملكية الدينية لا تزال أقوى مما كانوا يريدون فأضعفوها وقرروا ألا يشغل نفس الرجل هذا المنصب الكهنوتي السامي إلا لمدة عشرة أعوام . هذا وقد استمروا في اعتقادهم أن الأسرة المالكة القديمة كانت دون سواها أهلاً لشغل وظائف الأراخنة (٢) .

ومر حوالى الأربعين عاماً وهم على هذا الوضع . لكن الأسرة المالكة تدنس ذات يوم بجريرة من الجرائم . فادعوا أنها لن تستطيع القيام بالوظائف

(١) انظر قطع رخام باروس (Paros) وقارنها بيوسانياس ١ : ٣ : ٢ : ٤ : ٥ : ١٠ : ٧ : ٢ : ١ . أفلاطون : مينيكسينيس (Ménéxène) ص ٢٣٨ ج . ايليانوس قصص متنوعة ١٣ : ٥
(٢) بوسانياس ٤ : ٥ : ١٠

الكهنوتية (١) . وقرروا أن يتخذوا الأراخنة في المستقبل من خارجها وأن يكون هذا المنصب في متناول جميع النساب . وبعد ذلك بأربعين سنة أخرى ، ولكي يضعفوا هذه الملكية ويقسموها بين عدة أيدي ، جعلوها سنوية وقسموها في نفس الوقت إلى منصيين منفصلين . إلى هنا كان الأرخون في نفس الوقت ملكاً ، ففصلوا اللقيين من الآن فصاعداً ، واقتسم اختصاصات الملكية الدينية القديمة حاكمان ، أحدهما يعين أرخوناً والآخر ملكاً . فكان من نصيب الأرخون مهمة السهر على دوام الأسرة ، والتصريح بالتبني أو تحريره ، وتلقي الوصايا ، والحكم فيما يختص بالملكية العقارية ، وهذه كلها أمور تهتم الديانة بها . أما مهمة تقديم القرابين الاحتفالية والحكم في الآثام الدينية فقد احتفظوا بها للملك . وبهذا دام لقب الملك في المدينة مع القرابين والعبادة القومية ، وهو اللقب الذي كان ضرورياً للديانة . وكان الملك والأرخون ، مع رئيس الحرب والئيسموثيت (Thesmothètes) الستة ، يكملون الحكام التسعة السنويين الذين تعودوا أن يسمونهم بالأراخنة التسعة من اسم الأول منهم .

حدثت الثورة التي انتزعت من الملكية سلطتها السياسية بأشكال مختلفة في جميع المدن . ففي أرخوس ضعفت الملكية منذ الجيل الثاني من الملوك الدوريين بحيث «لم يتركوا لذرية تيمينوس (Téménos) غير اسم الملك دون أية سلطة» ، هذا وقد بقيت هذه الملكية وراثية لعدة قرون (٢) . وفي قرينه جمعت ذرية باتوس الكهنوت والسلطة في يدها أولاً ؛ لكن ابتداء من الجيل الرابع لم يترك لهم غير الكهنوت (٣) . وفي قورنث كانت الملكية في البدء تنتقل وراثياً في أسرة البا كخوسيين (Bacchiades) ؛ وكان من أثر الثورة أن أصبحت سنوية

(١) هيراقليديس البنطي في *Fragmenta* ج ، ص ٢٠٨ ؛ نيقولا الدمشقي : القطعة ٥١ . سويداس تحت كلمة *Ἱππομένης* . ديودوروس : قطع الكتاب الثامن

(٢) بوسانياس ٢ : ١٩

(٣) هيرودوت ٤ : ١٦١ . ديودوروس ٨ ، قطع .

وذلك دون إخراجها من هذه الأسرة التي بقى أعضاؤها حائزين لها كل بدوره لمدة قرن من الزمان (١) .

٤ - نفس الثورة في روما

في البدء كانت الملكية في روما كما كانت في بلاد الإغريق . كان الملك هو كاهن المدينة الأكبر ، وكان في نفس الوقت القاضي الأعلى ؛ وفي زمن الحرب كان صاحب الإمرة على المواطنين المسلحين . وكان بجواره رؤساء الأسرات ، *patres* الآباء ، الذين كانوا يكونون مجلس الشيوخ . لم يكن هناك إلا ملك واحد لأن الديانة كانت تنص على وحدة الكهنوت ووحدة الحكومة . لكن كان مفهوماً أنه من واجب هذا الملك أن يستشير رؤساء العائلات المتحالفة في كل أمر هام (٢) . يذكر المؤرخون منذ ذلك العصر مجعاً للشعب . لكن يجب أن نتساءل ماذا كان يمكن أن يكون عندئذ معنى كلمة شعب (*populus*) ، أى ماذا كانت الهيئة السياسية في عصر الملوك الأوائل . تتفق جميع الشواهد في الدلالة على أن هذا الشعب كان يجتمع في ندوات (*Curies*) ؛ وقد كانت الندوات هي اجتماع الفصائل (*gentes*) ؛ وكل فصيلة (*gens*) تتوجه إليها بهيئتها ولم يكن لها غير صوت واحد . والموالى حضور مصطفون حول الأب (*pater*) وربما كانوا يُستشارون ؛ وربما كانوا يبدون آراءهم ويسامحون في تكوين الصوت الوحيد الذي تعطيه الفصيلة (*gens*) لكن لا يمكن أن يكون لهم رأى غير رأى الأب . فلم يكن مجمع الندوات هذا سوى المدينة البطريقية مجتمعة في مواجهة الملك . نرى من هنا أن روما وجدت في نفس الظروف التي طرأت على المدن الأخرى . كان الملك يواجه هيئة من السراة (الأرستوقراطية) مكونة تكويناً قوياً جداً وتستمد قوتها من الديانة . فنجد في روما إذن نفس المنازعات التي رأيناها في بلاد الإغريق .

(١) ديودوروس ٧ ؛ هيرودوت ٥ : ٩٢ . بوسانياس ٢ : ٣ و ٤ . كانت فصيلة (*gens*) الباكخوسيين تشمل حوالى ٢٠٠ عضو .
(٢) سيسرون : الجمهورية ٢ : ٨ .

تاريخ الملوك السبعة هو تاريخ هذا الشجار الطويل . أراد الأول (١) منهم أن يزيد في سلطانه وأن يتخلص من سلطة مجلس الشيوخ ؛ فتجنب للطبقات الدنيا لكن الآباء كانوا يعادونه (٢) . فهلك غيلة في اجتماع لمجلس الشيوخ .

وسرعان ما فكر السراة في إلغاء الملكية ومارس الآباء كل بدوره وظائف الملك . حقاً لقد هاجت الطبقات الدنيا فهي لا تريد أن يحكمها رؤساء الفصائل (gentes) وطالبت بإعادة الملكية (٣) لكن البطارقة تعزوا حين قرروا جعل الملكية انتخابية منذ الآن وقرروا نظم الانتخاب في مهارة تدعوا إلى الإعجاب : فجلس الشيوخ يختار المرشح ، ومجلس الندوات البطريقى يؤيد هذا الاختيار ؛ وأخيراً ، يقول المستخرون البطارقة ما إذا كان المنتخب الجديد مرضياً عنه من الآلهة .

انتخب نوما (Numa) طبقاً لهذه القواعد. فبدأ متديناً جداً، كاهناً أكثر منه محارباً ، ملاحظاً متحرجاً جداً في جميع شعائر العبادة ، فكان بناء على ذلك متمسكاً جداً بالدستور الدينى للأسرات والمدينة . كان ملكاً على رغبة البطارقة ومات ميتة هادئة في سريرته .

يلوح أن الملكية قد اقتصرت في عهد نوما على الوظائف الدينية كما حدث في المدن الإغريقية. ومن المؤكد على الأقل أن سلطة الملك الدينية كانت منفصلة عن سلطته السياسية وأن إحداها لم تكن تستدعى الأخرى حتماً، يدل على ذلك أنه كان هناك انتخاب مزدوج. لم يكن الملك بمقتضى الانتخاب الأول إلارئيساً دينياً. فإذا ما أراد أن يضيف السلطة السياسية imperium إلى هذه الوظيفة فإن الضرورة كانت تقضى بأن تمنحها له المدينة بمرسوم خاص . وتبرز هذه النقطة بجلاء

(١) الملك الأول هو رومولوس مؤسس المدينة . — العرب

(٢) Tite-Live, I, 15: *Multitudini gratior quam Patribus.*

(٣) Tite-Live, I, 17: *Fremere plebs multiplicatum servitutem, centum pro uno dominos factos, nec ultra nisi regem et ab ipsis creatum videbantur passuri.* Cicéron, *De rep.*, II, 12: *Senatus tentavit ut ipse gereret sine rege rempublicam; populus id non tulit et regem flagitare non destitit.*

مما يقوله لنا سيسرون عن الدستور القديم (١) . وبهذا يكون الكهنوت منفصلاً عن السلطة ؛ وكان في الإمكان وضعهما في يد واحدة ، لكن كان لا بد لذلك من اجتماع مزدوج للجان وانتخاب مزدوج .

من الموثوق به أن الملك الثالث (٢) جمعهما في شخصه ، فكان له الكهنوت والإمرة . بل إنه كان محارباً أكثر منه كاهناً ؛ ازدرى الديانة التي كانت مصدر قوة السراة وأراد انتقاصها . فتراه يجمع في روما جمهرة من الغرباء على الرغم من المبدأ الديني الذي كان يقصدهم ؛ بل لقد تجاسر على العيش بينهم على أكمة كويليوس (Coelius) وتراه أيضاً يوزع على بعض السوق بعض الأراضي التي كان يرادها مخصصاً ، حتى ذلك الوقت ، لمواجهة مصروفات القرابين وأتباع البطارقة بإهمال الشعائر بل أنهموه بأنه يدل فيها وغير ، وهو إجراء أشد خطورة . لذلك مات كما مات رومولوس ؛ فقد أرسلت آلهة البطارقة عليه وعلى أولاده الصاعقة .

أعادت هذه الضربة السلطة لمجلس الشيوخ الذي عين ملكاً من اختياره . تمسك أنكوس (Ancus) بالديانة تمسك المتحرج وقضى حياته في المعابد ولم يحارب إلا أقل ما كان يستطيع . وكان عزيزاً على البطارقة فمات في سريره .

والملك الخامس هو تاركوينيوس (Turquin) الذي حصل على الملك بالرغم من

(١) Cicéron, *De rep.*, II, 13: *Quamquam populus eum curiatibus co-mitiis regem esse jusserrat, tamen ipse de suo imperio curiatam legem tulit. Cf. ibidem, II, 17: Tullus Hostilius, rex creatus, populum de imperio consuluit curiatim; II, 20: Cunctis populi suffragiis rex est creatus L. Tarquinius, isque de suo imperio legem tulit.*

إذا كان هؤلاء الناس وهم ملوك نظاميون من قبل ، لا يزالون في حاجة إلى اقتراح قانون يمنحهم السلطان (*imperium*) فما ذلك إلا لأن السلطان والملك شيان مختلفان . تجدر ملاحظة أن لفظ (*imperium*) لم يكن يدل على الإمرة الحربية دون سواها بل كان يطلق كذلك على السلطة المدنية والسياسية . أنظر أمثلة لهذا المعنى : تيتوس ليفيوس ١ : ١٧ ؛ ١ : ٥٩ ؛ ٢٦ : ٢٨ ؛ ٢٧ : ٢٢ ؛ ٣٢ : ١ ؛ سيسرون : الجمهورية

٢ : ١٣ ؛ تاسيتوس : الحوايات ٤ : ١٠ ؛ ديون كاسيوس ٣٩ : ٥٢ ؛ ٤١ .

(٢) الملك الثالث هو تولوس هوستيليوس (Tullus Hostilius) — العرب

مجلس الشيوخ مستنداً إلى الطبقات الدنيا . كان قليل الدين ، شديد الإلحاد . فكان لا بد من معجزة على الأقل لكنى يقتنع بعلم المستخبرين وكان عدو الأسرات القديمة . خلق بطارقة جديداً ، وبذل ما استطاع في دستور المدينة الدينى القديم ، وقد مات تاركوينيوس غيلة

واستولى الملك السادس على الملك خدعة ؛ بل يبدو أن مجلس الشيوخ لم يعترف به قط ملكاً شرعياً . كان يمتلق الطبقات الدنيا ، ويوزع عليهم الأراضي متجاهلاً المبدأ العتيق في حق التملك . وقد ذبح سرفيوس على درج مجلس الشيوخ . اتخذ النزاع بين الملوك والسراة صورة حرب اجتماعية . استمال الملوك الشعب واتخذوا من الموالى والسوقة سنداً . وعارضوا طبقة البطارقة ، التي كانت منظمة تنظيمياً قوياً ، بالطبقات الدنيا التي كانت منذ ذلك الوقت كثيرة العدد في روما . وعندئذ وجد السراة أنفسهم في خطر مزدوج ، لم يكن انخاؤهم أمام الملكية أسوأ ما فيه : فكانوا يرون الطبقات التي كانوا يحتقرونها تثور من خلفهم . رأوا قيام السوق ، تلك الطبقة التي لا دين لها ولا موقد . وربما رأوا مواليتهم يهاجمونهم داخل الأسرة ذاتها ، هذه الأسرة التي أصبح تكوينها وحققها وديانيتها موضع نقاش وحام الخطر حولها . وإذن فقد كان الملوك في نظر السراة أعداء ألداء يرمون في سبيل ازدياد سلطانهم إلى هدم نظام الأسرة والمدينة المقدسة .

وقد خلف سرفيوس (Servius) تاركوينيوس الثانى ؛ وقد خيب أمل الشيوخ الذين انتخبوه ؛ فقد أراد أن يكون السيد *de rege dominus exstitit* . وقد أضرب طبقة البطارقة بقدر ما استطاع ؛ وأطاح الرؤوس الشاحنة ؛ وتحكم دون استشارة الآباء ؛ وأعلن الحرب وعقد السلم دون أن يطلب موافقتهم . وقد لاح أن طبقة البطارقة قد غلبت نهائياً على أمرها .

وأخيراً سنحت الفرصة . كان تاركوينيوس بعيداً عن روما . لم يكن هو وحده ، بل الجيش أيضاً أى القوة التي تسنده . وكانت المدينة في يد البطارقة مؤقتاً . ومحافظ البلدة ، أى من كانت بيده السلطة المدنية في غيبة الملك ، واحد من البطارقة وهو لوكريتيوس (Lucrélius) ؛

ورئيس الفرسان ، أى من بيده السلطة الحرية بعد الملك ، واحد من البطارقة وهو يونيوس (Junius) (١) . أعد هذان الرجلان الفتنة . وكان لهما شركاء آخرون من البطارقة : أحد أفراد أسرة فاليريوس (Valérius) وآخر يدعى تاركوينيوس كولاتينوس (Torquim Collatin) . لم تكن روما مكان الاجتماع بل بلدة كولاتيا (Collatie) الصغيرة التى هى ملك خاص لأحد المتآمرين . هناك أظهروا للشعب جثة امرأة ، وقالوا إن هذه المرأة قتلت نفسها عقاباً لنفسها عن جريمة ارتكبتها أحد أبناء الملك . ثار شعب كولاتيا ، وانتقلوا إلى روما ، وجددوا فيها نفس المشهد . فاضطربت الأفكار وحاد أنصار الملك ، فضلاً عن أن السلطة الشرعية فى روما فى تلك اللحظة كانت فى يد يونيوس ولوكريتيوس . حرص المتآمرون على ألا يجمعوا الشعب ، توجهوا لمجلس الشيوخ ، وقرر المجلس أن تاركوينيوس مخلوع وأن النظام الملكى ماضى . لكن قرار مجلس الشيوخ يجب أن تؤيده المدينة . وكان للوكريتيوس الحق فى استدعاء المجمع بصفته محافظ البلدة ، فاجتمعت الندوات (curies) وهى تشاطر المتآمرين الأفكار ؛ وقررت عزل تاركوينيوس وإنشاء قنصلين .

وبعد أن تقرر هذه النقطة الرئيسية تركوا لمجمع الفرق المئينة (centuries) العناية بتعيين القناصل . ولكن ألا يحتج هذا المجمع ، الذى يصوت فيه بعض السوق ، على ما فعله البطارقة فى مجلس الشيوخ وفى الندوات ؟ لم يكن ذلك فى الإمكان ، إذ أن كل مجمع روماني كان يرأسه رجل من رجال الدولة يحدد موضوع التصويت وليس فى استطاعة أحد أن يعرض للمناقشة موضوعاً آخر . بل هناك ما هو أكثر من ذلك : ما من أحد غير الرئيس كان له حق الكلام فى ذلك العصر . فإذا كان الأمر متعلقاً بقانون فإن الفرق المئينة لا تستطيع التصويت إلا بنعم أو بلا . أما إذا كان متعلقاً بانتخاب فإن الرئيس يقدم مرشحين وما كان أحد يستطيع التصويت إلا للمرشحين المقدمين ، وفى الحالة التى نحن

(١) كانت أسرة يونيا (Junia) هذه أسرة بطريقية . ديونيسيوس ٦.٠٤ . أما آل يونيوس الذين تقابلهم فى التاريخ فيما بعد فهم سوقة .

بصددها كان الرئيس المعين من قبل مجلس الشيوخ هو لوكرتيوس أحد المتآمرين. فبين أن موضوع التصويت الوحيد هو انتخاب القنصلين. وقدم اسمين لتصويت عليهما الفرق المثينة وهما اسما يونيوس وتاركوينيوس كولاتينوس؛ وبالضرورة انتخب هذان الرجلان. ثم صدق مجلس الشيوخ على الانتخاب؛ وفي الختام أيّده المستخرون باسم الآلهة.

لم تحز هذه الثورة رضاء الجميع في روما فلحق الكثير من السوق بالملك ولأزموا مصيره (١). يقابل هذا أن بطريقاً ثرياً من السابينيين كان رئيساً قوياً لفصيلة كثيرة العدد، وهو الرجل الأشوس أثوس كلوسوس (Attus Clausus) وجد الحكومة الجديدة مطابقة لوجهة نظره بحيث جاء يتخذ روما مقراً له.

فضلاً عن أن ما حذف هو الملكية السياسية فقط، أما الملكية الدينية فكانت مقدسة ولا بد من بقائها. لذلك عجلوا بتعيين ملك لكنه لم يكن إلا ملكاً للقرايين، *rex sacrorum*. وقد اتخذوا كل ما يمكن تصوره من الاحتياطات كيلا يسيء هذا الملك الكاهن استعمال المكانة الكبيرة التي كانت تمنحها له وظائفه ليستولى على السلطة.

(١) ديونيسيوس ٥ : ٢٦ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ . لم يبين تيتوس ليفيوس هذه الوقائع لكنه يلمح لها عندما يقول (٢ : ٢١) أن البطارقة أجبروا على التنازل عن بعض حقوقهم للسوق *inservire plebi*

الفصل الرابع

السراة (الأرستقراطية) يحكمون المدينة

تمت نفس الثورة ، على صور مختلفة اختلافاً طفيفاً ، في أثينا واسبرطة وروما وأخيراً في جميع المدن التي نعرف تاريخها . كانت من عمل السراة في كل مكان ، وفي كل مكان كانت تسيجتها إزالة الملكية السياسية والإبقاء على الملكية الدينية . فأصبحت حكومة المدينة في يد السراة ابتداء من ذلك الوقت ، ولفترة يختلف طولها اختلافاً بيناً بالنسبة للبلدان المختلفة .

كان حكم السراة قائماً على المولد وعلى الديانة معاً . والمصدر الذي اشتقت منه هونفس هذه القواعد التي لاحظناها آنفاً في العبادة المنزلية وفي القانون الخاص الملازم للمولد ، أى في قانون توارث الموقد ، وامتيار الابن الأكبر ، وحق الدعاء . وكانت الديانة المنزلية هي سند هؤلاء السراة في التملك المطلق . وكانت تمنحهم حقوقاً تبدو مقدسة . وطبقاً للعقائد القديمة لم يكن يستطيع أن يكون مالكا للأرض إلا من كانت له عبادة منزلية ، ولا يستطيع أن يكون عضواً في المدينة إلا من كان حائزاً في ذاته على الصفة الدينية التي تخلق المواطن ؛ ولم يكن يستطيع أن يكون كاهناً إلا من كان سليلاً لأسرة لها عبادة ؛ ولم يكن يستطيع أن يكون حاكماً إلا من كان له الحق في القيام بالقرابين . ويجب على الرجل الذي لم تكن له عبادة وراثية أن يكون مولى لرجل آخر ، وإذا لم يستسلم لذلك كان يتحتم عليه أن يبقى خارج كل مجتمع . يبقى الناس أجيالاً طويلة لا يخطر ببالهم أن هذا التفريق حيف كبير . ولم تطرأ لهم فكرة إنشاء المجتمع البشري على قواعد أخرى .

منذ موت كودروس إلى صولون ، كانت جميع السلطة في أثينا في يد النسباء . فكانوا وحدهم الكهنة وكانوا وحدهم الأراخنة ؛ وهم وحدهم الذين كانوا

يقومون بالقضاء ويعرفون القوانين التي لم تكن مكتوبة والتي كانوا يتناقلون صيغها المقدسة من أب إلى ابن .

حافظت هذه الأسرات جهد استطاعتها على الصور القديمة للنظام الأبوي . لم تكن تعيش مجتمعة في البلدة . استمرت على العيش في النواحي المختلفة في أتيكا ، كل أسرة على ممتلكاتها الواسعة محاطة بخدمها العديدين ، يحكمها رئيسها النسب ، وتؤدي عبادتها الوراثية مستقلة تمام الاستقلال (١) . لم تكن المدينة الأثينية خلال أربعة قرون غير تحالف من رؤساء الأسرات الأقوياء هؤلاء ، الذين كانوا يجتمعون في أيام معينة للاحتفال بالديانة المركزية أو للسعى وراء المصالح المشتركة .

كثيراً ما لوحظ إلى أي حد كان التاريخ صامتاً فيما يختص بهذه الفترة الطويلة من وجود أثينا ومن وجود المدين الإغريقية بصفة عامة ؛ وقد أثار الدهشة أنه لا يكاد يسجل حدثاً واحداً من عصر حكومات السراة ، وهو الذي حافظ على ذكرى الكثير منها من عصر الملوك القدماء . ولا ريب أن العلة في ذلك أنه لم يحدث عندئذ إلا النذر اليسير من الأعمال ذات الأهمية العامة . فإن عودة النظام الأبوي قد أوقف الحياة القومية في كل مكان تقريباً . كان الناس يعيشون منفردين ولم يكن لهم إلا القليل من المنافع المشتركة . كان أفق كل منهم هو الرهط الصغير والمحلة الصغيرة التي كان يعيش فيها كنسيب أو كخادم .

وفي روما أيضاً ، كانت تعيش كل أسرة من أسر البطارقة على ممتلكاتها يحيط بها موالها . وكانوا يَتَقَدِّمون المدينة لأعياد العباداة العامة أو للمجامع . وفي خلال السنوات التي تلت طرد الملوك كان سلطان السراة مطلقاً . فلم يكن يستطيع القيام بالوظائف الكهنوتية في المدينة غير البطريق : وكان لا بد من اختيار الفستالس والأخبار والساليين (salii) والفلاميين (flamines) والمستخيرين من بين الطبقة المقدسة . وكان البطارقة وحدهم يستطيعون أن يكونوا قناصل ؛ وهم وحدهم يؤلفون مجالس الشيوخ . وإذا كانوا لم يقضوا على

(١) ثوقيديدس ٢ : ١٥ - ١٦ .

مجمع الفرق المئينة (centuries) الذي كان للسوقه حق الدخول فيه فإنهم كانوا على الأقل يعتبرون مجمع الندوات هو المجمع الوحيد الشرعي المقدس . كان للفرق المئينة في الظاهر حق انتخاب القناصل ؛ لكننا رأينا أنه لم يكن باستطاعتها أن تصوت إلا على الأسماء التي كان يقدمها لها البطارقة ، فضلاً عن أن قراراتها كانت خاضعة للتصديق الثلاثي : من مجلس الشيوخ والندوات والمستخيرين . كان البطارقة وحدهم يقومون بالقضاء ويعرفون صيغ القانون .

لم يدم هذا النظام السياسي في روما إلا عدداً قليلاً من السنين . بينما أتى على بلاد الإغريق عصر طويل كانت طبقة السراة سائدة فيه . تقدم لنا الأوديسه صورة صادقة لهذه الحالة الاجتماعية في الجزء الغربي من بلاد الإغريق . والواقع أننا نرى فيها نظاماً أبوياً شديداً الشبه بالذي لاحظناه في أتيكا . كانت بضع أسر كبرى ثرية تقسم الإقليم ؛ وكان عدد كبير من الخدم يفلح الأرض أو يعنى بقطعان المواشي ؛ كانت الحياة ساذجة . كانت مائدة واحدة تجمع الرئيس والخدم . وكان يطلق على هؤلاء الرؤساء اسماً أصبح في مجتمعات أخرى لقباً من ألقاب الفخفة *ἀνακτες, βασιλεις* (١) . من ذلك أن الأثينيين في الفترة البدائية كانوا يطلقون كلمة *βασιλεύς* (٢) على رئيس الفصيلة (*γένος*) وأن الموالي في روما حافظوا على عادة إطلاق كلمة *rex* (٣) على رئيس الفصيلة (*gens*) . كان لرؤساء الأسرة هؤلاء صفة مقدسة ؛ ويسمى الشاعر الملوك الإلهيين . كانت إيثاكا (Ithaque) صغيرة جداً بيد أنها كانت تضم عدداً كبيراً من هؤلاء الملوك ، وقد كان بينهم في الحقيقة ملك أعلى . لكنه لم يكن بذى أهمية ويبدو أنه لم تكن له ميزة غير رئاسة مجلس الرؤساء . بل يبدو من بعض الأدلة أنه كان خاضعاً للانتخاب ونرى جيداً أنه لم يكن باستطاعة تيليمachus (Télémaque) أن يكون الرئيس الأعلى للجزيرة إلا إذا أراد الرؤساء الآخرون ، اكفاؤه ، أن ينتخبوه . ويلوح أن أوديسيوس عند عودته إلى وطنه لم يكن له رعايا غير خدمه التابعين له خاصة ، وعندما قتل بعض الرؤساء امتشق خدمهم السلاح وقاتلوا قتالاً لم يد . بخلد الشاعر أنه كان شيئاً يلامون عليه . وعند الفياقيين (Phéaciens) ، كان

(١) معناها أمراء ، ملوك . — العرب

(٢) = ملك . — العرب

(٢) = ملك . — العرب

الكينوس (Alcinoos) هو صاحب السلطة العليا . لكننا نراه يتوجه إلى اجتماع الرؤساء ؛ ويمكن أن نلاحظ أنه لم يكن هو الذي دعا المجلس بل المجلس هو الذي استدعى الملك . يصف الشاعر مجمعا للمدينة الفياقية هو أبعد من أن يكون اجتماعاً للجمهور . فقد اجتمع الرؤساء وحدهم بعد أن دعاهم مناد ، كل منهم على انفراد كما يحدث في روما للجان المنادى عليها (comitia calata) ، وجلسوا على مقاعد من الحجر ؛ وتكلم الملك ووصف سامعيه بأنهم الملوك حملة الصوالج .

وفي بلدة الشاعر هيسودوس (Hésiode) ، أسكرا (Ascra) الحجرية ؛ نجد طبقة من الناس يسميها الشاعر الرؤساء أو الملوك . وهم الذين يقضون بين الشعب . كذلك يرينا پنداروس طبقة من الرؤساء عند الكادميين ؛ ومن ثيبه يشيد بسلالة الاسبارتيين (Spartes) المقدسة التي يربط إيامينونداس مولده بها فيما بعد (١) . ولا يمكن قراءة پنداروس دون أن تسترعى نظرنا روح السراة التي كانت لا تزال تسود المجتمع الإغريقي في عصر حروب الفرس ؛ ونحزر من ذلك كم كان هؤلاء السراة أقوياء قبل ذلك بقرن أو بقرنين ، إذ أن أكثر ما يمدح به الشاعر أبطاله هو عراقه أسراتهم ؛ ولا بد أن نطن أن هذا النوع من المديح كان وقتذاك ذا قيمة كبيرة وأن المولد كان لا يزال يلوح الخير الأسمى . يرينا پنداروس الأسرات الكبيرة التي كانت تلمع عندئذ في كل مدينة ؛ فيسمى في مدينة إيغينا (Egine) وحدها الميديليين (Midylides) والثياندرين (Théandrides) والإوكسينين (Euxénides) والبليپسين (Blepsiades) والحارين (Chariades) والبالرخين (Balychides) . وفي سيرا قوسه يشيد بأسرة اليامين (Iamides) الكهنوتية ، وفي أغريغنتوم (Agrigente) بأسرة الإميين (Emménides) . وهكذا في جميع البلدان التي يجد فرصة للكلام عنها .

أما في إبيدوروس فإن هيئة المواطنين بكاملها ، أي أولئك الذين كانت لهم الحقوق السياسية ، قد بقيت زمنا طويلا لا تتكون إلا من ١٨٠ عضواً ؛ وأما جميع الباقين فقد « كانوا خارج المدينة » (٢) . وقد كان عدد المواطنين الحقيقيين أقل من ذلك في هيرا كلياس حيث

(١) پنداروس : البرزخيات (Isth.) ١ : ٤١ . بوسانياس ٨ : ١١ ؛ ٩ : ٥٠ .

(٢) بلوتارخوس : مسائل إغريقية ١ .

لم يكن للفروع الصغرى من الأسرات الكبيرة حقوق سياسية (١) . وكذلك كان الأمر زمناً طويلاً في كنيده (Cnide) وإيستروس ومارسيليا؛ وفي ثيرا (Théra) كانت السلطة كلها في يد بعض أسرات كانت تعتبر مقدسة . وكذلك كان في أبولثونيا (٢) . وفي إريثراي (Erythres) كانت توجد طبقة من السراة يسمونها الباسيليين (Basilides) (٣) . وفي جزيرة أوبويا (Eubée) كانت الطبقة ذات السيادة تلقب بالفرسان (٤) . وبهذا الصدد يمكن ملاحظة أن القتال فوق جواد كان امتيازاً لدى القدماء كما كان في القرون الوسطى .

لم تعد الملكية موجودة في قورنثة عندما غادرتها جالية لتؤسس سيرا قوسه . لذلك لم تعرف المدينة الجديدة الملكية وحكمها طبقة السراة منذ البداية . وكانوا يطلقون على هذه الطبقة اسم الغيوموروى (géomores) أى الملاك ، وكانت تتكون من الأسرات التى تقاسمت يوم التأسيس أجزاء الأرض المقدسة حسب جميع الشعائر المألوفة . وقد بقيت هذه الطبقة من السراة عدة أجيال سيدة الحكومة المطلقة وحافظت على لقبها ، وهو الملاك ، ويلوح أن فى ذلك دلالة على أنه لم يكن للطبقات الدنيا حق امتلاك الأرض (٥) . وقد ظلت طبقة من السراة شبيهة بهذه سيدة فى ميايتوس (Milet) وساموس زمناً طويلاً .

(١) أرسطو : السياسة ٥ : ٥ : ٢ .

(٢) شرحه ٣ : ٩ : ٨ : ٦ : ٣ : ٨ .

(٣) شرحه ٥ : ٥ : ٤ .

(٤) *Ἱπποβοῖται* . هيرودوت ٥ : ٧٧ . بلوتارخوس : بركليس ٢٣ .
Strabon, X, 1, 8: *ἡ τῶν ὑπποβοτῶν καλουμένη πολιτεία ἐπεκράτει προ-
έστησαν γὰρ ἀπὸ τιμημάτων ἄνδρες ἀριστοκρατικῶς ἄρχοντες*. Aristotle,
Politique, IV, 3, 2: *Ἐπὶ τῶν ἀρχαίων χρόνων ὅσαι πόλεις ἐν τοῖς
ἵπποις ἢ δύναμις ἦν, ὀλιγαρχίαι παρὰ τούτοις ἦσαν..*

(٥) هيرودوت ٧ : ١٥٥ . ديودوروس ٨ : ٥ . ديونيسيوس ٦ : ٦٢ .

الفصل الخامس

الثورة الثانية ؛ تبديل في كيان الأسرة ؛

حق البكورة يختفي ؛ الفصيلة (gens) تتمزق .

لقد غيرت الثورة التي قلبت النظام الملكي الشكل الخارجى للحكومة أكثر مما غيرت كيان المجتمع . إنها لم تكن من عمل الطبقات الدنيا التي كان من مصالحها أن تهدم الأنظمة القديمة بل من عمل طبقة السراة التي كانت تريد المحافظة عليها . فهي لم تعمل إذن لتغيير نظام الأسرة العتيق بل للمحافظة عليه . كثيراً ما استهوت الملوك الشهوة لرفع الطبقات الوضيعة وإضعاف الفصائل (gentes) . ولهذا السبب أسقطوا الملوك . فإن السراة لم تقم بثورة سياسية إلا لتحول دون ثورة اجتماعية ومنزلية . إنها لم تقبض على السلطة بيديها للذة السيادة بقدر ما قبضت عليها لكي تدفع الهجمات عن أنظمتها القديمة ، ومبادئها العتيقة ، وعبادتها المنزلية ، وساطتها الأبوية ، ونظام الفصيلة ، وأخيراً عن جميع القانون الخاص الذي أقامته الديانة الأولى .

وإذن فقد كان هذا الجهد الكبير العام من جانب السراة رداً على خطر داهم . لكن يلوح أنه على الرغم من جهودها ، ومن انتصارها ذاته ، قد ظل الخطر باقياً . بدأت الأنظمة القديمة تنهار وأوشكت تغييرات خطيرة أن تتدخل في تكوين الأسرة الداخلى .

إن نظام الفصيلة القديم الذي أسسته ديانة الأسرة لم يحطّم يوم انتقل الناس إلى نظام المدينة . إنهم لم يريدوا أو لم يستطيعوا التنازل عنه فوراً ، وذلك لتمسك الرؤساء بالاحتفاظ بسلطتهم ولعدم وجود فكرة عند الطبقة الدنيا للتحرر في الحال . فوفقوا بين نظام الفصيلة وبين نظام المدينة ، لكنهما كانا في الواقع نظامين متضادين لا أمل في اتحادهما إلى الأبد . وكان لا بد لهما من أن يتحاربا

ذات يوم . عندما كانت الأسرة غير قابلة للقسمة وكثيرة العدد كانت من القوة والاستقلال بحيث لم يكن هناك مفر من شعور سلطة الجماعة بالرغبة في القضاء عليها ، بل وشدة الحاجة إلى ذلك . فإما أن تزول المدينة وإما أن تتحطم الأسرة بمضى الزمن .

يمكن إدراك الفصيلة القديمة ، بموقدها الوحيد ، ورئيسها المتسلط ، وملكها الذى لا يقبل القسمة ، ما دامت حال العزلة قائمة وما دام لم يوجد مجتمع آخر سواها . ولكن بمجرد أن تجمع الناس فى مدينة ، ضعفت بالضرورة سلطة الرئيس القديم ؛ إذ أنه فى نفس الوقت الذى هو فيه رئيس ذو سيادة فى بيته ، كان أيضاً عضواً فى جماعة ؛ وبصفته هذه تضطره بعض المصالح العامة إلى توضحيات ، وتأميره بعض القوانين العامة بالطاعة . وبذلك تنقص مكانته فى نظره ، وفى نظر مروؤوسيه . ومهما يكن نظام هذه الجماعة قائماً على طبقة السراة فإنه لا بد من أن يحسب للطبقات الدنيا حسابها ، ولو لم يكن ذلك إلا بسبب كثرة عددها . والأسرة التى تضم عدة فروع ، والتى تتوجه إلى اللجان تحيط بها جمهرة من الموالى ، لها بالطبع سلطة فى المناقشات العامة أكثر مما للأسرة القليلة العدد ، والقليلة الأيدى ، والقليلة الجنود . ولم تلبث هذه الطبقات الدنيا أن شعرت بأهميتها وقوتها ، وتولد فيها شعور معين بالشمم والتطلع إلى مصير خير من مصيرها . أضف إلى ذلك المنافسة بين رؤساء الأسرات وهم يتطاحنون على النفوذ ويسعى كل منهم فى إضعاف الآخرين . أضف زيادة على ذلك أنه كان يصبح بهم نهم لمناصب المدينة ؛ وفى سبيل الحصول عليها يسعون إلى تحجيب الشعب فيهم ، وفى سبيل القيام بها يهملون سيادتهم المحلية الصغيرة أو ينسونها . أخذت هذه الأسباب تحدث نوعاً من التراخى فى تكوين الفصيلة . فمن كانت لهم مصلحة فى المحافظة على هذا التكوين أصبحوا أقل تمسكاً به ، ومن كانت لهم مصلحة فى تغييره أصبحوا أكثر جرأة وأشد قوة .

فهـُجرت تدريجياً قاعدة عدم التجزئة التى خلقت قوة الأسرة العتيقة . واختفى حق البكورة الذى كان شرط وحدتها . لا ريب أنه يجب ألا ننتظر من أى كاتب من الزمن القديم أن يمدنا بالتاريخ المضبوط لهذا التغيير الكبير .

من المحتمل أنه لم يكن له تاريخ لأنه لم يتم في عام بل حدث على مر الأيام : أولاً في أسرة ، ثم في أخرى ، شيئاً فشيئاً فيها جميعاً . ويمكن القول أنه تم دون أن يلحظه أحد .

ويمكن أن نعتقد أيضاً أن الناس لم ينتقلوا طفرة واحدة من عدم قسمة الميراث إلى القسمة المتساوية بين الإخوة . فمن المحتمل أنه كان هناك تدرج بين النظامين . وربما جرت الأمور في بلاد الإغريق وفي إيطاليا كما جرت في المجتمع الهندي القديم حيث ترك الدين الوالد حراً في إعطاء أبنائه الأصغر نصيباً من الميراث بعد أن كان ينص على عدم قسمته ؛ ثم أنه بعد أن كان يحتم أن يكون للأكبر نصيب مضاعف على الأقل ، سمح بأن تكون القسمة متساوية بل انتهى إلى التوصية بذلك (١) .

لكنه ليس لدينا أى بيان واضح عن ذلك كله . وليست هناك غير نقطة واحدة موثوق بها وهي أن حق البكورة وعدم القسمة كانا القاعدة القديمة ، ثم اختفيا فيما بعد .

لم يقع هذا التغيير في وقت واحد ولا على نمط واحد في جميع المدن . ففي بعضها حافظ القانون على عدم قسمة الميراث زمناً طويلاً بعض الشيء . وقد كان لا يزال نافذاً في ثيبه وفي قورنث في القرن الثامن . أما في أثينا فإنه كان لا يزال يظهر في تشريع صولون بعض التفضيل للابن الأكبر . وهناك مدن لم يخفف حق البكورة منها إلا على أثر ثورة . ففي هيراكليا وكنيد وإيستروس (Istros) ومارسيليا امتشقت الفروع الصغرى السلاح لكي تقضى في آن واحد على السلطة الأبوية وحق الابن الأكبر (٢) . وابتداء من تلك اللحظة أصبحت بعض المدن الإغريقية ، التي لم تكن تعيد حتى ذلك الوقت غير مائة من الرجال يتمتعون بالحقوق السياسية ؛ وإذا بها تحصى منهم خمسمائة أو ستمائة .

(١) كانت قسمة الميراث هي القاعدة في روما في منتصف القرن الخامس ؛ يمنع قانون اللوحات الاثنتي عشرة دعوى قسمة الميراث *actio familiae erciscundae* (غايوس ، في ديجست ١٠ : ٢ : ١) .

(٢) أرسطو : السياسية ٥ : ٥ : ٢ طبعة ديدو ص ٥٧١ .

وأصبح كل أعضاء الأسرات السَّريَّة مواطنين وانفتح أمامهم باب الوصول إلى المناصب ومجلس الشيوخ .

ليس في الإمكان أن نقول في أية فترة اختفى امتياز البكورة في روما . ومن المحتمل أن الملوك ، في حومة القتال ضد السراة ، عملوا ما استطاعوا لإلغائه ، لكي يهدموا بذلك نظام الفصائل (*gentes*) . فرى عند ابتداء الجمهورية مائة وأربعين عضواً جديداً يدخلون مجلس الشيوخ ؛ وقد خرجوا كما يقول تيتوس ليفيوس من الصفوف الأولى من فئة الفرسان (١) . ونحن على علم بأن الفرق الست المثنية الأولى من الفرسان كانت تتكون من البطارقة . (٢) وإذن يكون الذين جاءوا يملأون الفراغ في مجلس الشيوخ بطارقة أيضاً . لكن تيتوس ليفيوس يضيف نقطة تفصيلية لها دلالة كبيرة : ابتداء من تلك اللحظة أخذوا يميزون بين طبقتين من الشيوخ ، إحداهما التي كانوا يطلقون عليها كلمة الآباء (*patres*) والأخرى كانوا يطلقون عليها كلمة *conscripti* (٣) . كانوا جميعاً بطارقة على حد سواء . لكن الآباء هم رؤساء الفصائل المائة والستين التي كانت لا تزال باقية ، والـ *conscripti* كانوا ينتخبون من بين الفروع الصغرى لهذه الفصائل . والواقع أنه يمكن الظن بأن هذه الطبقة الكثيرة العدد النشيطة لم تقدم معاونتها في عمل بروتوس (Brutus) والآباء إلا بشرط الحصول على حقوق مدنية وسياسية . وهكذا حصلت بفضل الحاجة إليها على ما حصلت عليه نفس الطبقة بقوة السلاح في هيراكليا وكنيد ومارسليا .

وإذ فقد اختفى حق البكورة في كل مكان : وتلك ثورة هائلة بدأت تغير وجه المجتمع . فقدت الفصيلة الإيطالية (*gens*) والفصيلة الإغريقية (*yéros*) وحدتها الأولى . وتفرقت الفروع المختلفة ؛ وأصبح لكل منها منذ ذلك الوقت

(١) Tite-Live, II, 1: *Primoribus equestri gradu lectis*.

(٢) انظر Belot, *Histoire des chevaliers romains*, livr., I, ch. 2.

(٣) Tite-Live, II, 1: *Qui patres quique conscripti essent*.

Festus, éd. Müller, p. 41: *Conscripti dicebantur qui ex equestri ordine patribus ascribebantur* . ظلوا قرون عديدة يميزون بين الـ *patres* والـ *conscripti* . انظر بلوتارخوس : مسائل رومانية ٥٨ .

نصيبها في الملك وفي المسكن وأصبحت لها مصالحها الخاصة واستقلالها : *singuli singulas familias incipiunt habere* كما يقول الفقيه . في اللغة اللاتينية تعبير قديم يبدو أنه يرجع إلى ذلك الوقت ، فكانوا يقولون *familiam ducere* عمن ينفصل من الفصيلة ويذهب ليكون طبقة على حدة^{١١} ، كما كانوا يقولون *ducere coloniam* عمن يترك المدينة الأم ليذهب يؤسس مستعمرة في مكان بعيد . منذ ذلك الوقت ، أصبح للأخ الذي ينفصل هكذا عن أخيه الأكبر موقده الخاص الذي أشعله من غير شك من الموقد المشترك للفصيلة ، كما كانت المستعمرة تشعل موقدها من بيت نار (بريتانيون) المدينة الأم . لم تعد الفصيلة تحتفظ إلا بنوع من السلطة الدينية بالنسبة للأسرات المختلفة التي انفصلت عنها . وكانت لعبادتها السيادة على عبادة هذه الأسرات ، ولم يكن مسموحاً لهذه الأخيرة أن تنسى أنها تفرعت عن هذه الفصيلة ، واستمرت تحمل اسمها . وفي يوم معين كانت تجتمع الأسرات حول الموقد المشترك لكي تمجد السلف العتيق أو المعبود الحامي . بل لقد استمرت على أن يكون لها رئيس ديني ؛ ومن المحتمل أن الابن الأكبر قد احتفظ بامتيازته في الكهنوت الذي بقي زمناً طويلاً وراثياً . وفيما عدا ذلك تقريباً كانت الأسرات مستقلة .

كان لهذا التمزيق في الفصيلة عواقب خطيرة . فقد ضعفت إلى الأبد تلك الأسرة الكهنوتية العتيقة التي كونت مجموعة حسنة الوحدة ، شديدة^{١٢} التكوين ، قوية بدرجة فائقة . فهدت هذه الثورة لتغيرات أخرى وجعلتها سهلة يسرة .

الفصل السادس

الموالى يتحررون

١ — ماذا كان الولاء فى البدء، وكيف تبدل

ها هى ذى ثورة أخرى لا يمكن تعيين تاريخها لكن من المؤكد جداً أنها غيرت دستور الأسرة والمجتمع ذاته . كانت الأسرة العتيقة تشمل طبقتين متفاوتتى الدرجة تحت سلطة رئيس واحد : فمن ناحية ، كانت الفروع الصغرى أى الأفراد الأحرار بطبيعتهم ؛ ومن الناحية الأخرى ، الخدم أو الموالى ، وهم فى درجة بحكم مولدهم ولكن مساهمتهم فى العبادة المنزلية قربتهم من الرئيس . قد رأينا الطبقة الأولى من هاتين الطبقتين تخرج من حالة الضعة التى كانت عليها ، والطبقة الثانية تتطلع منذ وقت مبكر إلى التحرر . وقد نجحت فى ذلك بمضى الزمن فقد تحولت طبقة الموالى وانتهى أمرها بأن اختفت تماماً .

إنه لتغيير هائل لم يقصه علينا الكتاب القدماء . وهكذا حدث فى القرون الوسطى ، فإن المؤرخين المعاصرين لها لم يخبرونا كيف تغير سكان الأرياف شيئاً فشيئاً . وفى حياة المجتمعات البشرية عدد لا بأس به من الانقلابات لا تمدنا بذكرها أية وثيقة . لم يلتفت إليها الكتاب لأنها تمت ببطء ، بطريقة غير محسوسة ، ومن غير نضال ظاهر ؛ إنها انقلابات عميقة وخفية ، كانت تحرك قاع المجتمع البشرى دون أن يطفو شئ منها على سطحه ، وقد بقيت غير ملحوظة حتى من نفس الأجيال التى كانت تعمل فيها . لم يستطع التاريخ أن يدركها إلا بعد أن تمت بزمن كبير ، عند ما أخذ يقارن بين فترتين فى حياة شعب ما ويلاحظ أن بينهما فروقاً جسيمة بحيث يصبح بدهياً أن ثورة كبيرة قد تمت فى الفترة التى تفصل إحداهما عن الأخرى .

وإذا رجعنا في ذلك إلى الصورة التي رسمها لنا الكتاب عن الولاء القديم في روما وجدنا أنها كانت تكون في الحقيقة نظاماً من أنظمة العصر الذهبي. إذ أي شيء أكثر إنسانية من ذلك الولي الذي يدافع عن مولاه أمام القضاء، ويعضده بماله إن كان فقيراً، ويقوم على تربية أطفاله؟ وأي شيء يحرك أوتار القلوب كما يحركها ذلك المولى الذي يسند بدوره وليه وقد سقط في هاوية البؤس، فيسدد عنه ديونه ويقدم كل ماله ليكون فدية له (١)؟ غير أن هذا القدر من العاطفة لا وجود له في قوانين الشعوب القديمة. فإن العاطفة المجردة من الغرض، والوفاء، لم يكونا نظامين قانونيين إطلاقاً فيجب أن نصور لأنفسنا فكرة أخرى عن المولى وعن الولي.

إن أوثق ما نعرفه عن المولى أنه لم يكن يستطيع الانفصال عن الولي ولا اختيار ولي آخر، وأنه كان مرتبطاً بأسرة ما من أب لابن (٢). ولو لم نعرف غير هذا القدر لكان كافياً لنعتقد أن حالته لم تكن جد مستساغة. ولنضيف إلى ذلك أن المولى لم يكن مالكا للأرض؛ فإن الأرض للولي الذي كان أهلاً دون سواه لأن يكون مالكا باعتباره رئيساً لعبادة منزلية وعضواً أيضاً في المدينة. فإذا كان المولى يزرع الأرض فإنما كان يفعل ذلك باسم السيد ولفائده. بل إنه لم يكن يمتلك الأشياء المنقولة، ولا المال، ولا ما يدخره، ملكاً تاماً. والدليل على ذلك أن الولي كان يستطيع أن يسترد منه ذلك كله لكي يدفع ديونه الخاصة أو فديته. فلم يكن له شيء ما. حقاً إنه كان على الولي أن يقدم له ما يقوم بأوده هو وأطفاله لكن كان عليه في مقابل ذلك أن يعمل لسيدة. لا يمكن القول بأنه كان عبداً بالمعنى الصحيح، لكن كان له سيد يتبعه وينخضع لإرادته في كل شيء. فهو مولى طول حياته وأبناؤه موالى من بعده.

هناك أوجه للشبه بين المولى (client) في العصور العتيقة والمولى (serf) في القرون الوسطى. الحق أن المبدأ الذي كان يقضي عليهما بالطاعة لم يكن واحداً. كان

(١) بلوتارخوس: رومولوس ١٣. ديونيسيوس ٢: ٩ - ١٠.

(٢) انظر عن هذه النقطة واقعة رواها بلوتارخوس في حياة ماريوس ه. النظر

سيرون: الخطيب ١: ٣٩.

المبدأ ، فيما يختص بالمولى فى القرون الوسطى ، هو حق الملك على الأرض والإنسان معاً ؛ أما فيما يختص بالمولى القديم ، فإن هذا المبدأ كان هو الديانة المنزلية التى كان يرتبط بها تحت سلطة الولى الذى كان كاهنها ؛ وفيما عدا ذلك فإن التبعية واحدة لكل منهما ؛ فإن أحدهما مرتبط بوليه كما أن الآخر مرتبط بسيده ؛ ولم يكن فى استطاعة المولى القديم أن يترك الفصيلة أكثر مما كان فى استطاعة مولى القرون الوسطى أن يترك سيده . وكلاهما يبنى خاضعاً لسيد من أب لابن . هناك فكرة فى تيتوس ليفيوس تجعلنا نظن أنه كان محرماً عليه أن يتزوج بخارج الفصيلة كما كان محرماً على مولى القرون الوسطى أن يتزوج بخارج القرية (١) . والموثوق منه أنه لم يكن يستطيع التعاقد على الزواج بدون إذن من المولى . وكان فى استطاعة الولى أن يسترد الأرض التى يزرعها المولى والمال الذى فى حيازته ، كما أنه كان فى استطاعة السيد أن يفعل ذلك مع مولى القرون الوسطى . وإذا مات المولى عاد كل ما كان يستعمله إلى الولى شرعاً كما أن تركة مولى القرون الوسطى كانت تعود إلى السيد .

لم يكن الولى سيداً فحسب بل كان قاضياً ؛ كان يستطيع أن يحكم على المولى بالإعدام ، وهو فوق ذلك رئيس دينى . والمولى ينوء بهذه السلطة المادية والمعنوية معاً ، تلك التى تستولى عليه جسماً وروحاً . حقاً إن هذه الديانة تفرض واجبات على الولى ، لكنها واجبات هو وحده الحكم فيها ولا يؤخذ إذا ما أهملها . لا يبصر المولى شيئاً يحميه ؛ إنه لم يكن مواطناً من تلقاء نفسه ؛ فإذا أراد أن يظهر أمام محكمة المدينة كان من المحتم أن يقوده وليه إليها وأن يتكلم عنه . أيستنجد بالقانون ؟ إنه لا يعرف صيغه المقدسة ؛ وإذا كان يعرفها فإن أول قانون بالنسبة له هو ألا يشهد على وليه أو يتكلم ضده . فبدون الولى لا عدل له ؛ وضد الولى لا ملاذ له .

لم يكن المولى فى روما وحدها . فإننا نجد عند السامنيين والأثروسك باعتباره

(١) تيتوس ليفيوس ٣٩ : ١٩ .

جزءاً من الـ *manus* الخاص بكل رئيس (١) . كان موجوداً في الفصيلة الإغريقية كما كان في الفصيلة الإيطالية . حقاً إنه يجب ألا نبحث عنه في المدن الدورية حيث اختفى نظام الفصيلة في وقت مبكر، وحيث كان المغلوبون مرتبطين بقطعة من الأرض وليس بأسرة سيد . لكننا نجد في أثينا وفي المدن اليونانية والأبولية تحت اسم *ثيس* (ثيت *thètes*) أو *بيلاتيس* (Pélate) (٢) ، ما دام نظام السراة قائماً فإن هذا *الثيس* لم يكن جزءاً من المدينة ، فهو *حييس* في أسرة لا يستطيع الخروج منها ، تحت يد *نسيب* يحمل في ذاته طابع الولي الروماني وسلطته .

نستطيع أن نحزر أنه كانت هناك ضغينة بين الولي والمولى منذ زمن مبكر . ونستطيع أن نتصور من غير عناء ما كانت عليه الحياة في هذه الأسرة حيث كانت جميع السلطة لواحد ولم يكن للآخر حق ما ، حيث الطاعة التي لا تحفظ فيها ولا أمل معها تجاور الهيمنة التي لا عائق لها ، حيث كان لخير السادة شراسته ونزواته وحيث كان لأكثر الخدم استسلاماً أحقادهم وتأوهاتهم وسخائمهم . كان *أوديسيوس* سيداً صالحاً . انظر أي عطف أبوى كان يديه لإومايوس (Eumée) وفيلويتوس (Philaetios) . لكنه أعدم خادماً سبه دون أن يعرفه وخادمت سقطن في السوء بسبب غيابه عنهن . إنه مسؤول أمام المدينة عن موت الخطّاب (٣) . أما عن موت الخدم فلا يسأله أحد حساباً .

في حالة العزلة التي عاشت الأسرة فيها زمناً طويلاً استطاع الولاء أن يتكون وأن يبقى . كانت الديانة المنزلية عندئذ قد بلغت غاية سلطانها على النفس . والرجل الذي كان كاهناً بمقتضى الحق الوراثي كان يبدو للطبقات الدنيا ككائن مقدس . كان أكثر من إنسان فقد كان الوسيط بين الله والناس ؛ من فيه يخرج الدعاء القوي ، الصيغة التي لا تقاوم والتي تجلب عطف المعبود أو غضبه . كان لابد من الانحناء أمام قوة كتلك القوة ؛ كان الإيمان والديانة يأمران بالطاعة . فكيف كان يحول في خاطر المولى أن يتحرر بعد ذلك ؟ إنه لا يرى أفقاً غير هذه الأسرة

(١) ديونيسيوس ٥ : ٢٠ ؛ ٩ : ٥ . تيتوس ليفيوس ٢ : ١٦ .

(٢) وهما كلمتان بمعنى واحد وهو *عامل* أو *أجير* . - العرب .

(٣) الذين تقدموا يخطبون زوجته أثناء غيابه ظناً منهم أنه لن يعود . وتصرفوا في منزله تصرفاً يخرج عن حدود اللياقة . - العرب .

التي يربطه كل شيء بها . ففيها وحدها كان يجد حياة هادئة وغذاء مضموناً ؛ ولو أن له فيها سيداً إلا أنه واجد فيها مدافعاً عنه ؛ وأخيراً ، فيها وحدها يجد مذبجاً يستطيع الاقتراب منه وآلهة يسمح له بدعائهم . فهجران هذه الأسرة معناه وضع نفسه خارج كل نظام اجتماعي وكل حق ؛ ومعناه فقدان آلهته والتنازل عن حق الدعاء .

لكن عندما أسست المدينة استطاع موالى الأسرات المختلفة أن يرى بعضهم بعضاً ، وأن يتحدثوا وأن يتبادلوا رغباتهم وسخائهم ، وأن يقارلوا بين السادة المختلفين ، وأن يتطلعوا إلى مصير خير من مصيرهم . ثم بدأت أبصارهم تمتد إلى ما وراء نطاق الأسرة . فرأوا أنه يوجد خارجها مجتمع وقواعد وقوانين ومذابح ومعابد وآلهة . فلم يعد الخروج من الأسرة يعد نكبة عليهم لا علاج لها . اشتدت الشهوة يوماً فيوماً ، وبدأ الولاء حملاً يزداد ثقلاً ، وكفوا رويداً عن الإيمان بأن سلطة السيد سلطة شرعية مقدسة . وولحت قلوب الناس عندئذ رغبة ملتهبة في أن يكونوا أحراراً .

لا ريب أننا لا نجد في تاريخ أية مدينة ذكرى ثورة عامة قامت بها هذه الطبقة . فإن كانت قد وقعت معارك مسلحة فلا بد أنها قد حصرت وأخفيت بداخل سور كل أسرة . فهناك وجدت ، لأكثر من جيل ، جهود عنيفة للاستقلال من جانب ، وإخماد لها لا هوادة فيه من جانب آخر . فجرت لذلك في كل بيت قصة طويلة تثير الأشجان ، يستحيل أن نرسم خطاها اليوم . وإنما يمكن القول بأن جهود الطبقة الدنيا لم تكن بدون نتيجة فإن ضرورة لا يمكن التغلب عليها قد أجبرت السادة بالتدريج على التنازل عن شيء من هيمنتهم . عندما تكف السلطة عن الظهور للرعايا بمظهر العدل فلا بد من بعض الوقت لكي تكف عن الظهور بهذا المظهر نفسه أمام السادة ؛ لكن ذلك يحدث بمضي الزمن . وعندئذ يدافع السيد ، الذي لم يعد يؤمن بأن سلطته شرعية ، دفاعاً سيئاً أو يتنازل عنها . ولنضيف إلى ذلك أن هذه الطبقة الدنيا كانت نافعة فإن ذراعيها عندما يزرعان الأرض يخلقان ثروة السيد ، وعندما

يحملان السلاح يكونان قوة له وسط منافسات الأسرات ؛ فكان من الحكمة إذن إرضائها . وإذن كانت المنفعة تتحد مع الإنسانية لتنصح بالتنازل لهذه الطبقة عن بعض الأمور .

يبدو محققاً أن حالة المولى قد تحسنت شيئاً فشيئاً . كانوا في الأصل يعيشون في بيت السيد ويزرعون الملك المشترك معا . ثم فيما بعد ، خصصوا لكل واحد منهم نصيباً معيناً من الأرض . ولا بد من أن المولى قد وجد نفسه أكثر سعادة في هذه الحال . لا ريب أنه كان لا يزال يعمل لمصلحة السيد ولم تكن الأرض له بل الأمل أنه هو الذى كان للأرض . ليس هذا بالمهم ، إنه يزرعها سنوات طوالاً بلا انقطاع ويحبها . فقامت بينه وبينها صلة غير تلك التى خلقتها ديانة الملك بينه وبين السيد ، صلة أخرى هى الصلة التى يخلقها العمل ، بل الألم ذاته ، بين الإنسان الذى يعطى عناؤه والأرض التى تعطى ثمارها .

ثم طرأ تقدم آخر . لم يعد يزرع للسيد بل لنفسه . فأصبح يتمتع بالمحصول بشرط أن يدفع فريضة ربما كانت فى البدء قابلة للتغيير لكنها أصبحت ثابتة فيما بعد . وهكذا وجد عرقته بعض الجزاء وأصبحت حياته أكثر حرية وأكثر شهماً . يقول أحد القدماء : « كان رؤساء الأسرات يخصصون أجزاء من الأرض لمرووسيهم كما لو كانوا أبناءهم (١) » . بل أننا نقرأ فى الأوديسة « يعطى السيد العطوف لخادمه منزلاً وأرضاً » ، ويضيف إومايوس (Eumée) : « وزوجة مشهاة » ، إذ أن المولى لا يزال غير قادر على الزواج بدون إرادة السيد ، وأن السيد هو الذى يختار له صاحبة .

لكن هذا الحقل الذى يقضى فيه حياته ، والذى فيه كل نصبه وكل متعته ، لم يكن حتى الآن ملكاً له . إذ أن هذا المولى لا يحمل فى ذاته الصفة المقدسة التى تجعل الأرض صالحة لأن تكون ملكاً لرجل . والحقل الذى يشغله لا يزال يحمل الحد المقدس ، الإله التخم ، الذى وضعت أسرة السيد فيها مضى . يشهد هذا الحد المصان أن الحقل مرتبط بأسرة السيد برباط مقدس ولا يستطيع أن

(١) فستوس تحت كلمة *patres* طبعة ميلر (Müller) ص ٢٤٦

يكون مملوكاً للمولى المحرر ملكاً تاماً إطلاقاً . في إيطاليا ، كان الحقل والمنزل الذى يشغله الـ *villicus* (١) ، مولى المولى ، يحوى موقداً ولارا عائلياً *Lar familiaris* ؛ لكن هذا الموقد لم يكن للمزارع بل كان للسيد (٢) . وكان ذلك إقراراً فى آن واحد بحق المولى فى المليك ، وبالحضوع الدينى من جانب المولى الذى مهما كان بعيداً عن المولى فإنه كان لا يزال يتبع عبادته

تألم المولى ، بعد أن أصبح واضعاً يده على الأرض ، من أنه ليس مالكاً لها ، وتطلع إلى ذلك ؛ فوضع مطعمه فى أن يزىل من هذا الحقل ، الذى يبدو من مظهره أنه له بمقتضى حق العمل ، الحد المقدس الذى يجعله ملك السيد القديم إلى الأبد . نرى بجلاء أن الموالى فى بلاد الإغريق قد وصلوا إلى هدفهم ؛ فبأى الوسائل ؟ هذا ما نجعله . ثم كم قضوا من الزمن والجهود للوصول إليه ؟ لانستطيع أن نقدره إلا تخميناً . وربما وقعت فى الزمن العتيق نفس السلسلة من التغيرات الاجتماعية التى رأيت أوربا حدوثها فى القرون الوسطى عندما أصبح عبيد الريف موالى الأرض ثم تحولوا من موال يُفرض عليهم ماتقتضيه مشيئة السيد (*taillables à merci*) إلى موال خاضعين لإتاوة معينة (*abonnés*) ، وفى النهاية تحولوا إلى فلاحين متملكين .

١٠٢ — إختفاء الولاء من أثينا ؛ عمل صولون

يتجلى هذا النوع من الثورات فى تاريخ أثينا . كان من أثر إسقاط الملكية إحياء نظام الفصيلة (*phylæ*) ؛ فعادت الأسرات إلى حياتها بالمنعزلة ؛ وأخذت كل منها تكون من جديد دولة صغيرة رئيسها أحد النساب ، ورعاياها جمهرة الموالى أو الخدم الذين كانت تسميهم اللغة القديمة *ثيتيس* (*thètes*) (١) . يبدو

(١) معناها المزارع الفلاح ، وكيل الزراعة . من كلمة *villa* ومعناها المزرعة أو البيت الريفى . - العرب .

(٢) كاتون : الفلاحة ١٤٣ . كولوميللا (*Columelle*) ١١ : ١ : ١٩ .

(٣) هذه الكلمة مستعملة بمعنى خادم فى هيسودوس : الأعمال والأيام : البيت ٥٦٣ وفى الأوديسه ٤ : ٦٤٤ . وقد تمثل ديونيسيوس الهالكارناسى (٩:٢) *الثيتيس* القدماء فى أثينا فى الموالى فى روما .

أن هذا النظام كان ثقیل الوطأة على الأهالی الأثینین إذ أنهم حفظوا له ذكری سیئة . وعدّ الشعب نفسه بئساً بحيث بدت له الفترة السابقة كعصر ذهبي ، فتلهف على الملوك . وانتهى به الأمر إلى أن تخيل أنه كان في عهد الملكية سعيداً حراً ، وأنه كان يتمتع عندئذ بالمساواة ، وأن عدم المساواة والآن لم يبدأ إلا منذ سقوط الملوك . لقد كان واهماً في ذلك كما يحدث كثيراً للشعوب ؛ فقد وضعت الأثارة الشعبية ابتداء عدم المساواة في الوقت الذي أخذ الشعب يجدها بغیضة فيه . فهذا الولاء ، هذا النوع من العبودية الذي كان قديماً قدم كيان العائلة ، أرجعوه إلى العصر الذي شعر الناس فيه لأول مرة بثقل الظلم وفهموا ما هو . بيد أنه من المؤكد أن النسباء لم يقيموا قوانين الولاء القاسية في القرن السابع ، وكل ما عملوه أنهم احتفظوا بها . وذلك كان كل خطئهم : حافظوا على هذه القوانين إلى ما بعد الزمن الذي كانت الشعوب تتحملها فيه بدون تدمير ؛ حافظوا عليها ضد أمانی الناس . ربما كان نسباء تلك الفترة سادة أقل قسوة مما كان عليه أسلافهم ، ومع ذلك فقد كانوا مبغضين أكثر منهم .

يلوح أن حال الطبقة الدنيا قد تحسن حتى تحت سيادة هذه السراة . إذ أن ذلك هو الوقت الذي نرى فيه بجلاء حصول هذه الطبقة على حيازة أجزاء من الأرض بشرط واحد هو أن تدفع إتاوة حددت قيمتها بسدس المحصول (١) . وهكذا كاد هولاء الناس أن يتحرروا . وما دام قد أصبح لهم مأوى ولم يعودوا تحت رقابة السيد فقد أخذوا يتنفسون في راحة أكبر ويعملون لمصلحتهم

(١) Plutarque, Solon, 13: 'Εγεώργουν τοῖς πλουσίοις ἕκτα τῶν
γενομένων τελοῦντες ἔκτηόριοι προσαγορευόμενοι καὶ θῆτες Pollux, IV, 165
'Ἐκτημόριοι δ' οἱ πέλαται παρ' Ἀττικοῖς. Idem, VII, 151: 'Επίμορτος
γῆ ἐκ Σολῶνι, ἥ ἐπὶ μέρει γεωργουμένη.

ولكن هكذا الطبيعة البشرية ، كلما تحسن مصير هؤلاء الناس كلما زادت مرارة شعورهم بما لا يزال باقياً لديهم من عدم المساواة . ولا ريب في أن عدم كونهم مواطنين وعدم مساهمتهم بأي نصيب في إدارة المدينة لم يكن ليحرك أشجانهم إلا قليلاً ؛ لكن عدم استطاعتهم أن يكونوا ملاكاً للأرض التي عليها يولدون ويوتون كان أكثر إثارة لها . ولنصف أن ما كان محتملاً في ظرفهم الحالي كان ينقصه الثبات . حقاً إنهم كانوا حائزين للأرض حياة حقيقية إلا أنه ما من قانون صريح يضمن لهم هذه الحياة أو الاستقلال الناجم عنها . نرى في بلوتارخوس أن الولي القديم كان يستطيع أن يضع يده من جديد على خادمه القديم ، وأنه إذا لم تدفع الفريضة السنوية ، أو لأي سبب آخر ، كان يهوى هؤلاء الناس إلى نوع من العبودية .

وإذن فقد كانت هناك مسائل خطيرة تثار في أتيكا خلال أربعة أو خمسة أجيال متتالية . فلم يكن بمستطاع قط أن يبقى أهل الطبقة الدنيا في هذا الوضع القلق غير النظامي الذي قادهم إليه تقدم غير محسوس . وعلى هذا فقد كانوا بين أمرين : إما أن يفقدوا هذا الوضع ، ولا بد عندئذ من عودتهم إلى روابط الولاء القاسي ؛ وإما أن يحررهم تقدم جديد تحريراً صريحاً فيصعدوا إلى مرتبة ممالك الأرض والرجال الأحرار .

ويمكن أن نحزر كل ما كان هناك من جهود من جانب الزارع ، المولى القديم ، ومقاومته من جانب المالك ، الولي القديم . إنها لم تكن حرباً داخلية ؛ لذلك لم تحفظ الحوليات الأثينية ذكرى أي قتال . بل كانت حرباً منزلية في كل قرية وفي كل منزل ، يتوارثونها من أب لابن .

يلوح أن مصائر هذه المناضلات كانت مختلفة طبقاً لطبيعة الأرض في مختلف نواحي أتيكا . ففي السهل ، حيث كان للنسيب ملكه الرئيسي ، وحيث كان حاضراً على الدوام ، بقيت سلطته سليمة تقريباً على المجموعة الصغيرة التي كانت تحت نظره على الدوام ؛ لذلك كان أهل السهل البيديا كوي (pédiéens) يظهرون على العموم بمظهر الوفاء للنظام القديم . لكن أولئك الذين كانوا

يحرثون في عناء سفح الجبل ويسمون الدياكريوى (diacriens) كانوا يطوون في سويداء قلوبهم حقداً عنيفاً للنسيب، وإرادة ثابتة على التخلص منه، باعتبارهم أبعد عن السيد، وأكثر تهوداً على الحياة المستقلة، وأكثر جرأة وشجاعة. وهؤلاء الرجال هم على الأخص الذين كانوا يستنكفون من أن يروا على حقولهم «الحلد المقدس» التابع للسيد، وأن يشعروا أن «أرضهم أمة مستعبدة» (١) أما سكان النواحي المجاورة للبحر، الباراليوى (paraliens) فإن امتلاك الأرض أقل إغراء لهم؛ كان أمامهم البحر والتجارة والصناعة. وقد أصبح الكثيرون منهم أثرياء؛ ومع الثروة أصبحوا أحراراً تقريباً. لذلك لم يقتسموا مطاعم الدياكريوى المتأججة، ولم يكن حقدهم قوياً ضد النسيب. لكنه لم يكن فيهم خنوع أهل السهل المقرون بالبحر. كانوا يطلبون أن تكون أحوالهم أكثر ثباتاً وحقوقهم أكثر ضماناً.

وصولون هو الذى أَرْضَى هذه الأمانى فى حدود الاستطاعة. وهناك جزء من عمل هذا المشرع لم يطلعنا عليه القدماء إلا بطريقة ناقصة جداً. لكن يلوح أنه كان الجزء الأهم منه. فقد كان معظم سكان أتيكا قاصرين قبله على حيازة الأرض حيازة قابلة للزوال بل يمكن أن يعودوا إلى العبودية الشخصية. أما بعده فإنه لا يعثر على هذه الطبقة الكثيرة العدد من الناس ولا نعود نرى المستأجرين الخاضعين للفريضة ولا «الأرض الأمة» وأصبح حق التملك فى متناول الجميع. إن فى هذا لتغيراً كبيراً لا يمكن أن يصدر عن غير وصولون.

حقاً إننا إذا اكتفينا بأقوال بليوتارخوس فإن وصولون لم يعمل أكثر من تلطيف التشريع الخاص بالديون باننزاعه من الدائن حق استرقاق المدين (٢). ولكن يجدر أن ننظر عن قرب فيما يقوله كاتب، متأخر كل هذا التأخير عن تلك الفترة، عن الديون التى أثارت الاضطراب فى المدينة الأثينية كما أثارت فى جميع مدن بلاد الإغريق وإيطاليا. يصعب علينا أن نعتقد أنه كانت هناك قبل عصر

(١) Solon, édition Bach, p. 104, 105: Γῆ δουλεύουσα. Plutarque, (١)

Solon, 15: Γῆ ὑποκειμένη

(٢) فصل أرسطو إصلاح وصولون والإصلاحات التى تلتها تفصيلاً واضحاً فى كتابه «دستور الأثينيين». ولم يكن المؤلف يعرف هذا الكتاب إلا بالاسم فقط. إذ أن أوراق البردى التى تحويه اكتشفت بعد ظهور «المدينة العتيقة» بمدة طويلة. وقد عثر عليها فى مصر، وهى الآن من محتويات المتحف البريطانى ومتحف برلين. — العرب

صولون حركة في الأموال يحتمل معها أن يكون هناك عدد كبير من المقرضين والمقرضين. فلا نحكم على هذه العصور مما يجرى في العصور التالية . لقد كانت التجارة عندئذ ضئيلة جداً . وكان تبادل الديون غير معروف ، ولا بد أن القروض كانت نادرة إلى حد ما . أى رهن كان يستطيع أن يقرض عليه الرجل الذى لم يكن مالكاً لشيء ما ؟ ليس من المألوف فى أى مجتمع أن يقرض الناس أولئك الذين لا يملكون شيئاً . حقاً إنه يقال تصديقاً لترجمى بلوتارخوس ، وليس لبلوتارخوس ذاته ، إن المقرض كان يرهن أرضه (١) . ولكن حتى لو فرضنا أن هذه الأرض كانت ملكاً له فإنه لم يكن يستطيع أن يرهنها ؛ إذ أن طريقة الرهن لم تكن معروفة في ذلك الوقت ، وكانت متناقضة مع طبيعة حق الملك . لهذا يجب أن نرى في هؤلاء المدينين الذين يحدثنا عنهم بلوتارخوس الخدم القدماء ، وفي ديونهم الفريضة . السنوية التي كان يجب أن يدفعوها للسادة القدماء ، في الاسترقاق الذى يحقق بهم إذا لم يدفعوا ما عليهم الولاء القديم الذى كان يطوقهم من جديد .

ربما ألغى صولون الفريضة أو الأرجح أنه خفض قيمتها إلى قدر يجعل مشترائها أمراً هيناً ، وأضاف بالنسبة للمستقبل أن عدم السداد لا يؤدي بالرجل إلى الاسترقاق .

بل عمل أكثر من ذلك . فقبله لم يكن في استطاعة هؤلاء الموالى القدماء ، بعد أن أصبحوا واضعى يد على الأرض ، أن يصبحوا ملاكاً ؛ إذ أن التخيم المقدس المصان ، تخيم المولى القديم ، لا يزال قائماً في حقهم على الدوام . فكان لا بد من اختفاء

(١) يتكلم بلوتارخوس عن $\delta\rho\omicron\iota$. في عصر بلوتارخوس ، ومن قبل في عصر ديموستينيس ، كان يوجد $\delta\rho\omicron\iota$. وفي عهد صولون لم يكن الـ $\delta\rho\omicron\varsigma$ (التخيم المقدس) ، وما كان يستطيع أن يكون ، إلا $terminus$ (الحد) رمز حق الملك وضمانه . في الحالة التي نحن بصدددها يبين $\delta\rho\omicron\varsigma$ ، في الحقل الذى يشغله الثيس ، ملكية النسيب الكامنة .

(٢) كان الملك لا يزال للأسرة أكثر مما كان للشخص . ولم يصبح حق الملك حقاً فردياً إلا فيما بعد . وعندئذ فقط أمكن استعمال الرهن . ومع ذلك لم يدخل في الشرع الأثينى إلا بيجيلة البيع الوفاى بشرط الاسترداد .

هذا التخيم ليتحرر الزارع وتتححرر الأرض. لقد هدمه صولون: ونرى الدليل على هذا الإصلاح الكبير في بعض أبيات لصولون نفسه إذ يقول: «كان عملا غير مأمول وقد قمت به بمعونة الآلهة وأشهد على ذلك الإلهة الأم، الأرض السوداء، التي انتزعت حدودها في أكثر من موضع، تلك الأرض التي كانت أمة، وقد أصبحت الآن حرة». وبفعله هذا قام صولون بانقلاب هائل. فقد نحى جانبا ديانة الملك القديمة التي كانت تحفظ الأرض في عدد صغير من الأيدي باسم الإله التخيم الذي لا يتحرك. انتزع الأرض من الديانة ليعطيها للعمل. وقد محى مع سلطة النسيب على الأرض سلطته على الرجل، واستطاع أن يقول في أبيات له «لقد حررت أولئك الذين كانوا يتحملون الاسترقاق القاسي على هذه الأرض ويرتعدون أمام سيد ما».

ومن المحتمل أن يكون ذلك التحرير هو الذي سماه معاصرو صولون باسم *δειαρχία* (إلغاء الحمل). أما الأجيال التالية، التي تعودت الحرية، فإنها لم تكن تريد أو تستطيع أن تعتقد أن آباءها كانوا موالى ففسرت هذه الكلمة كما لو كانت تدل فقط على إلغاء الديون. لكن فيها عنفاً يكشف لنا عن ثورة أكبر من ذلك. ولنصف إلى ما ذكرنا هذه الحملة من أرسطو الذي يقول عن صولون دون أن يدخل في رواية عمله: «لقد أوقف استرقاق الشعب (١)»

٣ — تغير الولاء في روما

هذه الحرب بين الموالى والأولياء شغلت كذلك فترة طويلة من تاريخ روما والحق أن تيتوس ليفيوس لا يقول عنها شيئا إذ ليس من عادته أن يلاحظ عن قرب تغير الأنظمة، فضلا عن أن حوليات الأحبار والوثائق المشابهة التي استمد منها المؤرخون القدماء الذين تصفحهم تيتوس ليفيوس لا يمكن أن تعطى رواية هذه المنازعات الداخلية.

وهناك على الأقل أمر موثوق منه. كان هناك موال عند نشأة روما، بل لقد بقيت لنا أدلة دقيقة جداً عن التبعية التي فرضها عليهم أولياؤهم. فإذا بحثنا

Aristote, *Politique*, II, 9, 2: *Kai douleúonta τὸν δῆμον παῦσαι.* (١)

عن هؤلاء الموالى بعد ذلك بعدة قرون فإننا لا نجد لهم . كان الاسم لا يزال موجوداً
أما الولاء فلا . إذ ما من شيء يختلف عن موالى العهد البدائي أكثر مما يختلف
هؤلاء السوقة من عصر سيسرون الذين كانوا يدعون أنفسهم موالى لرجل ثرى
لكى يكون لهم الحق فى هباته .

هناك من يشبه المولى القديم أكثر من هؤلاء وهو المعتق (١). فإن الرجل ،
سواء فى نهاية الجمهورية أو فى العصور الأولى لروما ، لم يكن يصبح رجلاً
حرّاً ومواطناً بمجرد خروجه من الرق . بل كان يبقى خاضعاً للسيد . كانوا
يسمونهم فيما مضى مولى والآن يسمونه معتق ؛ فلم يتغير غير الاسم . أما السيد فتحى
اسمه لم يتغير ؛ كانوا يسمونه فيما مضى ولياً (Patronus) ، ولا زالوا يسمونه
كذلك . ويبقى المعتق ملازماً للأسرة كما كان المولى فيما مضى ؛ ويحمل اسمها كما كان
يفعل المولى القديم . وهو تابع لوليه ، وليس مديناً له بالجميل فحسب بل بخدمة
حقيقية بين السيد وحده مداها . للمولى ولاية القضاء على معتقه كما كانت له
على مولاه ؛ ويستطيع أن يسترقه بحرمة جمحود بالجميل (٢) . وبذلك يذكرنا
المعتق بالمولى القديم تماماً ؛ فليس بينهما غير فرق واحد : كانوا ، فيما مضى ،
موالى ابناً عن أب ؛ والآن تنهى حالة المعتق عند الجيل الثانى أو ، على الأكثر ،
الثالث . لم يختلف الولاء إذن . كان يمسك بالإنسان فى اللحظة التى يتركه
الاسترقاق فيها ؛ وكل ما فى الأمر أنه لم يعد وراثياً . وهذا وحده تغير هائل ،
ومن المحال القول فى أية فترة تم ذلك .

(١) كان المعتق يصبح مولى . وتبين مطابقة هذين المصطلحين من فقرة فى
ديونيسيوس ٤ : ٢٣ .

(٢) دييجست السفر ٢٥ الباب ٢ : ٥ ؛ السفر ٥٠ الباب ١٦ : ١٩٥ . قاليريوس
ماكسيموس ٥ : ١ : ٤ . سويتونيوس : كلوديوس ٢٥ . ديوكاسيوس ٥٥ . كان
التشريع هو بذاته فى أثينا . أنظر ليسياس وهيريديس (Hypérides) فى هاريقراطيون
تحت لفظ ἀποστασίον ، ديموستينيس ضد أرسطوغيتون ، وسويداس تحت لفظ Ἀναγκάιον .
وقد عدد أفلاطون (القوانين ١١ ص ٩١٥) واجبات العتقاء . بيد أنه من الواضح
بما فيه الكفاية أن هذه القوانين القديمة لم تكن مرعية فى عصر أفلاطون .

يمكن جيداً تمييز مظاهر الرق المتتالية التي أدخلت على مصير المولى وبأى الدرجات وصل إلى حق التملك . ففي الأصل ، كان رئيس الفصيلة يخصص له نصيباً من الأرض ليزرعه (١) ثم لم يلبث أن أصبح حائزاً لهذا النصيب مدى الحياة مقابل مساهمته في جميع المصروفات التي يتحملها سيده القديم . وفي نصوص القانون القديم القاسية ، التي تلزمه بسداد فدية المولى وبأثثة ابنته وغراماته القضائية ، ما يدل على الأقل على أنه كان يستطيع أن يكون له مال مدخر في الوقت الذي حرر فيه هذا القانون . ثم تقدم المولى خطوة أخرى ، فنال الحق في أن يترك لابنه ما يملكه عند موته . حقاً إن ماله لا زال يعود إلى وليه عند انعدام الابن . لكن هاك تقدماً جديداً : حصل المولى الذي لا يترك ابناً على حق الوصية . وهنا يحار العرف ويتقلب ، فأحياناً يسترد الولي نصف المالا ، وأحياناً تحترم إرادة الموصي احتراماً كاملاً . وعلى كل حال فإن وصيته لم تكن عديمة القيمة دائماً (٢) . فإذا كان المولى لا يزال عاجزاً عن الادعاء بأنه مالك فإن له على الأقل تمتعاً واسعاً على قدر الاستطاعة .

ولا ريب في أن ذلك لم يكن تحريراً كاملاً . لكن ما من وثيقة تسمح لنا بأن نحدد العصر الذي انفصل فيه الموالي عن أسرات البطارقة انفصالاً نهائياً . هناك عدة نصوص في تيتوس ليشيوس (٣) تبين ، إذا ما وقفنا عند حقيقتها ، أن الموالي كانوا مواطنين منذ السنوات الأولى من الجمهورية ؛ وهناك شبهة كبيرة في أنهم كانوا كذلك في عصر سرفيوس ؛ وربما كانوا يصوتون في لجان الندوات منذ ابتداء روما . لكن لا يمكن أن نستخلص من ذلك أنهم كانوا منذ ذلك الوقت محررين تماماً . إذ أنه من الممكن أن البطارقة قد وجدوا مصلحتهم في إعطاء مواليهم حقوقاً سياسية وجعلهم يصوتون في اللجان دون أن يوافقوا مع ذلك على إعطائهم حقوقاً مدنية أى على أن يحرروهم من سلطتهم .

(١) فستوس تحت لفظ (patres) .

(٢) قواعد جوستينيانوس ٣ : ٧ .

(٣) Tite-Live, II, 16: *Atti Clausi clientibus civitas data*, II, 64:

Per patres clientesque patrum consules creati.

لا يلوح أن الانقلاب الذى حرر الموالى فى روما قد تم واحدة كما فى أثينا دفعة . بل لقد تم ببطء كبير وعلى نهج لا يكاد يحس ودون أن يثبتته قانون صريح . فقد تراخت روابط الولاء شيئاً فشيئاً وابتعد المولى عن الولى بتدرج غير محسوس . قام الملك سرفيوس بإصلاح كبير لمنفعة الموالى : غيّر تنظيم الجيش . فقد كان الجيش قبله يسير موزعاً فى قبائل وندوات وفصائل (*gentes*) ؛ وكان ذلك هو التوزيع البطريقى ؛ كان كل رئيس فصيلة (*gens*) على رأس مواليه . فقسم سرفيوس الجيش إلى فرق مئينة ؛ وكانت لكل واحد مرتبته طبقاً لثروته . ففتح عن ذلك أن المولى لم يعد يسير بجوار وليه ، ولم يعد يعترف به رئيساً فى القتال ، وتعود على الاستقلال .

وقد جرّ هذا التغيير تغييراً آخر فى تكوين اللجان . كان المجلس فيما قبل ينقسم إلى ندوات وفصائل (*gentes*) وإذا صوت المولى فإنما كان يصوت بمرأى من وليه . لكن عندما تقرر التقسيم حسب الفرق المئينة فى اللجان وفى الجيش لم يعد المولى يجد نفسه فى نفس النطاق الذى فيه وليه . حقاً إن القانون القديم لا زال يأمره بأن يصوت مثل وليه ، لكن كيف يمكن التحقق من تصويته .

لقد كان كثيراً أن يفصل المولى عن الولى فى أكثر الأوقات احتفالاً فى الحياة : فى وقت القتال وفى وقت التصويت . لقد أصبحت سلطة الولى متقصصة جداً وأصبح ما تبقى له منها موضعاً للجدل كل يوم أكثر من سابقه . وبمجرد أن ذاق المولى طعم الاستقلال أرادته كاملاً . فتطلع إلى الانفصال عن الفصيلة والدخول فى زمرة السوق حيث يكون حراً . وكم من الفرص كانت سانحة ! كان فى عهد الملوك واثقاً من معونتهم إذ كان خير مطلب لهم هو إضعاف الفصائل . وفى عهد الجمهورية كان يجد حماية السوق ذاتها وحماية العرفاء . وهكذا تحرر كثير من الموالى ولم تستطع الفصيلة أن تضع يدها عليهم ثانية . وفى سنة ٤٧٢ قبل الميلاد كان عدد الموالى لا يزال على شىء من الجسامة بحيث كانت السوق تشكو من أنهم كانوا يميلون الميزان بأصواتهم فى لجان الفرق المئينة ،

إلى جانب البطارقة (١) . وعندما أبت السوق أن تجند ، حوالى تلك الفترة ، استطاع البطارقة أن يكونوا جيشاً مع مواليتهم (٢) ، بيد أنه يلوح أن هؤلاء الموالى لم يكونوا من الكثرة بحيث يزرعون بمفردهم أراضي البطارقة واضطر هؤلاء أن يستعينوا بأذرعة من السوق (٣) . من المحتمل أن إنشاء العرفاء قد عجل بهذه الحركة التدريجية نحو التحرير بضمانه للموالى الآبقين حماة ضد أوليائهم القدماء ويجعله مركز السوق أشد استمالة وأكثر أمناً . فى سنة ٣٧٢ لم يكن هناك موال واستطاع رجل مثل مانليوس أن يقول للسوق : « بقدر ما كنتم موالى حول كل ولى بقدر ما ستكونون الآن خصوماً ضد عدو واحد (٤) . » وابتداء من ذلك الوقت لم نعد نرى فى روما هؤلاء الموالى القدماء ، القوم المرتبطين بالفصيلة ارتباطاً وراثياً . وحل محل الولاء القديم ولاء من نوع جديد ، رباط اختيارى يكاد يكون وهمياً ولا يستدعى نفس الالتزامات . ولم يعودوا يميزون فى روما بين الطبقات الثلاث : البطارقة والموالى والسوق . فلم يبق منها غير اثنين واندماج الموالى فى السوق .

ويلوح أن آل ماركيلوس (Marcellus) كانوا فرعاً انفصل هكذا عن فصيلة كلوديا gens Claudia . كان اسمهم كلودىوس ولكن ما داموا ليسوا بطارقة فمن المحتم أنهم لم يكونوا جزءاً من الفصيلة إلا باعتبارهم موالى . تحرروا فى وقت مبكر وأثروا بوسائل مجهولة لنا ؛ وبذلك ارتفعوا أولاً إلى مناصب السوق ، ثم إلى مناصب المدينة . وقد بدت الفصيلة كلوديا عدة قرون كما لو كانت قد أنست حقوقها القديمة عليهم . بيد أنها تذكرتها يوماً ما فى زمن سيسرون على غير انتظار (٥) . فقد مات أحد عتقاء أو موالى آل ماركيلوس وترك ميراثاً كان يجب بحكم القانون أن يعود للولى . فادعى البطارقة آل كلودىوس أنه

(١) تيتوس ليفيوس ٢ : ٥٦ .

(٢) ديونيسيوس ٧ : ١٩ ، ١٠ : ٢٧ .

(٣) Tite-Live, II, 34: *Inculti per secessionem plebis agri*

(٤) تيتوس ليفيوس ٦ : ٤٨ .

(٥) سيسرون : الخطيب ١ : ٣٩ .

ليس باستطاعة آل ماركيلوس أن يكون لهم موال إذ أنهم كانوا موالى هم أنفسهم . وأن عتقاءهم ، وميراثهم ، يجب أن يهوا في يد رئيس الفصيلة البطريقية ، وهو دون سواه صاحب الأهلية في ممارسة حقوق الولاية . وقد أثارت هذه القضية دهشة كبيرة في الجمهور وحيرت الفقهاء . بل إن سيسرون وجد المسألة غامضة جداً . لكنها لو جاءت قبل ذلك بأربعة قرون لما كانت كذلك ، ولكسب آل كلوديوس قضيتهم . لكن في عصر سيسرون كان الحق الذي أسسوا عليه مطالبهم قد بلغ من القدم ما جعلهم ينسوه ويمكن المحكمة من أن تقضى لآل ماركيلوس . لم يعد للولاء القديم وجود .

الفصل السابع

ثورة ثالثة . السوقة فى المدينة

١ - تاريخ عام لهذه الثورة

أدت التغييرات التى حدثت فى تكوين الأسرة مع مضى الزمن إلى تغييرات أخرى فى تكوين المدينة . فقد ضعفت الأسرة السرية والكهنوتية القديمة . أدى اختفاء حق البكورة إلى فقدان وحدتها وعنفوانها ؛ وأدى تحرر معظم الموالى إلى فقدان الجزء الأكبر من رعاياها . ولم يعد رجال الطبقة الدنيا موزعين فى الفصيلة ، بل يعيشون خارجها ؛ ولذلك كونوا هيئة فيما بينهم . ومن هنا تغير مظهر المدينة . فبدلاً من أن تكون ، كما كانت فى الماضى ، مجموعة ضئيلة الارتباط من عدد من الدويلات الصغيرة بقدر ما كان هناك من أسرات أصبح الارتباط قائماً بين البطارقة من أعضاء الفصائل من ناحية وبين رجال الطبقة الدنيا من ناحية أخرى . وهكذا تواجدت هيئتان كبيرتان ومجتمعان متخاصمان . لم يعد الأمر ، كما كان فى العهد الماضى ، نزاعاً غامضاً فى كل أسرة ، بل أصبح حرباً علنية فى كل مدينة . تريد إحدى الطبقتين المحافظة على كيان المدينة الدينى وعلى بقاء الحكومة والسكهنوت كذلك فى يد الأسرات المقدسة ، وتريد الأخرى أن تحطم الحواجز القديمة التى كانت تضعها خارج الشرع والدين والمجتمع السياسى .

فى الشطر الأول من النزاع كانت الغلبة للسراة بالمولد . حقاً إنه لم يبق لها رعاياها القدماء وهوت قوتها المادية ، ولكن بقيت لها مكانة ديانتها ، ونظامها المنسق ، وإيلافها الإمرة ، وأثاريتها ، وكبرياؤها الموروث . لم يكن يداخلها ريب فى حقها ؛ واعتقدت أنها بدفاعها عن نفسها كانت تدافع عن الدين . ولم يكن للشعب غير كثرة عدده ؛ كانت تعوقه عادة الاحترام التى لم يكن يسهل عليه التخلص

منها ، فضلاً عن أنه لم يكن له رؤساء ؛ كان ينقصه كل مبدأ للنظام . كان في البدء جمهوراً بدون رابط أكثر مما كان هيئة حسنة النظام شديدة القوى . وإذا ما تذكرنا أن الناس لم يكونوا قد وجدوا مبدءاً آخر للتجمع غير ديانة الأسرات الوراثية ، وأنه لم تكن قد طرأت بخاطرهم فكرة عن سلطة غير مشتقة من العبادة فإننا نفهم بسهولة أن هذه السوقة ، التي كانت خارج العبادة والديانة ، لم تستطع في البدء أن تكون مجتمعاً منظماً وأنها كانت في حاجة لكثير من الزمن لكي تجد في نفسها عناصر للنظام وقواعد للحكومة .

في البدء لم تر هذه الطبقة الدنيا ، في حالة ضعفها ، وسيلة أخرى لمحاربة السراة غير أن تواجهها بالملكية .

ففي المدن التي كانت الطبقة الشعبية قد تكونت فيها في عهد الملوك القدماء ، عاضدت هذه الطبقة الملوك بكل ما ملكت يمينها وشجعتهم على إنماء سلطانهم . وتمسكت ، في روما ، بإعادة الملكية بعد رومولوس وعينت هوستيليوس (Hostilius) ؛ ونصبت تاركوينيوس الأكبر ملكاً ؛ وأحبت سرفيوس ؛ وتحسرت على تاركوينيوس الفاخر .

وعندما غلب الملوك وأصبحت طبقة السراة صاحبة السيادة ، لم يقتصر الشعب على التحسر على الملكية بل تطلع إلى إعادتها في صورة أخرى . وفي بلاد الإغريق ، في القرن السادس ، نجح بصفة عامة في منح نفسه رؤساء ؛ ولما كان لا يستطيع أن يسميهم ملوكاً لأن هذا اللقب كان يتضمن فكرة الوظائف الدينية ولا يمكن أن تحمله غير الأسرات الكهنوتية فقد سماهم طغاة (tyrants) (١) .

ومهما يكن المعنى الأصلي لهذه الكلمة فإنه من الموثوق به أنها لم تكن مستعارة من لغة الديانة . ولم يكن من المستطاع أن توصف بها الآلهة كما كانوا يفعلون بكلمة ملك . ولم يكن يتلفظ بها في الأدعية . والواقع أنها كانت تدل على شيء جديد جداً بين الناس ، على سلطة لم تكن مشتقة من العبادة ، على سلطة

(١) في بعض الأحيان كان يترك اسم ملك لهؤلاء الرؤساء الشعبيين إذا كانوا من سلالة الأسرات الدينية : هيرودوت ٥ : ٩٢

لم تقمها الديانة . ويدل ظهور هذه الكلمة في اللغة الإغريقية على ظهور مبدأ لم تعرفه الأجيال الماضية ، ألا وهو طاعة الإنسان للإنسان . إلى ذلك الحين لم يكن هناك رؤساء للدولة غير أولئك الذين كانوا رؤساء للديانة ، ولم يكن يأمر في المدينة غير الذين يقدمون القربان ويدعون الآلهة لها . فمن أطاعهم فإنما يطيع القانون الديني ويقدم الخضوع للمعبود دون سواه . أما طاعة رجل ما ، والسلطة المعطاة لهذا الرجل من قبل رجال آخرين ، أي سلطة بشرية محضة في أصلها وطبيعتها ، فذلك ما كان يجهله النساباء القدماء ولم يدخل في الأذهان إلا اليوم الذي ألفت فيه الطبقات الدنيا نير السراة وبحثت عن حكومة جديدة .

ولنذكر بعض أمثلة في قورنثه « كان الشعب يتحمل سيادة الباكخوسيين (Bacchiades) بعناء . فلما شهد كيپسيلوس (Cypselus) الحقد الذي كانوا يحملونه لهم ورأى الشعب يبحث عن رئيس يقوده إلى التحرير » عرض نفسه ليكون ذلك الرئيس . وقبله الشعب ، وجعله طاغية ، وطرده الباكخوسيين ، وأطاع كيپسيلوس (١) . واتخذت ميليتوس (Milet) طاغية شخصاً يدعى ثراسيبولوس (Thrasybule) . وأطاعت ميتيلينه (Mitylène) بيتاكوس (Pittacus) ، وساموس پوليكراتيس (Polycrate) ؛ ونجد طغاة في أرغوس وإبيدوروس وميغارا وخالكيس (Chalcis) خلال القرن السادس . وكان لسقيوثون (Sicyone) طغاتها خلال مائة وثلاثين عاماً كاملة بدون انقطاع (٢) . وبين إغريق إيطاليا نجد طغاة في كومه (Cumes) وكروتون وسيباريس وفي كل مكان . وفي سيراكوسه ، في سنة ٤٨٥ ، جعلت الطبقة الدنيا من نفسها سيدة البلاد وطردت طبقة السراة لكنها لم تستطع البقاء ولا الحكم ، وبعد سنة اضطرت أن تتخذ لها طاغية (٣) . وقد اتبع هؤلاء الطغاة سياسة واحدة في كل مكان مع تفاوت في العنف . فيوما ما سأل طاغية من قورنثه طاغية من ميليتوس بعض نصائح عن الحكومة

-
- (١) هيرودوت ٥ : ٩٢ . أرسطو . السياسية ٥ : ٩ : ٢٢ . ديودوروس ٧ : ٢ . بومانياس ٢ : ٣ — ٤ . نيقولا الدمشقي ، قطعة ٥٨ .
- (٢) هيرودوت ١ : ٢٠ : ٥ ؛ ٦٧ ، ٦٨ ؛ أرسطو : السياسية ٣ : ٨ : ٣ : ٥٤ ؛ ٤ : ٥ : ٥ ؛ ٨ : ٤ ؛ بلوتارخوس : صولون ١٤ .
- (٢) هيرودوت ٧ : ١٥٥ . ديودوروس ١٣ : ٢٢ . أرسطو ٥ : ٢ : ٦ .

وكل ما أجب به هذا الأخير أنه قطع سنابل من القمح كانت تزيد ارتفاعاً عن الأخرى . تلك كانت قاعدة سلوكهم أن يطيحوا بالروؤوس العالية وأن يضربوا السراة بالاعتماد في ذلك على الشعب .

تآمرت السوق الرومانية أولاً لإعادة تاركوينيوس ؛ ثم حاولت أن تنشئ طغاة وألقت بأنظارها على بوبليكولا (Publicola) وسپوريوس كاسيوس (Spurius Cassius) ومانليوس (Manlius) الواحد تلو الآخر . ولا يمكن أن تكون مجرد تشهير تلك المهمة التي كثيراً ما كانت توجهها طبقة السراة لمن يجعل نفسه شعبياً من أبناء طائفها فإن توجس العظماء يدل على رغبات السوق .

لكن لا بد لنا من أن نلاحظ جيداً أنه إذا كان الشعب ، في بلاد الإغريق وفي روما ، يبحث عن إقامة الملكية من سطتها فإن ذلك لم يكن وليد تعلق حقيقي بهذا النظام . فإنه لم يكن يجب الطغاة بقدر ما كان يبغض السراة . كانت الملكية عنده وسيلة للغلبة والانتقام ؛ لكن هذه الحكومة التي لم تخرج إلا من حق القوة ولم تعتمد قط على أية أثارة مقدسة لم يكن لها جذور في قلوب الأهلين قط . كانوا يتخذون طاغية لداعى النزاع ؛ ثم يتركون له السلطة اعترافاً بالجميل أو بحكم الضرورة . لكن بعد أن تمضي بضع سنوات وتمحي ذكرى حكم الأقلية القاسى كانوا يستطيعون إسقاط الطاغية . لم تنل هذه الحكومة عطف الإغريق إطلاقاً ولم يقبلوها إلا كوسيلة مؤقتة وإلى أن يجد الحزب الشعبي نظاماً خيراً منها ويشعر بالقدرة على حكم نفسه بنفسه .

كبرت الطبقة الدنيا شيئاً فشيئاً . وهناك أنواع من التقدم تم في غموض لسكنها تقرر مستقبل طبقة من الناس وتغير مجتمعاً . فحوالى القرن السادس قبل الميلاد رأت بلاد الإغريق وإيطاليا انبثاق منبع جديد للثروة . لم تكن الأرض كافية لكل حاجات الإنسان ؛ واتجهت الأذواق نحو الجمال والترف . حتى الفنون أخذت تولد . وعندئذ أصبحت الصناعة والتجارة شيئاً ضرورياً . فتكونت الثروة المنقولة شيئاً فشيئاً ؛ وسكت العملة ؛ وظهر النقد . وكان ظهور النقد ثورة كبيرة . فلم يكن النقد خاضعاً لنفس شرط الملك التي كانت تخضع لها الأرض . كان طبقاً لتعبير الفقيه *res nec mancipi* . كان يمكن أن ينتقل من

يد ليد دون أى إجراء دينى ويصل للسوقه من غير عائق . فلم يكن فى استطاعة الديانة التى طبعت الأرض بطابعها أن تفعل شيئاً ما فى النقد .

وعندئذ عرف أهل الطبقة الدنيا شاغلا آخر غير فلاحه الأرض : فكان هناك صناع وملاحون ورؤساء صناعة وتجار ، ولم يلبث أن وجد بينهم أثرياء . فإياها من جدّة فذة ! ففيا مضى لم يكن يستطيع أن يكون مالكا غير رؤساء الفصائل وحدهم ، وها هم أولاء موال سابقون وبعض السوقه يصبحون أثرياء ويبدون عن ترفهم . ثم إن الترف الذى كان يغنى رجل الشعب كان يفقر النسب ؛ ففى كثير من المدن ، وعلى الأخص فى أثينا ، رؤيت فئة من أعضاء هيئة السراة تهوى فى البؤس . فى مجتمع تتحول فيه الثروة لا تلبث درجات الناس أن تنقلب رأساً على عقب . .

ونتيجة أخرى لهذا التغير هى إقامة فوارق ودرجات فى الشعب ذاته ، كما يجب أن يكون فى كل مجتمع بشرى . فبرزت بعض الأسرات ، وكبرت بعض الأسماء شيئاً فشيئاً ، وتكون فى الشعب نوع من السراة ؛ ولم يكن فى ذلك بأس ؛ فقد كفت السوقه عن أن تكون كتلة مختلطة وابتدأت تشبه هيئة منظمة . وما دامت فيها مراتب فإنها تستطيع أن تتخذ رؤساء دون حاجة إلى اتخاذ أول طامع يطرأ من بين البطارقة ويريد أن يملك . وسرعان ما أصبح لهؤلاء السراة السوقيين تلك الصفات التى ترافق عادة الثروة المكتسبة من العمل ، أى الشعور بالقيمة الشخصية ، والمحبة للحرية الهادئة ، وتلك الروح الحكيمة التى تتمنى ضروب الإصلاح وتخشى المغامرات . وأذعنت العامة لقيادة هذه النخبة التى كانت فخورة بوجودها فيها . وقد رغبت السوقه عن أن يكون لها طغاة بمجرد ما شعرت باستطاعتها من أن تجد فى صميمها عناصر لحكومة أحسن من تلك . وأخيراً أصبحت الثروة لوقت ما مبدءاً لتنظيم إجتماعى كما سئرى بعد قليل .

لازال هناك تغير يجب الكلام عنه إذ أنه ساعد كثيراً على نمو الطبقة الدنيا ، ألا وهو التغير الذى حدث فى الفن العسكرى . فى القرون الأولى من تاريخ المدن كانت قوة الجيوش فى الفرسان . وكان المحارب الحقيقى هو الذى يحارب على مركبة أو على جواد . أما المشاة فكانوا قليلي القيمة إذ كانوا قليلي النفع

في القتال . لذلك احتفظت طبقة السراة القديمة في كل مكان بحق القتال على ظهر جواد (١) . بل إن الأشراف اتخذوا في بعض المدن لقب فرسان. فال *celeres* من اتباع رومولوس، والفرسان الرومان (*chevaliers romains*) في القرون الأولى، كانوا جميعاً من البطارقة . كانت الفروسية هي السلاح النبيل عند القدماء . لكن المشاة أصبحت رويداً رويداً على شيء من الأهمية . فقد سمح لها التقدم في صناعة الأسلحة ونشأة النظام العسكري أن تقاوم الفرسان . وبمجرد الحصول على هذه الخطوة احتلت الصف الأول في المعارك إذ أنها كانت أطوع لليد وأسهل حركة . فأصبح مشاة الفيالق (*legionnaires, hôplites*) قوة الجيش منذ ذلك الوقت . وهؤلاء الرجال من السوقة. أضف إلى هذا أن البحرية قد اتسعت على الأخص في بلاد الإغريق ، وأنه قد شجرت معارك في البحار ، وكثيراً ما كان مصير مدينة بين يدي مجذفيها، أي السوقة . والطبقة التي لها كفاية من القوة لكي تدافع عن المجتمع ، لها كفاية من القوة لكي تكسب فيه حقوقاً وتمارس سلطة مشروعة . فإن الحالة الاجتماعية والسياسية في أمة ما على صلة دائماً بطبيعة أسلحتها وتكوينها .

وأخيراً نجحت الطبقة الدنيا في أن يكون لها هي أيضاً ديانتها . ويحق لنا أن نزن أنه كان في قلب أولئك الرجال هذا الإحساس الديني الذي لا يفصل عن طبيعتنا والذي يجعلنا في حاجة إلى العبادة والصلاة . لذلك كانوا يتألمون من رؤيتهم أنفسهم مبعدين عن الديانة طبقاً للمبدأ العتيق الذي ينص على أن كل إله يتبع أسرة واحدة وأن حق الدعاء لا ينتقل إلا مع الدم . فعملوا على أن تكون لهم عبادة أيضاً .

يستحيل أن ندخل هنا في تفصيل الجهود التي بذلوها والوسائل التي تصورها والصعوبات أو الموارد التي اعترضتهم . فقد لبث ذلك العمل فردياً مدة طويلة، ولذلك بقي زمناً طويلاً سراً في ضمير كل فرد ؛ فلا نستطيع أن نبصر غير

(١) لاحظ أرسطو أن دستور جميع المدن القديمة ، التي كان الفرسان فيها هم السلاح السائد ، كان يضع السلطة في يد أقلية من السراة . السياسة ٤ : ٣ : ٢ .

نتأجه . فى بعض الأحيان ، كانت إحدى أسرات السوق تصنع لنفسها موقداً؛ إما لأنها تجاسرت على إيقاده من ذاتها وإما لأنها حصلت على النار المقدسة من جهة أخرى ؛ فأصبحت لها عندئذ عبادتها ومقدسها ومعبودها الحامى وكهنوتها على نمط الأسرة البطريقية . وفى بعض الأحيان ، كان للسوق أن يدخل معابد المدينة دون أن تكون له عبادة منزلية . ففى روما كان الذين لا موقد لهم ، وبالتالى ليس لهم عيد منزلى ، يقدمون قربانهم السنوى للإلهة كويرينوس (Quirinus) . وعندما تشبثت الطبقة العليا بإقصاء الطبقة الدنيا عن معابدها أقامت هذه الأخيرة معابد لنفسها . فكان لها فى روما معبد على الأفينتينوس مخصص لديانا ؛ كان لها معبد للحياء السوقى . وقد تلقت السوق بحماس العبادات الشرقية التى تدفقت على بلاد الإغريق وإيطاليا ابتداء من القرن السادس ؛ وهى عبادات كالمذهب البوذى لا تستثنى طبقة ولا شعباً . وأخيراً كثيراً ما رويت السوق تصنع لنفسها أشياء مقدسة شبيهة بآلهة الندوات والقبائل البطريقية . وهكذا أقام الملك سرفيوس مذبحاً فى كل حى لكى تكون للجمهور فرصة لتقديم القرابين . وكذلك أقام الپيسىستراتيون (Pisistratides) أنصاب هرمس فى الشوارع وفى ميادين أثينا (٢) . فكانت هذه هى آلهة حكم العامة (الديموقراطية) . لقد كانت السوق فيما مضى جمهوراً لا عبادة له ، فأصبح لها منذ الآن احتفالاتها الدينية وأعيادها ؛ لقد استطاعت أن تصلى . وذلك شئ كثير فى مجتمع كانت الديانة فيه تخلق كرامة الإنسان .

عندما أتمت الطبقة الدنيا هذه الدرجات المختلفة من التقدم ، وعندما أصبح فى عدادها أثرياء وجنود وكهنة ، وعند ما أصبح لها كل ما يعطى الإنسان الإحساس بقيمته وقوته ، وأخيراً ، عندما أجبرت الطبقة العليا على حسابها

(١) فارون : اللغة اللاتينية ٦ : ١٣ .

(٢) ديونيسيوس ٤ : ٥ . أفلاطون : هيبارخوس . هاربوقراطيون ، تحت كلمة

شيئاً ما ، عندئذ أصبح من المستحيل إبقاؤها خارج الحياة الاجتماعية والسياسية ولم تستطع المدينة أن تبقى موصدة الأبواب أمامها زمناً أطول من ذلك .

كان دخول هذه الطبقة الدنيا في المدينة ثورة ملأت تاريخ بلاد الإغريق وإيطاليا من القرن السابع إلى القرن الخامس . حازت جهود الشعب النصر في كل مكان ، لكنها لم تحزه بنفس الطريقة ولا بنفس الوسائل في كل مكان .

هنا ، ثار الشعب بمجرد شعوره بالقوة . فانتضى سلاحه في يده واقتحم أبواب المدينة التي كان محرماً عليه أن يسكن فيها وعند ما أصبح سيداً طرد الكبراء واحتل منازلهم أو اكتفى بتقرير المساواة في الحقوق . وهو ما حدث في سيراكوسه وإريثراي (Erythrées) وميليتوس .

وهناك ، على العكس ، استعمل الشعب وسائل أقل عنفاً وأجبر الكبراء على التنازل عن بعض الأمور من غير قتال مسلح بل فقط بالقوة المعنوية التي وهبها له تقدمه الأخير . وعندئذ عينوا مشرعاً وبدلوا الدستور . وذلك ما حدث في أثينا .

وفي أمكنة أخرى وصلت الطبقة الدنيا إلى هدفها على درجات من غير اضطراب أو انقلاب . فمن ذلك ، في كومه (Cumes) ، كان عدد أعضاء المدينة محدوداً جداً في البدء فازداد أول مرة بقبول أفراد الشعب الذين كان لهم من الثروة ما يسمح بتغذية جواد . ثم رفعوا بعد ذلك عدد المواطنين إلى الألف . وفي النهاية وصلوا تدريجياً إلى حكم العامة (الديمقراطية) (١) .

وفي بعض البلدان كان قبول السوقة بين المواطنين من عمل الملوك . كذلك كان في روما . وفي بلاد أخرى ، كان من عمل الطغاة الشعبيين ، وهو ما عمل في قورنثه وسيفييون وأرغوس . وعندما تغلبت طبقة السراة من جديد كانت في العادة على درجة من الحكمة بحيث تركت للطبقة الدنيا لقب المواطن الذي

(١) هيراقليديس في *Fragments des hist. grecs*, coll. Didot, t. II, p. 217

وهبه لها الملوك والطغاة . وفي ساموس لم يصل السراة إلى نهاية نضالهم ضد الطغاة إلا بتحرير أحط الطبقات . ومن الإفراط في الإطئاب أن نعد جميع الصور المختلفة التي تمت عليها هذه الثورة الكبيرة . كانت النتيجة واحدة في كل مكان . نفذت الطبقة الدنيا إلى المدينة وأصبحت جزءاً من الهيئة السياسية .

يعطينا الشاعر ثيوغنيس فكرة على شيء من الجلاء عن هذه الثورة وعن عواقبها . يخبرنا أنه في موطنه في ميغارا نوعان من الناس ، يسمى أحدهما طبقة الصالحين *dyaot* ، وهو في الواقع الاسم الذي تخلعه على نفسها في معظم البلدان الإغريقية ، ويسمى الآخر طبقة الطالحين *xanoi* وهو أيضاً الاسم الذي تعودوا أن يطلقوه على الطبقة الدنيا . وهذه الطبقة الأخيرة يصف لنا الشاعر حالتها القديمة : « لم تكن فيما مضى تعرف المحاكم ولا القوانين » ؛ وفي هذا ما يكفي للقول بأنه لم يكن لها حق المدينة . بل لم يكن مسموحاً لهؤلاء الناس أن يقتربوا من البلدة ؛ « كانوا يعيشون في الخارج كالوحوش » . لم يكونوا يشهدون الأكلات الدينية ؛ ولم يكن لهم حق الزواج من أسرات الصالحين .

لكن كم تغير كل هذا ! اضطربت المراتب ، « ووضع الطالحون فوق الصالحين » . واختلت العدالة . واختفت القوانين العتيقة ، وحلت مكانها قوانين غريبة في جدتها . وأصبحت الثروة المطمع الوحيد لرغبات الناس لأنها تهب القوة . يتزوج الرجل النبيل المختد بابتنة الثرى من السوق ، « والزواج يحدث اختلاط الأصول » .

عبثاً حاول ثيوغنيس وهو من سلالة أسرة من السراة أن يقاوم تيار الأمور . حكم عليه بالنفي وجرد من أملاكه فلم يبق له غير أشعاره للاحتجاج والقتال . لكنه إن كان لا يرجو النصر فإنه لا يشك ، على الأقل ، في عدالة قضيته ؛ تقبل الهزيمة لكنه حافظ على الشعور بحقه . وفي نظره أن الثورة التي حدثت هي ضرر خلق بل جريمة . وباعتباره ابن السراة كان يلوح له أن هذه الثورة لا تجد نصيراً في العدالة ولا الآلهة وأنها إضرار بالدين . يقول : « هجر الآلهة

الأرض ؛ ولا يخافهم أحد . اختفى عنصر الرجال الأتقياء ؛ لم يعد أحد يعنى بالخالدين .

إن هذه التحسرات لا تجدى ، وهو يعرف ذلك جيداً . فإذا تأوه هكذا فإنما تأوهه كواجب من واجبات البئر ، لأنه تلقى « الأثارة المقدسة » عن القدماء ومن واجبه أن يخلدها . لكن عبثاً يحاول . فإن الأثارة نفسها تؤذن بالذبول وسوف ينسى أبناء النبلاء نبأهم ، وعما قريب نراهم جميعاً متحدين بأسرات السوق عن طريق الزواج « سيشربون في أعيادهم ويأكلون على موائدهم » ، وعما قريب يقتبسون إحساساتهم . في عصر ثيوغنيس كان التحسر هو كل ما بقي للسراة الإغريق ، وسوف يختفى هذا التحسر بدوره .

والواقع أن النبلاء لم يعودوا بعد ثيوغنيس إلا مجرد ذكرى . استمرت الأسرات الكبيرة تحافظ في ورع على العبادة المنزلية وذكرى الأسلاف . لكن ذلك كان كل شيء . لا زال هناك أشخاص يلهون بتعداد أجدادهم ؛ لكنهم كانوا يضحكون من هؤلاء الناس (١) . ولقد حافظوا على عادة الكتابة على بعض القبور أن المتوفى من أصل نبيل ؛ لكن لم يبذل أى مسعى لإقامة نظام قد هوى إلى الأبد . يقول إيسوقراط وهو محق في قوله إن الأسرات الكبيرة ، في أثينا ، في عصره ، لم تعد موجودة إلا في قبورها .

وهكذا تبدلت المدينة القديمة على درجات . كانت في الأصل تجمعاً من حوالى المائة من رؤساء الأسرات . وفيما بعد ازداد عدد المواطنين لأن الفروع الصغرى حصلت على المساواة . وبعد ذلك جاء الموالى المحررون والسوقة وكل هذا الجمهور الذى بقى قروناً خارج الجماعة الدينية والسياسية بل أحياناً خارج سور البلدة المقدس . فأسقطوا الحواجز التى وضعت في طريقهم ونفذوا إلى المدينة ، وسرعان ما أصبحوا أصحاب السيادة فيها .

(١) نستثنى روما حيث احتفظت طبقة النبلاء عند تحولها بالمهابة والقوة .

٢ - تاريخ هذه الثورة في أثينا

حكم النسباء أثينا خلال أربعة قرون بعد إسقاط الملكية . والتاريخ صامت فيما يختص بهذه السيادة الطويلة . فلا نعلم عنها إلا شيئاً واحداً هو أنها كانت بغیضة عند الطبقات الدنيا وأن الشعب بذل جهده للخروج من هذا النظام .

حوالى سنة ٦١٢ أيقظ السخط الذى كانوا يرونه عاماً ، والآيات المؤكدة التى كانت تنبئ عن ثورة قريبة ، مطمع أحد النسباء ويدعى كيلون (Cylon) ففكر فى قلب حكومة طائفته وإقامة نفسه طاغية شعبياً . لكن همه الأراخنة قضت على المشروع قبل مولده . غير أن الفتنة استمرت بعده . عبثاً استعمل النسباء كل موارد ديانتهم ؛ عبثاً قالوا إن الآلهة كانت ناقمة وإن الأشباح كانت تظهر ؛ عبثاً طهروا البلدة من جميع جرائم الشعب وأقاموا مذبحين أحدهما للعنف والآخر للوقاحة لكى يهدوا هذين المعبودين اللذين أثار نفوذهما الخبيث الاضطراب فى النفوس (١) . لم يُجسّد كل ذلك شيئاً ولم يطف شعور البغضاء . أحضروا من إقريطش إپيمينيديس (Epiménide) الورع ، وهو شخص خفى الأسرار كانوا يقولون إنه ابن إحدى الإلهات ، وجعلوه يقوم بمجموعة من الاحتفالات التكفيرية ؛ كانوا يأملون ، بالتأثير بهذه الطريقة على خيال الشعب ، أن يحىو الديانة وبالتالي أن يقووا السراة . لكن الشعب لم يتأثر . لم يعد لديانة النسباء هيبة فى نفسه ؛ فاستمر يطالب بإصلاحات .

وقد استمرت المعارضة اللدود من جانب فقراء الجبل والمعارضة الصابرة من جانب أثرياء الشاطئ ستة عشر عاماً فى حرب عنيفة مع النسباء . وفى النهاية اتفق كل من كان ذا حكمة فى الأحزاب الثلاثة على أن يكلوا إلى صولون العناية بإنهاء هذه المنازعات والعمل على تجنب مصائب أكبر منها . وكان من حظ صولون النادر أنه كان ينتمى فى آن واحد إلى النسباء من حيث مولده وإلى التجار بحكم مشاغل شبابه . وترينا أشعاره أنه كان رجلاً متحرراً من نزعات طائفته تحرراً تاماً ؛ وقد كان بحكم روح المصالحة المتأصل فيه ، وميله

(١) بلوتارخوس : صولون ١٢ . ديوغينيس لارتيوس ١ : ١١٠ . سيسرون : القوانين ٢ : ١١ . أثيناىوس ١٣ : ٧٦ .

للثروة والترف ، وحبه للهو ، بعيداً عن النسباء القدماء بعداً كبيراً ومتممياً إلى أثينا الجديدة .

قلنا آنفاً إن صولون بدأ بتحرير الأرض من السيادة القديمة التي كانت لديانة الأسرات النسيية عليها . فحطم أغلال الولاء . وقد جر مثل هذا التغيير في الحالة الاجتماعية تغييراً آخر في النظام السياسي . كان لا بد من الآن فصاعداً أن يكون للطبقات الدنيا ، كما يقول صولون ذاته ، مجناً للدفاع عن حريتهم المستحدثة . هذا المحن هو الحقوق السياسية .

لا زال ينقصنا الشيء الكثير لكي يكون دستور صولون معروفاً لنا بجلاء ، لكنه يبدو على الأقل أن جميع الأثينيين قد أصبحوا منذ الآن جزءاً من مجمع الشعب وأن مجلس الشيوخ لم يعد مكوناً من النسباء دون سواهم ؛ بل يلوح أنه أصبح من المستطاع أن يعين الأراخنة من خارج الطبقة الكهنوتية القديمة . قلبت هذه التجديدات الكبيرة كل القواعد القديمة للمدينة ، فأصوات الانتخاب ومناصب الدولة والكهنوت وإدارة المجتمع ، كل ذلك كان يتحتم على النسب أن يقتسمه مع رجل الطبقة الدنيا . لم يحسب الدستور الجديد حساباً ما لحقوق المولد . كانت لا تزال هناك طوائف لكنها لم تكن تمتاز إلا بالثراء . عندئذ اختفت سيادة النسباء فلم يعد النسب شيئاً ما اللهم إلا إذا كان ثرياً ؛ كانت قيمته في ثرائه لا في مولده . من الآن استطاع الشاعر أن يقول « من أية أرومة هذا الرجل ؟ — ثرى ؛ أولئك هم اليوم النبلاء » (٢) .

كان للنظام الذي تأسس على ذلك النحو نوعان من الأعداء : النسباء الذين كانوا يتحسرون على امتيازاتهم المفقودة ، والفقراء الذين ظلوا يتألمون من انعدام المساواة .

لم يكد صولون يتم عمله حتى بدأ الاضطراب ، يقول بلوتارخوس : « بدأ الفقراء بمظهر الأعداء الألداء للأثرياء » . لعل الحكومة الجديدة كانت تسوءهم

(١) عن الطبقات الأربع الجديدة وعن الأنصبة *Τιμήματα* أنظر بلوتارخوس : صولون ١٨ ؛ أرسطو ، اقتبسه هاربوقراطيون تحت لفظ *ἱππας* ؛ بوليديوكيس ١٢٩:٨ .
(٢) أوربيديس : الفينيقيات ؛ أليكسيس (Alexis) في أثينا يوس ٤ : ٤٩ .

بقدر ما كانت تسوؤهم حكومة النسياء . هذا وعندما رأوا أن النسياء لا زالوا يستطيعون أن يكونوا أراخنة وشيوخاً ، توهم الكثيرون أن الثورة لم تكتمل . حافظ صولون على الأوضاع الجمهورية ؛ لكن الشعب كان يحمل حقد لا تدبر فيه ضد أوضاع هذه الحكومة التي لم ير فيها خلال أربعة قرون غير تملك السراة . فاقتدى بالكثير من المدن الإغريقية وأراد طاغية

كان بيسيستراتيس (Pisistrate) من سلالة النسياء لكنه كان يهدف إلى غرض من المطمع الشخصي ، فوعد الفقراء باقتسام الأراضي وضمهم إليه . وفي يوم من الأيام ظهر في المجمع وادعى أنه جرح وطلب أن يعطى له حرس . وقد همّ رجال الطبقات الأولى أن يردوا عليه وأن يرفعوا الستار عن الكذب لكن «السوقة كانت مستعدة للاشتباك لمعاوضة بيسيستراتيس ؛ وعندما رأى الأثرياء ذلك ، فروا هارين في غير نظام » . وبذلك كان أحد الأعمال الأولى للمجمع الشعبي المنشأ حديثاً هو مساعدة رجل على أن يكون سيداً للوطن (١) .

هذا ولا يلوح أن حكم بيسيستراتيس قد أتى بأي عائق يحول دون تطور أثينا . بل على العكس كان أهم أثر له أنه وطد الإصلاح الاجتماعي والسياسي الكبير الذي تم أخيراً ، ووقاه من كل ركس (٢) :

لم يبدُ الشعب راغباً قط في استعادة حريته ؛ فقد قلب اتحاد العظماء الأثرياء بيسيستراتيس مرتين ، واستعاد السلطة مرتين ، وتملك ابنه الأكبر في أثينا من بعده . وكان لا بد من تدخل جيش اسبرطي في أتيكا لوضع حد لسيادة الأسرة (٣) .

(١) عن الارتباط بين بيسيستراتيس والطبقات الدنيا انظر هيرودوت ١ : ٥٠ ؛ بلوتارخوس : صولون ٢٩ ، ٣٠ ؛ أرسطو : السياسية ٥ : ٤ ؛ طبعة ديدوص ٥٧١
(٢) يؤكد هيرودوت (١ : ٥٩) وثوقيديديس (٦ : ٥٤) أن بيسيستراتيس حافظ على الدستور والقوانين القائمة أي دستور صولون وقوانينه .

(٣) هيرودوت ٥ : ٦٣ - ٦٥ ؛ ٦ : ١٢٣ ؛ ثوقيديديس ١ : ٢٠ ؛ ٦ : ٥٤ - ٥٩ . يرى هذان المؤرخان بوضوح جلي أن الذي قلب حكم الطغاة هم الاسبرطيون وليس هارموبوس وأرسطوغيتون . وقد حورت الأسطورة الأثينية الوقائع .

وفي لحظة لاحت لطبقة السراة بارقة أمل للاستفادة من سقوط آل پيسيستراتيس لكي تستعيد امتيازاتها . فلم يعجزها النجاح فحسب ، بل إنها تلقت أشد ضربة تحملتها حتى الآن . فإن كليستينيس (Clisthènes) ، وهو من سلالة هذه الطبقة لكنه من أسرة كانت هذه الطبقة تجللها بالعار ، ويلوح أنها تبرأت منها منذ ثلاثة أجيال ، قد وجد أكد وسيلة ليجردها إلى الأبد مما تبقى لها من قوة (١) .

عندما غير صولون الدستور السياسي أبى جميع النظام الدينى القديم للمجتمع الأثينى قائماً . وبقى الأهالى موزعين على مائتى أو ثلاثمائة فصيلة ، فى اثنتى عشرة أخوية ، فى أربع قبائل . وكانت لا تزال فى كل من هذه المجموعات ، كما كان فى المدة السالفة ، عبادة وراثية وكاهن من النسباء ورئيس هو نفسه الكاهن . كل ذلك كان بقية ماض يصعب زواله ؛ ومن هنا كانت تستمر الآثار والسنن والقواعد والفوارق التى سادت فى الحالة الاجتماعية القديمة . هذه الإطارات أقامتها الديانة وهى تحافظ بدورها على الديانة ، أى على سطوة الأسرات الكبيرة . وكان فى كل إطار منها طبقتان من الناس ؛ فمن ناحية ، النسباء الذين يحوزون الكهنوت والسلطة بالوراثة ؛ ومن ناحية أخرى من هم أدنى منهم حالاً ، أولئك الذين لم يعودوا موالى ولا خدماً لكن كانت تستبقهم الديانة تحت سلطة النسب . عبثاً يقول قانون صولون إن جميع الأثينيين أحرار . فإن الديانة القديمة كانت تمسك بالإنسان عند خروجه من المجمع الذى صوت فيه بحريته وتقول له أنت مرتبط بأحد النسباء عن طريق العبادة ؛ يجب عليك أن تحترمه وأن تبجله وأن تخضع له ؛ جعلك صولون حراً باعتبارك عضواً فى المدينة ، لكنك باعتبارك عضواً فى قبيلة تطيع أحد النسباء ، وباعتبارك عضواً فى أخوية يرأسك نسب أيضاً ؛ وحتى فى الأسرة ، فى الفصيلة (*gens*) التى ولد فيها أسلافك ، والتى لا تستطيع الخروج منها ، تجد سلطة أحد النسباء مرة أخرى . ما الفائدة من أن القانون السياسى قد جعل

٥

(١) يعطينا هيرودوت (٥ : ٦٦ - ٦٩) فكرة جلية جداً عن نضال كليستينيس ضد إيساغوراس وتحالفه مع الطبقات الدنيا . انظر إيسوقراط (c.232) *περί αντιδόσεως*

من هذا الرجل مواطناً إذا كانت الديانة والأخلاق متمسكة يجعله مولى ؟ حقاً إن كثيراً من الرجال وجدوا أنفسهم منذ عدة أجيال خارج هذه النطاقات ، سواء لأنهم أتوا من بلاد أجنبية أو لأنهم تخلصوا من الفصيلة أو من القبيلة ليكونوا أحراراً . لكن هؤلاء الرجال كانوا يتألمون من طريق آخر ؛ فقد وجدوا أنفسهم بحكم وضعهم خارج القبائل في حالة ضعة معنوية تجاه الرجال الآخرين وعلقوا باستقلالهم نوع من العار .

وإذن فقد كان هناك ، بعد إصلاح صولون السياسى ، إصلاح آخر يتعين القيام به في دائرة الدين . فقام به كليستينيس بإحلال عشر قبائل جديدة ، مقسمة إلى عدد معين من الأحياء (dèmes) ، محل القبائل الأربع الدينية القديمة (١) . هذه القبائل ، وهذه الأحياء ، تشبه في ظاهرها القبائل القديمة والفصائل (gentes) . فكان في كل واحدة من هذه الدوائر عبادة وكاهن وقاض واجتماعات للاحتفالات الدينية ومجامع للمداولة في المصالح المشتركة (٢) ، لكن المجموعات الجديدة كانت تختلف عن القديمة في نقطتين جوهريتين . أولاً وزع جميع الناس الأحرار في أثينا ، حتى أولئك الذين لم يكونوا في القبائل القديمة والفصائل ، في الإطارات التي شكلها كليستينيس (٣) : إصلاح كبير منح ديانة لمن كانت لا تزال تنقصه . وأدخل في جماعة دينية من كانوا مقصيين عن كل جماعة من قبل . ثانياً ، وزع الناس في القبائل والأحياء لا بحسب مولدهم كما كانوا في الماضي بل بحسب مسكنهم ؛ ولم يرق للمولد في ذلك أى وزن ؛ كان الناس متساوين فيها ولم يعودوا يعرفون الامتيازات . والعبادة التي كانت تجتمع القبيلة الجديدة أو الحى للاحتفال بها لم تعد هي العبادة الوراثية لأسرة قديمة ؛ لم يعودوا يجتمعون حول موقد نسيب ، ولم تعد القبيلة أو الحى يمجّد نسباً قديماً باعتباره السلف الإلهي ؛ بل أصبح للقبائل أبطال جدد تحمل أسماءهم وقد اختاروهم من بين

(١) هيرودوت ١ : ٦٦ ، ٦٩ .

(٢) أيسخينيس : ضد اكتسيفون ٣١ . ديموستينيس : ضد أو بوليديس . بوليديس .

٨ : ١٩ ، ٩٥ ، ١٠٧ .

(٣) أرسطو : السياسة ٣ : ١ : ١٠ . شارح أيسخينيس طبعة ديدو ص ٥١١ .

شخصيات الزمن العتيق الذى حفظ الشعب لهم ذكرى صالحة ، أما الأحياء فقد اتخذت بدون تمييز بينها زوس حارس السور وأبولون الأبوى آلهة حماة . ومنذ ذلك الوقت لم يعد هناك مبرر لكى يكون الكهنوت وراثياً فى الحى كما كان فى الفصيلة ، ولا مبرر أيضاً لكى يكون الكاهن نسيباً على الدوام . فأصبح منصب الكاهن والرئيس فى المجموعات الجديدة سنوياً وأصبح فى استطاعة كل عضو أن يشغله بدوره .

كان هذا الإصلاح هو الخاتمة التى أدت إلى قلب حكم سراة النساب . وابتداء من تلك اللحظة لم يعد هناك طبقة دينية ؛ لم تعد هناك امتيازات للمولد ، لا فى السياسة ولا فى الدين . لقد تبدل المجتمع الأثينى تبديلاً كاملاً (١) .

هذا ولم يكن القضاء على القبائل القديمة ، واستبدال قبائل جديدة بها ، ينفذ إليها جميع الرجال على قدم المساوى فيما بينهم ، حدثاً خاصاً بتاريخ أثينا . فقد حدث نفس التغيير فى قرينه وسقيوثون وإليس (Elis) واسبرطه ، ويحتمل أن يكون كذلك فى كثير من المدن الإغريقية (٢) . لم ير أرسطو من بين جميع الوسائل الخاصة لإضعاف طبقة السراة القديمة وسيلة أنجح من هذه فيقول : «إذا ما أريد تأسيس حكم العامة (الديموقراطية) وجب أن يعمل ما عمله كليستينيس عند الأثينيين : تقام قبائل جديدة وأخويات جديدة ؛ ويستبدل بقرايين الأسرات الوراثة قرايين مباحة لجميع الناس ، وتخلط بقدر الاستطاعة علاقات الناس فيما بينهم مع العناية بتحطيم كل الجماعات السالفة (٣) » .

(١) لم تبطل الأخويات القديمة والفصائل *γένη* . بل بقيت على العكس إلى نهاية التاريخ الإغريقى ؛ يتكلم عنها الخطباء (ديموشينيس : ضد ماكاتراتوس ١٤ ، ٥٧ ؛ ضد نيأيرا ٦١ ؛ ضد أوبوليديس ٢٣ ، ٥٤ ؛ إيسايوس : ميراث كيرون ١٩) . لا تزال الكتابات تذكر أعمالهم وقراراتهم (Boeckh, t. I, p. 106; t. p. 650; Ross, Demi, p. 24; Kohler, N° 598, 599, 600) لكن هذه الأخويات وهذه الفصائل (*γένη*) لم تعد سوى إطارات دينية دون أية قيمة فى النظام السياسى .

(٢) هيرودوت ٥ : ٦٧ ، ٦٨ . أرسطو : السياسة ٧ : ٢ : ١١ . بوسانياس ٥ : ٩ :

(٣) أرسطو : السياسة ٦ : ٢ : ١١ طبعة ديدوص ٥٩٤ ، ٥٩٥ .

وعندما يتم هذا الاصطلاح في جميع المدن يمكن القول بأن القالب القديم للمجتمع قد تحطم ، وأن هيئة اجتماعية جديدة قد أصبحت في دور التكوين . هذا التغيير في الهيكل الاجتماعي الذي أقامته الديانة القديمة الوراثة ، والذي كانت تعلن أنه غير قابل للتحويل ، هو علامة على نهاية نظام المدينة الديني .

٣ - تاريخ هذه الثورة في روما

كانت للسوق في روما أهمية كبيرة منذ وقت مبكر . فوقع البلدة بين اللاتينيين والسابينيين والأتروسك كان يفرض عليها حرباً مستديمة ؛ وتتطلب الحرب أن يكون بها عدد كبير من الأهالي . لذلك رحب الملوك بجميع الغرباء واستدعواهم دون نظر إلى أصلهم . تتابعت الحروب بلا انقطاع ؛ ولما كانوا بحاجة إلى الرجال فقد كانت النتيجة المألوفة لكل انتصار هي أن ينتزعوا من البلدة المغلوبة أهلها لنقلهم إلى روما . فإذا كان يصبح أمر هؤلاء الرجال الذين كانوا يجلبون هكذا مع الغنيمة ؟ إذا كانت بينهم أسرات كهنوتية وبطريقة سارعت البطارقة إلى ضمهم إليها . أما العامة فإن جزءاً منها كان يدخل في ولاء الكبراء أو الملك وجزءاً يطرح بين السوق .

كذلك كانت تدخل عناصر أخرى في تكوين هذه الطبقة . تدفق كثير من الأجانب على روما كما يحدث في مكان يجعله مركزه صالحاً للتجارة ، ووجد الساخطون من بلاد السابينيين ومن إتروريا واللاتيوم ملاذاً فيها . كل أولئك كانوا يدخلون في السوق . والمولى الذي كان يستطيع التخلص من الفصيلة كان يصبح سوقة . والبطريق الذي يصاهر من هو أدنى من طبقته ، أو الذي يرتكب إحدى هذه الخطايا التي تجلب سقوط الحقوق ؛ كان يهوى إلى الطبقة الدنيا . وكل نغل كانت تصده ديانة الأسرات الطاهرة ويطرح في السوق .

لهذه الأسباب مجتمعة كانت تزداد السوق عدداً . وقد زاد النزاع الناشب بين البطارقة والملوك في أهميتها ، وشعرت الملكية والسوق منذ وقت مبكر أن عدوهما واحد . كان مطمع الملوك هو التخلص من مبادئ الحكم القديمة التي كانت

تقيدهم في مزاوله سلطتهم ، ومطعم السوقه هو تحطيم الحواجز القديمة التي كانت تنفيهم من الجماعة الدينية والسياسية . فقام بينهما تحالف ثابت ؛ حمى الملوك السوقه ، وعضدت السوقه الملوك .

تضع الآثار والشواهد العتيقة الخطوات الأولى في تقدم السوقه في عهد سرفيوس . ويدل الحقد الذي احتفظ به البطارقة لهذا الملك دلالة كافية عما كانت عليه سياسته . كان أول إصلاح له هو إعطاء الأراضي للسوقه . حقاً إنها لم تكن من الأراضي الرومانية (*ager Romanus*) بل من الأراضي المستولى عليها من العدو ؛ إلا أن هذا لا ينقص من أنه كان من التجديد الخطير أن يمنح بذلك حق الملك على الأرض لأسرات كانت لا تستطيع إلى ذلك اليوم أن تزرع سوى أرض الآخرين (١) .

والأخطر من هذا أنه وضع قوانين للسوقه الذين لم تكن لهم قوانين حتى الآن . وكان معظم هذه القوانين خاصاً بالالتزامات التي يستطيع السوقه أن يتعاقد عليها مع البطريق . فكان بداية شرع مشترك بين الطبقتين ، وبالنسبة للسوقه لبثاء المساواة (٢) . ثم إن هذا الملك أقام تقسيماً جديداً في المدينة . كون أربع قبائل جديدة وزعت فيها الأهالي كافة حسب المسكن ، دون أن يهدم القبائل الثلاث القديمة حيث كانت الأسرات البطريقية والموالي موزعين طبقاً لمولدهم . سبق أن رأينا هذا الإصلاح في أثينا وقلنا ما كانت عليه آثاره ؛ لقد كانت هي بذاتها في روما . فإن السوقه التي لم تكن داخلة في القبائل القديمة قد قبلت في القبائل الجديدة (٣) . هذا الجمهور الذي لما يكن مستقراً ، والذي كان نوعاً من الرُّحَّل لا يربطه بالمدينة أي رابط ، هذا الجمهور أصبحت له من الآن أقسامه الثابتة ونظامه المتسق . وتكوين هذه القبائل التي تختلط فيها الطبقتان هو الدلالة الصحيحة على دخول السوقه في المدينة . وكان لكل قبيلة موقد

(١) تيتوس ليفيوس ١ : ٤٧ . ديونيسيوس ٤ : ١٣ . سبق أن قسم الملوك السالفون الأراضي المستولى عليها من العدو . لكن ليس من الموثوق به أنهم قبلوا السوقه في القسمة .

(٢) ديونيسيوس ٤ : ١٣ ؛ ٤ : ٤٣ .

(٣) شرحه ٤ : ٢٦ .

وقرايين ؛ وأقام سرفيوس آلهة لاريس (Lares) في كل تقاطع للشوارع في البلدة ، وفي كل دائرة في الريف . فكانت آلهة للذين لم تكن لهم آلهة بحكم المولد. وكان السوق يحتفل بالأعياد الدينية الخاصة بجميه وقريته (compitalia, paganalia) كما كان البطريق يحتفل بقرايين فصيلته وندوته . لقد أصبحت للسوق ديانة . وفي الوقت نفسه وقع تغيير كبير في الاحتفال المقدس بالثوار . فلم يعد الشعب مرتباً حسب الندوات مع إقصاء من لا تقبلهم الندوات ؛ بل مثل في العملية المقدسة جميع الأحرار من أهالي روما ، جميع أولئك الذين كانت تتكون منهم القبائل الجديدة . ولأول مرة اجتمع الناس كلهم دون تمييز بين البطارقة والموالي والسوقة . وطاف الملك بهذا الجمع المختلط وهو يدفع الأضحية بين يديه وينشد النشيد الاحتفالي ، وعند انتهاء الاحتفال وجد الجميع أنفسهم مواطنين على قدم المساواة .

لم يكن يميز في روما قبل سرفيوس إلا نوعان من الناس : الطبقة الكهنوتية من البطارقة ، ومعهم مواليهم ، وطبقة السوق ؛ ولم يكن يُعرف أى تمييز آخر غير الذى أقامته الديانة المتوارثة . وقد خط سرفيوس تقسيماً جديداً وهو ذلك التقسيم الذى يقوم على الثروة . فقسم أهالي روما إلى فئتين كبيرتين : كان في إحداهما أولئك الذين لا يملكون شيئاً ما ، وفي الأخرى أولئك الذين يملكون شيئاً . وتنقسم الأولى ذاتها إلى خمس طبقات وزع الناس عليها طبقاً لمقدار ثرائهم (١) . وبذلك أدخل سرفيوس في المجتمع الرومانى مبدأ جديداً كل الجدة . لقد أصبحت الثروة منذ الآن سمة لمراتب الناس كما كانت الديانة من قبل .

(١) يعد المؤرخون المحدثون في العادة ست طبقات . والحق أنه لم يوجد منها غير خمس : سيسرون : الجمهورية ٢ : ٢٢ ؛ أولوس جيلوس ١٠ : ٢٨ . فكان الفرسان ، من جهة ، والمعيالون ، من جهة أخرى ، خارج الطبقات . هذا ويجدر أن نلاحظ أنه لم يكن للفظ *classis* في اللغة القديمة معنى شبيه بمعنى لفظ *classe* (طبقة) في اللغة الفرنسية ؛ بل كان معناها فرقة من الجيش (فاييوس بيكتور في أولوس جيلوس ١٠ : ١٥ ؛ شرحه ١ : ١١ ؛ فستوس طبعة ميلر (Müller) ص ١٨٩ و ٢٢٥) . وفي ذلك دليل على أن التوزيع الذى قرره سرفيوس كان حرياً أكثر منها سياسياً .

طبق سرفيوس هذا التقسيم للشعب الروماني على الخدمة العسكرية . فقبله كانت السوق إذا قاتلت لا تقاتل في صفوف الفيلق النظامي (légion) ، ولكن لما جعل سرفيوس منها ملاكاً ومواطنين ، استطاع أن يجعل منها جنوداً نظاميين أيضاً . لم يعد الجيش مكوناً من الآن من رجال الندوات دون سواهم ، إذ انضم إليه جميع الرجال الأحرار أو على الأقل كل من يملك شيئاً ولم يستمر مقصياً عنه غير المُعَيَّلِينَ (prolétaires) . لم تعد مرتبة البطريق أو المولى هي التي تحدد سلاح كل جندي ومكانه في المعركة . كان الجيش ، كالأهالي تماماً ، مقسماً إلى طبقات بحسب الثروة . فمن الطبقة الأولى ، التي كانت كاملة السلاح ، ومن الطبقتين التاليتين ، اللتين كان لهما على الأقل الترس والخوذة والسيف ، كانت تتكون الصفوف الثلاثة من الفيلق . وكانت الطبقتان الرابعة والخامسة مسلحتين تسليحاً خفيفاً وتكونان هيئة المهاجمين الخفاف (Vélites) والرماة بالمقلع . وكانت كل طبقة مقسمة إلى فرق تسمى بالفرق المئينة (centuriae) . وكانت الطبقة الأولى تحوي ، فيما يقال ، ثمانين فرقة ، والأربع الأخرى كل واحدة عشرين أو ثلاثين . أما الفرسان فكانوا على حدة . وفي هذا المجال أيضاً جدد سرفيوس تجديداً كبيراً . فبينما كان الشبان من البطارقة يؤلفون دون سواهم فرق الفرسان سمح سرفيوس لعدد معين من السوق اختارهم من أكثرهم ثراء أن يحاربوا على ظهور الجياد . وكون منهم إثنتي عشرة فرقة مئينة جديدة .

هذا ولم يكن من المستطاع المساس بالجيش دون المساس بالدستور السياسي في نفس الوقت . شعر السوق أن قيمتهم في الدولة قد زادت فأصبح لهم سلاح ونظام ورؤساء ؛ وكان لكل فرقة مئينة مقدّمها (centurion) ورايتها المقدسة . وكانت هذه المنظمة الحربية دائمة لا يحلها السلم . حقاً إن الجنود كانوا يهجرون الصفوف عند عودتهم من القتال إذ أن القانون كان يحرم عليهم دخول البلدة بهيئة جيش . لكن عند أول إشارة كان يتوجه المواطنون حاملو السلاح إلى حقل مارس حيث يجد كل منهم فرقته ومقدمه ورايته . وقد حدث بعد سرفيوس توليوس بخمسة وعشرين عاماً أن فكروا في دعوة الجيش دون أن يكون ذلك لغزوة حربية . ولما اجتمع الجيش واتخذ صفوفه ، ولكل فرقة

مقدمها على رأسها ورايتها في وسطها ، تكلم الحاكم واستخار وجعلهم يصوتون (١) . صوتت أولا الفرق المئينية الست البطريقية و فرق الفرسان السوق الاثنا عشرة ؛ ومن بعدها فرق المشاة من الطبقة الأولى ثم الفرق الأخرى بعد ذلك . وهكذا استقر بعد زمن قصير مجمع الفرق المئينية حيث كان لكل من كان جندياً الحق في التصويت ، وحيث لا يكاد يميز السوق من البطريق (٢) غيرت كل هذه الإصلاحات مظهر المدينة الرومانية تغييراً فريداً . بقيت طبقة البطارقة قائمة بعباداتها الموروثة وندواتها ومجلس شيوخها . لكن السوق

(١) يصف ديونيسيوس المالكارياسي مظهر هذه المجمع المئينية في بضع كلمات *Συνήει τὸ πλῆθος εἰσὶν Ἄρειον πεδῖον, ὑπὸ λοχαγοῖς καὶ σημείοις τεταγμένον, ὥσπερ ἐν πολέμῳ* (VII, 59). Cf. Id., VI, 84: *Ἐχοντας τὰ ὅπλα.*

(٢) يبدو لنا أنه مما لا يقبل الجدل أن لجان الفرق المئينية لم تكن سوى اجتماع الجيش الروماني . والدليل على ذلك هو أولاً : أن هذا المجتمع كثيراً ما يسميه الكتاب اللاتينيون بالجيش : *Urbanus exercitus*, Varron, VI, 93: *Cum comitiorum causa exercitus eductus esset.* Tite-Live, XXXIX, 15; *Miles ad suffragia vocatur et comitia centuriata dicuntur*, Am-pélius, 48. ثانياً : أن هذه اللجان كانت تدعى بالضبط كما يدعى الجيش عند دخوله الحرب أى على صوت البوق (فارون ٥ : ٩١) بينما يخفق علمان على القلعة أحدهما أحمر لدعوة المشاة والآخر أخضر غامق للفرسان ؛ ثالثاً : أن هذه اللجان كانت تجتمع دائماً في حقل مارس لأن الجيش لم يكن يستطيع أن يجتمع بداخل البلدة (أولوس جيلوس ١٥ : ٢٧) ؛ رابعاً : أنها كانت مكونة من جميع من كانوا يحملون السلاح (ديون كاسيوس ٣٧ : ٢٨) بل يبدو أنهم كانوا يتوجهون إليها ، في الأصل ، شاكي السلاح (ديونيسيوس ٤ : ٨٤ في نهايتها) ؛ خامساً أنهم كانوا موزعين فيها في فرق مئينية ، المشاة من ناحية والفرسان من ناحية أخرى . سادساً : أن كل فرقة مئينية كان على رأسها مقدمها ورايتها (*ὥσπερ ἐν πολέμῳ* ديونيسيوس ٧ : ٥٩) ؛ سابعاً : أن من بلغوا سن الستين لم يكونوا جزءاً من الجيش ولم يكن لهم أيضاً حق التصويت في هذه اللجان ، على الأقل في القرون الأولى (ماكروبيوس ١ : ٥ ؛ فستوس ، تحت لفظ *Depontani*). ولنضيف أن لفظ *classis* كان معناه فرقة من الجند وأن كلمة *centuria* كانت تطلق على فرقة عسكرية . ولم يكن المعيلون يظهرون في هذا المجتمع ؛ بيد أنه لما كان من المعتاد أن يؤلفوا في الجيش فرقة تستخدم في الأشغال فقد استطاعوا أيضاً أن يؤلفوا فرقة في هذه اللجان .

ألفت الاستقلال، والثراء، والسلاح ، والديانة . لم تندمج السوق في طبقة السراة لكنها كبرت بجوارها .

حقاً إن طبقة السراة أخذت بثأرها . بدأت بذبح سرفيوس ؛ وفيما بعد طردت تاركوينيوس. ولقد غلبت السوق مع الملكية .

أجهد السراة أنفسهم في استرداد كل ما حصلت عليه طبقة السوق في عهد الملوك . فكان من أول أعمالهم أن انتزعوا من السوق الأراضي التي منحها لهم سرفيوس ؛ ويمكن أن نلاحظ أن المبدأ الوحيد الذي تذرعوا به لسلبهم أرضهم على هذا النحو هو أنهم كانوا سوقة (١) . وإذن فقد أعاد السراة المبدأ القديم إلى سابق عتقوانه ، ذلك الذي كان يرمى إلى أن تكون الديانة الموروثة دون سواها أساساً لحق الملك ، والذي لم يكن يسمح بتمكين الرجل الذي لا دين له ولا أسلاف له من ممارسة أى حق على الأرض .

وقد سحبت أيضاً القوانين التي عملها سرفيوس للسوق . وإذا كان نظام الطبقات ومجمع الفرق المثنية لم يبطلا فإنما كان مرجع ذلك أولاً إلى أن حالة الحرب لم تكن تسمح بتفكيك نظام الجيش ، وثانياً لأنهم عرفوا كيف يحيطون هذه اللجان بأجراءات من شأنها أن تجعل البطارقة سادة الانتخابات: لم يجرؤوا على انتزاع لقب المواطنين من السوق ، تركوهم يمثلون في الإحصاء. لكن من الحل أن طبقة البطارقة عندما سمحت للسوق أن تكون جزءاً من المدينة لم تقسم معها الحقوق السياسية ولا الديانة ولا القوانين. بقيت في المدينة بالاسم فحسب ، ولكنها كانت قد أقصيت عنها بالفعل .

يجدر ألا نتجاوز المعقول في اتهام البطارقة وألا نطن أنهم رسموا ببرود خطة لاضطهاد السوق وسحقها . فإن البطريق هو سلالة أسرة مقدسة ، وشاعر بأنه وارث عبادة ، لم يكن يفهم نظاماً اجتماعياً غير ذلك الذي رسمت الديانة القديمة قواعده . في نظره ، كان العنصر المكون لكل مجتمع هو الفصيلة (*gens*) بعبادتها ورئيسها الوراثي ومواليها . وعنده أن المدينة لا تستطيع أن تكون شيئاً غير

(١) كاسيوس هميننا (*Hémina*) في نونيوس ، الكتاب ٢ ، لفظ *Plevitas*

جماعة من رؤساء الفصائل . لا يدخل في ذهنه أنه في الإمكان أن يكون هناك نظام سياسى آخر غير ذلك الذى يقوم على العبادة ، وحكام آخرون غير أولئك الذين يقدمون القرابين العامة ، ولا قوانين أخرى غير تلك التى أملت الديانة صيغتها المقدسة . بل كان يجب ألا يعترض عليه بأن للسوق ديانة أيضاً، منذ فترة وجيزة ، وأنهم يقدمون القرابين للاريس (Lares) التى أقيمت في مفارق الطرق . إذ أنه كان يجب بأنه ليس لهذه العبادة الصفة الجوهرية للديانة الحقيقية ، وأنها ليست وراثية ، وأن مواعدها لم تكن نيراناً عتيقة ، وأن هذه الآلهة اللاريس لم تكن أسلافاً حقيقية . وكان يضيف أن السوق بإعطاء أنفسهم عبادة عملوا ما لم يكن يحق لهم عمله ، وأنهم لكى يتخذوا لأنفسهم عبادة قد خرقوا جميع المبادئ ، وأنهم لم يأخذوا إلا مظاهر العبادة الخارجية وحذفوا منها المبدأ الجوهرى وهو الوراثة ، وفي النهاية ، أن ما يحاكون به الديانة هو تقيض الديانة من جميع الوجوه .

أدى تشبث البطريق بفكرة أن الديانة الموروثة هي التى يجب أن تحكم الناس دون سواها إلى أنه لم ير إمكان قيام حكومة من السوق . ولم يكن يدرك أن في استطاعة السلطة الاجتماعية أن تباشر نفوذها على هذه الفئة من الناس بطريقة نظامية . لم يكن في الاستطاعة تطبيق القانون المقدس عليهم ، فقد كانت العدالة أرضاً مقدسة محرمة عليهم . طالما كان هناك ملوك فقد أخذوا على أنفسهم أن يحكموا السوق ، وتصرفوا طبقاً لقواعد معينة أعثرتهم فيها الحاجة والمصلحة العامة ولا صلة بينها وبين الديانة القديمة . لكن الديانة استعادت سلطانها بفضل الثورة التى طردت الملوك وانتهى الأمر ، بحكم الضرورة ، بأن طُرحَت جميع طبقة السوق خارج القوانين الاجتماعية .

وعندئذ اتخذت طبقة البطارقة لنفسها حكومة متفقة مع مبادئها . لكنها لم تفكر في إقامة حكومة للسوق . لم تجد الجرأة لطردها من روما ، لكنها لم تجد كذلك الوسيلة لتجعل منها مجتمعاً منتظماً . وهكذا روّيت في وسط روما آلاف من الأسرات ليست لها قوانين ثابتة ولا نظام اجتماعى ولا مناصب في الدولة ، قامت المدينة، وهى الشعب (populus) أى المجتمع البطريقى ومن بقى له

من مواليه ، قوية ، منظمة ، جليلة . وحولها يعيش جمهور السوق الذى لم يكن شعباً ولا يكون هيئة . وكان القناصل ، رؤساء المدينة البطريقية ، يحافظون على النظام المادى بين هؤلاء الأهالى غير المنظمين ؛ أما السوق فكانت تطيع ، ولضعفها وفقرها على العموم كانت تنحنى تحت قوة الهيئة البطريقية . كانت العضلة التى يقرر حلها مستقبل روما هى الآتية : كيف تصبح السوق مجتمعاً نظامياً .

هذا ولم تكن البطارقة ترى وهى تحت سيطرة مبادئ دينها الصارمة غير وسيلة واحدة لحل هذه العضلة وهى إدخال السوق فى نطاق الفصيلة المقدس عن طريق الولاء . ويلوح لنا أن محاولة قد بذلت فى هذا الاتجاه . فإن مسألة الديون التى هيجت روما فى تلك الفترة لا يمكن تفسيرها إلا إذا رأينا فيها مسألة أشد خطورة هى مسألة الولاء والعبودية (servage) . لم يعد فى استطاعة السوق الرومانية أن تعيش بعد أن جردت من أراضيها . وحسب البطارقة أنهم سيسقطونها فى حبالهم عن طريق التضحية ببعض المال . اقترض رجل السوق ، وباقتراضه سلم نفسه للدائن وارتبط به بعملية كان الرومان يطلقون عليها اسم نكسوم (nexum) وهو نوع من البيع كان يجرى *per aes et libram* (بالرطل والميزان) ، أى مع الإجراءات الاحتفالية التى كانت تستعمل فى العادة لمنح رجل حق الملك على شيء ما (١) . حقاً إن السوق كان يتخذ الضمانات ضد الاستعباد . فكان يشترط بعقد من عقود الذمة (contrat fiduciaire) أن يحتفظ بمرتبه كرجل حر إلى يوم السداد وأنه فى ذلك اليوم يستعيد امتلاكه التام لنفسه بسداد الدين . ولكن إذا أتى ذلك اليوم ولم يوف السوق بالدين فإنه يفقد الانتفاع بعقده وحيث أنه قد أصبح *addictus* (٢) فإنه يصير تحت رحمة الدائن الذى يأخذه إلى منزله ويجعل منه خادمه . لم يكن البطريق يعتقد فى هذا

(١) فارون : اللسان اللاتينى ٧ : ١٠٥ . تيتوس ليفيوس ٨ : ٢٨ . أولوس

جيليوس ٢٠ : ١ . فستوس تحت لفظ *Nexum*

(٢) هو اللفظ الاصطلاحي للمدين الذى يوقع عليه التنفيذ البدنى عند عدم وفاء

الدين . - العرب

كله أنه يعمل عملاً منافعاً للإنسانية ؛ إذ أن المثل الأعلى للمجتمع في نظره هو نظام الفصيلة . لم يكن يرى شيئاً أكثر انطباقاً على الشرع ولا أجمل من أن يستدرج الناس إليها بأية وسيلة كانت : لو نجح في مشروعه لا خفت طبقة السوق في وقت قصير ولما كانت المدينة الرومانية غير مجتمع من الفصائل البطريقية تقتسم جمهور الموالي .

لكن هذا الولاء كان مغلاً يفزع السوق منه . فكان يناوص البطريق المسلح بدينه والذي كان يريد أن يدخله في هذا الولاء ، إذ أن الولاء كان بالنسبة له مرادفاً للرق ؛ وكان يرى منزل البطريق سجنًا (*ergastulum*) . وفي أكثر من مرة كان السوق ، عندما يضع البطريق يده عليه ، يلتمس سنداً من أشباهه ويثير السوق وهو ينادى أنه رجل حر ويستشهد بالخروج التي تلقاها في المعارك دفاعاً عن روما . لم يؤد حساب البطارقة إلا إلى إثارة السوق ، فإنها قد رأت الخطر وتطلعت بكل قوتها إلى الخروج من هذه الحال القلقة التي وضعها فيها سقوط الحكومة الملكية . فأرادت أن تكون لها قوانين وحقوق .

ولكن لا ياورح أن هؤلاء الناس تمنوا في البدء أن يشاركوا في قوانين البطارقة وحقوقهم . ربما كانوا يعتقدون كما كان يعتقد البطارقة أنفسهم أنه ليس بمستطاع أن يكون هناك شيء مشترك بين الطبقتين . ما من أحد كان يفكر في المساواة المدنية والسياسية . لم يكن ارتفاع السوق إلى مستوى البطارقة ليدخل في ذهن سوقة القرون الأولى أكثر مما كان يدخل في ذهن البطريق . لم يكن هؤلاء الناس يطالبون بالمساواة في الحقوق والقوانين بل الأمل أنهم كانوا يفضلون في البدء انفصالاً تاماً . لم يجدوا في روما علاجاً لآلامهم ؛ لم يجدوا غير وسيلة للخروج من حطهم ألا وهي الابتعاد عن روما .

ويؤدى المؤرخ القديم فكرتهم أداء حسناً عندما ينسب إليهم هذا الحديث : « حيث أن البطارقة يريدون امتلاك المدينة دون سواهم فليتمتعوا بها وفق راحتهم . بالنسبة لنا ، ليست روما شيئاً ما . ليس لنا هناك مواقد ولا قرايين ولا وطن . إننا لا نهجر غير بلدة أجنبية ، لا تربطنا بهذا المكان أية ديانة موروثة . كل أرض

صالحة لنا ؛ حيث نجد الحرية هناك يكون وطننا . (١) وذهبوا للإقامة على الأكمة المقدسة خارج حدود زمام روما (ager romanus) .

أمام عمل كهذا تشعبت عواطف مجلس الشيوخ . فأظهر أشد البطارقة تحمساً أن رحيل السوق أبعد من أن يثير شجونهم . سيبقى البطارقة ، منذ الآن ، وحدهم في روما مع الموالى الذين لا يزالون أوفياء لهم . إن روما ستتنازل عن عظمتها المقبلة لكن البطارقة سيكونون سادة فيها . ليس لهم أن يهتموا بعد الآن بهذه السوق التي لا يمكن أن تنطبق عليها قواعد الحكومة العادية ، والتي كانت موضع حيرة المدينة . بل ربما كان الأوجب طردها في ذات الوقت الذي تُطرد فيه الملوك ؛ وما دام رأيها قد استقر على الابتعاد فمن الواجب تركها تنفذ رأيها والابتهاج بذلك .

لكن آخرين ، أقل وفاء للمبادئ القديمة أو أكثر اهتماماً بالعظمة الرومانية ، جزعوا لرحيل السوق . كانت روما تفقد نصف جنودها ، فإذا يكون أمرها بين اللاتينيين والسايينيين والأتروسك وكلهم أعداؤها ؟ كان للسوق نفعا فلماذا لا يعرفون كيف يستخدمونها لصوالح المدينة ؟ وإذا فقد تمني هؤلاء الشيوخ أن تعاد إلى المدينة هذه الآلاف من الأيدي التي كانت قوة الفيالق في مقابل بضع تضحيات ربما كانوا لا يدركون كل عواقبها .

ومن ناحية أخرى ، لمحت السوق بعد بضعة شهور أنها لا تستطيع أن تعيش على الأكمة المقدسة . حقاً لقد كانت تحصل على اللوازم المادية لوجودها لكن كان ينقصها كل ما يكون مجتمعاً منظماً . لم تكن تستطيع أن تؤسس هناك بلدة إذ لم يكن لديها بيت نار (بريتانيون) موقدة طبقاً للنظام يجد فيه رجل الدولة فرصة لتقديم القربان . لم يكن باستطاعتها أن تجد أساساً للقوانين الاجتماعية إذ أن القوانين الوحيدة التي كانت تخطر في بال الإنسان عندئذ ، كانت مشتقة من الديانة البطريقية . وعلى الجملة لم تكن فيها العناصر اللازمة لإنشاء مدينة . رأت السوق أنها أصبحت

(١) ديونيسيوس ٦ : ٤٥ ، ٦ : ٧٩

أكثر استقلالاً لكنها لم تكن أسعد حالاً ، ولم تكن تكون مجتمعاً أكثر انتظاماً عما كانت عليه في روما ، وأن المعضلة التي كانت تهتم بها اهتماماً شديداً لم تحل بذلك . فلم يكن ابتعادها عن روما مجدياً في شيء ما ؛ ولم تكن عزلة الأكمة المقدسة هي التي تستطيع أن تجدد فيها القوانين والحقوق التي كانت تتطوع إليها .

وإن فقد حدث أنه وإن لم يكن هناك شيء مشترك بين طبقتي السوق والبطارقة إلا أنه لم يكن في استطاعة إحداهما أن تعيش بدون الأخرى . فتقاربنا وعقدنا معاهدة تحالف . ويلوح أن هذه المعاهدة عقدت بنفس الصورة التي كانت تعقد بها المعاهدات التي تنهى حرباً بين شعبين مختلفين ؛ والواقع أن طبقتي السوق والبطارقة لم تكونا شعباً واحداً ولا مدينة واحدة (١) . لم يوافق البطارقة بمقتضى هذه المعاهدة على أن يكون السوق جزءاً من المدينة الدينية والسياسية . بل يلوح أن السوق لم يطلبوا ذلك . وإنما اتفقوا فقط على أن تنظم السوق في هيئة مجتمع وأن يكون لهم رؤساء من طبقتهم (٢) . ذلك هو أصل منصب عرفاء السوق (tribunat de la plèbe) ، وهو نظام جديد لا يشبه ما كانت تعرفه المدن من قبل في شيء .

لم تكن سلطة العريف من نفس طبيعة سلطة رجل الدولة . ولم تشتق من عبادة المدينة . لم يكن العريف يقوم بأي احتفال ديني ؛ كان ينتخب دون استشارة ولم تكن موافقة الآلهة ضرورية لتعيينه (٣) ، لم يكن له كرسي من كراسي الندوة (siège curule) ، ولا دثار (toge) أرجواني ، ولا تاج من أوراق الشجر ، ولا أية علامة من تلك العلامات التي كانت في جميع المدن القديمة تؤهل رجال الدولة ذوي الصفة الكهنوتية لتبجيل الناس .

(١) تيتوس ليفيوس ٤ : ٦ : *Foedere icto cum plebe* ذكر ديونيسيوس (٨٩ : ٦) القسيالس صراحة . وقد حوفظ في روما زمناً طويلاً على هذا القانون الذي كان يسمى *lex sacra* . وروى ديونيسيوس بعض مقتبسات منه (٦ : ٨٩ ؛ ١٠ : ٣٢ ؛ ١٠ : ٤٢) ؛ انظر فستوس ص ٣١٨ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٣٣ : ٢ : *Concessum ut plebi sui magistratus essent* .

(٣) ديونيسيوس ١٠ : ٤

لم يكونوا يعدونه بين رجال الدولة الرومانيين الحقيقيين (١) .
 ماذا كانت إذن طبيعة سلطته ، وماذا كان مبدؤها ؟ من الضروري أن
 نقص عن أذهاننا كل الآراء وكل العادات الحديثة وأن نتقل جهد الطاقة وسط
 عقائد القدماء . حتى ذلك الوقت ، لم يكن الناس يفهمون السلطة إلا كملحق
 للكهنة . فعندما كانوا يريدون أن يقيموا سلطة غير مرتبطة بعبادة ، ورؤساء
 ليسوا كهنة ، كان لا بد أن يتخللوا طريقاً ملتوياً فذاً في نوعه . لذلك كانوا
 عند تعيين العرفاء الأولين يقومون باحتفال ديني ذي صفة خاصة (٢) . لم يصف
 المؤرخون شعائره ، واكتفوا بالقول بأن نتيجته هي جعل هؤلاء العرفاء الأولين
 مقدسين *sacrosanctii* . يجب ألا نتخذ هذا المصطلح بالمعنى المجازي
 الغامض . فإن كلمة *sacrosanctus* كانت تدل على شيء محدد جداً في اللغة
 الدينية عند القدماء . كانت تنطبق على الأشياء المذكورة للآلهة والتي لم يكن
 يجوز لامرئ أن يمسها لهذا السبب . لم يكن منصب العريف هو المعتبر مبجلاً
 ومقدساً ، بل شخصه . كان جسم العريف ذاته (٣) هو الذي وضع في صلة مع
 الآلهة بحيث لم يعد هذا الجسم شيئاً دنيوياً بل شيئاً مقدساً . ومنذئذ لم يعد
 يستطيع أى إنسان أن يصدمه دون أن يرتكب جريمة التعدي على حدود الآلهة
 ودون أن يلحق بنفسه دنس *ἀγρι ἔνοχος εἶναι* (٤) .

(١) بلوتارخوس : مسائل رومانية ٨١ : *Κόλυσιν ἀρχῆς μᾶλλον ἢ ἀρχήν* . يرى
 تيتوس ليفيوس (٢ : ٥٦) أن العريف كان في نظر البطريق *privatus, sine*
imperio, sine magistratu . وإذن لم تكن كلمة *magistratus* تطبق في
 بعض الأحيان على العريف إلا من باب سوء استعمال اللغة . وكان منصب العريف قد
 تغير تغيراً كبيراً عندما سماه سيسرون ، والحق يقال في حركة خطائية ،
sanctissimus magistratus (الدفاع عن سكستوس ٣٨) .
 (٢) أغفل تيتوس ليفيوس الكلام عن هذا الاحتفال عند إنشاء منصب العرفاء
 لكنه يتكلم عنه عند إعادته سنة ٤٤٩ :

Ipsis quoque tribunis, ut sacrosancti viderentur, relatis quibusdam
caerimoniis renovarunt et inviolatos eos kuum religione tum lege
fecerunt (III, 53) . بين ديونيسيوس تدخل الديانة بنفس الوضوح (٩ : ٤٧) :
Ἱερὰν μεγάλαις ἡσφαλισμένην ἐκ θεῶν ἀνάγκαις

(٣) ديونيسيوس ٦ : ٨٩ : *Δημάρχων σώματα Ἱερὰ καὶ παναγῇ* . شرحه
 ٩ : ٤٨ : *Σώμασιν Ἱεροῖς*

(٤) شرحه ٦ : ٨٩ : *Τῷ ἀγρι ἐνέχεσθαι* (Zonaras) ج ١ ص ٥٦

نقل إلينا بلوتارخوس عادة فذة عن هذا الموضوع : يلوح أنهم عندما كانوا يقابلون عريفاً وسط الجمهور كانت القاعدة الدينية تقضى بأن يتطهروا كما لو كانت هذه المقابلة قد دنست أجسامهم (١) . وهى سنة كان لا يزال بعض المتحثثين يلاحظونها فى زمن بلوتارخوس وتعطينا فكرة عن الطريقة التى كانوا ينظرون بها إلى منصب العريف قبله بخمسة قرون .

كانت هذه الصفة المقدسة تلازم جسم العريف طول مدة شغله للوظيفة . وعند ما يعيّن خلفه، كان ينقل إليه هذه الصفة ؛ بالضبط كما كان القنصل ، عند ما يعيّن قناصل آخرين، ينقل إليهم الاستشارات والحق فى القيام بالشعائر المقدسة . وفى سنة ٤٤٩ كان منصب العريف شاغراً لمدة عامين فكان لا بد لتنصيب عرفاء جدد من تجديد الاحتفال المقدس الذى كان قد حدث على الأكمة المقدسة .

لسنا نعرف أفكار القدماء معرفة تكاد تكون كاملة حتى نقول ما إذا كانت هذه الصفة المقدسة قد تجعل من العريف شخصاً ممجداً فى أعين البطارقة أو أنها على العكس كانت تنصبه غرضاً للعنة والفرع . وهذا الظن الثانى أقرب إلى المعقول فى الأزمنة الأولى على الأقل . أما المؤكد على كل حال فهو أن العريف قد أصبح مصوناً صيانة تامة فلم يكن ليد البطريق أن تمسه دون أن تقترف إثماً خطيراً .

وقد أيد أحد القوانين هذه الصيانة وضمها ؛ فكان ينص على أنه « ما من أحد يستطيع الاعتداء على عريف ، ولا أن يضربه، ولا أن يقتله » . وأضاف إن « من يسمح لنفسه بعمل من هذه الأعمال نحو العريف يصير نجساً وتصادر أمواله لمنفعة معبد-كيريس (Ceres) ويمكن قتله دون قصاص (٢) » . وينتهى بهذه الصيغة التى ساعد غموضها مساعدة قوية على تقدم منصب العريف فى الزمن المقبل : « ليس لرجل من رجال الدولة، ولا لفرد ما ، أن يعمل شيئاً ضد

(١) بلوتارخوس : مسائل رومانية ٨١ :

Πᾶσι νόμος ἐστὶ καθαίρεσθαι καὶ ἀγνίσεσθαι τὸ σῶμα καθάπερ μεμιάσμενον

(٢) ديونيسيوس ٦ : ٨٩ ؛ تيتوس ليفيوس ٣ : ٥٥ .

العريف (١) . وحلف جميع المواطنين يميناً «على الأشياء المقدسة» تعهدوا فيه بأن يلاحظوا دائماً هذا القانون الغريب ، وتلى كل منهم صيغة دعاء استنزل بها على نفسه غضب الآلهة إذا تعدى حدود القانون وأضاف أن كل من ارتكب اعتداء على عريف «يدنس أكبر تدنيس» (٢) .

وكان امتياز العصمة من الاعتداء هذا يمتد إلى أبعد مدى يستطيع جسم العريف أن يمد إليه فعله المباشر . فإذا أساء قنصل معاملة أحد السوق وحكم عليه بالسجن ، أو وضع دائن يده عليه ، ظهر العريف ووضع نفسه بينهما (*intercessio*) وأوقف يد البطريق . منذا الذي يجرؤ على أن «يعمل شيئاً ضد العريف» أو يتعرض للمسّه ؟

لكن العريف لم يكن يمارس هذه السلطة الفذة إلا حيث يوجد . أما بعيداً عنه فقد كانت تساء معاملة السوق . لم يكن له أى أثر على ما يجرى بعيداً عن متناول يده وموقع نظره ومدى كلامه (٣) .

لم يعط البطارقة حقوقاً للسوق . وإنما قبلوا فقط أن يكون بعض السوق مصانين ؛ بيد أن ذلك كان كافياً ليكون هناك بعض الأمن للجميع . كان العريف بمثابة مذبج حتى يرتبط به حق الاستجارة (٤) .

وبالطبع أصبح العرفاء رؤساء للسوق ، وانزعوا حق القضاء . وفي الحقيقة لم يكن لهم الحق في أن يستدعوا أمامهم حتى أحد السوق ، لكن كان في استطاعتهم القبض الجسماني (٥) . وبمجرد ما يصبح الرجل في قبضة يدهم كان عليه أن

(١) Denys, X, 32 : *Oûte áρχοντι οὐτε ἰδιώτῃ συνεχωρεῖτο πράττειν*

οὐδὲν ἐναντίον δημάρχῳ

قدم ديونيسيوس هذه الجملة باعتبارها مادة من مواد القانون المقدس *lex sacrata*

(٢) Idem, VI, 89: *Ὡς ἄγει τῷ μεγίστῳ ἐνόχῳ*

(٣) *Tribuni antiquitus creati, non juri dicundo nec causis querelis- que de absentibus noscendis, sed intercessionibus faciendis quibus PRÆSENTES fuissent, ut injuria QUAE CORAM FIERET arce- retur.*

Aulu-Gelle, XIII, 12.

(٤) بلوتارخوس : مسائل رومانية ٨١ : *Ὡς περ βῶμος*

(٥) أولوس جيلوس ١٥ : ٢٧ . ديونيسيوس ٨ : ٨٧ ؛ ٦ : ٩٠

يطيع . بل يكفى أن يكون في الدائرة التي يسمع صوتهم فيها . فإن كلامهم هذا لم يكن يقاوم بل لا بد من الخضوع له حتى ولو كان المرء بطريقاً أو قنصلاً .

لم يكن للعريف في الأزمنة الأولى أية سلطة سياسية . وحيث أنه لم يكن رجل دولة (magistrat) فإنه لم يكن في استطاعته أن يدعو الندوات (curies) أو الفرق المثنية للاجتماع . لم يكن له أن يقدم أى اقتراح لمجلس الشيوخ ، بل لم يكن في فكر أحد في البدء أنه كان يستطيع المثل فيه . لم يكن هناك أى شيء مشترك بينه وبين المدينة الحقيقية أى بينه وبين المدينة البطريقية حيث لا يعترف له بأى سلطان . إنه لم يكن عريف الشعب ، بل عريف السوق (١) .

كان هناك إذن كما كان في الماصى مجتمعان في روما ، المدينة والسوق : أحدهما منظم تنظيماً قوياً ، له قوانين وحكام ومجلس شيوخ ؛ والآخر بقى جمهوراً لا حق له ولا قانون لكنه كان يجد في عرفائه المصانين حماة له وقضاة . ويمكن أن نرى في السنوات التي تلت ذلك كيف كانت جرأة العرفاء ، وأية إباحة غير متوقعة أباحوها لأنفسهم . ما من شيء كان يسمح لهم بدعوة طبقة السوق إلى الاجتماع : ومع ذلك فقد دعواها . ما من شيء كان يدعوهم إلى مجلس الشيوخ : جلسوا أولاً أمام باب الغرفة ثم فيما بعد في داخلها . ما من شيء كان يعطيهم الحق في محاكمة البطارقة : لكنهم حاكموهم وحكموا عليهم . تلك كانت عاقبة هذه العصمة التي كانت تلازم شخصهم المقدس . كل سلطة كانت تسقط أمامهم . لقد تجرد البطارقة من سلاحهم يوم تلوا مع الشعائر الاحتفالية أن كل من يلمس عريفاً يصبح نجساً . قال القانون : لا يفعل أحد شيئاً ضد عريف . فإذا ما دعى هذا العريف السوق إلى الاجتماع اجتمعت السوق ؛ وما من أحد يستطيع أن يحل هذا الاجتماع الذي يضعه حضور العريف خارج متناول البطارقة والقوانين . إذا دخل العريف مجلس الشيوخ لن يستطيع أحد أن يخرج . وإذا قبض على قنصل فلن يستطيع أحد أن يخلصه من يديه .

(١) Tite-Live, II, 56, 12: *Tribunos non populi, sed plebis.*

لا شيء يقاوم جرأة عريف . وليس لأحد قوة ضد العريف اللهم إلا أن يكون عريفاً آخر .

وهكذا ، بمجرد ما أصبح للسوق رؤساء لم تلبث أن أصبحت لها مجامع للشورى . ولم تكن هذه المجامع تشبه في شيء ما مجامع المدينة البطريقية . كانت السوق موزعة في قبائل ؛ وكان المسكن هو الذى يعين مكان كل واحد وليست الديانة أو الثروة . لم يكن المجتمع يبدأ بقربان ؛ لم تكن الديانة تبدو فيه . لم يكونوا يعرفون التنبآت ، ولم يكن يستطيع صوت المتكهن أو الخبر أن يضطر الناس إلى التفرق تلك كانت حقاً بلحان السوق ولم يكن فيها شيء من القواعد القديمة ولا من ديانة البطارقة .

حقاً إن هذه المجامع لم تكن في البدء تشغل نفسها بمصالح المدينة العامة : إنها لم تكن تعين حكماً ولا تصدر قوانين . لم تكن تتداول إلا في مصالح السوق ولم تكن تعين غير رؤساء السوق ولا تصدر إلا استفتاءات شعبية . وقد كان في روما زمناً طويلاً سلسلة مزدوجة من القرارات : فتاوى مجلس الشيوخ للبطارقة والاستفتاءات الشعبية للسوق . لم تكن السوق خاضعة لفتاوى مجلس الشيوخ ولا البطارقة للاستفتاءات الشعبية . بل كان هناك شعبان في روما .

كاد ألا يوجد هناك شيء مشترك بين هذين الشعبين اللذين يتواجهان ويعيشان داخل نفس الجدران . لم يكن يستطيع أحد السوق أن يكون قنصلاً للمدينة ولا يستطيع بطريق أن يكون عريفاً للسوق . لم يكن السوق يدخل مجمع الندوات ولا البطريق مجمع القبائل (١)

لقد كانا شعبين للدرجة إن أحدهما لم يكن يفهم الآخر إذ يمكن القول إنه لم يكن بينهما آراء مشتركة . فإذا تكلم البطريق باسم الدين والقوانين ،

(١) تيتوس ليفيوس ٢: ٦٠ . ديونيسيوس ٧: ١٦ . فستوس تحت لفظ *Scita plebis* . من المفهوم أننا نتكلم عن الأزمنة الأولى . كان البطارقة مقيدين في القبائل . لكنه لا ريب في أنهم لم يكونوا يمثلون في المجامع التى كانت تجتمع بدون استشارات ولا احتفالات دينية ، والتي لم يعترفوا لها بأية قيمة شرعية زمنياً طويلاً .

أجاب السوق أنه لا يعرف هذه الديانة الموروثة ولا القوانين المستمدة منها . إذا تدرع البطريق بالعادة المقدسة أجاب السوق باسم الحق الطبيعي . كل منهما يرد على الآخر الاتهام بالحيف ؛ كان كل منهما عادلاً طبقاً لمبادئه هو ، ظالماً طبقاً لمبادئ الآخر وعقائده . كان مجمع الندوات وتجمع الآباء يبدوان للسوق امتيازات بغیضة . كان البطريق يرى في مجمع القبائل حشداً تأباه الديانة . كان منصب القنصل للسوق سلطة عسف وطغيان . وكان منصب العريف في نظر البطريق شيئاً دنساً ، شاذاً ، ومخالفاً لكافة المبادئ ؛ إنه لا يستطيع أن يفهم مثل هذا الرئيس الذي لم يكن كاهناً والذي كان ينتخب دون استشارات . كان منصب العريف يخل بالنظام المقدس للمدينة . مثله مثل البدعة في الدين ؛ لقد كان عاراً على الديانة العامة . قال أحد البطارقة « سيكون الآلهة ضدنا طالما ستكون فينا هذه القرحة التي تأكل أبداننا والتي يمتد منها الفساد إلى جميع الهيئة الاجتماعية » . كان تاريخ روما مليئاً لمدة قرن بهذا النوع من سوء التفاهم بين هذين الشعبين اللذين كانا يبدوان كما لو كانا لا يتكلمان لغة واحدة . تمسكت طبقة البطارقة بإبقاء السوق خارج الهيئة السياسية ؛ ومنحت السوق نفسها أنظمة خاصة بها . فأصبحت ثنائية الشعب الروماني كل يوم أكثر جلاء من سابقه .

بيد أنه كان هناك شيء يربط بين هذين الشعبين ، ألا وهو الحرب . كانت طبقة البطارقة حريصة على ألا تحرم نفسها من الجنود . تركت للسوق لقب مواطن ، لكي تستطيع على الأقل أن تدبجهم في الفياتق . هذا وقد حرصوا على ألا تمتد عصمة العريف خارج روما ، ولهذا قرروا ألا يخرج عريف من المدينة قط . فكانت السوق في الجيش مجرد رعية ، ولم تكن هناك سلطة مزدوجة . أمام العدو كانت روما تعود وحدة من جديد .

ثم إنه بفضل تهودهم ، بعد طرد الملوك ، على جمع الجيش لاستشارته في المصالح العامة أو في اختيار رجال الدولة ، أصبحت هناك مجامع مختلطة تمثل فيها السوق بجوار البطارقة . ونرى في التاريخ يجلاء أن هذه اللجان المكونة من الفرق المثينة اتخذت أهمية كانت تزايد دائماً وأصبحت ، بتدرج غير محسوس ، ما كانوا يسمونه اللجان الكبرى .

والواقع أنه في النزاع الناشب بين مجمع الندوات ومجمع القبائل كان يبدو طبيعياً أن يصبح مجمع الفرق المثنية بمثابة أرض محايدة يؤثرون تناقش المصالح العامة فيها .

لم يكن السوق فقيراً دائماً فكثيراً ما كان ينتمى إلى أسرة أصلها من بلدة أخرى كانت فيها ثرية ومعتبرة ، وقد نقلتها غيرُ الحرب إلى روما دون أن تجردها من الثروة ولا من هذا الاحساس بالكرامة الذي يصاحب الثروة في العادة. كما أن السوق كان يستطيع في بعض الأحيان أن يثرى من عمله وعلى الأخص في زمن الملوك . عندما قسم سرفيوس الأهالي إلى فئات حسب ثروتهم ، دخل بعض السوق في الفئة الأولى . لم يجرؤ البطارقة أو لم يستطيعوا أن يبلغوا هذا التقسيم إلى فئات . لم يكن الأمر يخلو إذن من سوقة يحاربون مع البطارقة جنباً لجنب في الصفوف الأولى ، ويصوتون معهم في الفرق المثنية الأولى .

هذه الطبقة ذات الثروة والشمم والفطنة أيضاً ، والتي لا يمكن أن ترتضي الفتن ، ولا بد أنها كانت تخشاها ، والتي كانت تخسر كثيراً إذا سقطت روما وتكسب كثيراً إذا ارتفعت ، هذه الطبقة كانت واسطة طبيعية بين الطبقتين العدوتين .

لا يلوح أن طبقة السوق قد شعرت بأي مضض لرويتها قيام فوارق الثروة في باطنها . وبعد إنشاء منصب العرفاء بستة وثلاثين عاماً رفع عدد العرفاء إلى عشرة لكي يكون هناك اثنان من كل طبقة من الطبقات الخمس وإذن تكون السوق قد قبلت التقسيم الذي قرره سرفيوس وتمسكت بالمحافظة عليه . وحتى الفقراء الذين لم تشملهم هذه الفئات لم تسمع منهم أية مطالبة؛ بل تركوا لمن هم أكثر منهم رخاء امتيازهم ، ولم يطالبوا بأن يختار منهم عرفاء هم أيضاً .

أما البطارقة فإن هذه الأهمية التي اتخذتها الثروة لم تزعجهم إلا قليلاً، إذ أنهم كانوا أثرياء بدورهم. لقد كان البطارقة أكثر حكمة أو أسعد حظاً من نساء أثينا ، الذين هوى إلى العدم يوم أصبحت إدارة المجتمع تابعة للثروة، فإنهم لم يهملوا الزراعة ولا التجارة ولا حتى الصناعة نفسها . فكان انماء ثروتهم هو اهتمامهم الكبير على الدوام ، وكان العمل والتقشف والمضاربة الحسنة من

فضائلهم دائماً . هذا وقد زاد في أملاكهم كل نصر على العدو وكل فتح جديد .
لذلك لم يروا في ارتباط السلطة بالثروة ضرراً بليغاً .

كان من عادة البطارقة وخلفهم ألا يحتقروا ثرياً حتى ولو كان من السوق .
كان الثرى من السوق يقترب منهم ويعيش معهم ، وتقوم بينه وبينهم صلات
عديدة من المنفعة أو الصداقة . كان السوق يُفهم البطريق أمان السوق وحقوقهم
بالتدريج . وانتهى البطريق بأن استسلم للاقتناع ، ووصل تدريجياً إلى تكوين
رأى عن تفوقه أقل صلابة وأقل غطرسة . لم يعد واثقاً كل الثقة من حقه كما
كان من قبل . هذا وعندما يحدث أن يشك سراة في أن سلطانهم مشروع
إما أن يفقدوا الشجاعة في الدفاع عنه وإما أن يدافعوا عنه دفاعاً سيئاً . منذ اللحظة
التي لا يؤمن فيها البطريق بامتيازاته يمكن القول إن طبقة البطارقة توشك أن
تغلب على أمرها .

يلوح أنه كان للطبقة الثرية نوع آخر من التأثير على طبقة السوق التي خرجت
منها والتي لما تنفصل عنها . حيث أنها كانت لها مصلحة في عظمة روما فإنها
كانت تتمنى اتحاد الطبقتين . فضلاً عن أنها كانت طموحة ، وكان يترأى لها
أن فصل الطبقتين فصلاً قاطعاً يحد مستقبلها إلى الأبد، إذ يربطها إلى الأبد بالطبقة
الدنيا ، بينما كان اتحادهما يفتح لها طريقاً لا يمكن رؤيته نهايته . فكانت تجهد
نفسها إذن في توجيه أفكار السوق وأمانها في اتجاه آخر . فبدلاً من التثبيت
بتكوين طبقة منفصلة ، وبدلاً من تجشم العناء في منح نفسها قوانين خاصة لن
تعترف بها الطبقة الأخرى إطلاقاً ، وبدلاً من العمل ببطء عن طريق الاستفتاءات
الشعبية في إنشاء قوانين لاستعمالها واعداد مجموعة قوانين لن تكون لها قيمة
رسمية على الإطلاق ، أوحى إليها بمطعم التوغل في المدينة البطريقية والدخول
في اقتسام قوانين البطارقة وأنظمتهم ومناصبهم ؛ وعندئذ اتجهت رغبات السوق
نحو اتحاد الطبقتين بشرط المساواة .

وبمجرد أن سلكت السوق هذه الطريق ، بدأت المطالبة بمجموعة القوانين .
كانت في روما ، كما في جميع البلدان ، قوانين مقدسة غير قابلة للتبديل . كانت

هذه القوانين مكتوبة وكان الكهنة يحافظون على نصها (١) . لكن هذه القوانين التي كانت جزءاً من الديانة لم تكن تنطبق إلا على أعضاء المدينة الدينية . لم يكن للسوق الحق في معرفتها ويمكن الاعتقاد أنه لم يكن له الحق أيضاً في الاستناد إليها. وجدت هذه القوانين للندوات (curies) وللصفائل (gentes) وللبطارقة ومواليهم لكنهم لم توجد لغيرهم . لم تكن تعترف بحق الملك لمن لم تكن له مقدّسات sacra ؛ لم تكن تمنح حق التقاضي لمن لا ولى له . وهذه الصفة الدينية المحضة في القانون هي التي أرادت طبقة السوق أن تمحوها . فلم تقتصر على طلب تحرير القوانين كتابة وجعلها علانية بل طلبت أن تكون هناك قوانين تطبق على البطارقة وعليها هي بالسواء .

يلوح أن العرفاء أرادوا في البدء أن يكون تحرير هذه القوانين على يد بعض السوق فأجاب البطارقة إنه من الجلى أن العرفاء كانوا يجهلون ما هو القانون إذ لو كان الأمر غير ذلك لما أبدوا مثل هذه الفكرة . قال البطارقة «إنه لمن المستحيل استحالة تامة أن يصدر السوق قوانين ؛ أنتم الذين لا استخارات لكم ، أنتم الذين لا تقومون بأعمال دينية ، أية صلة بينكم وبين الأشياء المقدسة التي يجب أن يعد القانون من بينها (٢) ؟ » وإذن فقد كان ادعاء السوق يبدو للبطارقة إثماً وشيئاً ممسوخاً ، لذلك ذكرت الحوليات القديمة ، التي رجع إليها تيتوس ليفيوس وديونيسيوس في ذلك الموضع من تاريخهما ، عجائب مفرقة : سماء تلهب ، وأشباح تسبح في الهواء ، وأمطار من الدماء (٣) . لكن الأعجوبة الحقيقية هي أن بعض السوق قد خطرت ببالهم فكرة سن القوانين . لقد بقيت

(١) أما عن وجود تشريع مكتوب قبل لجنة الرجال العشرة فهو ما تشهد به عدة نصوص ، ديونيسيوس ١٠ : ١ ؛ ٣ : ٣٦ ؛ سيسرون : الجمهورية ٢ : ١٤ ؛ بومبونيوس في المختار (ديجست) ١ : ٢ . وكثير من هذه القوانين القديمة مذكورة في بلينيوس ١٤ : ١٢ ؛ ٣٢ : ٢ ؛ وسرفيوس : ad Georg., III, 387 ; ad Eclogas IV, 43 ; وفستوس في مواضع متفرقة .

(٢) تيتوس ليفيوس ٣ : ٣١ . ديونيسيوس ١٠ : ٤

(٣) يوليوس أبسكوينز (Obsequens) ١٦ .

الجمهورية معلقة ثمانى سنوات بين الطبقتين اللتين كانت كل واحدة منهما تدهش لتثبت الأخرى . ثم وجد العرفاء حلاً وسطاً فقالوا « ما دمت لا تريدون أن يكتب القانون أحد السوق فلنختار الشارعين من الطبقتين » . ومن هنا اعتقدوا أنهم سمحوا بالكثير ، لكنه كان قليلاً إذا قارناه بصرامة المبادئ التى تنطوى عليها الديانة البطريقية . فرد مجلس الشيوخ بأنه لا يعترض مطلقاً على تحرير مجموعة قوانين ، لكن هذه المجموعة لا يمكن أن يحررها إلا البطارقة . وانتهوا بإيجاد وسيلة للتوفيق بين مصالح السوق وبين الضرورة الدينية التى كانت تطالب بها طبقة البطارقة : فقررروا أن يكون الشارعون جميعاً من البطارقة لكن مجموعة قوانينهم ستعرض قبل إقرارها وتنفيذها على أعين الجمهور وتخضع للموافقة المبدئية من جانب جميع الطبقات .

ليس هذا بالوقت الذى نحمل فيه مجموعة قوانين لجنة الرجال العشرة . وإنما يكفى أن نلاحظ منذ الآن أن عمل المشرعين قد عرض أولاً فى ساحة المدينة وناقشه جميع المواطنين فى حرية ، ثم قبلته بعد ذلك بلجان الفرق المثينة أى المجمع الذى تبرز فيه الطبقتان . فكان ذلك تجديداً خطيراً . لقد أصبح نفس القانون ينطبق على الجميع ما دامت قد أقرته جميع الطبقات . وإنا لا نجد فيما تبقى لنا من هذه المجموعة كلمة واحدة تتضمن عدم المساواة بين السوق والبطريق سواء فيما يختص بحق المالك أو العقود أو الالتزامات أو الإجراءات . ابتداء من هذه اللحظة مثل السوق أمام المحكمة نفسها التى يمثل أمامها البطريق ، وتصرف كما يتصرف ، وحوكم بمقتضى القانون الذى يحاكم به . هذا ولا يمكن أن تحدث ثورة أبعد مدى من هذه ؛ فقد تغير فى روما كل شيء : العادات اليومية ، والأخلاق ، وإحساسات الإنسان نحو الإنسان ، وفكرة الكرامة الشخصية ، ومبدأ الحق .

وكانت قد بقيت بضعة قوانين فعينوا عشرة رجال آخرين من بينهم ثلاثة من السوق . وبعد أن أعلنوا بكل هذا العنف أن الحق فى تحرير القوانين وقف على البطارقة بلغت السرعة فى تقدم الآراء أنه لم ينتقض عام واحد حتى قبلوا السوق بين المشرعين

كانت الأخلاق تتجه نحو المساواة . كانوا فوق منحدر لا يمكن المرء معه أن يمسك نفسه . كان من الضروري عمل قانون لتحريم الزواج بين الطبقتين : ولأنه لدليل قاطع على أن الديانة والأخلاق لم تعودا كافيتين لتحريمه . لكن الوقت لم يكفد يتسع لعمل هذا القانون حتى أسقطه السخط العام . وقد تشبث بعض البطارقة بالتذرع بالديانة «سوف يدنس دمنا ويحلب الشنار على العبادة المتوارثة في كل أسرة ؛ ولن يدري أحد من أي دم ولد ، وأي القرابين يتبع . سيكون ذلك قلباً لجميع الأنظمة الإلهية والبشرية على السواء» . لم يكن السوق ليفهموا شيئاً من هذه الأدلة التي لم تكن تبدو لهم غير لباقة في التحليل لا قيمة لها . فإن نقاش قواعد الإيمان أمام قوم لا دين لهم بل جهد ضائع . هذا وقد أجاب العرفاء في كثير من التوفيق : «إن كانت ديانتم تتحدث حقاً بمثل هذا العلو فما هي حاجتكم لمثل هذا القانون ؛ إنه لا ينفعكم في شيء . اسحبوه وستبقون أحراراً كما كنتم من قبل في عدم المصاهرة مع أسرات السوق» . وقد سحب القانون وسرعان ما تعدد الزواج بين الطبقتين . وقد كانت الرغبة في السوق الأثرياء من الشدة بحيث رأوا آل ليكينيوس (Licinius) ، وسنقتصر في الكلام عليهم ، يصاهرون ثلاث فصائل من البطارقة : آل فايوس وآل قورنيليوس وآل مانليوس (١) . وعندئذ استطاعوا أن يعرفوا أن القانون هو الذي كان ، في لحظة من اللحظات ، الحاجز الوحيد الذي كان يفصل بين الطبقتين . ومنذ الآن اختلط دم البطارقة بدم السوق .

بمجرد الحصول على المساواة في الحياة الخاصة كان الجانب الأصعب قد تم وبدا طبعياً أن توجد المساواة في الشؤون السياسية أيضاً . فتساءلت طبقة السوق لماذا حرمت القنصلية عايتها ، ولم تعد ترى مبرراً لتقصي عنها إلى الأبد .

بيد أنه كان هناك سبب قوى جداً . لم تكن القنصلية مجرد إمرة بل كانت كهنوتاً . لكي يكون المرء قنصلاً لم يكن يكفي أن يقدم ضمانات من الذكاء والشجاعة والنزاهة . بل كان لا بد على الأخص أن يكون أهلاً للقيام باحتفالات

(١) تيتوس ليفيوس ٥ : ١٢ ، ٦٤ : ٣٤ ، ٦٤ : ٣٩

العبادة العامة . كان لا بد أن تراعى الشعائر جيداً وأن ترضى الآلهة . هذا ولم تكن لغير البطارقة الصفة المقدسة التي تسمح بتلاوة الأدعية وجلب الحماية الإلهية للمدينة . لم يكن بين السوق والديانة شيء مشترك ؛ فكانت الديانة تحول دون أن يكون السوق قنصلاً ، *plebeium consulem fieri* .

يمكن أن نتصور دهشة البطارقة وسخطها عند ما تقدم السوق لأول مرة بدعواهم في أن يكونوا قناصل . لقد بدا لهم أن الديانة مهددة . وقد أجهدوا أنفسهم في إفهام ذلك للسوق ، بينوا لهم أية أهمية كانت للديانة في المدينة وأنها هي التي أسست البلدة ، وهي التي تهيمن على جميع الأعمال العامة ، وهي التي تدير مجامع الشورى وتعطى للدولة حكامها . وأضافوا أن هذه الديانة كانت ، طبقاً للقاعدة العتيقة (*more majorum*) ، ميراث البطارقة ، وأنه لا يمكن لسواهم أن يعرف هذه الشعائر أو يمارسها ، وفي الختام أن الآلهة لا تقبل قربان السوق . اقترح انشاء قناصل من السوق إنما هو الرغبة في القضاء على ديانة المدينة . ستكون العبادة منذ الآن مدنسة ولن تكون المدينة في سلام مع آلهتها (١) .

عملت طبقة البطارقة بكل جهدها وبكل حذقها لإقصاء السوق عن مناصبها في الدولة . فكانت تدافع عن ديانتها وعن سلطتها معاً . بمجرد أن رأت أن الخطر قد حل بالقنصلية وأن السوق توشك أن تحصل عليها ، فصلت عنها الوظيفة الدينية التي كانت لها الأهمية العظمى بين جميع الوظائف ، تلك الوظيفة التي كانت تقوم بنثر الماء على المواطنين ؛ وبهذا أنشأت وظيفة الرقباء (*censeurs*) . وفي لحظة بدا لها فيها أنه من الصعب جداً أن تقاوم أمانى السوق استبدلت بالقنصلية منصب العرفاء الحربيين . هذا وقد أظهرت السوق صبراً كبيراً ؛ فقد لبثت خمسا وسبعين سنة تنتظر لتحقيق رغبتها . ومن الواضح أنها استعملت من الحماس في الحصول على هذه المناصب العالية أقل مما استعملته في الحصول على منصب العريف ومجموعة القوانين .

لكن إذا كانت السوق على شيء من عدم الاكتراث فقد كان هناك سراة من السوق لهم مطاعمهم . ها هي ذى أسطورة من ذلك العصر : «زوج فييس

أمبوستوس (Fabius Ambustus)، وهو من أوجه البطارقة، ابنتيه: إحداهما بالطريق أصبح عريفاً حروبياً (tribun militaire) والأخرى لليكينوس ستولون (Licinius Stolon) وهو من الرجال البارزين لكنه كان سوقة. وقد حدث أن كانت هذه الأخيرة عند أختها عندما كان الحجاب يصاحبون العريف الحربي إلى منزله وقرعوا الباب بحزمهم. ولما كانت تجهل هذه العادة فقد روعت. وعلمت من ضحك أختها وأسلتها المهكمة إلى أي حد انحطت مكانتها بالزواج بأحد السوقة، بوضعها في منزل لم تدخله مظاهر التبجيل والشرف إطلاقاً. وقد أدرك والدها أسباب حزنها وواساها ووعداها بأن ترى في منزلها يوماً ما ما رأت في منزل أختها وتواطأ مع ختنه وعمل الاثنان لنفس الغرض». وتعلمنا هذه الأسطورة شيئين على الأقل بين بعض التفاصيل الصبائية التي لا يمكن تصديقها: أحدهما أن سراة السوقة اقتبست مطامع البطارقة وتطلعت إلى مكانتهم لشدة معاشرتها لهم؛ والآخر أنه كان هناك بطارقة يشجعون طموح هؤلاء السراة الجدد الذين اتحدوا معهم بأوثق الروابط ويثيرون مطعمهم

يلوح أن ليكينوس وسبستوس (Sextius)، الذي انضم إليه، حسباً أن السوقة لن تبذل جهوداً عظيمة لإعطائهما الحق في أن يكونا قنصلين. إذ اعتقدا أن عليهما أن يقترحا ثلاثة قوانين في وقت واحد. فقد سبق القانون الذي كان الغرض منه تقرير ضرورة اختيار أحد القنصلين من بين السوقة قانونان آخران أنقص أحدهما الديون ومنح الآخر أراضي للشعب. ومن الجلي أن الغرض من القانونين الأولين هو إثارة حماس السوقة للثالث. وقد أتت لحظة كان السوقة فيها ذوى بصيرة نافذة: فأخذوا من اقتراحات ليكينوس ما كان يخصهم أي تخفيض الديون وتوزيع الأراضي وتركوا القنصلية جانباً. لكن ليكينوس رد عليهم بأن القوانين الثلاثة غير قابلة للانفصال وأن الواجب قبولها أو رفضها معاً. وكان الدستور الروماني يبيح مثل هذا الإجراء. ويمكننا أن نعتقد أن السوقة كانوا يوثرون أن يقبلوا الكل على أن يفقدوا الكل.

لكنه لا يكفي أن تريد السوقة إصدار قوانين؛ بل كان لا بد، في ذلك

العهد، من أن يدعو مجلس الشيوخ اللجان العظمى ويصدق على القرار بعد ذلك (١). وقد امتنع عن ذلك عشر سنوات . وفي النهاية حدث حادث تركه تيتوس ليفيوس في ظلام دامس (٢) ؛ يبدو أن السوق امتشقت السلاح ولطخت الحرب الدامية شوارع روما بالدماء . وقد أصدر البطارقة بعد غلبهم فتوى من مجلس الشيوخ وافق فيها وصدق مقدماً على جميع القرارات التي يصدرها الشعب في تلك السنة . لم يعد هناك ما يمنع العرفاء من إجراء التصويت على قوانينهم الثلاثة وابتداء من تلك اللحظة أصبح للسوق كل عام قنصل من قنصلين ، ولم تلبث أن وصلت إلى المناصب الأخرى . وارتدى السوق العباءة (toge) الأرجوانية وتقدمته الحزم (faisceaux) ، وقضى بين الناس ، وأصبح عضواً بمجلس الشيوخ ، وحكم المدينة ، وتأمر على الفياق .

بقيت مناصب الكهنوت ولا يلوح أنه كان في الاستطاعة انتزاعها من البطارقة ؛ إذ أنه كانت في الديانة الأولى عقيدة لا تتزعزع وهي أن الحق في تلاوة الدعاء ولمس الأشياء المقدسة لا ينتقلان إلا مع الدم . وكان علم الشعائر وراثياً كحيازة الآلهة . فكما أن العبادة المنزلية كانت ميراثاً لا يمكن أن يساهم فيه أى أجنبي ، كذلك كانت عبادة المدينة ملكاً قاصراً على الأسرات التي كونت المدينة البدائية . من الموثوق به أنه لم يطرأ في خاطر أحد في القرون الأولى من روما أن واحداً من السوق كان يستطيع أن يكون حبراً .

لكن الأفكار تغيرت . فإن السوق بحذفها من الديانة قاعدة الوراثة قد اصطنعت ديانة لاستعمالها . منحت نفسها معبودات منزلية (لاريس) ، ومذابح في مفارق الشوارع ، ومواقد للقبائل . لم يكن لدى البطريق في البدء غير الاحتقار لهذا التقليد للديانة ؛ لكن ذلك أصبح مع الزمن شيئاً جديداً وانتهى الأمر بالسوق إلى الإيمان بأنه كفؤ للبطريق حتى من ناحية العبادة وبالنسبة للآلهة .

كان هناك مبدعان متعارضان . فقد تشبث البطارقة بالدفاع عن أن الصفة الكهنوتية والحق في عبادة المعبود وراثيان ؛ وحرر السوق الديانة والكهنوت من قاعدة

(١) تيتوس ليفيوس ٤ : ٤٩ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٦ : ٤٢ .

الميراث القديمة . وكانت تدعى أن كل رجل أهل لتلاوة الدعاء ، وما دام المرء مواطناً فقد كان من حقه القيام باحتفالات عبادة المدينة ؛ ووصلت إلى هذه النتيجة وهى أن السوق يستطيع أن يكون حبراً .

لو كانت مناصب الكهنوت مستقلة عن الإمرة والسياسة لكان من الجائز ألا ترغب فيها السوق بمثل هذا الحماس . لكن جميع هذه الأشياء كانت ممزجة : كان الكاهن حاكماً والحبر قاضياً ، وفى استطاعة المستخير أن يفص المجامع العامة . ولم يفت السوق أن تلاحظ أنه لن تكون لها المساواة المدنية ولا المساواة السياسية بصفة حقيقية من غير المناصب الكهنوتية ولذا طالبت باقتسام منصب الحبر بين الطبقتين كما طالبت باقتسام القنصلية من قبل .

وقد أصبح من الصعب الاعتراض عليها بعجزها الدينى . إذ أنه منذ ستين عاماً وهم يرون السوق يقدم القرابين باعتباره قنصلاً ، ويعمل النثار باعتباره رقيباً ، ويقوم بمراسيم النصر المقدسة عند انتصاره على العدو . لقد انتزعت السوق جزءاً من الوظائف الكهنوتية عن طريق مناصب الدولة فلم يعد من السهل إنقاذ الباقي منها . كان الإيمان بمبدأ الوراثة الدينية مزعزحاً عند البطارقة أنفسهم . وقد استند بعضهم عبثاً إلى القواعد القديمة وقالوا « سوف تُبدّل العبادة وتتلوث بأيد غير جديرة ؛ إنكم تهاجمون الآلهة أنفسهم ؛ احذروا أن يحيق غضبهم ببلدنا (١) . » لا يلوح أنه كان لهذه الحجج قوة عظيمة على السوق ولا حتى أنه كان لها أثر على أغلبية البطارقة . فقد كانت الأخلاق الجديدة فى صف المبدأ السوقى . فتقرر أنه منذ الآن سيختار نصف عدد الأحرار والمستخيرين من بين السوق .

كان ذلك آخر ما استولت عليه الطبقة الدنيا ؛ لم يعد لها ما ترغب فيه .

(١) تيتوس ليفيوس ١٠ : ٦ *Deos visuros ne sacra sua polluantur* : يلوح أن تيتوس ليفيوس كان يعتقد أن هذه الحجة لم تكن إلا خدعة ؛ لكن العقائد لم تكن قد ضعفت فى ذلك العهد إلى ذلك الحد (١٠٣ قبل الميلاد) بحيث يتعذر أن تكون هذه اللغة مخلصاً جداً فى أفواه الكثيرين من البطارقة .

لقد فقد البطارقة كل شيء حتى تفوقهم الدينى ولم يعد هناك ما يميزهم عن السوق . ولم تعد طبقة البطارقة غير اسم أو ذكرى ؛ واختفت المبادئ القديمة التى قامت عليها المدينة الرومانية كما قامت عليها جميع المدن القديمة . من هذه الديانة العتيقة الوراثية، التى حكمت الناس زمناً طويلاً، وأقامت الفوارق بينهم، لم يعد باقياً غير مظاهرها الخارجية . حاربها السوق أربعة قرون ، فى عهد الجمهورية ، وفى عهد الملوك ، وتغلب عليها

(١) مناصب ملك القرايين والفلامينيس والساس والفستاليين التى لم تكن تلازمها أية أهمية «يأسية تركت، دون أن ينتج عن ذلك خطراً، فى أيدي طبقة البطارقة التى بقيت على الدوام طبقة مقدسة لكنها لم تعد طبقة متغلبة .

الفصل الثامن

تفسيرات في القانون الخاص :

مجموعة قوانين اللوحات الاثنتى عشرة ؛ مجموعة قوانين صولون

ليس فى طبيعة الشرع أن يكون مطلقاً وغير قابل للتحويل ؛ بل أنه يتغير ويتشكل كسكل عمل إنسانى . لكل مجتمع شرعه الدين يتكون ويتطور معه ، ويتغير مثله ، يتبع دائماً حركة أنظمته وعاداته وعقائده .

خضع رجال العصور القديمة لديانة كلما زادت خشوتها زاد سلطانها على نفوسهم . هذه الديانة هى التى عملت لهم شرعهم كما أنها هى التى منحهم أنظمتهم السياسية . لكن ها هو ذا المجتمع يتبدل . فالنظام الأبوى الذى ولدته هذه الديانة الوراثية قد ذاب مع الزمن فى نظام المدينة . تمزقت الفصيلة (*gens*) تدريجياً وانفصل الأصغر عن الأكبر والخدام عن الرئيس ؛ وكبرت الطبقة الدنيا ؛ وتسلحت ؛ وانتهت إلى التغلب على السراة والاستيلاء على المساواة . وكان لا بد أن يودى هذا التغير فى الحالة الاجتماعية إلى تغير آخر فى الشرع . إذ أنه بقدر ما كان النسباء والبطارقة متمسكين بديانة الأسرات القديمة ، وبالتالى بالشرع القديم ، بقدر ما كانت الطبقة الدنيا حاكمة على هذه الديانة الوراثية ، التى طالما كانت سبب ضعفهم ، وعلى هذا الشرع العتيق الذى أرهقهم . لم تكن تبغضه فحسب بل إنها لم تفهمه . وحيث أنها لم تكن مؤمنة بالعقائد التى قام عليها فقد بدا لها أن ذلك الشرع قائم على غير أساس ؛ وجدته ظالماً ، ومنذ ذلك أصبح من المتعذر بقاؤه .

إذا وضعنا أنفسنا فى الفترة التى كبرت السوق فيها ودخلت الهيئة السياسية ، وقارنا شرع هذه الفترة بالشرع البدائى فإن تغيرات خطيرة تظهر لأول وهلة ، أولها وأبرزها أن الشرع أصبح علنياً ومعروفاً للجميع . إنه لم يعد ذلك النشيد

المقدس الخفي الذي كانوا يتناقلونه من عصر إلى عصر بذلك الاحترام الورع ،
والذي كان يكتبه الكهنة دون سواهم ولا يستطيع أن يعرفه غير رجال الأسرات
الدينية. خرج الشرع من كتب الشعائر وأسفار الكهنة ؛ لقد فقد سره الديني ؛
لقد أصبح لغة يستطيع كل فرد أن يقرأها وأن يتكلمها .

يتجلى في هذه المجموعات القانونية شيء أكثر من ذلك خطراً . لم تعد طبيعة
القانون ومبدؤه كما كانا في الفترة السالفة . فقد كان القانون قبل ذلك قراراً من
الديانة ؛ كان يعتبر وحياً أوحى به الآلهة للأسلاف ، للمؤسس الإلهي ، وللملوك
المقدسين ، ولرجال الدولة الكهنة . أما في المجموعات الجديدة فإن الشارع لم يعد
يتكلم باسم الآلهة ؛ لقد تلقت لجنة الرجال العشرة سلطتها من الشعب ؛ والشعب
أيضاً هو الذي خلع على صوابون حق عمل القوانين . فلم يعد الشارع يمثل الأثرية
الدينية بل الإرادة الشعبية . وأصبح مبدأ القانون منذ ذلك الوقت مصلحة الناس ،
وأساسه موافقة العدد الأكبر منهم .

ومن هنا نتيجتان : أولاً لم يعد القانون يبدو صيغة غير قابلة للتغيير أو النقاش ،
بل أصبح عملاً إنسانياً ويعترف بأنه عرضة للتغيير . تقول اللوحات الاثنتا عشرة .
« إن ما تأمر به أصوات الشعب في النهاية هو القانون . » (١) . ولا يوجد بين
النصوص التي بقيت لنا من هذه المجموعة نص له من الأهمية أكبر مما لهذا النص ،
ولا ما يدل على طابع الثورة التي تمت عندئذ في الشرع خيراً من دلالاته . لم يعد
القانون أثارة مقدسة ، *mos* ، بل مجرد نص ، *lex* . وبما أن إرادة الناس هي
التي سنته فإن هذه الإرادة نفسها تستطيع أن تغيره .

والنتيجة الأخرى هي هذه : إن القانون الذي كان من قبل جزءاً من الديانة ،
والذي كان ، بناء على ذلك ، ميراثاً للأسرات المقدسة أصبح منذ الآن مشتركاً
بين جميع المواطنين . استطاع السوق أن يستند إليه وأن يتقاضى في المحاكم . وكل
ما استطاعه البطريق الروماني ، باعتباره أشد صلابة وأكثر حيلة من النسيب

(١) تيتوس ليفيوس ٧ : ١٧ ، ٩ : ٣٣ ، ٣٤ .

الأثني، أنه حاول أن ينجي عن الجمهور أشكال إجراءات الدعاوى؛ لكن هذه الأشكال لم تلبث أن أذيت .

وهكذا تغيرت طبيعة الشرع ؛ ولم يعد بعدئذ يستطيع أن يضم نفس الفرائض التي كان يشملها في الفترة السابقة . طالما كان للديانة سلطان عليه ، نظم علاقات الناس بعضهم ببعض طبقاً لمبادئ هذه الديانة . لكن الطبقة الدنيا التي جلبت في المدينة مبادئ أخرى لم تكن تفهم شيئاً من قواعد حق الملك القديمة ، ولا من حق الإرث القديم ، ولا من سلطة الأب المطلقة ، ولا من قرابة العصبية . فأرادت أن ينجي ذلك كله .

والحق أنه لا يمكن أن يكون هذا التبديل في الشرع قد تم دفعة واحدة . لأنه إذا كان في استطاعة الإنسان، في بعض الأحيان، أن يغير أنظمته السياسية فجأة فإنه لا يستطيع أن يغير قوانينه وشرعه الخاص إلا ببطء وعلى درجات. وهو ما يدل عليه تاريخ الشرع الروماني كما يدل عليه تاريخ الشرع الأثيني .

كتبت اللوحات الاثنتا عشرة ، كما رأينا آنفاً، وسط تبديل اجتماعي ؛ إن الذين كتبوها كانوا من البطارقة لكنهم دونوها بناء على طلب السوق ولاستعمالها . وإذن لم يكن هذا التشريع هو الشرع الروماني الأول ؛ ولما أصبح الشرع البريتوري ؛ إنه مرحلة انتقال بين الاثنين .

ها هي ذى أولاً النقطة التي لما يبتعد التشريع فيها عن الشرع العتيق : إنه يحافظ على سلطة الأب ؛ يتركه يحاكم ابنه ، ويحكم عليه بالموت ، ويبيعه . وفي أثناء حياة الوالد لا يمكن أن يكون الابن راشداً إطلاقاً .

وفيما يختص بالمواريث يحتفظ بالقواعد القديمة أيضاً ؛ ينتقل الميراث إلى العصبية وعند انعدام العصبية إلى أعضاء الفصيلة (gentiles). أما الأقارب عن طريق الدم (cognatio) أى الأقارب عن طريق النساء فإن القانون لما يعترف بهم : فهم لا يتوارثون فيما بينهم ؛ لا ترث الأم من الابن ولا الابن من الأم (١).

(١) غايوس ٣ : ١٧ ؛ ٣٤ : ٢٤ . البيانوس ١٦ : ٤ . سيسرون . *De invent.*, I, 5.

وهو يحتفظ للتحرير وللتبني بالصفة والآثار التي كانت لهذه الأفعال في الشرع العتيق ؛ كان الابن المحرر يفقد نصيبه في عبادة الأسرة وينتج عن ذلك أنه كان يفقد حق الإرث .

وما هي ذي الآن النقاط التي يتعد فيها هذا التشريع عن الشرع البدائي :
يقبل صراحة إمكان قسمة الميراث بين الإخوة حيث أنه يمنح الـ *actio familiae erciscundae* (١) .

ويقضي أن الأب لا يستطيع التصرف في شخص ابنه أكثر من ثلاث مرات ، وأن الابن يصبح حراً بعد بيعه ثلاث مرات (٢) . وذلك هو أول تحيف أنزله الشرع الروماني بالسلطة الأبوية .

وهناك تبديل أخطر من هذا وهو الذي أعطى الإنسان حق الوصية . كان الابن قبل ذلك وارثاً لذاته ووارثاً إجبارياً (*sien et nécessaire*) ؛ وعند انعدام الابن ، كان يرث أقرب العصبية ؛ وعند انعدام العصبية ، يعود المال إلى الفصيلة (*gens*) بحكم ذكريات الزمن الذي فيه كانت الفصيلة ، وهي إذ ذاك ملتزمة الشمل ، لا تزال المالكة الوحيدة للملك الذي تقاسموه منذئذ . تركت اللوحات الاثنتا عشرة هذه المبادئ الدارسة جانباً ؛ واعتبرت الملك تابعاً للفرد ، وليس للفصيلة كما كان من قبل ؛ فاعترفت للمرأة إذن بحق التصرف في أمواله بالوصية . وليس المقصود بذلك أن الوصية كانت مجهولة تماماً في الشرع الأول . فقد كان في استطاعة الإنسان عندئذ أن يختار موصي له خارجاً عن الفصيلة لكن على شرط أن يعتمد مجلس الندوات اختياره ؛ إذ أنه لم يكن هناك من يستطيع أن يسمح بالانحراف عن النظام الذي أقامته الديانة فيما مضى غير إرادة المدينة . فخلص الشرع الجديد الوصية من هذه القاعدة المضايقة وأعطاهها صورة أيسر منها ، هي صورة البيع الصوري . يتظاهر الإنسان ببيع ماله لمن اختاره ليكون الموصي له ؛ وفي الحقيقة أنه قد عمل بذلك وصية دون أن يكون في حاجة للمثول أمام مجمع الشعب .

(١) غايوس في ديجست ١٠ : ٢ : ١ .

(٢) البيانوس ، قطع ١٠ : ١ .

كان لهذه الصورة من صور الوصية ميزة كبيرة في أنه كان مسموحاً بها للسوق . هذا السوق الذي لم يكن له ، حتى تلك اللحظة ، أية وسيلة للوصية إذ لم تكن بينه وبين الندوات صلة ما (١) ، أصبح يستطيع من الآن أن يستعمل طريقة البيع الصوري وأن يتصرف في أمواله . وإن أجدر شيء بالملاحظة في تلك الفترة من تاريخ التشريع الروماني هو استطاعة الشرع أن يمد نفوذه وخبراته إلى الطبقات الدنيا وذلك بادخال بعض صور جديدة . فإن القواعد القديمة والإجراءات القديمة لم تستطع ، ولما تستطع ، أن تطبق بطريقة موفقة إلا على الأسرات الدينية ؛ لكنهم تصوروا قواعد جديدة وإجراءات جديدة يمكن تطبيقها على السوق .

ولنفس السبب، وكنتيجة لنفس الحاجة، أدخلت تجديدات في الجزء من الشرع الذي يتعلق بالزواج . من الجلي أن أسرات السوق لم تكن تمارس الزواج المقدس، ويمكن الاعتقاد بأن الرابطة الزوجية كانت تقوم عندها على الاتفاق المتبادل بين الطرفين دون سواه (*mutuus consensus*) وعلى المودة التي تواعدا عليها (*affectio maritalis*) . لم يكونوا يقومون بأي إجراء مدني أو ديني. وانتهى الأمر مع مرور الزمن بتغلب هذا الزواج السوق في الأخلاق وفي الشرع . لكن قوانين المدينة البطريقية لم تكن تعترف له في الأصل بأية قيمة ، ولقد كانت لذلك عواقب خطيرة ؛ حيث أن السلطة الزوجية والأبوية لم تكن مستمدة في نظر البطريق إلا من الاحتفال الديني الذي لقن المرأة عبادة الزوج فقد نتج عن ذلك أنه لم يكن للسوق مثل تلك السلطة . لم يكن القانون يعترف له بأسرة ، ولم يكن القانون الخاص موجوداً بالنسبة له . وكان ذلك موقفاً لا يمكن أن يدوم . فتوهموا إجراء لاستعمال السوق ينتج فيما يختص بالعلاقات المدنية نفس الآثار التي كان ينتجها الزواج المقدس . فاجأوا للبيع الصوري كما كان الأمر في الوصية ؛ كان الزوج يشتري زوجته

(١) حقاً لقد كانت هناك الوصية *in procinctu* ؛ لكن ليست لدينا معلومات كافية عن هذا النوع من الوصية ؛ وربما كانت بالنسبة للوصية في اللجان المنادي عليها (*calatis comitiis*) كما كان مجمع الفرق المثنية بالنسبة لمجمع الندوات .

(*coemptio*) ؛ وعندئذ تصبح معترفاً بها في الشرع كما لو كانت جزءاً من ملكه (*familia*) ، وتصبح « في يده » ؛ وتصبح لها مرتبة البنت في نظره ، تماماً كما لو كان الاحتفال الديني قد تم (١) .

ليس في مقدورنا أن نوكد أن هذا الاجراء لم يكن أقدم من اللوحات الاثنتى عشرة . لكنه من المؤكد على الأقل أن التشريع الجديد قد اعترف به كاجراء شرعى ؛ وبذلك أعطى للسوقة قانوناً خاصاً شبيهاً من حيث آثاره بقانون البطارقة ، ولو أنه يختلف عنه كثيراً من حيث المبادئ .

يقابل عملية الشراء (*coemptio*) عملية المتعة (*usus*=الاستعمال) ؛ إنهما صورتان من عملية واحدة . فإنه يمكن الاستحواز على أى شىء بإحدى طريقتين على السواء : الشراء أو الاستعمال ؛ وكان الأمر كذلك فيما يختص بالامتلاك الصورى للمرأة . والاستعمال هنا هو المعاشرة لمدة سنة ؛ فهي تقيم بين الزوجين نفس الصلات الشرعية التى يقيمها الشراء أو الاحتفال الدينى . ولا ريب أننا لسنا بحاجة إلى أن نضيف أنه لا بد من أن يسبق المعاشرة زواج ، على الأقل الزواج السوقي ، الذى يتم بالرضاء والمودة من الطرفين . لم يكن الشراء (*coemptio*) ولا المتعة (*usus*) ليخلق الاتحاد المعنوى بين الزوجين ، فلم تكن مرتبتهما إلا بعد الزواج الدينى وما كانا يقيمان غير رباط قانونى . إنهما لم يكونا صورتين من الزواج كما ادعى بعضهم تكراراً ؛ وإنما كانا وسيلتين للحصول على السلطة الزوجية والأبوية (٢) .

هذا وقد كانت السلطة الزوجية في الأزمنة العتيقة عواقب أخذ يبدو ، في الفترة من التاريخ التى وصلنا إليها ، أنها فوق الطاقة . رأينا أن المرأة كانت خاضعة للزوج دون تحفظ ، وكان يبلغ من حق هذا الأخير أنه كان يستطيع التنازل

(١) غايوس ١ : ١١٣ - ١١٤ .

(٢) غايوس ١ : ١١١ *Quae anno continuo NUPTA perseverabat* .

كان الشراء (*coemptio*) ضئيل القدر كصورة من صور الزواج بحيث كانت المرأة تستطيع أن تعقده مع شخص آخر غير زوجها كالوصى مثلاً .

عنها أو بيعها (١) . ومن ناحية أخرى كانت السلطة الزوجية لا تزال تنتج آثاراً كان يجد العقل السوقي السليم عناء في فهمها ؛ فقد كانت المرأة ، وهي « في يد » زوجها منفصلة عن أسرة أبيها انفصلاً مطلقاً ، ولا ترث منها ، ولا تستبقى معها أية صلة أو قرابة في نظر القانون . كان ذلك حسناً في الشرع الأول عندما كانت الديانة تحرم على نفس الشخص أن يكون عضواً في فصيلتين (*gentes*) وأن يضحى لموقدين وأن يكون وارثاً في بيتين . لكنهم لم يعودوا يتصورون السلطة الزوجية بهذه الصرامة ، وكان من الجائز أن يكون لنفس الشخص عدة مبررات لكي يريد الخلاص من هذه العواقب القاسية . لذلك ، ولو أن قانون اللوحات الاثنتي عشرة قد قرر أن معاشرة سنة من شأنها أن تضع الزوجة تحت سلطة الرجل ، إلا أنه كان مضطراً إلى ترك الحرية للزوجين في عدم الارتباط برباط بلغ هذه الدرجة من الصرامة . يكفي أن تقطع المرأة المعاشرة كل سنة ، ولو بغيابها ثلاث ليالى ، لكيلا تقوم السلطة الزوجية . وبذلك كانت المرأة تستبقى صلة شرعية بأسرتها الحقيقية وتستطيع أن ترث منها .

ونرى ، دون أن تكون هناك ضرورة للدخول في تفاصيل أطول من ذلك ، أن مجموعة قوانين اللوحات الاثنتي عشرة كانت كثيرة البعد ، منذئذ ، عن الشرع الأول . فقد كان التشريع الروماني يتبدل كما تتبدل الحكومة وكما تتغير الحالة الاجتماعية . وسيحصل تغيير جديد بالتدريج وفي كل جيل تقريباً . وكلما تقدمت الطبقات الدنيا في النظام السياسي دخل تبديل جديد في قواعد الشرع ، أولاً ، الزواج الذي أصبح مسموحاً به بين البطارقة والسوقة ؛ ثم القانون *پاپيريا* (*Papiria*) الذي يحرم على المدين أن يرهن نفسه للدائن ؛ ثم الإجراءات التي يدخلها التبسيط لمنفعة السوق نفعاً كبيراً عن طريق قضايا القانون (*action de la loi*) ؛ وفي النهاية *الپريتور* الذي استمر في السير على النهج

(١) غايوس: ١١٧ ، ١١٨ . لا ريب في أن وضع اليد هذا لم يكن إلا صورياً في عهد غايوس . لكن من الممكن أنه كان حقيقياً في الأصل . هذا ولم تكن الحال في الزواج مجرد الرضاء (*consensus*) . كالحال في الزواج المقدس الذي كان يقيم بين الزوجين رباطاً لا ينقسم .

الذى فتحته اللوحات الاثنتا عشرة ورسم بجوار الشرع القديم شرعاً جديداً كل الجدة، شرعاً لم تكن الديانة لتقليه وسيقترب اقرباً متزايداً من الشرع الطبيعي ظهرت ثورة مماثلة في الشرع الأثيني . من المعروف أنه قد حررت في أثينا مجموعتان للقوانين يفصل بينهما ثلاثون عاماً ، الأولى حررها دراكون (Dracon) والثانية حررها صولون . أما مجموعة دراكون فقد كتبت والنضال بين الطبقتين على أشده في وقت لم يكن النسب قد غلبوا فيه . وقد حرر صولون مجموعته في نفس الوقت الذي تغلبت فيه الطبقة الدنيا ؛ لذلك كان الفرق بين المجموعتين كبيراً .

كان دراكون نسبياً ؛ كانت له كل إحساسات طبقته وكان «على علم بالشرع الدينى» . ولا يبدو أنه عمل أكثر من تقييده العادات القديمة بالكتابة دون أن يغير منها شيئاً . كان قانونه الأول هو الآتى : «يجب تمجيد آلهة البلاد وأبطالها وتقديم القرابين إليها كل عام دون الخروج على الشعائر التى اتبناها الأسلاف» . ولقد احتفظوا بذكرى قوانينه الخاصة بالقتل ، كانت تنص على إقصاء المذنب عن المعابد وتحريم عليه ماء النثار وأوانى الاحتفالات (١) .

ولقد بدت هذه القوانين قاسية للأجيال التالية . والحق أنها كانت من إملاء ديانة صارمة كانت ترى فى كل هفوة إساءة للآلهة ، وفى إساءة الآلهة جريمة لا تغتفر . وكانت السرقة معاقباً عليها بالموت لأن السرقة كانت اعتداء على ديانة الملك .

وقد بقيت لنا من هذا التشريع مادة غريبة ترىنا الروح التى وضع بها . فلم تكن تمنح حق المقاضاة عن جريمة إلا لأقرباء الميت وأعضاء فصيلته (٢) . ونرى هنا كم كانت الفصيلة لا تزال قوية فى تلك الفترة ما دامت لم تكن تسمح للمدينة أن تتدخل ، بحكم وظيفتها ، فى شؤونها ولو للاقتصاص لنفسها . كان الإنسان لا يزال ينتمى للأسرة أكثر من انتمائه للمدينة .

(١) أولوس جيلوس ١١ : ١٨ . ديموسثينيس : ضد ليتينيس ١٥٨ . بورفيروس : العفة (De Abstinencia) . ٩ .

(٢) ديموسثينيس : ضد إورغوس (In Evergum) ٦٨ - ٧١ ، ضد ماكاتاتوس ٣٧ .

نرى من كل ما وصل إلينا من هذا التشريع أن عمله كان قاصراً على نقل نصوص الشرع القديم . فكانت فيه شدة القانون القديم غير المكتوب وصلابته . ويمكن الاعتقاد أنه كان يقيم فاصلاً كبيراً جداً بين الطبقات ؛ إذ أن الطبقة الدنيا كانت تمتعه دائماً ، وبعد ثلاثين عاماً طالبت بتشريع جديد .

أما مجموعة قوانين صولون فكانت مختلفة اختلافاً كلياً ؛ نرى أنها تطابق ثورة اجتماعية كبيرة . وأول شيء يلاحظ فيها أن القوانين كانت واحدة للجميع . لم تكن تقرر تفرقاً بين النسيب وبين الرجل العادي الحر وبين الوضع (thète) . بل إن هذه الألفاظ لا وجود لها في أية مادة من المواد التي حفظت لنا . ويفاخر صولون في أشعاره بأنه كتب نفس القوانين للكبار وللصغار على السواء (١) .

تبتعد مجموعة صولون ، كما تبتعد مجموعة اللوحات الاثنتي عشرة ، عن الشرع العتيق في عدة نقط ؛ وبقيت وفيه له في نقط أخرى . وليس القصد من ذلك أن لجنة الرجال العشرة الرومانية قد نقلت قوانين أثينا ؛ بل إنه لم يكن في استطاعة التشريعين إلا أن يتشابهوا باعتبارهما من عمل نفس الفترة ونتيجتين لنفس الثورة الاجتماعية . هذا ولم يكن ذلك التشابه إلا في روح التشريعين ؛ وتظهر من مقارنة موادها فوارق متعددة . فهناك نقط تبتى فيها مجموعة صولون أقرب إلى الشرع الأول من اللوحات الاثنتي عشرة ، كما أن هناك نقطاً تبتعد فيها عنه أكثر من ابتعاد اللوحات عنه .

كان الشرع العتيق جداً ينص على أن يكون الابن الأكبر هو الوارث الوحيد لكن قانون صولون يبتعد عنه ويقول في عبارات صريحة : « يقتسم الإخوة الميراث » . لكن الشارع لما يبتعد عن الشرع الأول إلى الحد الذي يعطى فيه الأخت نصيباً في الميراث ، فيقول « تحدث القسمة بين الأبناء (٢) »

(١) Θεσμονὲς δ' ὁμοίως τῷ κακῷ τε καὶ ἀγαθῷ ἔργον
Solon ed. Boissonade, p. 105

(٢) إيسايوس : ميراث أبولودروس . ٢ ؛ ميراث بيرهوس . ٥١ . ديموشثينيس :
ضد ما كارتاتوس . ٥١ ؛ ضد بويثوتوس (in Boeum) : البائنة ٢٢ - ٢٤ .

هناك أكثر من ذلك . إذا لم يترك والد غير ابنة فإن هذه الابنة الوحيدة لا تستطيع أن ترث وإنما تعود التركة دائماً لأقرب العَصَبَةِ . وفي هذا يسير صولون على نهج الشرع القديم ؛ وكل ما نجح فيه أنه منح للبنت التمتع بالميراث بإلزامه الوارث أن يتزوج بها (١) .

كانت القرابة عن طريق النساء مجهولة في الشرع القديم ؛ وقد قبلها صولون في الشرع الجديد . لكنه وضعها تحت مرتبة القرابة عن طريق الذكور . ها هو ذا قانونه (٢) « إذا مات والد ولم يترك وارثاً من صلبه غير ابنته يرثه أقرب العَصَبَةِ ويتزوج البنت . وإذا لم يترك ولدأ يرثه أخوه لا أخته ؛ وأخوه الشقيق أو من الصلب وليس أخوه من الرحم . وعند انعدام الإخوة أو أبناء الإخوة ينتقل الإرث إلى الأخت ؛ وإذا لم يكن هناك إخوة ولا أخوات ولا أبناء إخوة يرثه أبناء العم وأبناؤهم ، وإذا لم يوجد أبناء عم (أي أقارب من العَصَبَةِ : أغناسيون) يتحول الإرث إلى أبناء الأخوال (أي إلى أقارب الدم : الكوغناسيين) . وهكذا ابتداءً أن يكون للنساء حقوق في الإرث لكنها أقل من حقوق الرجال ؛ وينص القانون صراحة على هذا المبدأ : « يقصى الذكور وذرية الذكور النساء وذرية النساء . » وأقل ما في ذلك أن هذه القرابة قد أصبحت معترفاً بها وأفسحت لنفسها مكاناً في القوانين ، دليلاً مؤكداً على أن الشرع الطبيعي بدأ يتكلم بصوت يكاد يضارع في ارتفاعه صوت الديانة القديمة .

كذلك أدخل صولون في التشريع الأثيني شيئاً جديداً جداً ، ألا وهو الوصية فقد كانت الأملاك تنتقل قبله انتقالاً إجبارياً لأقرب العَصَبَةِ ، أو عند انعدام العَصَبَةِ ، إلى أعضاء الفصيلة *gennètes* (= *gentiles*) (٣) . ومصدر ذلك أن الأملاك

(١) إيسايوس : ميراث ارستارخوس ٥ ؛ ميراث كيرون ٣١ ؛ ميراث بيرهوس ٧٤ ؛ ميراث كليوونيموس ٣٩ . يشير ديودوروس (١٢ : ١٨) إلى قانون لخارونداس شبيه بهذا

(٢) إيسايوس : ميراث هاغنياس ١١ - ١٢ ؛ ميراث ابلودوروس ٢٠ ؛ ديموشينيس : ضد ماكارتوس ٥١ .

(٣) بلوتارخوس : صولون ١١ : *Ἐν τῷ γένει τοῦ τεθνηκότος ἔδει τὰ χρήματα καταμένειν.*

لم تكن تعتبر ملكاً للفرد بل للأسرة . لكنهم في عهد صولون أخذوا يدركون حق الملك بشكل آخر ؛ فقد جعل انحلال الفصيلة (*yévos*) القديمة من كل ملك ملكاً خاصاً لكل فرد . فسمح الشارع للرجل بالتصرف في ثروته ، وباختيار من يوصى إليه . بيد أنه وهو يحذف الحق الذي كان للفصيلة (*yévos*) على أملاك كل واحد من أعضائها لم يحذف حق الأسرة الطبيعية . فقد بنى الابن الوارث الإلزامي ؛ وإذا لم يترك المتوفى إلا ابنة لم يكن في استطاعته أن يختار وارثه إلا بشرط أن يتزوج هذا الوارث البنت ؛ وإذا لم يكن للرجل أطفال فإنه يكون حراً في الوصية كما يريد (١) . كانت هذه القاعدة الأخيرة جديدة كل الجدة في الشرع الأثيني . ويمكن أن نرى منها كم كانت لديهم عندئذ من آراء جديدة عن الأسرة وإلى أي حد بدأوا يميزونها عن الفصيلة القديمة

كانت الديانة الأولى قد منحت الوالد سلطة ذات سيادة في المنزل ؛ ولقد ذهب الشرع العتيق في أثينا إلى حد السماح له ببيع ابنه أو قتله (٢) . وقد وضع صولون حدوداً لهذه السلطة تمشياً مع الأخلاق الجديدة (٣) . ونعلم علم اليقين أنه حرم على الأب أن يبيع ابنه ، اللهم إلا إذا ارتكبت خطيئة فاحشة ؛ ومن المحتمل أن نفس التحريم كان يحمي الابن . وقد استمرت السلطة الأبوية تزداد ضعفاً كلما فقدت الديانة العتيقة سلطانها : وهو ما حدث في أثينا مبكراً عن حدوثه في روما . لذلك لم يكتف الشرع الأثيني بالقول كما قالت اللوحات الاثنتا عشرة : «بعد بيعه ثلاث مرات يصبح الابن حراً» . بل سمح للابن عند بلوغه سنّاً معينة أن يتخلص من السلطة الأبوية. ولقد انتهت الأخلاق تدريجياً إلى تقرير بلوغ الابن الرشد في حياة والده ذاتها ، هذا إذا لم تكن القوانين قد أقرته أيضاً . فإننا نعرف قانوناً أثينياً يكلف الابن أن يعول أباه إذا أصبح عجوزاً أو عاجزاً.

(١) ايسايوس : ميراث بيرهوس (*De Pyrrhi hered.*) ٦٨ . ديموشينيس :

قضية التاج ٢ : ١٤ . بلوتارخوس : صولون ٢١ .

(٢) بلوتارخوس : صولون ١٣ .

(٣) بلوتارخوس : صولون ٢٣ .

ويتضمن مثل هذا القانون، بحكم الضرورة ، استطاعة الابن أن يكون مالكا ، وبالتالي أن يكون محرراً من السلطة الأبوية . لم يكن هذا القانون موجوداً في روما، إذ أن الابن لم يكن يملك قط شيئاً ما وبقي على الدوام تحت سلطة الأب وفيما يختص بالمرأة كان قانون صولون لا يزال متفقاً مع الشرع العتيق عندما حرم عليها أن توصي ؛ إذ أن المرأة لم تكن قط إطلاقاً مالكة حقيقية وما كانت لتستطيع أن يكون لها غير التمتع بالاستعمال والثمار. لكنه ابتعد عن هذا الشرع العتيق عندما سمح للمرأة باسترداد بائنتها (١) .

وكانت هناك تجديدات أخرى في هذه المجموعة القانونية فإن دراكون لم يمنح حق المقاضاة من أجل الجريمة إلا للأسرة المجنى عليه . أما صولون فقد منحه لكل مواطن (٢) .

وهكذا بدأ الشرع يتبدل في أثينا كما في روما . فالمجتمع الجديد قد وُلد له شرع جديد . وما دامت العقائد والأخلاق والأنظمة قد تغيرت فإن القوانين التي بدت من قبل عادلة حسنة لم تعد تبدو كذلك ، وعَفَتْ شيئاً فشيئاً .

(١) ايسايوس : ميراث يرهوس ٨ - ٩ ، ٢٧ - ٣٨ . ديموسثينيس : ضد أونيتور ٧ : ٨ ؛ ضد أفوبوس ١ : ١٥ ضد بويؤوتوس ؛ البائنة ، ٦ ؛ ضد فوينبوس ٢٧ ؛ ضد نيايرا ٥١ ، ٥٢ . — لا يمكن التأكيد بأن رد البائنة كان مقررًا منذ عهد صولون ؛ لكنه كان القاعدة في عصر ايسايوس وديمسثينيس . بيد أنه يجدر ملاحظة أن المبدأ القديم الذي كان يريد أن يكون الزوج مالكا للأموال التي تحضرها الزوجة معها ظل مدونا في القانون (مثال ذلك ديموسثينيس : ضد فوينبوس ٢٧) . لكن كان يعد الزوج مديناً لأرباب *xypoi* الزوجة بمبلغ يوازي قيمة البائنة ويرهن أمواله ضماناً لذلك : بوليدوكيس ٣ : ٣٦ ، ٨ : ٤٢ ، ١٠٣٧ et 2261 Boeckh, *Corpus inscript. gr.*

(٢) بلوتارخوس : صولون ١٨ .

الفصل التاسع

مبدأ جديد في الحكم ، المنفعة العامة والانتخاب

كانت الثورة التي قلبت سيادة الطبقة الكهنوتية ، ورفعت الطبقة الدنيا إلى مستوى رؤساء الفصائل القدماء ، بداية فترة جديدة في تاريخ المدن . لقد تم نوع من التجديد الاجتماعي . فلم تكن طبقة من الناس تحل محل طبقة أخرى في السلطة فحسب ، بل إنها المبادئ القديمة التي نحت جانباً وأوشكت قواعد جديدة أن تحكم المجتمعات البشرية .

حقاً إن المدينة قد حافظت على الأشكال الخارجية التي كانت لها في العصر السالف . فقد بقي النظام الجمهوري ، واحتفظ الحكام في كل مكان تقريباً بأسمائهم القديمة ، فلا زالت لأثينا أراختها ولروما قناصلها . ولم يتغير شيء أيضاً من احتفالات الديانة العامة ، فإن أكلات بيت النار (البريتانيون) وتقديم القرابين عند افتتاح المجامع ، والاستشارات ، والأدعية ، كل ذلك قد ظل محفوظاً . فإنه من المؤلف في عادة الإنسان ، عندما ينبذ أنظمة قديمة ، أن يرغب في المحافظة على مظاهرها على الأقل .

وفي الحقيقة لقد تغير كل شيء . فلم تعد الأنظمة ولا الشرع ولا العقائد ولا الأخلاق ، في هذه الفترة الجديدة ، كما كانت عليه في الفترة السابقة . اختفى النظام القديم يجر وراءه القواعد البصارمة التي قررها في كل شيء . وتأسس نظام جديد ، وتغير وجه الحياة البشرية .

ظلت الديانة قروناً طويلة المبدأ الوحيد للحكومة . فكان لا بد من إيجاد مبدأ آخر يستطيع أن يقوم مقامها ويستطيع مثلها أن يهيمن على المجتمعات بوضعها جهد الاستطاعة في حوى من التقلبات والمنازعات . والمبدأ الذي تأسست عليه حكومة المدن منذ الآن هو المنفعة العامة .

ويجب ملاحظة هذه العقيدة الجديدة التي ظهرت عندئذ في ذهن الناس وفي التاريخ . أما من قبل فإن القاعدة العليا التي كان يشتق منها النظام الاجتماعي لم تكن المنفعة بل الديانة . فقد كان واجب القيام بشعائر العبادة هو الرابطة الاجتماعية . ومن هذه الضرورة الدينية استمد البعض حق الأمر والبعض الآخر التزام الطاعة ؛ ومن هنا جاءت قواعد العدل والإجراءات ، وقواعد المناقشات العامة ، وقواعد الحرب . لم تسأل المدينة نفسها عما إذا كانت الأنظمة التي تمنحها لنفسها مفيدة ؛ لقد أسست هذه الأنظمة لأن الديانة أرادتها هكذا . فلم تساهم المنفعة ولا الملاءمة في إقامتها . وإذا كانت الطبقة الكهنوتية قد حاربت دفاعاً عنها فإن ذلك لم يكن باسم المنفعة العامة بل باسم الأثارة الدينية .

لكن في الفترة التي ندخل فيها الآن لم يكن للأثارة سلطان ولم تعد الديانة تحكم . والمبدأ المنظم ، الذي يجب على جميع الأنظمة أن تستمد منه قوتها منذ الآن ، هو المنفعة العامة ؛ وهو الوحيد الذي يعلو على الإرادات الفردية ، ويستطيع أن يجبرها على الخضوع له . إن ما يسميه اللاتينيون *res publica* والإغريق *τὸ κοινὸν* ذلك هو الذي يحل محل الديانة القديمة ؛ ذلك هو الذي يقرر منذ الآن الأنظمة والقوانين وإليه ترجع جميع التصرفات الهامة للمدن . فلم يعودوا يتساءلون في مناقشات مجلس الشيوخ وفي المجالس الشعبية عما تأمر به الديانة بل عما تتطلبه المنفعة العامة ، سواء في ذلك إن تناقشوا في قانون أو في أي شكل من أشكال الحكومة ، في نقطة من نقط القانون الخاص أو في نظام سياسي .

ينسبون لصولون عبارة تميز النظام الجديد إلى حد لا بأس به . فقد سأله أحدهم عما إذا كان يعتقد أنه منح وطنه أحسن الدساتير فأجاب : « كلا ، بل أوفقها » . ولقد كان شيئاً جديداً جداً ألا يطلبوا لأشكال الحكومة وللقوانين غير قيمة نسبية . أعلنت الدساتير القديمة المؤسسة على قواعد العبادة إنها معصومة من الخطأ وغير قابلة للتبديل ؛ فكانت فيها صرامة الديانة وصلابتها . فبين صولون بهذه العبارة أنه يجب أن تتمشى الأنظمة السياسية في المستقبل مع حاجات أهل كل عصر وأخلاقهم ومنافعهم . لم يعد الأمر أمر حقيقة مطلقة ؛ وأصبح من الواجب أن تكون قواعد الحكومة من الآن مرنة ومتغيرة . ويقولون

إن صولون كان يتمنى لو روعيت قوانينه خلال مائة عام على الأكثر (١) . ليست أوامر المنفعة العامة مطلقة ولا واضحة ولا جلية كأوامر الديانة . يمكن دائماً أن يناقش فيها ؛ ولا يمكن إدراكها ابتداء . والطريقة التي بدت أسط وأضمن من سواها لمعرفة ما كانت تتطلبه المنفعة العامة هي جمع الناس واستشاراتهم . 'عدت هذه الوسيلة ضرورية واستعملت كل يوم تقريباً . في الفترة السابقة كانت الاستشارات تقوم مقام المناقشات تقريباً : فكان رأى الكاهن أو الملك أو الحاكم المقدس ذا سلطان عظيم ؛ كانوا يصوتون قليلاً ويصوتون للقيام بالإجراءات أكثر مما كانوا يصوتون لتعرف رأى كل واحد . أما الآن فإنهم كانوا يصوتون على كل شيء ؛ كان لا بد من أخذ آراء الجميع ليتأكدوا من معرفة مصلحة الجميع . أصبح التصويت هو الوسيلة الكبرى للحكومة . أصبح منبع الأنظمة ، وقاعدة الشرع ؛ وقرر النافع ، بل قرر العادل . أصبح فوق الحكام ، بل فوق القوانين ؛ أصبح السيد في المدينة .

وتغيرت الحكومة أيضاً . لم تعد وظيفتها الجوهرية القيام بالاحتفالات الدينية قياماً منظماً ؛ بل أصبحت مكونة على الأخص للمحافظة على النظام والسلم في الداخل ، والكرامة والسلطة في الخارج . وما كان في الدرجة الثانية فيما سبق انتقل إلى الدرجة الأولى . تقدمت السياسة على الديانة وأصبحت حكومة البشر شيئاً إنسانياً ، وبناء على ذلك حدث أن خلقت مناصب جديدة ، أو على الأقل أن المناصب القديمة قد اتخذت صوراً جديدة ، وهو ما يمكن أن نراه مما حدث في أثينا ومما حدث في روما .

في أثينا ، عند سيادة السراة ، كان الأراخنة كهنة قبل كل شيء ؛ وكانت العناية بالقضاء والإدارة والحرب تقتصر على شيء ضئيل . ويمكن أن تضاف للكهنة بدون مضايقة . عند ما أعرضت المدينة الأثينية عن الوسائل الدينية

(١) بلوتارخوس : صولون ٢٥ . وطبقاً لهيرودوت (١ : ٢٩) اكتفى صولون بأن جعل الأثينيين يحلفون أن يراعوا هذه القوانين عشر سنوات .

القديمة للحكومة لم تحذف منصب الأرخون ؛ إذ أنهم كانوا يكرهون حذف الأشياء العتيقة كرهاً كبيراً. لكنها أقامت بجوار الأراخنة حكماً آخرين كانوا بطبيعة وظائفهم أكثر موافقة لحاجات العصر ، ألا وهم الاستراتيجي (stratèges القواد) ، ومعنى الكلمة رئيس الجيش لكن وظائفهم لم تكن حربية قط ؛ فكان موكولا إليهم أمر العلاقات بالمدن الأخرى وإدارة المالية وكل ما يهم شرطة البلدة . ويمكن القول أنه كان بيد الأراخنة السلطة كما تصورتها العصور القديمة بينما قبض القواد على السلطة التي أقامتها الحاجيات الجديدة . وقد وصاوا تدريجياً إلى أنه لم يعد للأراخنة إلا مظاهر السلطة وأن القواد قبضوا على السلطة الحقيقية كلها . ولم يكن هؤلاء الحكام الجدد كهنة ؛ ولا يكادون يقومون بالاحتفالات التي لا مناص منها في زمن الحرب . لقد أخذت الحكومة تنفصل عن الديانة كل يوم أكثر من سابقه .

وقد أمكن اختيار هؤلاء القواد خارج طبقة النسباء . وفي الاختبار الذي كانوا يخضعون له قبل تعيينهم *δοκιμασία* لم يكونوا يُسألون ، كما كان يُسأل الأرخون ، إذا كانت لهم عبادة منزلية وإذا كانوا من أسرة طاهرة ؛ بل يكفي أنهم كانوا يقومون دائماً بواجباتهم كمواطنين وأن يكون لهم ملك في أتيكا (١) . كان الأراخنة يعينون بالقرعة أي بصوت الآلهة ؛ لكن الأمر كان على غير ذلك فيما يختص بالقواد . فما دامت الحكومة قد أصبحت أكثر صعوبة وتعقيداً ، ولم يعد الورع الفضيلة الرئيسية ، وأصبح لا بد من المهارة والكياسة والإقدام وفن الإمرة ، فإن صوت القرعة لم يعد كافياً في اعتقادهم لإخراج حاكم صالح . لم تقبل المدينة أن ترتبط بما كانوا يزعمون أنه إرادة الآلهة وتشبثت بأن تكون حرة في اختيار رؤسائها . لقد كان طبعياً أن تعين الآلهة الأرخون ، الذي كان كاهناً ، أما القائد ، الذي كانت في يديه مصالح المدينة المادية ، فكان لا بد من أن ينتخبه الناس .

إذا لاحظنا أنظمة روما عن قرب تبين لنا أن تغييرات من هذا القبيل قد حدثت

(١) دينارخوس : ضد ديموشثينيس ٧١ .

فيها. فمن ناحية زاد عرفاء السوق في أهميتهم بحيث أصبحت إدارة الجمهورية في أيديهم ، على الأقل في الشؤون الداخلية . لكن هؤلاء العرفاء ، الذين لم تكن لهم الصفة الكهنوتية ، كانوا يشبهون القواد بما فيه الكفاية . ومن ناحية أخرى ، لم يستطع منصب القنصل أن يبقى إلا بتغيير طبيعته ؛ فدرس ما كان فيه من الكهنوت شيئاً فشيئاً . حقاً إن احترام الرومان للآثار وصور الماضي تطلب أن يثابر القنصل على القيام بالاحتفالات الدينية التي وضعها السلف . لكننا نفهم جيداً أن اليوم الذي أصبح السوق فيه قناصل لم تعد هذه الاحتفالات إلا إجراءات جوفاء . فقد أخذت الصفة الكهنوتية في القنصلية تتضاءل يوماً إثر يوم ، والإمرة تزداد كل يوم . كان هذا التبديل بطيئاً غير محسوس ولا ملحوظ ؛ لكنه لم يكن لذلك أقل كمالاً ؛ من المؤكد أن القنصلية في عهد سقييو لم تعد كما كانت في عصر پوبليكولا (Publicola) . ربما كانت وظيفة العريف الحربي ، التي أنشأها مجلس الشيوخ في سنة ٤٤٣ ، والتي يعطينا القداماء عنها تلك البيانات القليلة ، هي الانتقال من قنصلية الفترة الأولى إلى قنصلية الفترة الثانية .

ويمكن أن نلاحظ أيضاً أنه حدث تغيير في طريقة تعيين القناصل . والواقع أنه في القرون الأولى لم يكن التصويت إلا مجرد رسميات كما رأينا . وفي الحقيقة كان قنصل كل سنة يعينه (créer) قنصل السنة الماضية ، وهو الذي ينقل إليه الاستشارات بعد حصوله على موافقة الآلهة . ولم تكن الفرق المثنية تصوت إلا على المرشحين أو الثلاثة الذين يقدمهم القنصل القائم ؛ لم تكن هناك مناقشات . كان من الجائز أن يبغض الشعب أحد المرشحين بيد أنه كان مجبراً على التصويت له . أما في الفترة التي نحن فيها الآن فإن الانتخاب شيء آخر بالمرّة ولو أن المظاهر الشكلية لا تزال كما كانت . حقاً لا يزال هناك ، كما كان في الماضي ، احتفال ديني وتصويت ؛ لكن الاحتفال الديني هو الشكلي والتصويت هو الحقيقة . ولا يزال على المرشح أن يقدمه القنصل الذي يرأس ؛ لكن القنصل ملزم ، بحكم العرف إن لم يكن بحكم القانون ، أن يقبل جميع المرشحين وأن يعلن أن الاستشارات راضية عنهم جميعاً على قدم المساواة . وبهذا تعين الفرق المثنية من تشاء . لم يعد الانتخاب للآلهة ، بل في أيدي الشعب . لم يعودوا يستشيرون الآلهة والاستشارات إلا بشرط عدم تحيزها بين جميع المرشحين : إن الناس هم الذين يختارون .

الفصل العاشر

محاولة تكوين سرقة من الأثرياء ؛ استقرار حكم العامة ؛ الانقلاب الرابع

لم يكن النظام الذى خلف سيادة السراة الدينية فى البدء هو حكم العامة . فلقد رأينا مما حدث فى أثينا وروما أن الانقلاب الذى حدث لم يكن من عمل أكثر الطبقات ضعة . حقاً إنه كانت هناك بضع بلدان ثارت فيها هذه الطبقات فى البدء ؛ لكنها لم تستطع أن تؤسس شيئاً يبق على الزمن ؛ والدليل على ذلك الفتن الطويلة التى هوت فيها سيراكوسه وميليتوس وساموس . ولم يستقر النظام الحديد فى شىء من التماسك إلا حيث وجدت فوراً طبقة عليا استطاعت أن تقبض بيدها لفترة من الزمن على السلطة والسلطان المعنوى اللذين أفلتا من النسب والبطارقة .

فماذا يمكن أن تكون هذه السراة الجديدة ؟ حيث أن الديانة الموروثة قد أبعدت ، فإنه لم يبق عنصر آخر للتمييز الاجتماعى غير الثروة . طلبوا إلى الثروة أن تعين مراتب الناس إذ أن الأذهان لا تقبل فوراً أن تكون المساواة مطلقة لذلك لم يعتقد صولون أن فى استطاعته أن يئسى الناس التفريق القديم القائم على الديانة الموروثة لإقامة تقسيم جديد مؤسس على الثروة . فقسم الناس إلى أربع طبقات ومنحهم حقوقاً متفاوتة . فكان لا بد للمرء أن يكون ثرياً لكي يصل إلى المناصب العليا ، ولا بد أن يكون من إحدى الطبقتين المتوسطتين ، على الأقل ، للوصول إلى مجلس الشيوخ أو المحاكم (١) .

وكذلك كان فى روما . فقد سبق أن رأينا أن سرفيوس لم ينتقص سلطة البطارقة لإبتأسيس سرقة منافسة . فأنشأ اثنتى عشرة فرقة مثينة من الفرسان المنتخبين

(١) بلوتارخوس : صولون ١٨٩ ؛ أريستيديس ١٣ . أرسطو نقل عنه هيبوقراطيون تحت لفظى *Ἰππεις* . بوليبيدوكيس ٨ : ١٢٩ . النظر إيسايوس : ميراث أبولودوروس ٣٩ *ὡς ἱππαδα τελῶν ἀρχεῖν ἡξίον τὰς ἀρχὰς* .

من بين أكثر السوقة ثراء ؛ فكان ذلك أصل طبقة الفرسان التي أصبحت منذ الآن الطبقة الثرية في روما . أما السوقة الذين لم يكن لهم النصاب المحدد للفارس فقد وزعوا في خمس طبقات على قدر ثرائهم . وبقى المُتَعِيلون خارجين عن كل طبقة . لم تكن لهم حقوق سياسية ، وإذا كانوا يمثلون في لجان الفرق المثينة فن المؤكد ، على الأقل ، أنهم لم يكونوا يصوتون (١) . وقد حفظ الدستور الجمهوري هذا التفريق الذي أقامه ملك ولم يبدُ على السوقة بادئ الأمر أنها كانت رغبة كل الرغبة في المساواة بين أعضائها

إن ما يُرى بكل هذا الجلاء في أثينا وروما يكاد يعثر عليه في كل المدن الأخرى . ففي كومه مثلاً لم تمنح الحقوق السياسية ، في بادئ الأمر ، إلا لأولئك الذين كانوا يحوزون خيلاً ، ويكوّنون بذلك طبقة فرسان ما . وفيما بعد حصل الذين يتلونهم من حيث رقم الثروة على نفس الحقوق ، ولم يرفع هذا الإجراء الأخير عدد المواطنين إلا إلى الألف . وفي رغيوم (Rhégium) بقيت الحكومة زمناً طويلاً في أيدي الألف مواطن الأكثر ثراء. وفي ثوري (Thurii) كان لا بد من نصاب مرتفع جداً لكي ينتمي الإنسان إلى الفئة السياسية . ونرى بجلاء ، في أشعارثيوغنيس (Théognis) ، أن الثروة قد سيطرت في ميغارا بعد سقوط النبلاء . وفي ثيبه كان يتحتم على المرء لكي يتمتع بحقوق المواطن ألا يكون صانعاً أو تاجراً . (٢) .

وهكذا أصبحت الحقوق السياسية ، التي كانت ملازمة للمولد في الفترة السابقة ، ملازمة للثروة وقتاً ما . وقد تكونت هذه السراة من الأثرياء في كل المدن ولم يكن تكوينها نتيجة لتدبير مقصود بل بحكم طبيعة العقل البشري

(١) تيتوس ليفيوس ١ : ٤٣ . ديونيسيوس ٤ : ٢٠ . لم يكن الذين لا يبلغ نصابهم ١١٥٠٠ آس (الآس الذي يساوي رطل) يكونون غير فرقة مثينة واحدة ، وبناء عليه لم يكن لهم إلا صوت واحد من ١٩٣ . وقد كانت طريقة التصويت بحيث لم تكن هذه الفرقة المثينة تدعى مطلقاً لإعطاء صوتها .

(٢) أرسطو : السياسة ٣ : ٣ : ٤ ؛ ٦ : ٤ ؛ ٥ ؛ هيراقليديس في *Fragments des* *hist. gr., t. II, p. 217 et 219* . انظر ثيوغنيس ، الآيات ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ - ٥٢٩ .

ذاته ، ذلك الذى لا يستطيع عند خروجه من نظام مبالغ فى عدم المساواة أن يصل فوراً إلى المساواة التامة .

يلاحظ أن هذه الطبقة من السراة لم تؤسس تفوقها على ثروتها فحسب . فقد كان من أشد رغائبها فى كل مكان أن تكون الطبقة الحربية ؛ وقد تكفلت بالدفاع عن المدن فى نفس الوقت الذى كانت تحكمها فيه ؛ واحتفظت لنفسها بأحسن الأسلحة وبأكبر نصيب من المخاطر فى القتال ، راغبة فى أن تحاكي بذلك الطبقة النبيلة التى حلت هى محلها . فى جميع المدن كان الأكثر ثراء يولفون الفرسان (١) ؛ وكانت الطبقة المتوسطة الحال تكون فئة جنود الفيالق أو المشاة الثقيلة (hoplites, légionnaires) (٢) . وأعنى الفقراء من الخدمة العسكرية ؛ وعلى أكثر تقدير ، كانوا يستخدمون فى المشاة الخفيفة (peltastes, vélites) أو فى صفوف مجذى الأسطول (٣) . وهكذا كان تنظيم الجيش يتفق بدقة تامة مع تنظيم المدينة السياسى . وكانت الأخطار على قدر الامتيازات وأصبحت القوة المادية فى نفس الأيدى التى كانت الثروة فيها (٤) .

(١) عن أثينا أنظر اكسينوفون : هيبارخوس ١ : ٩ . عن اسبرطه ، اكسينوفون : هيليكاس ٦ : ٤ : ١٠ . عن البلدان الاغريقية بصفة عامة أرسطو : السياسة ٦ : ٤ : ٣ طبعة ديدوس ٥٩٧ . انظر ليسيوس : ضد القيديديس ١ : ٨ : ٢ : ٧

(٢) أولئك هم الـ *ὀπλῖται ἐκ καταλόγου* الذين يتكلم عنهم ثوقيديديس ٦ : ٤٣ و ٨ : ٢٤ . لاحظ أرسطو (السياسة ٥ : ٢ : ٨) أن الهزائم فى البر فى حرب البيلوبونيز قد أهلكت الطبقة الوسطى فى أثينا *διὰ τὸ ἐκ καταλόγου* . - *στρατεύεσθαι* . عن روما أنظر تيتوس ليفيوس ١ : ٤٢ ؛ ديونيسيوس ٤ : ١٧ . - ٧ : ٢٠ ؛ سالوستيوس (Salluste) : لوغورتا ٨٦ . أولوس جيلوس ١٦ : ١٠ .

(٣) هاربوقراطيون ، نقلاً عن أرسطوفانيس ، *Θῆτες οὐκ ἐστρατεύοντο* ،

(٤) ترى فقرتان من ثوقيديديس أن الطبقات الأربعة كانت لا تزال متفاوتة فى عصره بالنسبة للخدمة العسكرية . فكان رجال الطبقتين الأولى والثانية الذين نصابهم ... *pentacosiomédimnes* والفرسان ، يخدمون فى سلاح الفرسان ؛ ورجال الطبقة الثالثة ، *zeugites* فى المشاة الثقيلة . لذلك يشير المؤرخ إلى استخدامهم سلاحين فى حالة الاحتياج الشديد كعمل استثنائى فذ (٣ : ١٦) . وفى موضع آخر عدد ثوقيديديس ضحايا الطاعون ووزعهم على ثلاث طوائف : الفرسان والمشاة الثقيلة وفى النهاية *ὁ ἄλλος* : *ὁχλος* : الجمهور الخسيس (٣ : ٨٧) . ثم قبل الوضع تدريجياً فى الجيش (ثوقيديديس ٦ : ٤٣ و أنتيفون فى هاربوقراطيون تحت لفظ *Θῆτες*) .

وهكذا أتت فترة في جميع المدن التي نعرف تاريخها على وجه التقريب كانت الطبقة الثرية أو على الأقل المتوسطة الحال تتولى فيها الحكومة . كان لهذا النظام السياسي مزاياه : كما يكون لكل نظام مزاياه عندما يتفق مع أخلاق العصر ولا تعارضه العقائد . من المؤكد أن طبقة النبلاء الكهنوتية في الفترة السالفة قد أدت خدمات كبيرة ؛ إذ أنها هي التي أقامت القوانين لأول مرة وأسست حكومات نظامية وجعلت المجتمعات البشرية تعيش خلال عدة قرون بهدوء وكرامة . وكان لسراة الثروة ميزة أخرى ؛ فقد دفعت المجتمع والذكاء في اتجاه جديد . ولما كان منشؤها العمل بجميع أشكاله فقد مجدت العمل وشجعت عليه . فنحن هذا النظام الحديد أكبر قيمة سياسية لأكثر الناس جهداً ، أو أكثرهم نشاطاً ، أو أكثرهم مهارة ؛ وإذن فقد كان موافقاً لتقدم الصناعة والتجارة ؛ كما كان موافقاً للتقدم العقلي ؛ إذ أن الحصول على هذه الثروة ، التي كان كل إنسان يحصل عليها ، في العادة ، أو يفقدها حسب كفاءته ، كان من شأنه أن يجعل التعليم أول الحاجات والذكاء أقوى دوافع الشؤون البشرية . فلا عجب إذن أن وسعت بلاد الإغريق وروما في عهد هذا النظام حدود ثقافتهما الذهنية ودفعتا حضارتهما إلى الأمام .

لم تحتفظ الطبقة الثرية بالسلطان زمناً طويلاً بقدر ما احتفظت به طبقة النبلاء الوراثية القديمة . لم تكن لها هذه الصفة المقدسة التي كانت تجل النسيب القديم : لم تكن تحكم بمقتضى العقائد وبإرادة الآلهة ، ولم يكن فيها ما يسيطر على الضمير ويجبر الإنسان على الخضوع . فإن الإنسان لا ينحن إلا أمام ما يعتقد أنه الحق أو ما تريه آراؤه أنه فوقه بكثير . لقد استطاع أن يركع زمناً طويلاً أمام التفوق الديني للنسيب الذي يتلو الدعاء ويمتلك الآلهة ، لكن الثروة لم تكن لها المهابة في نظره ؛ فإن العاطفة المألوفة أكثر من سواها أمام الثروة ليست الاحترام بل الحسد . وسرعان ما بدا عدم المساواة السياسية ، الناتج عن اختلاف الثروات ، ظلاماً يتحتم على الناس أن يقضوا عليه .

هذا ولم يكن لسلسلة الثورات أن تقف بعد أن بدأت . فقد انقضت المبادئ القديمة ولم تعد هناك أثارات ولا قواعد ثابتة . كان هناك شعور عام بتقلب

الأمور من شأنه أن يجعل كل دستور غير قادر على البقاء طويلاً . فهوجمت طبقة السراة الجديدة كما هوجمت القديمة من قبل ؛ أراد الفقراء أن يكونوا مواطنين وجهدوا أن ينفذوا بدورهم في الفئة السياسية .

من المحال الدخول في تفاصيل هذا الكفاح الجديد . فإن تاريخ المدن كلما ابتعد عن نشأتها ازداد تشعباً . إنها تسير في نفس السلسلة من الثورات : لكن هذه الثورات تعرض لنا بأشكال شديدة التباين . إلا أننا نستطيع على الأقل أن نلاحظ أن الطبقة الثرية بقيت محترمة وسائدة مدة أطول في البلدان التي كان أهم عنصر للثروة فيها هو امتلاك الأرض . وعلى العكس من ذلك في المدن التي كانت فيها قلة من الثروات العقارية ، كاثينا ، وكانوا يثرون فيها من الصناعة والتجارة ، فإن تقلب الثروة قد أيقظ فيها جشع الطبقات الدنيا وأمانها في وقت مبكر . وهوجمت فيها طبقة السراة هجوماً مبكراً .

قاوم أثرياء روما مقاومة أحسن بكثير من مقاومة أثرياء الإغريق ؛ ولذلك أسباب سنذكرها فيما بعد . ولكن عندما نقرأ التاريخ الإغريقي نلاحظ في شيء من الدهشة كم كانت طبقة السراة الجديدة ضعيفة في دفاعها . حقاً إنها ما كانت تستطيع أن تواجه خصومها ، كما فعل النساء ، بالحجة الكبيرة القوية حجة الأثارة والتقوى . لم يكن في استطاعتها أن تدعو لنجدتها الأسلاف والآلهة لم يكن لها نقطة ارتكاز في عقائدها ذاتها . لم تكن مؤمنة في شرعية امتيازاتها .

حقاً لقد كانت لها قوة التفوق في السلاح ، لكن هذا التفوق ذاته انتهى بأن تخلى عنها . لا ريب أن الدساتير التي تمنحها الدول لنفسها تستطيع أن تبقى زمناً أطول لو استطاعت كل دولة أن تبقى في عزلة أو لو استطاعت على الأقل أن تعيش في سلم على الدوام . لكن الحرب تدخل الحلل في دواليب الدساتير وتعجل بالتغييرات . هذا ، وقد كانت حالة الحرب تكاد تكون مستمرة بين هذه المدن في بلاد الإغريق وإيطاليا . وكانت الخدمة العسكرية تنوء بكلكتها أثقل ما تكون على الطبقة الثرية إذ أنها هي التي كانت تحتل الصف الأول في المعارك ، وكثيراً ما كانت تدخل المدينة ، عند عودتها من غزوة ، هالكة ضعيفة ، وبالتالي لم تكن في حالة تسمح لها بمقاومة الحزب الشعبي . ففي تارنت مثلاً ،

فقدت الطبقة العليا الجزء الأكبر من أعضائها في حرب ضد اليايغيين (Iapyges) وسرعان ما قامت حكومة العامة في المدينة . وقد حدث مثل هذا في أرغوس قبل ذلك بحوالى ثلاثين عاماً : إذ أن عدد المواطنين الحقيقيين قد ضعف ، على إثر حرب غير موفقة ضد الاسرطيين . بحيث أصبح لا مفر من منح حق المواطن لجمهرة من الپيريؤويكوى (périèques) (١) . وقد كانت اسرطه شحيحة كل الشح بدم الاسرطيين الحقيقيين حتى لا تقع في مثل هذه الورطة . أما روما فإن حروبها المستمرة تفسر ثوراتها إلى حد كبير . فقد حطمت الحرب سراتها أولاً ، بحيث لم يكديبقى من الأسرات الثلثمائة التي كانت تتكون منها هذه الطبقة في عهد الملوك غير الثلث بعد الاستيلاء على السامنيوم . ثم حصدت الحرب السوقه الأصلية ، تلك السوقه الثرية الشجاعة التي كانت تملأ الطبقات الخمس والتي كانت تتكون منها الفيالتي .

ومن آثار الحرب أن المدن كانت مضطرة اضطراراً يكاد يكون دائماً إلى تسليح الطبقات الدنيا . ولهذا السبب خلعت الحاجة إلى البحرية والحروب في البحار ، في أثينا ، وفي جميع المدن البحرية ، على الطبقة الفقيرة تلك الأهمية التي أبتها عليها الدساتير . فلما ارتفع الوضعاء (ثيتيس) إلى مرتبة المجذفين والملاحين بل والجنود ، وأصبحت سلامة الوطن في أيديهم ، شعروا بحاجة المدينة إليهم وأصبحوا مقاديم . ذلك هو أصل الديموقراطية الأثينية . كانت اسرطه تخشى الحرب ، ويمكن أن نرى في ثوقيديديس تباطؤها وكرهها للدخول في القتال . وقد تركت نفسها تدفع بالرغم منها في حرب الپيلوپونيز ؛ ولكن كم من الجهود بذلت للانسحاب منها ؛ ذلك لأن اسرطه كانت مجبرة على تسليح الطبقة الأخيرة *hypoμείωνες* والمتجنسين حديثاً (Néodamodes) والموثاكيس (Mothaces) واللاكونيين (Laconiens) وحتى الهيلوتيس (hilotes) التابعين لها . وكانت تعلم علم اليقين أن كل حرب كانت تعرضها للثورة بإعطائها الأسلحة

(١) أرسطو : السياسية ٥ : ٢ : ٣ .

لهذه الطبقات التي كانت تضطهدها ، وأنه كان يتحتم عليها عند عودة الجيش إما أن تنزل على إرادة الهيلوتيس التابعين لها وإما أن تجد وسيلة لسفك دمهم بدون ضجة (١) . كانت السوق تشنع على مجلس الشيوخ في روما عندما كانت تنهم بأنه يبحث دائماً عن حروب جديدة . فإن مجلس الشيوخ كان أكثر مهارة من ذلك . فكان يعرف مقدار ما تكلفه هذه الحروب من التساهل ومن الهزائم في ساحة المدينة (forum) . لكنه لم يكن في استطاعته تجنب الحروب فقد كانت روما محاطة بالأعداء من كل جانب .

مما لا ريب فيه أن الحرب قد سدت تدريجياً الثغرة التي وضعها طبقة سراة المال بينها وبين الطبقات الدنيا . ومن هنا سرعان ما وجدت الدساتير نفسها غير متفقة مع الحالة الاجتماعية وأصبح من المحتم تغييرها . هذا ويجب أن نعرف بأن كل امتياز كان مناقضاً بحكم الضرورة للمبدأ الذي كان يحكم الناس عندئذ . فإن المنفعة العامة مبدأ ليس في طبيعته أن يسمح بالتفاوت وأن يحافظ عليه زمناً طويلاً . بل كان من المحتم أن يؤدي بالمجتمعات إلى الديمقراطية .

لقد بلغ من صحة ذلك أنه أصبح لازماً في كل مكان أن يعطى جميع الرجال الأحرار حقوقاً سياسية في وقت يتفاوت تبكيراً وتأخيراً . وبمجرد أن أن رغبت السوق الرومانية في أن تكون لها بلجان خاصة بها ، أصبح يتحتم عليها أن تقبل المعيلين فيها ، ولم تستطع أن تنقل إليها التقسيم إلى الطبقات . وهكذا شاهدت معظم المدن تكوين المجامع الشعبية الحقيقية وأقيم التصويت العام .

هذا وقد كان لحق التصويت عندئذ قيمة لا تقاس بأية قيمة يمكن أن تكون له في الدول الحديثة . فقد كان آخر المواطنين يضع يده بمقتضى هذا الحق في جميع الشؤون، فيعين رجال الدولة، ويضع القوانين، ويجلس للقضاء، ويقرر الحرب والسلم، ويحرر معاهدات التحالف . كان يكفي هذا التوسع في حق التصويت لكي تكون الحكومة حكومة العامة (ديموقراطية) حقاً .

يجدر إبداء ملاحظة أخيرة . ربما كان من المستطاع تجنب حكم العامة لو

(١) انظر ما يرويه ثوقيديديس ٤ : ٨٠

أنهم استطاعوا أن يؤسسوا ما يسميه ثوقيديديس *δηλαρχία ισόνομος* أى الحكومة للبعض والحرية للجميع . لكنه لم يكن لدى الإغريق فكرة جليلة عن الحرية ؛ فقد كانت الحقوق الفردية عندهم تنقصها دائماً بعض الضمانات . وإنا لنعرف من ثوقيديديس ، الذى لا يتهم حقاً بحماس زائد لحكومات العامة ، أن الشعب كان ، تحت سيادة الأقلية ، غرضاً لكثير من القوارص والحكم التعسفى والتنفيذ العنيف . فنقرأ فى هذا المؤرخ أنه « كان لا بد من نظام حكم العامة لكى يجد الفقراء ملاذاً والأثرياء عائقاً » . لم يدرك الإغريق قط كيف يوفقون بين المساواة المدنية والتفاوت السياسى . فلكى لا يؤذى الفقير فى مصلحة الشخصية بدا لهم أنه من الضرورى أن يكون له حق الاقتراع وأن يكون قاضياً فى المحاكم وأن يستطيع أن يكون من رجال الدولة . هذا وإذا تذكرنا أن الدولة عند الإغريق كانت سلطة مطلقة ، وأنه ما من حق فردى كان يقف أمامها ، أدركنا أية منفعة عظيمة كانت لكل فرد ، حتى لأكثر الناس ضعة ، فى أن تكون له حقوق سياسية ، أى أن يكون عضواً فى الحكومة . وما دامت لسيادة المجموع كل هذه الهيمنة فإنه لم يكن فى استطاعة المرء أن يكون شيئاً ما إلا إذا كان عضواً فى هذه السيادة فقد كان أمنه وكرامته متعلقين بذلك . أرادوا أن يحوزوا الحقوق السياسية لا ليحصلوا على الحرية الحقيقية بل ليحصلوا على الأقل على ما يمكن أن يقوم مقامها .

الفصل الحادى عشر

قواعد حكومة العامة (الديموقراطية) . مثل من حكومة العامة الاثينية

كلما تتابعت الانقلابات فى مجراها وابتعدوا عن النظام القديم كلما أصبحت حكومة البشر أكثر صعوبة . فكان لا بد لذلك من قواعد أكثر دقة ، ودواليب أكثر عدداً وأشد لطفاً . وهو ما نرى مثلاً منه فى حكومة أثينا .

كان فى أثينا عدد كبير جداً من أرباب المناصب . فقد احتفظت أولاً بكل مناصب الفترة السابقة : الأرخبون الذى كان يخلع اسمه على السنة ويسهر على دوام العبادات المنزلية ؛ والملك الذى كان يقوم بالقرايين ؛ ورئيس الحرب الذى كان يمثل كرئيس للجيش والذى كان يقضى بين الأجانب ؛ والسته الحفظة على القوانين (Thesmothètes) الذين كان يبدو أنهم يقومون بالقضاء لكنهم فى الواقع إنما كانوا يرأسون هيئات المحلفين الكبيرة . وكان هناك أيضاً الهيروبويوى *hieropoioi* الذين كانوا يستشيرون الوحي ويقدمون بعض القرايين ؛ والمآكلون (*phoroi*) الذين كانوا يصاحبون الأرخبون والملك فى الاحتفالات ؛ والعشرة المنظمون للمسابقات والألعاب (*athlothes*) الذين كانوا يقفون أربع سنوات فى وظائفهم لإعداد عيد أثينايا (Athéné) ؛ وأخيراً ، سدة النار وعددهم خمسون وكانوا يجتمعون على الدوام للسهر على رعاية الموقد العام والمواظبة على الأكلات المقدسة . يرى من هذه القائمة أن أثينا قد بقيت وفية لآثار الزمن القديم ؛ وأن هذا العدد من الثورات لم يكن قد أكمل ، حتى ذلك الوقت ، تدمير ذلك الاحترام الخرافى . فما من أحد كان يجروء على نبذ الأشكال القديمة للديانة القومية ؛ لقد بنى حكم العامة متمسكاً بالعبادة التى أنشأها النسياء .

يأتى بعد ذلك رجال الدولة الذين أنشئوا خصيصاً لحكومة العامة ، أولئك الذين لم يكونوا كهنة بل كانوا يسهرون على مصالح المدينة المادية ، وفى مقدمتهم

القواد العشرة الذين كانوا يعنون بشؤون الحرب وشؤون السياسة . ثم ضابطو المدينة (astynomes) العشرة الذين كانوا يحفظون النظام في المدينة ؛ وضابطو السوق (agoranomes) العشرة الذين يسهرون على أسواق البلدة وأسواق الپيريوس (الپيريه Pirée) ؛ والخمسة عشر المشرفون على الحبوب (sitophylakes) وهم الذين كانوا يشرفون على بيع القمح ؛ وضابطو المعايير الذين كانوا يراقبون الأوزان والمقاييس ؛ وحفظة بيت المال العشرة ؛ ومحصلو الحسابات العشرة ؛ والأحد عشر المكلفون بتنفيذ الأحكام . يضاف إلى ذلك أن معظم هذه المناصب كان يتكرر في كل واحدة من القبائل وفي كل واحد من الأحياء . فكان لأدنى مجموعة من الأهالي في أتيكا أرخونها وكاهنها وكاتم أسرارها ومحصلها ورئيسها الحربي . ولا يكاد المرء يخطو خطوة في البلدة أو في الريف دون أن يلتقي واحداً من رجال الدولة .

كانت هذه الوظائف سنوية ؛ ونتج عن ذلك أنه كان لا يوجد رجل لا يستطيع أن يباشر واحدة منها في دوره . وكان أرباب المناصب ذات الصفة الكهنوتية يختارون بالقرعة . أما الذين لا يزالون غير وظائف تابعة للنظام العام ، فقد كان ينتخبهم الشعب . بيد أنه كانت هناك حيلة ضد تحبطات القرعة أو نزوات التصويت العام ؛ فكان كل منتخب جديد يؤدي امتحاناً أمام مجلس الشيوخ ، أو أمام رجال الدولة الخارجين من مناصبهم ، أو في الختام أمام مجلس الأريوباغوس (Areopage) ؛ لم يكونوا يطلبون أدلة على الكفاءة أو الموهبة ، بل كانوا يتخرون عن نزاهة الرجل وعن أسرته ؛ كما كانوا يحتمون على كل ذي منصب أن يكون له مال عقارى (١) .

قد يلوح أنه لم يكن في الإمكان أن يكون لهؤلاء الحكام الذين كانت تنتخبهم أصوات أكفأهم ، والذين كانوا يعينون لمدة عام فقط ، وكانوا مسؤولين قابلين للعزل ، إلا القليل من المكانة والسلطة . بيد أنه يكفي أن نقرأ ثوقيديديس

Dinarque, *Adv. Demosthenem*, 71: *Τοὺς νόμους προλέγειν τῷ (١) στρατηγῷ, τὴν παρὰ τοῦ δήμου πίστιν ἀξιοῦντι λαμβάνειν, παιδοποιεῖσθαι κατὰ τοὺς νόμους καὶ γῆν ἐντὸς ὅρων κεκτιῆσθαι.*

واكسينوفون لسكى نتأكد أنهم كانوا محترمين ومطاعين . وقد كان فى أخلاق القدماء دائماً ، حتى الأثينيين منهم ، سهولة كبيرة فى الخضوع للنظام ، ربما كانت نتيجة لعادة الطاعة التى عودتهم عليها الحكومة السكهنوتية . كانوا معبودين على احترام الدولة وكل من يمثلها على مختلف الدرجات . ولم يكن يطرأ بياهم أن يحتقروا رجل الدولة لأنهم هم الذين انتخبوه ؛ فقد كان الانتخاب معتبراً من أقدم ينابيع السلطة (١) .

وفوق رجال الدولة ، الذين لم تكن لهم وظيفة غير تنفيذ القوانين ، كان يوجد مجلس الشيوخ . ولم يكن المجلس إلا هيئة للمناقشة تشبه مجلس الدولة ؛ لم يكن يعمل ، ولا يضع القوانين ، ولا يباشر أية سيادة . ولم يكونوا يرون بأساً فى تجديد كل عام ؛ إذ أنه لم يكن يطلب من أعضائه ذكاء فائقاً ولا تجربة كبيرة . كان يتكون من سدة النار الخمسين لكل قبيلة ، أولئك الذين كانوا يزاولون الوظائف المقدسة كل فى دوره ويتشاورون طول العام فى مصالح البلدة المدنية أو السياسية . ومن المرجح أن يكون سبب ذلك أن مجلس الشيوخ لم يكن فى الأصل إلا مجمع سدة النار ، أى كهنة الموقد السنويين ، والذين احتفظوا بعادة تعيينهم بطريق القرعة . ومن الحق أن نقول إن كل اسم كان يخضع بعد القرعة للامتحان ويستبعد إذا لم يبدو أنه يتمتع بدرجة كافية من الاحترام . (٢)

وفوق مجلس الشيوخ ذاته كان يوجد مجمع الشعب . وهو السيد الحقيقى . ولكن كما أن الملك فى الممالك الحسنة التكوين يحيط نفسه باحتياطات ضد هواه أو ضد أخطائه الشخصية ، فقد كان لحكم العامة أيضاً قواعد يخضع لها ولا تتبدل

(١) ليس القصد أن رجال الدولة فى أثينا كانوا محترمين ، وعلى الأخص كانوا مرهوبى الجانب ، بدرجة مساوية لما كان عليه الإيفور فى اسبرطة أو القناصل فى روما . لم يكن محتماً على كل ذى منصب فى أثينا أن يقدم حسابه عند انتهاء عمله لحسب ، بل كان يمكن عزله بتصويت من الشعب حتى خلال السنة التى عين فيها (أرسطو فى هاربوقراطيون تحت لفظ *Kyria* بوليدوكس ٨ : ٨٧ ؛ ديموشثينيس : ضد تيموثيوس ٩) هو الأمثلة على مثل هذا العزل نادرة نسبياً .

(٢) أيسخينيس : ضد اكتيسيفون ٢ ؛ ديموشثينيس : ضد نيأيرا ٣ . لىسياس ضد فيلون ٢ . هاربوقراطيون ، تحت لفظ *Enilaxōn* .

كان ينعقد المجلس بدعوة من سدة النار أو القواد . وكان يجتمع داخل سور تحدده الديانة . فنذ الصباح يطوف الكهنة بالپنيكس (Pnyx) وهم ينحرون الأضاحى ويطلبون حماية الآلهة ، ويجلس الشعب على مقاعد من الحجر . ويجتمع سدة النيران أو المقدمون (الپروإيدروى proédres) الذين يرأسون المجمع على منصة مرتفعة، وعندما يجلس الجميع ينادى كاهن (κῆρυξ) قائلاً « اصمتوا الصمت الدينى (εὐφημία) ادعوا الآلهة والآلهات (وهنا يسمى المعبودات الرئيسية للإقليم) لكى يتم كل شىء فى هذا المجمع على خير وجه للمنفعة الكبرى لأئينا ولسعادة المواطنين » . ثم يجيب الشعب، أو فرد ما بالنيابة عنه، « ندعو الآلهة لكى تحمى المدينة . ليتغلب رأى أكثرنا حكمة . ليُعلن من يعطينا نصائح سوء ومن يدعى تغيير القرارات والقوانين ، أو من يكشف أسرارنا للعدو . (١) » .

ثم يعلن المنادى، بناء على أمر الرؤساء، الموضوع الذى يجب على المجمع أن يعنى به . فإن ما يقدم للمجلس لا بد أن يكون مجلس الشيوخ قد ناقشه ودرسه من قبل . لم يكن للشعب ما يطلق عليه فى المصطلح الحديث حق المبادأة ؛ كان مجلس الشيوخ يعيد له مشروعاً بقرار، فكان يستطيع أن يرفضه أو يقبله لكنه لم يكن يملك المناقشة فى شىء آخر .

عندما يتلو المنادى مشروع القرار تفتح المناقشة ويقول المنادى « من يريد الكلام ؟ » ويصعد الخطباء المنبر بترتيب السن . وفى استطاعة كل فرد أن يتكلم من غير تمييز ناتج عن الثروة أو المهنة ، ولكن على شرط أن يكون قد أثبت أنه متمتع بالحقوق السياسية ، وأنه لم يكن مديناً للدولة ، وأن أخلاقه

(١) أيسخينيس : ضد تيارخوس ٢٣ ؛ ضد اكتيسفون ٢ - ٦ . دينارخوس : أريسطونغيون ١٤ : Ὁ νόμος κελεύει εὐξάμενον τὸν κῆρυκα μετ' εὐφημίας . ديموشثينيس السفارة ٧٠ : πολλῆς, οὕτως ὑμῖν τὸ βουλευέσθαι δίδοναι. Ταῦθ' ὑπερ ὑμῶν καθ' ἑκαστὴν τὴν ἐκκλησίαν εὐχεται ὁ κῆρυξ νόμῳ προστεταγμένα. انظر أريسطوفانيس : المحفلات بالشموفوريا ٢٥ - ٣٥ . بوليدوكيس

طاهرة ، وأنه متزوج زواجاً شرعياً ، وأنه يملك عقاراً في أتيكا ، وأنه أدى جميع واجباته نحو والديه ، وأنه اشترك في جميع الحملات الحربية التي أمر بالاشتراك فيها ، وأنه لم يلق ترسه في أي قتال (١) .

وبعد أن يتخذ الشعب هذه الاحتياطات ضد البلاغة ، يستسلم لها استلاماً تاماً . فلم يكن الأثينيون ، كما يقول ثوقيديديس ، يعتقدون أن الكلام ضار بالعمل ؛ بل كانوا يشعرون على عكس ذلك بالحاجة إلى الاستنارة . لم تعد السياسة كما كانت في النظام السابق مسألة إثارة وإيمان . بل كان لا بد من التأمل ووزن المبررات . كانت المناقشة ضرورية . إذ أن كل مسألة كانت على درجة ما من الغموض . والكلام وحده يستطيع أن يلقي الضوء على الحقيقة . كان الشعب الأثيني يريد أن تعرض عليه كل مسألة على جميع وجوهها المختلفة ، وأن يطلع بوضوح على الموجبات والموانع . كان شديد التمسك بخطبائه ؛ ويقال إنه كان يثيبهم بالمال عن كل خطبة يلقونها على المنبر (٢) . بل كان يفعل ما هو خير من ذلك : كان يصغي إليهم ؛ إذ يجب ألا نتصور جمهوراً هائجاً مائجاً ، بل الأمثل أن هيئة الشعب كانت على عكس ذلك ؛ فإن الشاعر الماجن يصوره يستمع فاغراً فاه ، ثابتاً على مقاعده الحجرية (٣) . كثيراً ما يصف المؤرخون والخطباء هذه المجتمعات الشعبية ونكاد لا نرى خطيباً يقاطع إطلاقاً ؛ كان الشعب ملقياً باله سواء كان الخطيب بريكليس أو كليوثن ، أيسخينيس أو ديموسثينيس ؛ كان يصغي سواء عليه أتملقوه أم زجروه ؛ ويترك الخطباء يدلون بأكثر الآراء تناقضاً ، بصبر جدير بالثناء . وقد يهمس أحياناً لكنه لا يصرخ ولا يصخب إطلاقاً . ويستطيع الخطيب أن يصل دائماً إلى نهاية خطابه مهما قال .

(١) Δοκιμασία ῥητόρων أيسخينيس : ضد تيارخوس ٢٧-٣٣ . دينارخوس :

ضد ديموسثينيس ٧١

(٢) ذلك ما نفهمه على الأقل من أرسطوفانيس : الزناير ٦٩١ : Φέρει τὸ συνηγορικόν ،

δραχμὴν ὡς ἐν τῷ συνηγορικῷ : Elámbanon oí rhētores draχmēn ote synēgōroun : δὲ τῆς πόλεως

(٣) أرسطوفانيس : الفرسان ١١١٩ .

لا نعرف شيئاً عن البلاغة في أسيرطه . ذلك لأن مبادئ الحكومة لم تكن هي نفسها التي كانت في أثينا ؛ فقد كانت طبقة السراة لا تزال تحكم ولها آثار ثابتة تعفيها من النزاع طويلاً على الموجبات والموانع لكل موضوع . أما في أثينا ، فإن الشعب يريد أن يتعلم فلا يقرر إلا بعد مناقشة بين الطرفين ، ولا يتصرف إلا بقدر ما يقتنع أو يعتقد أنه مقتنع . ولتحريك التصويت العام كان لا بد من الكلام ؛ فالبلاغة هي التي تحرك حكومة العامة . لذلك اتخذ الخطباء منذ زمن مبكر لقب ديماغوغوي (démagogues = قادة الشعب) أي قادة المدينة ؛ والواقع أنهم هم الذين كانوا يدفعونها للعمل ويوجهون كل قراراتها . وقد توقعوا حالة خطيب يقدم اقتراحاً مناقضاً للقوانين القائمة . فكان لأثينا حكام خاصون تسميهم حُرَّاس القوانين . كانوا سبعة يراقبون المجلس وهم جلوس على مقاعد مرتفعة ويبدون كممثلين للقانون الذي هو فوق الشعب ذاته . فإذا ما رأوا قانوناً يهاجم أوقفوا الخطيب أثناء خطابه وأمرؤا بفض المجلس فوراً . فيتفرق الشعب دون أن يكون له الحق في الذهاب للتصويت (١) .

كان هناك قانون ، لم يطبق في الحقيقة إلا قليلاً ، يعاقب كل خطيب يثبت عليه أنه أشار على الشعب بمشورة سيئة . وكان هناك قانون آخر يحرم الوصول إلى المنبر على كل خطيب أشار ثلاث مرات بقرارات مناقضة للقوانين القائمة (٢) .

كانت أثينا تعلم علم اليقين أن حكم العامة لا يمكن أن يقوم إلا باحترام القوانين . وكانت مهمة البحث عن التعديلات التي كان يمكن أن يكون من المصلحة إدخالها في التشريع من اختصاص حفظة القوانين (Thèsmothètes) بصفة خاصة . وكانت اقتراحاتهم تقدم لمجلس الشيوخ الذي كان من حقه أن يرفضها ، لكنه لم يكن من حقه أن يحولها إلى قوانين . وفي حالة الموافقة كان مجلس الشيوخ يدعو المجمع للانعقاد ويعرض عليه مشروع حفظة القوانين

(١) بوليدوكيس ٨ : ٩٤ . فيلوخوروس : قطع مجموعة ديدوس ٤٩٧ .

(٢) أثينا يوس ١٠ : ٧٣ . بوليدوكيس ٨ : ٥٢ . النظر
G. Perrot, *Hist. du droit public d'Athènes*, chap. II.

(التيسموثيتاي) . لكن لم يكن للشعب أن يقرر شيئاً ما على الفور . بل كان يؤجل المناقشة إلى يوم آخر ؛ وفي فترة الانتظار يعين خمسة خطباء مهمتهم الخاصة أن يدافعوا عن القانون القديم وأن يبرزوا ما في التجديد المقترح من عدم الملاءمة . وفي اليوم المحدد يجتمع الشعب من جديد ويستمع أولاً للخطباء المكلفين بالدفاع عن القوانين القديمة ، ثم المؤيدين للقوانين الجديدة . وبعد سماع الخطب لا يتخذ المجلس قراراً بل يكتفى بأن يعين لجنة من عدد كبير من الأعضاء لكنها لا تكون إلا من رجال مارسوا وظائف القضاء . وتفحص هذه اللجنة الموضوع فحصاً جديداً وتستمع إلى الخطباء من جديد وتناقش وتداول . فإذا رفضت القانون المقترح فإن حكمها غير قابل للاستئناف وإذا وافقت عليه اجتمع الشعب مرة أخرى ويجب عليه في هذه المرة الثالثة أن يصوت وتصويته يحيل الاقتراح قانوناً (١) .

وبالرغم من كل هذه الكياسة فإنه من المستطاع أن يتخذ قرار ظالم أو ضار . لكن القانون الجديد يحمل اسم واضعه إلى الأبد ويمكن أن يحاكم فيما بعد وأن يعاقب . ويعتبر الشعب معصوماً من الخطأ كما هو الحال مع السيد الحقيقي . لكن كل خطيب يبقى مسؤولاً على الدوام عن المشورة التي أشار بها . (٢) . تلك كانت القواعد التي يخضع لها حكم العامة . ويجدر ألا نستخلص من ذلك أنه لم يرتكب غلطة ما . مهما يكن شكل الحكومة (ملكية ، سراً ، حكم العامة) فإن هناك أياماً يحكم فيها العقل وأخرى تحكم فيها الشهوة . فما من دستور قضى تماماً على ضعف الطبيعة البشرية وعيوبها . وكلما كانت القواعد دقيقة كلما أوضحت أن إدارة المجتمع صعبة وملينة بالأخطار . لم يكن في استطاعة حكم العامة أن يدوم إلا بالمبالغة في الفطنة .

(١) انظر عن هذه النقطة من الدستور الأثيني خطابي ديموسثينيس ضد ليبتيينيس وضد تيموقراطيس ؛ أيسخينيس : ضد اكتيسيفون ٣٨-٤٠ ؛ أندوقيديس *De Mysteriis* ٨٣-٨٤ ، بوليدوكيس ٨ : ١٠١ .

(٢) ثوقيديديس ٣ : ٤٣ . ديموسثينيس : ضد تيموقراطيس .

وإن الإنسان ليدعش أيضاً من كل العمل الذي كان يتطلبه حكم العامة من الناس . لقد كانت حكومة عظيمة الاجتهاد . انظر فيما كان يقضى الأثني حياته . يدعى يوماً إلى مجمع حيّه وعليه أن يتداول في المصالح الدينية والمالية لهذه الجماعة الصغيرة . ويوماً آخر يدعى إلى مجمع قبيلته ؛ والموضوع هو تنظيم عيد ديني أو فحص مصروفات أو إصدار قرارات ، أو تعيين رؤساء وقضاة . ولا بد أن يحضر المجمع العام للشعب ثلاث مرات شهرياً بانتظام ؛ ولا حق له في الغياب . هذا والجلسة طويلة ؛ وهو لا يذهب إليها للتصويت فقط : يحضر منذ الصباح ويجب أن يبقى إلى ساعة متقدمة من النهار وهو يستمع إلى الخطباء . ولا يمكن أن يصوت إلا إذا كان حاضراً منذ افتتاح الجلسة واستمع إلى جميع الخطب . وهذا التصويت ، فيما يخصه ، مسألة من أكثر المسائل جدية ؛ فالأمر يتعلق أحياناً بتعيين رؤساء سياسيين وعسكريين أي الذين ستوكل إليهم مصلحته وحياته لمدة عام ، وأحياناً بضرية تقرر أو قانون يغير ، وأحياناً يجب أن يصوت على الحرب وهو يعلم علم اليقين أنه سيقدم دمه أو دم ابنه . فالمصالح الفردية مرتبطة بمصالح الدولة ارتباطاً لا انفصام له . لا يستطيع الإنسان أن يكون غير مكترث ولا نزقاً . وإذا ضل ، يعلم أنه سيحمل عبء ذلك قريباً وأنه في كل تصويت يرهن ماله وحياته . يوم قررت الحملة المشؤومة على صقلية لم يكن هناك مواطن لا يعلم أن واحداً من ذويه سيشارك فيها ؛ ولم يكن هناك واحد إلا وقد وجه كل ما في روحه من اهتمام لكي يوازن بين ما تقدمه مثل هذه الحرب من منافع وما تعرضه من أخطار . كان من المهم جداً أن يفكر الإنسان وأن يستنير ؛ إذ أن هزيمة تنزل بالوطن لى نقص من الكرامة الشخصية لكل مواطن ومن أمنه ومن ثروته .

لم يكن واجب المواطن مقصوراً على التصويت . فقد كان واجباً عليه أن يكون ذا منصب في حيه أو في قبيلته ؛ فيصبح ، إذا جاء دوره ، هيلياستيس (Heliaste) ، أي قاضياً ، عاماً من كل عامين في المتوسط (١) . ويقضى كل

(١) يعتقد أنه كان هناك ٦٠٠٠ قاض من بين ١٨٠٠٠ مواطن ؛ لكن يجب أن نحذف من هذا الرقم الأخير كل أولئك الذين لم يبلغوا الثلاثين والمرضى والغائبين والرجال المجندين في الغزوات والمحكوم عليهم بالتجريد من الحقوق (atimie) ، وأخيراً العاجزين عجزاً واضحاً عن القيام بالقضاء .

ذلك العام في المحاكم مشغلا بسماع المترافعين وتطبيق القوانين . لم يكن هناك مواطن لا يدعى مرتين في حياته للاشتراك في مجلس الشيوخ المسكون من خمسمائة عضو ؛ وعندئذ يجلس كل يوم ، لمدة عام ، من الصباح إلى المساء يتلقى بلاغات رجال الدولة ويحاسبهم ويرد على السفراء الأجانب ويحرر التعليمات للسفراء الأتنيين ويفحص جميع المسائل التي يجب أن تعرض على الشعب ، ويعد جميع القرارات . وأخيراً يستطيع أن يكون ذا منصب في المدينة ، أرخوناً ، أو قائداً ، أو ضابطاً للمدينة إذا ما عينته القرعة أو الانتخاب . ومن ذلك نرى أنه كان عبثاً ثقيلاً أن يكون المرء مواطناً في دولة ديموقراطية ، وأنه كان في ذلك ما يكاد يشغل الحياة بأكملها ، وأنه لم يكن يبقى إلا القليل من الوقت للأعمال الشخصية والحياة المنزلية . لذلك كان أرسطو محقاً جداً عندما قال إن الرجل الذي يحتاج للعمل لكي يعيش لا يستطيع أن يكون مواطناً . ذلك ما كانت تفرضه حكومة العامة . فكان على المواطن ، كالموظف العام في أيامنا ، أن يهب للدولة نفسه كاملة . فكان يعطيها دمه في الحرب ووقته في زمن السلم . لم يكن حراً في ترك الشؤون العامة جانباً لكي يولى شؤونه عناية أكبر . بل الأمثل أن شؤونه هي التي كان يتحتم عليه أن يهملها ليعمل لصالح المدينة . كان الناس يقضون حياتهم في حكم أنفسهم . ولم يكن باستطاعة حكومة العامة أن تدوم إلا بشرط العمل المتواصل من جانب جميع مواطنيها . فإذا ما أبطأ الحماس قليلاً أصبح لا بد من هلاكها أو فسادها .

الفصل الثانى عشر

أثرياء وفقراء ؛ حكم العامة (الديموقراطية) ؛ الطغاة الشعبيون

عندما أدت سلسلة الانقلابات إلى المساواة بين الناس ، ولم يعد هناك مكان للقتال من أجل المبادئ والحقوق ، حارب الناس بعضهم بعضاً من أجل المنافع . ولم تبدأ هذه الفترة الجديدة من تاريخ المدن في وقت واحد بالنسبة لها جميعاً . فقد تبعت ، في بعضها ، حكومة العامة بعد فترة وجيزة جداً ؛ ولم تظهر ، في الأخرى ، إلا بعد عدة أجيال عرفت كيف تحكم نفسها في هدوء لكن جميع المدن قد انحدرت في زمن مبكر أو متأخر ، إلى هذه المنازعات المثيرة للأسى .

كلما ابتعدوا عن النظام القديم تكونت طبقة فقيرة . أما قبل ذلك ، عندما كان كل رجل عضواً في فصيلة ، وله سيد ، فإن البؤس كاد يكون مجهولاً . كان الرجل يطعمه سيده إذ أنه كان على من يقدم له طاعته أن يقوم بدوره بكل احتياجاته . لكن الانقلابات التي فككت الفصيلة *phratries* غيرت ظروف الحياة البشرية أيضاً . ففي اليوم الذي تحرر فيه الإنسان من روابط الولاء رأى ضرورات الحياة ومصاعبها تقوم في وجهه . أصبحت الحياة أكثر استقلالاً لكنها أيضاً أكثر عناء وأكثر تعرضاً للنوازل . أصبح كل امرئ معنياً منذ الآن براحة نفسه وبمتمتعته وعمله . لقد أثرى هذا بسبب نشاطه أو بحظه السعيد ، وبقى الآخر فقيراً . فإن التفاوت في الثروة لا مفر منه في كل مجتمع لا يريد أن يبقى في الحالة الأبوية أو الحالة القبليّة (حالة القبيلة)

لم يقض حكم العامة على الشقاء ؛ بل جعله ، على العكس ، محسوساً أكثر من ذي قبل . وقد جعل التفاوت في الحقوق السياسية تفاوت الأحوال أكثر بروزاً .

وحيث أنه لم تكن هناك سلطة ما تعلو على الأثرياء والفقراء معاً وتستطيع أن تجبرهم على البقاء في السلم فقد كان من المأمول أن تكون المبادئ الاقتصادية وظروف العمل بحيث تجبر الطبقتين على العيش في وفاق . فكان يجب مثلاً أن تحتاج إحداهما للآخرى وألا يستطيع الثرى أن يثرى إلا بالتماس العمل من الفقير وأن يجد الفقير وسائل العيش بتقديم عمله للثرى . وعندئذ كان تفاوت الثروات يشحذ همة الرجل وذكاءه ، ولا يلد الفساد والحرب الأهلية .

لكن كثيراً من المدن كانت تنقصه الصناعة والتجارة نقصاً تاماً ؛ فلم تكن بيدها وسيلة ما لزيادة مجموع الثروة العامة بحيث تعطى نصيباً منها للفقير دون أن تنتزع شيئاً من أحد . حينئذ وجدت التجارة كانت كل فوائدها تقريباً من نصيب الأثرياء بسبب المبالغة في زبنا المال . وإذا وجدت الصناعة كان السواد الأكبر من العمال من الأرقاء . من المعروف أنه كان في منزل الثرى في أثينا أو في روما مصانع للنساجين والصاغة وصناع الأسلحة ، وجميعهم أرقاء . حتى المهن الحرة كانت موصدة تقريباً في وجه المواطن ، ففي غالب الأحيان كان الطبيب رقيقاً يعالج المرضى لحساب سيده ، وكان مستخدمو المصارف وكثيرون من المهندسين وبناء السفن وصغار موظفي الدولة أرقاء . كان الرق آفة يشكو منها المجتمع الحر ذاته . فالمواطن لا يجد إلا قليلاً من الوظائف وقليلًا من العمل وسرعان ما صيرته عدم الاشتغال كسولا . ولما كان لا يرى من يعمل غير العبيد فقد احتقر العمل : وهكذا تواطأ كل شيء ، العادات الاقتصادية ، والاستعدادات الخلقية ، والأراء الميثة ، ليحول بين الفقير وبين الخروج من بؤسه والعيش بطرق شريفة . لم تكن الثروة والفقير منظمين بحيث يستطيعان العيش في سلام .

كان الفقير متمتعاً بالمساواة في الحقوق ، لكن من المؤكد أن آلامه اليومية كانت تجعله يفكر في أن المساواة في المال كانت أفضل منها بكثير . هذا ولم يلبث طويلاً حتى أدرك أن في إمكانه أن يستخدم المساواة التي كانت في يده للحصول على تلك التي لم تكن في حيازته ، وأنه وهو المسيطر على الأصوات يستطيع أن يكون مسيطراً على الثروة .

بدأ بأن أراد العيش من حقه في التصويت . فكان يتقاضى أجراً لحضور المجمع أو ليقضى في المحاكم (١) . وإذا لم تكن المدينة من الثراء بحيث تستطيع القيام بمثل هذه المصروفات فإن أمام الفقير موارد أخرى . كان يبيع صوته ، ولما كانت مناسبات التصويت متعددة الوقوع فقد كان في استطاعته أن يعيش . ففي روما كان يحدث هذا الاتجار بانتظام وفي وضوح النهار ؛ أما في أثينا فكانوا يسترون أكثر من ذلك . في روما، حيث لم يكن الفقير يدخل المحاكم ، كان يبيع نفسه كشاهد ؛ وفي أثينا كقاض . ولم يكن ذلك كله لينتزع الفقير من بؤسه بل كان يلقي به في المهانة .

هذه الوسائل المرتجلة لم تكن كافية . فاستعمل الفقير وسائل أشد عنفاً . أعد حرباً منظمة ضد الثروة . في البدء كانت هذه الحرب مستترة في صور شرعية . فحملوا الأثرياء المصروفات العامة كلها ، وكلدسوا فوقهم الضرائب وجعلوهم يبنون سفناً من ذات الطبقات الثلاث ، وأرادوا منهم أن يعملوا أعياداً للشعب (٢) ، ثم أكثروا من الغرامات في الأحكام وحكموا بمصادرة الأموال لأيسر الهفوات . أفى مقدورنا أن نقول كم من الرجال حكم عليه بالنفي لمجرد أنه كان ثرياً ؟ كانت ثروة المنفى تذهب إلى بيت المال ومنه تتسرب فيما يعد لكي يتقاسمها الفقراء في صورة الثلاثة فلوس (triobole) (٣) . لكن ذلك كله لم يعد كافياً : إذ أن عدد الفقراء كان يزداد على الدوام .

(١) *Μισθὸς ἐκκλησιαστικός* أرسطوفانيس : مجلس النساء . ٢٨٠ وما بعده .
— *Μισθὸς δικαστικός* أرسطو : السياسة ٢ : ٩ : ٣ ؛ أرسطوفانيس : الفرسان ٥١ ، ٢٥٥ ، الزناير ٦٨٢ .

(٢) *Xénophon, Resp. Ath., I, 13: Χορηγοῦσιν οἱ πλούσιοι, χορηγεῖται δὲ ὁ δῆμος, τριηραρχοῦσι καὶ γυμνασιαρχοῦσιν οἱ πλούσιοι, ὁ δὲ δῆμος τριηραρχεῖται καὶ γυμνασιαρχεῖται. Ἀξιοῖ οὖν ἀργύριον λαμβάνειν ὁ δῆμος καὶ ἄδων καὶ τρέχων καὶ ὀρχούμενος, ἵνα αὐτός τε ἔχη* *καὶ οἱ πλούσιοι πενέστεροι γίνωνται.* أرسطوفانيس : الفرسان البيت ٩٣ وما بعده .

(٣) كان يعطى لكل أثيني يحضر المجمع ثلاثة فلوس (trioboles) أي حوالى

قرشين عن الجلسة الواحدة . — العرب

وعندئذ انتهى الفقراء في كثير من البلدان إلى استعمال حقهم في التصويت لكي يقرروا إلغاء الديون ، أو المصادرة بالجملة والانقلاب التام .
في الفترات السابقة ، احترموا حق المملك لأن أساسه كان العقيدة الدينية .
طالما كان كل ميراث ملازماً لعبادة ما ، ومعتبراً غير منفصل عن الآلهة المنزلين لأسرة ما ، لم يفكر أحد في أن له الحق في تجريد شخص من حقه . لكن في الفترة التي قادتنا إليها الانقلابات ، هجرت هذه العقائد القديمة واختفت ديانة الملك . لم تعد الثروة أرضاً مقدسة مصونة . لم تعد تبدو هبة من الآلهة بل هبة من المصادفة ؛ يود الإنسان أن يستولى عليها بسلبها ممن يحوزها . وهذه الرغبة ، التي كانت تبدو إثماً فيما مضى ، بدأت تلوح عملاً مشروعاً . لم يعودوا يرون المبدأ السامي الذي كان يقدر حق الملك ؛ لم يكن يشعر كل فرد إلا بحاجته هو ذاته ، وقيس حقه عليها .

سبق أن قلنا أنه كان للمدينة ، عند الإغريق على الأخص ، سلطان لا حد له ، وأن الحرية كانت مجهولة ، وأن الحق لم يكن شيئاً ما أمام إرادة الدولة . وقد نتج عن ذلك أنه كان في استطاعة أغلبية الأصوات أن تقرر مصادرة أموال الأثرياء ، وأن الإغريق لم يكونوا يرون في ذلك خروجاً عن القانون ولا ظلماً . فإن ما قرره الدولة هو القانون . وقد كان انعدام الحرية الفردية هذا سبباً للمصائب والفتن في بلاد الإغريق . أما روما ، التي كانت أكثر احتراماً بقليل لحق الإنسان ؛ فقد أصابها أقل من ذلك أيضاً .

يروى بلوتارخوس أنهم قرروا في ميغارا على أثر فتنة أن تلغى الديون وأن يرد الدائنون الأرباح التي دفعت من قبل ، وذلك علاوة على فقدان رأس المال (١) . يقول أرسطو (٢) : «عندما انتزع الحزب الشعبي السلطة في ميغارا ، وكذلك في بلدان أخرى ، بدأ بأن يحكم على بعض الأسرات الثرية بمصادرة أموالها ؛ لكنه بمجرد أن سلك ذلك الطريق لم يعد في استطاعته أن يقف ، فكان لابد

(١) بلوتارخوس : مسائل إغريقية ١٨ .

(٢) أرسطو : السياسة ٥ : ٤ : ٣ .

من ضحية جديدة كل يوم . وفي النهاية أصبح عدد الأثرياء الذين سلبوهم أموالهم ونفوسهم من بلادهم عظيماً بحيث كون جيشاً .

وفي سنة ٤١٢ «أباد شعب ساموس مائتين من خصومه ، ونفى أربعائة آخرين واقتسم أراضيهم ويوتهم (١) .»

وفي سيراكوسه لم يكد الشعب يتخلص من الطاغية ديونيسيوس حتى قرر اقتسام الأراضي منذ أول اجتماع (٢).

كلما رأينا حرباً أهلية ، في تلك الفترة من التاريخ الإغريق ، رأينا الأثرياء في حزب والفقراء في حزب آخر. يريد الفقراء أن ينتزعوا الثروة ، ويريد الأثرياء أن يحتفظوا بها أو أن يستردوها . يقول مؤرخ إغريق «إن الغرض من كل حرب أهلية هو نقل الثروة» (٣) . كان كل مثير للشعب يعمل كما عمل مولپاغوراس (Molpagoras) الكيوسى (من كيوس Cios) ، فقد سلم للجمهور من كانت في حيازتهم أموال وقتل البعض ونفى البعض الآخر ووزع أملاكهم بين الفقراء . وفي مسينه (٤) ، بمجرد أن تغلب الحزب الشعبى نفى الأثرياء واقتسم أراضيهم (٥) .

لم يكن قط لدى الطبقات العالية عند القدماء كفاية من الذكاء ولا كفاية من المهارة لتوجيه الفقراء نحو العمل ومساعدتهم على الخروج من البؤس والفساد بطريق شريف . وقد حاول ذلك بعض رجال من أولى الألباب ولم ينجحوا فيه . وقد نتج عن ذلك أن المدن كانت تتقلب دائماً بين ثورتين إحداهما تسلب الأثرياء والأخرى ترد إليهم حيازة ثروتهم. وقد استمر ذلك من حرب الپيلوپونيز إلى استيلاء الرومان على بلاد الإغريق .

كان الثرى والفقير ، في كل مدينة ، عدوين يعيشان جنباً لجنب ، أحدهما بطمع في الثروة والآخر يرى ثروته مطموعاً فيها . ليست بينهما صلة تربطهما

(١) ثوقيدديدس ٨ : ٢١

(٢) بلوتارخوس : ديون ٣٧ ، ٤٨ .

(٣) بوليبيوس ١٥ : ٢١ : ٣ : *ἵνα διαιρῶνται τὰς ἀλλήλων οὐσίας*

(٤) كلما تكلم المؤلف عن مسينه في هذا الكتاب فهو يقصد مسينه التى فى بلاد الاغريق وليست مسينه التى فى صقلية . - العرب .

(٥) بوليبيوس ٧ : ١٠ طبعة ديدو .

ولا خدمة ولا عمل . لا يستطيع الفقير أن يحصل على الثروة إلا بسلب الثرى .
ولا يستطيع الثرى أن يدافع عن ثروته إلا بمهارة فائقة أو بالقوة . كان كل
منهما يرمق الآخر بعين الحقد . فكانت في كل بلدة مؤامرة مزدوجة :
يتآمر الفقراء بدافع الجشع ، والأثرياء بدافع الخوف . يقول أرسطو إن
الأثرياء حلفوا فيما بينهم بهذا القسم « أقسم أن أكون على الدوام عدواً للشعب
وأن أنزل به كل ما استطيع من سوء » (١) .

ليس بمستطاع أن نقول أى الفريقين ارتكب من القسوة والجرائم أكثر مما
ارتكب الآخر . تحت الأحقاد من القلب كل إحساس إنسانى « كانت في
ميليتوس حرب بين الأثرياء والفقراء . وقد تغلب الفقراء أولاً وأجبروا الأثرياء
على الفرار من البلدة . لكنهم أسفوا فيما بعد لعدم استطاعتهم ذبحهم فأخذوا
أطفالهم وجمعوهم في حظائر وسحقوهم تحت أظلاف الثيران . ثم دخل
الأثرياء البلدة مرة أخرى وأصبحوا السادة من جديد . وأخذوا بدورهم أطفال
الفقراء ودهنوهم بالقطران وأحرقوهم أحياء » (٢)

(١) أرسطو : السياسة ٥ : ٧ : ١٩ . بلوتارخوس : ليساندروس ١٩ .
(٢) هيراقليديس البنطى في أثينا يوس ١٢ : ٢٦ . - إنه لمن المألوف عادة اتهام
حكم العامة الأثينى بأنه كان لبلاد الاغريق القدوة في هذا الافتئات وهذه الانقلابات .
بينما ، على العكس ، تسكاد تكون أثينا هي المدينة الاغريقية الوحيدة المعروفة لنا التي
لم تر داخل جدرانها هذه الحرب الفظيعة بين الأثرياء والفقراء . لقد فهم هذا الشعب
الذكى الحكيم ، منذ اليوم الذى بدأت فيه سلسلة الانقلابات ، أنه يمشى نحو غاية
لا يستطيع أن ينقذ المجتمع منها غير العمل . ولذلك شجعه وجعله مبجلاً . فقد نص صولون
على أن كل رجل لا عمل له يحرم من الحقوق السياسية . وأراد بريكليس ألا يضع أى
رقيق يده في الآثار العظيمة التى أقامها ، واحتفظ بكل هذا العمل للرجال الأحرار .
هذا وقد كان الملك مجزأاً بحيث أنه كان يحصى في نهاية القرن الخامس ، في إقليم
أتيكا الصغير ، أكثر من عشرة آلاف مواطن من الملاك العقارين مقابل خمسة آلاف
فقط لم يكونوا ملاكاً (ديونيسيوس الهاليكارناسى De Lysia, 32) . ولذلك كانت أثينا
أقل اضطراباً من بقية بلاد الاغريق ، إذ أنها كانت تعيش في نظام اقتصادى خير من
نظام المدن الأخرى بقليل . كانت حرب الفقراء ضد الأثرياء موجودة فيها كما كانت
في سواها ، لكنها كانت فيها أقل عنفاً ولم تنشأ عنها اضطرابات بنفس الخطورة ، فاقترعت
على طريقة للضرائب والتكاليف (Litturgies) جلبت الخراب على الطبقة الثرية ، وعلى طريقة
قضائية أرعدتها وسحقها ، لكنها لم تذهب ، على الأقل ، إلى حد إلغاء الديون واقتسام الأراضى .

ماذا جرى لحكومة العامة عندئذ؟ إنها لم تكن مسؤولة تماماً عن هذه الاعتداءات وهذه الجرائم ، لكنها كانت أول من أصيب بها. لم تعد هناك قواعد ؛ هذا وحكم العامة لا يستطيع أن يعيش إلا بين أدق القواعد وأكثرها حظاً من المراعاة لم يعودوا يرون حكومات حقيقية بل أحزاباً في يدها السلطان . لم يعد الحاكم يباشر السلطة لمصلحة السلم والقانون ، بل لمصلحة حزبه ومطامعه . لم يعد للإمرة أسانيد شرعية ولا صفة مقدسة ؛ لم يعد في الطاعة شيء اختياري ؛ بل كانت قسرية ، تـَـعـِـدُ نفسها بالثأر دائماً . وكما يقول أفلاطون ، لم تعد المدينة سوى مجموعة من الناس جزء منها سيد والآخر رقيق . كانوا يقولون عن الحكومة إنها حكومة سرّاة عندما يكون الأثرياء في السلطة ، وحكومة عامة عندما يكون الفقراء فيها . وفي الحق أن حكم العامة بالمعنى الصحيح لم يعد موجوداً .

وقد تغير حكم العامة وفسد ابتداء من ذلك اليوم الذي تسربت إليه فيه الحاجات والمنافع المادية. فقد أصبح حكم العامة ، مع وجود السلطة في يد الأثرياء ، حكم أقلية عنيفة ؛ وأصبح حكم العامة ، في يد الفقراء ، هو الطغيان بعينه. نرى في جميع المدن الإغريقية والإيطالية ، من القرن الخامس إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، وفيما عدا روما كذلك ، أن الأشكال الجمهورية معرضة للخطر ، وأنها أصبحت بغیضة لأحد الأحزاب . هذا ويمكن أن نميز بوضوح من هم الذين يريدون أن يهدموها ، ومن هم الذين يريدون المحافظة عليها . بقى الأثرياء ، باعتبارهم أكثر استنارة وأكثر شمماً ، أوفياء للنظام الجمهوري ؛ بينما طاب للفقراء ، الذين تقل لديهم قيمة الحقوق السياسية ، أن يتخذوا طاغية رئيساً لهم . عند ما عرفت هذه الطبقة الفقيرة ، بعد عدة حروب أهلية ، أنه لا جدوى من انتصاراتها ، وأن الحزب المضاد يعود للسلطة دائماً ، وأنه بعد طول تقلبات المصادرة والاسترداد كان لا بد من العودة للنضال دائماً ، تصورت أن تقيم نظاماً ملكياً يتفق مع مصالحها ويضمن لها في المستقبل فوائد انتصارها بكم أنفاس الحرب المضاد على الدوام . ولهذا الغرض أقامت الطغاة .

ابتداء من هذه اللحظة غيرت الأحزاب أسماءها . لم يعد المرء من حزب السراة أو حزب العامة ؛ بل حارب من أجل الحرية أو حارب للطغيان . وتحت هذين اللفظين كانت الثروة والفقير هما اللذين يتحاربان . فالحرية معناها الحكومة التي يسود فيها الأثرياء ويدافعون عن أموالهم ؛ والطغيان يدل على عكس ذلك تماماً .

إنه لحدث عام في تاريخ بلاد الإغريق وإيطاليا ، ويكاد يخلو من الاستثناء ، أن الطغاة يخرجون من الحزب الشعبى ، وأن عدوهم هو حزب السراة . يقول أرسطو : « ليس للطاغية رسالة غير حماية الشعب ضد الأثرياء ؛ إنه بدأ دائماً قائداً للشعب ، ومن جوهر الطغيان محاربة السراة » . ويقول أيضاً : « الوسيلة للوصول إلى الطغيان هي اكتساب ثقة الجمهور ؛ وإنما تكتسب ثقته بإعلان المرء نفسه عدواً للأثرياء . هكذا فعل بيسيستراتيس (Pisistrate) في أثينا ، وثياغينيس (Théagène) في ميغارا ، وديونييسيوس في سيراكوسه . » (١)

يحارب الطاغية الأثرياء دائماً . في ميغارا ، فجأ ثياغينيس قطعان مواشى الأثرياء في الريف وذبحها . وفي كومه ، أبطل أرسطوديموس الديون وانتزع الأراضي من الأثرياء ليعطيها للفقراء . وهكذا فعل نيكوكليس في سيقويون ، وأرسطوماخوس في أرغوس . ويصور لنا الكتاب كل أولئك الطغاة قساة جداً ؛ وليس من المحتمل أنهم كانوا جميعاً كذلك بحكم الطبيعة بل بحكم الضرورة الملحة ، حين وجدوا أنفسهم مضطرين لإعطاء الفقراء أراضي أو أموالاً . لم يكن في استطاعتهم أن يبقوا في الحكم إلا بقدر إرضائهم لجشع الجمهور ورعايتهم لشهواته .

كان طاغية هذه المدن الإغريقية شخصية لا يستطيع أى شيء في أيامنا أن يصورها لنا . إنه رجل يعيش بين رعاياه من غير وسيط ولا وزراء وينزل بهم عقابه مباشرة . لم يكن في ذلك الوضع السامى المستقل الذى يشغله ملك دولة كبيرة . وكانت فيه كل الشهوات الصغيرة التى تكون في أفراد الناس : ولم يكن خلواً من الإحساس بمنافع المصادرة ؛ كان يدركه الغضب وتستولى عليه

(١) أرسطو : السياسية ٥ : ٨ : ٢ - ٣ : ٥ : ٤ : ٥ .

الرغبة في الانتقام الشخصى ؛ كان يخاف ، ويعلم أن له أعداء قرييين منه وأن
الرأى العام يرضى عن الاغتيال عند ما يكون القتل طاغية . ونستطيع أن نتصور
ما يمكن أن تكون حكومة رجل كهذا . فقيا عدا حالتين شريفتين ، أو ثلاث
حالات تعد شاذة ، لم يحكم الطغاة الذين قاموا فى جميع البلدان الإغريقية ،
فى القرنين الرابع والثالث ، إلا بتملقهم أسوأ شهوات الجمهور ، وبتحطيمهم
بالعنف كل ما كان سامياً بحكم المولد أو الثروة أو الجدارة . كان سلطانهم
لا حد له . وقد استطاع الإغريق أن يعرفوا إلى أى حد يسهل أن تتحول الحكومة
الجمهورية إلى استبدادية عند ما لا تقرر للحقوق الفردية باحترام كبير . أعطى
القدماء للدولة سلطاناً كبيراً ، فإذا ما قبض طاغية ذات يوم على هذه الهيمنة الشاملة
فإنه لم يعد يبق للناس أى ضمان معه وأصبح هو المسيطر شرعاً على حياتهم
وعلى أموالهم .

الفصل الثالث عشر

انقلابات اسـِـرطه

يجب ألا نعتقد أن اسـِـرطه قد عاشت عشرة قرون دون أن ترى الانقلابات بل ، على العكس ، يخبرنا ثوقيديديس «أنها كانت مباءة للفتن أكثر من أية مدينة إغريقية أخرى» (١). حقاً إننا لا نعرف من تاريخ هذه المنازعات الداخلية إلا قليلاً ، لكن مصدر ذلك أن حكومة اسـِـرطه جعلت من سنتها وعاداتها أن تحيط نفسها بأعمق الأسرار (٢) . فقد أخفت معظم المنازعات التي أثارت الاضطراب فيها وتركها للنسيان ؛ لكننا نعرف منها ، على الأقل ، ما يكفي للقول بأنه إذا كان تاريخ اسـِـرطه يختلف بدرجة محسوسة عن تاريخ البلدان الأخرى فإن ذلك لا يمنع من أنها اجتازت نفس السلسلة من الثورات .

كان الدوريون قد تكونوا في هيئة شعب عندما غزوا الـِـيلوپونيز . أي داع دعاهم للخروج من بلادهم ؛ أغزو من شعب أجنبي أم ثورة داخلية ؟ السبب مجهول . إنما يبدو مؤكداً أنه في تلك الفترة من وجود الشعب الدوري كان نظام الفصيلة القديمة قد اختفى . فلم يعد يميز لديه ذلك النظام العتيق للأسرة . ولم تعد توجد آثار من النظام الأبوي ولا بقايا من طبقة النبلاء الدينيين ولا الولاء الوراثة . لا يُرى غير محاربين متساويين تحت ملك . فمن المحتمل إذن أن ثورة اجتماعية أولى قد تمت ، إما وهم في إقليم دوريس (Doride) ، وإما في الطريق الذي أدى بهذا الشعب إلى اسـِـرطه . وإذا قورن المجتمع الدوري في القرن التاسع بالمجتمع اليوناني في نفس الفترة تبين أن الأول كان أكثر تقدماً من الثاني في سلسلة التغيرات ؛ لقد دخل الجنس اليوناني في طريق الانقلاب متأخراً ، لكن من الحق أنه اجتازها بسرعة أكبر من الثاني .

(١) ثوقيديديس ١ : ١٨ .

(٢) شرحه ٥ : ٦٨ .

ولو أن نظام الفصيلة لم يعد موجوداً عند الدورين عند وصولهم إلى اسبرطه إلا أنهم لم يكونوا قد استطاعوا عندئذ أن يتخلصوا منه تماماً بحيث لا تبقى لديهم بعض أنظمة منه، كعدم تجزئة الميراث وعدم التنازل عنه. ولم تلبث هذه الأنظمة أن أقامت سراة من جديد في المجتمع الاسبرطى .

ترينا جميع الآثار أنه في الفترة التي ظهر فيها ليكورغ كانت توجد طبقتان من الاسبرطيين وأنهما كانتا في نزاع (١) . كانت الملكية تميل ميلاً طبيعياً إلى التحيز للطبقة الدنيا . أما ليكورغ الذي لم يكن ملكاً فقد « وضع ، نفسه على رأس الأخبار (٢) . وأجبر الملك على أن يُنقسم قسماً يقلل من سلطته ، وأقام مجلس شيوخ من الأقلية . وأخيراً ، جعل الطغيان يتحول إلى سراة ، حسب تعبير أرسطو (٣)

ويجب ألا تغرنا طنطنة بعض القدماء والكثيرين من المحدثين عن حكمة أنظمة اسبرطه ، وعن السعادة التي لا مبدل لها التي كانوا يتمتعون بها فيها . وعن المساواة والحياة المشتركة . فقد كانت اسبرطه . من بين جميع البلدان التي وجدت على الأرض ، هي التي تحكمت فيها السراة بأشد قسوة ، والتي عرفت فيها المساواة أقل مما عرفت في سواها . يجب ألا نتكلم عن اقتسام الأراضي على أساس المساواة ؛ إذا كانت هذه المساواة قد وجدت في وقت ما فمن المؤكد أنها لم تبقى قائمة . إذ أنه في زمن أرسطو « كان البعض يملك ممتلكات شاسعة ولم يكن للبعض الآخر شيء أو يقرب من ألا يكون له شيء ؛ فلا يكاد يعد في جميع لاكونيا ألف من الملاك (٤) . »

لترك الهيلوتيس واللاكونيين جانباً ولنقتصر على فحص المجتمع الاسبرطى : نجد فيه سلماً من طبقات بعضها فوق بعض . فنجد أولاً النيوداموداي (Néodamodes)

(١) بلوتارخوس : ليكورغ ٨

(٢) شرحه : « *Τοὺς ἀρίστους προσῆγε* »

(٣) أرسطو : السياسة ٥ : ١٠ : ٣ (طبعة ديدو ص ٥٨٩) .

(٤) أرسطو : السياسة ٢ : ٦ : ١٨ و ١١ ؛ انظر بلوتارخوس : أغيس ٥

الذين يلوح أنهم أرقاء قد تحرروا (١) : ثم الإبيوناكتوى (Epeunactes) الذين سمح لهم أن يملؤوا الفراغ الذى أحدثته الحرب بين الاسرطيين (٢) ؛ وفى مرتبة أعلى من هذه بقليل يظهر الموثا كيس (Mothaces) الذين يشبهون الموالى المنزلين إلى حد ما فيعيشون مع السيد ويحيطون به ويشاركون فى مشاغله وأعماله وأعياده ويحاربون بجواره (٣) . ثم تأتى بعد ذلك طبقة النغلاء *νόθοι* الذين ينحدرون من اسرطيين حقيقيين ، وتقصيمهم عنهم الديانة والقانون (٤) ؛ ثم بعد ذلك طبقة كانوا يسمونها الأدياء (*ὑπομειονες*) (٥) وربما كانوا صغار الأسرة المحرومين من الميراث . وأخيراً ، فوق كل ذلك ، تقوم طبقة السراة المكونة من الرجال الذين كانوا يسمون الأكفاء (*ὁμοιοι*) ؛ والواقع أن هؤلاء الناس كانوا أكفاء فيما بينهم لكنهم أعلى بكثير من البقية الأخرى ؛ ولانعرف عدد رجال هذه الطبقة وإنما نعلم فقط أنه كان محدوداً جداً وقد أحصاهم أحد أعدائهم فى الميدان العام ذات يوم فلم يجد غير نحو الستين بين جمهور من ٤٠٠٠ فرد (٦) . وهؤلاء الأكفاء يساهمون دون سواهم فى حكومة المدينة . يقول اكسينوفون «لأن يكون الإنسان خارج هذه الطبقة معناه أنه خارج الهيئة السياسية .» (٧) ويقول ديموسثينيس أن الرجل الذى يدخل طبقة الأكفاء يصبح بمقتضى ذلك وحده «واحداً من سادة الحكومة» (٨) ويقول أيضاً «يسمونهم الأكفاء لأن المساواة يجب أن تسود بين أعضاء الأقلية الحاكمة» .

وهؤلاء الأكفاء هم دون سواهم أصحاب حقوق المواطن الكاملة ؛

(١) ميرون البرينى (Myron de priene) فى أثيناىوس ٦ .

(٢) ثيويومبوس فى أثيناىوس ٦ .

(٣) أثيناىوس ٦ : ١٠٢ . بلوتارخوس : كليثومينيس ٨ . إيليانوس ١٢ : ٤٣

(٤) أرسطو : السياسة ٨ : ٦ (٥ : ٦) . اكسينوفون : هلينيكا ٥ : ٣ : ٩ .

(٥) اكسينوفون : هلينيكا ٣ : ٣ : ٦ .

(٦) اكسينوفون : شرحه ٣ : ٣ : ٥ .

(٧) اكسينوفون : الجمهورية اللاقيديمونية ١٤ .

(٨) ديموسثينيس : ضد ليتينيس ١٠٧ .

ويؤلفون دون سواهم ما كان يسمى في اسبرطه الشعب أى الهيئة السياسية . ومن هذه الطبقة يخرج الشيوخ الثمانية والعشرون بطريق الانتخاب .

ويطلق على الدخول في سلك مجلس الشيوخ ، في اللغة الرسمية في اسبرطه ، الحصول على جائزة الفضيلة (١) . وإنا لا ندرى ماذا كان يجب من الكفاءة والمولد والثروة لتكوين هذه الفضيلة . ونرى جيداً أن المولد لم يكن كافياً طالما كان هناك على الأقل ما يشبه الانتخاب (٢) ؛ ويجب الاعتقاد بأنه كان للثروة حساب كبير في بلدة « كانت تحب المال إلى أقصى درجات الحب ، وحيث كان كل شيء مقبولا من الأثرياء » (٣) .

ومهما يكن فإن هؤلاء الشيوخ ، الذين كانوا غير قابلين للعزل كانوا يتمتعون بسلطة عظيمة جداً ، إذ أن ديموسثينيس يقول إنه في اليوم الذى يدخل فيه رجل إلى مجلس الشيوخ يصبح مستبداً في نظر الجمهور (٤) . كان مجلس الشيوخ هذا ، الذى كان الملوك مجرد أعضاء فيه ، يحكم الدولة طبقاً لطريقة هيئات السراة المألوفة ؛ وكان هناك حكام حوليون ، يعود إليه حق انتخابهم بطريق غير مباشر ، ويمارسون باسمه سلطة مطلقة . وهكذا كان لاسبرطه نظام جمهورى ، بل لقد كان لها كل مظاهر حكم العامة : ملوك كهنة ، ورجال دولة حوليون ، ومجلس شيوخ له حق المشاورة ، ومجمع للشعب . لكن هذا الشعب لم يكن سوى اجتماع مائتين أو ثلاثمائة رجل .

هكذا كانت حكومة اسبرطه منذ ليكورغ ، وعلى الأخص منذ قيام الإيفورات . كانت هناك سراة تتألف من بعض الأثرياء وتنوء بكل كل من حديد على الهيلوتيس وعلى اللاكونيين بل على السواد الأكبر من الاسبرطيين ،

-
- (١) *Ἀθλον* أو *Νικητήριον τῆς ἀρετῆς* أرسطو ٢ : ٦ : ١٥ : ديموسثينيس ضد لبيتينيس ١٠٧ . بلوتارخوس : ليكورغ ٢٦ .
 (٢) ينعت أرسطو (السياسة ٢ : ٦ : ١٨) هذه الطريقة في الانتخاب بأنها صبيانية *παιδαριωδής* وقد وصفها بلوتارخوس : ليكورغ ٢٦ .
 (٣) أرسطو : السياسة ٢ : ٦ : ٥ : ٥ : ٦ : ٧ .
 (٤) ديموسثينيس : ضد لبيتينيس ١٠٧ . اكسينوفون : حكومة اللايديمونيين .

وقد عرفت، بحكم همها ومهارتها ، وضآلة ذمتها ، وقلة اكترائها للقوانين الخلقية ، أن تحافظ على السلطة خلال خمسة قرون . لكنها أثارت ضغائن قاسية وكان عليها أن تخمد عدداً كبيراً من الثورات .

ليس لنا أن نتكلم عن مؤامرات الهيلوتيس . وليست كل مؤامرات الاسبرطيين معروفة لنا : فقد كانت الحكومة من فرط المهارة بحيث لم يكن يفوتها أن تحاول أن تخفى حتى ذكرها . بيد أن منها ما لم يستطع التاريخ أن ينسأه . نعلم أن المستعمرين الذين أسسوا تارنته كانوا من الاسبرطيين الذين أرادوا أن يقلبوا الحكومة . وقد عرفت بلاد الإغريق من كلمة مارقة من الشاعر تيرتايوس (Tyrteé) أن حزباً تأمر أثناء حروب مسينه للحصول على اقتسام الأراضي (١) .

إن ما أنقذ اسبرطه هو الانقسام البالغ الذي عرفت كيف تخلقه بين الطبقات الدنيا : لم يكن الهيلوتيس ليتفقون مع اللاكونيين ، وكان الموثاكيس يحتقرون النيوداموداي . لم يكن في الإمكان أى تحالف . ولقد كانت السراة بفضل تربيتها الحربية والاتحاد الوثيق بين أعضائها على كفاية من القوة دائماً لمقاومة كل واحدة من الطبقات المعادية .

حاول الملوك ما عجزت أية طبقة عن تحقيقه . فكان كل من أراد منهم الخروج من حالة الضعة ، التي وضعتهم السراة فيها ، يبحث عن تكأة لدى أهل الطبقة الدنيا . ففي خلال حرب الفرس وضع پوسانياس مشروعاً لرفع الملكية والطبقات الوضيعة معاً بقلب الأقلية الحاكمة فقضى عليه الاسبرطيون باتهامه بأنه عقد صلات مع ملك الفرس . وربما كانت جريمته الحقيقية أنه فكر في تحرير الهيلوتيس (٢) . ويمكن أن نعد في التاريخ كم بلغ عدد الملوك الذين نفاهم الإيفورات . وإن سبب هذه الأحكام لما يسهل التخرص به . وقد قاله

(١) أرسطو : السياسة ٥ : ٦ : ٢ .

(٢) شرحه ٥ : ١ : ٥ . ثوقيديديس ١ : ١٣ : ٢ .

أرسطو : «جعل ملوك اسبرطه من أنفسهم قادة للشعب لمقاومة الإيفورات ومجلس الشيوخ (١) .»

في سنة ٣٩٧ ، كادت مؤامرة تقلب حكومة الأقلية هذه . فإن شخصاً يدعى كينادون (Cinadon) ، لم يكن ينتمي إلى طبقة الأكفاء ، كان رئيساً للمتمارين ، وعندما كان يريد أن يضم رجلاً للمؤامرة كان يقوده إلى الميدان العام ويجعله يعد المواطنين ، وكانوا يبلغون بما فيهم الملوك والإيفورات والشيوخ حوالى السبعين وعندئذ يقول له كينادون : «هؤلاء الناس هم أعداؤنا ؛ أما جميع البقية الذين يملأون الميدان ويزيد عددهم على أربعة الآلاف فإنهم على العكس حلفاؤنا» ويضيف : « عند ما تلقى اسبرطيا في الريف اعتبره عدواً وسيداً ؛ أما الرجال الآخرون فإنهم جميعاً أصدقاء » . فاتخذ هذه المرة جميع الهيلوتيس واللاكونيين والنيوداموداي والهيپوميونييس *ὑπομεινεις* وكانوا شركاء لكينادون ؛ وذلك كما يقول المؤرخ « لأنه كان لديهم جميعاً من الحق على أسيادهم بحيث لم يكن بينهم واحد لا يعترف بأنه يلذ له أن يهتمهم من غيرطهى» لكن حكومة اسبرطه كانت حسنة الخدمة فلم يكن يخفى عليها سر . زعم الإيفورات أن أحشاء الأضاحى كشفت لهم عن المؤامرة فلم يتركوا للمتمارين وقتاً للعمل . ألقوا القبض عليهم وأهلكوهم سرّاً . وأنقذت الأقلية الحاكمة مرة أخرى . (٢) .

وبفضل هذه الحكومة استمر التفاوت في الازدياد على الدوام . وقد أدت حرب الپيلوپونيز والغزوات في آسيا إلى تدفق المال في اسبرطه . لكنه كان موزعاً بطريقة متفاوتة إلى درجة كبيرة ، ولم يُسْثَر منه إلا الذين كانوا أثرياء من قبل . وفي نفس الوقت اختفت الملكية الصغيرة . فتضاءل عدد الملاك ، الذى كان لا يزال حوالى الألف في زمن أرسطو ، إلى مائة بعده بقرن (٣) . كانت الأرض بأكملها في بضع أيدي ، ولم تكن هناك صناعة ولا تجارة تتيحان

(١) أرسطو : السياسة ٢ : ٦ : ١٤ .

(٢) اكسينوفون : هلينيكا ٣ : ٣ .

(٣) بلوتارخوس : أغيس ٥ .

للفقير عملاً ؛ وكان الأثرياء يزرعون أملاكهم الشاسعة بأيدي الأرقاء. في ناحية ، كان بضع رجال يملكون كل شيء ، وفي الناحية الأخرى ، السواد الأكبر لا يملك شيئاً ما. يقدم لنا بلوتارخوس في ترجمة حياة أغيس وفي ترجمة كايثومينيس صورة للمجتمع الاسيرطي . نرى فيها حباً هائماً للثروة ، كل شيء يعتبر دونها ؛ لدى بضع أفراد الترف والطراوة والرغبة في زيادة مالهم زيادة لاحد لها ؛ وفيما عدا ذلك ، لا شيء سوى جمهور بائس ، معدم ، ليست له حقوق سياسية ، وليست له أية قيمة في المدينة ، حسود ، حقود ، تقضى عليه مثل هذه الحالة الاجتماعية بالرغبة في الثورة .

عند ما دفعت الأقلية الحاكمة الأمور إلى أقصى حدودها الممكنة كان لا بد أن تم الثورة وأن يحطم حكم العامة حواجزه في النهاية بعد أن بقي زمناً طويلاً معطلاً محجوراً . وإن الإنسان ليحزر أيضاً أنه بعد ضغط كبير كهذا لم يكن في استطاعة حكم العامة أن يقف عند إصلاحات سياسية بل كان لا بد أن يصل إلى الإصلاحات الاجتماعية بالضربة الأولى .

كانت ضلالة عدد الاسيرطيين الذين كانوا هكذا بحكم المولد (فلم يكونوا يزيدون على أكثر من سبعمائة من مختلف الطبقات) ، وضعف الأخلاق كنتيجة لاضطهاد طويل سبباً في ألا تأتي الإشارة بالتغييرات من الطبقات الدنيا . ولقد جاءت من ملك . فقد حاول أغيس القيام بهذه الثورة ، التي لم يكن هناك بد من قيامها ، بوسائل مشروعة مما زاد في صعوبات مشروعه . قدم لمجلس الشيوخ ، أي للأثرياء أنفسهم ، مشروعين بقانون لإلغاء الديون واقتسام الأراضي . ولا مجال للإفراط في الدهشة من أن مجلس الشيوخ لم يرفض هذه الاقتراحات : إذ ربما اتخذ أغيس إجراءات ما لكي تقبل . لكن بعد التصويت على القوانين بقي تنفيذها . هذا وإن الإصلاحات التي من هذا القبيل تبلغ دائماً من صعوبة التنفيذ ما يجعل أكثر الناس جرأة يفشل فيها . فلما أوقف أغيس عند حد بفعل مقاومة الإيفورات . اضطر إلى الخروج عن الطريق الشرعي : فأقال هؤلاء الحكام وعين سواهم بمحض سلطته ؛ ثم سلح أنصاره وأقام نظاماً من الإرهاب مدة عام . وفي أثناء ذلك استطاع أن يطبق القانون الخاص بالديون وأحرق جميع مستندات الدين في الميدان العام . لكنه

لم يجد الوقت لتقسيم الأراضي . ولا ندري إن كان أغيس قد تردد وذعر من عمله أو أن الأقلية الحاكمة قد نشرت ضده اتهامات ماهرة ؛ لكن ما حدث هو أن الشعب انفصل عنه وتركه يهوى ، فذبجه الإيفورات وأعيدت حكومة السراة .

استأنف كليثومينيس مشروعات أغيس لكن في لباقة كبيرة وأمانة قليلة . بدأ بسفك دم الإيفورات وأبطل بجرأة هذا المنصب الذي كان بغيضاً عند الملوك وعند الحزب الشعبي ؛ ونفي الأثرياء ثم قام بالثورة بعد هذا الانقلاب فقرر قسمة الأراضي ومنح حق المدينة لأربعة آلاف من اللاكونيين . وجدير بالملاحظة أنه لا أغيس ولا كليثومينيس اعترف بأنه كان يقوم بثورة ، وأن كلا منهما كان يستمد سلطانه من اسم المشرع العتيق ليكورغ ويدعى أنه يعيد اسيرطه إلى العادات العتيقة . ومن المؤكد أن دستور كليثومينيس كان بعيداً عنها جداً . كان الملك في الحقيقة سيداً مطلقاً ؛ فما من سلطة كانت توازن سلطته ؛ كان يحكم على نمط الطغاة الذين كانوا عندئذ في معظم البلدان الإغريقية . ويلوح أن شعب اسيرطه كان قليل الاهتمام بالحريات العامة . راضياً بحصوله على الأراضي . لم يدم هذا الموقف طويلاً فقد أراد كليثومينيس أن ينشر نظام حكم العامة في جميع الپيلوپونيز . حيث كان أراتوس (Aratus) يعمل في تلك الفترة تماماً في إقامة نظام للحرية والسراة الحكيمة . فاضطرب الحزب الشعبي في جميع البلدان باسم كليثومينيس آملاً أن يحصل . كما حدث في اسيرطه ، على إلغاء الديون واقتسام الأراضي . وهذا الحياج غير المنظور من جانب الطبقات الوضيعة هو الذي اضطر أراتوس إلى تغيير كل مشروعاته ؛ لقد اعتقد أنه يستطيع الاعتماد على مقدونيه ، التي كانت سياسة ملكها أنتيغونوس دوسون (Antigone Doson) في ذلك الوقت ؛ أن يحارب الطغاة والحزب الشعبي في كل مكان ، فأدخلها في الپيلوپونيز . وقد هزم أنتيغونوس والأخيويون (Achéens) كليثومينيس في سيلاسيا (Sellasie) . وبذلك تحطم حكم العامة الاسيرطي مرة أخرى ، وأعاد المقدونيون الحكومة القديمة (سنة ٢٢٢ قبل الميلاد) .

لكنه لم يعد في استطاعة الأقلية الحاكمة أن تتساند . فكانت هناك اضطرابات طويلة ؛ ففي سنة من السنين سفك ثلاثة إيفورات موالين للحزب الشعبي دم رصيفهم : وفي السنة التالية كان الإيفورات الخمسة من حزب الأقلية الحاكمة فانتضى الشعب السلاح وذبّحهم جميعاً . لم تكن الأقلية الحاكمة تريد ملوكاً ؛ وأراد الشعب أن يتخذ ملوكاً . وقد عينوا واحداً ، واختاروه من خارج الأسرة المالكة ، وهو ما لم يرقط في اسيرطه . وقد أنزل هذا الملك المسمى ليكورغ عن العرش مرتين : المرة الأولى أنزله الشعب لأنه رفض أن يقسم الأراضي ، والمرة الثانية أنزلته السراة لأنهم كانوا يتهمون به بأنه أراد أن يقسمها . ولا ندرى كيف انتهى أمره . لكننا نرى بعده في اسيرطه طاغية يدعى ماخانيداس (Machanidas) ؛ وهذا دليل مؤكد على أن الغلبة كانت للحزب الشعبي .

وقد انتصر فيلوبيمين (Philopémen) ، الذي كان على رأس الحلف الأخيوى يحارب طغاة حكم العامة في كل مكان ، على ماخانيداس وقتله . وسرعان ما اتخذت حكومة العامة الاسيرطية طاغية آخر يدعى نابيس (Nabis) . وقد منح هذا الأخير حق المدينة لجميع الرجال الأحرار . وبذلك رفع اللاكونيين أنفسهم إلى مرتبة الاسيرطيين ؛ لقد ذهب إلى حد تحرير الهيلوتيس ؛ وجعل من نفسه رئيس الفقراء ضد الأثرياء طبقاً لعادة طغاة البلدان الإغريقية ؛ «ونفى أو أهلك أولئك الذين كانت ترفعهم ثروتهم فوق الآخرين» . (١)

لم تكن حكومة العامة الاسيرطية الجديدة لتخلو من العظمة . فقد أقام نابيس في لا كونيا نظاماً لم ير فيها منذ زمن طويل . وأخضع لاسيرطه إقليم ميسينه (Messénie) وجزءاً من أركاديا ، والإيليس (Elide) . واستولى على أرغوس . وكون بحرية ، وهو شيء كان بعيداً جداً عن الآثار القديمة للسراة الاسيرطية ؛ وتغلب بأسطوله على جميع الجزر التي تحيط باليلوبيونيز ، ونشر سلطانه حتى بلغ أقرطيش (كريت) . وأثار العامة في كل مكان ؛ وعندما أصبح سيداً على أرغوس كان أول اهتمامه مصادرة أموال الأثرياء وإلغاء الديون وتقسيم الأراضي

(١) بوليبيوس ١٣ : ٦ ؛ ١٦ : ١٢ ؛ تيتوس ليفيوس ٣٢ : ٣٨ : ٤٠ : ٣٤ :

ويمكن أن نرى في بوليبيوس كم كان الحلف الأخيوى حاقداً على هذا الطاغية من طغاة العامة . فحرّض فلامينيوس (Flamininus) على محاربته باسم روما . فانتضى عشرة آلاف لا كوئي السلاح علاوة على المرتزقة للدفاع عن ناييس وبعد أن هزم أراد أن يمنح للسلم ؛ لكن الشعب رفض ذلك . إلى هذا الحد كانت قضية الطاغية هي قضية حكم العامة ! وقد انتزع منه فلامينيوس بعد انتصاره جزءاً من قواته لكنه تركه يتملك في لاكونيا، إما لأن استحالة إعادة الحكومة القديمة كانت جلية جداً ، وإما لأن مصلحة روما كانت في أن يوازن الحلف الأخيوى ببعض الطغاة . وقد اغتيل ناييس ، فيما بعد ، بيد أحد الأيتوليين لكن موته لم يُعِدْ حكم الأقلية ؛ فقد ظلت التغيرات التي أدخلها على الحالة الاجتماعية باقية بعده ، ورفضت روما ذاتها أن تعيد اسيرطة إلى حالتها القديمة .

الكتاب الخامس
نظام البلديات يختفى

الفصل الاول

عقائد جديدة : الفلسفة تغير قواعد السياسة

رأينا فيما سبق كيف تكون نظام البلديات عند القدماء ؛ فإن ديانة عتيقة جداً قد أسست الأسرة أولاً ، ثم المدينة فيما بعد ؛ أقامت أولاً الشرع المنزلي وحكومة الفصيلة (*gens*) ، ثم القوانين المدنية والحكومة البلدية . كانت الدولة مرتبطة بالديانة ارتباطاً وثيقاً ؛ فقد أتت منها وكانت ممزجة بها . لهذا كانت الأنظمة السياسية ، في المدينة البدائية ، أنظمة دينية ؛ فقد كانت الأعياد احتفالات للعبادة ، والقوانين صيغاً مقدسة ، والملوك ورجال الدولة كهنة . ولهذا أيضاً كانت الحرية الفردية مجهولة ، ولم يستطع الرجل أن يخلص ضميره ذاته من هيمنة المدينة ، ثم أنه لهذا بقيت الدولة محدودة بحدود بلدة ، ولم تستطع قط أن تتخطى النطاق الذى خطه آلهتها القوميون فى الأصل . لم يكن لكل مدينة استقلالها السياسى فحسب بل كانت لها أيضاً عبادتها ومجموعة قوانينها . فالديانة والشرع والحكومة ، كل ذلك كان بلدياً . كانت المدينة هى القوة الحية الوحيدة ، لا شىء فوقها ، ولا شىء تحتها ؛ لم تكن هناك وحدة قومية ، ولا حرية فردية .

بقى علينا أن نقول كيف اختفى هذا النظام ، أى كيف تجردت الحكومة والديانة والشرع ، بعد تغيير مبدأ الاجتماع البشرى ، من هذه الصفة البلدية التى كانت لها فى الزمن العتيق .

يمكن أن نرجع انهيار النظام السياسى الذى خلقتة بلاد الإغريق وإيطاليا إلى أسباب رئيسية . أحدها من قبيل الأحداث الخلقية والفكرية ، والآخر من قبيل الأحداث المادية . الأول هو تغيير العقائد ، والثانى هو الفتح الرومانى . وهذان الحدثان الكبيران من عصر واحد ، وقد تطورا معاً وتمازجا معاً خلال سلسلة القرون الخمسة التى تسبق التقويم المسيحى .

لقد فسدت وهرمت تلك الديانة البدائية التي كان رمزها حجر الموقد الثابت وقبر الأسلاف ، تلك الديانة التي أنشأت الأسرة العتيقة ثم نظمت المدينة . وقد ازداد الذهن انبشري قوة وخلق لنفسه عقائد جديدة . فبدأوا بتكوين فكرة الطبيعة غير المادية ؛ واتضح فكرة الروح البشرية ، وفي نفس الوقت تقريباً انبثقت في الأذهان فكرة الإدراك الإلهي .

ماذا كان ظنهم عندئذ في معبودات العصر الأول ؟ وفي هؤلاء الأموات الذين كانوا يعيشون في القبر ؟ وهؤلاء الآلهة اللاريس (Lares) الذين كانوا بشراً ؟ وفي هؤلاء الأسلاف المقدسين الذين كان لا بد من الدأب على تغذيتهم بالأطعمة ؟ لقد أصبح مثل هذا الإيمان مستحيلاً . لم تعد مثل هذه العقائد في مستوى الروح البشري . حقاً إن هذه المعتقدات ، مهما بلغت من الحشونة ، لم تكن مما يسهل انتزاعه من ذهن العامة . وقد استمرت تهيمن عليه زمناً طويلاً بعد ذلك ؛ لكن المفكرين من الناس تحرروا من هذه الأخطاء منذ القرن الخامس قبل الميلاد . كانوا يفهمون الموت فهماً آخر ؛ فكان البعض يعتقد في الفناء ، والبعض الآخر في وجود رוחي محض في عالم من الأرواح ؛ وفي جميع هذه الأحوال لم يعودوا يقبلون فكرة أن الميت يعيش في القبر ويتغذى بالقرايين . كما بدأوا يكوّنون فكرة عالية جداً عن الشيء الإلهي بحيث لم يعد في استطاعتهم أن يدأبوا على الاعتقاد بأن الأموات آلهة . بل كانوا على العكس ، يتصورون الروح البشرية ذاهبة تبحث عن ثوابها في جنات النعيم (Champs Elysées) ، أو ذاهبة توفى عقاباً تكفيراً عن خطاياها . وقد أدى بهم تقدم ملحوظ إلى أنهم لم يعودوا يؤمنون من الناس إلا من كانوا يضعونهم فوق البشرية اعترافاً بجميلهم أو تملقاً لهم .

تبدلت فكرة المعبود شيئاً فشيئاً كأثر طبيعي لزيادة سلطة الذهن . هذه الفكرة ، التي طبقها الإنسان أولاً على القوة غير المنظورة التي كان يشعر بها في نفسه ، نقلها إلى القوى التي تكبرها بما لا يقاس عليه ، تلك التي كان يراها في الطبيعة ، وذلك انتظاراً للزمن الذي يرتفع فيه إلى فكرة كائن خارج عن الطبيعة وفوق الطبيعة . عندئذ فقد الآلهة اللاريس والأبطال عبادة كل ذي فكر .

أما الموقد ، الذى يلوح أنه لم يكن له معنى إلا بقدر ما كان يلزم عبادة الموتى ، فإنه فقد مكانته كذلك . استمروا يحوزون فى بيوتهم موقداً منزلياً ويحيونه ويعبدونه ويقدمون له السوائل المراقبة ؛ لكن ذلك لم يكن سوى عبادة ولدتها العادة ، لا يبعث الحياة فيها أى إيمان .

وقد هوى موقد البلدان أو بيت النار (بريتانيون) تدريجياً فى المهانة التى هوى فيها الموقد المنزلى . لم يعودوا يفهمون ماذا يعنى . ونسوا أن نار بيت النار ، الحية على الدوام ، تمثل حياة الأسلاف الخفية ، حياة المؤسسين ، حياة الأبطال القوميين . لقد استمروا يرعون هذه النار ، ويقدمون الأكلات العامة ، ويرتلون الأناشيد القديمة . احتفالات لا طائل وراءها ، لم يجروا على لتخلص منها ؛ لكنه لم يعد أحد يدرك معناها .

حتى معبودات الطبيعة التى أشركوها مع الموقد غيرت صفاتها . فبعد أن بدأت معبودات منزلية ، وبعد أن أصبحت معبودات مدنية ، استمرت فى التغيير . وانتهى الأمر بأن رأى الناس أن الكائنات المختلفة التى كانوا يسمونها باسم جوبيتر يمكن ألا تكون سوى كائن واحد بذاته ، وكذلك الآلهة الآخرون . وقد حار الذهن فى تعدد المعبودات وشعر بالحاجة إلى اختزال عددها . أدركوا أن الآلهة لا ينتمى كل واحد منها لأسرة أو لبلدة وإنما تنتمى جميعاً للجنس البشرى وتسهر على البكون . كان الشعراء يتنقلون من بلدة إلى بلدة ويعلمون الناس بدلاً من أناشيد المدينة القديمة ، أغاني جديدة لا يدور الكلام فيها على آلهة لا ريس ولا معبودات مدنية بل تقرأ فيها أساطير الآلهة العظام ، آلهة الأرض والسماء ؛ ونسى الشعب الإغريق أناشيده المنزلية والقومية القديمة من أجل هذا الشعر الجديد الذى لم يكن وليد الديانة بل وليد الفن والخيال الحر . وفى نفس الوقت كانت بعض المعابد الكبيرة كمعبد دلفوى ومعبد ديلوس تجذب الناس وتنسبهم العبادات المحلية . وكانت الأسرار والتعاليم التى تنطوى عليها تعودهم احتقار ديانة المدينة الخوفاء التافهة .

وهكذا تمت ببطء وفى الخفاء ثورة فكرية . لم يقاومها أحد ، حتى الكهنة . فطالما كانت القرابين لا تزال تقدم فى الأيام المعينة كان يلوح لهم أن الديانة

سليمة ؛ كان في الإمكان أن تتغير الآراء وأن تبيد العقيدة على شرط ألا تشوب الشعائر أية شائبة . وبذلك تحولت العقائد وفقدت الديانة المنزلية والبلدية كل سلطان على الأرواح دون أن تتحول الشعائر .

ثم ظهرت الفلسفة وقلبت كل قواعد السياسة القديمة . كان من المحال المساس بآراء الناس دون المساس بمبادئ حكومتهم الأساسية أيضاً . كانت عند فيثاغوروس فكرة مبهمة عن الكائن الأعلى ولذلك ازدرى العبادات المحلية ، وقد كان ذلك كافياً لكي ينبذ نماذج الحكومة القديمة ويحاول تأسيس مجتمع جديد .

أدرك أناكساغوراس (Anaxagore) الإله الذي هو عقل (Dieu-Intelligence) ذلك الذي يهيمن على جميع الناس وعلى جميع الكائنات . وبابتعاده عن العقائد القديمة ابتعد أيضاً عن السياسة القديمة . وحيث أنه لم يكن يعتقد في آلهة بيت النار فإنه لم يكن يقوم كذلك بجميع واجباته كمواطن ؛ كان يهرب من المجمع ولم يرد أن يكون من رجال الدولة . كان مذهبه يضر بالمدينة ، فحكم عليه الأثينيون بالإعدام .

ثم جاء بعد ذلك السفسطائيون وكان لهم أثر أكبر من أثر هذين المفكرين العظمين : كانوا قوماً متحمسين لمحاربة الأخطاء القديمة . وفي القتال الذي اشتبكوا فيه ضد كل ما يتعلق بالماضي ، لم يحترموا أنظمة المدينة أكثر مما كانوا يحترمونها أخطاء الديانة . ففحصوا القوانين التي كانت لا تزال تحكم الدولة والأسرة ، وجادلوا فيها بجرأة شديدة . كانوا ينقلون من بلدة إلى بلدة يبشرون بمبادئ جديدة ، لم يكونوا يُعَلِّمون تماماً عدم الاكتراث بما هو عادل أو غير عادل ، بل كانوا يعلمون عدالة جديدة أقل ضيقاً وأقل صدأً من القديمة ، عدالة أقرب إلى الإنسان والعقل . ومجردة من صيغ العصور الخالية . لقد كانت مهمة جريئة أثارت عاصفة من الأحقاد والضغائن . اتهموهم بأنهم قوم لادين لهم ولا أخلاق ولا وطنية . والحق أنه لم يكن لهم ، في جميع هذه الأمور ، نظرية محددة . وكانوا يعتقدون أنهم عملوا ما فيه الكفاية بمحاربتهم

الآراء المبيتة . كانوا يقلقلون ، كما يقول أفلاطون ، ما كان ثابتاً إلى ذلك اليوم . كانوا يضعون قاعدة العاطفة الدينية وقاعدة السياسة في الضمير الإنساني ، لا في عادات الأسلاف ، لا في الأثارة التي لا تبديل فيها . كانوا يُعَلِّمون الإغريق أنه لا يكتفى لحكم دولة أن يستند الإنسان إلى السنن القديمة والقوانين المقدسة ، بل كان لا بد من إقناع الناس والتأثير على إرادات حرة . فاستبدلوا بمعرفة العادات العتيقة فنون الجدل والتحدث والكلام والبلاغة . كانت الأثارة في صف خصومهم ؛ وكانت لهم الفصاحة والفكر .

وعندما استيقظ التأمل بهذه الوسيلة لم يعد الإنسان يريد أن يعتقد في شيء دون أن يدقق في عقائده ، ولا أن يحكم دون أن يناقش في أنظمته . فارتأب في عدالة قوانينه الاجتماعية القديمة ، وبدأت له مبادئ أخرى . يُنْطِقُ أفلاطون بهذه الكلمات الجميلة أحد السفسطائيين : «أنتم جميعاً الذين هنا ؛ إنى أعتبركم أقارب فيما بينكم . فقد جعلتكم الطبيعة مواطنين عند انعدام القانون . لكن القانون ، هذا الطاغية المستبد بالإنسان ، يتعدى حدود الطبيعة في مناسبات شتى . إن معارضة الطبيعة بالقانون والعادة ، على هذا النحو ، إنما هي هجوم على أساس السياسة القديمة ذاته . عبثاً طرد الأثينيون پروتاغوراس وأحرقوا مؤلفاته ؛ لقد نزلت النازلة . كانت نتيجة تعليم السفسطائيين عظيمة جداً ، فقد اختفت سلطة الأنظمة مع سلطة الآلهة القوميين واستقرت عادة الفحص الحر في المنازل وفي الساحة العامة .

كان سقراط من مدرستهم بالرغم من تنديده بمغالة السفسطائيين في حق الارتباب . كان يرفض مثلهم سلطان الأثارة ويعتقد أن قواعد السلوك منقوشة في الضمير الإنساني . وكان لا يختلف عنهم إلا في أنه كان يدرس هذا الضمير دراسة دينية وبرغبة صادقة في أن يجد فيه الإلزام بالعدالة وفعل الخير . كان يضع الحق فوق العادة ، والعدل فوق القانون . خلص الأخلاق من الديانة : كانوا قبله لا يدركون الواجب إلا كقرار من الآلهة القدماء ، فدلل على أن مبدأ الواجب كائن في روح الإنسان . وفي جميع ذلك كان يحارب عبادات المدينة ، أراد أم لم يرد . عبثاً كان يعنى بحضور جميع الأعياد ويشارك في القرابين ؛ كانت عقائده وأقواله تكذب سلوكه . كان يؤسس ديانة جديدة

هى تقيض ديانة المدينة . اتهموه بحق بأنه « لم يكن يعبد الآلهة الذين كانت تعبدهم المدينة » . أعدموه لأنه هاجم عادات الأسلاف وعقائدهم أو ، كما كانوا يقولون ، لأنه أفسد الحيل الحالى . ويمكن تفسير عدم محبة الشعب لسقراط ، وسخائم مواطنيه العنيفة ، إذا ما فكرنا فى العادات الدينية لهذا المجتمع الأثينى الذى كان فيه كل هذا القدر من الكهنة ، وكان لهم فيه سلطان عظيم . لكن الثورة التى بدأها السفسطائيون والتى استأنفها سقراط فى كثير من الاقتصاد لم يوقفها موت شيخ هرم . فقد تحرر المجتمع الإغريق من سلطان العقائد القديمة والأنظمة الهرمة كل يوم أكثر من سابقه .

تناقش الفلاسفة بعده فى حرية تامة فى مبادئ المجتمع الإنسانى وفى قواعده ، وكتب أفلاطون وكريتون وأنتيستينيس (Antisthènes) وسوسيبوس (Seusippe) وأرسطو وثيوفراسطوس وكثيرون سواهم مؤلفات عن السياسة . بحثوا وفحصوا ، فأصبحت مسائل تنظيم الدولة ، والسلطة والطاعة ، والالتزامات والحقوق ، مطروحة أمام جميع الأذهان .

لا ريب أن الفكر لا يمكن أن يتخلص فى سهولة ويسر من الروابط التى خلقتها له العادة . لا زال أفلاطون خاضعا فى بعض النقط لسلطان الآراء القديمة . فالدولة التى يتصورها لازالت هى المدينة العتيقة ؛ إنها ضيقة ، لا ينبغى أن تضم إلا خمسة آلاف عضو . لازالت الحكومة فيها تنظمها المبادئ القديمة ، والحرية مجهولة فيها . لم يكن الغرض الذى يهدف إليه الشارع هو كمال الإنسان بقدر ما كان أمن المجتمع وعظمته . بل كادت تخنق الأسرة ذاتها كيلا تنافس المدينة . كانت الدولة وحدها مالكة ، هى وحدها حرة ، هى وحدها لها إرادة ، وهى وحدها لها ديانة وعقائد ؛ وكل من لا يفكر مثل تفكيرها يجب إعدامه . بيد أنه وسط ذلك كله ، بزغت الآراء الجديدة . إذ يعلن أفلاطون ، كما أعلن سقراط ، وكما أعلن السفسطائيون ، أن قاعدة الأخلاق والسياسة كامنة فينا نحن أنفسنا ، وأن الآثار ليست شيئا ما ، وأنه يجب الرجوع إلى العقل ، وأن القوانين لا تكون عادلة إلا بقدر ما تتفق مع الطبيعة البشرية .

وهذه الآراء تعد أكثر وضوحاً من ذلك عند أرسطو ، إذ يقول « القانون هو العقل » . ويعلمنا أنه يجب ألا نبحث عما هو متفق مع عادة الآباء بل عما هو حسن في ذاته . ويضيف أنه كلما تقدم الزمن يجب تعديل الأنظمة . وهو ينحى احترام الأسلاف جانباً ، إذ يقول : « إن آباءنا الأوائل ، سواء ولدوا من باطن الأرض أو نجوا من طوفان ما ، كانوا يشبهون أكثر الناس اليوم عامة وأعظمهم جهلاً ، كما تدل على ذلك جميع الظواهر . ومن السخف الواضح أن نتمسك برأى هؤلاء الناس » . كان أرسطو ، كما كان جميع الفلاسفة ، يجهل الأصل الديني للمجتمع الإنساني جهلاً مطلقاً ؛ فهو لا يتكلم عن بيوت النار (پريتانيا) ؛ ويجهل أن هذه العبادات المحلية كانت أساس الدولة فيقول « الدولة ما هي إلا جماعة من كائنات متكافئة تبحث معاً عن أساس جديد تستطيع أن تقر عليه القوانين الاجتماعية وفكرة الوطن » (١) .

تذهب المدرسة الكليية (école cynique) إلى أبعد من ذلك . فهي تنكر الوطن ذاته . كان يتباهى ديوجينيس (Diogène) بأنه ليس له حق المواطن في أى مكان ، وكان قراطيس (Cratès) يقول إن وطنه هو إزدراء آراء الآخرين . وكان الكليون يضيفون هذه الحقيقة ، التي كانت جديدة وقتذاك ، وهي : أن الإنسان مواطن للعالم ، وأن الوطن ليس هو النطاق الضيق لبلدة ما . كانوا يعتبرون الوطنية البلدية ضلالاً ، ويحذفون حب المدينة من بين العواطف .

كان الفلاسفة يبتعدون ، كل يوم أكثر من سابقه . عن الشؤون العامة إما اشمئزاً وإما إزدراء . كان سقراط لا يزال يقوم بواجبات المواطن ؛ وحاول أفلاطون أن يعمل للدولة عن طريق إصلاحها ، وكان أرسطو أقل اكترائاً منه ، واكتفى بدور الملاحظ ، وجعل من الدولة موضوعاً لدراسات علمية . أما الإبيقوريون فقد طرحوا الشؤون العامة جانباً . فكان يقول إبيقوروس « لاتضعوا أيديكم فيها إلا إذا ألزمتكم بذلك سلطة عليا » . وأما الكليون فإنهم لم يريدوا حتى أن يكونوا مواطنين .

(١) أرسطو : السياسة ٢ : ٥ : ١٢ : ٤ : ٥ : ٤ : ٧ : ٢ : ٧ : ٤ : ٦ : ٤ .

عاد الرواقيون إلى السياسة. كتب زينون وكليانثيس (Cléanthe) وخريسيبوس مؤلفات عدة عن حكومة الدول. لكن مبادئهم كانت بعيدة جداً عن السياسة البلدية القديمة. وها هي ذى العبارات التي عرفنا بها أحد القدماء بالمذاهب التي كانت تنطوي عليها مؤلفاتهم: «كان زينون في مؤلفه عن الحكومة يرمى إلى أن يرينا أننا لسنا سكان هذا الحي أو هذه البلدة ويفصل بعضنا عن بعض شرع خاص وقوانين ما نعة بل يجب أن نرى في جميع الناس مواطنين كما لو كنا ننتمي جميعاً للحي ذاته وللمدينة نفسها» (١). ومن هنا نرى أى طريق قطعت الآراء من سقراط إلى زينون: كان سقراط لا يزال يعتقد أنه ملزم بعبادة آلهة الدولة بقدر ما يستطيع. ولم يكن أفلاطون يتصور حكومة غير حكومة المدينة؛ أما زينون فإنه تخطى هذه الحدود الضيقة للمجتمع الإنساني، وازدري التقسيمات التي أقامتها ديانة العصور القديمة. وكما تصور إله الكون فقد كانت عنده أيضاً فكرة دولة يدخل فيها الجنس البشري بأكمله (٢).

لكن ها هو ذا مبدأ أحدث من ذلك، فقد وسع مذهب الرواقيين المجتمع البشري، وبذلك حرر الفرد. وما دام يرفض ديانة المدينة، فقد كان يرفض أيضاً استرقاق المواطن. لم يرد بعد اليوم أن يضحى بالشخصية البشرية من أجل الدولة. كان يميز ويفصل بجلاء ما يجب أن يبقى حراً من الإنسان، ويحرر الضمير على الأقل. كان يقول للإنسان إنه يجب عليه أن ينطوي على نفسه وأن يجد في ذاته الواجب والفضيلة والثواب. لم يكن يحرم عليه أن يشغل نفسه بالشؤون العامة، بل كان يدعو إليها؛ لكنه كان ينبذ إلى أن يكون الهدف الذي يرمى إليه عمله الرئيسي هو تحسين ذاته، وأنه مهما تكن الحكومة، يجب أن يبقى ضميره مستقلاً. إنه لمبدأ عظيم، تجاهلته المدينة العتيقة على الدوام، لكن كان مصيره أن يكون ذات يوم قاعدة من أقدم قواعد السياسة.

(١) بلوتارخوس المزعوم: حظ الإسكندر ١.

(٢) فكرة المدينة العالمية عبر عنها سنيكا (إلى ماركيا) (Ad Marciam)؛ راحة

البال (De tranquillitate) (١٤)؛ وبلوتارخوس (عن النفي)، وماركوس أوريليوس: «باعتباري أنطونينوس، وطني روما؛ وباعتباري إنساناً، وطني العالم»

بدأوا عندئذ يدركون أن هناك واجبات أخرى غير واجباتهم نحو الدولة وفضائل أخرى غير الفضائل الوطنية . تعلق الروح بأمور أخرى غير الوطن . كانت المدينة القديمة من السلطان والطغيان بحيث جعلها الإنسان هدف كل أعماله وجميع فضائله ، كانت هي القاعدة لما هو جميل وخير ؛ ولم تكن هناك بطولة إلا في سبيلها . لكن ها هو ذا زينون يعلم الإنسان أن هناك كرامة لا للمواطن بل للإنسان ؛ وأنه زيادة على واجباته نحو القانون فإن عليه واجبات نحو نفسه ؛ وأن الفضل الأكبر ليس في العيش أو الموت في سبيل الدولة ، بل في أن يكون المرء من ذوى الفضيلة وأن يُرضى المعبود . فضائل فيها شيء من الأثرة ، تركت الاستقلال القومى والحرية يهويان ، ولكن الإنسان قد عظم بها . استمرت الفضائل العامة في الذبول ، لكن الفضائل الشخصية قد انطلقت وظهرت في العالم . وكان عليها في البدء أن تناضل ، إما ضد الفساد العام ، وإما ضد الاستبداد . لكنها تأصلت شيئاً فشيئاً في الإنسانية ؛ وأصبحت بمضى الزمن سلطة يجب على كل حكومة أن تحسب لها حساباً، وكان لا بد أن تتغير قواعد السياسة لكي تجد هي مكاناً حراً .

وهكذا تحولت العقائد شيئاً فشيئاً ؛ انقرضت الديانة البلدية التي تأسست عليها المدينة . وكان لا بد أن يسقط معها نظام المدينة كما تصوره القدماء . انفصلوا ، في تدرج غير محسوس ، عن هذه القواعد الصارمة ، وعن هذه الأشكال الضيقة التي كانت عليها الحكومة . كانت هناك آراء أسمى من ذلك تدعو الناس إلى تكوين مجتمعات أوسع . كانوا مدفوعين نحو الوحدة ؛ تلك كانت الأمنية العامة للقرنين السابقين للميلاد المسيحى . حقاً إن الثمار التي أنتجتها هذه الثورات الفكرية بطيئة النضوج جداً . لكننا سوف نرى عند دراسة الفتح الرومانى أن الحوادث كانت تسير في نفس الاتجاه الذى كانت تسير فيه الأفكار ، وأنها كانت تتجه مثلها نحو انهيار النظام المدنى القديم ، وأنها كانت تبعده نماذج جديدة للحكم .

الفصل الثانى

الفتح الرومانى

بلوح، لأول وهلة، أنه من المدهش كل الدهشة أن وجدت بين الآلف مدينة ، التى كانت فى بلاد الإغريق وإيطاليا ، مدينة كانت لها القدرة على إخضاع جميع المدن الأخرى . بيد أن هذا الحدث الهام يمكن تفسيره بالأسباب العادية التى تحدد سير الشؤون العامة. كان مضمون الحكمة الرومانية، كمضمون أية حكمة أخرى . هو الاستفادة من الظروف المواتية التى تلقاها . يمكن أن نميز فى عمل الفتح الرومانى فترتين ، إحداهما تتفق مع الزمن الذى كان لا يزال للروح المدنية القديمة قوة كبيرة فيه ، وفى تلك الفترة كان على روما أن تغلب على العدد الأكبر من العقبات . وتتبع الثانية الزمن الذى ضعف فيه الروح البلدى ضعفاً شديداً ، وعندئذ أصبح الفتح سهلاً وتم فى سرعة كبيرة

١ - بضع كلمات عن نشأة روما وسكانها.

نشأة روما وتكوين أهلها جديران بالملاحظة . وهما يفسران الطابع الخاص الذى امتازت به سياستها ، والدور الاستثنائى الذى كان ، منذ البدء ، من نصيبها بين المدن الأخرى .

كان الجنس الرومانى مختلطاً اختلاطاً غريباً . فالطبقة الأساسية منه لاتينية وأصلها من ألبا ؛ لكن آثارات، لا يسمح لنا أى نقد برفضها، ترينا أن هؤلاء الألبين أنفسهم كانوا يتكونون من نوعين من الأهالى مشتركين وليساً ممتزجين : أحدهما هو الجنس الأصلى ، وهم لاتينيون حقيقيون ؛ والآخر من أصل أجنبى يقال إنه أتى من طروادة مع إينياس (Enée)، الكاهن المؤسس ، وتدل جميع

المظاهر على أنه كان قليل العدد لكنه كان يعتد به من ناحية العبادة والأنظمة التي جلبها معه (١) .

هؤلاء الألبيون ، وهم خليط من الجنسيتين ، أسسوا روما ، في موضع كانت تقوم فيه من قبل بلدة أخرى ، اسمها بالانتيوم (Pallantium) ، كان قد أسسها بعض الإغريق . هذا وقد بقي أهل بالانتيوم في البلدة الجديدة ، وبقيت فيها شعائر العبادة الإغريقية (٢) . كما كانت توجد ، في المكان الذي وجد فيه الكايتوليوم فيما بعد ، بلدة تسمى ساتورنيا (Saturnia) يقال إنه أسسها بعض الإغريق (٣) .

وهكذا تشترك جميع الأجناس في روما ، وتختلط : ففيها لا تينيسون وطرواديون وإغريق ؛ وسيكون فيها قريباً ساينينون وإتروسك . تأمل التلال المختلفة : البالاتينوس (Palatinus) هو البلدة اللاتينية ، بعد أن كان بلدة إيفاندروس ؛ الكايتولينوس (Capitolinus) ، بعد أن كان مسكن أصحاب هيراقليس ، أصبح مسكن الساينينيين أتباع تاتوس (Tatius) ؛ وقد تلقى الكويريناليس (Quirinalis) اسمه من الكويريتين الساينينيين ، ومن الإله الساينيني كويرينوس ؛ ويلوح أن الكويليوس (Coelius) كان يسكنه الإتروسك من الأصل (٤) . لم تكن روما تبدو كبلدة واحدة ، بل كانت تبدو كاتحاد من عدة بلدان ترتبط كل واحدة منها ، بحكم أصلها ، بحلف آخر . كانت المركز الذي يلتقي فيه اللاتينيون والإتروسك

(١) كان أصل روما الطروادي فكرة مقبولة حتى قبل أن توجد صلات مستمرة بين روما والشرق . فقد أعطى عراف قديم للرومان لقب *trojugena* في نبوءة تتعلق بالحرب البونية الثانية ؛ (تيتوس ليفيوس ٢٥ : ١٢) .
(٢) تيتوس ليفيوس ١ : ٥ و ٧ . فرجيلوس ٨ . أوفيدوس : الأعياد ١ : ٥٧٩ . بلوتارخوس : مسائل رومانية ٧٦ . استرابون ٥ : ٣ : ٣ . ديونيسيوس ١ : ٣١ ، ٨٩ ، ٧٩ .

(٣) ديونيسيوس ١ : ٤٥ ؛ ١ : ٨٥ . فارون : اللسان اللاتيني ٥ : ٤٢ . فرجيلوس ٨ : ٣٥٨ . بلينيوس : التاريخ الطبيعي ٣ : ٦٨ .
(٤) اعتقد القدماء دائماً أن من بين أسماء القبائل الثلاث الأصلية ، واحداً لاتينياً والآخر ساينياً والثالث إتروسكياً .

والساييليون (Sabelliens) (١) والإغريق .

كان أول ملوكها لاتينيا ؛ والثاني ، طبقاً للأثارة ، ساينيا ؛ والخامس ، فيما يقال ، ابن اغريقى ؛ وكان السادس إتروسكيا (٢) .

وكان لسانها مزيجاً من أكثر العناصر تبايناً ؛ كانت اللاتينية تسود فيه ؛ لكن الأصول الساييلية كانت كثيرة العدد فيه . وكانت توجد أصول كلمات إغريقية أكثر مما كانت في أية لهجة من لهجات إيطاليا الوسطى . أما اسمها ذاته فلا ندرى إلى أية لغة ينتمى . ففي رأى البعض أن روما كلمة طروادية ؛ وفي رأى آخرين أنها كلمة إغريقية ، وهناك أسباب للاعتقاد بأنها لاتينية ، لكن بعض القدماء كان يعتقد أنها إتروسكية .

كما تشهد أسماء الأسرات الرومانية باختلاف كبير في الأصول . ففي عهد أغسطس كانت لا تزال توجد نحو الخمسين أسرة تتصل ، عندما تصعد في سلسلة أسلافها ، إلى أصحاب إينياس (٣) . وأسرار أخرى تدعى أنها من نسل الأركاديين أتباع إيفاندروس ، ومنذ زمن لاتيعه الذاكرة كان رجال هذه الأسرات يحملون على أحذيتهم هلالاً صغيراً من الفضة كعلامة مميزة (٤) . كانت الأسرتان پوتيتيا (Potitia) وپيناريا (Pinaria) تنحدران ممن كانوا يسمونهم أصحاب هيراقليس ، وتدل عبادة هذا الإله الموروثة على أصلهم (٥) . أما آل توليوس (Tullius) وآل كوينكتيوس (Quinctius) وآل سرفيليوس (Servilius) فقد جاءوا من ألبا بعد الاستيلاء على هذه البلدة . كان الكثير من الأسرات تضيف إلى اسمها لقباً يذكّر بأصلها الأجنبي ، وهكذا

(١) الساييليون هم السابينيون والاسم الأول كثيراً ما يستعمل في الشعر - العرب .

(٢) هؤلاء الملوك الستة هم على الترتيب : رومولوس ؛ نوما بومبيليوس ، تولوس هوستيليوس ، انكوس مارتئوس ، تاركوينيوس . — العرب .

(٣) Denys, I, 85: 'Εκ τοῦ Τρωικοῦ τὸ εὐγενέστατον νομιζόμενον, ἐξ οὗ

γενεαί τινες ἔτι περιῆσαν εἰς ἑπτὰ, πενήκοντα μάλιστα οἴκοι.

١ : ٩٩ ؛ سرفيوس : Ad Aen. : ٥ : ١١٧ ؛ ١٢٣ .

(٤) بلوتارخوس : مسائل رومانية ٧٦ .

(٥) تيتوس ليفيوس ١ : ٧ ؛ ٩ : ٢٩ .

كان يوجد آل سولبيسيوس كاميرينوس (Sulpicius Camerinus) وآل كومينيوس أورونكوس (Cominius Auruncus) وآل سيكينيوس ساينوس (Sicinius Sabinus) وآل كلوديوس ريغيلينسيس (Claudius Regillensis) وآل أكويليوس توسكوس (Aquillius Tuscus) . كانت أسرة نوتيا (Nautia) طروادية وآل أوريليوس (Aurelius) ساينيين ؛ وقد جاء آل كيكيليوس (Caecilius) من برينسته (Préneste) ؛ وأصل آل أوكتافيوس (Octavius) من فيليترة (Vélitres) .

كان من أثر هذا الخليط المركب من أكثر الشعوب تبايناً أنه كان لروما صلات أصل مع جميع الشعوب التي كانت تعرفها . كانت تستطيع أن تزعم أنها لاتينية مع اللاتينيين ، ساينية مع الساينيين ، إتروسكية مع الإتروسك ، وإغريقية مع الإغريق .

وكذلك كانت عبادتها القومية تجتمعاً من عدة عبادات متباينة تبايناً لا نهاية له ، وكل واحدة منها تربطها بشعب من هاتيك الشعوب . كانت فيها عبادتا إيفاندروس وهيراقليس الإغريقيتان ؛ وكانت تفخر بأن في حيازتها رمز طروادة الواقى . وكانت آلهتها البناتس في بلدة لافينيوم اللاتينية . واتخذت منذ البدء عبادة الإله كونسوس (Consus) الساينية . وقد تأصل لديها إله سايني آخر ، كويرينوس (Quirinus) ، تأصلاً بلغ من شدته أنها أشركته مع رومولوس مؤسسها . كما اتخذت آلهة الإتروسك ، وأعيادهم ، وعرافتهم ، وحتى شاراتهم الكهنوتية .

في زمن لم يكن لأحد فيه حق الحضور في الأعياد الدينية لأمة ما إلا إذا كان ينتمى إلى هذه الأمة بحكم المولد ، كان للرومان هذه الميزة التي لا تضارع وهي استطاعتهم أن يساهموا في الأعياد اللاتينية ، وفي الأعياد الإتروسكية ، وفي الألعاب الأولمبية (١) . هذا وقد كانت الديانة رابطة قوية . عندما كانت

(١) تظاهر الرومان منذ وقت مبكر بربط أصلهم بطرواده ؛ انظر تيتوس ليفيوس ٢٧ : ٣٧ ؛ ٢٩ : ١٢ . كما شهدوا منذ وقت مبكر بقرايتهم من بلدة سيغستا (Ségeste) (سيسرون : ضد فيريس ٤ : ٣٣ ؛ ٥ : ٤٧) ، ومع بلدة ساموثرأكي (سرفيوس : Ad Aen. ٣ : ١٢) ومع أهالي البيلوبونيز (بوسانياس ٨ : ٤٣) ، ومع الإغريق (استرابون ٥ : ٣ : ٥) .

توجد عبادة مشتركة بين بلدين كانت كل منهما تدعى أنها قرية الأخرى ؛ ويجب على كل منهما اعتبار الأخرى حليفة لها ، والتعاون معها ؛ لم يكونوا يعرفون في ذلك الزمن العتيق ارتباطاً آخر غير ما تقرره الديانة . لذلك حافظت روما بعناية عظيمة على كل ما كان يستطيع أن يقوم دليلاً على هذه القرابة القيمة بينها وبين الأمم الأخرى : فكانت تقدم لللاتينيين أثاراتها عن رومولوس ، وللساينيين أسطورتها عن تارپيا (Tarpeia) وتاتيوس ، واحتجت لدى الإغريق بالأناشيد القديمة التي كانت في حيازتها تمجيداً لأم إيفاندروس ، وهي أناشيد لم تعد تفهمها لكنها كانت متمسكة بترتيلها . وحافظت أيضاً بأعظم اهتمام على ذكرى إينياس ؛ إذ أنه إذا كان في استطاعتها أن تدعى القرابة من أهالي الپيلوبونيز عن طريق إيفاندروس ، فإنها كانت قرية عن طريق إينياس لأكثر من ثلاثين قرية منتشرة في إيطاليا وفي صقلية وفي بلاد الإغريق وتراقيا وآسيا الصغرى . كانت جميعها من مؤسسات إينياس أو مستعمرات لبلدان أسسها إينياس ولذلك كانت تشترك في العبادة مع روما . ويمكن أن نرى أى نفع جرته من هذه القرابة العتيقة في الحرب التي شنتها في صقلية ضد قرطاجة ، وفي بلاد الإغريق ضد فيليبوس .

وإذن فقد كان أهالي روما خليطاً من عدة أجناس ، وعبادتها مجموعة من عدة عبادات ، وموقدها القومى مجموعة من عدة مواقد . كادت تكون المدينة الوحيدة التي لم تفصلها ديانتها البلدية عن جميع المدن الأخرى . كانت تماس بالقرابة جميع إيطاليا وجميع بلاد الإغريق . لم يكد يوجد شعب لا تستطيع أن تقبله على موقدها .

٢ — توسعات روما الأولى (٧٥٣ — ٣٥٠ قبل المسيح)

أثناء القرون التي كانت الديانة البلدية قائمة فيها في كل مكان ، نظمت روما سياستها على هذه الديانة .

يقال إن أول عمل قامت به المدينة الجديدة كان انتزاع بضع نساء ساينيات : أسطورة تبدو غير مقبولة البتة ، إذا فكرنا في قداسة الزواج عند القدماء . ولكننا

رأينا، فيما سلف من القول، أن الديانة البلدية كانت تحرم الزواج بين أشخاص من مدن مختلفة، اللهم إلا إذا كانت بين هاتين المدينتين رابطة أصل أو عبادة مشتركة. كان لهؤلاء الرومان الأوائل حق الزواج مع ألبا التي كان أصلهم منها لكنه لم يكن لهم مع جيرانهم الآخرين، السابينيين. إن ما أراد رومولوس أن يستولى عليه أولاً، ثم يكن بضع نساء بل حق الزواج، أى الحق في عقد صلات منتظمة مع الأهالي السابينيين. ولذلك كان يجب عليه أن يقيم بينهم وبينه صلة دينية؛ ولهذا اتخذ عبادة الإله السابيني كونسوس (Consus) واحتفل بعيدة. وتضيف الأثرارة أنه سبي النساء أثناء هذا العيد؛ ولو أنه فعل ذلك لما أمكن الاحتفال بالزيجات طبقاً للشعائر، ما دام أول عمل من أعمال الزواج وألزمه كان الـ *traditio in manum* أى هبة الأب لابنته؛ وإذن كان رومولوس لا يحقق الغرض الذي كان يرمى إليه. لكن حضور السابينيين وأسرانهم في الاحتفال الديني ومساهماتهم في القربان، كان يقيم بين الشعبين رباطاً وثيقاً بحيث لا يمكن رفض حق الزواج (*connubium*). لم تكن هناك حاجة لخطف مادي؛ لقد عرف رئيس الرومان كيف يحصل على حق الزواج. لذا يؤكد المؤرخ ديونيسيوس، الذي كان يرجع للنصوص والأناشيد القديمة، أن السابينيات تزوجن طبقاً لأكثر الشعائر احتفالاً، وهو ما يؤيده بلوتارخوس وسيسرون (١). وجدير بالملاحظة أن أول جهد من جانب الرومان كانت نتيجته إسقاط الحواجز التي كانت تضعها الديانة البلدية بينهم وبين شعب من جيرانهم. لم تصل إلينا أسطورة مماثلة بالنسبة لإترووريا؛ لكن يبدو من المؤكد تماماً أنه كان بين روما وبين هذا القطر نفس العلاقات التي كانت بينها

(١) ديونيسيوس ٢ : ٣٠؛ بلوتارخوس : رومولوس ١٤، ١٥، ١٩؛ سيسرون : الجمهورية ٢ : ٧. إذا لاحظنا بانتباه روايات هؤلاء المؤرخين الثلاثة، والعبارات التي يستعملونها، فأننا نعرف على جميع مميزات الزواج العتيق؛ لذلك نميل إلى الاعتقاد أن أسطورة السابينيات هذه، التي أصبحت على مضي الزمن قصة سبي، كانت في الأصل أسطورة الحصول على حق الزواج مع السابينيين. ويلوح أن سيسرون قد فهمها على هذا النحو : *Sabinorum connubia conjunxisse, De Orat., I. 9.*

وبين اللاتيوم وبلاد السابينيين . فقد كان لها من اللباقة ما جعلها تتحد مع جميع من كانوا يحيطون بها . وكانت متمسكة بأن يكون لها حق الزواج (connubium) مع جميع المدن . ومما يدل على أنها كانت تعرف جيداً أهمية هذا الرباط أنها لم تكن تريد أن يوجد فيما بين المدن الأخرى الخاضعة لها (١) .

ثم دخلت روما في سلسلة حروبها الطويلة . كانت الأولى منها ضد السابينيين أتباع تاتئوس (Tatius) وانتهت بتحالف ديني وسياسي بين الشعبين الصغيرين (٢) . ثم حاربت ألبا ؛ يقول المؤرخون إن روما جرئت على مهاجمة هذه البلدة مع أن روما كانت مستعمرة لها . ولعل كونها مستعمرة لها كان هو السبب الذي جعلها تحكم بأن هدمها لازم لعظمتها هي . إذ أنه كان لكل عاصمة السيادة الدينية على مستعمراتها ؛ هذا وقد كان للديانة عندئذ من السلطان ما لا تستطيع روما معه إلا أن تكون مدينة تابعة وأن تقف مصائرهما إلى الأبد ما دامت ألبا قائمة .

فلما دمرت ألبا ، لم تقنع روما بأنها لم تعد مستعمرة . بل زعمت أن ترفع نفسها إلى مرتبة العاصمة بإرثها للحقوق والسيادة الدينية التي كانت تمارسها ألبا ، إلى ذلك اليوم ، على مستعمراتها الثلاثين في اللاتيوم . وقد شنت روما حروباً طويلة لكي تحصل على رئاسة قربان الأعيان اللاتينية . وتلك كانت الوسيلة الوحيدة للحصول على النوع الوحيد من السيادة والتغلب الذي كان يمكن تصوره في ذلك الزمن .

أقامت عندها معبداً لديانا (Djana) ؛ وألزمت اللاتينيين بالحضور لتقديم القرابين فيه ، بل اجتذبت إليه السابينيين (٣) . وبذلك عودت الشعبين على أن يتقاسما الأعياد والصلوات ولحوم الأضاحي المقدسة تحت رئاستها ؛ لقد جمعتهما تحت سيادتها الدينية .

(١) تيتوس ليفيوس ٩ : ٤٣ ؛ ٢٣ : ٤ .

(٢) *Sacris communicatis* سيسرون : الجمهورية ١١ : ٧ .

(٣) تيتوس ليفيوس ١ : ٤٥ . ديونيسيوس ٤ : ٤٨ ، ٤٩ .

روما هي المدينة الوحيدة التي عرفت كيف تزيد عدد سكانها بالحرب ؛ فقد كانت لها سياسة يجهلها كل باقى العالم الإغريق والإيطالى ؛ لقد ضمت لنفسها كل من غلبتهم ؛ وأحضرت لديها سكان البلاد المستولى عليها ؛ وجعلت المغلوبين روماناً بالتدريج . وفى نفس الوقت أرسلت مستعمرين فى البلاد المستولى عليها ، وبهذه الطريقة بذرت فى كل مكان روما أخرى . إذ أن مستعمرها حافظوا على المشاركة الدينية مع العاصمة ، فى نفس الوقت الذى كانوا يؤسسون فيه مدناً قائمة بذاتها من الناحية السياسية : هذا وقد كان فى ذلك ما يكفى لإجبارهم على إخضاع سياستهم لسياستها ، وعلى إطاعتها ، ومساعدتها فى جميع حروبها .

ومن صفات السياسة الرومانية الجديرة بالملاحظة أنها كانت تجتذب إليها جميع عبادات المدن المجاورة . كانت متمسكة بقهر الآلهة كما كانت متمسكة بقهر المدن . فقد وضعت يدها على إلهة تدعى جونون فى قبيس وإله يدعى جوبيتر فى برينسته (Préneste) وإلهة تدعى مينيرفا فى فاليريا (Falisques) وإلهة تدعى جونون فى لانوفيوم ؛ وأخرى تدعى فينوس عند السامنيين ، وآلهة أخرى كثيرة لا نعرفها (١) . «إذ أنها كانت العادة فى روما ، كما يقول أحد القدماء (٢) ، أن تدخل عندها ديانات المدن المغلوبة ؛ فطوراً توزعها بين فصائلها (gentes) وطوراً تعطيها مكاناً فى ديانتها القومية » .

يشئ مونتيشكيو على الرومان لأنهم ، من فرط لباقتهم السياسية الماهرة ، لم يفرضوا آلهتهم على الشعوب المغلوبة . لكن ذلك مناف منافاة مطلقة لأفكارهم ولأفكار القدماء جميعاً . استولت روما على آلهة المغلوبين ولم تعطهم آلهتها . احتفظت لنفسها بحمايتها ، بل عملت على زيادة عددهم . كانت متمسكة بجيازة عبادات وآلهة حامية أكثر من أية مدينة أخرى .

(١) تيتوس ليفيوس ٥ : ٢١ ، ٢٢ ؛ ٦ : ٢٩ . أوفيدىوس : الأعياد ٣ : ٨٣٧ ، ٨٤٣ ، بلوتارخوس : الموازنة بين التاريخين الإغريق والرومانى ٧٥ .

(٢) كنيكوس (Cincius) ، اقسيسه أرنبويوس (Arnohe) : ضد الأمم (adv. gentes)

هذا وما دامت هذه العبادات وهذه الآلهة قد انتزع معظمها من المغلوبين فقد كانت روما مشتركة بسببها اشتراكاً دينياً مع جميع الشعوب . ولقد كانت روابط الأصل ، والاستيلاء على حق الزواج (*connubium*) ، ورئاسة الأعياد اللاتينية ، والاستيلاء على الآلهة المغلوبة ، وما كانت تزعمه من حق في تقديم القرابين في أولمبيا ودلفوى ، وسائل تمهد بها روما لسيادتها . كان لها ، كما كان لجميع البلدان ، ديانتها البلدية : ينبوع وطنيتها ؛ لكنها كانت البلدة الوحيدة التي كانت تستخدم هذه الديانة لاتساعها . بينما كانت البلاد الأخرى في عزلة بسبب ديانتها ، كان من لباقة روما ، أو من حسن حظها ، أن تستخدمها لاجتذاب الكل إليها وللتغلب على الجميع .

٣ - كيف حصلت روما على الإمبراطورية (٣٥٠ - ١٤٠ قبل الميلاد)

بينما كانت روما تتسع هكذا ببطء ، بالوسائل التي كانت ديانة ذلك العصر وآراؤه تضعها تحت تصرفها ، جرت سلسلة من التغييرات الاجتماعية والسياسية ، في جميع المدن ، وفي روما ذاتها ، أدت في آن واحد إلى تحويل حكومة الناس وطريقتهم في التفكير . وقد تابعتنا ، أعلاه ، سير هذا الانقلاب ؛ أما ما يجدر ملاحظته هنا فهو أنها كانت متفقة مع التطور العظيم للسلطة الرومانية . ولم يكن هذان الحدثان ، اللذان وقعا في نفس الوقت ، دون أن يكون لأحدهما أثر في الآخر . فإن فتوحات روما ما كانت تسهل إلى هذا الحد لو لم يكن الروح البلدي القديم قد خمد وقتذاك في كل مكان ؛ ويمكن الظن أيضاً بأن النظام البلدي ما كان يسقط مبكراً على هذا النحو لو لم يوجه إليه الفتح الروماني تلك الضربة القاصمة .

وفي خلال التغييرات التي حدثت في الأنظمة ، وفي الأخلاق ، وفي العقائد ، وفي الشرع ، تغيرت طبيعة الوطنية ذاتها ؛ وكان ذلك مما ساهم بأكبر نصيب في تقدم روما ذلك التقدم العظيم . ذكرنا آنفاً ما كان عليه هذا الشعور في العصر الأول للمدن . لقد كان جزءاً من الديانة ؛ فكانوا يحبون الوطن لأنهم كانوا يحبون الآلهة الحماة ، إذ أنهم كانوا يجدون في الوطن بيتاً للنار ، وناراً مقدسة

وأعياداً ، وأدعية ، وأناشيد ، ولأنه خارج الوطن لن تكون لهم آلهة ولاعبادة . كانت تلك الوطنية إيماناً وتقوى . لكن عندما سحبت السيادة من الطبقة الكهنوتية اختفى هذا النوع من الوطنية مع جميع العقائد القديمة . لم يبق حب المدينة بعد ، لكنه اتخذ شكلاً جديداً .

لم يعودوا يحبون الوطن من أجل ديانتهم وآلهتهم ، بل أحبه فقط من أجل قوانينه وأنظمته ومن أجل الحقوق والأمن التي يمنحها لأعضائه . انظر ، في الرثاء الذي أنطق به ثوقيديديس بريكليس ، ما هي الأسباب التي تحب الناس في أثينا : هي أن تلك البلدة « تريد أن يكون الجميع متساوين أمام القانون » وأنها « تمنح الناس الحرية ، وتفتح طريق المناصب للجميع ؛ إنها تحافظ على النظام العام ، وتضمن السلطة لرجال الدولة ، وتحمي الضعفاء ، وتقدم للجميع ملاهي وحفلات تُسعدُ تربية للروح » . ويختم الخطيب ذلك بقوله « هذا هو السبب الذي من أجله آثر محاربونا أن يموتوا بشجاعة على أن يسلب منهم هذا الوطن ؛ هذا هو السبب الذي من أجله كان الذين بقوا على قيد الحياة على استعداد تام للتألم من أجله وافتدائه بأنفسهم » . وإذن فقد كانت لا تزال على الإنسان واجبات نحو المدينة ؛ لكن هذه الواجبات لم تعد تستمد من نفس المبدأ الذي كانت تستمد منه فيما مضى . إنه لا يزال يعطى دمه وحياته للوطن ، لكن ذلك لم يعد في سبيل الدفاع عن معبوده القومي وعن موقد آبائه ؛ بل للدفاع عن الأنظمة التي يتمتع بها والمزايا التي تخلعها المدينة عليه .

هذا ولم يكن لهذه الوطنية الجديدة نفس الآثار تماماً التي كانت لوطنية العصور القديمة . حيث أن الفؤاد لم يعد عالقاً ببيت النار (بريتانيون) والآلهة الحماة ، والأرض المقدسة ، بل بالأنظمة والقوانين دون سواها ؛ وحيث أن هذه الأنظمة والقوانين كانت تتغير على الدوام بالنسبة لحالة التقلقل التي كانت عليها جميع المدن عندئذ ، فقد أصبحت الوطنية إحساساً متغيراً ، مُقلَباً ، يتوقف على الظروف ، وخاضعاً لنفس التذبذبات

التي تخضع لها الحكومة ذاتها . لم يعودوا يحبون الوطن إلا بقدر ما كانوا يحبون النظام السياسي الذي يسود فيه مؤقتاً؛ من كان يجد قوانين الوطن سيئة ، لم يعد له ما يربطه به .

وهكذا ضعفت الوطنية البلدية في النفوس وبادت . أصبح رأى كل رجل أكثر قداسة لديه من وطنه ، وأصبح انتصار حزبه أعز لديه من عظمة مدينته أو مجدها . وبلغ الأمر بكل فرد ، إذا لم يجد الأنظمة التي يحبها في البلدة التي ولد فيها ، أن يؤثر عليها البلدة الفلانية التي يرى هذه الأنظمة قائمة فيها . بدأوا عندئذ يهاجرون في رضى كبير ، ويخشون النني أقل مما كانوا يخشونه فيما مضى . ماذا يهم أن يقصى المرء عن بيت النار وأن يحرم من ماء النثار ؟ لم يعودوا يفكرون في الآلهة الحماة ، وتعودوا بسهولة الاستغناء عن الوطن .

ولم يعد بين ذلك وبين التسليح ضده مدى بعيد . فتحالفوا مع بلدة معادية لسكى يحصلوا لحزبهم على النصر في بلدتهم . اثنان من أهالي أرغوس : أحدهما يتمنى حكومة سراة فيوثر اسبرطه على أرغوس ؛ والآخر يفضل حكم العامة فيحب أثينا . لم يعد هذا ولا ذاك شديد التمسك باستقلال مدينته ولا كثير الاشتزاز من القول بأنه رعية لبلدة أخرى بشرط أن تؤيد هذه البلدة حزبه في أرغوس . نرى بحلاء في ثوقيديديس وفي اكسينوفون أن هذه الحالة التي كانت عليها النفوس هي ولدت حرب الپيلوپونيز وجعلتها تدوم زمناً طويلاً . في پالاتيا كان الأثرياء من حزب ثيبه ولاقيديمون ، وكان أنصار حكومة العامة من حزب أثينا . وفي كوركيرا (Corcyre) (١) ، كان الحزب الشعبي لأثينا والسراة لاسبرطه (٢) . كان لأثينا حلفاء في جميع بلدان الپيلوپونيز ، وكان لاسبرطه حلفاء في جميع البلدان اليونية . يتفق ثوقيديديس واكسينوفون في القول بأنه لم تكن هناك مدينة واحدة لم يكن الحزب الشعبي فيها ميالاً للأثينيين والسراة للاسبرطيين (٣) . تمثل هذه الحرب جهداً عاماً

(١) هي جزيرة كورفو الآن . — المغرب .

(٢) ثوقيديديس ٣ : ٦٩ - ٧٢ : ٤ : ٤٦ - ٤٨ : ٣٤ : ٨٢ .

(٣) ثوقيديديس ٣ : ٤٧ . اكسينوفون : هلينيكا ٦ .

قام به الإغريق لينشئوا في كل مكان دستورا واحداً ، مع سيادة إحدى المدن ؛ لكن البعض يريد السراة تحت حماية أسبرطه ، والبعض الآخر يتطلب حكم العامة بمعاونة أثينا . وهكذا كان الأمر في عهد فيليبوس ، فقد كان حزب السراة في جميع البلدان يتمنى السيادة المقدونية . وفي عهد فيلوپويمين (Philopémen) انعكست الأوضاع ، لكن الإحساسات بقيت كما كانت ؛ قبل الحزب الشعبي سلطان مقدونية ، وتعلق كل من كان للسراة بالحلف الأخيوى (ligue achéenne) . وهكذا لم تعد المدينة هدف أمانى الناس وعطفهم . لم يكن هناك إلا قليل من الإغريق لم يكونوا على استعداد للتضحية بالاستقلال البلدى لكي يحصلوا على النظام الذى كانوا يفضلونه .

أما من كانوا ذوى أمانة وذمة ، فإن الشقاق الدائم ، الذى كانوا شهوداً عليه ، جعلهم يعافون النظام البلدى . لم يكن فى استطاعتهم أن يجبوا شكلاً من أشكال المجتمع يفرض عليهم أن يقاتلوا كل يوم ، وكان فيه الفقير والثرى فى حرب دائماً ، ويشهدون فيه تبادلاً لا نهاية له بين عنف الشعب وانتقام السراة . أرادوا أن يتخلصوا من نظام أنتج عظمة حقيقية لكنه لم يعد ، بعد ذلك ، يلد غير آلام وأحقاد . بدأوا يشعرون بالحاجة إلى الخروج من النظام البلدى ، والوصول إلى شكل آخر من أشكال الحكومة غير المدينة . فكر كثير من الناس على الأقل فى أن يقيموا ، فوق المدن ، نوعاً من السلطة المسيطرة ، تسهر على المحافظة على النظام وتجبر هذه المجتمعات الصغيرة المشاغبة على العيش فى سلام . وهكذا كان فوكيون (Phocion) ، وهو مواطن صالح ، ينصح مواطنيه بقبول سلطة فيليبوس ، ويعددهم مقابل ذلك بالوفاء والأمن .

وفى إيطاليا لم تكن الأمور تسير على غير النهج الذى سارت عليه فى بلاد الإغريق . كانت بلدان اللاتيوم والسابينيين وإتروريا مضطربة بفعل هذه الثورات والمنازعات عيها ، واختفى حب المدينة . وكما حدث فى بلاد الإغريق كان كل واحد يرتبط عن طيب خاطر ببلدة أجنبية ، لكي تسود آراؤه أو مصالحه فى بلده .

حالة الأذهان هذه كانت سبباً في حظ روما . فإنها أيدت السراة في كل مكان ، وفي كل مكان أيضاً كانت طبقة السراة حليفة لها . لنذكر بعض الأمثلة : غادرت فصيلة كلوديا gens Claudia إقليم السابينيين على أثر خلافات داخلية ، وانتقلت إلى روما لأن الأنظمة الرومانية كانت تروق لها أكثر من أنظمة إقليمها ؛ وفي نفس الفترة هاجر الكثير من الأسرات اللاتينية إلى روما لأنها لم تكن تحب نظام حكم العامة في اللاتيوم ، ولأن روما كانت قد أعادت عندئذ سيادة البطارقة (١) . في أرديا (Ardée) ، كان السراة والعامة في نزاع فدعت السوقه الثولسك إلى معونتها ، وسلم السراة المدينة للرومان (٢) . وكانت إتروريا مليئة بالشقاق . فقد قلبت فييس (Veii) حكومة السراة فيها ؛ وهاجمها الرومان ، فرفضت البلاد الإتروسكية الأخرى . التي كانت السراة الكهنوتية لا تزال سائدة فيها ، أن تنجد أهالي فييس . وتضيف الأسطورة أن الرومان في هذه الحرب خطفوا متكهناً (aruspice) من أهالي فييس ، وتسلموا وحيّاً يضمن لهم النصر . ألا تشف هذه الأسطورة عن أن الكهنة الإتروسك قد فتحوا أبواب المدينة للرومان ؟

وفيما بعد عند ما ثارت كاپوا ضد روما ، لاحظوا أن الفرسان ، أي هيئة السراة ، لم يساهموا في هذه الفتنة (٣) . وفي سنة ٣١٣ سلم حزب السراة البلدان أوزونا (Ausona) وسورا (Sora) ومينتورنه (Minturne) ، وفسكيا (Vescia) للرومان (٤) . إذا رأينا الأتروسك يتحدون ضد روما ، فلنما يرجع ذلك إلى أن الحكومة الشعبية قد استقرت عندهم . لكن بلدة واحدة هي بلدة أرتيوم (Arretium) رفضت الدخول في هذا الاتحاد ؛ ذلك لأن طبقة السراة كانت سائدة في أرتيوم (٥) . عندما كان هانيبال في إيطاليا ، كانت جميع

-
- (١) ديونيسيوس ٦ : ٢ .
 (٢) تيتوس ليفيوس ٤ : ١٠٠٩ .
 (٣) تيتوس ليفيوس ٨ : ١١ .
 (٤) تيتوس ليفيوس ٩ : ٢٤ ، ٢٥ .
 (٥) تيتوس ليفيوس ٩ : ٣٢ ، ١٠ : ٣ .

البلدان مضطربة ؛ لكن الأمر لم يكن متعلقاً بالاستقلال ، ففي كل بلدة كان السراة لروما والسوقة للقرطاجيين (١) .

تستطيع الطريقة التي كانت تحكم روما بمقتضاها أن تفسر لنا تفضيل السراة المستمر لها . فقد تتابعت سلسلة الثورات فيها كما تتابعت في جميع البلدان ولكن ببطء أكبر . ففي سنة ٥٠٩ نجح ارتكاس بطريق في روما ؛ وقد كان للمدن اللاتينية طغاة قبل ذلك التاريخ . ثم قام حكم العامة ولكن مع مضي الزمن ومع كثير من الاتزان والاعتدال ؛ وإذن فقد كانت الحكومة الرومانية حكومة سراة زمنياً أطول مما كانت عليه أية حكومة أخرى ، واستطاعت أن تكون محط آمال حزب السراة زمنياً طويلاً .

حقاً لقد استطاع حكم العامة أن يتغلب في روما . لكن أساليب الحكم وما يمكن أن نسميه حيل الحكومة بقيت ، في ذلك الوقت ، مطبوعة بطابع السراة . ففي لجان الفرق المثنية كانت الأصوات موزعة حسب الثروة ؛ ولم يكن الأمر يختلف عن ذلك اختلافاً كلياً في لجان القبائل ، فن حيث الشرع لم يكن يسمح فيها بأي تفريق ناتج عن الثروة ، أما من حيث الواقع فقد كانت الطبقة الفقيرة محصورة في القبائل المدنية الأربع ولهذا لم يكن لها سوى أربعة أصوات تعارض بها أصوات طبقة الملاك وهي واحد وثلاثون صوتاً . هذا ولم يكن هناك أهدأ في العادة من هذه الاجتماعات ؛ لا يتكلم فيها غير الرئيس ، أو من يسمح له الرئيس بالكلام . لم يكونوا يسمعون فيها خطباء ؛ وكانوا قليلاً ما يتناقشون فيها ؛ بل كان يقتصر كل شيء في أغلب الأحيان على التصويت بنعم أو بلا ، وإحصاء الأصوات ؛ وحيث أن هذه العملية الأخيرة معقدة جداً فإنها كانت تتطلب وقتاً طويلاً وهدوءاً كثيراً . ويجب أن نضيف على هذا أن مجلس الشيوخ لم يكن يجدد كل عام كما كان في المدن الإغريقية التي يسود فيها حكم العامة . من الناحية الشرعية ، كان يؤلفه الرقباء كل خمس سنوات ؛ والواقع أن القوائم كانت شديدة التشابه

(٢) تيتوس ليفيوس ٢٣ : ١٣ ، ١٤ ، ٣٩ ؛ ٢٤ : ٢ : *Unus velut morbus invaserat omnes Italiae civitates, ut plebs ab optimatibus dissentiret, senatus Romanis faveret, plebs ad Poenos rem traheret.*

من فترة لأخرى من فترات السنوات الخمس ، ومن الشاذ أن يحذف بعض الأعضاء ؛ وبذلك كان مجلس الشيوخ هيئة باقية مدى الحياة . يكاد ينتخب هو أعضاءه ؛ ويمكن أن نلاحظ أن الأبناء كانوا يحلون محل الآباء في العادة . فكان في الحقيقة هيئة من أقلية حاكمة .

كانت الأخلاق متشعبة بصفات السراة أكثر من تشبع الأنظمة . كان لأعضاء الشيوخ أماكن محتفظ بها في المسرح . وكان الأثرياء يخدمون دون سواهم في سلاح الفرسان . وكان الجزء الأكبر من رتب الجيش محتفظاً به لشباب الأسرات الكبيرة ؛ لم يكن سقيبيو قد بلغ خمسة عشر عاماً عندما كان يقود أسطولاً (٢) . ظلت سيادة الطبقة الثرية متماسكة في روما زمناً أطول منه في أية بلدة أخرى . ويزجع ذلك إلى سببين أحدهما أنه حدثت فتوحات كبيرة وأن المنافع كانت تذهب إلى الطبقة التي كانت ثرية من قبل ، فقد دخلت في حيازتها جميع الأراضي التي انتزعت من المغلوبين . واستولت على تجارة البلاد المغلوبة ، وضمت إليها الأرباح العظيمة من جباية الضرائب وإدارة الولايات . وبذلك كانت هذه الأسرات تزدد ثراء من جيل إلى آخر . وأصبحت "متنعمّة" بدرجة لا يقاس عليها ، وأصبحت كل واحدة منها سلطة أمام الشعب : والسبب الآخر أن الروماني ، وحتى أفقر روماني ، كان يـُـمكنه احتراماً داخلياً للثروة . لقد اختفت طبقة الموالى الحقيقية منذ زمن طويل ؛ لكنه يلوح كما لو كانت قد بغت في صورة تمجيد يؤدونه إلى ذوى الثروات الكبيرة ؛ واستقر العرف على أن يذهب السُمـُـعيل كل صباح ليحيي الأثرياء ويطلب إليهم غذاء يومه :

Pline, XIV, 1, 5: *Senator censu legi, judex fieri censu, magis-tratum ducemque nihil magis exornare quam censum.*

إن ما يقوله بلينيوس لا ينطبق على العصور الأخيرة للجمهورية فحسب، بل كان في روما دائماً نصاب لكي يكون الانسان شيخاً ، ونصاب لكي يكون فارساً ، بل لكي يكون جندياً في الفيلق ؛ وبمجرد أن وجدت هيئة من القضاة كان لا بد أن يكون الانسان ثرياً ليكون عضواً فيها ، بحيث كان حق القضاء امتيازاً للطبقات العليا دائماً .

وليس المقصود أن النزاع بين الأثرياء والفقراء لم يُبر في روما كما رؤى في جميع المدن . بل إنه لم يبدأ إلا في عصر آل غراكخوس ، أى بعد أن تم الفتح تقريباً . هذا ولم يكن هذا النزاع في روما مطبوعاً دائماً بطابع العنف التى كان مطبوعاً بها في كل مكان آخر . فإن الطبقة المنحطة من الشعب في روما لم تتطلع إلى الثروة بحماس شديد؛ وقد ساعدت آل غراكخوس مساعدة لينة ، ورفضت أن تعتقد أن هؤلاء المصلحين كانوا يعملون من أجلها، وهجرتهم في اللحظة الفاصلة . فإن قوانين توزيع الأراضي التى كثيراً ما قدمت كتهديد للأغنياء قد تركت الشعب دائماً في شيء من عدم الاكتراث ، ولم تحركه إلا تحريكاً سطحياً . ومن ذلك نرى جيداً أنه لم يكن يتمنى امتلاك الأرض في رغبة شديدة؛ هذا وإذا كانوا قد عرضوا عليه تقسيم الأراضي العامة، أى أملاك الدولة، إلا أنه لم يفكر ، على الأقل ، في تجريد الأثرياء من أملاكهم . فقد كان يحب أن يعيش بجوار الأثرياء وفي ظلهم بدافع من عاطفة شطرها الاحترام الموروث وشطرها الآخر العادة المألوفة .

وقد كان من حكمة هذه الطبقة الثرية أنها قبلت في نطاقها أهم الأسرات في البلدان الخاضعة أو المخالفة وقد انتهى الأمر رويداً رويداً بأن دخل كل من كان حراً في تكوين الطبقة الثرية في روما . وازدادت أهمية هذه الهيئة على الدوام ، وأصبحت سيدة الدولة . فباشرت وحدها مناصب الدولة إذ أن شراءها كان يكلف كثيراً ؛ وألفت وحدها مجلس الشيوخ إذ كان لا بد من نصاب مرتفع جداً لكي يكون الإنسان شيخاً . وبذلك حدث هذا الأمر العجيب وهو تكوين طبقة من الأشراف بالرغم من القوانين التى كانت مشبعة بحكم العامة . وقد تحمل الشعب ، الذى كان عظيم السلطان ، أن ترتفع هذه الطبقة فوقه ولم يعارضها إطلاقاً .

وإذن فقد كانت روما ، في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، البلدة التى تحكم بأشد الأنظمة تشبهاً بمبادئ السراة بين جميع بلدان إيطاليا وبلاد الإغريق؛ ولنلاحظ ، في الختام ، أنه إذا كان مجلس الشيوخ مضطراً في الشؤون الداخلية إلى مراعاة الجمهور فإنه كان السيد المطلق فيما يختص بالسياسة الخارجية فهو الذى

كان يستقبل السفراء ، وهو الذى يعقد المحالفات ، ويوزع الولايات والفيالق ، ويصدق على أعمال القواد ، ويحدد الشروط التى تفرض على المغلوبين ؛ وكلها أمور كانت فى كل مكان آخر من اختصاصات المجمع الشعبى . وإذن لم يكن للأجانب فى علاقاتهم مع روما أى شأن بالشعب ؛ لم يكونوا يسمعون الحديث إلا عن مجلس الشيوخ ؛ وكانوا يشعرونهم من هذه الفكرة وهى أنه لم يكن للشعب أية سلطة . وذلك هو رأى الذى أعلنه إغريقى لفلامينيوس (Flamininus) إذ قال له « فى بلادكم تحكم الثروة ، وكل ما عداها خاضع لها . » (١)

نتج عن ذلك أن طبقة السراة فى جميع المدن شخصت بأبصارها نحو روما واعتمدت عليها ، واتخذتها حامية ، وربطت نفسها بمصيرها . ومما ساعد أكثر من سواه على السماح بهذا أن روما لم تكن بلدة أجنبية لأحد . فقد كان السايبينيون واللاتينيون والإتروسك يرون فيها بلدة سايبينية أو بلدة لاتينية أو بلدة إتروسكية ، وكان الإغريق يعتقدون أنهم يجدون فيها إغريقاً .

بمجرد ما تراءت روما لبلاد الإغريق (عام ١٩٩ قبل الميلاد) استسلمت لها السراة . ولم يكذب فكر أحد عندئذ أن له الخيرة بين الاستقلال والخضوع ، إذ أن المسألة لم تكن لدى سواد الناس إلا الخيار بين السراة والحزب الشعبى . وقد كان هذا الأخير فى جميع البلدان فى صف فيليبوس أو أنطيوخوس أو پرسسيوس أما الآخر فكان فى صف روما . ويمكن أن نرى فى 'بوليبوس وفى تيتوس ، ليفيوس أنه إذا كانت أرغوس قد فتحت أبوابها للمقدونيين فى سنة ١٩٨ ، فإنما كان ذلك لأن الشعب كان سائداً فيها ، وأن حزب الأثرياء هو الذى سلم فى السنة التالية أوپوس (أوپونت Opunte) للرومان ؛ وأن سراة الأكارنيين (Acarniens) عقدوا معاهدة تحالف مع روما ، لكن هذه المعاهدة أبطلت فى العام التالى لأن حكم العامة تغلب من جديد فى الفترة بينهما ، وأن ثييه بقيت فى تحالف مع فيليبوس طالما كان الحزب الشعبى هو الأقوى فيها ، وتقربت إلى روما بمجرد أن أصبحت طبقة السراة سيدة فيها ؛ وأن السوق فى أثينا وفى ديمترياس (Démétríade) وفى فوكايا (Phocée) كانوا معادين للرومان

(١) تيتوس ليفيوس ٣٤ : ٣١ .

وأن نابيس (Nabis) طاغية العامة كان في حرب معها؛ وأن العُصبة الأخيوية (ligue achéenne) كانت مiale لها طالما كانت العصبة تحت حكم السراة ؛ وأن رجالاً من أمثال فيلوپويمين ونيوليوس كانوا يتمنون الاستقلال القومى، لكنهم مع هذا كانوا يؤثرون السيادة الرومانية على حكم العامة ؛ وأنه فى العصبة الأخيوية ذاتها أتت لحظة بزغ فيها الحزب الشعبى بدوره . وأنه ابتداء من هذه اللحظة كانت العصبة عدواً لروما ؛ وأن ديوس (Diaeos) وكروتولاوس (Crotolaos) هما فى نفس الوقت رؤساء الحزب الشعبى وقواد العصبة ضد الرومان وأنهما حارباً بشجاعة فى سكارفيا (Scarphée) وليكوپتيرا (Leucoptéra) . وربما كان ذلك من أجل انتصار حكم العامة أكثر مما كان من أجل استقلال بلاد الإغريق .

تخبرنا هذه الحوادث بما فيه الكفاية كيف حصلت روما على الإمبراطورية دون أن تبذل جهوداً كبيرة . كان الروح البلدى يختفى شيئاً فشيئاً . وأصبح حب الاستقلال شعوراً نادراً جداً ، وكانت الأفئدة منقطعة لمصالح الأحزاب وشهواتها . نسوا المدينة وهم لا يشعرون . فهوى الواحد تلو الآخر من الحواجز التى كانت تفصل البلدان فيما مضى ، وتجعل منها عوالم صغيرة قائمة بذاتها ، يحد أفقها آمال كل فرد وأفكاره . فلم يعد يميز فى جميع إيطاليا وفى جميع بلاد الإغريق غير فئتين من الناس : فى إحدى الناحيتين طبقة السراة وفى الأخرى الحزب الشعبى . تلك تدعو سيادة روما . وهذا يصددها . ولقد تغلبت طبقة السراة ، وحصلت روما على الإمبراطورية .

٤ — روما تحطم النظام البلدى فى كل مكان

ضعفت أنظمة المدينة القديمة بفعل سلسلة من الثورات ، وبدت كما لو كانت منهوكة القوى . فكانت النتيجة الأولى للسيادة الرومانية هى إتمام تحطيمها ومحو ما يزال باقياً منها . وهو ما نستطيع أن نراه عندما نلاحظ أية حالة هوت إليها الشعوب كلما أخضعها روما .

يجب أولاً أن نبعد عن أذهاننا كل عادات السياسة الحديثة ، وألا نتصور أن الشعوب كانت تدخل الواحد تلو الآخر في الدولة الرومانية كما تُضمُّ في أيامنا المقاطعات المستولى عليها إلى مملكة توسع حدودها بقبولها هؤلاء الأعضاء الجدد. لم تكن الدولة الرومانية (*civitas romana*) تتسع بالفتح ؛ فإنها لم تكن تشمل إطلاقاً غير الأسرات التي كانت تتمثل في احتفال التعداد الديني. وكذلك لم تكن تتسع الأرض الرومانية (*ager romanus*) بل كانت تبقى محصورة في الحدود التي لا تزحزح ، التي خطها الملوك ، والتي كان يقدسها احتفال الأمبارفاليس (*Ambarvales*) كل عام . شيئان فقط كانا يتسعان عند كل فتح : ألا وهما السيادة الرومانية (*imperium romanum*) والأرض التابعة للدولة الرومانية (*ager publicus*).

طالما كانت الجمهورية قائمة لم يكن يخطر ببال أحد أنه في استطاعة الرومان والشعوب الأخرى أن يكونوا أمة واحدة . كان في استطاعة روما أن تتقبل لديها بعض المغلوبين كلاً على حدة ، وأن تسكنهم داخل أسوارها وأن تحولهم روماناً على مدى الزمن ؛ لكنه لم يكن في استطاعتها أن تتمثل شعباً أجنبياً بأكمله في شعبها ، ورقة من الأرض في رقعتها . ولم يكن مرجع ذلك سياسة روما الخاصة ، بل مبدأ كان ثابتاً في الزمن العتيق ، وهو مبدأ كانت روما تميل للابتعاد عنه أكثر من أية مدينة أخرى ، لكنه لم يكن في استطاعتها أن تتحرر منه تماماً . فعندما كان يخضع شعب ما ، لم يكن يدخل في الدولة الرومانية (*in civitate*) بل في السيادة الرومانية فقط (*in imperio*). لم يكن يتحد مع روما كما تتحد اليوم المقاطعات مع عاصمة ما ؛ لأن روما لم تعرف فيما بين الشعوب وبينها إلا نوعين من الروابط : الخضوع (*dedititii*) أو التحالف (*socii*)

كان يلوح من ذلك أنه لا بد من بقاء الأنظمة البلدية لدى المغلوبين وأنه لا بد من أن يكون العالم مجموعة شاسعة من المدن المتباينة فيما بينها ، وعلى رأسها مدينة سيدة . إلا أن شيئاً من ذلك لم يقع فقد كان من أثر الفتح الروماني أن أحدث تبديلاً حقيقياً في داخل كل بلدة .

فن ناحية كان هناك الرعايا (*dedititii*) . وهم أولئك الذين تلوا صيغة التسليم (*deditio*) وبذلك سلموا للشعب الروماني « أشخاصهم وأسوارهم

وأراضيهم وبيوتهم ومعابدهم وآلهتهم». فلم يتنازلوا بذلك عن حكومتهم البلدية فحسب، بل عن كل ما كان يلزمها عند القدماء، أى عن ديانتهم وعن قانونهم الخاص. وابتداء من تلك اللحظة لم يعد هؤلاء الرجال يكوّنون فيما بينهم هيئة سياسية؛ لم يعد فيهم شيء من المجتمع المنظم. كانت بلادهم تستطيع أن تبقى قائمة، لكن مدينتهم بادت. وإذا استمروا على العيش معاً فإنهم يعيشون من غير أنظمة ولا قوانين ولا رجال دولة. وإنما تحفظ النظام المبادئ بينهم سلطة تعسفية في يد محافظ (*praefectus*) ترسله روما (١).

ومن الناحية الأخرى، الحلفاء (*foederati* أو *socii*). كانوا يعاملون معاملة أقل سوءاً فقد شرط، في اليوم الذي دخلوا فيه تحت السيادة الرومانية، أن يحتفظوا بنظامهم البلدى، وأن يبقوا منظمين في مدن. واستمروا إذن على أن يكون لهم في كل بلدة دستور خاص بهم، ومناصب دولة، ومجلس شيوخ. وبيت نار (پرتانيون)، وقوانين، وقضاة، وكانت البلدة تعتبر مستقلة. ويبدو أنه لم تكن لها صلات أخرى مع روما غير صلة الخليف بالخليف. بيد أن روما كانت تدخل هذه الصيغة *majestatem populi romani comiter conservato* (٢) في شروط المعاهدة التي كانت تحررها وقت الفتح (٣). وهذه الألفاظ تقرّر تبعية المدينة الخليفة تجاه المدينة ذات السيادة، وبما أنها كانت مبهمة جداً، فقد نتج عنها أن مقدار هذه التبعية كان وفق هوى الأقوى دائماً. كانت هذه البلدان، وهي التي كانت تسمى حرة، تتلقى الأوامر من روما وتطيع الولاة (*proconsuls*) وتدفع الضرائب للترى الضرائب؛ وكان رجال الدولة فيها يؤدون حساباً لحاكم الولاية الذي كان يتلقى أيضاً استئناف أحكام قضاتها (٤). هذا وقد

(١) تيتوس ليفيوس ١ : ٣٨ ؛ ٧ : ٣١ ؛ ٩ : ٢٠ ؛ ٢٦ : ١٦ ؛ ٢٨ : ٣٤ .
سيرون : قانون الأراضي ١ : ٦ ؛ ٢ : ٣٢ ؛ فستوس تحت لفظ (*praefecturae*).
(٢) سيرون : الدفاع عن بالبوس .
(٣) معنى الجملة اللاتينية : معترفة عن إخلاص بهيمة الشعب الرومانى .
المعرب .

(٤) تيتوس ليفيوس ٤٥ : ١٨ . سيرون : رسائل إلى أتيكوس ٦ : ١ ؛ ٦ : ٢ .
أبيانوس : الحروب الداخلية ١ : ١٠٢ . تاسيتوس (*Tacite*) ١٥ : ٤٥ .

كانت طبيعة النظام البلدى عند القدماء بحيث كان لا بد له من الاستقلال التام وإلا زال من الوجود . كان هناك تناقض بين الإبقاء على أنظمة المدينة والخضوع لسلطان أجنبي ، تناقض ربما لا يتبين لنظر المحدثين بجملاء ، لكن لا بد أنه كان يصدم جميع أهل ذلك العصر . كانت الحرية البلدية وإمبراطورية روما شيئين لا يمكن التوفيق بينهما . فلم يكن فى استطاعة الأولى إلا أن تكون مظهراً وادعاءً كاذباً وتسلياً جديرة بأن يتلهى الناس بها . كانت كل واحدة من هذه البلدان ترسل كل عام وفداً إلى روما ، وكانت ألصق شؤونها بها وأدقها تنظم فى مجلس الشيوخ . كان لا يزال لها رجال دولتها البلديون ، أراخنة وقواداً ، تنتخبهم هى انتخاباً حراً . لكنه لم يكن للأرخون اختصاصات غير كتابة اسمه على السجلات العامة للدلالة على السنة ، ولم يعد للقائد الذى كان فيما مضى رئيس الجيش والدولة ، غير العناية بتنظيم الشوارع وتفتيش الأسواق (١) .

وإذن فقد بادت الأنظمة البلدية لدى الشعوب التى كانت تسمى حليفة ، كما بادت لدى الشعوب التى كانت تسمى رعية . ولم يكن بينهما غير هذا الفارق وهو احتفاظ الفئة الأولى بأشكاله الظاهرة . والحق أن المدينة كما عرفها العصور العتيقة لم تعد ترى فى أى مكان اللهم إلا داخل أسوار روما . (٢) .

هذا وعند ما حطمت روما نظام المدينة فى كل مكان ، لم يحل محله أى شىء . لم تعط نظامها للشعوب التى سلبتها أنظمتها ليكون بديلاً منها . بل إنها لم تفكر فى إنشاء أنظمة جديدة تخصص لاستعمالها . إنها لم تضع إطلاقاً دستوراً لشعوب إمبراطوريتها ، ولم تعرف كيف تضع قواعد ثابتة لحكمها . بل إن السلطة التى كانت تحكمها بمقتضاها لم تكن نظامية فى شىء ما . حيث أن هذه الشعوب لم تكن جزءاً من دولتها ، من مدينتها ، فإنه لم يكن لها عليها أى سلطان قانونى . كان

(١) فيلوستراتوس: حياة السفسطائيين: ٢٣. Boeckh, Corp. inscr., passim.
(٢) أعادت روما فيما بعد النظام البلدى فى كل مكان ؛ لكن يجب أن نفهم أن هذا النظام البلدى فى عهد الإمبراطورية لم يكن يشبه نظام الأزمنة السالفة إلا من حيث المظهر . لم تكن له نفس المبادئ ولا نفس الروح . كانت المدينة الغالية أو الاغريقية فى عصر الأنطونيين شيئاً آخر غير المدينة العتيقة .

رعايها غرباء بالنسبة لها ؛ ولذلك كان لها عليهم هذه السلطة غير النظامية وغير المحدودة التي كان يتركها الشرع البلدي القديم للمواطن تجاه الأجنبي أو العدو ، وعلى هذا المبدأ ، نُنظِّمَت الإدارة الرومانية زمناً طويلاً وإليك كيف كانت تسير .

كانت روما ترسل أحد مواطنيها في إقليم ما ؛ وتجعل من هذا الإقليم ولاية (*provincia*) لهذا الرجل ، أي التزامه ، وعمله الخاص ، وشأنه الشخصي ؛ وقد كان ذلك معنى كلمة *provincia* في اللغة القديمة . وفي نفس الوقت كانت تخضع السلطان (*imperium*) على هذا المواطن ؛ ومعنى ذلك أنها كانت تتجرد لمصلحته ولزمن معين عن السيادة التي كانت لها على الإقليم . ومن تلك اللحظة أصبح يمثل هذا المواطن في شخصه جميع حقوق الجمهورية ، وبهذه الصفة كان سيداً مطلقاً . كان يحدد رقم الضريبة ، ويباشر السلطة الحربية ، ويقضي بين الناس . ولم يكن هناك دستور ينظم صلاته بالرعايا أو الحلفاء . وعندما يجلس في محكمته كان يقضي حسب إرادته وحده . وما من قانون يُفرض عليه ، لا قانون أهل الولاية ، إذ أنه روماني ، ولا القانون الروماني ، ما دام يقضي بين أهل الولاية . ولكي تكون هناك قوانين بينه وبين الخاضعين لإدارته ، كان لا بد أن يصدرها هو ؛ إذ أنه هو وحده كان يستطيع أن يلزم نفسه . لذلك كان السلطان (*imperium*) الذي يخضع عليه يحوى السلطة التشريعية . ومن هنا جاء أنه كان للحكام الحق في أن يصدروا ، وقد تعودوا أن يصدروا . عند دخولهم الولاية مجموعة من القوانين ، يسمونها مرسومهم ، يتعهدون من الناحية الخلقية بالسير بمقتضاها . ولكن لما كان الحكام يتغيرون كل عام فإن هذه المجموعات كانت تتغير أيضاً كل عام ، بسبب أنه لم يكن للقانون مصدر غير إرادة الرجل الذي كان يخضع عليه السلطان (*imperium*) لوقت ما . كان يطبق هذا المبدأ بصرامة ، بحيث أنه إذا أصدر الحاكم حكماً ولم ينفذ تماماً عند رحيله من الولاية فإن مجيء خلفه كان يلغى هذا الحكم إلغاء قانونياً وتبدأ الإجراءات من جديد (١) .

(١) غايوس ٤ : ١٠٣ - ١٠٦ .

تلك كانت هيمنة الحاكم . كان هو القانون الحى . أما الاستناد إلى العدالة الرومانية ضد تعسفاته أو جرائمه فإنه لم يكن فى استطاعة أهل الولاية إلا إذا وجدوا . مواطناً رومانياً يريد أن يقوم منهم مقام الولي (١) ، إذ لم يكن لهم من تلقاء أنفسهم حق الاحتماء فى قانون المدينة ولا الالتجاء إلى محاكمها . إنهم غرباء عنها ، وكانت اللغة القانونية والرسمية تسميهم peregrini (٢) وكل ما يقول القانون عن الـ *hostis* لا يزال ينطبق عليهم .

يظهر المركز القانونى لسكان الإمبراطورية جلياً فى كتابات الفقهاء الرومانيين . نرى فيها أن الشعوب كانت تعتبر كما لو لم تكن لها قوانينها الخاصة بها ، ولمَّا تحصل على القوانين الرومانية . وإذن لا شرع لها من أى طريق كان . فى نظر الفقيه الرومانى لا يُعتبر الفرد من أهل الولاية زوجاً ولا والدًا ، أى أن القانون لا يعترف له بالسلطة الزوجية ولا بالسلطة الأبوية . لم يكن له ملك ؛ بل إن هناك استحالة مزدوجة فى أن يكون مالِكاً : استحالة بسبب حالته الشخصية لأنه ليس مواطناً رومانياً ؛ واستحالة بسبب حالة أرضه لأنها ليست أرضاً رومانية ، إذ أن القانون لا يقبل الملكية الكاملة إلا فى حدود الأرض الرومانية (*ager romanus*) (٣) . ولهذا قال الفقهاء . إن أرض الولاية لا يمكن أن تكون ملكاً خاصاً إطلاقاً ، وإنه لا يمكن أن يكون للناس عليها غير الحياة والتمتع بالاستعمال والثمار (٤) . هذا وما يقولونه عن أرض الولايات فى القرن الثانى من الميلاد كان صحيحاً كذلك فيما يختص

(١) عن نظام الأولياء والموالى وعن تطبيقه على البلدان الخاضعة وعلى الولايات ، انظر سيسرون : الواجبات ١١ ؛ ضد كيكيليوس (Caecilius) ٤ ؛ ضد فيريس ٣ : ١٨ ؛ ديونيسيوس ٢ : ١١ ؛ تيتوس ليفيوس ٢٥ : ٢٩ ؛ فاليريوس ماكسيموس ٤ : ٣ ، ٦ ؛ أبيانوس : الحروب الأهلية ٢ : ٤ .

(٢) معناها : « الذين من الخارج » . وكذلك كلمة *hostis* معناها الأصلى « الذى من الخارج » . - العرب .

(٣) وكذلك كانت ، فيما بعد ، الأرض الإيطالية (*ager italicus*)

(٤) غايوس ٢ : ٧ : *In provinciali solo dominium populi romani est.*

انظر سيسرون : الدفاع عن فلاكوس ٣٢ .

بالأرض الإيطالية قبل أن تحصل إيطاليا على حق المدينة الرومانية، كما سراه قريباً. من المحقق إذن أنه كلما دخلت الشعوب في سلطان روما كانت تفقد ديانتها البلدية وحكومتها وشرعها الخاص. ومع ذلك يمكن أن نعتقد أن روما كانت تخفف، عند التطبيق، الناحية الهدامة من الرعوية. لذا نرى جيداً أنه إذا كان القانون الروماني لا يعترف للرعية بالسلطة الأبوية، إلا أنهم كانوا يتركون هذه السلطة قائمة في العرف الخلقى، وإذا كانوا لا يسمحون لمثل ذلك الرجل أن يدعى أنه مالك للأرض فإنهم كانوا يتركون له حيازتها؛ كان يزرع أرضه ويبيعها ويوصى بها. لم يكونوا يقولون أبداً إن هذه الأرض ملك له. لكنهم كانوا يقولون إنها بمثابة ملك له: *pro suo*. إنها لم تكن ملكاً له (*dominium*) لكنها كانت في أمواله: *in bonis* (١) وهكذا كانت تتصور روما طائفة من الطرائق الملتوية والحيل اللغوية لمصلحة الفرد من الرعية. حقاً إن العبقورية الرومانية، إذا حالت أثارها البلدية بينها وبين وضع قوانين للمغلوبين، فإنها لم تكن تستطيع أن تقبل سقوط المجتمع في الانحلال. من حيث المبدأ كانوا يوضعون خارج الشرع، أما في الواقع فإنهم كانوا يعيشون كما لو كان لهم شرع. ولكن فيما عدا ذلك تقريباً، وفيما عدا تسامح الغالب، كانوا يتركون جميع أنظمة المغلوبين تمحى وجميع قوانينهم تختفى. وكان السلطان الروماني (الإمبراطورية الرومانية *imperium romanum*)، على الأخص في عهدى النظام الجمهورى ونظام مجلس الشيوخ، يظهر بهذا المظهر الفذ: بقيت مدينة واحدة قائمة ولها أنظمة وشرع؛ أما البقية جميعها، أى ثمانون مليوناً من الأنفس فإما أنه لم يكن لها أى نوع من القوانين، وإما أنه لم يكن لها على الأقل قوانين معترف بها من المدينة ذات السيادة. لم يكن العالم عندئذ فوضى بالمعنى الدقيق؛ بل إنه بالنسبة لانعدام القوانين والمبادئ كانت القوة والتعسف والعرف تسند المجتمع دون سواها.

ذلك كان أثر الفتح الروماني على الشعوب التي أصبحت، الواحد بعد الآخر، فريسة لروما. أما المدينة فقد هوى كل شيء فيها: الديانة أولاً، ثم الحكومة،

(١) غايوس ١ : ٥٤ : ٢ : ٥٥ : ٦ : ٧٠

وفي النهاية القانون الخاص ؛ كل الأنظمة البلدية المتداعية منذ زمن بعيد اقتلعت في النهاية من جذورها وأبيدت. لكن لم يَحِلُّ أي مجتمع منظم ولا أي نظام للحكومة محل الذي اختفى فورَ اختفائه . كانت هناك فترة انقطاع بين اللحظة التي يرى الناس فيها انحلال النظام البلدي واللحظة التي رأوا فيها مولد مجتمع من طراز جديد. لم تكن الأمة هي التي خلفت المدينة أولاً ، إذ أن السلطان الروماني (الإمبراطورية الرومانية *imperium romanum*) لم يكن يشبه أمة ما من أية ناحية كانت. بل كان جماعة مبهمه ليس فيها نظام حقيقي إلا في نقطة مركزية ، أما البقية الأخرى فلم يكن لها إلا نظام كاذب وانتقالي ؛ بل إنها لم تحصل عليه إلا مقابل خضوعها . لم تصل الشعوب الخاضعة إلى تكوين نفسها في هيئة منظمة إلا عندما حصلت بدورها على الحقوق والأنظمة التي أرادت روما أن تحتفظ بها لنفسها ؛ وللوصول إلى ذلك كان لا بد لهذه الشعوب من دخول المدينة الرومانية ، وإفساح مكان لها فيها ، والاحتشاد فيها ، وتحويلها هي أيضاً لكي يجعلوا من أنفسهم ومن روما هيئة واحدة . ولقد كان ذلك عملاً طويلاً . عسيراً .

هـ — الشعوب الخاضعة تدخل في المدينة الرومانية على التوالي

رأينا كم كانت حال رعية روما يرثى لها ، وإلى أي حد كان نصيب المواطن أمينة التمتين . لم يكن الضرر يحقق بغرور الكبرياء وحده ، بل كان ينزل بأكثر المصالح مادية وأعزها على النفس . فإن من لم يكن مواطناً رومانياً ، لم يكن يعتبر زوجاً ولا أباً : لم يكن يستطيع شرعاً أن يكون مالكاً ولا وارثاً . كان لقب المواطن الروماني من القدر بحيث كان الإنسان بدونيه يعد خارج الشرع ، وبه كان يلج المجتمع المنظم . لذلك أصبح هذا اللقب موضعاً لأشد رغبات الناس . فتطلع اللاتيني والإيطالي والإغريقي ، وفيما بعد الإسباني والغالي ، إلى أن يكونوا مواطنين رومانيين: وهي الوسيلة الوحيدة لتكون للإنسان حقوق ولكي يعد شيئاً يذكر. فعملوا جميعاً، الواحد بعد الآخر ، وفي الترتيب الذي دخلوا فيه إمبراطورية روما على وجه التقريب ، عملوا على الدخول في المدينة الرومانية ، ونجحوا في ذلك بعد جهود طويلة .

وإدخال الشعوب في الدولة الرومانية هذا الإدخال البطيء هو آخر عمل في تاريخ تحول القدماء الاجتماعي الطويل . ولكي نلاحظ هذا الحدث الكبير على جميع أوجهه المتتالية يجب أن نراه وهو يبدأ في القرن الرابع قبل الميلاد .

كان اللاتيون خاضعاً؛ فقد قضت روما على نصف الشعوب الأربعين الصغيرة التي كانت تقطنه ، وجردت بعضها من أراضيها ، وتركت للآخرين لقب حلفاء . وفي سنة ٣٤٠ ، لحظ هؤلاء أن المحالفة كانت وبالا عليهم ، وأن عليهم أن يطيعوا في كل شيء ، وأنه محكوم عليهم أن يبذلوا دمهم ومالههم كل عام لمنفعة روما وحدها ، فتألبوا . وأعلن رئيسهم أنيوس (Annius) مطالبهم في مجلس شيوخ روما بهذه الصيغة : « فلنعط المساواة ؛ ولتكن لنا نفس القوانين . ولنكون معكم دولة واحدة فقط (una civitas) ؛ وليكن لنا اسم واحد . ولننسَمَ جميعاً روماناً على قدم المساواة » . (١) هكذا أعلن أنيوس ، منذ سنة ٣٤٠ ، الأمنية التي فكرت فيها جميع شعوب الإمبراطورية الواحد تلو الآخر ، والتي لم تكن لتحقيق تماماً إلا بعد خمسة قرون ونصف . أما في ذلك الوقت فقد كانت مثل هذه الفكرة جديدة وغير متوقعة . وقد أعلن الرومان أنها شيطانية وإجرامية ؛ والواقع أنها كانت مناقضة للديانة القديمة ولحق المدن القديم ، فأجاب القنصل مانليوس أنه إذا حدث أن قبيل- مثل هذا الاقتراح فإنه ، هو القنصل ، يقتل بيده أول لاتيني يأتي لكي يجلس في محل الشيوخ ؛ ثم أدار وجهه نحو المذبح واستشهد بالإله قائلا : « لقد سمعت ، يا جوبيتر ، الكلمات الفاجرة التي خرجت من فم هذا الرجل . أتستطيع أن تسمع : أيها الإله ، أن يأتي أجنبي ليجلس في معبدك المقدس كشيخ أو كقنصل ؟ » وهكذا عبر مانليوس عن شعور الكراهية القديم الذي كان يفصل بين المواطن والأجنبي . لقد كان يتكلم باسم القانون الديني العتيق الذي كان ينص على أنه يجب على الناس أن يكرهوا الأجنبي لأنه ملعون من آلهة المدينة ، كان يبدو له من المستحيل أن يكون لاتيني شيخاً ، لأن

(١) تيتوس ليفيوس ٨ : ٣ ، ٤ ، ٥ .

مكان اجتماع مجلس الشيوخ كان معبدًا ، ولأنه لم يكن في استطاعة الآلهة الرومانية أن تحتل في معبدها حضور أجنبي (١) .

وتلت ذلك الحرب ؛ وقد غلب اللاتينيون فعملوا *deditio* أي أنهم سلموا للرومانيين بلدانهم وعباداتهم وقوانينهم وأرضهم . كان وضعهم قاسياً . قال قنصل في مجلس الشيوخ إنه إذا لم يكن المراد أن تحاطروما بصحراء مرامية فإنه يتحتم تنظيم مصير اللاتينيين بشيء من الحلم . لم يفسر تيتوس ليفيوس ما عملوه تفسيراً جلياً . وإذا كان لابد من تصديقه فإنهم أعطوا اللاتينيين حق المدينة الرومانية ولكن دون أن يدخلوا فيه ، من الناحية السياسية ، حق التصويت ، ومن الناحية الدينية ، حق الزواج . ويمكن أن نلاحظ علاوة على ذلك ، أن هؤلاء المواطنين المحدد لم يكونوا معدودين في نصاب الإحصاء (*Cens*) . نرى جيداً أن مجلس الشيوخ كان يخذع اللاتينيين بتطبيق اسم مواطنين رومانيين عليهم ؛ كان هذا اللقب يخفى وراءه خضوعاً حقيقياً ، طالما كانت على الذين يحملونه التزامات المواطن دون أن تكون لهم حقوقه . ولقد كان ذلك من الصحة بحيث ثارت عدة بلدان لاتينية لكي يسحب منها هذا الذي ادعوا أنه حق المواطن .

ثم انقضت حوالى مائة عام ؛ ومن غير أن نخبرنا تيتوس ليفيوس بشيء ما ، نرى أن روما قد غيرت سياستها . لقد زالت حالة اللاتينيين الذين كان لهم حق المواطن فيما عدا التصويت وحق الزواج (*connubium*) . لقد استردت روما منهم لقب المواطن أو الأرجح أنها أزالته هذا الكذب ؛ واستقر رأيها على أن ترد للبلدان المختلفة حكوماتها البلدية وقوانينها ومناصبها .

لكن كان من المهارة العظيمة أن فتحت روما باباً ، مهما كان ضيقاً ، فإنه كان يسمح للرعايا بالدخول في المدينة الرومانية . فسمحت بأن كل لاتيني

(١) تيتوس ليفيوس ٨ : ٥ ؛ وتضيف الأسطورة أن واضح هذا الاقتراح ، البالغ في الإثم والناقضة للمبادئ القديمة للديانة المدنية ، قد أصابته الآلهة بموت فجائي عند خروجه من المجلس .

شغل منصباً في البلدة التي ولد فيها يصبح مواطناً رومانياً عند نهاية مأموريته (١). وفي هذه المرة كانت المنحة المتضمنة حق المدينة كاملة وفي غير تحفظ : التصويت والمناصب ، والتسجيل في سجل الاحصاء ، والزواج ، والقانون الخاص ، كل ذلك كان موجوداً فيها . أذعنت روما لاقتسام ديانتها ، وحكومتها ، وقوانينها ، مع الأجنبي ؛ وكل ما هنالك أن هذه المنح كانت فردية ، ولم تكن موجهة لمدين بأكملها ، بل لبعض الناس في كل منها . ولم تقبل روما في نطاقها إلا خير من كانوا في اللاتيوم وأكثرهم مالا وأوفرهم اعتباراً .

وعندئذ أصبح حق المدينة هذا شيئاً ثميناً ، أولاً لأنه كان كاملاً ، وثانياً لأنه كان امتيازاً . وعن طريقه أصبح المرء يمثل في لجان أقوى بلدة في إيطاليا ، كان في الإمكان أن يكون قنصلاً وأن يتولى إمرة الفيالق . وكان فيه أيضاً ما يرضى مطامع أكثر تواضعاً من هذه ؛ فبفضله أصبح في استطاعة المرء أن يصاهر أسرة رومانية ، وأن يقيم في روما وأن يكون مالكاً فيها ؛ وفي استطاعته الاتجار في روما التي أصبحت ، قبل ذلك ، أول سوق تجارى في العالم . وفي استطاعته الدخول في شركات التزام الضرائب ، أى المساهمة في المنافع العظيمة التي كانت تجلبها جباية الضرائب أو المضاربة على أراضي الأملاك العامة (*ager publicus*) . وحيثما سكن الإنسان كان محمياً حماية فعالة جداً ، فلم يكن في متناول سلطة الحكام البلديين ، بل كان في حمى من أهواء الحكام الرومانيين أنفسهم . يكنى أن يصبح الانسان مواطناً رومانياً لكي يحصل على المناصب والثروة والأمن .

عندئذ أبدى اللاتينيون حرصاً في السعى وراء هذا اللقب ، واستعملوا جميع الوسائل للحصول عليه . أرادت روما ، ذات يوم ، أن تظهر بشيء من الشدة فاكتشفت أن ١٢٠٠٠ منهم قد حصلوا عليه خدعة (٢) .

كانت روما ، في العادة ، تغمض عينها ظناً منها أن سكانها يزدادون بهذه الطريقة وأنها تعوض خسائر الحرب . لكن المدن اللاتينية كانت تتضرر ؛ فإن أكثر

(١) أبيانوس : الحروب الأهلية ٢ : ٢٦ . انظر غايوس ١ : ٩٥ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٣٩ : ٣ .

مواطنيها ثراء كانوا يصبحون رومانيين ، وأخذ اللاتيون يفتقر وأصبحت الضريبة ، التي كان يعفى منها أكثرهم ثراء باعتبارهم مواطنين رومانيين ، تزداد ثقلاً ؛ وأصبحت تكملة فرقة الجنود ، التي كان لابد من تقديمها لروما ، تصبح كل عام أشد عسراً عما كانت عليه في سابقه . وكلما زاد عدد أولئك الذين حصلوا على حق المدينة ، كلما اشتدت حالة الذين لم يحصلوا عليه ؛ وقد جاء زمن طلبت فيه البلدان اللاتينية ألا يصبح حق المدينة هذا امتيازاً .

كانت المدن الإيطالية ، التي خضعت منذ قرنين ، في نفس الحالة تقريباً التي كانت عليها المدن اللاتينية ، وكانت ترى أيضاً أكثر أهلها ثراء يهجرونها ليصبحوا رومانيين فطالبت لنفسها بحق المدينة هذا . ومما جعل مصير الرعايا أو الحلفاء أقل احتمالاً في تلك الفترة إن حكم العامة في روما كان يثير عندئذ المسألة الكبرى ، ألا وهي مسألة قوانين توزيع الأراضي . وقد كان مبدأ جميع القوانين ألا يستطيع فرد من الرعية أو الحلفاء أن يكون مالِكاً للأرض اللهم إلا بقرار صريح من المدينة ، وأن الجزء الأكبر من الأراضي تابع للجمهورية ؛ وقد طالب أحد الأحزاب بأن تستعيد الدولة هذه الأراضي التي كان يحتلها كلها تقريباً إيطاليون وتقسّمها بين فقراء روما . فكان الإيطاليون مهددون إذن بخراب عام ؛ شعروا شعوراً قوياً بأنهم في حاجة إلى أن تكون لهم قوانين مدنية ، ولم يكن في استطاعتهم أن يحصلوا عليها إلا إذا أصبحوا مواطنين رومانيين .

وقد سميت الحرب التي نتجت عن ذلك بحرب الشركاء (guerre sociale) ؛ إذ أن حلفاء روما هم الذين حملوا السلاح كيلا يكونوا حلفاء بعد ذلك ولكي يصبحوا رومانيين . وبالرغم من انتصار روما فإنها اضطرت : إلى منح ما كان يطلب منها ، وحصل الإيطاليون على حق المدينة . اندمجوا منذئذ في الرومان ، واستطاعوا أن يصوتوا في الساحة العامة (forum) ؛ أما في الحياة الخاصة ، فقد أصبحت تحكمهم القوانين الرومانية ؛ وأُعترف بحقوقهم على الأرض ، وأصبح في الاستطاعة حيازة الأرض الإيطالية حيازة تملك ، على قدم المساواة مع الأرض الرومانية . وعندئذ قام الحق الإيطالي (jus italicum) الذي لم يكن حق الشخص

الإيطالي ، ما دام الإيطالي قد أصبح رومانيا ، بل حق الأرض الإيطالية التي أصبحت قابلة للتملك كما لو كانت أرضاً رومانية (*ager romanus*) (١) .
ابتداء من ذلك الوقت كونت إيطاليا بأسرها دولة واحدة. لكن بقي إدخال الولايات (*provincine*) في الوحدة الرومانية .

يجب التمييز بين ولايات الغرب وبين بلاد الإغريق . في الغرب كانت توجد بلاد الغال واسبانيا التي لم تكن، قبل الفتح، تعرف النظام البلدي الحقيقي. فتأثرت روما على خلق هذا النظام عند هذه الشعوب، إما لأنها اعتقدت استحالة حكمها بطريقة أخرى ، وإما أنه كان لا بد لاندماجها في الأهالي الإيطاليين شيئاً فشيئاً من جعلها تمر بنفس الطريق التي سلكها هؤلاء الأهالي . ومن هنا جاء أن الأباطرة ، الذين أبطلوا في روما كل حياة سياسية، قد رعوا بعناية صور الحرية البلدية في الولايات . وهكذا نشأت مدن في بلاد الغال ؛ وكان لكل منها مجلس شيوخها ، وهيئة سراتها ، ومناصبها الانتخابية ؛ بل أصبح لكل منها عبادتها المحلية وجنسها (*genius*) ومعبودها المدني على نمط ما كان في بلاد الإغريق القديمة وروما القديمة. هذا وإن النظام البلدي، الذي أقيم على هذا النحو ، لم يمنع الناس من الوصول إلى المدينة الرومانية ، بل على العكس أعدهم لها . وقد كانت هناك درجات بين هذه البلدان مديرة تدبيراً ماهراً ، وتبين المراتب التي كان لا بد منها لكي تقترب من روما تدريجياً وللاندماج فيها في النهاية . كانوا يميزون : ١ - الحلفاء الذين كانت لهم حكومة وقوانين خاصة بهم ، ولم تكن بينهم وبين المواطنين الرومانيين أية رابطة شرعية ؛ ٢ - المستعمرات التي كانت تتمتع بحق الرومانيين المدني

(١) ولذا أطلق عليه في القانون ، منذ تلك اللحظة ، *res mancipi* ، أليانوس ١٩ : ١ . أما الحق الإيطالي (*jus italicum*) الذي تدل جميع المظاهر على أنه كان موجوداً في عصر سيسرون فإنه لم يذكر للمرة الأولى إلا في بلينيوس : التاريخ الطبيعي ٣ : ٣ : ٢٥ ؛ ٣ : ٢١ : ١٣٩ ؛ وحتى في ذلك الوقت كان ينطبق، بدافع التوسع الطبيعي ، على أرض عدة بلدان واقعة وسط الولايات . انظر ديجست ، السقر الخمسين ، الباب ١٥ .

دون أن تكون لهم الحقوق السياسية ؛ ٣ - المدن ذات الحق الإيطالي ، أى تلك التى منحها عطف روما حق التملك التام على أراضيها كما لو كانت هذه الأراضى فى إيطاليا ؛ ٤ - بلدان الحق اللاتينى ، أى تلك التى كان يستطيع سكانها ، بمقتضى العرف القائم فى اللاتيوم فيما مضى ، أن يصبحوا مواطنين رومانيين بعد أن يشغلوا منصباً بلدياً . وقد كانت هذه الفوارق من العمق بحيث لم يكن هناك زواج ممكن ، ولا أية صلة شرعية بين أشخاص من فئتين مختلفتين ؛ لكن الأباطرة قد عنوا بأن ترتقى البلدان ، مع مضى الزمن ، ومن درجة إلى درجة ، من حالة الرعية أو الخليف إلى الحق الإيطالي ، ومن الحق الإيطالي إلى الحق اللاتينى . وعندما تصل بلدة إلى هذا الحد كانت الأسرات الهامة فيها تصبح رومانية الواحدة تلو الأخرى .

وكذلك بلاد الإغريق دخلت فى الدولة الرومانية أيضاً شيئاً فشيئاً . احتفظت كل بلدة فى البدء بأشكال النظام البلدى ودواليبه . فقد أظهرت بلاد الإغريق عند الفتح أنها راغبة فى الاحتفاظ باستقلالها الذاتى ، فترك لها ، وربما ترك لها زمناً أطول مما كانت تمنى ؛ وبعد أجيال قليلة ، تطلعت لأن تكون رومانية ؛ وقد عمل الغرور ، والطمع ، والمنفعة ، فى هذا السبيل .

لم يكن لدى الإغريق نحو روما هذا الحقد الذى يحمله الناس فى العادة لسيد أجنبي ؛ بل أعجبوا بها ، وكانوا يكون لها الاحترام . فخصصوا لها عبادة من تلقاء أنفسهم ، وأقاموا لها معابد كما لو كانت إلها . ونسيت كل بلدة معبودها المدنى ، وعبدت مكانه الإلهة روما والإله قيصر ، وخصوهما بأجمل الأعياد . ولم يكن لذوى المناصب الأولى وظيفه أعلى من الاحتفال بالأعياد الأوغسطية بفخامة عظيمة (١) . وهكذا تعود الناس أن يرفعوا أبصارهم الى ما فوق مدنها ؛ فكانوا يرون فى روما المدينة ولا مدينة مثلها ، الوطن الحقيقى ، بيت نار(بريتانيون) جميع الشعوب . وكانت المدينة التى ولدوا فيها تبدو صغيرة ، ولم تعد مصالحها تشغل الأفكار ، ولا المناصب التى تمنحها ترضى المطامع . ولم يكن الإنسان

(١) أقام الاغريق معابد للإلهة روما منذ سنة ١٩٥ أى قبل أن تفتح بلادهم .
تاسيتوس (Tacite) الحوليات ٤ : ٥٦ ؛ تيتوس ليفيوس ٤٣ : ٦ .

بحسب نفسه شيئاً ما إذا لم يكن مواطناً رومانياً . حقاً إن هذا اللقب لم يعد ينحصر على الإنسان حقوقاً سياسية في عهد الأباطرة ؛ لكن كانت وراءه منافع أكثر ضماناً ، ما دام الرجل الذي كان يحمله كان يحصل في نفس الوقت على حق الملك الشرعي ، وحق الزواج ، والسلطة الأبوية ، والحق المدني الروماني كله . أما القوانين التي كان يجدها كل فرد في بلده فقد كانت قوانين متقلبة وعلى غير أساس ، ولم تكن قائمة إلا على مجرد التسامح ؛ كان الروماني يزدرئها ، والإغريق ذاته لا يقدرها إلا قليلاً . فلكي تكون للإنسان قوانين ثابتة ، معترفاً بها من الجميع ، ومقدسة حقاً ، كان لا بد له من الحصول على القوانين الرومانية .

لم يلاحظ أن بلاد الإغريق في مجموعها ، ولا حتى بلدة إغريقية بمفردها ، قد طالبت بصراحة بحق المدنية ، هذا الحق المرغوب فيه . لكن الناس عملوا على انفراد للحصول عليه ، وقد استسلمت روما لذلك عن طيب خاطر . حصل عليه البعض من عطف الإمبراطور ، واشتراه البعض الآخر ؛ منحوه لمن يهب المجتمع ثلاثة أطفال ، أو من يخدم في بعض فرق الجيش ؛ وفي بعض الأحيان كان يكفي للحصول عليه أن يبنى الإنسان سفينة تجارية ذات حمولة معينة ، أو أن يحمل قمحاً إلى روما . وكانت هناك وسيلة هينة عاجلة للحصول عليه وهي أن يبيع الإنسان نفسه كرقيق لمواطن روماني ؛ إذ أن العتق بالصورة القانونية كان يؤدي إلى حق المدينة (١) . لم يكن الرجل الحائز للقب مواطن روماني عضواً في البلدة التي ولد فيها ، لا من الناحية المدنية ، ولا من الناحية السياسية . كان يستطيع أن يستمر على السكن فيها ، لكنه كان يعتبر فيها أجنبياً ؛ لم يعد خاضعاً لقوانين البلدة ، ولم يعد خاضعاً لأهل الحكم فيها ، ولم يعد يتحمل تكاليفها المالية (٢) . كان ذلك نتيجة للمبدأ القديم الذي لم يكن يسمح لرجل أن ينتمي إلى مدينتين في آن واحد (٣) .

(١) سويتونيوس : نيرون ٢٤ . بترونيوس ٥٧ . البيانوس ٣ . غايوس ١ :

١٦ ، ١٧ .

(٢) كان يصبح أجنبياً حتى تجاه أسرته إذا لم تكن حاصلة مثله على حق المدينة ،

ولم يكن يرث منها . بلينيوس : مديح (Panegyrique) ٣٧

(٣) سيسرون : الدفاع عن بالبوس ٢٨ ؛ الدفاع عن أرخيلاس ٥ ؛ الدفاع عن

كيكينا (Caecina) ٣٦ . قورنيليوس نيبوس : أتيكوس ٣ . وقد هجرت بلاد الإغريق

هذا المبدأ منذ زمن بعيد ؛ لكن روما ظلت متمسكة به باخلاص .

وقد كان يحدث بالطبع أن يوجد في كل بلدة إغريقية ، بعد بضعة أجيال ، عدد لا بأس به من الناس ، هم في العادة أكثرهم ثراء ، لا يعترفون بحكومة هذه البلدة ولا بقوانينها . وهكذا باد النظام البلدى ببطء ، كما لو كان بفعل الموت الطبيعى . ولقد جاء يوم كانت فيه المدينة إطاراً لا يحوى شيئاً ، ولا تكاد القوانين المحلية تطبق فيه على أحد ، ولا يجد فيه القضاة البلديون من يقضون بينهم .

وفي النهاية بعد أن تطلعت ثمانية أجيال ، أو عشرة ، وراء حق المدينة الرومانية ، وبعد أن حصل عليه كل من كان ذا قيمة ، ظهر عندئذ مرسوم إمبراطورى بمنحه لجميع الناس الأحرار من غير تفريق .

أما الغريب هنا فهو أننا لا نستطيع أن نوكد تاريخ هذا المرسوم ولا اسم الأمير الذى أصدره ؛ وقد جعلوه ، مع شبهة من الحق ، من مآثر كاراكلا (Caracalla) ، أى أمير لم تكن له قط آراء عالية ؛ لذلك لم ينسبوه إليه إلا باعتباره مجرد إجراء مالى . لا نعثر في التاريخ إطلاقاً على مراسيم أهم من هذا المرسوم : كان يمحو التمييز الذى كان موجوداً منذ الفتح الرومانى بين الشعب السائد والشعوب الخاضعة بل كان يمحو التمييز الذى وضعته الديانة والشرع بين المدن . بيد أن مؤرخى ذلك العصر لم يلاحظوه ، ولا نعرفه إلا من نصين مبهمين من نصوص الفقهاء وبيان قصير لديون كاسيوس (Dion Cassius) (١) . إذا كان هذا المرسوم لم يثراهما

(١) *Antoninius Pius jus romanae civitatis omnibus subjectis donavit* (Justinien, *Novelles*, 78, ch. 5). *In orbe romano qui sunt, ex constitutione imperatoris Antonini, cives romani effecti sunt* (Ulpian, au *Digeste*, lib. I, tit. 5-17).

هذا وإننا نعلم من اسبارطيانوس (Spartien) أن كاراكلا كان يدع الناس يسمونه في الأعمال الرسمية انطونينوس . يقول ديون كاسيوس (٩: ٤٧) أن كاراكلا منح جميع سكان الامبراطورية حق المدينة الرومانية لكي ينعم ضريبة الجزء من عشرين (٥ في المائة) على العتق وعلى التركات التى لم يكن الـ *peregrini* يدفعونها . لم يختلف التمييز بين الغرباء واللاتينيين والمواطنين اختفاء تاماً ؛ ولا زلنا نجده في البيانوس وفي مجموعة القوانين (Code) ؛ والواقع أنه يبدو طبيعياً ألا يصبح الأرقاء المعتقون مواطنين رومانيين فوراً ، بل يمرون بجميع الدرجات القديمة التى كانت تفصل العبودية عن حق المدينة . نرى أيضاً من بعض القرائن أن التمييز بين الأراضى الايطالية وأراضى الولايات بقى بعد ذلك زمناً طويلاً (مجموعة القوانين ٧ : ٢٥ ؛ ٧ : ٣١ ؛ ١٠ : ٣٩ ؛ ديجست ، السفر ٥ ، الباب الأول) . وهكذا كانت بلدة صور في فينيقية لا تزال بعد كاراكلا تتمتع بالحق الايطالى بمقتضى امتياز (ديجست ، السفر الخامس ، الباب ١٥) ؛ وبقاء هذا التمييز تفسره مصلحة الأباطرة الذين لم يكونوا يريدون حرمان أنفسهم من الاتاوات التى كانت تدفعها أرض الولايات لبيت المال .

المعاصرين له ولم يلاحظه أولئك الذين كانوا يكتبون التاريخ عندئذ فما ذلك إلا لأن التغيير ، الذى كان ، هو ، التعبير القانونى عنه ، كان قد تم منذ زمن بعيد . فقد راح التفاوت بين المواطنين وبين الرعايا يضعف فى كل جيل ، وزال شيئاً فشيئاً . لقد استطاع المرسوم أن يمر غير ملحوظ تحت ستار اجراء مالى ؛ لكنه أعلن ما كان أمراً واقعاً من قبل ونقله إلى نطاق الشرع .

عندئذ بدأ لقب المواطن يزول من الاستعمال ، أو إذا كان لا يزال مستعملاً ، فإنما كان يستعمل للدلالة على حالة الرجل الحر كتنقيض لحالة العبد . ابتداء من ذلك الوقت ، كل من كان عضواً فى الامبراطورية الرومانية من اسبانيا إلى الفرات كون فى الحقيقة شعباً واحداً ودولة واحداً . اختفى التمييز بين المدن ، أما التفريق بين الأمم فلم يظهر إلا ظهوراً ضعيفاً . كان سكان هذه الإمبراطورية العظيمة جميعهم رومانيين على قدم المساواة . هجر الغالى اسمه كغالى وتسمى رومانيا فى حماس ؛ وهكذا فعل الاسبانى ؛ وسكان تراقيا أو سوريا . لم يعد هناك غير اسم واحد ، ووطن واحد ، وحكومة واحدة ، وشرع واحد .

نرى إلى أى حد تطورت المدينة الرومانية من عصر إلى عصر . لم تكن تحوى فى الأصل غير بطارقة وموالى ، ثم ولجتها طبقة السوق ، ثم اللاتينيون ، ثم الإيطاليون ، وأخيراً جاء سكان الولايات . لم يكن الفتح كافياً للقيام بهذا التغيير العظيم ؛ كان لا بد من التبدل البطيء فى الآراء ، والتسامح من جانب الأباطرة بمحنة ولكن من غير انقطاع ، واندفاع المصالح الفردية . عندئذ اختفت جميع المدن شيئاً فشيئاً ؛ وتبدلت المدينة الرومانية ذاتها ، وهى آخر ما تبقى قائماً ، تغييراً تاماً بحيث أصبحت مجموعة من اثنى عشر شعباً من الشعوب الكبيرة تحت رئيس واحد . وهكذا سقط النظام البلدى .

إنه لا يدخل فى موضوعنا أن نقول ما هو نظام الحكومة الذى حل محل هذا النظام ، ولا أن نبحت فيما إذا كان هذا التغيير أكثر فائدة للأهالى ، فى البدء ، أم أكثر ضرراً . يجب علينا أن نقف فى اللحظة التى محيت فيها الأشكال الاجتماعية التى أقامها الزمن العتيق محواً أبدياً .

الفصل الثالث

المسيحية تغير أحوال الحكومة .

كان انتصار المسيحية دليلاً على انتهاء المجتمع العتيق . فمع الديانة الجديدة ينتهى هذا التبدل الاجتماعى الذى رأيناه يبدأ قبلها بستة قرون أو سبعة .

لكى نعرف إلى أى حد تبدلت عندئذ المبادئ والقواعد الجوهرية للسياسة ، يكفي أن نتذكر أن المجتمع القديم كونه ديانة قديمة ، كانت عقيدتها الأولى أن كل إله يحمى أسرة أو مدينة دون سواها وأنه لم يوجد إلا من أجلها . كان ذلك عصر الآلهة المنزلين والمعبودات المدنية . ومن هذه الديانة ولد الشرع ؛ فالعلاقات بين الناس ، والملك ، والميراث ، والإجراءات ، كل ذلك لم ينظم عن طريق مبادئ الإنصاف الطبيعى ، بل عن طريق قواعد هذه الديانة ومن أجل حاجات عبادتها . وهى أيضاً التى أقامت حكومة بين الناس : حكومة الأب فى الأسرة ، وحكومة الملك أو الحاكم فى المدينة . جاء ذلك كله من الديانة ، أى من الرأى الذى كونه عن المعبود . اختلطت الديانة والشرع والحكومة فلم تكن سوى شىء واحد ذى ثلاثة مظاهر متباينة .

حاولنا أن نلقى ضوءاً على هذا النظام الاجتماعى للقديما الذى كان للديانة فيه السيادة المطلقة على الحياة الخاصة والحياة العامة ؛ الذى كانت الدولة فيه جماعة دينية ، والملك حبراً ، ورجل الدولة كاهناً ، والقانون صيغة مقدسة ؛ حيث كانت الوطنية من السبر ، والنقى حرماناً من المعبد ؛ حيث كانت الحرية الفردية مجهولة ؛ وحيث كان الإنسان مستعبداً للدولة عن طريق الروح ، وعن طريق الجسم ، وعن طريق المال ؛ حيث كان الحق على الأجنبي إلزامياً ؛ حيث كانت فكرة الحق ، والواجب ، والعدل ، والمحبة ، تقف عند حدود المدينة ؛ حيث كان المجتمع الإنسانى محدوداً ، بحكم الضرورة ، فى دائرة معينة حول بيت النار ؛ حيث

لم يكونوا يرون احتمالاً لتأسيس مجتمعات أوسع من تلك المجتمعات . تلك كانت الصفات المميزة للمدن الإغريقية والإيطالية خلال الفترة الأولى من تاريخها . لكن المجتمع تبدل شيئاً فشيئاً كما رأينا . فقد تمت تغييرات في الحكومة وفي الشرع في نفس الوقت الذي تناولت فيه العقائد . أما من قبل ، وفي القرون الخمسة التي سبقت المسيحية ، فإن الصلة بين الديانة ، من ناحية ، والشرع والسياسة ، من ناحية أخرى ، لم تكن وثيقة بمثل هذه الدرجة . فإن جهود الطبقات المضطهدة وإسقاط الطبقة الكهنوتية ، وعمل الفلاسفة ، وتقدم الفكر ، قد هزت مبادئ المجتمع البشري القديمة . ولقد بذلت جهود لا تنقطع للتخبر من سلطان هذه الديانة القديمة التي لم يعد في استطاعة الإنسان أن يفكر فيها ؛ لقد تخلص الشرع والسياسة ، كما تخلصت الأخلاق ، من روابطها شيئاً فشيئاً .

لكن هذا النوع من الطلاق كان نتيجة لتخية الديانة القديمة ؛ إذا كان الشرع والسياسة قد ابتداءً يستقلان بعض الشيء فما ذلك إلا لأنه لم يعد للناس عقائد ؛ وإذا كانت الديانة لم تعد تحكم المجتمع فإنما يرجع ذلك على الأخص إلى أنه لم تعد للديانة قوة . هذا ، وقد جاء يوم استعادت فيه العاطفة الدينية حياتها وقوتها ، واستعادت العقيدة سلطانها على الروح . ألسنا نوشك أن نرى من جديد الخلط القديم بين الحكومة والكهنوت ، بين الإيمان والقانون ؟

لم يقتصر الأمر مع المسيحية على بعث الحياة في العاطفة الدينية من جديد ، بل إنها اتخذت تعبيراً اسمياً وأقل مادية . فبينما اتخذوا فيما مضى آلهة من الروح البشرية أو من القوى الطبيعية العظيمة ، إذ بهم قد بدؤوا يدركون الله كذاتٍ غريبة حقاً في جوهرها عن الطبيعة البشرية من ناحية ، وعن العالم من ناحية أخرى . وقد وضع الشيء الإلهي خارج الطبيعة المريعة وفوقها ، لارجعة في ذلك . فبينما كان كل رجل في الماضي يصنع إلهه ، وكان هناك من الآلهة بقدر ما كان من أسرات ومدن ، إذ بالله يبدو عندئذ كذات واحدة لا حد لها ، عامة ، تبعث الحياة في العالم وحدها ، وهي وحدها يجب أن تسد الحاجة إلى العبادة الكائنة في الإنسان . فبدلاً من أن تكون الديانة ، عند شعوب بلاد الإغريق وإيطاليا ، كما كانت في الماضي ، مجرد مجموعة من العبادات ،

أى طائفة من الشعائر يكررونها دون أن يروا فيها أى معنى ، وسلسلة من الصيغ لم يكونوا يفهمونها فى معظم الأحوال لتقدم لغتها ، وأثارة تنقل من عصر إلى عصر ولا تتلقى صفتها المقدسة إلا من قدمها، بدلا من ذلك كله أصبحت الديانة مجموعة تعاليم وموضوعاً عظيماً معروضاً للإيمان . لم تعد خارجية ، بل استقرت على الأخص فى فكر الإنسان . لم تعد مادة ، بل أصبحت روحاً . غيرت المسيحية طبيعة العبادة وشكلها : لم يعد الإنسان يعطى الإله المأكل والمشرب ؛ ولم تعد الصلاة صيغة لغزيمة سحرية ، بل أصبحت عملاً من أعمال الإيمان والتناساً بتواضع . أصبحت للروح صلة أخرى بالمعبود : حلت محبة الله محل الخوف من المعبود .

جلبت المسيحية مستحدثات أخرى. فإنها لم تكن الديانة المنزلية لأية أسرة ، ولا الديانة القومية لأية مدينة أو لأى جنس . لم تكن تابعة لطبقة ولا لطائفة. فنذ ابتدأها دعت إليها الإنسانية جمعاء . قال يسوع المسيح لتلاميذه : « اذهبوا وعلموا جميع الشعوب ».

كان هذا المبدأ غير عادى ، وغير منتظر ، بحيث تردد التلاميذ الأولون فترة من الوقت . ويمكن أن نرى فى أعمال الرسل أن كثيرين امتنعوا فى البدء عن نشر المذهب الجديد خارج الشعب الذى نشأ فيه . فكر هؤلاء التلاميذ، كما فكر القدماء من اليهود، أن إله اليهود لا يريد أن يعبد الغريب ؛ كانوا يعتقدون ، كما كان يعتقد الرومان والإغريق فى الأزمنة القديمة ، أن كل جنس له إله وأن الدعوة إلى هذا الإله وإلى عبادته ما هى إلا التنازل عن ملك خاص وعن حام خاص ، وأن مثل هذه الدعوة منافية للواجب والمصلحة معاً . لكن بطرس رد على هؤلاء التلاميذ : « لا فرق عند الله بين أهل الأمم الأخرى وبيننا » . وقد طاب للقديس بولص أن يكرر هذا المبدأ العظيم فى كل مناسبة وعلى جميع الأشكال فيقول « يفتح الله لأبناء الأمم أبواب الإيمان ، هل الله إله اليهود فقط ؟ كلا إنه إله أبناء الأمم أيضا ... إن أبناء الأمم يُدْعَوْنَ لأنفس الميراث الذى يدعى إليه اليهود ».

كان فى ذلك كله شىء جديد جداً . إذ أنه فى العصر الأول من البشرية ، أدرك الإنسان المعبود باعتباره مرتبطاً بجنس من الأجناس بصفة خاصة . اعتقد اليهود فى إله اليهود ، والأثينيون فى پالاس الأثينية ، والرومان فى جوبيتر الكايتولنى . كان الحق فى ممارسة عبادة ما امتيازاً . « صدَّ الأجني عن المعابد ؛

لم يستطيع من لم يكن يهودياً أن يدخل في معبد اليهود ؛ ولم يكن للا قديمون الحق في دعوة بالآس الأثينية . ومن الحق أن نقول إن كل من كان ذا فكر في القرون الخمسة التي سبقت المسيحية كان ثائراً على هذه القواعد الضيقة . علمت الفلسفة مراراً منذ أناكساغوراس (Anaxagore) أن إله الكون يتلقى تحيات جميع الناس بلا تفریق . تقبلت ديانة إلوسيس (Eleusis) من يتعلمونها من جميع البلدان . وتقبلت عبادتا كيبيله (Cybèle) وسيراپيس (Sérapis) عبادا من جميع الأمم بلا تفریق . وبدأ اليهود يقبلون الأجنبي في عبادتهم ، وقبله الإغريق والرومان في مدتهم . وقد جاءت المسيحية بعد كل هذا التقدم في الفكر والأنظمة فقدمت لعبادة الناس جميعاً إلهاً واحداً ، إلهاً عاماً ، إلهاً للجميع ؛ ليس له شعب مختار ولا يميز بين الأجناس والأسرات والدول .

لم يعد هناك أجنبى بالنسبة لهذا الإله . لم يعد الأجنبى يندس المعبد ولا ينجس القربان لمجرد حضوره ؛ وفتح المعبد لكل من آمن بالله . لم يعد الكهنوت وراثياً ، لأن الديانة لم تعد ملكاً موروثاً . لم تعد العبادة سرّاً محفوظاً ؛ لم تعد الشعائر والصلوات والتعاليم مغبأة . على العكس أصبح هناك منذ الآن تعليم ديني . ولم يكن يعطى فحسب بل كان يعرض ، ويتقدم أمام الأبعدين ، ويذهب للبحث عن أقل الناس اكترائاً له . حلت روح الدعوة محل قانون الإقصاء . وكانت لذلك نتائج كبيرة بالنسبة للصلوات بين الشعوب بقدر ما كانت لها بالنسبة لحكومة الدول .

ففيما يختص بالشعوب لم تعد الديانة تأمر بالبغضاء . لم تعد تفرض على المواطن أن يبغض الأجنبى ، بل على العكس جعلت من جوهرها أن تعلمه أن عليه نحو الأجنبى ونحو العدو واجبات من العدالة بل ومن العطف . وهكذا خفضت الحواجز بين الشعوب والأجناس ؛ اختفى الحرم (pomoerium) ؛ قال الرسول «حطم يسوع الحائط الفاصل ، حائط العداوة .» - وقال أيضاً «هناك أعضاء كثيرة ، لكنها تؤلف جميعاً جسماً واحداً . ليس هناك أمم ولا يهودى ، ولا مختنن ولا أغلف ؛ ولا أعجمى ولا سكيثي (Scythe) . كل الجنس البشرى منتظم في الوحدة .» بل علموا الشعوب أنهم انحدروا جميعاً من أب واحد مشترك .

مع وحدة الإله ، ظهرت وحدة الجنس البشرى للأذهان ؛ وأصبح من الضرورة الدينية منذ ذلك الوقت أن يحرم على الانسان كراهية الآخرين .

أما فيما يختص بحكومة الدول ، فيمكن القول بأن المسيحية قد بدلتها تبديلاً جوهرياً ، وذلك تماماً لأنها لم تهتم بها . في العصور القديمة لم تكن الديانة والدولة إلا شيئاً واحداً ؛ كان كل شعب يعبد إلهه ، وكل إله يحكم شعبه ؛ كانت نفس المجموعة من القوانين تنظم الصلات بين الناس والواجبات نحو الآلهة المدنية ؛ كانت للديانة عندئذ الإمرة على الدولة ، وهي التي كانت تعين لها رؤساءها بطريقة القرعة وبطريق الاستشارات ؛ وكانت الدولة تتدخل بدورها في نطاق الضمير ، وتعاقب كل من خرج على الشعائر وعلى عبادة المدينة ؛ فبدلاً من ذلك ، علم يسوع المسيح أن سلطانه ليس من هذا العالم ؛ فصل الديانة عن الحكومة ؛ وحيث أن الديانة لم تعد أرضية ، فإنها لم تعد تختلط بأمر الأرض أكثر من الحد الأدنى الذي كانت تستطيعه . أضاف يسوع المسيح : « ردوا لقيصر ما لقيصر . وما لله لله . » وتلك هي أول مرة يميز فيها بين الله والدولة بمثل هذا الوضوح . إذ أن قيصر في تلك الفترة كان لا يزال هو الخبر الأعظم ، أى الرئيس ، والأداة الرئيسية ، للديانة الرومانية ؛ كان هو حارس العقائد ومفسرها ؛ كانت في يديه العبادة والعقيدة . وكان شخصه ذاته مقدساً وإلهياً ؛ إذ أنها كانت بالضبط إحدى صفات سياسة الأباطرة ، عندما أرادوا أن يتخذوا مميزات الملكية العتيقة من جديد ، أنهم احترزوا من نسيان هذه الصفة الإلهية التي جعلها أهل الزمن العتيق ملازمة للملوك الأحرار والكهنة المؤسسين . ولكن ها هو ذا يسوع المسيح يحطم هذه المصاهرة التي أرادت الوثنية والإمبراطورية أن تعقداها فيما بينهما ؛ إنه يعلن أن الديانة لم تعد هي الدولة ، وأن طاعة قيصر لم تعد هي بذاتها طاعة الله .

أكملت المسيحية قلب العبادات المحلية ؛ أطفأت بيوت النار ، وحطمت المعبودات ، المدنية تحطياً نهائياً . إنها فعلت أكثر من ذلك : لم تتخذ لنفسها السلطان الذي باشرته هذه العبادات على المجتمع المدني . بل كانت تعلم أنه لا مشاركة بين الدولة والديانة ؛ وتفصل كل ما كانت تخلطه الأزمنة الحالية . هذا ويمكن ملاحظة أن الديانة الجديدة قد عاشت خلال ثلاثة قرون بعيدة تماماً عن كل أثر للدولة ؛ عرفت كيف تستغنى عن حمايتها بل كيف

تجاربها . فحفرت هذه القرون الثلاثة هوة بين نطاق الحكومة ونطاق الديانة . ولما لم يكن في الاستطاعة محو ذكرى هذه الفترة المحيطة فقد نتج عن ذلك أن هذا التفريق أصبح حقيقة شائعة لا جدال فيها ، ولم تستطع اقتلاعها جهود فريق من رجال الدين .

كان هذا المبدأ فياضاً بالنتائج العظيمة . فمن ناحية تحررت السياسة بصفة نهائية من القواعد الصارمة التي رسمتها لها الديانة القديمة . وأصبح من المستطاع حكم الناس دون حاجة إلى الخضوع لعادات مقدسة ، دون أخذ رأى الاستشارات والوحي ، دون سعى للتوفيق بين جميع الأعمال وبين العقائد وحاجات العبادة . أصبحت السياسة أكثر حرية في سيرها . فلم تعد تعرقها أية سلطة غير سلطة القانون الخلقى . هذا وإذا كانت سيادة الدولة قد ازدادت في بعض الشؤون فإن أثرها كذلك قد أصبح محدوداً أكثر من ذي قبل . لقد خرج من متناولها نصف الإنسان كاملاً . إذ أن المسيحية قد بشرت بأن الإنسان لم يعد يتبع المجتمع إلا بجزء منه ، ولم يعد ملكاً له إلا بجسمه وبمصالحه المادية ، وأنه إذا كان رغبة لطاغية فعليه الخضوع ، وإن كان مواطناً لجمهورية فعليه أن يعطى حياته من أجلها ، لكنه حر ، فيما يختص بروحه ، وليس ملكاً لغير الله .

سبق أن بيّنت مذهب الرواقين هذا الانفصال . فرد الإنسان لنفسه، وأسس الحرية الداخلية . لكنّ ما كان جهد طائفة مقدامة ، جعلت منه المسيحية للأجيال القادمة قاعدة عامة لا تنزعزع . فجعلت مما كان تعزية للبعض ملكاً مشاعاً للإنسانية .

فإذا تذكرنا الآن ما قلناه آنفاً عن هيمنة الدولة عند القدماء ، وإذا ما فكرنا إلى أي حد كانت المدينة تباشر سلطاناً مطلقاً باسم صفتها المقدسة والديانة الملزمة لها ، رأينا أن هذا المبدأ الجديد كان النبع الذي يمكن أن تأتى منه حرية الفرد . فإنه بمجرد ما تحررت الروح كان قد تم العمل الأصعب وأصبحت الحرية ممكنة في النظام الاجتماعي .

عندئذ تبدلت الإحساسات والأخلاق كما تبدلت السياسة . ضعفت الفكرة التي كانت لديهم عن واجبات المواطن . لم يعد الواجب الأسمى في إعطاء

المرء وقته وقواه وحياته للدولة . لم تعد السياسة والحرب كل شيء للإنسان ، لم تعد جميع الفضائل محصورة في الوطنية ، إذ أنه لم يعد للروح وطن . شعر الإنسان أن عليه التزامات أخرى غير الحياة والموت من أجل المدينة . فقد ميزت المسيحية بين الفضائل الخاصة والفضائل العامة . خفضت هذه الأخيرة فرفعت الأولى ؛ وضعت الله والأسرة والذات البشرية فوق الوطن ، والقريب فوق المواطن .

وكذلك تغيرت طبيعة الشرع . خضع الشرع ، عند جميع الأمم القديمة ، للديانة وتلقى منها جميع قواعده . فعند الفرس والهنود ، وعند اليهود ، وعند الإغريق والإيطاليين والغالين ، كان القانون ضمن الكتب المقدسة والأثرية الدينية . لهذا عملت كل ديانة القانون على صورتها . وكانت المسيحية هي أول ديانة لم تدّعي أن الشرع تابع لها . عنيت بواجبات الناس ، ولم تكن بالعلاقات بين المنافع . فلم تترتب تنظيم حق الملك ولا نظام الوراثة ولا الالتزامات ولا الإجراءات وضعت نفسها خارج القانون ، كما وضعت نفسها خارج كل شيء أرضي محض . وإذن فقد كان الشرع مستقلاً ؛ استطاع أن يتخذ قواعده من الطبيعة ، من الضمير البشري ، من فكرة الحق القوية الكائنة فينا . استطاع أن يتطور بكل حرية ، ويصلح نفسه ويحسنها دون أي عائق ، ويتبع تقدم الأخلاق ، ويخضع للمصالح وللحاجات الاجتماعية لكل جيل .

ويمكن التعرف جيداً على الأثر الطيب للفكرة الجديدة في تاريخ الشرع الروماني ، خلال بضع القرون التي سبقت انتصار المسيحية . فقد عمل الشرع الروماني منذ ذلك على التخلص من الديانة ، والاقتراب من الإنصاف ، ومن الطبيعة ؛ لكنه لم يكن يسير إلا بطرق ملتوية وحيل كانت تنهك سلطته الخلقية وتضعفها . لم تستطع حركة إحياء الشرع ، التي بشرت بها الفلسفة الرواقية ، والتي استمرت عليها جهود الفقهاء الرومانيين المجيدة ، والتي رسمت خطوطها ألعيبُ البريتور وحيله ، أن تنجح تماماً إلا بفضل الاستقلال الذي تركته الديانة الجديدة للشرع . كلما استولت المسيحية على المجتمع كلما أمكن أن نرى مجموعات القوانين الرومانية تتقبل القواعد الجديدة ، لا بطريق التميؤ بل علانية ، وبدون أي تردد .

لما انطرحَتُ البناتس المنزلية وأطفئت المواقد ، اختفى دستور الأسرة القديمة إلى الأبد، واختفت القواعد المستمدة منه . فقد الأب السلطة المطلقة التي منحها له كهنوته فيما مضى ، ولم يحتفظ إلا بالسلطة التي خلعتها عليه الطبيعة ذاتها لحاجة الطفل . وأصبحت المرأة، التي وضعها العبادة القديمة في مكانة دون مكانة الزوج ، مساوية له . تبدل حق الملك في جوهره ؛ اختفت التخوم المقدسة من الحقول ؛ ولم يعد المملك مستمداً من الديانة ، بل من العمل ؛ وأصبحت حيازته أكثر سهولة ، ونحيت إجراءات الشرع القديم نهائياً .

- وهكذا تبدل دستور الأسرة وشرعها لمجرد أنها فقدت ديانتها المنزلية ، كما تغيرت إلى الأبد قواعد حكومة البشر لمجرد أن الدولة فقدت ديانتها الرسمية .
- يجب أن تقف دراستنا عند هذا الحد الفاصل بين السياسة القديمة والسياسة الحديثة . لقد روينا تاريخ عقيدة . عندما استقرت تكون المجتمع البشري ؛ وعندما تبدلت مر المجتمع بسلسلة من الانقلابات ؛ وعندما اختفت تغير وجه المجتمع . ذلك كان قانون الأئمة العتيقة .

جدول تحليلي (١)

أب (PERE) . المعنى الاصلي *pater*، ١١٥-١١٦؛ سلطة الأب الدينية ٤٤، ١١٢-١١٣، ١١٦-١١٧ . كانت سلطته مستمدة من الديانة المنزلية، ٥٢ . سلطته على أطفاله، ١١٦-١١٧ . ما هو المقصود من الحق الذي كان له في بيع ابنه، ١١٨-١١٩؛ وفي قتل ابنه وزوجته، ١٢٠ - ١٢١ . حقه في القضاء، شرحه . كان مسؤولاً عن جميع الجنايات التي يرتكبها ذووه، ١٢٢ . السلطة الأبوية طبقاً لقانون اللوحات الاثنتي عشرة، ٤١٩ - ٤٢٠ ؛ طبقاً لقانون صولون، ٤٢٧ - ٤٢٨ .

أب الأسرة (PATERFAMILIAS) . معنى هذه الكلمة، ١١١

أبليكاتيو (APPLICATIO) حق الولى في وراثة المولى *Jus applicationis* ١٤٨ هامش ٥ ؛ ٣٢١ .

ابنة؛ الابنة الوارثة الوحيدة، (ΕΠΙΚΛΗΡΟΣ) '، ٩٩ - ١٠٢، ٤٢٦ .
إيستيون (ΕΠΙΣΤΙΟΝ) ، الأسرة، ٥٣

إيغاميا (ΕΠΙΓΑΜΙΑ) '*jus connubii* ، ٢٦٧ و هامش ٤، ٢٧٧ .

إيكليروس ΕΠΙΚΛΗΡΟΣ '، ٩٩ - ١٠٢، ٤٢٦ .

أتميا ATIMIA (التجريد من الحقوق) ، ٢٦٩ - ٢٧٠

أثارات (TRADITIONS)، أية قيمة يمكن منحها للأثارات ولأساطير القدماء، ٢٣٤-٢٣٥

أثينا (ATHENES) تكوين المدينة الأثينية، ١٧٠ - ١٧٣، ٣٣٧ - ٣٣٩ ؛ عمل ثيسسيوس، ٣٣٧ - ٣٣٨ ؛ الملكية البدائية، ٢٤٠ - ٢٤٢ ؛ سراًة النساء، ٣١٩، ٣٣٧-٣٣٨ ؛ الغاء الملكية السياسية، ٣٣٩؛ سيادة السراًة، ٣٣٨ - ٣٣٩ ؛ ٣٤٧ - ٣٤٨ ؛ ٣٦٣-٣٦٤؛ منصب الأرخون مدى الحياة، ومنصب الأرخون لعام

(١) هذا الجدول مرتب حسب الهجاء العربى . وعندما تكون الكلمة فى الأصل الفرنسى فى صيغة الجمع يجب البحث عنها هنا فى صيغة المفرد إذ هى الصيغة التى اعتمدنا عليها ووضعنا الجمع بجوارها، فيبحث عن كلمة موقى ؛ مثلاً ، تحت كلمة ميت ؛ وهناك مصطلحات لاتينية وإغريقية استبقيناها على صورتها الأصلية لاستحالة وجود لفظ مرادف لها بالعربية . العرب

واحد ، ٣٤٠ - ٣٤١ ؛ الأرخون الملك ، ٣٤٠ . الخلق الأثيني ، ٣٠٣ وما بعدها ،
٤٤٤ ، ٤٥٦ ؛ الخرافات الأثينية ، ٣٠٤ - ٣٠٦ ؛ محاولة كيلون ، ٣٨٤ ، عمل -
دراكون التشريعي ، ٤٢٤ ؛ عمل صولون ، ٣٦٦ ؛ ٣٦٨ ؛ ٣٨٤ - ٤٢٥ ، ٣٨٥ -
٤٢٨ ؛ ٤٣٠ - ٤٣١ ؛ يسيستراتيس ، ٣٨٦ ؛ عمل كليستينيس ، ٣٨٧ - ٣٩٠ ؛ سيادة
سراة الثروة ، ٤٣٤ - ٤٣٧ ؛ تقدم الطبقات الدنيا ، ٤٣٨ وما بعدها ؛ مناصب رجال
الدولة الأثينية ، ٤٤٢ - ٤٤٣ ؛ مجمع الشعب ، ٤٤٥ - ٤٤٧ ؛ الخطباء ، ٤٤٧ ؛
الجيش الأثيني ، ٤٣٦ ؛ سميات حكومة العامة الأثينية ، ٤٥٦ هامش ٢ .

الإجراءات العتيقة ، (PROCEDURE antique) ، ٢٦٠ - ٢٦١ .

أجنبي (ETRANGER) ، ماذا كان يميزه عن المواطن ، ٢٦٤ - ٢٦٥ ؛ لم يكن
يستطيع الأجنبي أن يكون مالكا أو وارثا ، ٢٦٧ - ٢٦٨ ؛ لم يكن يحمي القانون
المدني ، ٢٦٨ - ٢٧٠ ؛ كان يحاكمه بريطور الغرباء (Préteur pérégrin)
أو الأرخون رئيس الجيش ، ٢٦٧ ؛ روح البغض للأجنبي ، ٢٨٢ - ٢٨٤ .

إحصاء (CENS) : التعداد ، النشار ، احتفال ديني في المدن القديمة ، ٢١٦ - ٢١٩ .

تعديل الإحصاء في عهد سرفيوس ، ٢٩١ - ٢٩٦ .

أخت (SOEUR) ، كانت في مرتبة أقل من مرتبة الأخ فيما يختص بالعبادة ، ٦٧ ؛ وفيما
يختص بالميراث ، ٩٦ - ١٠١ .

اختبار ، انظر دوكيماسيا ΔΟΚΙΜΑΣΙΑ

أخويات (PHRATRIES) ، معائلة للندوات ، ١٥٤ . العبادة الخاصة بالأخوية ،
١٥٥ ؛ كيف كان يقبل الشاب في الأخوية ، ١٥٦ . الأخويات تفقد أهميتها
السياسية ، ٣٨٩ هامش ١ .

الإرث (SUCCESSION) ، كانت القاعدة فيما يختص بحق الإرث هي بذاتها فيما يختص بنقل

العبادة المنزلية ، ٩٤ - ١٠٥ ، ٩٥ ؛ لماذا كان يرث الابن دون البنت ، ٩٨ . توارث
الحواشي ، ١٠٢ - ١٠٤ . كان يتحتم على الوارث من الحواشي أن يتزوج ابنة
المتوفى ، ١٠٠ - ١٠١ . حق البكورة ، امتياز الابن الأكبر ، ١٠٨ - ١٠٩ ؛ حق الإرث
طبقاً للوحات الاثنتي عشرة ، ٤١٩ - ٤٢١ ؛ طبقاً لتشريع صولون ، ٤٢٥ - ٤٢٧ .

أرخون (الأراخنة) (ARCHONTES) ، أراخنة الفصائل (γένη) ، ١٣٤ ، ١٧٠ ، ٣٣٧ - ٣٣٨ ؛

٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ أراخنة البلدان ، كان لقب الأرخون في البدء مرادفاً للقب ملك ، ٢٣٦ -
٢٣٧ ؛ وظائف الأراخنة الدينية ، ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ سلطتهم القضائية ، ٢٥٦ ؛ كيف كانوا
ينتخبون ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ؛ الانتقاص من سلطتهم شيئاً فشيئاً ، ٤٣١ - ٤٣٢ ؛ ماذا
أصبحوا في عهد الامبراطورية الرومانية ، ٥٠٢ .

أرستوقراطية ، انظر سراً

اسبرطه (SPARTE) ، الملكية في اسبرطه ٣٣٤ - ٣٣٦ . الخلق الاسبرطى ، ٣٠٢ - ٣٠٣ . ٤٤٠-٤٣٩ ، ٤٤٧ ؛ السراة تحكم في اسبرطه ، ٤٦١-٤٦٣ . سلسلة الانقلابات الاسبرطية ، ٤٦٠ وما بعدها . الملوك من قادة الشعب ، والطفاة الشعبيون ، ٤٦٥ وما بعدها .

استخارات (AUSPICES) ، طريقة انتخاب رجال الدولة بالاستخارات ، ٢١٤ - ٢١٦ ؛ الاستخارات تصبح مجرد إجراء شكلى ، ٤٣٣ .
الاستفتاء الشعبى (PLEBISCITE) ، ٤٠٥ .

الأسرة (FAMILLE) - دياتها ١١-٤٧ ؛ استقلالها الدينى ، ٤٥-٤٦ ؛ ماذا كان الرابط لها ٥١ ، ٥٢ ؛ كانت ملزمة بالعمل على دوامها ، ٦٢-٦٣ . أسماء الأسرة عند الرومان والإغريق ، ١٤١ - ١٤٢ . - تغييرات في تكوين الأسرة ، ٣٥٢ وما بعدها . - تقسيم الفصيلة (gens) إلى أسر ، ٣٥٣ وما بعدها ،

انظر أب الأسرة ؛ وأم الأسرة ؛ واسم الأسرة

أسطورة : الأساطير (LEGENDES) ، أهميتها في التاريخ ، ٢٣١ - ٢٣٤ ؛ أسطورة إنياس ، ١٩٠ وما بعدها ؛ أسطورة اختطاف السابينيات ، ٤٨٧ - ٤٨٨ .

اسم الأسرة (NOM DE FAMILLE) ، في بلاد الإغريق وفي روما ، ١٤١ - ١٤٢ .

الأسلاف (عبادة) (ANCETRES, culte des) ، ٢١ - ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٧ .

أغنى (AGNI) ، معبود العصور الأولى في جميع الجنس الهندوأوروبى ، ٣٣ ، ٣٤ .

الاقتصادية (الأحوال) (CONDITIONS ECONOMIQUES) ، الأحوال

الاقتصادية في المجتمعات القديمة ، ٣٥٢ ، ٤٥٥ - ٤٥٦ .

الأكفاء OMOIOI ، طبقة من السراة في اسبرطه ، ٤٦٢ - ٤٦٣ .

إله : الآلهة (DIEUX) ، الآلهة المنزلون ، ٤ - ٤٧ ، ١٦٣ . الآلهة المدنية ، ١٩٦-١٩٧

وما بعدها . في البدء كانت آلهة أوليمبيا آلهة منزلية ومعبودات مدنية ، ١٦٢ - ١٦٥ .

الفكرة التي كانت عند القدماء عن الآلهة ، ٢٠٠-٢٠٢ ، ٢٠٣-٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١١-٢١٢

٢١٢ ، ٢٢٧ - ٢٢٩ ، ٢٨٢-٢٨٣ ، ٢٨٧-٢٨٩ . الحلف بين المعبودات المدنية ، ٢٨٨-٢٨٩

٢٨٩ ؛ استدراج الآلهة ، ٢٠٥-٢٠٦ ؛ الأدعية والصيغ التي كانت تجبرهم على العمل ، ٢٠٥ ، ٢٠٦

٢٠٦ ، ٢٨٣-٢٠٣ ؛ الخوف من الآلهة ، ٢٢٧ - ٢٢٨ ، ٣٠٢-٣٠٣ ؛ آراء جديدة عن العبود ، ٤٧٤ وما بعدها . المسيحية ، ٥١٦ - ٥٢٣ .

- أم الأسرة (MATER FAMILIAS) ، ١١٢ ، ١٢٦ .
- أمبارفالييس (AMBARVALES) ، ٨٨ ، ٢١٤ .
- الإمبراطورية ، انظر السيادة .
- أمفكليونيات (AMPHICTYONIES) ، عديدة في بلاد الإغريق في الزمن القديم ، ٢٩١ ؛ كانت مجامع دينية أكثر منها سياسية ، ٢٩٢ - ٢٩٣ .
- انتخاب (ELECTION) ، طريقة انتخاب الملوك ، ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ٢٤٢ - ٣٤٣ ؛ والقناصل ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٤٣٣ ؛ والأراخنة ، ٢٤٧ - ٢٤٨ .
- إنفيسيبسيس *ΕΓΓΥΗΣΙΣ* ، عملية من عمليات الزواج الإغريقي تقابل التسليم (*traditio*) ، ٥٦ .
- الأوديسة (ODYSSEE) ، المجتمع الموصوف فيها مجتمع سراة ، ٣٤٩ .
- أوستراكيسموس (النفى بالخفاف) (OSTRACISME) في جميع البلدان الإغريقية ، ٣١٢ - ٣١٣ .
- الإيفورات (EPHORES) في أسبرطه ، ٣٣٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ .
- إينياس (أسطورة إينياس) (ENEE, Légende de) ، ١٩٠ - ١٩٣ ، ٤٨٢ - ٤٨٧ . ما هو المعنى المقصود من الإنييد ، ١٩٠ - ١٩٣ .
- بائنة (DOT) ، الشرع القديم ، ١١٨ - الشرع الجديد ، رد البائنة ، ٤٢٨ .
- باترياتسين (ΠΑΤΡΙΑΖΕΙΝ) ، *parentare* ، ٤١ .
- الـ *بير* (PIETAS) ، المعنى ذو الأوجه المتعددة لهذه الكلمة ، ١٢٧ .
- برتيانيون (PRYTANEE) ، انظر نار (بيت) .
- بريتانيوس (PRYTANE) ، انظر نار (سادن بيت) .
- بريتورات (PRETEURS) ، كانت لهم بعض وظائف دينية ، ٢٤٦ - ٢٤٧ .
- بطريق ، بطارقة (PATRICIENS) ، أصل طبقة البطارقة ، ٣١٩ - ٣٢٢ ؛ امتيازهم الكهنوتي ، ٣٢٠ ؛ امتيازاتهم السياسية ، ٣٢٠ - ٣٢٢ ، ٣٤٨ - ٣٤٩ ، ٣٩٤ وما بعدها ، ٤١٤ - ٤١٥ ؛ نضالهم ضد الملوك ، ٣٤١ وما بعدها ، وقاوتهم لجهود السوق ، ٣٩٣ وما بعدها . أفكارهم السياسية ، ٣٩٥ - ٣٩٧ ، ٤١٥ هامش ١ .

بطل ، أبطال (HEROS) ، أرواح الموتى، ٢٦-٢٧ ؛ كانت هي بذاتها اللاريس والجن (génies) ، شرحه ؛ الأبطال المسمى بأسمائهم (éponymes) ، ١٥٧ ؛ الأبطال القوميون ، ١٩٦ - ٢٠٠ ، ٢١٤ - ٢١٥ .

البكورة ، حق البكورة (Droits d'Ainesse) ، مستقر منذ أصل المجتمعات القديمة ، ١٠٨ - ١٠٩ ؛ يختفى شيئاً فشيئاً ، ٣٥٣ وما بعدها .

بلدة (VILLE) . كانت البلدة شيئاً والمدينة شيئاً آخر ، ١٧٦ وما بعدها . إذا كانت البلدة في أفكار القدماء ، ٣٢٣-٣٢٤ . كيف كانوا يختارون موضع البلدة ، ١٧٨ ، ١٨٣ . شعائر تأسيس البلدان ، ١٧٩ - ١٨٧ . كانت البلدان تعتبر مقدسة ، ١٨٧ ، البنات (FILLE) ، كانت البنات تعتبر طبقاً للمعتقدات القديمة أقل من الابن ، ٢٦٧ ؛ ولم تكن ترث من أبيها في حالة زواجها ، ٩٦ ، ٩٨-٩٩ . البنات الوارثة الوحيدة (ἐπίκληρος) ٩٩ - ١٠٢ .

بنداروس (PINDARE) ، شاعر السراة ، ٣٥٠ .
بيت النار ، (PRYTANEE) . انظر نار

التاج (COURONNE) ، استعماله في الاحتفالات الدينية ، ٢١١ ؛ في الزواج ، ٥٦ ، ٥٩ ؛ في أية الأحوال كان رجال الدولة يلبسون التاج ، ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

تأسيس (FONDATION) ، تأسيس البلدان ، احتفال ديني ، ١٧٦-١٨٧ .

التبني (ADOPTION) . كان مبدأ التبني هو واجب مواصلة العبادة المنزلية ، ٦٩-٧٠ ؛ لم يكن مسموحاً به إلا لأولئك الذين لم يكن لهم أطفال ، ٧٠ ؛ آثاره الدينية والمدنية ، ١٠٤ و ١٠٥ .

تحرير الابن (EMANCIPATION) ، ٧١-٧٢ ؛ آثاره في القانون المدني ١٠٤-١٠٥ .
التخوم (TERME) ، الحدود المصونة للأملاك ، ٨٧-٨٨ . أسطورة الآلة التخم ، ٨٨ .
بأى الاحتفالات كان يوضع التخم ، ٨٨ .

الآلهة التخوم (Ἱεροι, θεοὶ Ἱεροι) ، ٨٧ - ٨٩ .

التربية (EDUCATION) . كانت الدولة توجهه في بلاد الاغريق ، ٣١٠ - ٣١١ .

التقويم (CALENDRIER) عند القدماء ، ٢١٦ .

ثورات (REVOLUTIONS) . المميزات الجهورية والأسباب العامة للثورات في المدن القديمة ، ٣١٧ . الثورة الأولى التي انتزعت من الملكية سلطتها السياسية ، ٣٣٢ وما بعدها .

انقلاب في كيان الأسرة بانفصال فروع الفصيلة (*gens*) وتحرير الموالى ،
٣٥٢ وما بعدها . انقلاب في المدينة بتقدم السوق ، ٣٧٤ وما بعدها . انقلابات
روما ، ٣٤١ - ٣٤٦ ، ٣٥٥ - ٣٥٦ ، ٣٦٨ - ٣٧٣ ، ٣٩٠ - ٤١٦ . انقلابات
أثينا ، ٣٣٧ وما بعدها ، ٣٦٣ وما بعدها ، ٣٨٤ وما بعدها ؛ انقلابات اسبرطه
٣٣٤ - ٣٣٦ ، ٤٦٠ وما بعدها . زوال النظام القديم وطريقة جديدة للحكم ٤٢٩ ؛ سراًة
الثروة ، ٤٣٤ - ٤٣٩ ؛ حكومة العامة ، ٤٣٨ وما بعدها ؛ المنازعات بين الأثرياء
والفقراء في بلاد الاغريق ، ٤٥١ وما بعدها ؛ في روما ، ٤٩٦ .

ثيس (ثيت THETE) ، النظر الوضعاء

الجمهورية (الشيء العام) RESPUBLICA ، *Tò κοινόν*

الجيش (ARMEE) الأعمال الدينية التي كانت تعمل في الجيوش الاغريقية والرومانية،

٢٢٣ - ٢٢٤ . كان الجيش في البدء منظماً كالمدينة في فصائل (*gentes*)
وندوات (*curies*) ، في فصائل (*γένη*) وأخويات ، ١٦٨ ؛ التغييرات التي أجراها
سرفيوس تيليوس في كيان الجيش ، ٣٧١ ، ٣٩٢ - ٣٩٥ ؛ معنى كلمة *Ulassis* ، ٣٩٢ ؛ في
بلاد الاغريق ، كما في روما ، كانت الفرسان هيئة من السراة ، ٣٧٨ - ٣٧٩ ؛
تتغير طبيعة الجيش مع تغيير دستور المدينة ، ٣٧٨ - ٤٤١ ؛ يؤلف الجيش الروماني
مجمعاً سياسياً ، ٣٩٣ - ٣٩٥ ؛ أثناء سيادة الطبقة الثرية في بلاد الاغريق كما في روما
كانت المراتب في الجيش محددة طبقاً للثروة ، ٤٣٤ - ٤٣٦ .

حبر (الأخبار) (PONTIFES) ، كانوا يشرفون على العبادات المنزلية ، ٤٥ ؛ الأخبار
البطارقة ، ٣٢١ ؛ الأخبار السوق ، ٤١٥ - ٤١٦ .

الحرب (GUERRE) . سميزات الحرب لدى القدماء ، ٢٨٢ - ٢٨٤ .

إعلان الحرب (Déclaration de la GUERRE) ، شعائرها ، ٢٢٢ - ٢٢٣ .

الحرية (LIBERTE) ، كيف كان يفهمها القدماء ، انعدام الضمان بحرية الفردية ،
٣٠٨ - ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٤٤٠ - ٤٤١ ، ٤٥٨ - ٤٥٩ .

الحق (DROIT) النظر الشرع

الحق الإيطالي (JUS ITALICUM) ، ٥١٢ ، ٥١٠ . الحق اللاتيني *jus latii* ،
٥٠٨ - ٥١٢ .

التجريد من الحقوق ، انظر أتيما .

حق الزواج ، انظر الزواج .

حق المدينة ، انظر المدينة

حكومة العامة (الديموقراطية DEMOCRATIE) . كيف استقرت، ٤٣٧ وما بعدها؛
قواعد الحكومة الديمقراطية ، ٤٤٢ وما بعدها .

حلف . الأحلاف (CONFEDERATIONS) ، ٢٩٠ وما بعدها .

حوليات (ANNALES) . استعمال عام للحوليات عند القدماء؛ كان يحورها الكهنة وكانت
جزءاً من الديانة ، ٢٣١ - ٢٣٥ .

الحياة الثانية (SECONDE VIE) . كان المعتقد أولاً أنهم يقضونها تحت الأرض،
١٣ . ماهى الفكرة التى كونوها عنها فيما بعد ، ١٧ ، ٤٧٤ .

الخال ، انظر العم .

الخضوع (SUJETION) . كان الخضوع يجبر معه إبادة العبادات القومية ، ٢٨٤ -
٢٨٥ ، ٥٠٠ - ٥٠١ .

خطيب ، خطباء (ORATEURS) . دورهم فى الديمقراطية الأثينية ، ٤٤٦ - ٤٤٧ .

خلق ، أخلاق (MORALE) ، الأخلاق البدائية، ١٢٣-١٢٨، ٢١٦-٢١٧، ٢٣٨-٢٨٤ .
دايمونيس (Demons) أرواح الموتى ، ٢٢ ، ٢٦ .

دتستاتيو ساكروروم (DETESTATIO SACRORUM) ، ٧٢ .

الدفن (SEPULTURE) ، شعائره والعقائد التى كانت ترتبط به ، ١٣ - ١٥، ١٤ -
١٦ . لماذا كان يخشى القدماء الحرمان من الدفن ، ١٦ - ١٧ .

دوكيماسيا (ΔΟΚΙΜΑΣΙΑ) ، اختبار كان يخضع له رجال الدولة والشيوخ والخطباء،
٢٥٢ - ٢٥٣ ، ٤٣٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ - ٤٤٦ .

الدولة ، انظر رجال الدولة

الديانة (RELIGION) . الديانة المنزلية ، ٤٠ - ٤١، ٨٠ - ٨١ . كيف كان القدماء يفهمون
الديانة ، ٢٢٧ - ٢٢٩ ؛ الديانة الخاصة بكل مدينة ١٩٤ - ١٩٥ ؛ لم تقم الديانة الرومانية
بناء على حساب معمول ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ؛ أثر الديانة فى انتخاب رجال الدولة ،
٢٣٩ ، ٢٤٧ - ٢٥٠ ؛ تبدل الشعور الدينى ، ٥١٧ - ٥١٨ .

ديفاررياتيو (DIFFARREATIO) ، ٦١ .

ديماغوغوى (DEMAGOGUES) انظر شعب ، قادة الشعوب .

ديموقراطية ، انظر حكومة العامة .

دين (ديون) (DETTE) ، لماذا كان بدن الانسان ، لا أرضه، هو المقابل لدينه ، ٩٢ - ٩٣ ؛ الديون في أثينا ، ٣٦٦ - ٣٦٧ . انظر نكسوم

رجال الدولة (MAGISTRATS) ، ماذا كان رجال الدولة في الحقبة الأولى من وجود المدن، ٢٤٤-٢٤٥ وما بعدها ؛ وماذا كانوا في الحقبة الثانية ، ٤٣٢ - ٤٤٢، ٤٤٣ - ٤٤٤ .

رقيب ، الرقباء (CENSEURS) ، أصل سلطتهم وطبيعتها ، ٢٠٩ ؛ وظائفهم الدينية ، ٢٤٦ .

رقيق؛ الأرقاء (ESCLAVES) ، كيف كانوا يدخلون في الأسرة ويلقنون عبادتها، ١٤٥-١٤٦ .
الرهن (HYPOTHEQUE) ، غير معروف في الشرع الأول ، ٨٩ - ٩٣ ؛ كيف أدخل في الشرع الأثيني وبأية صورة ، ٣٦٦ - ٣٦٧ ، ٣٦٧ هاش ٢ .

روح ، أرواح الأموات ، انظر مانيس ، انظر دايمونيس .

روما (ROME) . تكوين المدينة الرومانية ، ١٧٦ - ١٧٧ . احتفال التأسيس .

١٧٨-١٨٢ . طبيعة الملجأ الذي افتتحه رومولوس ، ١٧٧ ؛ الخلق الروماني ، ٢٩٦-٣٠٢ ؛ خرافات رومانية ، ٢٩٦ - ٢٩٩ ؛ طبقة البطارقة ، ٣٢٠ وما بعدها ؛ طبقة السوق ٣٢٥ وما بعدها ؛ مجلس الشيوخ ، ٢٢١، ٣٢٢-٣٢٣ ؛ مجمع الندوات ، ٢٢٠، ٣٢٢-٣٢٣، ٣٤١ ؛ الملكية، ٢٣٨-٢٤١، ٣٤١-٣٤٤ ؛ نضال الملوك ضد السراة ، ٣٤١ - ٣٤٢ ؛ الثورة التي ابطلت الملكية، ٣٤٤ - ٣٤٦ ؛ سيادة طبقة البطارقة ، ٣٤٨-٣٤٩ ؛ جهود السوق وتقديسها، ٣٩٧، ٣٩٨ وما بعدها ؛ ومنصب العرفاء ، ٣٥١-٣٥٥ . مجامع القبائل والاستفتاء الشعبي ، ٤٠٥ ؛ حصول السوق على المساواة المدنية والسياسية والدينية ، ٤٠٨ - ٤١٦ ؛ بيد أن طرق الحكومة والأخلاق بقيت متشعبة بروح السراة، ٤٩٥-٤٩٦ ؛ تكوين طبقة أشراف جديدة، ٤٩٦-٤٩٧ . فتوحات الرومان ، ٤٨٦ وما بعدها . صلات الأصل والعبادة بين روما ومدن إيطاليا وبلاد الاغريق ، ٤٨٢ - ٤٨٦ ، ٤٨٩-٤٩٠ . التوسعات الأولى، ٤٨٦ وما بعدها . سيادتها الدينية على المدن الايطالية ، ٤٨٧ - ٤٩٧ . - روما تجعل من نفسها حامية السراة في كل مكان، ٤٩٤-٤٩٩ . السيادة الايطالية (Empirium romanum) ، ٥٠٢ - ٥٠٦ . كيف تعامل رعاياها ، ٥٠٥ - ٥٠٦ . تمنح حق المدينة الرومانية، ٥٠٦ .

الزواج (MARIAGE) ، الزواج المقدس ، ٥٤ - ٦١ ؛ آثاره الدينية ، ٦٠ ، ٦١ .

٦٥-٦٦ ؛ كان محرماً بين سكان مدينة أخرى، ٢٦٧ ، ٢٧٧ . أسطورة اختطاف السابينيات، ٤٨٦-٤٨٧ . كان محرماً بين البطارقة والسوقة ثم سمح به، ٤١١. الزواج بالرضاء المتبادل *mutuus consensus* ، ٤٢١ ؛ المتعة *usus* والشراء *coemptio* ، ٤٢١ - ٤٢٣ . أثر السلطة الزوجية، ١١٣-١١٤ ؛ الطريق للخلاص من السلطة الزوجية ، ٤٢٣ .

(حق الزواج) (*CONNUBIUM*) ، حق الزواج بين مدينتين، ٢٦٧ ، ٢٧٧ ، ٤٨٧-٤٨٨ .

حق الزواج (*JUS CONNUBII*) انظر إبيغاميا .

نشيد الزواج ، انظر هيمينه .

سادن بيت النار (*PRYTANE*) ، انظر نار

ساكروسانكتوس (*SACROSANCTOS*) ، معنى هذه الكلمة ، ٤٠١ - ٤٠٣ .

السراة (الأرستوقراطية) (*ARISTOCRATIE*) ، سراة البطارقة والنسباء والـ *Bacileis*

والغيومورى إلخ الوراثة ، ٣١٩ - ٣٢٤ ، ٣٤٧-٣٥١ ؛ كان التمييز بين الطبقات مؤسساً في البدء على الديانة ، ٣٣٠ ؛ سراة المولد تعتمد على الكهنوت الوراثة ، ٤٣٤ . اختفاء هذه السراة فيما بعد ، ٣٨٨ - ٣٩٠ ؛ تكوين سراة الثروة، ٤٣٤ وما بعدها . السراة الاسيرطه ، ٣٣٤ - ٣٣٦ ، ٤٦٢ - ٤٦٧ .

سرفيوس توليوس (*SERVIUS TULLIUS*) ، إصلاحاته، ٣٩١ - ٣٩٥ ، ٤٣٤-٤٣٥ .

السلطان ، الـ (*IMPERIUM*) ، كانت هذه الكلمة تدل على السلطة المدنية كما كانت

تدل على السلطة الحربية ، ٣٤٢ - ٣٤٣ . الـ *Imperium romanum* ، ٥٠٣-٥٠٦ . انظر السيادة الرومانية .

السوقة (*PLEBEIENS*) ، كانت هذه الطبقة من الناس موجودة في جميع المدن، ٣٢٥ ،

٣٨١ - ٣٨٣ . وقد كانوا مستقلين عن الموالى، ٣٢٥-٣٢٦ ؛ ٣٧١-٣٧٢ . ولم يكونوا

معتبرين في البدء من الـ *populus* ، ٣٢٦ هاشمى ١ . كيف تكونت السوقه، ٣٢٦-٣٢٧ .

كيف ازدادت فيما بعد باندماج المغلوبين والأجانب ، ٣٩٠ . لم يكن للسوقة في البدء ديانة ولا حقوق مدنية ولا حقوق سياسية ، ٣٢٦ وما بعدها . نضالهم ضد الطبقة العليا،

٣٧٤ وما بعدها . يؤيدون الملوك ، ٣٧٥ . يخلقون الطغاة ، ٣٧٥ - ٣٧٧ . جهود

السوقة الرومانية وتقدمها في عهد الملوك ، ٣٩٠ وما بعدها ؛ في عهد الجمهورية ،

٣٩٧ وما بعدها ؛ انفصالها فوق الأكمة القلعة ، ٣٩٨ - ٤٠٠ ؛ منصب عرفاء

السوقة ، ٤٠٠ - ٤٠٥ ؛ دخول السوقه في المدن ، ٣٧٤ وما بعدها .

السيادة الرومانية (*EMPIRE DE ROME*) *Imperium romanum* ، ٥٠٠ ؛ حالة

- الشعوب التي خضعت لها ، ٥٠٠ - ٥٠١ ، ٥٠٦ - ٥٠٧ .
- سيسيأخيا (ΣΕΙΣΑΧΘΕΙΑ) ، عمل صولون ، ٣٦٧ - ٣٦٨ .
- الشارعون (LEGISLATEURS) ، الشارعون القدماء ، ٢٥٦ - ٢٥٧ .
- الشرادّا (SHRADDA) ، عند الهنود ، يشبه الأكلة الجنازية عند الاغريق وعند الرومان ، ٢٤ .
- الشرع (DROIT) ، ولد الشرع القديم في الأسرة ، ١١١ ؛ وكان متصلاً بالعقائد والعبادة ، ٧٩ ، ١١٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ - ٢٦٧ . حق المالك ٧٨ وما بعدها . حق الإرث ، ٩٤ وما بعدها . الفكرة التي كونها القدماء عن الشرع ، ٢٦٠ - ٢٦١ . القانون المدني (jus civile) ، ٢٦٢ . محرم على غير المواطن ، ٢٦٧ . تغيرات في القانون الخاص في أثينا ، ٤٢٤ - ٤٢٨ ؛ في روما ، ٤١٩ - ٤٢٤ . قانون اللوحات الاثنتي عشرة ، ٤٢٠ - ٤٢٣ . قوانين صولون ، ٤٢٥ - ٤٢٧ ؛ الشرع الپريتوري ، ٤٢٣ - ٤٢٤ .
- شعب ؛ انظر الاستفتاء الشعبي .
- قادة الشعوب (DÉMAGOGUES) ، معنى هذه الكلمة ، ٤٤٧ .
- الشعائر (RITUELS) ، في جميع المدن القديمة ، ٢٢٧ - ٢٣١ .
- الشيوخ ، انظر مجلس الشيوخ .
- صولون (SOLON) ، عمله ، ٣٦٣ - ٣٦٨ ، ٤٢٥ - ٤٢٨ .
- صيغ (FORMULES) ، سلطان الصيغ ، ٢٠٦ هاشم ٢ ؛ الصيغ السحرية ، ٢٩٨ ؛ صيغ استدراج الآلهة ٢٠٥ - ٢٠٦ .
- الضيافة (HOSPITALITE) ، ١٥٦ هاشم ٣ ، ١٦٥ .
- طغاة (TYRANS) ، فيما كانوا يختلفون عن الملوك ، ٢٤٣ ، ٣٧٥ - ٣٧٧ . كانوا رؤساء الحزب الشعبي ، ٣٧٥ - ٣٧٧ ، ٤٥٨ . سياسة الطغاة العادية ، ٤٥٨ - ٤٥٩ .
- الطلاق (DIVORCE) ، ٦١ ؛ كان إلزامياً في حالتيها إذا كانت المرأة عاقراً ، ٦٥ - ٦٦ .
- عامة ، انظر حكم العامة .
- عبادة الأسلاف ، انظر الأسلاف .

عبادة الموقى ، انظر الموقى .

عبادة المؤسس ، انظر المؤسس .

عبد ، انظر رقيق .

عتقاء (AFFRANCHIS) ، الحق الذى كان يحتفظ به الأولياء عليهم ، ٣٦٨ - ٣٧٠ ؛
تمثالهم مع الموالى القدماء . شرحه .

منصب عرفاء السوق ، . . . ٤٠٤ . الطبيعة الخاصة بهذا النوع من مناصب الدولة ، ٤٠١ - ٤٠٥ .

منصب العرفاء الحربيين (TRIBUNAT MILITAIRE) ، ٤٣٣ .

العزوبة (CELIBAT) ، تحرمها الديانة ، ٦٤ ، ١٢٤ ؛ تحرمها قوانين اسبرطه وروما .
٣٠٨ ، ٦٤ .

العصبية (AGNATIO) ، أى نوع من القرابة كانت عند الرومان وعند الاغريق ، ٧٣ -
٧٧ ؛ ١٤٠ .

عقائد (CROYANCES) ، العقائد الأولى عند القدماء ، ١١١ وما بعدها ؛ صلتها بالقانون
الخاص ، ٧٩ وما بعدها ، ٩٤ وما بعدها ، ١١١ وما بعدها ، ٢٥٦ - ٢٦٢ ؛
صلاتهم بالأخلاق الأولى ، ١٢٢ - ١٢٨ ؛ عدم تسامح القدماء فيما يختص بالعقائد ،
٣٠٨ - ٣٠٩ ؛ سلطانها على الإنسان ، ١٧٣ ؛ تغيرات فى العقائد ، ١٥٩ - ١٦٦ ،
٤٧٤ وما بعدها .

العم (PATRUUS) ، والخال (AVUNCULUS) . الفارق الأساسى بين القرابة التى
يعبر عنها كل من هذين اللفظين ، ٧٤ - ٧٥ ، ١٠٣ - ١٠٤ .

الأعياد اللاتينية (FERIES LATINES) ، ٢١٣ .

الغريب ، انظر هوستيس (HOSTIS) .

الفاميليا (FAMILIA) ، انظر أسرة .

الفتح الرومانى (CONQUETE romaine) ، ٤٩٠ وما بعدها .

الفرسان (CHEVALIERS) ، طبقة من السراة ، ٤٣٤ - ٤٣٦ ؛ فى إيوبا (Eubée) ،
٣١٩ ؛ روما ، ٣٩٣ - ٣٩٤ ، ٤٣٤ - ٤٣٥ .

فستا (VESTA) ، لم تكن غير نار الموقد ، ٢٨ ، ٣٥ ؛ كان يخلط بينها وبين
اللاريس ، ٣٧ - ٣٨ . أسطورة فستا ، ٣٦ - ٣٧ . كان معبد فستا شبيهاً ببيت النار

(بريتانيون) عند الاغريق ، ١٩٤ ، العقائد التي كانت تتصل بها ، ١٩٥ - ١٩٧ .

فسيايس (FECIAUX) ، في البلدان الإيطالية وسبندوفوروى (Spendophores)

في البلدان الاغريقية ، ٢٢٢ - ٢٢٣ ، ٢٨٥ - ٢٨٨ .

الفصيلة الاغريقية (GENOS) شبهة بالفصيلة الرومانية (GENS) ، ١٢٩ وما بعدها .

الفصيلة في أثينا ، ١٣٤ ؛ فصيلة البريتيين (Brytides) ، ١٣١ . العبادة الداخلية

في الفصيلة ، ١٣١ ؛ قبرها المشترك ، ١٣٢ ؛ رئيسها ، ١٣٣ - ١٣٤ . فقدان الفصيلة

لأهميتها السياسية ، ٣٨٨ - ٣٩٠ .

الفصيلة الرومانية (GENS) ، معنى هذه الكلمة ، ١٣٦ - ١٣٧ . الفصيلة هي الأسرة

الحقيقية ، ١٣٧ - ١٤٠ . العبادة الداخلية للفصيلة ، ١٣١ - ١٣٢ ؛ قبرها المشترك ، ١٣٢ ؛

تضامن أعضائها ، ١٣٣ - ١٤١ . اسم الفصيلة (nomen Gentilium) ، ١٤١ - ١٤٢ ؛

رئيس الفصيلة ، ١٣٣ - ١٣٤ ؛ كيف تمزقت الفصيلة ، ١٣٨ - ١٣٩ ، ٣٥٢ وما بعدها . الفصائل

السوقية ، ١٢٩ ، ٣٢٨ هاشي ، ١ ، ٤١١ - ٤١٢ . تبدل متتابع في نظام الفصيلة ثم

اختفاؤه ، ٣٥٢ وما بعدها .

أعضاء الفصيلة ، صلة العبادة فيما بينهم ، ١٣٠ - ١٣٣ ؛ صلة الشرع ، ١٣٢ - ١٣٤ ؛

كان عضو الفصيلة (gentilis) أقرب من القريب عن طزيق الدم (cognat) ،

١٣٢ - ١٣٣ . آلهة الفصيلة ، (Dii gentiles) ، ١٦٨ .

عضوية الفصيلة (GENTILES) ، ١٤٠ ، ٤٢٠ .

الفلسفة (PHILOSOPHIE) ، أثرها في التطورات السياسية ، ٤٧٦ وما بعدها . فيثاغورس

٤٧٦ ؛ أناكساغوراس ، شرحه ؛ السفسطائيون ، ٤٧٦ - ٤٧٧ ؛ سقراط ، ٤٧٧ - ٤٧٨ ؛

افلاطون ، ٤٧٨ ؛ أرسطو ، ٤٧٩ ؛ سياسة الإبيقوريين والرواقيين ، ٤٧٩ -

٤٨١ ؛ فكرة المدينة العالمية ، ٤٨٠ .

قائد ، القواد (STRATEGES) ، في أثينا ، ٤٣٢ ، ٤٤٣ ؛ ماذا أصبحوا تحت السيادة

الرومانية ، ٥٠٢ .

قائد ، قادة الشعوب ، انظر شعب .

قبر ، القبور (TOMBEAUX) ، قبور الأسرة ، لم يكن للأجنبي الحق في الاقتراب

منها ، ٤٠ - ٤١ ؛ ولا في أن يدفن فيها ، ٨٣ . كان القبر في الأصل في حقل كل أسرة ،

٨٤ - ٨٥ ، كان القبر غير قابل للتنازل عنه ، شرحه .

قبيلة ، القبائل (TRIBUS) ، قبائل المولد ، ١٥٧ - ١٥٨ ، هذه القبائل أبطلها

كليستينيس وآخرون في جميع المدن الاغريقية ، ٣٨٧ - ٣٩٠ ؛ قبائل السكن في أثينا ،

٣٨٨ - ٣٨٩ ؛ في روما ، ٣٩١ ، ٣٩٢ .

قاضى ، انظر هلياستيس

القانون (LOI). كان القانون جزءاً من الدين ، ٢٥٤ وما بعدها ؛ احترام القدماء للقانون ، ٢٥٨ ؛ كان القانون يعتبر مقدساً ، شرحه ؛ كان صادراً من الآلهة ، ٢٥٧ . لم تكن القوانين الأولى مكتوبة ، ٢٥٩ ؛ كانت محررة في صورة أبيات من الشعر وترتل ، ٢٦٠ . أهمية نص القانون ، ٢٥٩ - ٢٦١ ؛ مطالبة السوق بتحرير مجموعة من القوانين ، ٤٠٨-٤٠٩ ؛ قوانين اللوحات الاثنتي عشرة ، ٤٠٩-٤١٠ ، ٤١٧ وما بعدها . تبدل في طبيعة القانون ومبدئه ، ٣٦٥ وما بعدها . كيف كانوا يضعون القوانين في أثينا ، ٤٤٧ - ٤٤٨ .

قانون الأمم ، (القانون الدولي DROIT DES GENS) بين المدن ، ٢٨٢ - ٢٨٧ .
قانون ، انظر شرع .

القرابة (PARENTE) ، كيف كان يفهمها القدماء ، ٧٣-٧٤ ، كانت علامتها العبادة ، ٧٤-٧٥ . لم تكن هناك قرابة عن طريق النساء ، ٧٦-٧٧ ؛ كيف دخلت القرابة عن طريق النساء في الشرع الأثيني ، ٤٢٦ - ٤٢٧ .

القرابة عن طريق الدم (CONSULAT) ، القرابة عن طريق النساء في بلاد الاغريق وفي روما ، ٧٦-٧٧ ؛ دخولها تدريجياً في الشرع ، ٤١٩ ، ٤٢٦ - ٤٢٧ .
القرعة (SORT) . أية فكرة كونها القدماء عنها ، ٢٤٧ ؛ ماذا كان سحب القرعة على رجال الدولة ، ٢٤٧ - ٢٤٨ ، ٢٤٨ هامش ١ ، ٤٣٢ .

القنصلية (CONSULAT) . وظائف القنصل الدينية ، ٢٤٧-٢٤٨ . ماذا كانت الفكرة الأولى عن القنصل ، ٢٤٦ ؛ ماذا كانت الفكرة عند فيما بعد ، ٤٣٣ . بأية اجراءات دينية كان ينتخب القناصل ، ٢٤٩-٢٥١ ؛ تغيير في طريقة الانتخاب ، ٤٣٣ ؛ القناصل السوق ، ٤١٠ - ٤١٤ .

كاهن ، انظر متكهن .

كاميلوس (CAMILLE) ، تقديمه كنموذج للمحارب الكاهن ، ٢٩٩ - ٣٠٢ .
كتب الصلوات عند القدماء ، (LIVRES LITURGIQUES des anciens) ، ٢٢٩-٢٣٣ ، ٣٠٤ . الكتب السيبلية في أثينا وفي روما ، ٣٠٠ - ٣٠١ ، ٣٠٥ .

الكهوت (SACERDOCES) ، في المدن القديمة ، بقي الكهوت وراثياً مدة طويلة ، ١٦٣-١٦٥ . كان الكهوت محتفظاً به للبطارقة ، ٣٣٠ . حصول السوق على الكهوت ، ٤١٤ - ٤١٥ .

كوريات ، انظر ندوات

كونسكربتيتي ، (CONSCRIPTI) ، أعضاء بمجلس الشيوخ يتميزون عن الآباء (patres) ،

. ٣٥٥

كونفارتياتيو (CONFARREATIO) ، احتفال ديني مستعمل في الزواج الروماني وفي الزواج

الآغريقي ، ٥٩ ، ٦١ .

لارفية (LARVES) ، أرواح شريرة ، ١٥ - ١٦ ، ٢٤ - ٢٧ ، ٢٧ ، ٢٩٧ هاش ٤ .

لاريس (LARES) ، كانت هي بذاتها المانيس (Mânes) والجن (Génies) ، ٢٦ - ٢٧ .

لكيسترنوم (LECTISTERNIUM) ، ٢٩٧ .

اللوحات الاثنتا عشرة (DOUZE TABLES) ، ٤١٩ - ٤٢٤ .

ليكورغ (LYCURGUE) ، عمل ليكورغ في أسطرطه ، ٣٣٤ - ٣٣٥ ، ٤٦١ .

ماء النثار ، انظر النثار

المآكل ، المآكلون (PARASITES) ، المعنى القديم لهذه الكلمة ، ٢١٠ - ٢١١ .

مانكيباتيو (MANCIPATIO) ، ٩١ ، ٢٦١ .

مانوس (MANUS) ، معنى هذه الكلمة في القانون الروماني ، ١١٣ ، ١٢٦ هاش ٤ .

الصلة بين السلطة الزوجية والعبادة المنزلية ، ١١٣ - ١١٤ ؛ آثار المانوس في القانون

المدني ، ٤٢٢ - ٤٢٣ ؛ كيف يمكن تجنب هذه الآثار ، ٤٢٣ .

مانيس (MANES) ، كانت أرواح الموتى ، ٢٦ ؛ تقابل الآلهة السفليين (Θεοὶ χθονίοι)

عند الآغريق ، ٢٦ - ٢٧ .

متكهن ؛ متكهنون (DEVINS) ، في أثينا ، ٣٠٥ ؛ في الجيوش الآغريقية ، ٢٢٤ .

مجلس الشيوخ (SENAT) . كان يجتمع مجلس الشيوخ في مكان مقدس ، ٢٢١ - ٢٢٢ ؛

كان يتكون من رؤساء الفصائل (gentes) ، ٣٢٢ ؛ إدخال الشيوخ المقيد ،

(conscripti) ٣٥٥ ؛ مجلس شيوخ أثينا ، ٤٤٤ ؛ مجلس شيوخ روما ، ٤٩٥ - ٤٩٨ .

مجمع ، مجامع الشعب (ASSEMBLEE du peuple) . كانت تبدأ بدعاء

ويعمل مقدس ، ٢٢٠ - ٢٢١ ، ٢٢١ ، ٤٤٤ - ٤٤٥ ؛ مجامع الندوات ، ٣٢٣ ، ٣٤١ ؛ مجامع

الفرق المثنية ، كيف كانوا يصوتون فيها ، ٢٤٩ وهامش ٢ ، ٣٤٥ - ٣٤٦ ، ٣٣٤ - ٤٣٥ ؛ لم

تكن مجامع الفرق المثنية إلا الجيش ، ٣٩٣ - ٣٩٤ ؛ مجامع القبائل ، ٤٠٥ ؛ المجامع الأثينية ،

. ٤٤٥ - ٤٤٧ .

محفوظات البلدان (ARCHIVES DES VILLES) ، ٢٣٢ - ٢٣٣ .

المدينة (CITE)، تتكون المدينة من اجتماع القبائل والندوات والفصائل (gentes) ١٦٧ وما بعدها ؛ أنها تحالف ، ١٦٨ . مثال المدينة الأثينية ، ١٧٠-١٧٣ . ديانة خاصة بكل مدينة ، ١٩٤ - ١٩٥ وما بعدها ؛ ماذا كان يقصدون بالاستقلال الذاتي للمدينة ، ٢٧٩-٢٨١ . لماذا لم يستطع القدماء أن يؤسسوا مجتمعاً أوسع من المدنية ، ٢٧٨-٢٨٠ . سلطة المدنية المطلقة على المواطن ، ٣٠٨ وما بعدها . ضعف نظام المدينة ، ٤٩٠ وما بعدها . الفتح الروماني يبيد النظام البلدية ، ٤٩٠ وما بعدها . الفتح الروماني يبيد النظام البلدي ، ٤٩٩ وما بعدها .

حق المدينة (DROIT DE CITE) . مما كان يتكون ، ٢٦٣-٢٧٠ ؛ كيف كان يمنح

في أثينا ، ٢٦٥-٢٦٦ . أهمية حق المدن في العصور القديمة ، ٢٦٦ - ٢٧٠ ؛ تحت السيادة الرومانية ، ٥٠٦ . امتداد حق المدينة الرومانية بالتدرج إلى اللاتينيين ٥٠٧-٥١٠ ؛ إلى الإيطاليين ، ٥١٠-٥١١ ؛ إلى أهالي الولايات ، ٥١١-٥١٥ .

المرأة (FEMME) . دورها في الديانة المنزلية ، ٤٧ ، ٥٢ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٦ . دورها

في الأسرة ، ١١٢ . ظل نظام البائنة (regime dotal) مجهولاً زمنياً طويلاً ، ١١٨ . المرأة تحت الوصاية دائماً ، ١١٢-١١٣ . لم يكن في استطاعتها التقاضي ، ١١٩-١٢٠ ؛ لم تكن خاضعة لقضاء المدينة ، ١٢٠ ؛ في البدء كان يحاكمها زوجها ، وفيما بعد محكمة منزلية ، ١٢٠ . تلتها mater familias ، ١٢٦ . حصول المرأة تدريجياً على حقوق في الميراث ، ٤٢٦ - ٤٢٧ ، وامتلاك بائنتها ، ٤٢٨ . القرابة عن طريق النساء ، ٧٦ - ٧٧ ، ٤٢٦-٤٢٧ .

مستعمرة ، مستعمرات (COLONIES) ، كيف كانت تؤسس ، ٢٩٤ ؛ الصلة الدينية بين المستعمرة والمدينة الأم ، ٢٩٤-٢٩٥ .

المسيحية (CHRISTIANISME) ، فعلها في الآراء السياسية وحكومة المجتمعات ، ٥١٦-٥٢٣ .

المشرعون ، انظر الشارعون .

معاهدة ، المعاهدات (TRAITES) . كانت معاهدات السلم أعمالاً دينية ، ٢٨٥ - ٢٨٧ .

معتق ، انظر عتقاء .

ملجأ (ASILE) ، ماذا كان في روما ، ١٧٧ ، ٣٢٧ .

الملك (PROPRIETE) . حق الملك عند القدماء ، ٧٧ وما بعدها ؛ الصلة بين حق الملك والديانة ،

٧٩-٨٠ ؛ في البدء كان الملك غير قابل للتنازل ، ٨٩-٩٠ ؛ وغير قابل للقسمة ، ٩١ . ماذا أصبح حق الملك في العصور المتأخرة ، ٤٥٤-٤٥٥ ، ٥٠٠-٥٠١ ، ٥٠١-٥٠٢ ، ٥٠٢-٥٠٣ .

الملكوتية (ROYAUTE) . ماذا كانت الملكية الأولى، ٢٣٦ وما بعدها . الملوك الكهنة،

٢٣٨-٢٣٩ . ما هي الأشكال النسكية التي كانوا ينتخبون بها، ٢٣٩-٢٤٠ . اختصاصاتهم

القضائية والحربية، ٢٤٠ وما بعدها؛ الملكية وراثية كالكهنة، ٢٤١ . *Baouleis lepel* ،

٢٤٢ . *sanctitas regum* ، ٢٤٣؛ لم تلغ في أثينا بعد كودروس (CODRUS) ،

٣٣٩-٣٤٠؛ الثورة التي ألغت الملكية في جميع الأماكن، ٣٣٢ وما بعدها . رجال الدولة

السنويون الملقبون ملوكاً ، ٢٤٤ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ . *Rex sacrorum* ، ٣٤٦ . في

عصر السراة كانت كلمة ملك تطلق على رؤساء الفصائل (*gentes*) ، ٢٤٩ .

مواطن (CITOYEN) . ماذا كان يميز المواطن من غير المواطن ، ٢٦٣-٢٧٠ ،

٥٠٤-٥٠٦ ؛ كيف كان يحصل على حق المدينة في أثينا ، ٢٦٥-٢٦٦ .

عبادة المؤسس (CULTE DU FONDATEUR) ، ١٨٨ وما بعدها

موقد (FOYER) . كان الموقد مذبحاً ، شيئاً مقدساً ، ٢٨ وما بعدها ؛ الشعائر المفروضة

. لرعاية النار المقدسة ، ٢٨-٢٩ ؛ لم يكن يستطيع تغيير مكان الموقد، ٧٩-٨٠ ؛

الأدعية التي كانت توجه إليه ، ٢٩-٣١ ؛ قدم هذه العبادة العتيقة ، ٣٣ ؛ صلتها

بعبادة الموقد ، ٣٧-٣٩ ؛ التأثير الذي كان لهذه العبادة على الأخلاق ، ١٢٢-

١٢٨ . الموقد العام أو الپريتانيون (*Prytanée*) ، ١٩٤ وما بعدها ؛ الموقد الذي

كان يتنقل مع الجيوش ، ٢٢٣ . عبادة الموقد تفقد دالتها ، ٤٧٤ وما بعدها .

مولى ، موالى (CLIENTS) . ماذا كانوا في البدء ، ١٤٦-١٤٩ ، ٣٢٠-٣٢٤ ؛

كانوا متميزين عن السوق ، ٣٢٥-٣٨٥؛ ٣٢٧ ؛ حالهم ، ٣٢٠ وما بعدها ،

٣٥٨ ؛ كانوا يمثلون في لجان الندوات ، ٣٢٣ ؛ سمائلتهم لموالى القرون الوسطى (*serfs*)

٣٥٨-٣٥٩ ؛ تحريرهم التدريجي ، ٣٥٧ ، ٣٦١ وما بعدها ؛ أصبحوا تدريجياً ملاكاً

للأرض ، ٣٥٩ ، ٣٦٢-٣٦٣ ؛ كيف أصبحوا ملاكاً في أثينا ، ٣٦٣-٣٦٨ ؛

كيف أصبحوا ملاكاً في روما ، ٣٧٠-٣٧٢ ؛ اختفاء طبقة الموالى الأولى ، ٣٦٣؛

٣٧٤-٣٧٥ ؛ محاولة طبقة البطارقة إعادتها على غير جدوى ، ٣٩٦-٣٩٨ .

موالى العصور المتأخرة ، ٣٦٨-٣٧٣ .

موندوس (MUNDUS) ، المعنى الخاص لهذه الكلمة ، ١٧٩-١٨٠ .

ميت ، عبادة الموتى (Culte des MORTS) ، عند جميع الشعوب القديمة ، ٢١-٢٢ ،

١٩٦-١٩٩ ، ٢٠٧ ؛ صلة هذه العبادة بعبادة الموقد ، ٣٧-٣٩ . - عبادة

الأبطال القوميين ، ١٩٦-١٩٩ . عبادة المؤسس ، ١٨٨-١٨٩ ، ٢١٤ .

عبادة أرواح الموتى ، انظر دايمونيس ؛ انظر مانيس .

ميراث ، انظر إرث ، وانظر أبليكاتيو

يوم ميلاد البلدان (Jour NATAL des villes) ، ١٨٢ .

النار المقدسة (FEU sacré) ، ٢٨ وما بعدها .

بيت النار (بريتانيون) (PRYTANEE) ، موقد المدينة ، ١٧٢ ؛ مماثل لمعبد فستا ، ١٩٤ .

سادن بيت النار (بريتانيوس) (PRYTANEE) . كان سدنة بيت النار كهنة ورجال

دولة في آن واحد ، ٢٤٤ ؛ سدنة بيت النار الأعضاء في مجلس الشيوخ ، ٤٤٤ .

نار ، انظر موقد .

نثار (LUSTRATIO) ، احتفال ديني ، ٢١٦ - ٢١٩ .

أيام النجس (JOURS NEFASTES أيام العطلة) عند الرومان وعند الاغريق ، ٢٢٠ ،

٢٢٢ ، ٣٠٤ - ٣٠٥ .

ندوة ، ندوات (كوريات) (CURIES) ، الندوات والأخويات ، ١٥٤ - ١٥٥ ، ١٥٧ - ١٥٨ .

نسيب ؛ النسباء (EUPATRIDES) ، مماثلون للبطارقة ، ٣١٩ ؛ نضالهم ضد الملوك ، ٣٣٨ ؛

حكمهم للمدينة ، ٣٣٩ - ٣٤٨ ؛ مهاجمة الطبقات الدنيا لهم ، ٣٦٣ - ٣٦٨ ،

٣٨٤ وما بعدها .

نشيد الزواج ، انظر هيمييه .

النصر (TRIOMPHE) ، احتفال ديني عند الرومان وعند الاغريق ، ٢٢٤ - ٢٢٥ ، ٣٠٢ .

نغل ؛ النغلاء (NOΘOI) ، من هم الذين كان يدرجهم القدماء في طبقة النغلاء ، ٢٥٩٥ ،

١٢٤ - ١٢٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٧ .

النفي (EXIL) . الحرمان من العبادة القومية والعبادة المنزلية ، شبيه بالنفي من الجماعة

(الحرمان من الكنيسة) ، ٢٧٢ - ٢٧٥ .

النفي باللائف ، انظر أوستراكيسموس .

نكسوم (NEXUM) ، ٣٩٧ - ٣٩٨ . (قانون بايريا ، ٤٢٣)

هركتوم (HERCTUM) ، انظر هر كوس .

هر كوس (EPKOS Herctum) ، نطاق المنزل المقدس ، ٨٠ - ٨١ .

هر كيبوس زفس (EPKEIOS ZE'YΣ) ، معبود منزلي ، ٨١ .

هستيا (ESTIA = Vesta) ، موقد ، ٢٨ - ٣٩ .

هلياستيس (HELIASTES) ، في أثينا ، ٤٤٩ هاشي ١ .

هوركيا تمنين (*OPKIA TEMNEIN*) *Σπένδισθαι* ، *ferire foedus* ، ٢٨٦ .

هوستيس (*HOSTIS*) . معنى هذه الكلمة ، ٢٦٤ هاشش ع ، لماذا اختلطت فكرة
أجنبي وفكرة عدو في البدء ، ٢٦٤ - ٢٦٨ .

هيمينية (*HYMENE*) ، نشيد مقدس ، ٥٧ - ٥٩ .

وارث لذاته وإلزامي (*HERES SUI ET NECESSARIUS*) ، معنى هذه الكلمة

في الشرع الروماني ، ٩٥ - ٩٦ .

الورع ، انظر اليبر

الوصية (*TESTAMENT*) . كانت الوصية مناقضة للفرائض الدينية القديمة وظلت مجهولة

زمنياً طويلاً ، ١٠٥ - ١٠٨ ؛ لم يسمح بها صولون إلا للذين يكن لهم أطفال ، ١٠٦ ،

٤٢٦ - ٤٢٧ ؛ الاجراءات الصعبة التي كانت تحاط بها في الشرع الروماني القديم ،

١٠٦ - ١٠٨ ؛ كان مسموحاً بها في اللوحات الاثنتي عشرة ، ٣٢٠ - ٣٢١ .

الوضيع ، الوضعاء (*THETES*) في أثينا ، ٣٦٣ - ٣٦٨ .

الوطن (*PATRIE*) ، معنى هذه الكلمة ، ٢٧١ ؛ ماذا كان حب الوطن في البدء ، ٢٧١ -

٢٧٥ ؛ ماذا أصبحت هذه العاطفة فيما بعد ، ٩٠ ع وما بعدها .

ولي ، الأولياء (*PATRONS*) ، ١٤٦ - ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٣٢٠ - ٣٢١ .

الولاية (*PROVINCIA*) . معنى هذه الكلمة ، ٥٠٣ . كيف كانت روما تدير الولايات ،

٥٠٢ وما بعدها . لم يكن لأهل الولاية شرع ما ، ٥٠٤ - ٥٠٦ .

جدول المواد

[illegible]

صفحة

- الفصل العاشر — الفصيلة (*gens*) في روما وفي بلاد الإغريق ١٢٩
- ١ — ما تعرفنا به الوثائق القديمة عن الفصيلة (*gens*). ١٣٠
- ٢ — مناقشة الآراء التي وضعت لتفسير الفصيلة الرومانية ١٣٤
- ٣ — لم تكن الفصيلة سوى الأسرة عندما كانت حافظة
لنظامها البدائي ووحدها ١٣٧
- ٤ — امتداد الأسرة ، الرق والولاء ١٤٣

الكتاب الثالث

المدينة

- الفصل الأول — الأخوية (*Phratric*) والندوة (*Curie*). القبيلة (*Tribu*) ١٥٣
- الفصل الثاني — عقائد دينية جديدة ١٥٩
- ١ — آلهة الطبيعة المادية ١٥٩
- ٢ — الصلة بين هذه الديانة وبين تطور المجتمع البشري ١٦١
- الفصل الثالث — نشأة المدينة ١٦٧
- الفصل الرابع — البلدة ١٧٦
- الفصل الخامس — عبادة المؤسس ؛ أسطورة إينياس ١٨٨
- الفصل السادس — آلهة المدينة ١٩٠
- الفصل السابع — ديانة المدينة ٢٠٩
- ١ — الأكلات العامة ٢٠٩
- ٢ — الأعياد والتقويم ٢١٤
- ٣ — الإحصاء والشار ٢١٦
- ٤ — الديانة في المجمع ، في مجلس الشيوخ ، في المحكمة ، في الجيش ، النصر ٢٢٠
- الفصل الثامن — الشعائر والحوليات ٢٢٧
- الفصل التاسع ... حكومة المدينة. الحراك ٢٣٦
- ١ — سلطة الملك الدينية ٢٣٦
- ٢ — سلطة الملك السياسية ٢٤٠

[illegible]

السفر الخامس

نظام البلديات يختفى

٤٧٣	عقائد جديدة ؛ الفلسفة تغير مبادئ السياسة وقواعدها	٤٧٣
٤٨٢	الفتح الروماني	٤٨٢
٤٨٥	١ - بضع كلمات عن نشأة روما وأهلها	٤٨٥
	٢ - توسعات روما الأولى (٧٥٥ - ٣٥٠ قبل الميلاد المسيحي)	٤٨٦
	٣ - كيف حصلت روما على الإمبراطورية (٣٥٠ - ١٤٠ قبل الميلاد)	٤٩٠
٤٩٩	٤ - روما تحطم النظام البلدي في كل مكان ...	٤٩٩
٥٠٦	٥ - الشعوب الخاضعة تدخل المدينة الرومانية على التوالي	٥٠٦
٥١٦	المسيحية تغير أحوال الحكومة	٥١٦
٥٢٥	جدول تحليلي	٥٢٥
٥٤٣	جدول المواد	٥٤٣
٥٤٧	تصويب الأغلاط المطبعية	٥٤٧

تصويب الأخطاء المطبعية

ملحوظة : اكتفينا في هذه القائمة بتصويب أهم الأخطاء المطبعية تاركين بعض الأخطاء التي تبدو لناظر القارىء لأول وهلة وبعض الأخطاء التي تتكرر مثل أنظر وصوابها انظر وإثنين وصوابها اثنين والأتروسك وصوابها الإيتروسك وذلك حتى لا نثقل على القارىء. المترجم .

هـ = هامش . س = سطر

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١	٤	الدكتوراه	الدكتوراه
٣	٩	المتشابهة	المتشابهة
	٢١	الحرية	الحرية
٥	٦	قورنته	قورنته
١٣	١٥ س ٣	rita	rite
	٢٥ س ١	٤٧٩	٤٦٣
١٤	١	كانوا . يفترضون	كانوا يفترضون
	٤	الكائنات	الكائنات
١٩	٤٥ س ٣	داراً	داراً
٢٩	١٤	مقبولاً عند	مقبولاً عند
٣٣	٤	»	»
٤	٤	ميراثاً	ميراثاً
	٦	البرهمانى	البراهمانى
٥٢	١١	الزوج	الزوج
٥	٣٥ س ٣	تيسوس	تيسوس
٦١	٨٥ س ٣	القانون	القانون
٦٧	٤	عواقيها	عواقبها
٦٨	١٥ س ١	(Thééthète)	(Théétète)
٧٩	١٣	بينه	بينه
٨١	٢	الاله	الاله
٨٣	٥	إثارة	أثارة
٨٦	٢	كانت	كان
٨٩	١	البرد	البرد
٩٢	١٥ س ١	ثيوفراطوس	ثيوفراطوس
٩٣	١٥ س ٨	التمييز	التمييز
٩٥	١٢	الزما	الزما

صفحة	سطر	خطأ	صواب
	١٩	<i>eres</i>	<i>heres</i>
٩٩	١٣	خير	خيراً
١٠٧	٧	الإبن	الابن
١٢٢	٢٠	إغريقى	إغريقى
١٣١	٢٥ س ٢	<i>Τριάκοντα ἑκαστοις</i>	<i>τριάκοντα ἑκάστοις</i>
١٣٨	٧	كانو	كانوا
١٥٤	٦	<i>hratrie</i>	<i>phratrie</i>
١٥٨	٣ س	<i>φυλοβασιλεύς</i>	<i>φυλοβασιλεύς</i>
١٦٢	١٧	جمهه	جمهرة
١٦٤	٦	طويلة	طويلاً
١٧٠	٢١	الوراثى	الوراثى
١٧٣	١ س ٥	أرخيوس	إرخيوس
	١٠ س	الراى معه لا	الرأى لا
١٩٢	١٥ س ١	المقلقلين	المقلقلون
١٩٤	١٥ س ١٧	أسبرطه	أسبرطه
١٩٨	١٤	قاط	قاطناً
٢٠٠	١٤	Pallas تتلقى	Pallas تحارب للاغريق ولدى الطرواديين بلاس أخرى تتلقى
٢٠٢	١٥	سيدتهما	سيدتيهما
٢٠٤	١٣	لواطليهم	لواطنيهم
٢٠٦	٢	أن	بأن
٢١٢	١	أوان	أوانى
٢١٧	١٠	بالتأكيد	بالتأكد
٢٢٢	١٧	بالإله	بالآلهة
٢٢٦	٤	Montesquiu	Montesquieu
٢٢٧	١٢	الزامية	إلزامية
٢٢٨	١٦	خارجة	خارجية
٢٣٦	٢٢	ارسطو	أرسطو
٢٣٧	١٧	الملك	الملك
٢٣٨	١	سيتيون	سيتييون
٢٤٠	١	الإله	الآلهة
٢٤٢	١٧	ولا. إيطاليا	ولا فى إيطاليا
	٢٠	غير	غير
٢٤٨	١٥ س ٦	Stéstmbrote	Stésimbrote

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٥٢	١١	إنها	إنها
٢٥٤	٤	الإعريق	الإعريق
٢٦١	١٨	أن	إن
٢٦٧	٢	نطاق	النطاق
٢٨٠	٨	ثيسيوس	ثيسيوس
	١٤	؛	؟
٢٨٥	٣	(٢)	(٢).
٢٩٠	١٧	التريوييه	التريوييه
٣٠٤	٩٧٦٤	ثيسيوس	ثيسيوس
٣٠٥	٢	Panathénéas	Panathénées
٣٠٦	٧	لديونيسيوس	لديونيسيوس
٣٠٨	٤	أسست المدينة ديانة ونظمت كنيسة	أسست المدينة ديانة ونظمت كنيسة أو تأسست المدينة على ديانة ونظمت على هيئة كنيسة
٣٢٩	١٧	تكن	يكن
٣٣٢	١٠	الأباء (patres)	الأباء (patres)
٣٣٣	١١	في البدء أنهم لم يسوا	أنهم لم يسوا في البدء
٣٣٨	٤	ديموشثينيس	ديموشثينيس
	٢١	منيسيثيوس	مينيسيثيوس
٣٤٠	١١	الشموثيت	الشموثيتاي
	١٥	أرخوس	أرخوس
٣٤٦	٢١٥	أن	إن
٣٤٩	٢٥	يد	يدر
		كان	كان
٣٥٠	٧	الحجرية ؛	الحجرية ،
٣٥١	٥	أوبويا	إوبويا
٣٥٧	٩	دنى	أدنى
٣٦٧	١٢	فى	وفى
	٣٢٥	بجيلة	بجيلة
٣٦٩	٣	كانو	كانوا
٣٧١	١	واحدة كافي أثينا دفعة	دفعه واحدة كما فى أثينا
٣٧٧	١٠	سطنها	سقطتها

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٨٠	٢	موقداً ؛	موقداً ،
	٦	للالة	للإله
٣٩٩	١٤	وإذ	وإذن
٤٠٢	١٨	القوانين	القوانين
٤٠٤	١٠	الماسى	الماضى
٤١٦	١٥ س ١	والسالى والفستالىين	والسالىين والفستالىس
٤١٧	٦	الذين	الذى
٤٢٣	٤	حسناً	حسناً
٤٢٤	٩	طبقتة	طبقتة
٤٣٨	١٦	مصالحه	مصالحه
٤٤٤	١٥ س ٦	هـ والأمثلة	والأمثلة
٤٥٤	١٢	أنه	إنه
	١٣	أن أن	إن إن
	١٨	؛	،
٤٥٧	٢٥	الحرب	الحزب
٤٥٨	٨	غيز	غير
٤٦٠	١٧	متساويين	متساوين
٤٦١	٨	الأخبار	الأخبار
٤٦٢	٥	تأنى	تأتى
٤٦٧	٦	نغيضاً	بغيضاً
٤٧٥	١٠	لتخلص	التخلص
	١٩	لا ريس	لاريس
٥٠١	١٢	ببت	بيت
٥٠٦	٤	يرأى	رأى
	٨	كن	يكن
٥٠٧	٢-٣	الكبير على على جميع	الكبير على جميع

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

الإشراف اللغوى : عبد الرحمن حجازى

الإشراف الفنى : حسن كامل



فوستيل دي كولانج المداينة العتيقة

لقد أصدر العالم "فوستيل دي كولانج" كتابه هذا عام ١٨٦٤م، وترجم إلى العربية بتكليف من إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية (التربية والتعليم) عام ١٩٥٠م. وعلى الرغم من مرور ما يقرب من قرن ونصف على تأليف هذا الكتاب وما يزيد عن نصف قرن على صدوره مترجماً، فإن أهميته للقارئ العام والمتخصص لم تتضاءل، بل أصبح من العلامات الفارقة التي تحتاج إلى إعادة طبعها والحفاظ عليها من الاندثار. لقد قام المجتمع العتيق على عقيدة، عندما تبدلت مَرَّ المجتمع بسلسلة من الانقلابات، وعندما اختفت تغير وجه المجتمع. كان ذلك قانون الأزمنة العتيقة التي بهرنا المؤلف وهو يأخذنا في جولة خلالها من مكان إلى مكان آخر ومن فترة إلى أخرى، معتمداً في كل ذلك على وفرة من المصادر القديمة تجمع بين الأدب والفلسفة والخطب ومؤلفات المؤرخين، وأشعار تجمع بين الشعر الدرامي (كوميديا وتراجيديا) والشعر الملحمي بل وحتى شعر الهجاء، في محاولة منه لمزج الماد التاريخية، التي قد يراها البعض جافة، بما يضيف عليها مزيداً من العمق والمتعة، وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد.